الكاتب الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز

جو هيل
JOE HILL

نوسفراتو

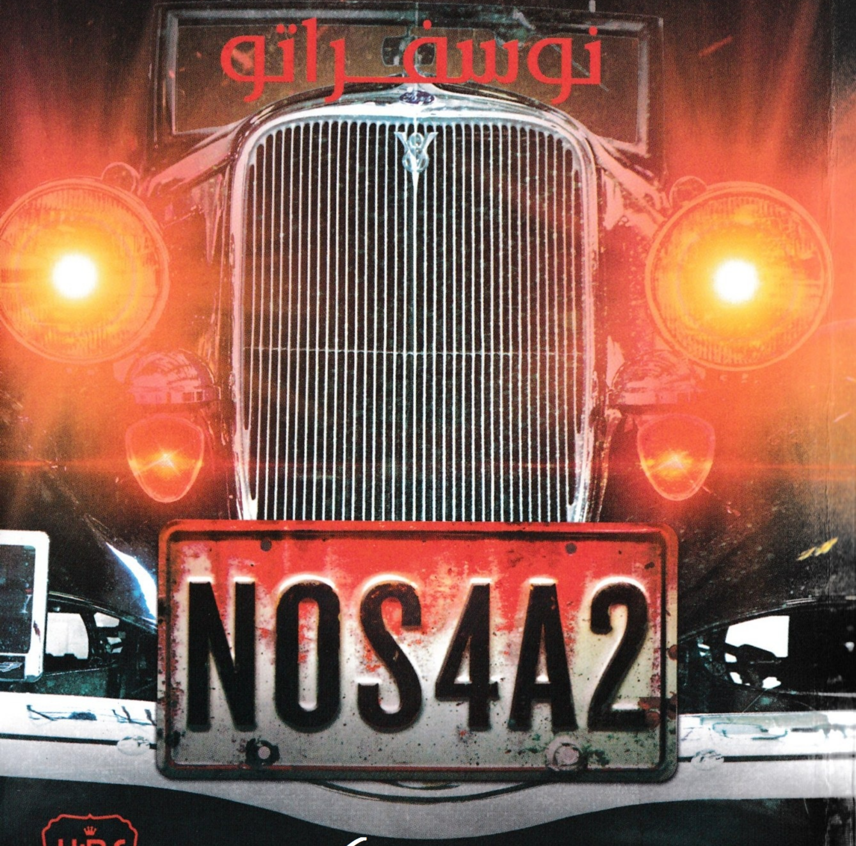

عصير الكتب

مكتبة ياسين

رواية

ترجمة: شيرين هنائي

NOS4A2

لفيكتوريا مَكوين مهارةٌ غريبةٌ في العثور على الأشياء؛ سوار مجهول المكان، صورة مفقودة، إجابات عن أسئلة ليس لها إجابة. حين تركب دراجتها وتَعبُر الجسر المُغطَّى العتيق في الغابة خلف منزلها، تجد نفسها فورًا في المكان الذي تريد.

ولتشارلي تالينت مانكس موهبتُه الخاصة. هو يحب اصطحاب الأطفال في جولات بسيارته الرولز رويس الشبح موديل 1938، التي تحمل لوحتها حروف NOS4A2. في أثناء الرحلة، ينام الركاب الصغار على الطُّرق المخفية العجيبة، حتى يصلوا إلى مدينة الملاهي الرائعة المُسماة أرض الكريسماس. تغيرهم الرحلة عَبْر طُرقٍ من خيال مانكس الملتوي، وتحولهم إلى مخلوقاتٍ لا يمكن الوقوف أمامها، مثلهم كمثل صانعهم.

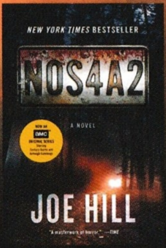

حتى جاء اليوم الذي خرجت فيه فيكتوريا بحثًا عن المتاعب، فعثرت على مانكس. وكان هذا منذ زمن، لكن الطفلة التي اختطفها مانكس حينها قد كبرت، وتجاهد كي تنسى لقاءهما الأول، لكن تشارلي مانكس لم يتوقف عن التفكير في فيكتوريا مكوين، ولن يتوقف قبل أن ينتقم منها فيما لا تملك أعز منه، ولا يمكنها تعويضه.

يتصاعد بينهما صراع الحياة أو الموت، وتستعد فيكتوريا مكوين للتخلص من تشارلي مانكس للأبد... أو تموت وهي تحاول.

غلاف: عبد الرحمن الصواف

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

NOS4A2

مكتبة ياسمين

اشترك معنا امسح QR

اضغط الصفحة اتبع الرابط

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

- العنوان الأصلي: NOS4A2
- العنوان العربي: نوسفراتو
- طُبِع بواسطة: William Morrow & Company

- حُقوق النشر: copyright © 2013 by Joe Hill

- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م

- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: شيرين هنائي
- تحرير: محمد الجيزاوي
- تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 13304/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-277-5

مؤدب

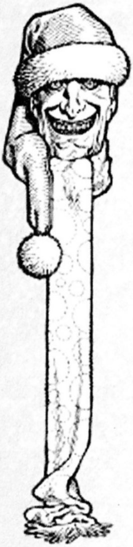

مشاغب

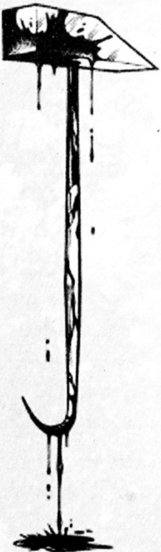

فالموت يرتحل سريعًا

لينور[1]

جوتفريد برجر

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(1) قصيدة لينور (تُكتب أحيانًا ليونورا - ليونور - إلينور) للشاعر الألماني جوتفريد أوجست برجر، هي قصيدة قوطية كتبت عام 1773 وأثرت في قصص مصاصي الدماء التي تلتها. تدور القصيدة حول لينور التي لم يعد حبيبها من الحرب، فتبدأ بالتفوه بكلمات الكفر والاعتراض على الموت. في ليلة يأتيها غريب وهو حبيبها الذي عاد من الموت ويطلب منها مرافقته على صهوة جواده إلى فراش زواجهما. تلاحظ لينور أن الجواد سريع بشكل غير طبيعي، فيخبرها حبيبها: «فالموت يرتحل سريعًا». (المترجمة)

مقدمة

تحيات موسمية

ديسمبر 2008

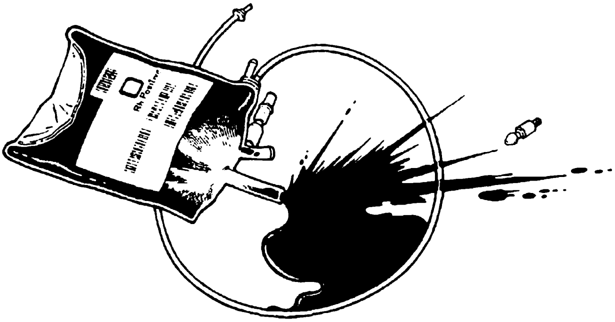

مؤسسة إنجلوُد الإصلاحية الفيدرالية
كلورادو

وصلت الممرضة ثورنتون إلى جناح العناية طويلة الأجل قبل الساعة الثامنة بقليل، ومعها كيس دم لتشارلي مانكس.

كانت تعمل بطريقة آلية؛ لم يكن تفكيرها مُنصبًّا بالكامل على عملها. كانت قد قررت أخيرًا أن تشتري لابنها چوزيا جهاز نينتيندو الجديد الذي أراده، وراحت تفكر إن كان في وسعها أن تمر على متجر «تويز آر أص» بعد انتهاء ورديتها، وما إن كانت ستصل قبل موعد الإغلاق.

ظلت تقاوم نزوة ابنها عدة أسابيع وحاولت إقناعه بالعدول عنها. هي حقًّا لا تعبأ إن كان لدى كل أصدقائه جهاز نينتيندو، فلا تعجبها فكرة أجهزة ألعاب الفيديو المحمولة تلك، التي يأخذها الأولاد معهم إلى كل مكان. أبغضت إلين ثورنتون الطريقة التي يختفي بها الصغار داخل تلك الشاشات المضيئة، مُتخلِّين عن العالم الحقيقي إلى أرض خيالية حيث يُستبدل بالتفكير المتعة وفن خلق طرق إبداعية جديدة للقتل.

كانت تحلم بأن تحظى بطفل يحب الكتب ولعب أحجيات الكلمات، ويتوق إلى مرافقتها إلى رحلات التزلج على الجليد. يا لها من حمقاء.

تمسكت إلين بقرارها قدر ما استطاعت، حتى صادفت چوزيا جالسًا على فراشه عند الظهيرة، يلعب بمحفظة قديمة متخيلًا أنها جهاز نينتيندو، وقد قص صورة دونكي كونج[1] ودسها أسفل الجزء الشفاف من المحفظة، وراح

---

(1) Donkey Kong: شخصية غوريلا كرتونية مصممة لإحدى ألعاب نينتيندو. (المترجمة)

يضغط أزرارًا وهمية ويصدر أصوات انفجارات. آلمها قلبها وهي تشاهده يتخيل امتلاكه شيئًا يوقن أنها ستشتريه له كونه هدية عيد الميلاد المجيد.

يمكن أن تحتفظ إلين بنظرياتها حول ما يصلح للصبية وما لا يصلح، سانتا كلوز ليس مجبرًا على الاقتناع بها.

لأنها كانت مشغولة الذهن، لم تلاحظ الاختلاف الذي طرأ على تشارلي مانكس حتى انحنت على فراشه كي تتمكن من الوصول إلى حامل المحاليل. زفر كأنما قد ملَّ، فنظرت إلى أسفل لتراه يحدق إليها. فزعها أن رأت عينيه مفتوحتين حتى إنها أفلتت كيس الدم وكادت تُسقطه تحت قدميها.

كان شنيعًا، دميمًا. صلعته العظيمة ككرة مُغلفة بخريطة قمر غريب، قاراته بقع كبِديَّة[1] بنية.

من بين كل الرجال في جناح العناية طويلة الأجل -المعروف باسم عنبر الخضراوات- ثمة شيء شنيع في تشارلي مانكس وعينيه اللتين انفتحتا في هذا الوقت من العام.

أحب مانكس الأطفال، وقد أخفى العشرات منهم في التسعينيات. كان لديه منزل عند سفح جبال فلاتيرونز حيث يفعل ما يشتهي بهم ثم يقتلهم، ويعلق زينة عيد الميلاد في ذكراهم. أطلقت الصحف على هذا المكان بيت زلاجة سانتا كلوز.

على الأغلب كانت إلين تنحي أمومتها جانبًا وهي في عملها، وتُبعد عن تفكيرها ما فعله تشارلي مانكس بالأولاد والبنات الصغار الذين صادفوه. أطفال في مثل عمر ابنها چوزيا. كانت إلين لتتناسى أحكامها لو أن ذلك كان في استطاعتها. المريض عند الجهة القصية من الجناح كان قد أوثق صديقته الحميمية وطفليها وأشعل النار في المنزل ثم تركهم يحترقون. ألقوا القبض عليه في حانة عند نهاية الشارع وهو يشرب ويسكي بوشميلز ويشاهد مباراة فريق وايت سوكس ورَينجرز. لا تعرف كيف قد يساعدها الخوض في مثل هذه التفاصيل، لذا فقد علمت نفسها أن تعتبر أن مرضاها ما هم إلا امتداد للأجهزة الطبية وأكياس المحاليل الموصولة إليهم. مجرد ملحقات من لحم ودم.

---

(1) LIVER SPOTS: بقع بُينة قد تصيب بعض كبار السن. (المترجمة).

طيلة فترة عملها في مؤسسة إنجلوُد الإصلاحية الفيدرالية، في وحدة السجن المُشدد، لم تر تشارلي مانكس مفتوح العينين من قبل. التحقت بفريق التمريض منذ ثلاث سنوات كان فيها غائبًا في غيبوبته طيلة الوقت. هو أكثر مرضاها هشاشةً. غلاف من الجلد الرقيق يحوي بداخله عظامًا. مِرقاب القلب يومض بأبطأ سرعة ممكنة. يقول الأطباء إن نشاط مخه لا يجاوز نشاط علبة من الذرة المهروسة. لم ينجح أحد قط في تحديد عمره، لكنه بدا أكبر سنًّا من كيث ريتشاردز[1]. بل إنه يشبه كيث ريتشاردز... نسخة صلعاء عن كيث ذات أسنان صغيرة حادة بُنية.

هناك ثلاثة مرضى آخرين في الجناح وكلهم في غيبوبة لن يفيقوا منها. يطلق عليهم العاملون اسم «أوع» وهو أول حروف كلمات عبارة «ألله وحده العالم». حين تعاشرهم كثيرًا، ستدرك أن كل «أوع» لديه عاداته الغريبة. دون هنري، الرجل الذي أحرق فتاته وطفليها حتى الموت، يتمشَّى أحيانًا. بالطبع هو لا يغادر فراشه، إنما تتحرك قدماه ببطء تحت الملاءة كأنما يسير. ثمة رجل آخر يدعى ليونارد بوت وهو في غيبوبة منذ خمسة أعوام، ولن يفيق منها أبدًا، فقد رشقه سجين آخر بمفتاح اخترق جمجمته إلى مخه مباشرة. لكنه أحيانًا ما يجلي حنجرته، وقد يصيح: «أعرف!» وكأنه طفل يريد إجابة سؤال المعلم. ربما فتح العينين هي عادة مانكس الغريبة، لكنها لم تره يفعلها من قبل.

قالت إلين بشكل آلي: «مرحبًا سيد مانكس. كيف حالك اليوم؟».

ابتسمت ابتسامة بلا معنى وترددت وهي بعد تحمل كيس الدم الدافئ. لم تتوقع منه ردًّا، لكنها رأت أن تراعي شعوره وتمنحه لحظات يجمع فيها شتات أفكاره المعدومة. حين لم ينطق بشيء، مدت يدها وأغلقت جفنيه.

قبض على رسغها. صرخت رغمًا عنها وأسقطت كيس الدم، فارتطم بالأرض وانفجر في دفقة قرمزية أغرق رذاذها الدافئ قدميها.

صاحت: «يَع! يَع، يَع! أوه، يا ربي!».

رائحته كحديد صُب للتو.

- ابنك چوزيا...

---

(1) موسيقي إنجليزي من مواليد 1943 وما زال على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور. (المترجمة)

قالها تشارلي مانكس بصوت خشن، ثم أضاف: «له مكان في أرض الكريسماس، برفقة الأطفال الآخرين. في مقدوري منحه حياة جديدة. في مقدوري منحه ابتسامة جميلة جديدة. في مقدوري منحه أسنانًا جميلة جديدة».

سماعه ينطق اسم ابنها كان أبشع من قبضته على رسغها ومن الدماء على قدميها. قالت لنفسها: *دماء نظيفة.. نظيفة*. سماع صوت هذا الرجل المُدان بالقتل والتحرش بالأطفال إذ ينطق باسم ابنها أصابها بالدوار. دوار حقيقي كأنما هي في مصعد زجاجي ينطلق إلى السماء بينما تهوي الأرض مبتعدة من تحت قدميها.

همست: «اتركني».

- ثمة مكان لچوزيا جون ثورنتون في أرض الكريسماس، ومكان لك في بيت الزلاجة. رجل قناع الغاز يعرف تمامًا ما سيفعل بك. سيقدم لك دخان كعك الزنجبيل ويعلمك كيف تحبينه. لن يمكنني أخذك معنا إلى أرض الكريسماس. أو ربما يمكنني ذلك، لكن رجل قناع الغاز أفضل لك. رجل قناع الغاز رحمة.

صرخت إلين: «النجدة!».

لكن صرختها لم تكن سوى همسة، فقد ضاع منها صوتها.

- انجِدوني.

- لقد رأيت چوزيا في مقبرة الممكن. چوزيا سيركب الشبح، وسيكون سعيدًا للأبد في أرض الكريسماس. لن تفسده الدنيا هناك، لأنه لن يكون في الدنيا. سيكون في عقلي. كلهم آمنون في عقلي. أتعرفين؟ لطالما كنت أحلم بها، أرض الكريسماس. كنت أحلم بها، وأمشي طويلًا لكنني لا أبلغ نهاية النفق. أسمع الصغار يغنون، ولا أستطيع الوصول إليهم. أسمعهم ينادونني، لكن النفق لا ينتهي. أحتاج إلى الشبح. أحتاج إلى ركوبتي.

انزلق لسانه خارج فمه، بُنيًّا، لامعًا، قبيحًا. بلل شفتيه المشققتين وأطلق سراح رسغها.

همست: «النجدة. النجدة. النجدة!».

اضطرت أن ترددها مرة أو اثنتين قبل أن تقولها بصوتٍ عالٍ يسمح لأي شخص بسماعها. ثم راحت تتخبط عابرة الأبواب إلى الردهة، تهرول بحذاءَيها المسطحين الرقيقين، وتصرخ بكل ما أوتيت من قوة، مُخلفة وراءها آثارًا قانية من الدماء على الأرض.

بعد عشر دقائق، جاء شرطيان مُزودان بعُدة مكافحة الشغب، وأوثقا مانكس إلى فراشه في حال فتح عينيه مرة أخرى أو حاول النهوض، لكن الأطباء الذين عاينوه لاحقًا أمروا بفك وثاقه.

- هذا الرجل في فراشه منذ عام 2001، وعلينا أن نغير وضع جسده أربع مرات يوميًّا كي نقيه من قُرَح الفراش. حتى لو لم يكن «أوع»، فهو أضعف من أن يذهب إلى أي مكان. بعد سبعة أعوام من ضمور العضلات أشك في قدرته على الجلوس وحده.

كانت إلين تسمع ما يقال من مكانها جوار الباب. لو أن مانكس فتح عينيه مرة أخرى فقد خططت أن تكون أول من يفر من الغرفة. حين سمعت تصريح الأطباء، خطت إلى داخل الحجرة بساقين متصلبتين، وشمَّرت عن رسغها لتُظهر الكدمات التي تسببت فيها قبضة مانكس.

- هل يبدو لكم أن من تسبب في هذه الكدمات رجل أضعف من أن يجلس دون مساعدة؟ لقد ظننت أنه سيخلع ذراعي من مفصلها.

قدماها كانتا تؤلمانها مثلما يؤلمها رسغها. كانت قد خلعت جوربيها الطويلين الغارقين بالدماء وظلت تحك قدميها تحت الماء الحار بالصابون المطهر حتى تسلَّخ جلدها. تخلصت من جوربيها في القمامة، فحتى لو كان في الإمكان إنقاذهما فهي لا تتخيل أنها ستستطيع ارتداءهما مرة أخرى.

نظر إليها الطبيب الشاب الهندي باتِل نظرة خجلة معتذرة، وانحنى يضيء الكشاف في عينَي مانكس. لم تضِقْ حدقتاه. قرَّب باتِل الضوء وأبعده مرارًا، لكن عينَي مانكس ظلتا مثبتتين عند نقطة ما خلف أذن باتِل اليسرى. ضرب الطبيب كفيه بالقرب من أنف مانكس، لكن الأخير لم يرمش.

أغلق باتِل عينَي مانكس برفق، وراح يفحص قراءة رسم القلب الذي يجرونه له، ثم قال: «لا يوجد هنا ما يختلف عن عشرات تخطيطات القلب السابقة. المرضى الذين يسجلون تسعًا على مقياس جلاسجو، يُظهرون

نشاطًا بطيئًا لموجات ألفا المميِّزة لغيبوبة ألفا. أظنه كان يتكلم في أثناء نومه فقط، وقد يحدث هذا مع من هم في حالته».

قالت: «عيناه كانتا مفتوحتين، ونظر إليَّ مباشرة. هو يعرف اسمي واسم ابني».

قال باتِل: «ألم تتحدثي قط بالقرب منه مع واحدة من الممرضات؟ ألم تذكري أي شيء قد يلتقطه الرجل في غيبوبته؟ ربما قلتِ لزميلتك: «لقد فاز ابني في مسابقة تهجِّي الكلمات»، وقد سمعك مانكس، وردد ما قلتِ خلال حلم يحلمه».

أومأت، متفكرة. هو يعرف *اسم چوزيا الأوسط*. وهو ما تثق أنها لم تتحدث عنه قط في المستشفى. ثمة مكان لچوزيا جون ثورنتون *في أرض الكريسماس*. هكذا قال لها تشارلي مانكس. *ومكان لك في بيت الزلاجة*.

- أنا لم أعلق له كيس الدم. لقد كان يعاني فقر الدم طيلة الأسبوعين الماضيين، وقد التقط عدوى في مجرى البول بسبب القسطرة. سأحضر له كيسًا جديدًا.

- لا تعبئي لذلك. سأجلب لمصاص الدماء العجوز دماءه. اسمعي، لقد أفزعك للغاية. انسي ما حدث وعودي إلى بيتك. ماذا تبقى لك من وردية اليوم؟ ساعة؟ اعتبريها إجازة. بل يمكنك أن تعتبري غدًا أيضًا إجازة. أليس لديك ما تتسوقينه لأجل عيد الميلاد المجيد؟ أنجزي ما تأخرتِ عنه، وانسي كل هذا واسترخي. لقد حل موسم الأعياد أيتها الممرضة ثورنتون.

غمز لها الطبيب ثم أضاف: «ألا تعرفين أنه أروع أوقات السنة؟».

طريق مُختصر

1989-1986

هافِرهيل، ماساتشوستس

كانت المشاكسة في الثامنة من عمرها حين عبرت الجسر المغطى الذي يصل بين المفقود والموجود.

ما حدث كان كالتالي: كانوا قد عادوا للتو من رحلتهم إلى البحيرة، وكانت المشاكسة في حجرة نومها، تُعلق ملصقًا للممثل ديفيد هاسِلهَف، يظهر فيه مرتديًا سترة جلدية سوداء، ويبتسم بتلك الطريقة التي تُظهر K.I.T.T غمازتي خديه، وهو عاقد ذراعيه واقفًا أمام السيارة.

وقتها سمعت انتحاب وصرخة صدمة آتية من جهة حجرة نوم والديها.

كانت المشاكسة تضع قدمها على ظهر فراشها، وتسند الملصق إلى الحائط بصدرها بينما تثبت أركانه بشريط لاصق بُني. تجمدت على هذا الوضع وأمالت رأسها مُنصتةً بلا قلق، فقط كانت تتساءل لمَ تصرخ أمها الآن. بدت لها كأنما فقدت شيئًا.

صاحت الأم: «... كان معي، والآن لا أجده!».

سألها كريس مَكوين: «هل خلعتِه قبل أن تنزلي البحيرة بعد ظهر أمس؟».

- قلت لك إنني لم أسبح.

- ربما خلعتِه قبل أن تضعي كريم السُّمرة.

ظلا يروحان ويجيئان بين تلك الافتراضات المتشابهة، وقررت المشاكسة أن تتجاهلهما.

المشاكسة، هي ڤيكتوريا بالنسبة إلى مدرسة الصف الثاني، وڤيكي بالنسبة إلى أمها، لكنها تظل المشاكسة بالنسبة إلى أبيها وهو الاسم الأقرب لقلبها. ڤيكي في سن الثامنة لكنها لم تكن تنزعج لفوَرات أمها. عواصف

ضحكات ليندا مَكوين وصيحات خيبة أملها المبالغ فيها كانت الموسيقى التصويرية لحياة المشاكسة اليومية، ونادرًا ما كانت تستحق الملاحظة.

فردت الملصق بعناية وأنهت تثبيته، ثم خطت للخلف تنظر إليه في إعجاب. ديفيد هاسِلهَف الرائع. كانت قد عقدت حاجبيها في محاولة لتبيُّن ما إذا كان الملصق مائلًا، حين سمعت بابًا يُصفَق ثم صوت صيحة مكروبة -أمها مرة أخرى- تقول: «سألتكَ إن كنتَ قد تحققتَ من الحمام، وقلتَ لي إنك فعلت. قلتَ إنك تحققت من كل شيء. هل تحققت من الحمام أم لا؟».

قال أبوها: «لا أعرف. لا.. ربما لم أفعل. لكن هذا لا يهم لأنك لم تتركيه في الحمام يا ليندا. هل تعرفين لماذا أنا موقن أنك لم تتركي سوارك في الحمام؟ لأنك تركته على الشاطئ أمس. أنت وريجينا روزون استلقيتما تحت الشمس مع دلو من المارجاريتا، وثملتما حتى نسيتِ أن لديك ابنة، وغفوتما، وعندما استيقظت وأدركت أنك ستتأخرين ساعة على موعد أخذها من المخيم الصباحي...».

- أنا لم أتأخر ساعة.

- ... لقد غادرتِ مذعورة ونسيت كريم السُّمرة، ومنشفتك، ونسيت سوارك أيضًا، والآن...

- ولم أكن ثملة كذلك إن كان هذا ما تُلمِّح إليه. أنا لم أقُد السيارة مع ابنتك وأنا ثملة يا كريس. هذا هو اختصاصك...

- ... والآن تصبين عليَّ خراءك المعتاد وتزعمين أن فعلتك هي خطأ شخص آخر.

بالكاد أدركت المشاكسة أنها تتحرك، تجول وسط ظُلمة الصالة الأمامية، مُتجهة إلى حجرة والديها. كان الباب مواربًا بمقدار نصف قدم، كاشفًا عن شريحة من فراش والديها وفوقه حقيبة السفر، وقد أُخرِجت الملابس منها وتناثرت على الأرض. المشاكسة تعرف أن أمها -في خضم فورة غضب- قد أخرجت محتويات الحقيبة واحدة تلو الأخرى وراحت ترميها في كل اتجاه بحثًا عن السوار المفقود، وهو على شكل حلقة ذهبية مثبت إليها مجسم فراشة مرصع بالياقوت الأزرق اللامع والألماس.

راحت أمها تذرع الحجرة، وكل بضع ثوانٍ تظهر لعينَي المشاكسة من خلال الفتحة التي تنظر من خلالها.

- ليس لهذا علاقة بما حدث بالأمس. أخبرتك أنني لم أفقده على الشاطئ. لم أفقده هناك. كان جوار الحوض هذا الصباح، جوار الأقراط بالضبط. لو لم يكن في الاستقبال فواحدة من خادمات الغرف قد أخذته. هذا ما يفعلنه دومًا لدعم دخلهن. يستولين على أيٍّ مما يتركه المصطافون.

صمت والد المشاكسة برهة، ثم قال: «يا يسوع! يا لك من إنسانة خبيثة النفس. كيف نتشارك ابنة واحدة؟».

أجفلت المشاغبة وتزايدت الحرارة خلف عينيها، لكنها لم تبكِ. عضت شفتها تلقائيًّا، وغاصت أسنانها فيها مُطلقةً وخزة ألم حبست دموعها.

لم تُبدِ أمها مقاومةً مثلها، وبدأت تنتحب. دخلت مجال نظرها مرة أخرى وكفها تغطي وجهها، وكتفاها متهدلتان. لم ترغب المشاكسة في أن يراها أحدهما، فتراجعت إلى الصالة.

أكملت طريقها إلى الممر عابرة بحجرتها، ثم اتجهت إلى الباب الأمامي. فكرة أن تمكث في البيت صارت لا تطاق. هواء المنزل راكد؛ لقد ظل مكيف الهواء مغلقًا مدة أسبوع، وكل النباتات قد ماتت وانتشرت رائحة العطن.

منذ أن تفوه أبوها بعبارته الفظيعة: «يا لك من إنسانة خبيثة النفس»، صارت وجهتها محتومة، لم تكن تعرف إلى أين تذهب حتى وصلت المرأب وعبرت بابه الجانبي وأخرجت دراجتها من نوع «رالي تَف برنر»، التي كانت هدية عيد ميلادها في مايو. ببساطة هي هدية عيد ميلادها المفضلة على الإطلاق... الآن وللأبد. حتى حين تبلغ الثلاثين ويسألها ابنها عن أفضل هدية جاءتها، ستتذكر على الفور اليوم الذي حصلت فيه على «رالي تَف برنر» بلونها الأزرق المضيء وحوافها الصفراء وإطاراتها السميكة.

كانت أفضل ما تملك، أفضل من كرة الثمانية السحرية[1]، ولعبة ملصقات «كيس كلوفوروم»، وحتى أفضل من لعبة فيديو «كوليكو فيچين».

كانت قد رأت الدراجة بصحبة والدها في نافذة عرض متجر «برو ويلز» في وسط المدينة قبل ثلاثة أسابيع من عيد ميلادها. أطلقت صيحة إعجاب بها، فدخل أبوها على الفور إلى المتجر وطلب من صاحبه أن يسمح لها بركوبها في جولة داخل صالة العرض. شجعها البائع على إلقاء نظرة على

---

(1) كرة تشبه كرات البلياردو بحجم أكبر، كان يستخدمها الصغار في الماضي في قراءة الطالع. (المترجمة)

الدراجات الأخرى، «تَف برنر» كانت كبيرة عليها حتى لو أخفضوا المقعد إلى أقل ارتفاع. لم يكن لديها فكرة عما يتكلم الرجل، فقد كان الأمر مثل السحر، مثل أن تركب مكنسة وتقطع ظُلمة الهالوين على متنها، على ارتفاع آلاف الأقدام.

تظاهر أبوها أنه موافق على اقتراح البائع وأخبر ڤيكي أنها قد تحصل على دراجة مشابهة حين تكبُر. بعد ثلاثة أسابيع، كانت الدراجة أمام المنزل، مربوطة برباط هدايا فضي.

قال لها أبوها وهو يغمز: «لقد صرتِ أكبر الآن، أليس كذلك؟».

تسللت ڤيكي إلى المرأب حيث تقف دراجتها مرتكنة إلى الحائط جوار دراجة والدها، التي لم تكن دراجة عادية، بل بخارية سوداء من طراز «هارلي ديفيدسن» 1979، لا يزال يذهب بها إلى العمل في الصيف. أبوها مختص تفجيرات، يعمل مع طاقم طُرق يفجرون التلال والمرتفعات باستخدام متفجرات قوية مثل نترات الأمونيوم الممزوجة بالوقود، وأحيانًا ثلاثي نترو التولوين الصافي. كان قد حكى لڤيك في مرة أن الرجل الذكي يبحث عن طريقة للاستفادة بعاداته السيئة، وحين سألته عما يعني، أجابها أن أغلب من يعملون في تفكيك المتفجرات ينتهي بهم الأمر ممزقين، أما في حالته فهو يكسب ستين ألف دولار سنويًّا من المتفجرات، وفي حال لم يستطع النجاة بنفسه فلديه تأمين ضخم على الحياة. خنصره وحده يساوي عشرين ألفًا لو فقده في أثناء التفجير.

دراجة والد ڤيك البخارية مرسوم عليها صورة لشقراء جذابة ترتدي ملابس البحر بألوان علم أمريكا، وهي تمتطي قنبلة، على خلفية من رسم للهب. والد ڤيك مشاكس صعب المراس. الآباء الآخرون يبنون، بينما هو يفجر ويفر على ظهر دراجته البخارية، وهو يدخن سيجارته. رجل لا يُعلى عليه.

مسموح للمشاكسة أن تركب دراجتها على الممرات عند شارع غابات بيتمان، وهو الاسم غير الرسمي لفدان الصنوبر والبلوط والبتولا، الطويل كشريط ممتد خلف باحة منزلهم الخلفية. كان مسموحًا لها أن تبتعد بقدر امتداد نهر ميريماك والجسر المُغطى، ثم عليها أن تدور بعدها وتعود.

تمتد الغابة على الجهة الأخرى من الجسر المغطى -يعرف كذلك باسم جسر الطريق المُختصر- لكن ڤيك كانت ممنوعة من عبوره. عمر الطريق

المُختصر سبعون عامًا، وطوله ثلاثمائة قدم، وقد بدأ يتهدَّل من المنتصف، ومالت حوائطه الحاملة أسفل النهر، وبدا كأن أي ريح قوية قد تهدمه.

هناك سلسلة قوية تحظر عبور مدخل الجسر، ورغم ذلك فقد أزاحها الشباب من زاوية واحدة وعبروها كي يدخنوا الحشيش ويتضاجعوا. مكتوب على اللافتة الصفيحية عند السور «أعلنت شرطة هافِرهيل أن الجسر غير آمن»، وصار الجسر ملاذًا للمنحرفين، والمنبوذين، والمخبولين.

لقد زارت المكان بالطبع (ولا تعليق عن إلى أي فئة من المذكورين تنتمي)، ولم تعبأ لتحذيرات والدها أو للافتة التحذيرية. تحدَّت نفسها أن تعبر من أسفل الحاجز وتسير عشر خطوات، ولم يكن التراجع عن التحدي من شيم المشاكسة، حتى تلك التحديات التي وضعتها لنفسها. *خاصة* التحديات التي وضعتها لنفسها.

درجة الحرارة هناك أقل خمس درجات، وثمة فجوات بين ألواح الأرضية تبين المياه المندفعة تحتها التي تبعد مائة قدم عنها. هناك ثقوب كذلك في السقف الورقي الأسود تسمح بمرور أشعة الشمس المحملة بالغبار. الوطاويط تختلس النظرات الثاقبة عبر الظلام.

السير عبر النفق المظلم الطويل الذي لا يعبر فقط من فوق النهر، بل يعبر الموت كذلك، جعل أنفاس ڤيك تتسارع. كانت في الثامنة، وكانت تؤمن أنها أسرع من أي شيء، ومن سرعة انهيار الجسر نفسها.

لكن إيمانها تزعزع قليلًا وهي تسير بخطوات صغيرة فوق الألواح العتيقة المتآكلة. لم تسِر فقط عشر خطوات، بل عشرين. لكن مع أول صوت فرقعة، قفزت كالأرنب وهرولت عائدة، ثم عبرت من أسفل السلسلة، شاعرة أن قلبها يسد حنجرتها ويكاد يخنقها.

الآن تقود دراجتها عبر الباحة الخلفية، وسرعان ما انحدرت بها، وراحت تتمايل فوق الجذور المكشوفة والصخور، متجهة إلى الغابة.

ابتعدت عن منزلها، وغاصت مباشرة إلى إبداعات عقلها من قصص مسلسل «السائق نايت»(1).

---

(1) Knight Rider: مسلسل تلفزيوني شهير من بطولة ديفيد هاسِلهَف ويؤدي فيه دور مايكل نايت. (المترجمة)

تخيلت نفسها في موسم «السائق نايت 2000»، وهي تركب معه، ويحلقان بنعومة تحت الأشجار على طول الطريق، بينما يتحول لون نهار الصيف إلى لون الشفق المصفر. كانا في مهمة لاستعادة شريحة إلكترونية تحوي الأماكن السرية لكل واحد من مستودعات الصواريخ الأمريكية. الشريحة مخبأة في سوار أمها، جزء من الفراشة المرصعة، وقد صُنعت لتبدو مثل الألماس. لقد حصل المرتزقة على السوار وينتوون بيع المعلومات التي تحويها لمن يدفع أكثر. ربما إيران، أو روسيا أو حتى كندا.

ڤيك ومايكل نايت يقتربان من مخبأ المرتزقة عبر طريق خلفي، وقد أراد مايكل أن تعده ڤيك ألا تورطهما في أفعال لا لزوم لها، وألا تكون طفلة حمقاء، فتسخر منه رافعة عينيها إلى أعلى. إلا أن كليهما كان يفهم مقتضيات الحبكة، وأنها في لحظة ما لا بد وأن تتصرف كطفلة حمقاء، وتعرض حياتيهما للخطر وتجبرهما على مناورات مستميتة للهروب من الأشرار.

لكن كل هذا السرد لم يكن مُرضيًا لها. فمن الواضح مثلًا أنها لا تركب سيارة، بل دراجة تتقافز فوق الجذور، بينما تبدِّل بساقيها سريعًا حتى تُبعد عنها البعوض. بالإضافة إلى أنها غير قادرة على الاسترخاء والتمادي في أحلام يقظتها كعادتها. ظلت تفكر فيما قاله والدها. *يا لك من إنسانة خبيثة النفس*. باغتها شعور قلَّص معدتها بأنها حين تعود إلى المنزل سيكون أبوها قد رحل.

أحنت المشاكسة رأسها وبدَّلت أسرع، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتجاوز هذا الخاطر المريع.

تخيُّلها التالي أنها كانت على الدراجة.. دراجة والدها البخارية وتلف ذراعيها حول جذعه، وهي ترتدي الخوذة التي اشتراها لها، الخوذة الكاملة السوداء التي توحي لها أنها ترتدي خوذة رجال الفضاء. كانا عائدين إلى بحيرة وينيبيسوكي ليستعيدا سوار أمها. سيفاجئها به. ستصرخ أمها حين تراه في يد والدها، وسيضحك الأخير ويلف ذراعه حول خصر ليندا مَكوين ويقبِّل خدها، ويزول خلافهما.

شقَّت المشاكسة أشعة الشمس الوامضة تحت الأغصان المتراكمة. كانت قريبة كفاية من الطريق 495 كي تسمع هدير محركات الشاحنات ذات الإطارات الثمانية عشر، والسيارات، وحتى زئير دراجة بخارية تتجه إلى الجنوب.

حين أغمضت عينيها، صارت على الطريق السريع، تستمتع بوقتها وبخفة الدراجة إذ تميل عند المنعطفات. لم تلاحظ أنها كانت وحدها على الدراجة البخارية في خيالها، وكانت شابة، كبيرة كفاية لإدارة مقبض الوقود بنفسها.

سوف تُخرسهما. سوف تعود بالسوار وتلقيه أمامهما على الفراش وتخرج من الحجرة دون كلمة واحدة، وتتركهما يحدقان إلى بعضهما بعضًا في حرج. لكن سيطر على خيالها الدراجة البخارية، وتهورها في قطع الأميال بينما يفر آخر ضوء للنهار من السماء.

انتقلت من كآبة رائحة التنوب إلى الطريق الترابي الواسع المتجه إلى الجسر. يسميه المحليون «المُختصر». كلمة واحدة وافية.

حين اقتربت من الجسر، رأت السلسلة مفكوكة، والحاجز السلكي المشدود بين عمودين مُلقى على التراب. المدخل -الذي يتسع بالكاد لمرور سيارة- مؤطَّر بدغل من اللبلاب المتمايل على أثر التيار المنبعث من اندفاع ماء النهر. خلفه نفق مستطيل يمتد إلى مربع من ضوء باهر، كأنه يُفضي إلى وادٍ من قمح ذهبي، أو وادٍ من ذهب.

للحظة، أبطأت سرعتها. كانت في حالة من السِّنة وقد غابت طويلًا في خيالها، فلم تفكر في قرار المُضي قُدُمًا واجتياز المدخل إلى الظلام. التوقف الآن يعتبر جُبنًا لن تعترف به. على صعيد آخر، هي تؤمن بالسرعة، فلو أن الألواح بدأت تنهار من تحتها، فستزيد سرعتها وتستمر في الاندفاع فرارًا من الأخشاب العفنة قبل أن تتداعى. لو أن هناك شخصًا في الظلام -مخبول يود لمس فتاة صغيرة- فستتجاوزه سريعًا قبل أن يتحرك حتى.

فكرة تهشم الأخشاب، أو ملاحقة مخبول ملأت قلبها بذعر مُحبب بدلًا من أن تحجِّم اندفاعها، فانطلقت تُبدل بكل همتها. فكرت كذلك في رضًا وهدوء أنه في حال تداعي الجسر وسقوطه في الماء من على ارتفاع عشرة طوابق، وتهشمت عظامها على الحطام، سيكون هذا بسبب شجار والديها الذي أخرجها من المنزل، وهذا سيعلمهما درسًا. سوف يفتقدانها بشدة، وسيُمرضهما الحزن والشعور بالذنب، لكن هذا سيكون نتيجة أفعالهما.

رنَّت السلاسل تحت إطاريها، ثم غاصت ڤيك في جوف الظلام الذي يعبق برائحة العفن والوطاويط.

حين دخلت، رأت شيئًا مكتوبًا برذاذ أخضر على الجدار عن يسارها. لم تُبطئ لتقرأه، لكنها ظنت أنها رأت اسم تيري، وكان هذا غريبًا لأنهم تناولوا غداءهم في مطعم يحمل الاسم نفسه. مطعم «تيري بريمو سَبس» في هامبتِن، هناك في نيو هامبشير عند البحر. كان هذا هو المكان الذي اعتادوا أن يتوقفوا فيه لتناول الغداء في طريق عودتهم من بحيرة وينيبيسوكي، وهو يبعد قرابة نصف ميل عن هافِرهيل والبحيرة.

الصوت صار أغرب داخل الجسر المُغطى. كانت تسمع النهر أسفلها بمائة قدم، لكن الصوت الذي تسمع كان أبعد عن صوت اندفاع الماء، وأقرب إلى صوت تشويش المذياع. لم تنظر إلى الأسفل، خشيت أن ترى الفجوات المعتادة بين الألواح. لم تنظر حتى إلى يمينها أو يسارها، فقط ركزت نظرها عند نهاية الجسر.

عبرت خيوط الضوء الأبيض، وحين مرت خلال غلالة البريق، شعرت بها في عينها اليسرى كأنها ضربة خفيفة، وأحست بالأرضية تتداعى، وسيطر على عقلها كلمتان: *أكاد أصل، أكاد أصل*، وهي تحاول السيطرة على الوقت.

تمدد المربع البراق عند نهاية الجسر وازداد توهجه، وشعرت في اقترابها بلهيب مميت ينبعث من المخرج. لسبب غير مفهوم شمَّت رائحة كريم التسمير وحلقات البصل المقلية، ولم يخطر ببالها كذلك سبب عدم وجود بوابة عند الطرف الآخر من الجسر.

عبَّت ڤيك مَكوين -المعروفة بالمشاكسة- جرعة هائلة من الهواء ثم خرجت من الطريق المُختصر إلى ضوء الشمس، وتمايل الإطاران وتقافزا من الخشب إلى الأرضية الأسفلتية. انقطع فجأة صوت التشويش وكأنها بالفعل كانت تستمع إلى المذياع ثم ضغط أحدهم زر إطفائه.

اندفعت بضعة أقدام أخرى حتى عرفت أين هي. انقبض قلبها في صدرها قبل أن تقبض كفيها على المكابح. توقفت فجأة فدار الإطار الخلفي حول نفسه وانزلق على الأسفلت ناثرًا التراب.

توقفت عند بناية من طابق واحد في حارة مُعبَّدة. صفائح قمامة تستند إلى سور مستودع النفايات عن يسارها. نهاية الحارة مغلقة بحاجز أبيض عالٍ، ووراءه طريق ما. استطاعت ڤيك أن تسمع صوت عبور السيارات من خلفه مختلطًا بصوت أغنية تنبعث من إحداها.

أبرا... أبرا كَدبرا.. أريد أن أمد يدي وأمسك بك...[1].

فطنت ڤيك على الفور أنها في المكان الخاطئ، لقد عبرت الطريق المُختصر كثيرًا، ونظرت عبر ضفاف ميريماك على الجانب الآخر حتى صارت تعرف جيدًا كيف هو المنظر هناك. مجرد تل مغطى بالأشجار الخضراء الباردة الهادئة، بلا طرق ولا محال ولا حارات. أدارت رأسها وكادت تصرخ.

جسر الطريق المُختصر يملأ فم الحارة من خلفها، محشورًا بين البناية ذات الطابق الواحد والبناية البيضاء الأسمنتية بواجهتها الزجاجية. لم يعد الجسر يعبر نهرًا، بل صار مندسًّا في مكان بالكاد يتسع له. ارتعدت ڤيك لمرآه. حين نظرت عبر ظلامه استطاعت أن ترى على بُعد الظلال الزمردية لغابات شارع بيتمان على الجهة الأخرى.

نزلت ڤيك عن دراجتها على ساقين مرتجفتين. سحبت دراجتها نحو سور المستودع وأسندتها إليه. وجدت نفسها تفتقر إلى الشجاعة الكافية للتفكير في ماهية الطريق المُختصر.

تفوح الحارة برائحة الطعام المقلي الذي بدأ يفسد في حرارة الشمس. أرادت بعض الهواء النقي، فعبرت بجوار باب سلكي يفضي إلى مطبخ صاخب يعبق بالبخار، ثم وصلت إلى الحاجز الأبيض العالي. فتحت الباب الجانبي وسارت على رصيف ضيق تعرفه جيدًا كانت تقف عليه منذ ساعات.

حين نظرت إلى اليسار رأت الشاطئ يمتد على عرض المحيط، والأمواج تلتمع ببريق ضوء الشمس المؤلم. أولاد في زي السباحة يتقاذفون قرص فريسبي، ويقفزون ليلتقفوه فيسقطوا على الكثبان. السيارات تقف في صف متلاصق على طول الطريق. انعطفت عند الزاوية على ساقين رخوتين ونظرت إلى اللافتة فوق نافذة البيع وقرأت:

---

(1) Abracadabra: أغنية لفريق ستيف ميلر. (المترجمة)

مطعم تيري بريمو سَبس - شاطئ هامبتون، نيو هامبشير

عبرت ڤيك جوار صف من الدراجات البخارية الواقفة أمام واجهة المطعم، وطلاء الكروم على هيكلها يتلهب تحت شمس بعد منتصف الظهيرة.

هناك صف من الفتيات يقفن أمام نافذة تلقِّي الطلبات. فتيات يرتدين السراويل القصيرة فوق زي السباحة ويضحكن ضحكات مبتهجة. كم كرهت ڤيك أصواتهن التي تشبه صوت تهشم الزجاج.

دخلت المطعم، فرن جرس معلق فوق الباب.

نوافذ المطعم كلها مفتوحة، وعدد من مراوح المكتب تنفخ الهواء من خلف الكاونتر تجاه المناضد، ومع كل هذا ما زال الجو صهدًا بالداخل. تتدلى من السقف شرائط من لاصق صيد الحشرات، ترفرف مع النسيم. لا تحب المشاكسة النظر إلى شرائط صيد الحشرات، ولا إلى الحشرات الملتصقة بها التي تجاهد كي تفر حتى تموت مكانها، بينما يدس الناس شطائر البرجر في أفواههم تحتها مباشرة. لم تلاحظ وجود تلك الشرائط حين تناولت الغداء مع والديها هنا في الصباح.

شعرت بالدوار كأنها كانت تعدو هنا وهناك بمعدة ممتلئة في منتصف قيظ أغسطس. يقف رجل ضخم خلف ماكينة الدفع مرتديًا فانلة داخلية. كتفاه مشعرتان قرمزيتان من أثر حروق الشمس. ثمة بطاقة معلقة إلى ملابسة مكتوب عليها اسمه: بيت. الرجل كان هنا منذ الصباح، فقد وقفت ڤيك وراء أبيها كريس مَكوين وهو يدفع له ثمن وجبات البرجر ومخفوق الحليب. تحدث الرجلان وقتها عن فريق ريد سوكس ومهاراته، فعام 1986 بدا لهما

أنه العام الذي ربما يتخلص فيه الفريق من اللعنة التي تلازمه، كليمنز[1] كان يكنسهم كنسًا، ولم يتبقَّ في عقد سي واي يَنج[2] ما يزيد على شهر.

استدارت ڤيك نحو الرجل، لا لسبب سوى أنها تعرَّفته، ثم بعدها تسمَّرت أمامه تحدق إليه بلا فكرة عما ستقوله. المروحة تهدر خلف ظهر بيت، وتحمل إليها رائحة رطوبته البشرية. كلا، هي حقًّا لا تشعر أنها بخير.

كانت على وشك البكاء وقد استحوذ عليها شعور غير مألوف بقلة الحيلة. كانت هنا، في نيو هامبشير حيث لا يصح أن تكون. جسر الطريق المُختصر عالق في الحارة خلفها، وهي السبب بشكل ما. كان والداها يتشاجران ولا فكرة لديهما عن مدى ابتعادها عنهما. يجب أن يقال لهما كل هذا وأكثر. يجب أن تتصل بالمنزل. يجب أن تتصل بالشرطة. على أحد أن يذهب ويلقي نظرة على الجسر في الحارة. خواطرها مضطربة مُمرِضة، وعقلها مكان مُنفر، نفق حالك يضج بالأصوات المُشتِّتة والوطاويط.

وفَّر عليها الرجل الضخم عناء البحث عن بداية لحديثها. عقد حاجبيه لمرآها وهتف: «ها أنتِ ذي. لقد كنت أتساءل إن كنت سأراك مرة أخرى. عُدتِ من أجله، أليس كذلك؟».

حدقت إليه ڤيك بنظرة خاوية وسألته: «عُدت؟».

- لأجل السوار. السوار ذي الفراشة.

دس مفتاح في درج النقود، فانفتح مصدرًا صوت رنين، وكشف عن سوار أمها بداخله.

حين رأته ڤيك، سرت رعدة أخرى في ساقيها وأطلقت تنهيدة مرتعشة. للمرة الأولى تشعر بما يشبه الفهم منذ سلكت جسر الطريق المُختصر ووجدت نفسها في نيو هامبشير بشكل مستحيل.

لقد خرجت باحثة عن سوار أمها في خيالها، وبشكل ما وجدته. هي لم تخرج على دراجتها قط، وربما لم يتشاجر والداها من الأساس. ثمة تفسير واحد لوجود الجسر المحشور في الحارة. لقد عادت إلى بيتها تعاني ضربة شمس وإرهاقًا، وببطن مملوء بمخفوق الحليب، غاصت في النوم على فراشها

---

(1) ويليام روجر كليمنز: لاعب بيسبول. (المترجمة)

(2) دينتون ترو يَنج: لاعب بيسبول. (المترجمة)

وهي الآن تحلم. وبهذا التفسير، وجدت أن أفضل ما تفعله هو أخذ سوار أمها ثم العودة عبر الجسر حتى تستيقظ في لحظة ما.

شعرت بضربة ألم خفيفة مرة أخرى خلف عينها اليسرى. صداع يتسلل داخلًا إلى رأسها. صداع قوي. هي لا تذكر أبدًا أنها عانت صداعًا في أحلامها من قبل.

قالت المشاكسة: «شكرًا لك».

ناولها بيت السوار عبر الكاونتر. أضافت: «أمي كانت قلقة حقًّا بشأنه. هو ثمين للغاية».

دس بيت خنصره في أذنه ولفَّه في الاتجاهين وهو يقول: «قلقة حقًّا، هه؟ يبدو أنه يعني لها الكثير».

- كلا. أعني، نعم... هو كذلك. هو سوار جدتها، جدتي الكبرى. لكني كنت أعني أنه باهظ الثمن أيضًا.

- أها...

قالت المشاكسة وهي لا تعلم سبب محاولتها إقناعه أن السوار ثمين: «هو أثري».

- السوار يكون أثريًّا فقط حين يعني شيئًا لصاحبه، وإلا فهو لا يمثل إلا مجرد شيء مجهول.

- لكنه مصنوع من الألماس! الألماس والذهب.

ضحك بيت ضحكة كالنباح، فأكدت: «هو كذلك!».

- كلا. هو مجرد سوار زينة مرصع بأشياء كالألماس، ما اسمها؟ زيركونيا. وانظري إلى داخل السوار لتري المعدن يتحول إلى لون فضي. الذهب لا يحول لونه. الثمين يظل ثمينًا مهما ينَل منه الزمن.

التقى حاجباه في تعبير متعاطف غير متوقع وهو يسألها: «هل أنت بخير؟ لا تبدين كذلك...».

- أنا بخير. لقد تعرضت للشمس فترة طويلة.

وكان قولها يليق بشخص بالغ لا طفلة. هي لم تكن بخير. كانت تشعر بالدوار وساقاها ترتجفان. تريد أن تخرج مبتعدة عن العطر المختلط المكون

من رائحة عرق بيت وحلقات البصل والدهن الساخن. تريد أن ينتهي هذا الحلم.

سألها بيت: «هل أنت واثقة أنك لا ترغبين في أن أحضر لك مشروبًا باردًا؟».

- شكرًا. لقد شربت مخفوق الحليب عندما كنت هنا من أجل الغداء.

قال بيت: «لو أنك شربت مخفوق الحليب فأنت لم تشتره من هنا. ربما من مَكدونالدز. نحن لا نبيع سوى العصير بالثلج المجروش».

- يجب أن أرحل.

استدارت وهرعت نحو الباب. شعرت ببيت يراقبها باهتمام، وكانت شاكرة لتعاطفه. تفكر في أنه رغم نتانته وتصرفاته الغريبة هو رجل صالح من النوع الذي يهتم بفتاة مُتعبة وحيدة على شاطئ هامبتن. رغم ذلك لم تجرؤ على أن تقول له شيئًا آخر.

نضحَ عرق الغثيان فوق شفتيها وصدغيها باردًا، وقد احتاجت إلى وقت طويل حتى تهدأ رجفة ساقيها. آلمتها عينها اليسرى مرة أخرى، لكنه ألم أخف هذه المرة. حُكمها كان أنها ببساطة تحلم بزيارتها لمطعم «تيري» وأنها عالقة في هذا الحلم تحديدًا، ويصعب عليها التحكم فيه كأنما تحاول أن تقبض على ضفدع.

خطت ڤيك خارجة، وسارت بخفة فوق الرصيف الساخن جوار الدراجات البخارية المصطفة بمحاذاته. فتحت الباب في الحاجز الأبيض العالي، ودلفت إلى الحارة خلف المطعم.

لم يتحرك الجسر من مكانه. المدخل محشور بين مبنيَين. يؤلمها النظر إليه مباشرة، وتؤلمها عينها اليسرى.

أحد العاملين في المطعم -ربما هو طاهٍ أو منظف أطباق- يقف في الحارة جوار المستودع مرتديًا مريولًا ملوثًا بالدهن والدم. أي مَن ينظر إلى هذا المريول سيفقد شهيته تمامًا للأكل في المطعم. هو رجل ضئيل ذو بشرة باهتة تظهر الأوردة من تحتها، وذراعه موشومة. كان يحدق إلى الجسر في تعبير بين الذعر والتكذيب.

قال الرجل: «ما شأن ابن العاهرة...؟».

نظر نظرة حائرة إلى ڤيك وأردف: «هل ترين هذا يا صغيرة؟ أعني... أي ابن عاهرة هذا؟».

- هذا جسري. لا تقلق. سآخذه معي.

هي نفسها لم تكن واثقة بمعنى ما قالت.

قبضت على مقود دراجتها وأدارتها، ثم دفعتها نحو الجسر. عدت جوارها خطوتين ثم اعتلتها. ضرب الإطار الأول ألواح الجسر، ثم غاصت في الظلام.

الصوت.. التشويش الاستاتيكي اللعين يتعالى بينما تمخر الدراجة «الرالي» تحملها عبر الجسر. تسمع صوت النهر من تحتها، لكنه لم يكن كذلك. ترى شقوقًا على الحوائط، ولأول مرة توليها انتباهًا. من خلالها لمحت ضوءًا باهرًا كأن أضخم تلفاز في العالم يقبع على الجهة الأخرى من الحائط، ولا يذيع سوى صورة قناة خالية. هبت عاصفة تحت الجسر المتهالك، ثم سطع البرق. شعرت بالألواح تتمايل بخفة، وضربت الشآبيب الحوائط.

أغلقت عينيها، ولم ترغب في أن ترى أي شيء. وقفت على البدالات وراحت تُسرع نحو الجهة الأخرى. جربت تعويذتها -*أكاد أصل.. أكاد أصل*- لكنها كانت أكثر إرهاقًا وتشتتًا من أن تحفظ خاطرًا واحدًا في عقلها. لم يبقَ إلا صوت لهاثها والطنين الهادر الغاضب، وصوت خرير الماء اللانهائي. الأصوات تتعالى حتى تصل إلى حد يثير الجنون، ثم تتزايد أكثر حتى كادت تصرخ فيها أن تصمت. خرجت الكلمة من شفتيها: كفى.. كفى.. كفى.. تَعُبُّ رئتاها الهواء لتتمكن من الصراخ، حتى اصطدمت الدراجة بنهاية الجسر وبداية طريق العودة.

هافِرهيل، ماساتشوستس.

انقطع الصوت منتهيًا بفرقعة إلكترونية. شعرت بتلك الفرقعة في رأسها، مباشرة خلف صدغها الأيمن، كانفجار حاد صغير.

قبل أن تفتح عينيها حتى، أدركت أنها عادت إلى بيتها. ليس بيتها تحديدًا، لكنها على الأقل عادت إلى *غابتها*. تعرفت عليها من رائحة الصنوبر وإحساس الهواء البارد النظيف المميز لمحيط نهر ميريماك. تسمع الخرير بعيدًا، رقيقًا، لا يشبه في شيء ذلك التشويش المزعج.

فتحت عينيها ورفعت رأسها، ثم أزاحت شعرها بعيدًا عن وجهها. تراقص ضوء نهاية النهار من بين أوراق الشجر فوقها في ومضات غير منتظمة. ضغطت المكابح فأبطأت الدراجة، وأنزلت قدمها إلى الأرض.

أدارت ڤيك رأسها في نظرة أخيرة عبر الجسر إلى شاطئ هامبتن، وتساءلت إن كانت تستطيع رؤية الرجل ذي المريول المتسخ، لكنها لم تستطع رؤيته لأن جسر الطريق المُختصر قد اختفى. لم يتبقَّ منه سوى الدرابزين الذي كان موصولًا بمدخل الجسر، ومن خلفه الأرضية منحدرة، تتدلى إلى قناة النهر داكنة الزرقة.

ثلاثة أعمدة خرسانية مشققة مقوسة من أعلى تنبثق من قلب الماء الهادر... هذا هو كل ما تبقى من جسر الطريق المُختصر.

***

لم تفهم ڤيك. لقد عبرت الجسر للتو وشمَّت رائحته العتيقة العطنة، وخشبه المكوي بلهيب الشمس، ونتانة بول الوطاويط، وسمعت قرقعة أخشاب الأرضية تحت إطارات دراجتها.

آلمتها عينها اليسرى، فحكَّتها بكفها وفتحتها مرة أخرى، وللحظة ظنت أنها رأت الجسر مكانه. رأته، أو ظنت أنها رأت، صورة انطباعية عنه، بريق ما يشبه شكل الجسر يمتد حتى الطرف الآخر من الضفة.

لكن الصورة لم تدُم، وراحت عينها اليسرى تسكب الدمع، فتشتتت عن تعجبها مما حدث للجسر. لم تحتج في حياتها إلى العودة إلى بيتها مثل ما تحتاج الآن، إلى بيتها وفراشها وبرودة أغطيتها.

ركبت دراجتها، لكنها لم تستطع أن تُبدل أكثر من بضع ياردات قبل أن تستسلم. نزلت عنها ثم دفعتها وسارت جوارها مُتأرجحة الشعر، وسوار أمها يلتف واسعًا حول معصمها المتعرق، بالكاد تلاحظ وجوده.

دفعت ڤيك الدراجة عبر عشب الباحة الخلفية المصفر جوار ألعاب الحديقة التي لم تعد تلعب بها، حتى صدأت سلاسل الأرجوحة. تركت دراجتها عند المدخل ثم دخلت. حين سمعت صوتًا بسيطًا من اتجاه المطبخ، مالت لترى مَن هناك.

كان أبوها واقفًا وعلبة خمر في يد، ويده الأخرى تحت الماء الجاري في الحوض، يديرها أسفل الصنبور.

لم تكن ڤيكي واثقة بمقدار الوقت الذي غابته، ولم تُفِدها قراءة الساعة فوق الموقد الكهربي التي ظلت تومض بأرقام 12:00 مرارًا كأنها معطلة. كانت الأنوار مُطفأة، والمطبخ باردًا بظلال العصر.

قالت بصوت قلق بالكاد تعرَّفته: «أبي؟ كم الساعة؟».

نظر إلى الساعة فوق الموقد، ثم هز رأسه وقال: «لا أعرف. التيار الكهربي انقطع منذ خمس دقائق تقريبًا. أعتقد أن الشارع كله...».

لكن حين التفت إليها، رفع حاجبيه متسائلًا: «ما بك؟ هل أنت بخير؟».

ثم أغلق الصنبور وأمسك بخرقة يجفف بها كفيه مردفًا: «لا تبدين بخير».

ضحكت بصوت مجهد خالٍ من المرح وقالت: «هذا ما قاله لي بيت».

بدا صوتها منبعثًا من بعيد... من الناحية الأخرى من الجسر.

- من بيت؟

- بيت، من شاطئ هامبتن.

- ڤيك؟

- لا بأس.

حاولت بلع ريقها لكنها عجزت؛ كان ظمؤها يؤلمها رغم أنها لم تشعر به إلا عندما رأت أباها واقفًا هناك ممسكًا بمشروبه البارد. أغلقت عينيها لحظةً، ورأت زجاجة عصير جريب فروت باردة يكسوها البخار المتكاثف، صورة دفعت كل خلية في جسدها إلى الرغبة فيها.

- أنا فقط ظمأى. هل لدينا أي عصير؟

- آسف يا صغيرة. البراد خالٍ تقريبًا. والدتك لم تشترِ البقالة بعد.

- هل هي راقدة؟

- لا أعرف.

ولم يُضِف «ولا أعبأ» إلى عبارته، لكنها سمعتها في نبرة صوته. قالت ڤيك وهي تخلع السوار وتضعه على طاولة المطبخ: «أوه. حين تخرج من حجرتها، أخبِرها أنني وجدت سوارها».

أغلق باب البراد ونظر خلفه، وتحركت عيناه إلى السوار ثم إليها وسألها: «أين...؟».

- في السيارة. بين المقاعد.

أظلم المطبخ، كأن الشمس غابت خلف كتلة سحاب ضخمة...

وضع أبوها كفه على وجهها، اليد التي تحمل علبة الخمر، فقد جرح مفاصل أصابعه في شيء.

- يا يسوع. أنت تشتعلين أيتها المشاكسة. يا ليندا!

- أنا بخير. سأستلقي لدقائق.

ولم تقصد أن تستلقي في مكانها والآن. الخطة كانت أن تذهب إلى حجرتها ثم تتمدد تحت ملصق ديفيد هاسِلهَف الرائع، لكن ساقاها خذلتاها فتهاوت. أمسك بها أبوها قبل أن تقع على الأرض، ورفعها في الهواء واضعًا ذراعًا تحت ساقيها والأخرى خلف ظهرها، ثم نقلها إلى الصالة.

نادى كريس مَكوين مرة أخرى: «ليندا!».

خرجت ليندا من حجرة نومها وهي تضغط منشفة مبللة على ركن فمها. شعرها أشعث وعيناها زائغتان من أثر النوم. دقَّقت النظر فرأت المشاكسة محمولة على ذراعَي زوجها.

قابلتهما عند مدخل حجرة ڤيك. مدت ليندا أصابعها الرفيعة تزيح شعر ڤيك عن جبينها، وضغطت كفها على جبهتها. كف ليندا باردة ناعمة، لمستُها أرعشت جسد ابنتها رعشة مرض وراحة في الوقت نفسه. لم يعد والدا ڤيك متخاصمين، ولو أن المشاكسة عرفت أن مرضها قد يعيدهما لبعضهما بعضًا، لكانت صرفت النظر عن عبور الجسر ودسَّت إصبعها في حلقها.

- ماذا حدث لها؟

قال كريس: «فقدت الوعي».

همست المشاكسة: «كلا. لم أفقد الوعي».

قال أبوها في إعجاب ظاهر: «محمومة وتهاوت على الأرض ومع ذلك تجادلني».

أنزلت أمها المنشفة التي تضعها على ركن فمها وقالت: «ضربة شمس. ثلاث ساعات في السيارة، ثم خرجت على دراجتها بلا واقي شمس ولا مشروب طيلة النهار سوى الحليب المخفوق النتن عند تيري».

قالت ڤيك: «يسمونه عصيرًا بالثلج المجروش في مطعم تيري. هل جرحتِ فمك؟».

لعقت أمها ركن شفتها المتورمة وقالت: «سأجلب زجاجة ماء وقرصَي إيبوبروفين لكلتينا».

قال كريس: «لمَ لا تجلبين سوارك بينما أنت في المطبخ؟ هو على المنضدة».

كانت ليندا قد خطت خطوتين قبل أن تستوعب ما قاله زوجها. نظرت خلفها. كريس مَكوين يقف عند باب حجرة ڤيك، يحملها بين ذراعيه. تستطيع ڤيك أن ترى ديفيد هاسِلهَف فوق فراشها يبتسم إليها، يكاد يكبح رغبة في أن يغمز لها. *لقد فعلتها يا صغيرة.*

قال كريس: «كان في السيارة. المشاكسة وجدته».

البيت

نامت ڤيك.

كانت أحلامها عبارة عن ومضات لصور غير مترابطة: قناع غاز على أرض أسمنتية، كلب ميت على جانب الطريق ورأسه مسحوق، غابة من الصنوبر الشامخ مسكونة بملائكة بيضاء عمياء.

الصورة الأخيرة كانت واضحة غامضة إلى حد مريع. تلك الأشجار المظلمة التي يصل طولها إلى ستة أقدام تتمايل وسط الريح كراقصين ثملين في احتفال وثني، والملائكة تضوي وتبرق على أغصانها... ولكم أرادت ڤيك أن تصرخ.

حاولت أن تصيح بأي شيء، لكن لم يخرج من حنجرتها أي صوت. كانت عالقة تحت اكتساح الظلال، وجبال من مادة ناعمة خانقة. جاهدت لتحفر طريقًا إلى الخارج، تدفع باستماتة، تتخبط بعزم قوتها الغاضبة الضعيفة للإفلات، حتى وجدت نفسها فجأة تجلس على الفراش، وجسدها غارق في العرق. والدها جالس على حافة الفراش يمسك بمعصميها.

- ڤيك. ڤيك، اهدئي. لقد لطمتِني بقوةٍ تُدير رأسي. تعقَّلي، أنا أبوك.

- أوه!

تركها، فهوت ذراعاها إلى جانبيها.

- آسفة.

أمسك فكه بين إبهامه وسبابته وحرَّكه إلى الجانبين ثم قال: «لا بأس. ربما أستحق».

- لأجل ماذا؟

- لا أعرف. لأي شيء. لكل منا ذنوبه.

مالت ولثمت خده الخشن. قال: «يبدو أن حرارتك قد انخفضت. أتشعرين بتحسن؟».

هزت كتفيها، افترضت أنها تحسنت بالفعل إذ خرجت من تحت أكوام الظلام ومن غابة أحلامها بأشجارها الخبيثة.

- أنت بالفعل خرجت منها. يبدو أنك لم تسمعي نفسك.
- ماذا قلت؟
- في لحظة ما كنت تصيحين أن الوطاويط خرجت من الجسر. أعتقد أنت كنت تقصدين برج الناقوس كما في الكنائس.
- أجل. أعني.. لا، لا. على الأغلب كنت أقصد الجسر.

نسيت ڤيك لوهلة أمر الطريق المُختصر.

- ماذا حدث للجسر يا أبي؟
- الجسر؟
- المُختصر. الجسر المغطى القديم. لقد زال كله.
- أوه. سمعت أن ابن عاهرة أحمق عبره بسيارته فانهار أغلب الجسر القديم، وتحول ما تبقى منه إلى أنقاض. لذا كنت أحذرك من المرور فوق هذا الشيء اللعين. كان عليهم أن يزيلوه منذ عشرين عامًا.

ارتجفت ڤيك. أضاف والدها: «انظري إلى حالك. أنت مريضة ككلب».

تذكرت حلمها عن الكلب مسحوق الرأس، وأضاء العالم من حولها ثم أظلم.

عندما انجلى نظرها، رأت أباها يحمل دلوًا مطاطيًّا أمام صدرها.

- لو أنك أكلت ما أتعبك، حاولي تقيؤه. إلهي، لن آخذك إلى مطعم تيري مرة أخرى.

عادت إليها رائحة عرق بيت، والشرائط اللاصقة المغطاة بالحشرات، فتقيأت.

خرج أبوها حاملًا دلو القيء، ثم عاد بزجاجة ماء مثلج. شربت ثلاث جرعات، وكان الماء باردًا حتى إنه أصابها بنوبة رعدة جديدة. أحكم كريس

الغطاء حول جسدها مرة أخرى، ثم لف ذراعه حولها وجلس جوارها في انتظار زوال الرجفة.

لم يتحرك. لم يتكلم. مجرد وجوده جوارها هدَّأ من روعها، ومشاركته الصمت المُطمئن أرسلها إلى نوم عميق.. أو ربما رحلة أخرى. حين أغلقت عينيها شعرت كأنما تعتلي دراجتها مجددًا وتغوص إلى عمق السكينة والهدوء.

قام والدها، رغم كونها واعية كفاية لتدرك ذلك، فأصدرت صوت احتجاج ومدت يدها إليه، فابتعد وهمس: «ارتاحي قليلًا يا ڤيك. سوف تعودين إلى دراجتك سريعًا».

انجرفت بعيدًا.

جاءها صوته من بعيد وهو يغمغم: «أنا حزين لأنهم هدموا المُختصر».

قالت وهي تستدير في فراشها متخلية عن وجوده: «ظننت أنك تكرهه، وتصورت أنك تخشى أن أقود دراجتي عليه».

- هذا صحيح. كنت مرتعبًا. لكني كنت أعني أنني حزين لأنهم هدموه دوني. لكن لو كنت حاضرًا لفجَّرت هذا الشيء إلى عنان السماء. تمنيت لو أنهم يولونني تلك المهمة. لطالما كان هذا الجسر فخ موت. الجميع يعرفون أنه سيقتل أحدهم يومًا ما، أنا فقط مسرور أنه لم يقتلك. نامي أيتها الصغيرة.

أماكن عديدة

نُسي أمر السوار المفقود خلال أشهر قليلة، وحينما كانت ڤيك تتذكره، فإنها تتذكر أنها وجدته في السيارة. لم تفكر في المُختصر، وصارت ذكرى رحلتها عبر الجسر مجرد مشاهد لها سمتُ الهلوسة، غير قابلة للانفصال عن حلمها بالأشجار والكلب الميت. لن تفيدها محاولة استعادة التفاصيل، لذا فقد أودعتها خزانة في عقلها، وحجبتها عن نظرها، ثم نسيت كل شيء عنها.

وفعلت المثل في كل المرات الأخرى.

لأنه كانت هناك مرات أخرى، رحلات أخرى بدراجتها «الرالي» -عبر الجسر الذي لم يعد موجودًا- للبحث عن مفقودات أخرى.

كانت هناك حين فقدت صديقتها ويلا لودز بِطْرِيقها القماشي الجالب للحظ الحسن، المدعو السيد بينتاك. كان والدا ويلا قد نظفا حجرتها وهي تبيت عند ڤيك، وكانت ويلا متأكدة أن السيد بينتاك قد أُلقي في القمامة مع دمية تِنكر بيل ولوح رسم «لايت برايت» الذي لم يعد يعمل.

لم يستطع أحد أن يواسي ويلا، لذا فقد انهارت حتى إنها لم تذهب إلى المدرسة في اليوم التالي... ولا الذي تلاه.

لكن ڤيك أصلحت كل هذا، فقد تبيَّن أن ويلا قد جلبت معها السيد بينتاك حين باتت ليلتها مع ڤيك، وقد وجدته الأخيرة تحت فراشها وسط كرات الغبار والجوارب المنسية. وها قد تفادينا المأساة.

لكن الحقيقة هي أن ڤيك لم تقتنع أنها وجدت السيد بينتاك بعد أن ركبت دراجتها عبر طريق غابة بيتمان، وعبور جسر الطريق المُختصر. لم تصدق أن الجسر كان ينتظرها، أو أنها رأت الكتابات على الحائط برذاذ الرسم

الأخضر: **صالة فينواي للبولينج** ⬅. لم تصدق أن الجسر كان يضج بالهدير الاستاتيكي ويومض بالضوء الغامض من خلف حوائطه المُشققة.

في ذهنها صورة خروجها من جسر الطريق المُختصر إلى صالة بولينج مظلمة، خالية في السابعة صباحًا. الطريق المُختصر كان ينبثق من الحائط ويطل على مسارب الكرات. تعرَّفت ڤيك المكان؛ لقد حضرت حفل عيد ميلاد فيه منذ أسبوعين، وكانت ويلا معها أيضًا. الأرضية الخشبية لامعة، وقد طُلِيَت بمادة شحمية ما فانزلقت دراجة ڤيك عليها كما ينزلق الزبد في مقلاة ساخنة. سقطت فضربت كوعها.

كان السيد بينتاك في سلة المفقودات جوار الكاونتر، تحت أرفف أحذية البولينج.

كل هذا مجرد قصة حكتها لنفسها بعد أن وجدت البطريق تحت الفراش. مرضت تلك الليلة وأصابتها الحمى والتعرق، مع الغثيان الجاف. أحلامها كانت جليَّة غريبة.

شُفي الخدش في كوعها خلال يومين.

حين بلغت العاشرة من عمرها، وجدت محفظة والدها بين وسائد الأريكة، وبالطبع لم تكن في موقع إنشاءات في مدينة «أتّليبورو». ظلت عينها اليسرى تؤلمها أيامًا بعد أن وجدت المحفظة، وكأنها تلقت لكمة فيها.

وحين صارت في الحادية عشرة، فقدت عائلة دي زوت -القاطنين على الجهة المقابلة من الشارع- قطهم. القط تايلور كان مُسنًّا نحيلًا، أبيض اللون ذا بقع سوداء. كان قد خرج قبل عاصفة صيفية مطيرة ولم يعد. السيدة دي زوت بحثت عنه في الشوارع في الصباح التالي، وراحت تزقزق كالعصافير وتموء باسمه. أما السيد دي زوت -وهو رجل نحيل كفزَّاعة، يرتدي ربطة عنق على شكل فراشة، وبنطالًا ذا حمالتين- وقف في باحة منزله حاملًا مجرفته، ولا يجرف بها شيئًا، ونظرة فقدان أمل تطل من عينيه.

أحبت ڤيك السيد دي زوت تحديدًا، هو رجل ذو لكنة مضحكة تشبه لكنة الممثل أرنولد شوارتسنِجر، ولديه مُصغر ساحة حرب في مكتبه. رائحة السيد دي زوت تشبه رائحة القهوة الطازجة ودخان الغليون، وكان يترك ڤيك تلون نماذج الجنود البلاستيكية عنده. أحبت ڤيك كذلك القط تايلور. حين

يقر، يصدر عن صدره صوت تكتكة كآلة ذات تروس قديمة، تبعث فيه الحياة الصاخبة.

لم ير أحد تايلور مرة أخرى... رغم أن ڤيك حكت لنفسها حكاية عن عبور جسر الطريق المُختصر والعثور على الحيوان البائس العجوز ملطخًا بالدماء، يحتشد حوله الذباب وهو ملقى وسط العشب المبتل على جانب الطريق السريع. يبدو أنه جر نفسه بعيدًا عن السيارات بعد أن ضربته واحدة منها. ما زالت المشاكسة ترى لطخ الدماء على فرائه الأسود.

وكرهت ڤيك صوت التشويش الاستاتيكي.

الخطر الحار

1990

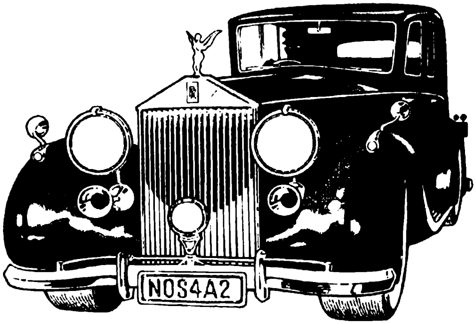

شوجركريك، بِنسلفانيا

كان الإعلان في آخر صفحة من مجلة «الخطر الحار»، عدد أغسطس 1949، والذي يحمل غلافه صورة امرأة عارية تصرخ داخل كتلة ثلج. *(كانت باردة تجاهه... فمنحها الرعدة العظمى)*. كان الإعلان يحتل عمودًا واحدًا، تحت إعلان حمالات صدر أدولا (*عززي جسدك!*). لاحظ بينج بارتريدج الإعلان فقط بعد نظرة مطولة إلى السيدة ذات النهدين الأبيضين الضخمين في إعلان أدولا، وقد عززتهما الحمَّالتان ذاتا الشكل المخروطي المدبب واللمعة المعدنية. كانت عيناها مغلقتين وشفتاها منفرجتين قليلًا، فبدت كأنما هي نائمة تحلم أحلامًا وردية، وتخيل بينج أنه يوقظها بقُبلة.

تغنى بينج: «بينج ودولا يجلسان على شجرة، ي- ت- ض- ا- ج- ع- ا- ن!».

كان بينج في مخبئه الهادئ في القبو، وقد أنزل بنطاله ولامست مؤخرته الأرض المتربة. يده الحُرة كانت تمسك بما قد تخيلته لتوك، لكنه لم يكن منشغلًا بهذا بعد. كان يمسح المجلة بعينيه بحثًا عن السطور المُثلى، حين وجد هذا المربع الصغير عند الركن السفلي من الصفحة. رجل ثلج يعتمر قبعة يشير بذراعه المحنية إلى سطر مؤطر برسم بلورات ثلج.

هل تؤمن بوجود أرض الكريسماس؟

لا تتخلَّ عن المعجزات

لا تتخلَّ عن أحلامك

ماذا ستفعل لو أنك بقيت أبدًا في مكان كل صباح فيه صباح الكريسماس، والتعاسة ضد القانون؟

نبحث عن أشخاص طيبين يحبون الأطفال، ولا يخشون المغامرة.

الاستعلام عن الفرص الخاصة في قسم الأمن لدينا.

هذه ليست وظيفة، بل حياة!

أرض الكريسماس في انتظارك!

أحب بينج الإعلانات في نهاية المجلة. إعلانات عن علب صفيحية تحوي جنودًا بلاستيكية صغيرة.

(*أعِد خلق المعارك!*)، وإعلانات عن معدات قديمة من الحرب العالمية الثانية (*حِراب! بنادق! أقنعة غاز!*)، إعلانات عن كتب تعلمك كيف تجعل النساء تحبك (*علمها البوح بحبك!*). غالبًا ما كان يقص استمارات الطلب ويرسلها مع أوراق نقدية مُدهنة أو عملات معدنية في محاولة لشراء مستعمرات نمل أو أجهزة كشف عن المعادن. لقد أراد من كل قلبه أن **يُذهل أصدقاءه، ويدهش أقاربه**! ولا يهم إن كان أصدقاؤه هم ثلاثة حمقى يعملون تحت يديه في طاقم نظافة «نور-كيم-فارم»، أو أن أقاربه قد واراهم الثرى في المقابر خلف كنيسة الإيمان الأمريكي الجديد. لم يفكر بينج قط في أن مجموعة أبيه من المجلات الإباحية غير الفجة -التي تتعفن في صندوق في القبو- عمرها أكبر من عمره، وأن المؤسسات التي يرسل إليها النقود لم يعد لها وجود منذ زمن. لكن رد فعله العاطفي حين يقرأ إعلان أرض الكريسماس كان مختلفًا كأنه يستجيب لأمر قوي. خفَّ صخب شهوته، بينما حُبست روحه حيث ترن أجراس العيد في آن واحد.

لم تكن لديه فكرة عن كُنه أو مكان أرض الكريسماس، ولم يسمع عنها من قبل. لكنه شعر فجأة برغبة عارمة في أن يذهب ويظل هناك طيلة حياته... أن يسير في شوارعها المُعبَّدة بحجر الإسكافي، ويتسكع تحت أعمدة إنارتها المصنوعة من حلوى تشبه العصا المعقوفة، وأن يشاهد الأولاد يصرخون نشوةً وهم يدورون ويدورون في لعبة الملاهي الدوَّارة، يمتطون أيائل الرنَّة.

يصيح الإعلان في عقله: *ماذا ستفعل لو أنك بقيت أبدًا في مكان كل صباح فيه صباح كريسماس؟*

مر على بينج اثنان وأربعون كريسماس، لكن حين يفكر في صباح الكريسماس لا يتذكر إلا واحدًا فقط وهو يُغنيه عن الباقين. في ذلك الصباح أخرجت أمه من الموقد كعكًا على شكل أشجار الكريسماس، مغطى بالسكر، ففاح المنزل كله برائحة الفانيلا. كان هذا قبل أعوام من إصابة جون بارتريدج بمسمار انطلق من مسدس المسامير ورشق في فصه الدماغي الأمامي.

في ذلك الصباح كان يجلس على الأرض أمام بينج يشاهده وهو يمزق أغلفة هداياه. يتذكر بينج بوضوح آخر هدية: صندوق كبير يحوي قناع غاز مطاطيًّا كبيرًا وخوذة منبعجة، صدئة، تقشَّر عنها الطلاء.

قال له أبوه: «هذه هي المُعدات التي أنقذت حياتي في كوريا. هي الآن لك. قناع الغاز الذي تحمله كان آخر ما رآه ثلاثة من الصُّفر[1] في حياتهم».

وضع بينج قناع الغاز على وجهه، ونظر خلال العدستين الشفافتين إلى والده. من خلال القناع رأى حجرة المعيشة كعالم صغير محبوس داخل كرة زجاجية. وضع والد بينج الخوذة فوق رأسه، ثم أدى التحية العسكرية، فحيَّاه بينج بجدية.

قال له أبوه: «إذًا أنت هو الجندي الصغير الذي يتكلم الجميع عنه. الرجل الذي لا يُقهر. الجندي الذي لا يمانع الخوض في الخراء. هل هذا صحيح؟».

- الجندي الذي لا يمانع الخوض في الخراء في خدمتك يا سيدي.

ضحكت والدة بينج ضحكتها الخشنة العصبية ثم قالت: «انتبه لكلماتك يا جون! هل تتفوهون بهذه الألفاظ في صباح الكريسماس؟ هذا لا يليق. في هذا اليوم نحتفل بمجيء مُخلِّصنا -يسوع المسيح- إلى هذا العالم».

بعدما تركتهما والدة بينج مع الكعك وعادت إلى المطبخ لتجلب مشروب الكاكاو، قال جون بارتريدج لابنه: «يا للأمهات! لو استطعن لتركنك ترضع أثداءهن طيلة حياتك. لكن، إن فكرت في الأمر، فما المشكلة؟».

وغمز لابنه.

في الخارج، تساقط الثلج في بلورات كريش الإوز، وظل الجميع في البيت طيلة اليوم. اعتمر بينج خوذته وارتدى قناع الغاز وراح يلعب لعبة الحرب ويطلق النار على أبيه مرارًا من مسدس بلاستيكي، وظل جون بارتريدج يموت ويموت، ويهوي على كرسيه الوثير أمام التلفاز. في مرة قتل بينج أمه أيضًا، فأغلقت عينيها مُطيعةً وسقطت بلا حراك، وظلت ميتة طيلة الفاصل الإعلاني، ولم تقُم حتى نزع قناعه وقبَّل جبينها. وقتها ابتسمت وقالت: *باركك الرب يا بينج بارتريدج الصغير. أحبك أكثر من أي شيء في العالم.*

---

(1) الكوريين. (المترجمة)

ماذا يفعل كي يشعر الشعور نفسه كل يوم؟ كي يعيش صباح الكريسماس ويجد قناع غاز حقيقيًّا من الحرب الكوريَّة تحت شجرة الميلاد؟ ماذا يفعل كي يرى أمه تفتح عينيها ببطء وتقول: *أحبك أكثر من أي شيء في العالم*؟ السؤال الصحيح هو: ماذا قد لا *يفعل* من أجل ذلك؟

ترنح عدة خطوات نحو الباب، قبل أن يرفع بنطاله.

بعد أن عجز أبوه عن العمل، تولَّت أمه بعض الأعمال الإدارية لدى الكنيسة، وكانت آلة كتابتها الإلكترونية ماركة أوليفِت ما زالت في خزانة الصالة. سقط زر حرف «و» لكنه يستطيع كتابة رقم 9 بدلًا عنه. وضع بينج ورقة في الآلة وراح يكتب:

عزيزي XXXX مالك أرض الكريسماس المحترم.

أنا أرسل إليك ردًّا على إعلانك في مجلة الخطر الحار. أريد أن أعمل في أرض الكريسماس، كما لك أن تراهن! لديَّ خبرة عمل 18 عامًا في ن9ر-كيم-فارم، في ش9جركريك، بنسلفانيا. 9لمدة 12 عامًا كنت مدير طابق في إصلاحية، 9مهامي تتلخص في شحن أسطوانات الغاز المضغوطة مثل الأكسجين 9الهايدر9جين 9الهلي9م 9السيف9ل9ران. هل تعرف عدد الح9ادث في 9ردياتي؟ صفر!

ماذا أفعل كي أحظى بالكريسماس كل ي9م؟ هل تريدني أن أقتل أحدًا؟ ها ها ها! لا ي9جد عمل قذر لم أفعله لأجل ن9ر-كيم-فارم. لقد نظفت حمامات تفيض بال XXX، أنت تعرف ما أقصد. مسحت «البي بي» عن الح9ائط، 9سممت فئران قذرة بالعشرات. هل تبحث عمن لا يبالي بالأعمال القذرة؟

حسنًا، لقد انتهى بحثك!

أنا الرجل الذي تبحث عنه: رجل طيب يحب الأطفال 9لا يخشى المغامرة.

أنا لا أرغب في شيء أكثر من مكان عمل جيد. ربما تلائمني 9ظيفة حارس الأمن. لأك9ن أمينًا معك، لقد أملت في الماضي أن أخدم أمّتي الفخ9ر مرتديًا الزي العسكري، مثلما فعل أبي في الحرب الك9رية، لكن منعتني بعض حماقات الشباب، 9مشكلة عائلية مؤسفة. أ9ه، حسنًا! لن أشكو! صدقني، سأعتبره شرفًا عظيمًا ل9 ارتديت زي أمن أرض الكريسماس. أنا جامع تذكارات حربية أصلية. لدي سلاحي 9أعرف كيف أستخدمه.

في الختام، أتمنى ل9 تتواصل معي على العن9ان أسفله. أنا مخلص لكم 9أقبل الموت في سبيل هذه الفرصة. لا ي9جد ما أرفض فعله كي أكسب مكانًا بين العاملين في أرض الكريسماس.

أطيب التحيات!

بينج بارتريدج

25 حارة بل9ك.

ش9جركريك، بنسلفانيا.

نزع الصفحة من آلة الكتابة وأعاد قراءتها، وشفتاه تتحركان. جهد التركيز جعل جسده المتكتل الشبيه بالبطاطس يغرق في العرق. بدا له أنه قد أوضح الحقائق عن نفسه بكل احترافية، لكنه قلق بشأن ذكره لأمر «حماقات الشباب» أو «مشكلة عائلية مؤسفة». افترض في النهاية أنهم على الأرجح سيعرفون كل شيء عن والديه سواء ذكر هذا أم لم يذكره، ومن الأفضل أن

يوضِّح كل شيء بدلًا من أن يبدو لاحقًا كأنما يخفي الأمور. ما حدث كان منذ زمن طويل، ومذ أطلق سراحه من مركز تأهيل الشباب -المعروف بالمزبلة- صار عاملًا مثاليًّا، ولم يفوِّت يوم عمل واحدًا في نور-كيم-فارم.

طوى الخطاب، ثم بحث في الخزانة عن مظروف، لكنه وجد بدلًا عنه صندوق بطاقات كريسماس لم تُستعمل. كان مرسومًا عليها ولد وبنت يرتديان منامتين مُزغبتين طويلتين من قطع واحدة، ويتلصصان من خلف ركن، يحدقان بعينين متسعتين دهشةً إلى سانتا كلوز الواقف في الظلام أمام شجرة الكريسماس. مَقعدة منامة الطفلة غير مُزرَّرة بالكامل، فتبدَّى من خلال فتحتها الصغيرة أحد ردفيها المُكورين. كان جون بارتريدج يقول أحيانًا إن بينج يعجز عن صب الماء من الحذاء حتى لو كانت إرشادات الصب مكتوبة على النعل، وربما كان على حق، لكنه ما زال قادرًا على معرفة ما ينفعه حين يراه. دس الخطاب داخل بطاقة كريسماس، ثم وضعهما في المظروف المزين بأوراق الشجر وتوت العليق اللامع.

قبل أن يودع الخطاب صندوق البريد في نهاية الشارع، أحنى رأسه وقبَّله مثلما يحني القس رأسه ليُقبِّل الإنجيل.

في اليوم التالي، ظل منتظرًا جوار صندوق البريد حتى الثانية والنصف عصرًا، حتى ظهر ساعي البريد عند أول الشارع راكبًا شاحنته البيضاء المضحكة. الأزهار المصنوعة من رقائق القصدير في باحة منزل بينج الأمامية تتمايل بكسل، يكاد يصدر عنها خفيفٌ مسموع.

قال ساعي البريد: «بينج. أليس من المفترض أن تكون في العمل؟».

أجاب بينج: «ورديتي ليلية».

قال ساعي البريد وهو يومئ نحو ملابس بينج: «هل اندلعت الحرب؟».

بينج يرتدي زي الجيش المُموه بلون الخردل، وهو الزي الذي يرتديه حين يأمل في حظ حسن. قال له بينج: «لو قامت الحرب، فسأكون مستعدًّا لها».

لم يكن هناك خطابات من أرض الكريسماس، لكن بالطبع كيف يمكن أن يصله الرد وقد أرسل خطابه بالأمس فقط؟

لم يصل أي خطاب اليوم التالي كذلك.

أو الذي يليه...

في يوم الاثنين، كان واثقًا أنه سيتلقى ردًّا ما. وقف عند عتبه بيته قبل نصف ساعة من موعد وصول ساعي البريد المعتاد. تجمَّعت السحب السوداء القبيحة المُنذرة بعاصفة رعدية، وأطلت فوق برج كنيسة الإيمان الأمريكي الجديد. هزيم الرعد المكتوم يصله عبر مسافة ميلَين وارتفاع ألف وثمانمائة قدم. لم يكن الصوت ضجيجًا بقدر ما كان اهتزازًا وصل إلى قلب بينج، وهز عظامه وسط تراكم الدهون عليها. تمايلت الأزهار المعدنية بقوة، وصدر عنها صوت كصوت دراجات يركبها أطفال قد فقدوا التحكم بها في أثناء نزولهم التل.

صوت القعقعة والتصادم أقلقا بينج. كان اليوم الذي ثقب فيه المسمار رأس أبيه حارًّا عاصفًا (هكذا كان يتذكر هذا اليوم: المسمار ثقب رأس أبيه، وليس هو من أطلقه عليه). شعر أبوه بفوهة مسدس المسامير تلتصق بصدغه، فنظر جانبًا إلى بينج الذي يقف جواره. رشف رشفة من البيرة ومصَّ شفتيه ثم قال: «كنت لأخاف لو أنني أعرف أنك تجرؤ».

بعد أن ضغط الزناد، جلس بينج مع أبيه وراح ينصت إلى المطر يضرب سقف المرأب، بينما جون بارتريدج ممدد على الأرض، وإحدى ساقيه ترتعش، وبقعة البول تنتشر على حِجر بنطاله. ظل بينج جالسًا حتى دخلت أمه المرأب وبدأت تصرخ، ثم جاء دورها، لكنه لم يستخدم مسدس المسامير.

يقف بينج الآن في باحة منزله يشاهد السحب كالجبال في السماء فوق الكنيسة وقمة التل، وهو المكان نفسه الذي عملت فيه أمه آخر أيام حياتها... الكنيسة التي كان يؤمها كل أحد قبل حتى أن يتعلم السير أو الكلام. واحدة

من أولى كلماته كانت «لويا!»، وهو أقرب نطق استطاع أن يتفوه به لكلمة «هالِّلُويا». ظلت أمه تناديه «لويا» لسنوات.

لم يعد أحد يتعبَّد هناك الآن. هرب القس ميتشل بأموال التمويل وتزوج، فحجز المصرف على المنشأة. صار الحمام الذي يسكن البرج يمثِّل زوَّار الكنيسة الوحيدين. المكان يثير رعب بينج الآن... خواؤه يفزعه. يتصور أنه يلومه على هجره وهجر الرب حتى إنه أحيانًا ما يميل عن أساساته ليتفرَّس في وجهه بعينين زجاجيتين ملطختين. ثمة أيام -أيام مثل هذه- تضج فيها الغابة بصرخات جنون الحشرات الصيفية، ويتموج فيها الهواء كماء ساخن، وتبدو الكنيسة كأنما تلوح في الأفق.

هزيم الرعد يشق الظهيرة...

همس بينج لنفسه: «ارحل.. ارحل بعيدًا أيها المطر. عُد في يوم آخر».

تناثرت على جبينه أولى قطرات المطر الدافئ، ثم تلتها قطرات أخرى تتلألأ تحت نور الشمس البادية من فم السماء المتثائب جهة الغرب.

الأمطار دافئة كرذاذ دماء.

تأخر البريد، وبحلول وقت وصوله كان بينج كان ابتلَّ، وجلس متكورًا تحت اللوح الخشبي المعلق فوق باب منزله الأمامي. هرع تحت السيل نحو صندوق البريد، وبمجرد أن مد يده إليه، هوى لسان برق مخترقًا السحب، ضاربًا مكانًا ما خلف الكنيسة. صرخ بينج إذ أضاء العالم بلون أبيض مزرق. لا بد أنه كان سيُصعق، لا بد أنه كان سيحترق حيًّا حين تلمسه إصبع الرب معاقبًا على قتله أباه بمسدس المسامير، وعلى ما فعله تاليًا بأمه على أرض المطبخ.

كان البريد عبارة عن فاتورة من شركة المرافق العامة، وإعلان عن متجر حشيات جديد، ولا شيء آخر.

بعد تسع ساعات، قام بينج من نومه إثر سماعه صوت الكمان المرتعش، ثم صوت رجل يغني بنعومة كريم تزيين كعك الفانيلا. الرجل هو، بينج

كروسبي[1]، الذي يحمل اسمه ذاته. السيد كروسبي يحلم بكريسماس أبيض[2]، مثل ذلك الذي كان يألفه.

جذب بينج الغطاء نحو ذقنه وهو ينصت باهتمام. الأغنية ممتزجة بصوت خدش إبرة رفيق على فينيل. نزل عن فراشه، وتسلل فوق الأرضية الباردة تحت قدميه الحافيتين.

كان والدا بينج يرقصان في حجرة المعيشة. ظهر أبوه نحوه، يرتدي الزي العسكري المموه، بينما تريح أمه رأسها على كتفه، مغلقة العينين، مفتوحة الفم كأنما ترقص في نومها.

الهدايا تنتظره تحت الشجرة الرابضة القبيحة، المختنقة بأشرطة الزينة الملونة، ثلاث أسطوانات غاز سيفوفلورين منبعجة، مزينة بربطات قرمزية.

دار والداه ببطء، وبينما يدوران، رأى بينج أن أباه يرتدي قناع غاز، وأن أمه عارية. كانت نائمة بالفعل، وساقاها مرتخيتان على الأرض. والده يحملها من خصرها، ويده المُقفَّزة تحت استدارة ردفيها. بياض لون أمه مضيء كجرم سماوي، شاحب كالقمر.

سأل بينج: «أبي؟».

ظل أبوه يرقص ويدور مبتعدًا مصطحبًا والدة بينج معه.

صاح صوت عميق هادر: **«انزل يا بينج!»**.

الصوت عالٍ حتى إن المشغولات الخزفية في الخزانة تصدَّعت. ترنح بينج من المفاجأة، واختلت نبضات قلبه في صدره. قفزت إبرة الجرامافون إلى نهاية الأغنية.

«انزل إلى هنا! يبدو أن الكريسماس قد حلَّ مبكرًا هذا العام، أليس كذلك؟ هُو هُو هُو!».

جزء من بينج أراد الفرار إلى غرفته وغلق الباب. أراد أن يغطي عينيه ويضُم أذنيه في الوقت نفسه، لكنه لم يجد الإرادة لفعل أيٍّ من الأمرين. فزع لمجرد فكرة أن يخطو خطوة أخرى، مع ذلك حملته قدماه إلى الأمام، وعبرتا

---

(1) BING CROSBY: مطرب أمريكي من ماليد 1903. (المترجمة)

(2) WHITE CHRISTMAS: أغنية. (المترجمة)

به جوار الشجرة وأسطوانات السيفوفلورين، ووالده ووالدته، وعبر الصالة والباب الأمامي الذي انفتح قبل أن تصل يده إلى المقبض.

تمايلت الأزهار القصديرية في باحته مع نسائم الشتاء. لديه زهرة لكل عام عمل فيه لدى نور-كيم-فارم، هدية من العاملين في الإصلاحية، تُمنح له في حفل العيد السنوي.

أرض الكريسماس تنتظره خلف الباحة. لعبة الملاهي الدوارة تدوي وتصطدم، والأطفال في العربات يصرخون ويرفعون أذرعهم إلى الليل المتجمد. عجلة الملاهي والنجم القطبي يدوران على خلفية من مجموعات نجمية غير مألوفة. الشموع الموقدة على شجرة الكريسماس طولها يفوق بنايةً من عشرة طوابق، وعرضها أكبر من عرض منزل بينج.

يصيح الصوت الهادر: «**عيد ميلاد لعين مجيد يا بينج. أيها المجنون!**».

حين نظر بينج إلى السماء، رأى للهلال وجهًا ذا عين واحدة جاحظة حمراء تطل من ملامحه العظمية الجائعة، العين تكوين من فوهة بركانية وعظام. ابتسم الهلال ابتسامة عريضة وأردف: «**بينج، أيها المجنون الزاني بأمه. هل أنت مستعد لرحلة عمرك؟**».

قام بينج جالسًا في فراشه، وقد استيقظ هذه المرة بالفعل. قلبه يدق في صدره، وجسده غارق في العرق حتى إن منامته المطبوع عليها شخصيات أفلام «جي آي جو»[1] التصقت بجلده. لاحظ -مشوشًا- أنه منتصب حتى إنه آلمه ذلك، ورفع مقدمة بنطاله.

شهق، كأنما لم يستيقظ وإنما خرج من تحت الماء.

حجرته مضاءة بصوت بارد، شاحب صادر عن قمر بلا وجه.

ظل بينج يعب الهواء لنصف دقيقة قبل أن يدرك أنه ما زال يسمع أغنية «الكريسماس الأبيض». لقد تبعته الأغنية من حلمه، عابرة مسافة طويلة، لكنها الآن تخفُت، وكان يعرف أنه إن لم يقم ليلقي نظرة، فستختفي، وغدًا سيظن أنه توهَّم كل شيء. قام وسار على ساقين مرتجفتين إلى النافذة، لينظر إلى الباحة.

---

(1) G. I. Joe: سلسلة أفلام خيال علمي حربية. (المترجمة)

سيارة عتيقة عند نهاية صف البنايات تتهادى مبتعدة. سيارة رولز رويس سوداء، ذات زينات من الكروم اللامع. مصابيحها الخلفية تضيء بالأحمر في الليل، وتنير لوحة رقم السيارة: NOS4A2.

انعطفت السيارة عند الزاوية ثم اختفت، حاملةً معها أصوات الكريسماس البهيجة.

نور-كيم-فارم

عرف بينج أن الرجل من أرض الكريسماس سيأتي، حتى من قبل أن يظهر تشارلي مانكس ويطلب منه الركوب معه. عرف كذلك أن الرجل من أرض الكريسماس لن يكون كأي رجل، وأن الوظيفة في أرض الكريسماس لن تكون كأي وظيفة. ولم يخب ظنه.

عرف كل هذا من خلال الأحلام التي بدت واضحة وحقيقية أكثر من أي حدث آخر مر عليه في يقظته. لم يستطع أن يطأ أرض الكريسماس في هذه الأحلام، لكنه رآها عبر نافذته وباب بيته. استطاع أن يشُم رائحة النعناع والكاكاو، ويرى الشموع المشتعلة التي ترصع شجرة كريسماس بارتفاع عشرة طوابق، ويسمع السيارات الصغيرة تتصادم في ساحة اللعبة الدوارة. كان يسمع الموسيقى كذلك، وصرخات الأطفال. لو لم تكن ترى ما يحدث أمامك لظننتهم يُذبحَون أحياء.

عرف بسبب الأحلام، وبسبب السيارة. المرة الثانية التي رآها فيها كان في عمله، تقف في ساحة تحميل الشاحنات. الأولاد قد رسموا على ظهر البناية بالرذاذ صورة جنسية، ينبثق منها سائل منوي نحو كرتين حمراوين كبيرتين، ربما كانتا تمثلان نهدين، لكنهما بدتا لعينَي بينج ككُرتي زينة كريسماس.

كان بينج يقف بالخارج يرتدي بذلته الواقية المطاطية وقناع العمل، ويحمل دلوًا من محلول قلوي مخفف كي ينظف به الحائط مستخدمًا فرشاة من السلك.

أحب بينج التعامل مع القلويات، وأحب مشاهدتها تذيب الطلاء. قال دينيز لوري، المُتوحد الذي يعمل في وردية الصباح، إن المحلول القلوي قد يذيب الجسد البشري ويحوله إلى دهن. دينيز لوري وبينج وضعا وطواطًا ميتًا في

دلو من المادة القلوية وتركاه يومًا، وفي الصباح التالي لم يجدا منه شيئًا إلا هيكلًا شبه شفاف.

تراجع خلفًا ليلقي نظرة إعجاب على عمله. اختفت الصورة الفجة تقريبًا كاشفةً عن القرميد تحتها، ولم يتبقَّ إلا النهدان. رأى فجأة وهو ينظر إلى الحائط ظله الحاد يظهر على القرميد الخشن. دار على عقبيه لينظر خلفه، فرأى السيارة الرولز رويس السوداء هناك، واقفة عند الناحية الأخرى من السور السلكي، وكشافاها الأماميان يحدقان إليه.

يمكنك أن ترى الطيور طيلة حياتك ولا تستطيع أن تميز العصفور الدوري عن الشحرور، وهذا ما يحدث مع السيارات. يمكن ألا تميز بين الفاير بيرد والفيِّرو، لكنك تعرف الرولز رويس حين تراها.

ابتسم بينج لمرآها، وشعر بالدماء تحتشد في قلبه. *الآن سيفتح الباب ويقول لي: «هل أنت الشاب بينج بارتريدج الذي أرسل لي يطلب العمل في أرض الكريسماس؟» وسوف تبدأ حياتي.. سوف تبدأ حياتي الحقيقية أخيرًا.*

لم ينفتح الباب... بعد. لم ينادِ عليه الرجل خلف المقود أو يُنزِل زجاج نافذته. لم يستطع بينج تبيُّن ملامحه بسبب سطوع ضوء الكشافات. ومض الضوء في تحية، قبل أن تدور السيارة وتولي ظهرها إلى مبنى نور-كيم-فارم.

خلع بينج قناعه ودسَّه تحت ذراعه. ضرب الهواء البارد المنعش وجهه الساخن. سمع بينج موسيقى الكريسماس تنبعث من السيارة. أغنية «البهجة للعالم». أجل. هو بالفعل يشعر بهذه البهجة.

وتساءل إن كان الرجل خلف المقود يريده أن يتبعه.

***

ترك قناعه، وترك دلو السائل القلوي، ثم قفز من فوق السور، وأمل في أن يركب جوار السائق. لكن ما إن اقترب من السيارة حتى بدأت تبتعد عبر الطريق.

صاح بينج: «انتظر! لا ترحل.. انتظر!».

منظر الرولز رويس وهي تتركه، ومنظر لوحة السيارة التي تحمل حروف NOS4A2 تتقلص إذ تبتعد، أفزعاه.

صرخ بينج وهو في حالة من الدوار والجزع: «أنا رأيتها! رأيت أرض الكريسماس! رجاءً، امنحني فرصة! رجاء عُد!».

أضاءت كشافات المكابح، وتباطأت الرولز رويس قليلًا كأن كلام بينج قد سُمِع.. ثم انطلقت مرة أخرى.

صاح بينج وصرخ: «امنحني فرصة! *امنحني مجرد فرصة!*».

انزلقت الرولز رويس عبر الطريق، ثم انعطفت واختفت، تاركةً بينج غارقًا في عرقه، ممسكًا بصدره.

كان ما زال واقفًا هناك حين ظهر رئيسه السيد بالادين، خارجًا إلى الساحة كي يدخن.

- مهلًا يا بينج. ما زال جزء من الرسم على الحائط. هل تعمل هذا الصباح أم إنك في إجازة؟

ظل بينج يحدق في شرود إلى الطريق، ثم قال بصوت خفيض كي لا يسمعه السيد بالادين: «إجازة كريسماس».

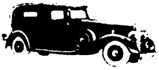

حين غيروا مواعيد عمله، لم ير الرولز رويس أسبوعًا، واضطر أن يتولى ورديتين متتاليتين من السادسة إلى السادسة.

الجو جحيميٌّ في المخازن، حتى إن حاويات الغاز المضغوط المعدنية قد تكوي جسدك لو لمستها. ركب بينج الحافلة المعتادة عائدًا إلى بيته في رحلة تستغرق أربعين دقيقة. النوافذ تضخ الهواء النتن، ورضيع يعوي طيلة الطريق في أذنيه.

نزل عند شارع فيرفيلد، ومشى المسافة المتبقية إلى بيته. لم يعد الهواء غازيًّا، بل سائلًا.. سائلًا في درجة حرارة الغليان. البخار يتصاعد من أسقف المنازل ويشوه الرؤية، وتماوج صف المنازل عند نهاية الطريق كأنما هو صورة منعكسة على سطح ماء.

همس بينج لنفسه: «ارحل ارحل أيها الحر. اغلِني في يوم آخر...».

الرولز رويس تقف في الشارع أمام منزله. مال الرجل خلف المقود مُطلًّا خارج نافذة السيارة، وأدار رأسه مبتسمًا إلى بينج ابتسامة صديق لصديقه.

قال وهو يشير بكف طويلة الأصابع: «*هيا سريعًا*».

طارت كف بينج إلى أعلى بدوره دون أن يشعر، ورد الإشارة وهو يعدو نحوه مهرولًا هرولة رجل سمين. هزه وجود الرولز رويس هناك، جزء من نفسه آمن أن الرجل من أرض الكريسماس سيأتي من أجله. لكن جزءًا آخر كان قلقًا من أن تكون أحلامه ورؤيته المتكررة للسيارة ما هي إلا غربان تطوف حول حيوان مريض سرعان ما سيموت، ربما تطوف حول عقله نفسه.

في كل خطوة خطاها نحو الـ NOS4A2 كان يتأكد أكثر أنها ستبحر بعيدًا عنه وتختفي مرة أخرى. لكنها لم تفعل.

الرجل الجالس على مقعد القيادة لم يكن جالسًا عليه على الإطلاق، الرولز رويس سيارة إنجليزية والمقود على الجهة اليمنى. ابتسم الرجل -السائق- أكثر لبينج بارتريدج، وأول ما لاحظ بينج أنه يمكن أن يعتبر الرجل أربعينيًّا، لكنه أكبر من ذلك بكثير. عيناه لهما مظهر الزجاج المعتم، مظهر العينين المُسنتين، العتيقتين. وجهه طويل نحيل، حكيم طيب. أسنانه كانت بارزة معوجَّة. وجهه نوع من الوجوه التي يصفها الناس بأنها وجوه قوارض، لكن وجهه لطيف لا غبار عليه.

صاح الرجل خلف المقود: «ها هو ذا قد جاء! بينج بارتريدج الشاب المتحمس! رجل الساعة! يجب أن نتحدث أيها الشاب! أراهن أنه سيكون أهم حديث في حياتك!».

***

سأله بينج بصوت هامس: «هل أنت من أرض الكريسماس؟».

وضع الرجل العجوز أو غير محدد السن، إصبعه على جانب أنف بينج وقال: «تشارلز مانكس الثالث في خدمتك يا عزيزي! المدير التنفيذي لمؤسسة أرض الكريسماس، ومدير ملاهي أرض الكريسماس، ورئيس دولة المتعة! كذلك أنا جلالته، ملك تل الغائط، لكني لا أكتب هذا في بطاقة العمل».

فرقع بأنامله فظهرت بطاقة من العدم بين إصبعيه. أخذها بينج ونظر إليها.

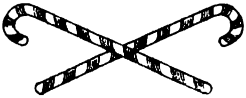

تشارلي

قال تشارلي: «يمكن أن تتذوق عِصي الحلوى هذه إن لعقت البطاقة».

حدق بينج إليها لحظةً، ثم مسح البطاقة بلسانه الخشن، لكن طعمها كان كالورق والغراء.

صاح تشارلي وهو ينكز ذراع تشارلي: «*أنا أمزح!* من تظنني؟ ويلي وُنكا؟ لُفَّ! اركب! لماذا يا بني تبدو وكأنك ستذوب متحولًا إلى عصير بينج؟ سأدعوك إلى مشروب بارد، لدينا أمور مهمة نناقشها».

سأله بينج: «سنناقش أمر الوظيفة؟».

- سنناقش أمر المستقبل.

الطريق السريع 322

- هذه هي أجمل سيارة ركبتها.

قالها بينج وهما يشقان طريق 322 السريع، والرولز رويس تدور في المنعطفات بنعومة كما تنزلق كريات الانزلاق الفولاذية في محاملها.

- هي رولز رويس شبح، موديل 1938، واحدة من أصل أربعمائة سيارة صُنعت في بريستول بإنجلترا. نادرة... مثلك يا بينج بارتريدج!

حرك بينج كفه على جلد المقعد الأملس. تلمع أمامه لوحة العدادات، ويتألق ناقل السرعة. سأله بينج: «هل تعني حروف لوحة السيارة شيئًا؟ هذه التوليفة من الحروف والأرقام بالذات؟».

قال تشارلي مانكس: «نوسفراتو».

- نوس... ماذا؟

قال مانكس: «هذه واحدة من دعاباتي. زوجتي الأولى اتهمتني أنني نوسفراتو. بالطبع لم تستخدم الكلمة نفسها، إنما كلمة مشابهة. هل تعرف اللبلاب السام يا بينج؟».

- لم أره منذ وقت طويل. عندما كنت صغيرًا، وقبل أن يموت أبي، أخذني للتخييم، وأنا...

- لو أنه قد أخذك للتخييم بعد أن مات، لكانت لديك قصة جيدة تحكيها! ما أردت قوله: زوجتي الأولى كانت كالحساسية التي يسببها لمس اللبلاب السام. لم أستطع تحمُّلها، وعجزت عن الابتعاد عنها. كانت طفحًا جلديًّا أحكه حتى أدميه... ومن ثم أحكه أكثر! تبدو وظيفتك خطرة يا سيد بارتريدج!

انتقاله بين الموضوعين مفاجئ حتى إن بينج لم يكن مستعدًّا له، واحتاج إلى لحظات حتى أدرك أن دوره في الحديث قد جاء.

- حقًّا؟

قال مانكس: «أنت ذكرت في خطابك أنك تتعامل مع الغازات المضغوطة. أليست حاويات الهيدروجين والهيليوم قابلة للانفجار؟».

- أوه، بالطبع. منذ بضعة أعوام، دخَّن رجل سيجارة سرًّا في ميناء الشحن، بالقرب من حاوية نيتروجين مفتوحة الصمام. بالطبع انفجرت وطارت كالصاروخ مرتطمة بمخرج الحريق فخلعته من مفصلاته، وهو باب مصنوع من الحديد. لكن رغم ذلك لم يمت أحد يومها، وظل فريقي آمنًا -منذ ترأسته- بلا أي حوادث مماثلة. أعني، بالكاد آمنًا من الحوادث. في مرة استنشق دينيس لوري بعضًا من غاز كعك الزنجبيل، لكن هذا أمر بسيط. هو حتى لم يمرض.

- غاز كعك الزنجبيل؟

- هذا خليط مُعطَّر من غاز السيفوفلورين نرسله إلى أطباء الأسنان. يمكن أن يباع بلا رائحة، لكن المرضى من الأطفال يحبون رائحة كعك الزنجبيل.

- حقًّا؟ هل هو مخدر؟

- تأثيره يجعلك لا تدرك ماذا يحدث لك، لكنه لا ينيِّمك. يضعك في حالة تعرف فيها ما يقال لك، لكن لا تستطيع حراكًا.

لم يستطع بينج أن يكتم ضحكةً، ثم قال بلهجة معتذرة: «قلنا لدينيس يومها إن الوقت هو وقت الديسكو، فأخذ يقفز في الهواء مقلدًا جون ترافولتا في ذلك الفيلم. كدنا نموت من الضحك».

فتح مانكس فمه مبديًا أسنانه البنية الصغيرة في ابتسامة مرحبة لا تقاوَم: «أحب الرجل خفيف الظل يا سيد بارتريدج».

- يمكنك أن تدعوني بينج يا سيد مانكس.

انتظر بينج السيد مانكس أن يطلب منه أن يناديه تشارلي، لكنه لم يفعل، وبدلًا عن ذلك قال: «أتخيل أن أغلب الذين يرقصون على أنغام موسيقى

الديسكو يكونون تحت تأثير مخدر ما. هذا هو التفسير الوحيد لذلك؛ أنا لا أعتبر هذه الاهتزازات السخيفة رقصًا، بل أقرب إلى درجة من درجات البلاهة».

انزلقت الشبح مبعثرة التراب في ساحة مطعم دايري كوين، تنزلق الشبح على الطريق كما ينزلق القارب والريح من خلفه. حركتُها صامتة خفيفة، لكن على التراب صار لبينج انطباع آخر، إحساس بالكتلة والزخم والوزن كأنها مدرعة تسحق الأرض تحت جنازيرها.

قال مانكس وهو ينعطف مُدليًا ذراعًا واحدة فوق المقود: «ما رأيك أن أبتاع لنا علبتَي كوكاكولا ثم نجلس لنناقش المهم؟».

فتح بينج فمه ليجيب، فقط ليجد نفسه يقاوم التثاؤب. الطريق الطويل المريح، وأرجحة السيارة الناعمة جعلاه ناعسًا، ولم يكن قد نام جيدًا خلال الشهر الماضي، وقد استيقظ اليوم في الرابعة صباحًا. لو لم يظهر تشارلي مانكس أمام منزله، لكان سيجهز عشاءً ويأكله أمام التلفاز، ثم ينام مبكرًا.

ذكَّره هذا بشيء، فقال ببساطة: «لقد حلمت بكل شيء. أحلم بأرض الكريسماس طيلة الوقت».

ضحك في حرج؛ سيظنه تشارلي مانكس أبله. لكنه لم يعتبره كذلك، وتبسم بسمة واسعة وهو يسأله: «هل حلمت بالهلال؟ هل تحدث إليك؟».

اندفع الهواء بغتة خارجًا من صدر بينج، وتفرس في وجه مانكس مدهوشًا، وربما قلقًا بعض الشيء.

تابع مانكس: «أنت حلمت بها لأنك تنتمي إليها يا بينج، لكن إن رغبت في الذهاب إلى هناك، فعليك أن تستحق مكانك فيها. يمكنني أن أخبرك كيف».

عاد السيد مانكس من نافذة الشراء بعد دقيقتين، وأراح جسده النحيف خلف المقود، ثم ناول بينج زجاجة كوكاكولا باردة يتكاثف البخار على سطحها، ويتعالى صوت غازات الصودا المحبوسة فيها. فكر بينج في أنه لم ير زجاجة من أي شيء بهذه الروعة.

أمال رأسه خلفًا وصب الكوكاكولا في حلقه، وهو يبتلع بسرعة جرعة تلو الأخرى. ثم أخفض الزجاجة وقد اختفى نصف محتواها. شهق بعمق، ثم تجشَّأ بصوت حاد عالٍ كصوت تمزُّق ملاءة فراش.

التهب وجه بينج حرجًا، لكن تشارلي مانكس ضحك متغاضيًا وقال: «من الأفضل أن تُخرجه لا أن تحبسه. هذا ما أقوله دومًا لأطفالي!».

استرخى بينج وابتسم خَجِلًا. طعم تجشُّئه كان سيئًا، طعم كوكولا لكن يطغى عليه مرارة الأسبيرين.

أدار مانكس المقود وعاد إلى الطريق. قال بينج: «كنت تراقبني».

قال تشارلي: «أجل، راقبتك. منذ فتحت خطابك وأنا أراقبك، لقد تفاجأت به... أعترف بهذا. لم يصلني أي خطاب بصدد إعلاني في تلك المجلة القديمة منذ زمن. لكن بمجرد وصول خطابك، راودني إحساس أنك ستكون واحدًا من أهلي. شخص سيفهم فورًا أهمية العمل الذي أؤديه. الإحساس جيد، لكن اليقين أفضل. أرض الكريسماس مكان ذو خصوصية، ولدي الكثير من التحفظات على العمل الذي أؤديه لأجلها. أنا أختار مَن أوظفه بعناية، فأنا أحتاج إلى رئيس أمن جديد. أحتاج...».

احتاج بينج لدقيقة كي يدرك أنه لم يسمع باقي عبارة تشارلي مانكس. ضاعت كلماته وسط صوت تحليق إطارات السيارة على الأسفلت. كانا قد خرجا من الطريق السريع الآن وانزلقا تحت أشجار التنوب تحت ظلالها العريضة الباردة. حين لمح بينج السماء الوردية رأى الشمس قد مالت نحو المغيب دون أن يلاحظ، وأن الغروب قد حل. رأى الهلال، أبيض كليمون مثلج، يسبح في الفراغ الصافي.

سأله بينج: «ماذا قلت؟».

أجبر نفسه على الجلوس منتصبًا وراح يرمش بسرعة. المفترض أن مشروبه -بسكره وكافيينه وصودته المنعشة- قد أزال النعاس عنه، لكن يبدو أن تأثيره كان عكسيًا. رشف رشفة أخيرة، لكن ما تبقى في قاع الزجاجة كان مُرًّا، فأجفل.

قال تشارلي: «العالم مليء بالقساة الحمقى يا بينج. وهل تعرف أسوأ ما في هذا الأمر؟ أن لبعضهم أطفالًا. بعضهم يثمل ويضربهم ويشتمهم. هؤلاء الناس غير مؤهلين لتربية الأطفال... هكذا أراهم! يمكن تصفيتهم جميعًا

وإطلاق النار عليهم. هذا ما سيرضيني. رصاصة في رأس كلٍّ منهم.. أو مسمار».

شعر بينج أن أمعاءه تنقلب رأسًا على عقب. شعر بدوار حتى إنه اضطر إلى الاستناد إلى تابلوه السيارة كي لا ينكفئ على وجهه.

كذب بينج وهو يرتجف بشكل غير ملحوظ: «لا أذكر أنني فعلت ذلك. كان هذا منذ زمن بعيد. سأفعل أي شيء كي أغير الماضي وأمنع ما حدث».

- لماذا؟ كي تمنح والدك فرصة قتلك أنت؟ ذكرت الصحف أنه قد ضربك حتى أُصبت بشرخ في الجمجمة قبل أن تقتله. ذكرت الصحف أن جسدك كان مغطى بالكدمات بعضها يعود لأيام قبل ما حدث! أتمنى ألا أضطر إلى أن أشرح لك الفرق بين القتل والدفاع عن النفس!

همس بينج: «لقد آذيت أمي كذلك، في المطبخ. هي لم تفعل شيئًا».

لم يبد أن مانكس قد أعجبه ما قال.

- وأين كانت حين كان أبوك يضربك؟ لماذا لم تحاول أن تمنع عنك الأذى بجسدها؟! كيف لم تطلب الشرطة ولو مرة؟! هل رقم الشرطة غير موجود في دفتر الهاتف؟!

تنهد مانكس تنهيدة منهكة وأضاف: «كنت أتمنى لو كان هناك من يدافع عنك يا بينج. نار الجحيم ليست كافية لتعذيب رجل أو امرأة آذيا أولادهما. لكني حقًّا مهتم بالوقاية أكثر من العقاب! ببساطة كان الأفضل ألا يحدث أي أذى من البداية! ماذا لو كان بيتك بيتًا آمنًا، وكان كل يوم هو يوم كريسماس يا بينج، بدلًا من أن تكون أيامك كلها عذابًا وتعاسة؟ أعتقد أننا متفقان على هذا».

حدق إليه بينج بعينين غائمتين. شعر كأنما لم ينم منذ أيام، وظل يجاهد طيلة الوقت كي لا يغوص في مقعده الجلدي ويغيب في سبات عميق.

قال بينج: «أعتقد أنني سأنام».

قال تشارلي: «لا بأس. الطريق إلى أرض الكريسماس مُعبَّد بالأحلام!».

أزهار بيضاء خرجت من مكان ما، وراحت تومض أمام السيارة. راقبها بينج باستمتاع باهت. شعر بالدفء والراحة والسلام. لقد أحب تشارلي

مانكس. *نار الجحيم ليست كافية لتعذيب رجل أو امرأة آذيا أولادهما.* يا له من قول عظيم له صدًى أخلاقي أكيد. تشارلي مانكس يعرف ماهية الأمور.

قال تشارلي مانكس: «(....)».

أومأ بينج. هذا القول أيضًا عظيم له رنين أخلاقي أكيد، بل وحكمة كذلك. أشار إلى الأزهار التي تهطل من السماء وقال: «الثلج ينهمر!».

هتف تشارلي مانكس: «ها! هذا ليس ثلجًا. أرِح عينيك يا بينج بارتريدج. أرِح عينيك ولسوف ترى شيئًا».

وفعل بينج بارتريدج ما طُلب منه.

لم يغمض عينيه طويلًا، مجرد لحظة واحدة، لكنها لحظة امتدت وامتدت حتى صارت دهرًا، نوم مظلم مريح، لا صوت فيه إلا صوت الإطارات فوق الأسفلت. زفر بينج. شهق بينج. فتح بينج عينيه وانتصب مصعوقًا بما رآه عبر زجاج السيارة الأمامي.

الطريق إلى أرض الكريسماس

انصب ضوء مصابيح الشبح على الظلام المتجمد. تكاثفت بقع بيضاء أمامها، والتصقت بالزجاج.

صاح تشارلي مانكس من خلف المقود: «الآن، ها هو ذا الثلج!».

صحا بينج من نعاسه بغتة، منتقلًا إلى اليقظة التامة خلال لحظة، وكأن وعيه له مفتاح تشغيل ضغطه أحدهم. بدا أن دمه كله يندفع إلى قلبه. لم يكن ليُصدم أكثر لو أنه صحا ووجد قنبلة في حِجره.

نصف السماء كانت مُسحِبة، لكن النصف الآخر كان مرصعًا بالكامل بالنجوم، والهلال معلق بين النصفين. ذلك الهلال ذو الأنف المعقوف العريض والفم الباسم الذي يتفحص الطريق تحته بعينين صفراوين فضيتين تُطلان من تحت جفون ناعسة.

أشجار تنوب غريبة تحيط الطريق، كان على بينج أن ينظر مرتين قبل أن يدرك أنها ليست سوى أشجار حلوى.

همس بينج: «أرض الكريسماس».

عارضه تشارلي مانكس: «كلا، ما زلنا بعيدَين عنها بمسافة عشرين ساعة من القيادة. لكنها هناك عند الغرب، وفي كل عام يا بينج أصطحب شخصًا إلى هناك».

سأل بينج بصوت مرتعش: «أنا؟».

- كلا يا بينج. ليس هذا العام. كل الأطفال مُرحَّب بهم في أرض الكريسماس، لكن البالغين أمر مختلف. يجب أن تثبت أنك تستحق

مكانك هناك أولًا. يجب أن تُثبت حبك للأطفال وإخلاصك لحمايتهم وخدمة أرض الكريسماس.

مرًّا برجل ثلج، رفع يده المثنية إلى أعلى وحياهما. بلا تفكير رفع بينج كفه يرد التحية.

همس: «كيف؟».

- يجب أن تنقذ عشرة أطفال بصحبتي يا بينج. يجب أن تنقذهم من الوحوش.

- الوحوش؟ أي وحوش؟

قال مانكس واجمًا: «آباؤهم».

أبعد بينج وجهه عن زجاج النافذة المثلج، والتفت إلى تشارلي مانكس. حين أغمض عينيه منذ قليل كانت السماء مضاءة بنور الشمس، وكان قد رأى تشارلي مانكس يرتدي قميصًا أبيض وحمالات بنطال، لكنه الآن يرتدي معطفًا ذا ذيل طويل، وقبعة سوداء ذات حافة جلدية. للمعطف صفان من الأزرار النحاسية، وبدا له مثل زيٍّ قد يرتديه الضباط في بلاد أخرى، ملازم في جيش ملكي. حين نظر بينج إلى نفسه، وجد أنه أيضًا يرتدي ملابس جديدة، زي البحرية الأبيض الخاص بوالده، وحذاءً أسود لامعًا.

سأله: «هل أحلم؟».

أجاب مانكس: «قلت لك إن الطريق إلى أرض الكريسماس مُعبَّد بالأحلام. يمكن للسيارة القديمة أن تعبر من العالم الاعتيادي إلى طرق الأفكار السرية، والأحلام هي طريق الخروج. حين ينام الراكب، تترك سيارتي الشبح الطريق، وتنحرف إلى طريق القديس نِك. نحن نتشارك هذا الحلم. هذا حلمك يا بينج، لكنها ما زالت رحلتي. تعال، أريد أن أريك شيئًا».

أبطأت السيارة وهو يتحدث حتى توقفت إلى جانب الطريق. تهشم الجليد تحت الإطارات. أضاءت الكشافات شيئًا على يمين الطريق. من بعيد، بدت كامرأة في فستان أبيض، تقف ثابتة لا تلتفت إلى ضوء الشبح.

مال مانكس، وفتح دُرج القفازات فوق رُكبتَي بينج. بالداخل كانت فوضى من خرائط الطرق والأوراق. رأى بينج كذلك كشافًا ذا مقبض طويل من الكروم اللامع.

تدحرجت علبة دواء برتقالية من الدُّرج، فالتقطها مانكس بيد واحدة. كان مكتوبًا عليها: «**ديوي هانسوم-ڤاليوم 50 ملجم**».

أمسك مانكس بالكشاف ثم فتح الباب وقال: «سنمشي من هنا».

رفع بينج العلبة وقال: «هل... هل وضعت لي شيئًا يُنيِّمني يا سيد مانكس؟».

غمز مانكس وهو يقول: «لا تعتبرها تهمة ضدي يا بينج. كنت أعرف أنك تتوق إلى الولوج إلى طريق أرض الكريسماس بأسرع ما يمكن، وهذا لن يكون ممكنًا إلا لو نمت. أتمنى ألا تمانع هذا».

قال بينج: «أعتقد أنني لا أمانع».

نخر، ثم نظر إلى العلبة مرة أخرى وأضاف: «من هو ديوي هانسوم؟».

- كان أنت يا بينج. كان ما قبل بينج. ديوي هانسوم كان وكيل ممثلين متخصصًا في تسكين أدوار الأطفال. ساعدني على إنقاذ عشرة أطفال واستحق مكانه في أرض الكريسماس. أوه، لكم *أحبَّ* أطفالُ أرض الكريسماس ديوي. لقد أكلوه محبةً! تعال معي!

فتح بينج بابه وخرج إلى البرودة والهواء الساكن. الليل لا تعكر الرياح صفوه، والثلوج تنهمر ببطء، تلثِم خديه. بالنسبة إلى كونه مُسنًّا (*لماذا أصر على أنه مُسن؟ هو لا يبدو مُسنًّا!*) فتشارلي مانكس خفيف الحركة، يتقافز على جانب الطريق، وحذاءاه يُطلقان صريرًا. هرع بينج خلفه، يضم ذراعيه حول جذعه، زيه خفيف صيفي.

لم تكن ما أمامهما امرأة في رداء أبيض، بل امرأتان تقفان على جانبَي بوابة حديدية، متماثلتان، تمثالان منحوتان من الرخام الأبيض الشفاف، تفردان أذرعهما ويتطاير فستاناهما خلفهما كجناحَي ملاك. جميلتان، لهما شفاه التماثيل الممتلئة والأعين البيضاء. شفاههما منفرجة كأنهما تشهقان، وقد التوى ركنا فميهما إلى أعلى كأنما تضحكان... أو تصرخان ألمًا. أبرز النحات نهدَي كل تمثال من خلف الملابس الملتصقة به.

عبر مانكس البوابة السوداء من بين السيدتين. تردد بينج. رفع يده ولمس نهدًا من تلك النهود الباردة الناعمة. لطالما أراد أن يلمس نهدًا كهذا، نهدًا أموميًّا ممتلئًا.

اتسعت ابتسامة التمثال الرخامي، فقفز بينج إلى الخلف وصرخاته تصعد إلى حنجرته.

صاح مانكس: «تعال يا بينج! لنتحدث عن عملنا! ملابسك لا تلائم هذا البرد!».

كاد بينج يتقدم ويتبع مانكس، ثم توقف ليلقي نظرة على القوس فوق البوابة المفتوحة.

«مقبرة الممكن»

عقد بينج حاجبيه بعد قراءة هذه العبارة الغامضة، ثم ناداه مانكس مرة أخرى، فهرع خلفه.

هبطا أربع درجات حجرية مغطاة ببلورات الثلج، قادتهما إلى مُنبسطٍ من الجليد الأسود المنثور برقائق الثلج. يمكن لركلة واحدة أن تزيحه وتكشف ما تحته. مشى بينج خطوات ثم رأى شيئًا غائمًا تحت الجليد بنحو ثلاث بوصات، لأول وهلة بدا كطبق عشاء.

انحنى بينج ينظر خلال طبقة الجليد. التفت تشارلي مانكس -الذي كان على بُعد خطوات منه- ووجَّه الكشاف نحو البقعة التي ينظر بينج إليها.

أضاء شعاع النور وجه طفلة، فتاة ذات نمش على خديها وشعرها مصفف في عُقصتين. صرخ بينج لمرآها وتراجع خطوتين إلى الخلف.

هي شاحبة كتمثالَي الرخام اللذين يحرسان مدخل مقبرة الممكن، لكنها كانت من لحم ودم، لا من حجر. فمها مفتوح في صرخة صامتة، وبعض فقاعات الهواء تخرج من بين شفتيها. يداها مرفوعتان كأنها تطلب المساعدة، وفي واحدة منهما حبل أحمر ملفوف.. حبل للعبة القفز وقد تعرَّفه بينج فورًا.

صاح: «هذه فتاة! فتاة ميتة تحت الجليد!».

قال مانكس: «ليست ميتة. ليس بعد. ربما ستموت خلال أعوام».

أبعد مانكس الكشاف ووجَّهه نحو صليب حجري أبيض ينبثق مائلًا من الجليد، مكتوبًا عليه:

ليلي كارتر

15 طريق فوكس

شاربسفيل

-1980؟

حولتها أمها إلى حياة الحرام،

طفولتها انتهت قبل أن تبدأ.

لو أن لها طفولة أخرى، لذهبت بها إلى أرض الكريسماس!

حرك مانكس كشافه على سطح ما رآه بينج كبحيرة متجمدة، تنبثق منها صفوف من الصلبان. مقبرة في مساحة آرلينجتون. يهبط الثلج فوق الشواهد وقواعدها والفراغ بينها. بدت رقاقات الثلج كالأمواس تحت ضوء القمر.

نظر بينج مرة أخرى إلى الفتاة تحت قدميه، فنظرت إليه عبر الجليد الغائم.. وغمزت.

صرخ مجددًا، وتعثر حين ارتطم بصليب آخر. دار حول نفسه نصف دورة، وفقد اتزانه، ثم هوى على أربع.

حدق خلال الجليد نصف المعتم. أدار مانكس الكشاف إلى وجه طفل آخر، طفل ذي عينين حساستين مهمومتين تحت غُرة شاحبة.

ويليام ديلمان

24 ب شارع ماتيسون

أسبوري بارك، نيو جيرسي

-1981؟

أراد بيلي فقط أن يلعب.

لكن أباه ابتعد، وأمه هربت.

المخدرات، السلاح، الأسى، الجزع.

آه لو أن أحدًا قد أنقذه!

حاول بينج أن ينهض، ضغط قدمه على الأرض فانزلقت وتعثر مرة أخرى. أوضح له ضوء كشاف مانكس طفلًا آخر، فتاة آسيوية تحتضن دبًّا محشوًا يرتدي سترة صوفية.

سارا تشو

-1983؟

39 شارع خمسة

بانجور-مَين

تعيش سارا حلمًا مأسويًّا،

شنقت نفسها في عمر الثالثة عشرة!

لكن فكِّر كيف يمكن أن تُقدم على هذا،

إن ركبت مع تشارلي مانكس!

أطلق بينج شهقة ذعر. الفتاة سارا تشو تنظر إليه وفمها مفتوح كأنما تصرخ. كانت قد دُفنت تحت الجليد وحبل قماشي حول عنقها.

أسند مانكس كوع بينج وساعده على النهوض.

- آسف لأنني أريتُكَ كل هذا يا بينج. كنت أتمنى لو في استطاعتي أن أعفيك، لكنك تحتاج إلى فهم دوافع عملي. عُد إلى السيارة. معي كوب حراري به مشروب الكاكاو الساخن.

ساعد السيد مانكس بينج في عبور الساحة الجليدية، ويده تعتصر عضد بينج بقوة كي لا ينزلق.

تفرَّقا عند مقدمة السيارة، ركب مانكس السيارة، بينما تردد بينج هنيهة وقد لاحظ لأول مرة التمثال فوق غطاء محرك الرولز رويس، وهو عبارة عن سيدة منحوتة من الكروم، تفرد ذراعيها فيطير رداؤها عن جسدها كجناحين. عرفها فورًا، كانت نسخة عن ملاكَي الرحمة حارستَي المقبرة.

في داخل السيارة، مد مانكس يده تحت مقعد فأخرج الكوب الحراري. فتحه ثم ملأ غطاءه بالشوكولاتة الساخنة، وناوله لبينج الذي قبض عليه بكلتا

كفيه. رشف السائل الدافئ اللذيذ بينما يدور تشارلي مانكس بسيارته مبتعدًا عن مقبرة الممكن، وانطلقا عبر الطريق الذي جاءا منه.

سأل بينج بصوت مرتجف: «حدِّثني عن أرض الكريسماس».

أجاب مانكس: «هي أعظم مكان، مع الاحترام للسيد والت ديزني، فأرض الكريسماس هي أسعد مكان حقيقي على وجه الأرض. مع ذلك، ومن وجهة نظر أخرى، يمكن القول إنها أسعد مكان *خارج* هذا العالم. في أرض الكريسماس، كل يوم عيد، ولا يشعر الأطفال هناك بأي تعاسة. بل إنهم لا يعرفون معنى التعاسة من الأساس! لا يوجد سوى المتعة. هي جنة، سوى أنهم بالطبع ليسوا موتى! يعيشون للأبد، يظلون أطفالًا على الدوام، ولا يُجبرون أبدًا على المعاناة أو التعب مثلنا نحن البالغين. اكتشفت هذا المكان من حلم صافٍ منذ أعوام، وأول المحظوظين بالإقامة فيه كانوا أبنائي الذين أنقذتهم قبل أن تؤذيهم أمهم التي صارت بائسة ووحشية في آخر أيامها.

هو بالفعل مكان تحدث فيه المستحيلات يوميًّا، لكنه مكان مخصص للأطفال لا البالغين. فقط يُسمح لعدد محدد من الكبار بالعيش هناك، أولئك الذين يُظهِرون إخلاصًا لقضية أكبر. أولئك المستعدون للتضحية *بأي شيء* مقابل إسعاد الصغار الضعفاء. أشخاص مثلك يا بينج.

أتمنى من كل قلبي أن يجد الأطفال حول العالم طريقهم إلى أرض الكريسماس، حيث سيلقون سعادة وأمانًا فوق كل قياس. لكم سيكون هذا رائعًا! لكن نادرًا إن وجدت من يرسل أبناءه مع رجل لم يقابلوه من قبل ليذهب بهم إلى مكان لا يستطيعون زيارتهم فيه. لماذا؟ لأنهم سيظنون أنني خاطف أطفال مختل، متحرش! لذا فأنا أجلب طفلًا أو اثنين فقط سنويًّا، ودائمًا ما يكونون أطفالًا ممن أراهم في مقبرة الممكن. أطفال أبرياء من المؤكد أنهم يذوقون العذاب على أيدي آبائهم، والذين بدورهم قد أوذوا وهم أطفال. أتفهمني؟ أنا واثق بأهمية مساعدتهم! المقبرة تُظهِر الأطفال الذين قد يسرق آباؤهم طفولتهم منهم ما لم أتحرك أنا. سوف يضربونهم بالسلاسل، ويطعمونهم أكل القطط، ويبيعونهم للمنحرفين. ستتحول أرواحهم إلى جليد، ولن يشعروا بالآخرين، وسيدمرون بدورهم أبناءهم في المستقبل. نحن فرصتهم الوحيدة يا بينج! خلال أعوام عملي حارسَ أرض الكريسماس، أنقذت أكثر من سبعين طفلًا، وأقصى أمنياتي أن أنقذ مائة آخرين قبل أن أنتهي».

أسرعت السيارة عبر الظلام البارد الخفي، حرَّك بينج شفتيه مُكررًا العدد. غمغم: «سبعون؟ ظننت أنك تنقذ طفلًا أو اثنين سنويًّا».

قال مانكس: «أجل، هذا صحيح».

سأله بينج: «لكن... كم عمرك؟».

ابتسم مانكس ساخرًا، كاشفًا عن أسنانه المتزاحمة البُنية المُدببة وأجاب: «يحافظ عملي على شبابي. أنهِ مشروب الكاكاو يا بينج».

ابتلع بينج آخر رشفة ساخنة حُلوة، ثم أدار الكوب في يده ليرى بقايا بيضاء مصفرة في القاع. تساءل إن كان قد ابتلع دواءً آخر من أدوية ديوي هانسوم، وهو اسم يبدو كمَزحة. ديوي هانسوم، الرجل الذي كان الشيء الخاص بتشارلي مانكس قبل بينج. الشخص الذي أنقذ عشرة أطفال، ثم استحق مكافأته الأبدية في أرض الكريسماس. لو أن تشارلي مانكس قد أنقذ سبعين طفلًا، فهل كان هناك عشرة آخرون قبل بينج؟ يا لهم من كلاب محظوظة.

سمع صوت هدير شاحنة ضخمة تقترب من خلفهما. نظر وراءه، الصوت يتعالى بمرور كل لحظة، لكنه لا يرى شيئًا.

سأل بينج غير واعٍ أن غطاء الكوب الفارغ قد سقط من بين أصابعه الخَدِرة:

- هل تسمع هذا؟ هل تسمع شيئًا يقترب؟

- لا بد أن هذا هو النهار، يحاول اللحاق بنا. لا تنظر الآن يا بينج. ها هو ذا!

هدير الشاحنة يتعالى ويتعالى، ثم صار الصوت إلى يسار بينج. نظر جواره ليرى بوضوح شاحنة، تبعد عنهما قدمًا أو اثنين، مرسوم على جانبها حقل أخضر، وحظيرة حمراء، وأبقار متناثرة، وشمس باسمة تشرق فوق التلال. ضوء تلك الشمس يضيء حروف عبارة: **خدمة توصيل الشروق**.

للحظات، أخفت الشاحنة السماء والأرض خلفها، وملأت كل مجال رؤية بينج، ثم أسرعت وتجاوزتهما مُطلقةً خلفها عاصفة من الغبار. أجفل بينج من سطوة سماء النهار الزرقاء، سماء بلا سحب، بلا حدود، فأغلق عينيه.

ريف بنسلفانيا

قاد تشارلي مانكس سيارته الشبح نحو جانب الطريق، ثم أوقفها. الطريق ريفي، مُترب غير ممهد، تنبت الأعشاب المصفرة ملاصقة للسيارة. تئز الحشرات. تتوهج الشمس منخفضة في أفقها. لا يمكن أن يكون الوقت قد تجاوز السابعة، لكن بينج كان يشعر بحرارة النهار الحارقة القادمة من ناحية الزجاج الأمامي.

صاح بينج: «سحقًا! ماذا حدث؟».

قال مانكس غير مكترث: «أشرقت الشمس».

سأل مانكس: «هل نمت؟».

- أنا أعتقد حقًّا يا بينج أنك كنت مستيقظًا. ربما للمرة الأولى في حياتك.

ابتسم مانكس، فابتسم بينج بدوره ابتسامة غير واثقة. هو لا يفهم دائمًا مقاصد تشارلي مانكس من الكلام، لكن هذا يجعل الإعجاب بالرجل أيسر، لدرجة عبادته!

حامت اليعاسيب فوق الأعشاب الطويلة. بينج لم يتعرف بعد على المكان الذي هما فيه. هذه ليست شوجركريك. هذا طريق خلفي في مكان ما. نظر عبر نافذته، فرأى منزلًا فوق التل على طراز المستعمرات، نوافذه سوداء، يقبع تحت ضوء الشمس الذهبي الكسول.

فتاة ترتدي فستانًا قرمزيًّا بسيطًا مطبوعًا برسم الأزهار، تقف عند الطريق الترابي، تحت شجرة سنط، تحدق إليهما. في يديها تمسك حبل قفز أحمر، لكنها لم تكن تقفز، ولم تكن تستخدمه، كانت فقط تنظر إليهما في عدم فهم، واستنتج بينج أنها لم تر رولز رويس في حياتها.

ضيَّق عينيه محدقًا إليها، رافعًا يده في تحية بسيطة. لم ترُد التحية، فقط أمالت رأسها جانبًا وراحت تتفرس فيهما، ومالت عقصة من عقصتيها نحو كتفيها. هنا فقط تعرَّفها. أجفل من المفاجأة وصدم ركبته بأسفل التابلوه.

صاح: «هذه! إنها هي!».

سأله مانكس بطريقة من يعرف الإجابة: «مَن يا بينج؟».

حدق بينج إليها، وحدقت إليه. لم يكن ليُفاجأ أكثر لو أنه رأى ميتًا يُبعث. بل إنه بشكل ما يرى الآن ميتًا قد بُعث.

قال بينج: «ليلي كارتر...».

بينج ماهر في تذكُّر مقاطع الكلام التي قيلت أمامه من قبل، فأضاف: «حولتها أمها إلى حياة الحرام، طفولتها انتهت قبل أن تبدأ. لو أن لها طفولة أخرى، لذهبت بها إلى...».

تلاشى صوت بينج إذ انفتح باب المنزل السلكي، وأطلت برأسها امرأة لطيفة متينة البنية، ترتدي مئزرًا ملوثًا بالدقيق. صاحت المرأة: «ليلي! لقد أخبرتك أن الإفطار جاهز منذ عشر دقائق. هيا عودي!».

لم ترد ليلي كارتر، فقط تراجعت ببطء إلى المدخل، وعيناها متسعتان مبهورتان. لم تكن خائفة، بل فقط مُهتمة.

قال مانكس: «لا بد أن هذه والدة ليلي. لقد درست حالة ليلي كارتر وأمها. الأخيرة تعمل ورديات الليل في تحضير المشروبات في حانة ملحقة بنُزُل بالقرب من هنا. لو تعرف النساء اللاتي يعملن في الحانات!».

سأل بينج: «ماذا عنهن؟».

قال مانكس: «غانيات. أغلبهن كذلك على الأقل حتى يزول جمالهن. في حالة والدة ليلي كارتر، جمالها يذوي سريعًا. ثم، كما أخشى، ستهجر العمل في البغاء، وتصير قوادة. قوادة لابنتها. على إحداهما أن تكسب المال، وإيفانجلين كارتر بلا زوج. لم تتزوج قط. غالبًا هي لا تعرف كذلك من وضع نطفة ابنتها فيها. أوه، الصغيرة ليلي في الثامنة من عمرها الآن، لكن الفتيات... الفتيات يكبرن أسرع بكثير من الصبية. لماذا؟ انظر إليها وإلى الشابة الصغيرة التي تراها خلف ملامحها. أراهن أن أمها ستطلب ثمنًا باهظًا مقابل براءة طفولتها».

همس بينج: «كيف تعرف؟ كيف تعرف يقينًا أن كل هذا سيحدث؟ هل أنت.. هل أنت متأكد؟».

رفع تشارلي مانكس حاجبًا وقال: «ثمة طريقة واحدة للتأكد، أن أقف ساكنًا وأترك ليلي لرعاية والدتها. ربما نعود إليها بعد أعوام لنرى كم ستطلب منًّا أمها مقابل قضاء وقت معها. ربما ستعرض علينا أن نضاجعها مرتين بسعر واحدة!».

تراجعت ليلي حتى وصلت المدخل. من داخل المنزل صاحت أمها مرة أخرى، بصوت جهوري غاضب. بدا صوتها بالنسبة إلى بينج كصوت سكير قد أفاق من نومه للتو. صوت حاد متكبر.

- ليلي! ادخلي إلى هنا الآن وإلا سأطعم الكلب اللعين إفطارك.

همس بينج بارتريدج من بين أسنانه: «العاهرة».

قال مانكس: «أنا مضطر أن أوافقك يا بينج. حين تأتي الفتاة معي إلى أرض الكريسماس، سنحتاج إلى أن نتصرف مع أمها كذلك. سيكون من الأفضل حقًّا أن تختفي الفتاة وأمها معًا. لا أفضِّل أن آخذ السيدة كارتر معي إلى أرض الكريسماس، لكن ربما تجد *أنت* لها استخدامًا. مع ذلك، لا أستطيع سوى أن أفكر في استخدام واحد يلائمها. على أي حال، لا يمكن أن تُشاهَد أمها مرة أخرى، ولو أنك فكرت ماذا قد تفعل بابنتها لو تركناها وشأنها... حسنًا. لن أذرف الدمع عليها!».

دق قلب بينج بسرعة داخل صدره. جفَّ لعابه وهو يعبث بقفل باب السيارة. أمسك تشارلي مانكس ذراعه، بالضبط كما فعل حين كان يعينه على الوقوف في مقبرة الممكن. سأله: «ماذا تفعل يا بينج؟».

التفت بينج ناظرًا نظرة غاضبة إلى الرجل الجالس جواره وقال: «ماذا ننتظر؟ لنذهب.. لندخل الآن وننقذ الطفلة!».

قال تشارلي: «كلا. ليس الآن. ثمة تجهيزات لا بد من إعدادها. ستأتي اللحظة المناسبة قريبًا».

حدق بينج إلى تشارلي مانكس في دهشة... وشيء من التبجيل.

قال تشارلي مانكس: «أوه.. يا بينج! الأمهات يُثرن ضجة عظيمة إن شعرن أن بناتهن سيُؤخذن منهن، حتى الأمهات الشريرات أمثال السيدة كارتر».

أومأ بينج. سأله مانكس: «هل تعتقد أن في إمكانك أن تجلب لنا بعض السيفوفلورين من مكان عملك؟ ربما ستحتاج إلى إحضار قناع الغاز ومسدسك أيضًا. أنا واثق أنك ستحتاجهما».

أمينة المكتبة

1991

هافرهيل، ماساشوستس

قالت أمها: «لا تخرجي من هذا الباب أبدًا»، لكن ڤيك لم تكن لتخرج، كانت تعدو وهي تحاول كبح دموعها.

قبل أن تخرج سمعت أباها يقول لليندا: *اهدئي، هي تعاني ما يكفيها*. وهذا جعل الأمور أكثر سوءًا بدلًا من أن يُحسنها. قبضت ڤيك على مقود دراجتها وجَرَت جوارها، ثم اعتلتها سريعًا عند نهاية سور الباحة الخلفية وانطلقت إلى قلب طريق غابات بيتمان الظليل ذي الرائحة العطرة.

لم تفكر ڤيك في وجهتها. جسدها كان يعرف ويقود دراجتها الرالي إلى أسفل التل، يشق الدرب تحته بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة.

حين وصلت النهر، كان مكانه، وكذا الجسر. الشيء المفقود هذه المرة صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود مثنية الأطراف، تبين ولدًا سمينًا يعتمر قبعة عريضة الأطراف ويمسك بيد شابة ترتدي فستانًا مُرقطًا، تُخفضه إلى أسفل كي لا يكشف فخذيها، الريح تهب محاولةً رفعه، والريح نفسها تداعب خصلات شعرها الأشقر فتغطي ملامحها المتغطرسة، الساخرة، شبه الجميلة. الولد يصوب بندقية لعِب نحو الكاميرا. هذا الرامي الصغير ذو الملامح المنتفخة والعينين الباردتين هو كريستوفر مَكوين، في عمر السابعة، والمرأة هي أمه. في الوقت الذي التُقطت فيه الصورة، كان سرطان المبايض يقتلها، وسيحصد روحها في ريعان عمر الثالثة والثلاثين. تلك الصورة هي الشيء الوحيد الذي تبقى منها، وحين طلبت ڤيك أن تستعير الصورة لمعرض فني بالمدرسة، رفضت ليندا. مع ذلك نقض كريس مَكوين أوامر زوجته، وقال: *مهلًا، أنا أريد من ڤيك أن ترسمها. هذه هي فرصتها الوحيدة لقضاء وقت مع جدتها. فقط أعيدي الصورة أيتها المشاكسة. لا أريد أن أنسى كيف كانت تبدو أبدًا.*

كانت ڤيك في عمر الثالثة عشرة نجمة فصل الرسم مع الأستاذ إليس، وقد اختار لوحتها «الجسر المُغطى» للعرض في معرض المدرسة السنوي في مجلس المدينة، وكانت هي اللوحة الوحيدة لطالب في الصف السابع، بينما تضم باقي المعروضات لوحات طلبة الصف الثامن، وتتراوح جودتها بين السيئ والأسوأ. (السيئ: لوحات تبين فواكه منبعجة في أطباق ملفوفة حول نفسها. الأسوأ: لوحة فيها حصان وحيد القرن يقفز وقوس قزح ينبعث من مؤخرته، كأنما يعاني غازات بطن ملونة). حين غطت جريدة هافِرهيل المعرض، خمن أي لوحة ضمنوها في الخبر؟ ليس الحصان وحيد القرن بالطبع. بعدما عادت لوحة الجسر المغطى إلى بيت ڤيك، ركَّبَ لها أبوها إطارًا وعلقها مكان ملصق نايت رايدر الذي كان فوق الفراش من قبل. كانت ڤيك قد زهدت في هاسِلهَف منذ أعوام، لقد كان خائبًا، وسيارته مجرد قطعة خردة تُسرِّب الزيت. لم تفتقدهما كثيرًا.

آخر مهام المدرسة لهذا العام «لوحة للحياة»، والمطلوب منهم أن يستلهموا اللوحة من صورة شخص عزيز لديهم. لدى والد ڤيك متسع فوق مكتبه لتعليق لوحة، وأرادته ڤيك أن يرفع عينيه ليرى صورة أمه.. بالألوان.

كانت اللوحة التي أنهتها قد عادت إلى المنزل في اليوم السابق، آخر يوم دارسي، بعد أن أخلت ڤيك خزانتها المدرسية. رغم أن اللوحة لم تكن في إتقان لوحة الجسر المغطى، رأت ڤيك أنها استطاعت أن تلتقط شيئًا من المرأة في الصورة، لمحة من عظام الحوض البارزة أسفل الفستان، نوع من الوجوم والتشتت في ابتسامتها. حدق والدها إلى اللوحة مطولًا، وبدا سعيدًا وحزينًا في آن. حين سألته ڤيك عن رأيه، قال فقط: «ابتسامتك تماثل ابتسامتها أيتها المشاكسة. لم ألاحظ هذا من قبل».

عادت اللوحة إلى المنزل، لكن الصورة لم تعد. لم تلاحظ ڤيك أن الصورة ليست معها قبل أن تسألها أمها عنها مساء يوم الجمعة. ظنت ڤيك في البداية أنها في حقيبة ظهرها، أو في حجرة النوم. بحلول ليل الجمعة، راودها ذلك الشعور المُقلِّص للمعدة أن الصورة ليست معها، وليس لديها أي فكرة عن آخر مكان رأتها فيه. في صباح السبت -أول أيام العطلة- توصلت والدة ڤيك إلى الاستنتاج نفسه، وقررت أن الصورة قد ضاعت للأبد. في حالة هستيرية حَديَّة عنيفة أعلنت أن الصورة أهم كثيرًا من لوحة طفولية قبيحة سخيفة.

ومن هنا، انطلقت ڤيك، خارجة، مبتعدة، تخشى أن بقاءها في البيت سيفجر أمها بالهستيريا، وهو شعور لن تتحمله.

آلمها صدرها، كأنها كانت تقود الدراجة منذ ساعات وليس دقائق فقط، واختنقت أنفاسها كأنها تصعد تلًّا، لا تسير فوق منبسط. لكن حين أبصرت الجسر شعرت بما يشبه السلام الداخلي، بل أكثر من ذلك، شعرت أن عقلها الواعي يتحرر، تاركًا العمل البدني لجسدها والدراجة. هكذا كانت الأمور دائمًا. لقد عبرت الجسر أكثر من اثنتي عشرة مرة خلال الأعوام الخمسة السابقة، والعبور لم يكن تجربة أكثر منه شعورًا مرَّت به، لم يكن أمرًا فعلته، بل إحساس حالم بالانزلاق، والهدير الاستاتيكي. لم يكن شبيهًا بالغوص في النعاس ودخول عالم النوم.

ورغم ارتطام إطارَي دراجتها بأخشاب أرضية الجسر، كان عقلها يكتب قصة عثورها على الصورة الفوتوغرافية. كانت قد عرضت الصورة على صديقتها ويلا في آخر يوم دراسي، ثم تحدثتا عن أمور أخرى، ثم كان على ويلا أن تهرع للحاق بحافلتها. ثم أدركت أن الصورة معها بعد أن رحلت، وقررت أن تحتفظ بها لإرجاعها لڤيك لاحقًا.

بعدما تعود ڤيك إلى منزلها بعد جولتها بالدراجة، ستكون معها الصورة وحكاية ترويها، وسيعانقها أبوها ويخبرها أنه لم يقلق قط بصدد الصورة، وستبدو أمها كأنها ترغب في البصاق، ولن تستطيع ڤيك تحديد أي رد فعل من الاثنين تتوق إليه أكثر.

إلا أن الأمر كان مختلفًا هذه المرة. حين عادت، كان هناك شخص لم تستطع إقناعه بحكايتها نصف الصادقة عن مكان الصورة. هذا الشخص هو ڤيك نفسها.

خرجت ڤيك من الجهة الأخرى من النفق، وأبحرت عبر رواق المدرسة الواسع المظلم في قرابة التاسعة من أول يوم من العطلة المدرسية. كان المكان معتمًا، يتردد فيه صدى الصوت، خاليًا إلى حدٍّ بث شيئًا من الخوف في نفسها. مسَّت المكابح، فأبطأت الدراجة حتى توقفت.

لم تستطع إلا أن تنظر خلفها، ولا يستطيع أحد مقاومة النظر إلى الخلف.

رأت جسر الطريق المُختصر ينبثق من الحائط القرميدي، ويمتد إلى داخله مسافة عشرة أقدام، بعرض الممر الواسع نفسه. هل باقي الجسر يتدلى عبر

حائط ساحة الانتظار؟ لا تظن ڤيك ذلك. لكن دون اقتحام أحد الفصول لن تستطيع أن تجد نافذة تطل منها إلى الخارج لتتأكد.

اللبلاب يحيط بمدخل الجسر، وتتدلى أغصانه الخضراء من أعلاه.

رؤية المُختصر أسقمتها قليلًا، وللحظة انتفخ الممر حولها كقطرة ماء تفترش غصنًا. شعرت بأنها توشك على فقدان الوعي، وعلمت أنها إن لم تتحرك ستبدأ بالتفكير، والتفكير خطر. لقد اختلف أمر تخيلها رحلة عبر جسر زال منذ زمن حين كانت في الثامنة أو التاسعة من عمرها عنه حين بلغت الثالثة عشرة. في التاسعة كانت تدرك أن الرحلة حُلم يقظة، أما في الثالثة عشرة فهي هلوسة.

كانت تعرف أنها ستذهب إلى المدرسة (الكتابة بالطلاء الأخضر عند بداية الجسر أخبرتها بذلك)، لكنها تخيلت أنها ستخرج إلى الطابق الأول بالقرب من فصل الأستاذ إليس. بدلًا عن ذلك، وجدت نفسها في الطابق الثاني على بُعد بضعة أقدام عن خزانتها المدرسية. كانت تتحدث مع أصدقائها حين أخلتها في اليوم السابق لانتهاء الدراسة، وكان هناك الكثير من المُشتتات والضوضاء -صرخات، ضحك، أطفال يعدون- لكن رغم ذلك كانت قد تحققت من خلو خزانتها قبل أن تغلق بابها للمرة الأخيرة، وكانت متأكدة -إلى حد كبير- أنها فارغة. مع ذلك، جاء بها الجسر إلى هنا، ولم يكن الجسر ليخطئ أبدًا.

فكرت: *ليس هناك جسر. الصورة مع ويلا، وكانت ستعيدها إليَّ في أقرب وقت.*

أسندت ڤيك دراجتها إلى جدار الخزانات، ثم فتحت خزانتها ونظرت إلى حوائطها الباهتة وقاعها الصدئ. لم تجد شيئًا. مدت يدها ومسحت الرف فوق رأسها بنحو قدم، ولم تجد الصورة.

تقلصت معدتها قلقًا. كانت تريد العثور عليها ثم الرحيل في أسرع وقت كي تبدأ بتناسي الجسر فورًا. لكن إن لم تكن الصورة في الخزانة، فهي لا تعرف أين تبحث عنها. كادت تغلق باب الخزانة، ثم توقفت، ورفعت نفسها على أطراف أصابع قدميها ومررت كفها على الرف العلوي مجددًا، وكادت تخطئ مكان الصورة مرة أخرى؛ كان أحد أركانها محشورًا عند نهاية الرف، فانتصبت موازيةً لحائط الخزانة. كان عليها أن تصل إلى آخر الرف كي تمسكها.

حاولت أن تقبض عليها بأظفارها، وتهزها حتى خرجت من مكانها. هبطت ڤيك على كعبيها ووجهها محمر مسرور.

هتفت: «لقد فعلتها!».

ثم أغلقت الخزانة.

وقف فرَّاش المدرسة، السيد يوجلي، في منتصف الرواق، ممسكًا بممسحته ودلوه الأصفر الكبير، ينظر إلى ڤيك، ودراجتها، وجسر الطريق المُختصر.

السيد يوجلي مُسنٌّ محني الظهر، يرتدي نظارة ذات إطار مذهب، وربطة عنق فراشية. كان يبدو كمدرس أكثر من المدرسين أنفسهم. هو يعمل كذلك حارس عبور الطريق، وفي يوم ما قبل عيد الفصح، اعتاد أن يوزع الحلوى على الأطفال الذين يعبرون الطريق أمامه. تقول الشائعات إن السيد يوجلي قد اتخذ هذه الوظيفة ليكون قريبًا من الأطفال، لأن أبناءه قد توفوا في حريق ببيتهم منذ أعوام طويلة. للأسف، كانت هذه الشائعة حقيقية، وقد قيل إنه قد أضرم النار في بيته إذ كان ثملًا وفقد الوعي وهو ممسك بسيجارة مشتعلة. لقد وجد يسوع عوضًا عن أبنائه، وصار من رواد اجتماعات العلاج من إدمان الخمر، بدلًا عن الحانات. كان قد جنى ثمار الإيمان والشفاء وهو في السجن.

نظرت ڤيك إليه وهو ينظر خلفه وفمه ينفتح وينغلق كسمكة، بينما ترتعش ساقاه بقوة.

قال بلهجته الشرقية التي تتجاهل حروف الراء: «أنت الفتاة مَكوين؟».

وضع يده على حنجرته متهدج الأنفاس وأضاف: «ما هذا الذي على الحائط؟ بحق يسوع، هل جُننت؟ هذا يبدو مثل جسر الطريق المُختصر، وأنا لم أره منذ أعوام».

سعل مرة أخرى، وصدر عن صدره صوت رطب غريب مختنق. صوت رجل تحت ضغط عصبي هائل.

فكرت ڤيك: كم عمره؟ *تسعون عامًا؟* أخطأت تقدير عمره بنحو عشرين عامًا، لكن سن الحادية والسبعين مناسبة للأزمات القلبية.

قالت ڤيك: «هذا صحيح. لا...».

ثم توقفت ولم تعرف ماذا تقول... لا تصرخ؟ لا تمُت؟

- إلهي.. إلهي...

قالها بصوت راجف مقسِّمًا الكلمة إلى مقطعين: إلا-هي. رفع يدًا مرتعشة ليغطي عينيه وهو يردف: «الرب راع، فلا يعوزني شيء».

قالت ڤيك مرة أخرى: «سيد يوجلي...».

صرخ: «ابتعدي! ابتعدي وخذي جسرك معكِ. هذا لا يحدث. أنت لست هنا!».

أبقى كفه فوق عينيه، وبدأت شفتاه تتحركان مرة أخرى. لم تسمعه ڤيك، لكنها تبينت ما قال من صلوات من حركة شفتيه.

«*في مراعٍ خضر يربضني. إلى مياه الراحة يوردني*».

أدارت دراجتها، وركبتها ثم بدأت تُبدِّل. لم تكن ساقاها ثابتتين، لكن خلال لحظة كانت قد انطلقت إلى عمق الجسر وظلامه ورائحة وطاويطه.

في منتصف المسافة، نظرت خلفها. السيد يوجلي في مكانه، وقد أخفض رأسه يصلي، وما زالت يده فوق عينيه، واليد الأخرى تقبض على المسَّاحة.

أكملت ڤيك طريقها، والصورة في كفها المتعرقة، حتى خرجت من النفق إلى طريق غابات بيتمان الظليل. علمت -قبل أن تنظر خلفها حتى- من خلال صوت خرير ماء النهر، وحفيف أوراق الشجر إذ تتخلله الريح، أن المُختصر قد اختفى.

بدَّلت منطلقة عبر أول أيام الصيف، تتزايد نبضات قلبها على نحو غريب، وعاد معها ألم ينخر عظامها، ولا يحمد عقباه.

منزل آل مَكوين

كانت ڤيك على وشك الخروج من المنزل بعد يومين، متجهة للقاء ويلا -وهي آخر فرصة للقاء صديقتها المقربة قبل أن تسافر مع عائلتها مدة ستة أسابيع إلى بحيرة وينيبيسوكي- حين سمعت أمها في المطبخ تقول شيئًا عن السيد يوجلي. سماع الاسم أطلق بداخلها إحساسًا بضعف مُعيق، واضطرت ڤيك أن تهوي جالسة. حاولت ألا تفكر في السيد يوجلي طيلة نهاية الأسبوع الماضي، وهي محاولة يسيرة، لقد أصيبت ڤيك ليلة السبت بصداع رهيب دفعها للقيء، وقد تركَّز الألم خلف عينها اليسرى، وشعرت بها كأنما ستقفز خارجة من محجرها.

صعدت الدرجات عائدة إلى المطبخ، ووقفت خارجه، تُنصت إلى هراء تشاركه أمها مع واحدة من صديقاتها، لم تكن تعرف ڤيك أي صديقة هي. ظلت واقفة مكانها تتنصت على مكالمة أمها لنحو خمس دقائق، لكن أمها لم تذكر السيد يوجلي بالاسم مرة أخرى. فقط قالت: *أوه، هذا شنيع! يا للرجل البائس*. لكنها لم تنطق اسمه.

أخيرًا سمعت ڤيك أمها تعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، ثم تبع ذلك صوت اصطكاك الصحون في حوض الغسيل.

لم تُرد ڤيك أن تعرف التفاصيل. كانت مرتعبة من المعرفة، لكن في الوقت نفسه لم تستطِع أن تكبح فضولها. الأمر بهذه البساطة.

أطلت برأسها عبر الباب وسألت أمها: «أمي؟ هل عرفت شيئًا عن السيد يوجلي؟».

- هممم؟

تساءلت ليندا، وهي واقفة أمام الحوض وظهرها نحو ڤيك. الأواني تصطك. فقاعة صابون تنزلق ثم تنفجر.

- أه، أجل. سقط عن عربته. وجدوه أمام المدرسة ليلة أمس يصرخ كالمجانين. لقد أقلع عن الخمر منذ ثلاثين عامًا، ومن وقتها... ومن وقتها قرر ألا يثمل أبدًا. الرجل المسكين. أخبرتني دوتّي إيفانز أنه كان في الكنيسة هذا الصباح يبكي كطفل صغير، ويغمغم أنه سيترك عمله، وأنه لا يجرؤ على العودة إليه مرة أخرى. أعتقد أنه مُحرج مما حدث.

نظرت ليندا إلى ڤيك، ثم عقدت حاجبيها في اهتمام وسألتها: «هل أنت بخير يا ڤيكي؟ لا تبدين في حال جيد. ربما من الأفضل أن تمكثي في البيت هذا الصباح».

قالت ڤيك بصوت غريب أجوف كأنما هو آتٍ من داخل صندوق: «كلا. أريد أن أخرج وأتنفس بعض الهواء النقي».

ترددت هنيهة ثم أضافت: «أتمنى ألا يترك عمله. هو بالفعل رجل لطيف».

- هو كذلك، وهو بالفعل يحبكم جميعًا، لكن الناس يتقدمون في العمر يا ڤيك، ويحتاجون إلى من يُعنى بهم. الجسد يبلى، وكذا العقل.

اتخذت ڤيك طريق الغابات في رحلتها، رغم أن هناك طريقًا أقصر إلى بيت ويلا عبر متنزه برادبوري، لكن ڤيك أرادت أن تتجول بدراجتها قليلًا لتمنح نفسها بعض الوقت للتفكير قبل أن تلقى أي شخص.

جزء منها كان يرفض التفكير في كونها سبب ما حدث، فماذا كان عليها أن تفعل بهذه الموهبة الغريبة التي تنفرد بها؟ لقد انطلق الكلب الآن، وستحتاج إلى بعض الوقت حتى تحاصره في ركن وتوثق رباطه.

لقد حلمت بثقب في العالم، وركبت دراجتها عبره، وكان هذا جنونيًّا. فقط المجانين هم من يتصورون أن أمرًا كهذا ممكن... باستثناء أن السيد يوجلي قد رآها، وقد أفسد مرآها عقله. المشهد قد أرعبه ودفعه للفرار من المدرسة حتى قرر عدم العودة إليها، المكان الذي عمل به لأكثر من عقد، المكان الذي أسعده الوجود فيه. السيد يوجلي المسكين المكسور هو الدليل على أن المُختصر حقيقة.

هي لم تحتج إلى دليل، لم تشأ أن تعرف ما عرفت.

تمنت لو أن هناك مَن تحدثه فيخبرها أنها بخير، وأنها ليست مجنونة. تمنت لو تجد شخصًا يستطيع أن يفسر ويشرح كيفية وجود جسر حين تحتاجه، جسر يوصلها إلى المكان الذي تريد.

نزلت التل مخترقةً جيب هواء بارد.

ليس هذا كل ما تمنت. هي تريدأن تجد الجسر نفسه، أن تراه مرة أخرى. شعرت بصفاء ذهني وثقة بنفسها وأحسَّت بكل ارتطام أو اهتزاز للدراجة إذ تعبر من فوق الأحجار والجذور. عرفت الفارق بين الواقع والخيال، وأبقت هذا الفارق واضحًا في عقلها حتى آمنت أنها لن ترى جسر الطريق المُختصر حين تصل إلى الطريق الترابي...

لكن هذا لم يحدث.

قالت للجسر: «أنت لست حقيقيًّا. أنت سقطت في النهر حين كنت في الثامنة».

جاء صوتها كصدى لكلمات السيد يوجلي. ظل الجسر العنيد في مكانه. أوقفت دراجتها وحدقت إليه من على مسافة آمنة تقارب عشرين قدمًا، لكنها أبصرت النهر يتماوج من تحته. هو حقيقة...

- ساعدني كي أجد من يخبرني أنني لست مجنونة.

وضعت قدميها فوق البدال، وبدت تقترب منه ببطء.

مع اقترابها من المدخل، رأت كتابة مألوفة باللون الأخضر على الحائط إلى يسارها.

هير ←

في المرات السابقة التي عبرت فيها الطريق المُختصر، كانت تدخل في حالة من السِّنة، فتبدِّل لا شعوريًّا وبلا تفكير. تتحول إلى جزء من الدراجة، مثلها مثل التروس والسلاسل.

في هذه المرة، أجبرت نفسها على المُضي ببطء في طريقها، رغم أن كل ما أرادته هو الخروج من الجسر في أسرع وقت. حاربت رغبتها في الإسراع كأنما الجسر يتهاوى من تحتها.

حاولت أن تحفر تفاصيل المكان في عقلها، وكادت تؤمن أنها لو دققت النظر إلى جسر الطريق المُختصر، وتعمدت التحديق إليه، سيذوب من حولها.

ثم ماذا؟ أين ستكون لو اختفى الجسر من الوجود؟ لا يهم. لكن الجسر صُمم على الوجود مهما حدقت إليه. خشبه عتيق بالٍ مشقق. المسامير في الحوائط يغطيها الصدأ. شعرت بألواح الأرضية تنضغط تحت ثقل الدراجة.

لن يتحول جسر الطريق المُختصر إلى هباء.

كانت واعية إلى التشويش كعادتها، وتشعر بصوته كالرعد يسري في أسنانها.

لم تجرؤ ڤيك على إيقاف دراجتها، والنزول من فوقها، ولمس الحوائط أو التجوال في المكان. كانت تؤمن أنها إن نزلت عن دراجتها فهي لن تعود إليها. جزء منها يعرف أن وجود الجسر يعتمد على استمرار حركتها إلى الأمام وعدم التفكير في التفاصيل.

انتفخ الجسر ثم تقلص، ثم انتفخ مرة أخرى. هوى التراب من السقف فوقها. هل رأت من قبل حمامة تطير أعلاها؟

رفعت رأسها ونظرت، فرأت السقف مفروشًا بالوطاويط الملفوفة في أجنحتها. كانت في حركة دقيقة مستمرة، تتململ وتغير وضع أجنحتها. بعضها أدار رؤوسه لينظر إليها. كل تلك الوطاويط متماثلة، وكلها يحمل وجهها نفسه. رغم تغضن وجوهها الوردية، ڤيكي تتعرف على ملامحها فيها باستثناء الأعين التي كانت حمراء براقة كقطرات دماء. وبرؤيتها، شعرت بألم حاد يخترق عينها اليسرى وصولًا إلى مخها. تسمع صرخاتها الحادة تحت الصوتية تعلو فوق صوت الهدير الاستاتيكي.

لم تستطع تحمُّل ذلك. أرادت أن تصرخ، لكنها كانت تعرف أنها لو فعلت، ستترك الوطاويط السقف وتحوم حولها، وستكون هذه هي نهايتها. أغمضت عينيها ودفعت بكل قوتها نحو الانطلاق إلى الأمام والخروج من الجهة الأخرى من الجسر. ثمة شيء يهتز بعنف، لكنها لم تقدر على تحديد إن كان الجسر يهتز أم الدراجة أم جسدها.

بعينين مغلقتين، لم تدرك أنها وصلت نهاية الجسر قبل أن تشعر بالإطار الأمامي يقفز من فوق خشب الأرضية. شعرت بلفحة النور والحرارة -لم تنظر لو مرة إلى أين أفضى بها الجسر- وسمعت صرخة: *احترسي!* فتحت عينيها في اللحظة التي اصطدمت فيها الدراجة بحافة الرصيف، ثم...

هير، آيوا

... انسكبت على الرصيف وكشطت جلد ركبتها.

انقلبت ڤيك على ظهرها ممسكة بركبتها وهي تصيح: «أوه.. **أوه**، *أوه* أوه!».

يرتفع صوتها وينخفض خلال أوكتافات صوتية عِدة، كأنها عازف يتدرب على سلم موسيقي.

جاءها صوت من وسط أشعة الشمس القوية: «آه، يا قُطَيطة، هل أ... أنت بخير؟ يجب أن تكوني أكثر حذرًا وأنت تقفزين خ... خ... خارجة من العدم هكذا».

ضيَّقت ڤيك عينيها أمام الضوء، لتتبين فتاة نحيلة لا تكبرها بكثير -ربما هي في العشرين من عمرها- تعتمر قبعة تكشف عن شعرها البنفسجي اللامع، وترتدي قلادة مصنوعة من أغطية السَّحب المميزة لعُلب البيرة، ويتدلى من أذنيها قرطان مكونان من مربعات لعبة السكرابل. تنتعل حذاءين عاليَي الرقبة بلا رباط من ماركة تشَك تايلور، فبدت مثل شخصية المحقق سام سبيد[1]، لو أنه كان فتاة قضت عطلة نهاية الأسبوع في مشاهدة فرق موسيقى «السكا»[2] الجامايكية.

قالت ڤيك: «أنا بخير. فقط كشطت ركبتي».

---

(1) Sam Spade: محقق من رواية وفيلم الصقر المالطي. (المترجمة)

(2) SKA: موسيقى من جامايكا، تدمج النغمات المحلية مع الجاز والبلوز الأمريكيين. (المترجمة)

إلا أن الفتاة لم تكن تُنصت. كانت تحدق إلى الطريق المُختصر وهي تقول: «أتعرفين؟ لطالما أردت جسرًا هنا. لم يكن في الإمكان أن يظهر في م... م... مكان أفضل من هذا».

قامت ڤيك مستندة إلى كوعيها، ونظرت خلفها إلى الجسر الذي يقطع نهرًا صاخبًا، في عرض ميريماك نفسه تقريبًا، إلا أن ضفتيه كانتا أكثر انخفاضًا، تصطف بمحاذاتهما أشجار البتولا والبلوط التي تزيد أعمارها على مائة عام.

- أهذا ما حدث؟ هبط جسري عليكم من سماء صافية؟

ظلت الفتاة تحدق إليه ولا ترمش. تحديق مستمر ربطته ڤيك بنظرة الهيام التي ترنو بها الفتيات إلى أعضاء فريق الروك «فيش»[1].

قال الفتاة: «كلا، لم يهبط من السماء، الأمر كان أشبه بمشاهدة صورة فورية تتضح ملامحها تدريجيًّا إذ تتعرض للضوء. هل رأيت من قبل صورة في أثناء الت... ت... تحميض؟».

أومأت ڤيك وهي تفكر في المربع الورقي البُني الذي يبهت تدريجيًّا وتتضح فيه التفاصيل والألوان، وتتخذ الأجسام فيه شكل الشخوص.

- ظهر جسرك بالتدريج في مكان عدة أشجار بلوط عتيقة. وداعًا أيتها البلوطات.

- ستعود أشجارك بمجرد أن أرحل.

للحظة أدركت ڤيك أنها لا تعتبر أيًّا مما يحدث حقيقيًّا، رغم أنه يبدو بالفعل كحقيقة. أردفت ڤيك: «لا تبدين مدهوشة لمرأى جسر يتجسد من الفراغ».

تذكرت رد فعل السيد يوجلي، وكيف ارتجف وغطى عينيه وصرخ فيها أن تبتعد.

- كنت أراقبك. لم أكن أعرف أنك ستدخلين بهذه الطريقة المُ... مُ... مذهلة، لكنني كذلك أعرفك ل... لن...

دون إنذار، توقفت الفتاة ذات القبعة عن الحديث، وقطعت عبارتها. شفتاها منفرجتان لتنطقا الكلمة التالية، لكن لا تخرج من بينهما أي كلمات. ساد الإجهاد ملامحها كأنها تحاول أن ترفع شيئًا ثقيلًا، بيانو أو سيارة. جحظت عيناها، واحمرَّت وجنتاها، ثم دفعت نفسها لتزفر، وأكملت على نحو

---

(1) Phish: فريق موسيقي أمريكي تأسس عام 1983. (المترجمة)

مفاجئ: «... لن تأتي إلى هناك مثل الأشخاص العاديين. اعذريني، أنا أتلع... لع... أتلعثم في الحديث».

- كنت تراقبينني؟

أومأت الفتاة وهي ترنو إلى الجسر مرة أخرى. قالت بصوت حالم بطيء: «جسرك... لا يؤدي إلى الجهة المقابلة من نهر سيدار، أليس كذلك؟».

- كلا.

- إلى أن يؤدي إذًا؟

- هافِرهيل.

- هل هي في آيوا؟

- كلا. ماساشوستس.

- أوه، لقد عبرت مسافة طويلة. أنت في كورن بيلت الآن، الأرض حيث كل شيء مُسطح إلا صدور النساء.

- معذرة، لكن... هلا عدنا إلى الجزئية التي قلتِ فيها إنك تراقبينني؟

- حسنًا. لقد كنت أنتظرك منذ شهور. لم أظن قط أنك ست... ستظهرين أبدًا. أنت المشاكسة، أليس كذلك؟

فتحت ڤيك فمها، لكن كلمة لم تخرج منه.

كان صمتها إجابة كافية، ودهشتها أسعدت الفتاة الأخرى التي أزاحت بعض خصلات شعرها البراق خلف أذنها. ثمة شيء «عفاريتي» في أنفها مرفوع الطرف وأذنيها المُدببتين، لكن يبدو أن هذا من تأثير المكان الذي تقفان فيه. كان مؤلفًا من تل أخضر تحت ظلال أشجار بلوط وارفة، يقف بين النهر والمبنى الكبير الذي يبدو ككاتدرائية أو جامعة، قلعة من الأسمنت والجرانيت ذات أبراج بيضاء ونوافذ ضيقة تناسب الرمي بالسهام.

- كنت أظنك صبيًّا، وكنت أتوقع هذا النوع من الأولاد الذين يكرهون أكل الخس ويعبثون في أنوفهم. ما رأيك في الخس؟

- لست من معجبيه.

كورت قبضتيها وحركتهما فوق رأسها وهي تقول: «كنت أعرف!».

ثم أنزلت قبضتيها وعقدت حاجبيها متسائلة: «أنت واحدة من أمهر العابثين في أنوفهم؟».

- لكن لا يراني أحد أفعلها. قلتِ إننا في آيوا؟
- بالتأكيد!
- وأين تقع آيوا؟

أجابت الفتاة ذات القبعة: «هنا».

بدأت ڤيك تشعر بشيء من الضيق. سألت: «حسنًا، أعني.. أعرف، لكن.. هنا أين؟».

- نحن في هير، آيوا. هذا هو اسم البلدة. أنت عند نهاية طريق سيدار رابيز الجميل ومدرسة هير العامة. وأنا أعرف كل شيء عن سبب قدومك. أنت محتارة بشأن الجسر وتحاولين فهم ما يحدث. هذا هو يوم سعدك!

صفَّقت بكفيها وأضافت: «أنت صادفت أمينة مكتبة! يمكنني أن أساعدك في الفهم وأرشح لك بعض الشعر الجيد. هذا هو عملي».

المكتبة

دفعت الفتاة قبعتها عتيقة الطراز إلى الخلف وقالت: «أنا مارجارِت، مثل اسم البطلة في رواية «هل أنت هنا يا الله؟ أنا مارجارِت»[1]. وأكره أن يناديني أحد بهذا الاسم».

- مارجارِت؟

- إلهي. لقد اكتفيت.

ابتسمت مردفة: «أنا مارجارِت لي. يمكنك أن تناديني ماجي. لو أنك دخلت المكتبة وأعطيتك ضمادة وكوبًا من الشاي، هل تظنين أن الجسر سيظل مكانه؟».

- أجل، أعتقد هذا.

- حسنًا. رائع. أتمنى ألا يختفي الجسر متخليًا عنك. أنا واثقة أن في إمكاننا إعادتك إلى بيتك دونه، ربما نجد رحلة ع... ع... عودتك أو شيئًا من هذا القبيل، لكن من الأفضل أن تعودي كما أتيت، حتى لا تضطري إلى شرح كيف انتهى بك المطاف في آيوا. أعني، لن يكون الأمر بهذا السوء لو مكثت قليلًا. لدي فراش في قسم الشعر الرومانسي، أنام هناك في بعض الليالي. يمكنك المبيت هناك وسأخيم بالخارج مع عمي في القاطرة، على الأقل حتى نجمع ثمن تذكرة حافلة عودتك.

- الشعر الرومانسي.

- الأرفف 821-2 حتى 821-6. المفترض ألا أبيت في المكتبة، لكن السيدة هيوارد تسمح بذلك من وقت لآخر. هي تعطف عليَّ لأنني يتيمة

---

(1) Are you here, God? It's mem Margaret: رواية لجودي بلوم. (المترجمة)

وغريبة الأطوار نوعًا. لا تعبئي. الناس تهوِّل من أمر عطف الآخرين عليهم، لكنني سعيدة كوني أبيت في المكتبة وأقرأ الكتب! من دون عطف، أين سأكون؟ أنا ع... ع... عبدة العطف!

أمسكت عضد ڤيك وساعدتها على النهوض على قدميها، ثم انحنت وأمسكت الدراجة، ثم أسندتها إلى مقعد خشبي.

- لا داعي لربطها. لا أظن أن أحدًا في البلدة ذو خيال يكفي كي يس... يس... يسرق أي شيء.

تبعتها ڤيك عبر متنزه كالغابة، حتى وصلتا مدخل معبد الكتب الحجري العظيم. كانت المكتبة محفورة في جانب التل، ومن الممكن عبور بوابة حديدية ثقيلة إلى ما خمنت ڤيك أنه قبو. أدارت ماجي مفتاحًا يتدلى من قفل، ثم دفعت الباب إلى الداخل، فلم تتردد ڤيك في الدخول. لم يخطر ببالها ألا تثق بماجي، أو تفكر في احتمالية أن تقودها هذه الفتاة التي تكبرها إلى زنزانة ذات جدران حجرية سميكة حيث لن يسمع أحد صراخها. فطنت ڤيك بفطرتها أن الفتاة التي ترتدي مربعَي سكرابل كقرطَين وتنعت نفسها بعبدة العطف لن تمثل أي نوع من أنواع التهديد. أرادت ڤيك شخصًا يخبرها ما إذا كانت مجنونة، ولم تُرد شخصًا مجنونًا. لكن لم يكن هناك سبب للخوف من ماجي، إلا إذا ظنت ڤيك أن المُختصر قد أساء إرشادها، وقد كانت موقنة أن هذا لم ولن يحدث.

الحجرة على الجانب الآخر من البوابة الحديدية أكثر برودة بعشر درجات أقل عن الخارج، وقد شمت ڤيك الخزانة المتخمة بالكتب قبل أن تراها لأن عينيها احتاجتا وقتًا حتى تتأقلما مع الظلام. تنفست بعمق عبق رائحة الخيال المتحلل، والتاريخ المفكك، والعبارات المنسية، واكتشفت فورًا أن الغرفة الملأى بالكتب لها رائحة حلوى مصنوعة من التين والفانيليا والصمغ والمهارة.

انغلق الباب الحديدي خلفهما.

قالت ماجي: «لو أن الكتب فتيات، والقراءة مضاجعة، فهذا هو أكبر ماخور في البلاد، وأنا أكثر القوادات قسوة. أصفع مؤخرات الفتيات وأعلمهن الحيل في أسرع وقت».

ضحكت ڤيك، ووضعت كفها على فمها وقد تذكرت أن أمناء المكتبات يكرهون الضوضاء.

قادتها ماجي عبر متاهات أكوام الكتب المعتمة، عبر ممرات ضيقة محاطة بالأرفف.

قالت ماجي: «لو اضطررت إلى الهرب سريعًا، مثل أن تهربي من الشرطة مثلًا، تذكري: ظلي على اليمين واهبطي الدرجات. هذا هو أسرع مخرج».

- هل تعتقدين أنني سأضطر إلى الهرب من مكتبة هير العامة سريعًا؟
- ليس اليوم. ما اسمك؟ لا بد أن لك اسمًا بخلاف المشاكسة.
- ڤيكتوريا. ڤيك. الوحيد الذي يدعوني المشاكسة هو أبي. مجرد دعابة. كيف تعرفين لقبي ولا تعرفين اسمي؟ وماذا كنت تقصدين بأنك كنت تنتظرينني؟ كيف ذلك؟ أنا حتى لم أعرف أنني آتية إلى هنا قبل عشر دقائق.
- هذا صحيح. يمكنني أن أساعدك في كل هذا. دعيني أطبِّب ج... ج... جرحك أولًا، ثم يأتي وقت الأسئلة والإجابات.

قالت ڤيك في تردد وحرج: «أعتقد أن الإجابات أهم من ركبتي. لقد أخفت شخصًا بجسري. رجل مسن لطيف في بلدتي. ربما أفسدت حياته كذلك».

نظرت ماجي إليها، وعيناها تلتمعان وسط ظلمة تلال الكتب. تفحصت ڤيك وهي تقول: «ليس الندم من شيم المش... مشاكسين. أنا أشكك في لقبك هذا».

ارتسمت شفتاها بابتسامة خفيفة وهي تردف: «لو أنك أزعجت أحدًا، فأنا أشك أنك كنت تقصدين، وأشك أنك قد تسببت في ضرر دائم. أمخاخ الناس كالمطاط، يمكنها أن تتقافز قليلًا من أثر الصدمات ثم تستقر. تعالي. سأجلب لك الضمادة والشاي... والإجابات. كلها في هذا الاتجاه».

خرجتا من بين أكوام الكتب، إلى مساحة باردة مفتوحة ذات أرضية حجرية. فكرت ڤيك في أن المكان يشبه مكاتب المحققين في الأفلام القديمة، لا مكتب أمينة مكتبة ذات تصفيفة شعر عصرية. المكتب له السمات الخمس الأساسية لمكاتب المحققين، مكتب رمادي معدني، تقويم معلق عفَّى عليه الزمن، مطبوع عليه صورة دعائية لامرأة، مشجب أفقي للسترات، حوض

مبقع بالصدأ، مسدس مربع الفوهة فوق مجموعة أوراق في منتصف المكتب. كان هناك كذلك حوض أسماك زينة ضخم يملأ تجويف في الحائط طوله خمسة أقدام.

خلعت ماجي قبعتها الرمادية وألقتها فتدلَّت من مشجب السترات. توهج شعرها البنفسجي أمام الضوء الهادئ المنبعث من حوض السمك، وبرقت فيه آلاف الشعيرات المضيئة. بينما تملأ ماجي غلاية ماء كهربية، راحت ڤيك تتفحص المسدس على المكتب، والذي اتضح لها أنه مجرد ثقالة ورق برونزية، محفور على مقبضها الأملس: ملك أ. تشيكوف.

عادت ماجي بالضمادات، وطلبت من ڤيك أن تجلس فوق المكتب. جلست ڤيك حيث طلبت ماجي ووضعت قدميها فوق المقعد الخشبي البالي. حين ثنت ركبتيها، عاد إلى عقلها شعور الوخز الحارق، ومعه عاد الألم المباغت خلف عينها اليسرى، كأن أداة جراحية ما تقبض على كرة العين وتضغط عليها، فراحت تحكها بكفها.

لمست ماجي ركبة ڤيك بقطعة قماش مبللة كي تنظف الجرح. يبدو أنها كانت قد أشعلت سيجارة في وقت ما، وكان دخانها حلوًا محببًا. عملت ماجي على تنظيف الجرح ببراعة ميكانيكي يتحقق من منسوب الزيت في سيارة.

نظرت ڤيك نظرة طويلة متفحصة إلى حوض السمك الضخم على الحائط. هو بحجم التابوت، تسبح فيه سمكة شبوط ذهبية ذات شوارب أكسبتها مظهرًا حكيمًا. اضطرت ڤيك أن تدقق النظر مرتين حتى تتأكد مما تراه في قاع الحوض. لم يكن حصى، بل طبقة من مربعات لعبة السكرابل. مئات منها تحمل فقط حروف «س»، «م»، «ك».

من خلال زجاج الحوض المخضر الذي يشوه الرؤية، رأت ڤيك ما على الجانب الآخر من الحائط، مكتبة أطفال مفروشة بالأبسطة. عدد من الأطفال مع أمهاتهم يجتمعون في نصف حلقة حول امرأة ترتدي تنورة صوفية أنيقة، تجلس على مقعد صغير على حجمها، وتمسك كتابًا صفحاته من الورق المقوى، توجهه ناحية الأطفال كي يشاهدوا الصور فيه. كانت تقرأ لهم رغم أن ڤيك لم تكن تسمعها من خلال الحائط الحجري، أو عبر صوت فقاعات الهواء في حوض الأسماك.

قالت ماجي: «جئت بالضبط في وقت حكي القصص. ساعة الحكايات هي أ... أ... أفضل ساعات اليوم، وهي الساعة الوحيدة التي أهتم بها».

- يعجبني حوض السمك.

- تنظيفه أصعب من تنظيف عاهرة.

زمَّت ڤيك شفتيها كي لا تنفجر ضاحكة. ابتسمت ماجي، فعادت غمازتا خديها للظهور. كان فاتنة بخديها المكتنزين وعينيها البراقتين، كأنها جنية قصص ذات طابع فرق موسيقى الروك.

- أنا من وضعت مربعات السكرابل بالأسفل -أنا مجنونة نوعًا بهذه اللعبة- لكني أضطر إلى إخراجها مرتين في الشهر وغسلها. الأمر أشبه بألم في المؤخرة، أشد قوة من ألم سرطان المستقيم. هل تحبين لعبة السكرابل؟

نظرت ڤيك إلى قرطَي ماجي، ولاحظت للمرة الأولى أن أحدهما يحمل حرف «س» والآخر حرف «ل»[1].

- أنا لم ألعب هذه اللعبة من قبل. مع ذلك أعجبني قرطاك. هل سبَّب هذان الحرفان مشكلات لك؟

- كلا. لا أحد يدقق النظر في أمينة مكتبة. الناس يخشون الإصابة بالعمى من النظر إلى كل هذه الحكمة المكثفة! اسمعي، أنا في العشرين من عمري، وواحدة م... م... من أمهر خمسة لاعبي سكرابل في الولاية. أعتقد أن هذا ينبئ بالكثير عن ولاية آيوا أكثر مما ينبئك بشيء عني.

ألصقت الضمادة على جرح ڤيك، ثم ربتت عليها وقالت: «كل شيء أفضل هكذا».

سحقت ماجي سيجارتها في علبة صفيحية ملأى بالرمال، ثم ذهبت لصب الشاي. بعد لحظات عادت بكوبين مشطوفَي الحواف، واحد مكتوب عليه: المكتبات، حيث الهدوء. وعلى الآخر عبارة: لا تجبرني على استخدام صوت أمينة المكتبة.

---

(1) أول حرفين من عبارة «سحقًا لك». (المترجمة)

أخذت ڤيك كوبها، ومالت ماجي جوارها كي تفتح الدرج حيث يحتفظ المحقق الخاص دومًا بزجاجة الخمر، وأخرجت كيسًا قديمًا من المخمل البنفسجي مختومًا بكلمة «سكرابل» بحروف ذهبية حالَ لونها.

- سألتِني كيف عرفت بشأنك، وكيف عرفت أنك أ... أ... آتية. إنه الس... س... س...

بدأ خداها يحمرَّان، فسألت ڤيك: «السكرابل؟ شيء له علاقة بالسكرابل؟».

أومأت ماجي ثم أضافت: «شكرًا لاستكمالك عبارتي. الكثير ممن لديهم ل... ل... لعثمة يكرهون أن يكمل الناس ع... ع... عباراتهم. لكننا قد اتفقنا أنني أعشق العطف».

شعرت ڤيك بوجهها يسخن. رغم أنه لا يوجد أي سخرية في كلمات ماجي، فهي تشعر أن ما قالت زاد الأمر سوءًا.

- آسفة.

بدا أن ماجي لم تسمع. جلست على مقعد مستقيم الظهر جوار المكتب ثم قالت: «عبرت هذا الجسر على ظهر دراجتك، هل يمكنك الوصول إلى الجسر دونها؟».

هزت ڤيك رأسها نافيةً. أومأت ماجي وأردفت: «كلا. أنت ترين أحلام اليقظة عن طريق دراجتك فتخلقين الجسر، ثم تستخدمينه في العثور على المفقودات، أليس كذلك؟ في العثور على أشياء تحتاجينها؟ مهما بَعُد عنك، فالشيء الذي تريدين دائمًا عند الطرف الآخر من الج... جسر؟».

- أجل! إلا أنني لا أعرف لماذا أو كيف أفعل ذلك. أحيانًا ما أشعر أنني أتخيل كل تلك الرحلات عبر الجسر، وأحيانًا ما أشعر أنني قد جُننت.

- لست مجنونة، بل مُبدعة! أنت م... م... مبدعة قوية. وأنا كذلك. لديك دراجتك ولدي مربعات السكرابل. حين كنت في الثانية عشرة، رأيت لعبة سكرابل قديمة معروضة للبيع ضمن أغراض مستعملة بسعر دولار. كانت معروضة وقد رُصت بعض الحروف فيها مكونةً كلمة. حين رأيتها عرفت أن عليَّ شراءها، بل أحتاج إلى شرائها. كنت سأدفع أي شيء مقابل الحصول عليها، ولو لم تكن معروضة للبيع لكنت سرقتها وهربت. مجرد الوجود جوار هذه اللعبة قد أضفى حيوية للواقع. رأيت لعبة قطار تنطلق من تلقاء نفسها على قضبانها، وجهاز تلفاز ضمن

المعروضات، وبمجرد أن رأيت الس... سكرابل جُن جنونه، وبدأ يش..
ش...

- يشوش.

قالتها ڤيك وقد نسيت الوعد الذي قطعته على نفسها منذ لحظات بألا تكمل عبارات ماجي مهما ساءت لعثمتها. لكن لم تمانع ماجي، وقالت: «أجل».

- حدث معي أمر مماثل. حين أعبر الجسر أسمع تشويشًا استاتيكيًّا حولي.

أومأت ماجي كأن ما قالت ڤيك أقل الأمور غرابة في العالم. أضافت: «منذ دقائق، انطفأ النور في كل أنحاء المكتبة، وهكذا عرفت أنك قريبة. جسرك يسبب للواقع ماسًّا كهربيًّا، مثله مثل السكرابل. أنت تجدين أشياء، ومربعات السكرابل تكتب لي أشياء. كتبت لي أنك ستأتين اليوم وأنني سأجدك بالخارج. قالت لي إن المشاكسة ستعبر الجسر. لقد كانت تثرثر عنك منذ أشهر».

سألتها ڤيك: «هل يمكن أن تُريني هذا؟».

- أنا بحاجة إلى ذلك فعلًا، هذا جزء من سبب وجودك هنا. ربما لدى مربعاتي ما تبوح لك به.

فتحت الكيس، ومدت يدها إلى داخله ثم أخرجت بعض المربعت وأسقطتها عشوائيًّا على المكتب.

أدارت ڤيك عنقها كي تنظر إليها، لكنها كانت مجرد فوضى حروف.

- هل تقول شيئًا؟

شرعت ماجي تدفع المربعات بخنصرها وتعيد ترتيبها وهي تقول: «ليس بعد».

- هل *ستقول* شيئًا؟

أومأت ماجي إيجابًا.

- لأنها سحرية؟

- لا أظن أن شيئًا فيها سحريًّا، لم تكن لتعمل مع أي شخص آخر سواي. المربعات هي سكِّيني، أداتي لثَقب فتحة في الواقع. أعتقد أن تلك الأدوات تكون دومًا شيئًا تحبينه. لطالما كنت أحب الكلمات، والسكرابل

منحتني فرصة للعب بها، ودفعتني للمشاركة في دوري السكرابل وفزت.

كانت قد أعادت ترتيب الحروف مكونة جملة: **ستحب المشاكسة الشجر.**

وتبقت بعض الحروف المتناثرة الزائدة.

سألت ڤيك وهي تدير رأسها لترى المربعات المقلوبة: «وماذا تعني هذه الحروف؟».

- ليس لدي أي فكرة لعينة. لم أفهمها بعد.

عقدت ماجي حاجبيها وراحت تعيد ترتيب الحروف مرة أخرى.

رشفت ڤيك الشاي، وكان حلوًا دافئًا، لكن ما إن ابتلعته حتى شعرت بعرق بارد يتكاثف أعلى شفتها. تلك الكلَّابات الخيالية التي تقبض على عينها تضغط أكثر.

قالت ماجي في شرود وهي تتأمل حروفها: «كلٌّ منا يعيش في عالمين، العالم الواقعي بكل حقائقه البغيضة وقوانينه. في العالم الواقعي هناك أمور حقيقية وأخرى خيالية. أغلب العالم الواقعي م... م... مقرف، لكن كلنا نعيش في عالم آخر داخل عقولنا. عالم باطني... عالم من الأفكار، وفي عالم مصنوع من الأفكار كل فكرة هي حقيقة. المشاعر ملموسة مثلها مثل الجاذبية. المبدعون مثل الكُتاب والموسيقيين أمثال هنري رولنز يمضون أغلب وقتهم يجولون في عالم أفكارهم. المبدعون الأق... الأقوياء يمكنهم استخدام سكين لقطع الخيوط التي تفرق العالمين، ثم يوصلونهما ببعضهما بعضًا. دراجتك، ولعبة السكرابل الخاصة بي هما سكِّينانا».

أحنت ماجي رأسها لتقرأ الحروف التي رتبتها. **المشاكسة ستجد لطفلها أحمق.**

قالت ڤيك: «لا أعرف أي حمقى».

- وتبدين أصغر من أن يكون لك طفل. هذا دور صعب. أتمنى لو أن معي المزيد من الم... م...

- إذًا جسري مُتخيَّل؟

- ليس وأنت تركبين دراجتك، وقتها يكون حقيقيًّا. هو باطنك وقد جلبته إلى العالم العادي.

- لكن كيس السكرابل، مجرد كيس عادي لا مثل دراجتي. لا تفعلين به شيئًا مستحيلًا...

بينما تتحدث ڤيك، دسَّت ماجي يدها في الكيس، فعلا صوت المربعات وهي تتصادم وتحتك ببعضها بعضًا إذ تغوص يدها في الكيس ثم يتبعها عضدها، فكوعها، فذراعها بالكامل حتى الكتف. الكيس لا يزيد طوله على ست بوصات ورغم ذلك اتسع لذراع ماجي دون أي انبعاج في قماشه. سمعت ڤيك صوت الذراع يغوص ويغوص فيما بدا لها *كآلاف* القطع الخشبية.

صاحت ڤيك: «*آه!*».

على الجهة الأخرى من حوض الأسماك، نظرت أمينة المكتبة -التي كانت تقرأ- حولها.

قالت ماجي: «هذا ثقب واسع للغاية في العالم الواقعي».

بدا الآن كأنما بُترت ذراعها من عند الكتف، وغُطي الجرح -لسبب ما- بكيس سكرابل. أردفت: «أنا أبحث في باطني لا في الكيس كي أجد المربعات التي أريد. حين أخبرتك أن السكرابل أو دراجتك ما هما إلا سكين لقطع فتحة في العالم الواقعي، فأنا لم أكن أتكلم بصورة مجازية».

زاد ألم عين ڤيك اليسرى حتى شعرت بالغثيان. سألتها: «هلا أخرجت ذراعك من الحقيبة لو سمحت؟».

أمسكت ماجي الكيس المخملي البنفسجي بذراعها الأخرى ونزعته، ثم وضعته على المنضدة، فسمعت ڤيك المربعات الخشبية تصطك بداخله.

قالت ماجي: «مشهد مخيف، أعرف».

سألت ڤيك: «كيف *تفعلين* ذلك؟».

أخذت ماجي شهيقًا عميقًا ثم أجابت: «بعض الناس يستطيعون التحدث بعشرات اللغات المختلفة، أليس كذلك؟ كيف يركل بيليه كرة القدم لتطير من فوق رأسه؟ أعتقد أن لكل شخص موهبته، لكن كم شخصًا من بين كل مليون وسيم وموهوب محظوظ كفاية حتى يصير نجمًا س... س... سينمائيًّا؟ ولا حتى شخص واحد من كل مليون ماهر في اللغة مثل الشاعر جيرارد مانلي

هوبكينز. هو يعرف «الباطن» وهو من صكَّ هذا المُصطلح! البعض نجوم سينما، والبعض لاعبو كرة قدم مهرة، وأنت مبدعة ق... قوية. هذا غريب مثلما يولد البعض بعينين غير متماثلتين. هناك آخرون مثلنا وقد قابلتهم، أشار لي السكرابل نحوهم».

مالت ماجي نحو مربعاتها الخشبية وراحت تحركها على هذا النحو وذاك وهي تضيف: «لقد قابلت فتاة لديها مقعد متحرك ذو عجلات بيضاء قديمة جميلة، كانت تستخدمه لتخفي نفسها. كل ما تفعل هو أنها تدفع كرسيها للخلف إلى ما تسميه الدرب المعوَج. هذا هو باطنها. تروح وتعود من وإلى ذلك الدرب... من وإلى الوجود، لكنها تظل على معرفة بما يحدث في العالم الواقعي رغم اختفائها. لا توجد حضارة في العالم لا تملك قصصًا عن أناس مثلنا أنا وأنت، أناس يستخدمون الطلاسم للعبث بالواقع. قبائل النافاهو على سبيل المثال...».

انخفض صوتها ثم اختفى، ورأت ڤيك على ملامحها نظرة الفهم المهموم إذ تحدثت إليها مربعاتها. بالكاد استطاعت أن تقرأ ما أمام ماجي قبل أن تبعثره يدها.

ستجد المشاكسة الشبح.

- ماذا تعني هذه العبارة؟ وما هو الشبح؟

نظرت ماجي إلى ڤيك نظرة لامعة تحوي الاعتذار والرعب معًا وقالت: «أوه.. يا للقُطيطات...».

- هل هو شيء فقدتِه؟
- كلا.
- شيء ترغبين أن أجده من أجلك؟ ما هو؟ يمكن أن أساعدك...
- كلا. كلا! أريدك أن تَعِدِيني ألا تذهبي للبحث عنه.
- هل هو رجل ما؟
- بل مصيبة. أسوأ مصيبة يمكن أن تتخيليها. أنت في الثانية عشرة من عمرك تقريبًا؟
- الثالثة عشرة.
- حسنًا... ل... ل...

علِقت ماجي عند بداية الكلمة وعجزت عن الاستمرار. أخذت نفسًا مرتجفًا عميقًا، وأدخلت شفتها السفلى إلى داخل فمها، ثم عضتها بقوة حتى كادت ڤيك تصرخ. زفرت ماجي ثم أكملت دون أي أثر للعثمة: «لكن عِديني».

- إذًا لماذا يريد السكرابل أن يخبرك أن في استطاعتي أن أجده؟ لماذا يقول هذا؟

هزت ماجي رأسها وقالت: «الأمر ليس كذلك. السكرابل لا يريد أي شيء، مثلما لا تريد السكين أي شيء. أستخدم السكرابل للعثور على الحقائق خلف إدراكنا مثلما تستخدمين فتاحة الخطابات لفتح رسائلك. والأمر يشبه أن تتلقّي خطابًا بداخله قنبلة. مجرد طريقة لتفجير نفسك البائسة الصغيرة».

امتصت ماجي شفتها السفلى، وحركت فوقها لسانها أمامًا وخلفًا.

- لكن لماذا لا يجب أن أجده؟ أنت بنفسك قلت إنني ربما أكون هنا كي تخبرني مربعاتك بشيء، فلماذا تذكر اللعبة أمر هذا الرجل الشبح ما لم ترغب في أن أبحث عنه؟

قبل أن تجيب ماجي، مالت ڤيك أمامًا ووضعت يدها على عينها. الكلّابات الخيالية تضغط على عينها اليسرى حتى تكاد تفقؤها. رغم عنها أنَّت.

- ما بك؟ تبدين في حالة سيئة.

- عيني. تؤلمني هكذا حين أعبر الجسر، لكن ربما ساء الوضع لأنني مكثت معك فترة. عادةً ما تكون رحلاتي قصيرة.

بين عينها وشفة ماجي، بدا لها أن حديثهما مدمر لكلتيهما. قالت ماجي: «تذكرين الفتاة التي أخبرتك عنها؟ صاحبة الكرسي المتحرك؟ حين بدأت استخدام كرسيها كانت في صحة جيدة. كان كرسي جدتها، وقد كانت تحب اللعب به، لكن ما إن مكثت طويلًا في الدرب المعوج حتى أصاب ساقيها الخدر. بحلول الوقت الذي قابلتها فيه كانت قد شُلت من الخصر حتى أطراف أصابع قدميها. استخدام هذه الأشياء يكلفنا الكثير. وجود الجسر في مكانه يكلفك الكثير الآن. يجب أن تستخدميه فترة ق... قصيرة للغاية».

سألت ڤيك: «وماذا يكلفك استخدام السكرابل؟»

- سأخبرك سرًّا. لم أكن *أ..أ.. أتلعثم* من قبل!

ابتسمت مرة أخرى بشفتين داميتين، ومضت هنيهة حتى أدركت ڤيك أن ماجي تتلعثم هذه المرة عامدة.

- هيا، يجب أن تعودي. لو مكثنا هنا أكثر سينفجر رأسك.

- الأفضل أن تخبريني عن الشبح الآن قبل أن يتبعثر مخي على مكتبك. لن أرحل قبل أن تخبريني.

فتحت ماجي الدرج وأسقطت فيه كيس السكرابل، ثم أغلقته بقوة غير ضرورية، وحين تحدثت، كان صوتها يخلو من أي وِد.

- لا تكوني مُ..مُ...

ترددت، ربما لم تجد ما تكمل به عبارتها، أو تلعثمت.

سألتها ڤيك: «لا تكوني مشاكسة؟ لقد صار لقبي يليق بي الآن أكثر، أليس كذلك؟».

زفرت ماجي ببطء واتسعت طاقتا أنفها وهي تقول: «أنا لا أمزح يا ڤيك. الشبح هو شخص يجب الابتعاد عنه. ليس كلٌّ من يملك موهبة كمواهبنا هو شخص لطيف. لا أعرف الكثير عن الشبح سوى أنه رجل عجوز ذو سيارة عتيقة، وسيارته هي سكينه، إلا أنه يستخدمها لشق الحناجر. يأخذ الأطفال في نزهة في سيارته، ويفعل لهم *شيئًا*. يستغلهم -كمصاصي الدماء- كي يظل حيًّا. يقودهم إلى باطنه، مكان خبيث في أحلامه حيث يتركهم هناك. حين يخرجون من سيارته لا يعودون أطفالًا، بل مخلوقات تعيش فقط وسط ثلوج خيال الشبح».

- كيف عرفتِ ذلك؟

- السكرابل. بدأت اللعبة تخبرني عنه منذ عامين، بعد أن خطف طفلًا من لوس أنجلوس. كان يعمل الشبح وقتها في منطقة الساحل الغربي، لكن شيئًا حدث دفعه لتغيير انتباهه نحو الشرق. هل قرأت خبر الفتاة الروسية التي اختفت من بوسطن؟ منذ عدة أسابيع؟ اختفت مع أمها.

كانت ڤيك قد سمعت بالقصة، فحيث تسكن عند أطراف الغابات كان هذا الحدث على قمة الأخبار المتداولة لعدة أيام. شاهدت والدة ڤيك كل الأخبار في التلفاز في صدمة وذعر، الفتاة المفقودة في عمر ڤيك، ذات شعر أسود،

نحيلة، ابتسامتها غريبة فاتنة. سألت والدة ڤيك أباها كريس مَكوين: «*هل تظنها ماتت؟*».

فردَّ والد ڤيك: «*هذا لو أنها محظوظة*».

قالت ڤيك: «ابنة جريجوريسكي».

- أجل. جاء سائق ليموزين ليصحبها من الفندق، لكن أحدهم خدره وخطف مارتا جريجوريسكي وأمها. كان هذا هو الشبح. امتص الفتاة ابنة جريجوريسكي ثم رماها مع بقية الأطفال الذين استغلهم في مدينة من خياله، باطن لا يرغب أحد في أن يزوره. مثله مثل جسرك، لكنه أكبر. أكبر بكثير.
- ماذا عن الأم؟ هل امتصها كذلك؟
- لا أظنه يتغذى على الكبار. فقط الأطفال. لديه شخص يع... يعمل معه، يساعده في عمليات الخطف ويوكل إليه مهمة التعامل مع الكبار. هل تعرفين رينفيلد؟
- أحدب دراكولا أو شيء من هذا القبيل؟
- هو قريب من هذا. أعرف أن الشبح طاعن في السن، وأن لديه حفنة من «الرينفيلدات». يخبرهم بالأكاذيب، ويملؤهم بالأوهام، وربما يقنعهم أنهم *أبطال*. دائمًا ما يُ... يُضحي بهم في النهاية، لذا هم مهمون بالنسبة إليه. حين تنكشف جرائمه يُحمِّل واحدًا من مساعديه البُله العواقب. لقد كان يختطف الأطفال منذ زمن، وهو بارع في الاختباء وسط الظلال. لقد جمعت كل شيء عن الشبح، لكني فشلت في معرفة أي معلومة تساعدني في تحديد هويته.
- لماذا لا تسألين السكرابل عن اسمه؟

غمزت ماجي، وفي صوتها خليط من الحزن والحيرة قالت: «ثمة قوانين. لا يمكن أن يذكر السكرابل أسماء فعلية، لهذا أخبرتني اللعبة أن أتوقع وصول المشاغبة، لا ڤيك».

- لو أنني وجدته، أو عرفت اسمه أو شكله، هل يمكننا أن نوقفه؟

ضربت ماجي المكتب بكفها بقوة، حتى قفز الكوبان من مكانيهما. عيناها غاضبتان... مرتعبتان.

- إلهي يا ڤيك! ألا تنصتين لما أقول؟ لو وجدته فقد تموتين، وسيكون هذا ذنبي! هل تظنين أن ضميري سيتحمل هذا؟

- لكن ماذا عن كل الأطفال الذين سيؤذيهم لو لم نفعل شيئًا؟ أليست أفعاله تقودهم إلى...

تخلت ڤيك عن استكمال عبارتها حين رأت النظرة على وجه ماجي، كانت ملامحها متألمة متعبة، لكنها مدت يدها وأخذت منديلًا ورقيًّا من العلبة ثم ناولته لڤيك.

- عينك اليسرى... أنت تبكين يا ڤيك. هيا، يجب أن نعيدك. الآن.

لم تعترض ڤيك حين تناولت ماجي يدها وقادتها إلى خارج المكتبة، ثم سارت بها عبر الطريق تحت ظلال البلوط.

ثمة طائر مغرد يرشف الرحيق من زجاجة معلقة من إحدى الأشجار، جناحاه يئزان كمحرك. تطير اليعاسيب عبر التيارات الحرارية، أجنحتها تبرق كالذهب تحت شمس الغرب الأوسط.

الدراجة الرالي كانت حيث تركتها، مستندة إلى فرع شجرة. خلفها طريق أسفلتي من حارة واحدة يدور حول المكتبة ويصل إلى جانب النهر، ثم إلى الجسر.

مدت ڤيك يديها نحو مقود الدراجة، وقبل أن تمسكه، اعتصرت ماجي رسغها وقالت: «هل عبور الجسر آمن عليك؟ هل تودين عبوره؟».

- لم يحدث لي شيء من قبل.

- ليس ما تقولين مُطمئنًا. هل اتفقنا ب... بشأن الشبح؟ أنت أصغر من أن تبحثي عنه.

قالت ڤيك وهي تعتلي دراجتها: «حسنًا. أنا صغيرة للغاية».

حتى وهي تنطق هذه العبارة، كانت تفكر في الرالي، وتذكر أول مرة رأتها فيها. قال البائع إنها كبيرة بالنسبة إليها، ووافقه أبوها، وقال لها إنه سيشتريها لها حين تكبر. بعد ثلاثة أسابيع، وفي يوم عيد ميلادها، وجدتها أمام المنزل.

قالت ماجي: «كيف سأعرف أنك عبرت الجسر في أمان؟».

- دائمًا ما أعبره بأمان.

أشعة الشمس كإبر معدنية تنغز عين ڤيك اليسرى. غام العالم أمامها، وازدوجت رؤيتها فرأت ماجي اثنتين، ثم عادت إلى طبيعتها وهي تناولها وريقة مطوية.

- خذي هذه. أي شيء لم أذكره عن العالم الباطني مذكور هنا، ومكتوب بيد خبير في هذه الأمور.

أومأت ڤيك ودسَّت الوريقة في جيبها.

هتفت ماجي وهي تداعب شحمة أذنها، ثم تنقل يدها إلى الأذن الأخرى: «أوه.. انتظري».

وضعت شيئًا في كف ڤيك التي سألتها: «ما هذا؟».

ثم نظرت إلى يدها لترى القرطين على شكل مربعَي سكرابل. قالت ماجي: «اعتبريهما درعًا، أو دليل المتلعثمة المُختصر للتعامل مع العالم. في المرة القادمة التي يخذلك فيها أحدهم، ارتديهما، وستشعرين أننا معًا. ماجي تضمن لك هذا».

- شكرًا يا ماجي على كل شيء.

- هذا سبب وجودي في العالم... أنا نبع معرفة... هذا أنا! عودي في أي وقت لتستزيدي من علمي.

أومأت ڤيك مرة أخرى، ولم تستطع أن تقول شيئًا آخر؛ رنين صوتها يهدد بأن يفجر رأسها، كمصباح تحت حذاء عالي الكعب. بدلًا عن الحديث، اعتصرت كف ماجي، واعتصرت ماجي كفها.

مالت ڤيك أمامًا ووضعت قدميها على البدالين، ثم انطلقت نحو ظلام الاستاتيكية وهديرها المميت.

هافِرهيل، ماساشوستس

أول ما أدركت، كان صعودها التل عبر شارع غابات بيتمان. تشعر أن أحشاءها مضطربة ووجهها مشتعل بالحمى. ظلت تصعد بساقيها غير المتزنتين حتى خرجت من الشارع ودخلت باحة منزلها الخلفية.

لم تكن ترى بعينها اليسرى وشعرت كأنما أُزيلت بملعقة. جانب وجهها لزج، وكل ما خطر ببالها أن عينها قد فُقِئت كحبة عنب وتسيل على خدها الآن.

سارت ڤيك نحو أرجوحتها، فتعثرت فيها. كان والدها قد أخرج دراجته الهارلي البخارية، وراح يمسحها بقطعة من الجلد المقلوب، حين سمع صوت صلصلة سلاسل الأرجوحة، فنظر إلى أعلى وسقطت قطعة القماش من يده. انفتح فمه كأنما في صدمة.

- اللعنة! هل أنت بخير يا ڤيك؟ ماذا حدث؟

- كنت أركب دراجتي.

وكأن هذا قد فسر كل شيء.

سألها وهو ينظر خلفها إلى الطريق متوقعًا أن يرى الدراجة هناك. كانت هذه هي المرة الأولى التي تدرك فيها ڤيك أنها لا تدفع دراجتها، ولا تعرف ماذا حدث لها. كل ما تذكر هو الاصطدام بجدار الجسر في منتصف الطريق والسقوط عنها. تذكر الوطاويط تطير في الظلام حولها وهي تطلق صوت شريي شريي. ثم بدأت تفقد السيطرة على ارتجافات جسدها.

- لقد سقطت عنها.

- سقطتِ عنها؟ هل صدمك أحد بسيارته؟

ضمها كريس مَكوين بين ذراعيه وأردف: «يا يسوع المسيح. أنت غارقة في الدماء يا ڤيك. *ليندا!*».

ثم سارت الأمور كما في المرات السابقة، حملها أبوها إلى غرفة نومها، هرعت أمها إليهما، ثم هرعت مرة أخرى لجلب الماء وأقراص التلينول.

إلا أن هذه المرة لم تكن كسابقاتها، لأن ڤيك ظلت محمومة مدة أربع وعشرين ساعة، وقد وصلت درجة حرارتها 39 درجة مئوية. ظل ديفيد هاسِلهَف يزور حجرتها، ومكان عينيه عُملتان معدنيتان، وكفيه في قفازين جلديين. يحاول جرها من كاحليها ليخرجها من المنزل إلى سيارته، والتي لم تكن سيارته المعتادة. صارعته، صرخت ودفعته وضربته، فتحدث هاسِلهَف بصوت والدها وأخبرها أن كل شيء على ما يرام، وأن عليها أن تنام ولا تقلق بشأن أي شيء، وأنه يحبها... لكن وجهه كان يفور بالكراهية، ومحرك السيارة يدور، وعرفت أنه الشبح.

في مرات أخرى كانت واعية أنها تصرخ باحثة عن دراجتها، وتظل تصرخ حتى يمسك أحدهم بكتفيها.

- أين دراجتي؟ أين هي؟ أريدها.. *أريدها!* لا أستطيع أن *أجد* شيئًا دون دراجتي!

أحدهم يقبل وجهها ويهدئها. أحدهم يبكي. غالبًا أمها.

بللت ڤيك فراشها عدة مرات.

في ثاني أيامها في المنزل، جالت في الباحة الأمامية عارية، وظلت بالخارج خمس دقائق تبحث عن دراجتها حتى رآها السيد دي زوت -الرجل المُسن الذي يسكن أمامهم- وحملها إلى منزلها. مضى وقت طويل منذ آخر مرة عبرت فيها الطريق لتساعد السيد دي زوت في طلاء مجسمات الجنود وسماع موسيقاه القديمة، وفي السنوات الأخيرة كانت تراه مجرد رجل نازي مسن مخبول، كان قد اتصل بالشرطة في مرة حين تصاعدت حدة الشجار بين أبويها. ومع ذلك، الآن تتذكر أنها تحبه، وتحب رائحته التي تفوح بالقهوة، وتحب لكنته النمساوية الغريبة. لقد أخبرها في مرة أنها بارعة في التلوين، وأخبرها أنها ستكون فنانة.

قالت ڤيك للسيد دي زوت بنبرة واثقة وهو يسلمها لأمها: «الوطاويط صارت قلقة الآن. المخلوقات الصغيرة المسكينة. أعتقد أن بعضها طار خارج الجسر وضل طريقه».

ظلت نائمة طيلة اليوم، ثم استيقظت بذهن ضبابي عند منتصف الليل، تتسارع دقات قلبها هلعًا من أمور غير منطقية. لو أن سيارة عبرت أمام منزلها وألقت كشافاتها الضوء على سقف الحجرة، كانت تدس مفاصل كفها في فمها لتمنع نفسها من الصراخ. صوت باب سيارة يغلق بالخارج يفزعها كأنه صوت طلقة نارية.

في ثالث أيامها في الفراش، أفاقت من حالتها المشوشة على صوت والديها يتحدثان في الحجرة المجاورة.

- حين أُخبرها أنني لم أجدها، سيتحطم قلبها. لقد أحبت تلك الدراجة.

قالت أمها: «أنا سعيدة بالخلاص من تلك الدراجة، وأفضل ما يمكن حدوثه هو ألا تركبها مرة أخرى».

ضحك والدها ضحكة قاسية ثم قال: «يا لحنانك!».

- ألم تسمع ما كانت تقوله عن الدراجة في اليوم الذي عادت فيه إلى المنزل؟ عن ركوبها حتى تلقى الموت؟ هذا ما أعتقد أنها تفعله في خيالها حين تمرض هكذا. تركب دراجتها مبتعدة عنا، وتنطلق نحو... أيٍّ كان ما تسميه. الجنة، ما بعد الموت. لقد أرعبتني بكل هذا الحديث يا كريس. لا أريد أن أرى هذه الدراجة اللعينة مرة أخرى.

صمت أبوها لوهلة، ثم قال: «ما زلت أعتقد أن علينا الإبلاغ عن أن أحدهم قد صدم ڤيك وهرب».

- وهل حادث كهذا يصيب المرء بالحمى؟

- لقد كانت محمومة من قبل، وقد قلت إنها نامت مبكرًا في اليوم السابق. كانت شاحبة. سحقًا، ربما كان هذا هو السبب. ربما كانت محمومة وقادت الدراجة إلى وسط الطريق. لن أنسى أبدًا مظهرها حين دخلت الباحة والدماء تنهمر من عين واحدة كأنما تبكي.

غاب صوته هنيهة، وحين تكلم مرة أخرى كانت نبرته مختلفة، مُتحدية، قاسية.

- *ماذا؟!* أنا فقط.. لا أعرف سر وجود ضمادة على ركبتها.

ساد صوت التلفاز فترة، ثم قالت أمها: «حان وقت شراء دراجة جديدة على أي حال».

همست ڤيك لنفسها: *سيكون لونها ورديًّا. كل ما تمسكه في يدها تبتاع به شيئًا ورديًّا.*

أدركت ڤيك بشكل ما أن فقدان دراجتها هو نهاية لشيء رائع، وأنها قد تجاوزت في أفعالها حتى فقدت أفضل شيء لديها. كانت سِكِّينها، وهي تعرف أن أي دراجة أخرى لن تستطيع شق جدار الواقع، وإعادتها إلى الطريق المُختصر.

دست ڤيك يدها بين الحائط والحشية حتى لمست ما تحت الفراش ووجدت القرطين والوريقة المطوية. كانت واعية ظهيرة يوم عودتها، فوضعتهما في هذا المكان وظلا هناك من وقتها.

في غمرة صحوة نفسية غير شائعة الحدوث بالنسبة إلى طفلة في الثالثة عشرة، عرفت ڤيك أنها قريبًا سترى كل رحلاتها عبر الجسر كخيال طفلة نشط لا أكثر، أما الأشخاص الحقيقيون مثل ماجي لي، وبِيت من مطعم تيري، والسيد بينتاك... إلخ، سيصيرون مجرد أحلام يقظة. من دون دراجتها التي تأخذها في رحلات عبر الطريق المُختصر سيستحيل عليها الحفاظ على إيمانها بوجود الجسر المغطى الذي يظهر ويختفي. من دون الرالي، سيصير القرطان والوريقة هما الدليل الوحيد على رحلات بحثها. قبضت على القرطين، ثم فتحت الوريقة المطبوعة التي تحوي قصيدة لجيرارد مانلي هوبكينز.

يحمل القرطان حرفَي السين واللام. **سحقًا لك**. تستحق خمس نقاط لأجل هذه اللعبة المميزة.

قالت والدة ڤيك من خلال الحائط: «لماذا لا تستطيع أن تأتي معنا إلى البحيرة؟».

صوت الاعتراض يتضح في نبرتها أكثر. كانا قد انتقلا إلى مناقشة الابتعاد عن البلدة طيلة الصيف، وهو شيء أرادته والدة ڤيك بعد مرض ابنتها.

- ماذا ستفعل هنا؟

- سأذهب إلى عملي. هل تريدين أن أقضي ثلاثة أسابيع جوار بحيرة وينيبيسوكي مقيمًا في خيمة؟ المكان اللعين الذي تريدين الإقامة فيه يتكلف ألف وثمانمائة دولار في الشهر.

- هل قضاء ثلاثة أسابيع وحدي مع ڤيك يعتبر *عُطلة*؟ ثلاثة أسابيع من الأمومة وحدي وأنت تذهب إلى عملك هنا ثلاثة أيام أسبوعيًّا وتفعل ما تشاء وقتما تشاء، وحين أتصل بعملك يقولون لي إنك خرجت لأداء مسح؟ لا بد أنك مسحت كل بوصة في نيو إنجلاند حتى الآن.

قال والدها شيئًا بنبرة منخفضة بشعة، ولم تتبين ڤيك كُنهه، ثم رفعَ صوت التلفاز حتى إن السيد دي زوت قد يستطيع سماعه عبر الشارع. صوت باب صُفق بقوة حتى اهتزت الأواني في المطبخ.

لبست ڤيك قرطيها الجديدَين، وفتحت الوريقة. كانت قصيدة لم تفهمها لكنها أحبتها. قرأتها على الضوء المتسلل عبر الباب الموارب وهي تهمس بالأبيات لنفسها وتكررها كأنها صلاة. لقد كانت بالفعل صلاة. وسرعان ما ابتعدت أفكارها عن والديها التعيسين.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كما يتأجج الرَّفراف، يتبع اللهب اليعاسيب

كما يتأجج الرَّفراف، يتبع اللهب اليعاسيب...
كما يتدحرج الحصى حول حافة البئر المستديرة ثم يهوي...
كما ينطق الحبل المُدلىَّ في فم الجرس، وينطق اسمه...
كل تلك الأشياء الفانية، تفعل كما تفعل مثيلاتها...
تعبِّر عما يعتمل في بواطنها.
النفس تصير ذاتها، ونفسي تتكلم وتبوح،
تصرخ: ما أفعله هو أنا، وهذا ما أتيت لأجله.
أقول، كل هذا هو عدل في ذاته.
تبقى النفس على نعمة الرب، وتبقي على كل نعمة.
ويفعل الصالح ما يفعل تحت عينَي الرب،
وعينا الرب في ألف مكان ومكان.
هو في كل الأوصال والأعين يتجلى،
كما تتجلى ملامح الأب في وجوه الرجال.

اختفاءات

1996-1991

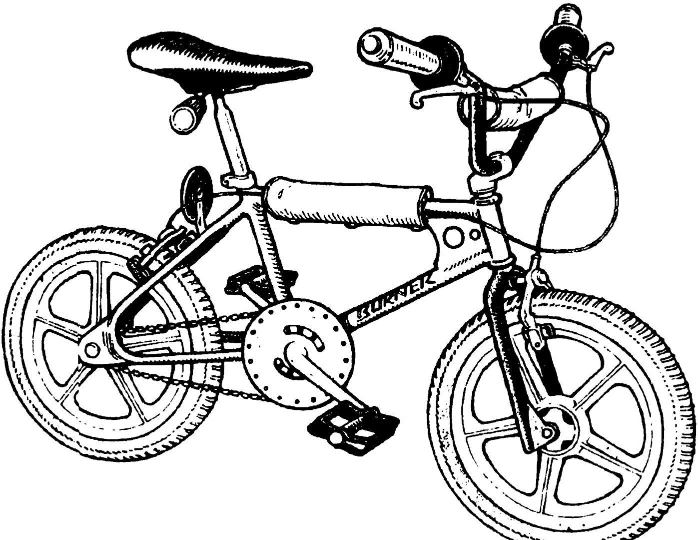

بعض المحليين

الفتاة الروسية التي ذكرتها ماجي لي اسمها مارتا جريجورسكي، وحيث تعيش ڤيك، كان خبر اختطافها حدثًا متداولًا عدة أسابيع. جزء من ذيوع الخبر سببه أن مارتا بطلة شطرنج محلية، وقد دربها كازباروف حتى وصلت رتبة «مُعلم أعظم» في سن الثانية عشرة. كذلك، وبعد أيام من انهيار الاتحاد السوفيتي، والعالم ما زال يتأقلم مع الحريات الروسية الجديدة، كان هناك شعور عام أن اختفاء مارتا جريجورسكي وأمها في أمريكا هو حادث عالمي، وذريعة لإشعال حرب باردة ثانية. تطلب الأمر وقتًا حتى يدرك الجميع أن الاتحاد السوفيتي مشغول بالتفكك حتى إنه لم يلاحظ ما حدث. كان بوريس يلتسن يقود المدرعات ويصرخ حتى يحمر وجهه، وعملاء المخابرات الروسية السابقون يهرعون بحثًا عن وظائف بمرتبات مجزية مع المافيا الروسية. مرت أسابيع قبل أن يفكر أي شخص في شجب واستنكار ما حدث في الغرب المنحط المجرم، ولم يكن الاستنكار متحمسًا.

ما حدث هو أن موظفة استقبال تعمل في فندق هيلتون دابل تري -المطل على نهر تشارلز- رأت مارتا وأمها تخرجان من الباب الدوار قبل الساعة السادسة في مساء دافئ ممطر. كانت جامعة هارفارد تنتظر آل جريجوريسكي على العشاء، وقد خرجتا تنظران سيارتهما. من خلال النافذة الملطخة بماء المطر، رأت الموظفة مارتا ثم أمها تركبان عربة سوداء، وقد ظننت أن للسيارة عتبة عالية لأنها رأت الفتاة الروسية الصغيرة ترتفع درجة قبل أن تركب في الخلف، لكن الخارج كان مظلمًا، والموظفة تتابع هاتفيًّا شكوى نزيل بشأن براده الصغير الذي لا ينفتح، فلم تتابع أكثر.

إلا أن شيئًا واحدًا كان أكيدًا: آل جريجورسكي لم تركبا السيارة الصحيحة، السيارة التي أجرتها لهما إدارة المدينة. كان السائق المسن ذو الأعوام الاثنين

والستين، الذي يُدعى روجر سيلمان، واقفًا عند منعطف الطريق البعيد، وفي حالة لا تسمح له بالمرور عليهما. كان فاقد الوعي وظل في مكانه نائمًا خلف المقود حتى قرب منتصف الليل. شعر بالإعياء وصداع الثمالة، ففكر -على غير طبيعته- أنه فقد الوعي وأن المرأتين قد استقلتا سيارة أجرة، ولم يفكر في أن شيئًا آخر قد حدث حتى الصباح، ولم يتصل بالشرطة إلا حين عجز عن الوصول إلى آل جريجورسكي في الفندق.

استجوبت المخابرات الروسية سيلمان عشر مرات خلال عشرة أسابيع، لكن قصته لم تتغير، ولم يستطع أن يمدهم بأي معلومات ذات قيمة. قال إنه كان يقتل الوقت بالاستماع إلى محطة الرياضة في المذياع، وكان قد وصل قبل أربعين دقيقة من موعده، حين سمع طرقات على زجاج نافذته. كان هناك رجل يقف تحت المطر يرتدي معطفًا أسود. أنزل سيلمان زجاج نافذته، ثم... لا شيء. مجرد عدم. ذاب الليل من حوله كبلورة ثلج على طرف لسانه.

لدى سيلمان بنات، وحفيدات، وقد أكلته حيًّا فكرة اختطاف مارتا ووالدتها على يد سفاح مثل تيد بَندي أو تشارلي مانسون، واحتمالية أن يغتصبهما حتى الموت. هجره النوم كذلك، وراودته كوابيس في غفواته عن مارتا وهي تلعب الشطرنج مع أمها بأصابع مبتورة. حاول بكل جهده أن يتذكر أي شيء، أي شيء. لكن لم تكن هناك سوى تفصيلة واحدة عالقة في ذهنه.

- كعك الزنجبيل.

تنهد وهو يقولها في وجه محقق فيدرالي قاسٍ اسمه سلام، لكنه بدا أقرب إلى حرب.

- كعك الزنجبيل؟

نظر سيلمان إلى المحقق بعينين يائستين وقال: «أعتقد أنني حلمت في أثناء فقداني الوعي بكعك الزنجبيل الذي كانت تخبزه أمي. ربما كان الرجل الذي كان يطرق على النافذة يأكل واحدة».

قال «سلام-لا حرب»: «إممم.. حسنًا، هذا مفيد. سوف نوزع إشعارات بمواصفات رجل الزنجبيل هذا، لكني لست متفائلًا أن هذا سيؤتي ثماره. يقول الناس إن من المستحيل الإمساك به».

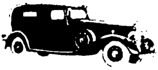

في نوفمبر 1991، كان هناك فتى في الرابعة عشرة يدعى روري مَكُّومبر، طالب جديد في مدرسة جيلمان في بالتيمور. قابل الفتى سيارة رولز رويس في ساحة انتظار سكن الطلبة. كان وقتها في طريقه إلى المطار كي يلحق بأهله في كي ويست لقضاء عطلة عيد الشكر، وقد ظن أن والده قد أرسل له هذه السيارة.

في الحقيقة، السائق الذي أرسله والد روري كان فاقد الوعي في سيارته الليموزين على بعد نصف ميل. توقف السائق هانك تولويتزكي عند محطة تزويد الوقود ليستخدم المرحاض، لكنه لا يتذكر أي شيء بعدها. استيقظ في الصباح التالي ووجد نفسه في صندوق سيارته الواقفة في ساحة انتظار عامة على بعد مائة قدم من محطة تزويد الوقود. ظل يصرخ ويركل خمس ساعات قبل أن يسمعه شخص يتريض في ساعة مبكرة ويبلغ الشرطة.

اعترف مُغتصب أطفال من بالتيمور بالجريمة، ووصف بتفاصيل فاضحة كيف اعتدى على روري قبل أن يخنقه حتى الموت، لكنه ادعى أنه لا يتذكر أين دفن الجثة، وباقي الأدلة لم تتسق مع اعترافه، فالرولز رويس ليست معه فضلًا عن أنه لا يملك رخصة قيادة. بحلول الوقت الذي قررت فيه الشرطة أن لا جدوى من متحرش الأطفال هذا، وأنه مجرد مخبول يستمتع بوصف الإهانات الجنسية للصغار، ويعترف بالأهوال من باب تزجية الوقت، ظهرت حوادث اختطاف أخرى لتُلهيهم، بالإضافة إلى يأسهم من الوصول إلى شيء في قضية مَكُّومبر.

سائق روري، وسائق آل جريجورسكي لم يجرِ لهما فحص دم قبل مرور يوم كامل على حوادث الاختطاف، وأي أثر للسيفوفلورين سيكون قد زال.

ورغم تشابه الحادثين، لم يربط أحد بين اختفاء مارتا جريجوريسكي واختطاف روري مَكُّومبر.

ثمة شيء آخر مشترك بين الحادثين، لم يُشاهد كلا الطفلين مرة أخرى.

هافرهيل

رحل كريس مَكوين في الخريف الذي بدأت فيه ڤيك دراستها الثانوية. كانت سنتها الأولى متعثرة، وحصلت على تقدير جيد في أغلب المواد إلا الرسم. كتب مدرس الرسم تعليقًا على تقريرها الدراسي ربع السنوي مؤلفًا من ست كلمات: ڤيكتوريا موهوبة، *تحتاج إلى التركيز أكثر*. ومنحها تقدير جيد جدًّا.

لفتت ڤيك الأنظار من خلال الرسم، وقد وشمت جسدها بقلم الحبر لتضايق أمها وتثير إعجاب الفتية. برعت في تلخيص الكتب على شكل رسوم «كوميكس»، وعلى عكس توقعات الجالسين في نهاية الصف مثلها، كانت ڤيك تحصل على تقديرات ممتازة في تسلية الحمقى.

استبدل والداها دراجة شفاين ذات شرائط باللونين الفضي والوردي عند المقود، بالدراجة الرالي المختفية. لم تكترث للشفاين، ولم تركبها، كان منظرها يسبب لها الحرج.

في يوم، بعد أن عادت ڤيك من المدرسة بعدما قضت عقوبة ما بعد انتهاء الدراسة، وجدت أمها جالسة في حجرة المعيشة، مقوسة الظهر، تسند كوعيها إلى ركبتيها ورأسها بين كفيها وتبكي. هي تصير حيزبونًا شمطاء حين تبكي.

- أمي؟ ماذا حدث؟

- أبوك اتصل. لن يعود إلى المنزل الليلة.

- أمي؟

تركت ڤيك حقيبتها تنزلق عن كتفها، ثم هوت على ركبتيها وسألتها: «ماذا يعني هذا؟ أين سيذهب؟».

- لا أعرف. لا أعرف إلى أين.. لا أعرف السبب.

حدقت ڤيك إليها في شك وقالت: «ماذا تقصدين بأنك لا تعرفين السبب؟ هو لن يعود إلى المنزل بسببك يا أمي. لأنه لا يطيقك. لأن كل ما تفعلينه هو التذمر منه... الوقوف هناك والتذمر. كل ما أراده هو أن يُترك وشأنه».

- لقد حاولتُ بجد، وأنت لا تعرفين كم حاولت أن أواسيه. يمكنني أن أحافظ على البيرة باردة والطعام ساخنًا حتى يعود متأخرًا، لكني لم أعد في الرابعة والعشرين، وهذا بالضبط ما يكره فيَّ. هذا هو عمر آخِر من عرفهن، أنت تعرفين.

اختفى الغضب من صوتها، كانت فقط مُتعبة.

- ماذا تقصدين بآخر من عرفهن؟

قالت ليندا: «آخر فتاة نام معها. لا أعرف مَن يرافق الآن، ولا لماذا قرر المكوث معها، وأنا لم أضعه قط في اختيار بين بيته وبين الفتاة الأخرى، ولا أعرف ما الذي تغير هذه المرة. لا بد أنها فتاة لطيفة صغيرة».

تحدثت ڤيك مرة أخرى، وجاء صوتها مكتومًا مرتعشًا: «أنت غير بارعة في الكذب. أكرهك. أكرهك، ولو ترك البيت، سأذهب معه».

قالت أمها بنبرتها الغريبة الضجرة: «لكن، ڤيكي! هو لا يريدك معه. هو لم يتركني أنا فقط، أنت تعرفين هذا. لقد تركنا».

قامت ڤيك وهرعت خارجة من المنزل وصفقت الباب خلفها. راحت تعدو تحت شمس أوائل أكتوبر، والضوء المتسلل من بين فرجات البلوط الذي يحف الشارع على الجانبين ذهبيٌّ مخضر، ولكم أحبت هذا الضوء. لا ضوء يضاهي ضوء نيو إنجلاند في بداية الخريف.

اعتلت دراجتها الوردية المُحرجة وانطلقت، تبكي ولا تعي ذلك. أنفاسها تتهدج. دارت حول المنزل واخترقت الأشجار نازلةً التل. الهواء يعوي في أذنيها. الشفاين لم تكن مثل الرالي؛ شعرت بكل وهدة وحفرة وجذر بارز تحت عجلتيها الرفيعتين.

قالت ڤيك لنفسها إنها ستجده، وإنها ستذهب إليه الآن. هي تحبه وإن أرادت أن تظل معه، سيجد أبوها لها مكانًا ولن تعود إلى البيت مرة أخرى، ولن تضطر إلى الإنصات إلى تذمر أمها عن ملابسها السوداء، أو ارتدائها

ملابس الصبية، أو التسكع مع المدمنين الحمقى. فقط عليها أن تنزل التل، وسيكون الجسر هناك.

إلا أنه لم يكن هناك. انتهى الطريق الترابي عند ضفاف نهر ميريماك ذي المياه الداكنة اللامعة كالزجاج، التي يتدلى فيها بقايا الجسر الخشبي، يتماوج مع الماء أمامًا وخلفًا. كل ما تبقى من الجسر الخشبي ثلاثة أعمدة مبقعة تشق الماء، يظهر منها حديد التسليح.

انطلقت بسرعة نحو حاجز الحماية، راغبة بقوة في أن يظهر الجسر، لكن قبل أن ترتطم بالحافة، أمالت دراجتها فمسحت بها وبجانب بنطالها الجينز الطريق عامدةً. لم تنتظر أن تتأكد إن كانت قد أصيبت، فقط قامت وحملت الدراجة بين ذراعيها إلى أعلى وطوَّحتها نحو النهر. صدمت الضفة المائلة، ارتدت، انغرست في المياه الضحلة وعلقت مكانها، وإطار واحد منها يطل من الماء ويدور في جنون.

غاصت الوطاويط في الغسق المقترب.

سارت ڤيك تجاه الشمال بمحاذاة النهر، بلا وجهة في عقلها.

في النهاية، هوت ڤيك عند الأعشاب الجافة المتاخمة للنهر أسفل طريق 495. السيارات تهدر وتعوي فوقها، مصدرةً تناغمًا صوتيًّا غريبًا من فوق الطريق الضخم الذي يغطي ميريماك. كانت تشعر بمرور السيارات عبر الذبذبات المهدئة المنبعثة من الأرض تحتها.

لم تقصد أن تنام هنا، لكن لثلث ساعة غابت في السِّنة، وانجرفت في حالة من نصف الوعي تحت هزيم صوت الدراجات البخارية إذ تعبر مثنى وثلاثًا. هم مجموعة من راكبي الدراجات يخرجون في آخر ليالي الخريف الدافئة، يذهبون إلى حيث تقودهم ركوباتهم.

بعض المحليين

كانت تمطر بقوة في مدينة تشيسابيك في ولاية فيرجينيا، في ليلة التاسع من مايو عام 1993. كان ذلك حين أخذ جيفري هادون كلبته السبينجر سبانيَل في تمشية معتادة بعد الغداء. لم يُرد أيهما أن يخرج، لا هادون ولا كلبته جاربو. المطر يضرب الشارع حتى إنه كان يرتد عن الأرصفة الأسمنتية والممرات المُعبدة بحجر الإسكافي. الهواء يفوح برائحة عشب المريمية والإليكس. جيف يرتدي معطفًا ذا قلنسوة أصفر اللون، والهواء يضربه فيرفرف جانبيه في غضب. فرجت جاربو بين ساقيها الخلفيتين، وقرفصت في تعاسة كي تبول، وفراؤها المموج يتهدل مبتلًّا.

تمشية هادون وجاربو أخذتهما إلى منزل نانسي لي مارتن، وهي أرملة ثرية لديها ابنة في التاسعة. لاحقًا أخبر المحققين في شرطة تشيسابيك أنه نظر إلى المنزل لأنه سمع موسيقى الكريسماس تنبعث منه، لكن لم تكن هذه هي الحقيقة. هو لم يسمع موسيقى الكريسماس وقتها، ليس وصوت هطول المطر يغطي على أي صوت آخر، لكنه كان قد اعتاد المرور أمام منزلها والنظر إلى المدخل لأنه كان معجبًا نوعًا بنانسي لي مارتن. كانت في الثانية والأربعين، تكبره بعشرة أعوام، لكن ما زالت تحتفظ بمظهرها القديم كونها مشجعة للفرق الرياضية.

نظر إلى المدخل في الوقت الذي كانت نانسي تخرج فيه من الباب الأمامي مع ابنتها آمي التي كانت تهرول أمامها، وكان هناك رجل يرتدي معطفًا طويلًا أسود اللون يمسك لها المظلة. كانتا ترتديان ملابس فاتنة ووشاحَين. تذكر جيف هادون قول زوجته إن نانسي لي ستمول حملة جورج آلين الذي أعلن أنه سيُرشَّح لمنصب المحافظ.

لاحظ هادون -الذي يتاجر في سيارات المرسيدس وله معرفة بالسيارات- أن السيارة التي ركبتها رولز رويس قديمة، ربما من طراز الشبح أو الطيف، طراز من الثلاثينيات.

ناداها ورفع يده مُحييًا، ولم يكن واثقًا إن كانت قد لوحت له أم لا، ولم يكن موقنًا أنه قد سمع أغنية «الصبي ضارب الطبل»[1] تُغنيها الجوقة. كان غريبًا أن يسمع مثل هذه الأغنية في الربيع. ربما ظنت نانسي لي كذلك أن هذا غريب، ترددت قبل أن تدخل السيارة. لكن المطر كان شديدًا، ولم يطُل ترددها.

أكمل هادون سيره، وحين عاد كانت السيارة قد رحلت. لم تصل نانسي لي مارتن أو ابنتها إلى مقر تمويل حملة جورج آلين.

مالكولم أكرويد، السائق الذي كُلِّف بإيصالها، اختفى كذلك. وجدوا سيارته خارج بينبريدج، جوار الماء وقد تُرك باب السائق مفتوحًا. وجدوا كذلك قبعته على العشب الجاف، مُشبَّعة بالدماء.

في نهاية مايو، 1994، كان جاك كريستِنسن -في العاشرة من العمر- من مدينة بوفالو في نيويورك يسافر وحده من فيلاديلفيا، حيث مدرسته الداخلية. أُرسِل إليه سائق ليُقله، لكن هذا الرجل، بيل بلاك، أصيب بنوبة قلبية قاتلة في ساحة الانتظار، ووجدوه ميتًا خلف مقود سيارته الليموزين. أما من قابل جاك في المطار وأخذه بعيدًا، ظل مجهولًا.

كشف التشريح أن قلب بيل بلاك قد توقف بعد استنشاق الرجل جرعة مميتة من غاز السيفوفلورين المُفضل لدى أطباء الأسنان. جرعة منه تُنحي إحساس المرء بالألم، وتحيله إلى شخص مطيع للغاية، زومبي. من الصعب الحصول على السيفوفلورين، ويحتاج شراؤه إلى رخصة ممارسة الطب عامة، أو طب الأسنان. بدت هذه التفصيلة خيطًا واعدًا، لكن التحقيق مع أطباء الأسنان ومساعديهم على مستوى الولاية لم يُسفر عن شيء.

(1) LITTLE DRUMMED BOY: من أغاني الكريسماس الشهيرة. (المترجمة)

في عام 1995 جاء دور ستيف كونلون وابنته ذات الاثني عشر عامًا تشارلي (اسمها تشارلين، لكن رفاقها يدعونها تشارلي) وهما في طريقهما إلى حفل راقص بين البنات والآباء في بلاتسبرج، نيويورك. كانا قد طلبا سيارة ليموزين طويلة، لكن ما وصلتهما سيارة رولز رويس. قبّلت أجاثا، والدة تشارلي جبين ابنتها قبل أن تغادر، وتمنت لها وقتًا ممتعًا، ثم لم تقع عليها عيناها مرة أخرى.

لكنها رأت زوجها حين وجدوا جثته -ورصاصة تخترق عينه اليسرى- خلف أجمة عند طريق 87 بين الولايات. لم تجد أجاثا صعوبة في التعرف على جثته رغم ما جرى لوجهه.

بعد أشهر، في الخريف، رن الهاتف في منزل كونلون بُعيد الثانية والنصف صباحًا. أجابت أجاثا نصف الناعسة المكالمة، فسمعت صوت هسيس وقرقرة كأنها مكالمة من مسافة بعيدة، تلاها صوت أطفال يغنون «أول كريسماس». صوتهم العالي الحُلو يتأجج بالضحك. ظنت أجاثا أنها سمعت صوت ابنتها بينهم فبدأت تصرخ باسمها.

- تشارلي، تشارلي! أين أنت؟

لكن ابنتها لم تُجبها، وبعد لحظة أغلق الأطفال الخط.

على جهة أخرى، أكدت شركة الاتصالات أن رقم هاتف منزلها لم يتلقَّ أي مكالمة في هذا الوقت، وقد أقرَّت الشرطة بعدها أن ما حَكت لم يكن سوى حلم امرأة مكلومة.

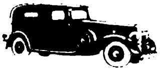

يقع سنويًّا في أمريكا قرابة خمسة آلاف وثمانمائة حادث اختطاف أطفال. في نهاية التسعينيات وقع اختفاء مارتا جريجورسكي، وتشارلين كونلون، وروري مَكُّومبر، وآمي مارتن، وجاك كريستِنسن، والبالغين الذين كانوا برفقتهم. وجاء اختفاؤهم تحت مرأى عدة شهود، وفي ولايات مختلفة، وتحت ظروف متباينة، لكنَّ أحدًا لم يربط بينهم إلا متأخرًا جدًّا. ليس قبل ما حدث لقيك مَكوين على يد تشارلز تالنت مانكس الثالث.

هافِرهيل

في أواخر شهر مارس من عام ڤيك الدراسي الأخير، دخلت عليها أمها بينما كريج هاريسون في حجرة ڤيك في الواحدة صباحًا. لم تضبطهما ليندا يتضاجعان أو حتى يتبادلا القُبل، لكن كريج كان ممسكًا بزجاجة بكاردي وكانت ڤيك ثملة للغاية.

غادر كريج مبتسمًا حرجًا -*مساء الفل سيدة مَكوين، معذرة لو أيقظناكِ*-، وفي الصباح التالي غادرت ڤيك إلى ورديتها في مطعم تاكو بيل دون أن تتحدث مع أمها، ولم تتحمس للعودة إلى البيت، وقطعًا لم تكن مستعدة لمواجهة ما ينتظرها حين عادت.

كانت ليندا في حجرة ڤيك، جالسة على الفراش المُرتب حديثًا وكأنه فراش في فندق.

كل شيء آخر قد اختفى: دفتر رسم ڤيك، كتب ڤيك، حاسوب ڤيك. كان هناك شيئان بعد على المكتب لم تتبينهما ابنتها، لكن مرأى الحجرة الخالية كتم أنفاسها.

- ماذا فعلتِ؟

- يمكنك أن تستعيدي حاجياتك ما دمتِ تتبعين قوانيني وتطيعين أوامري. من الآن فصاعدًا سأوصلك إلى المدرسة وإلى العمل وإلى أي مكان آخر تذهبين إليه.

- ليس لديك.. ليس لديك حق...

- وجدت بعض الأشياء في درجك...

أكملت ليندا بعد أن استمر صمت ڤيك: «أود أن أسمع تبريرك لوجودها».

أومأت ليندا نحو الجهة المقابلة من الحجرة، فأدارت ڤيك رأسها وفطنت هذه المرة إلى الموجود فوق المكتب: علبة سجائر، علبة حلوى من الصفيح

بها ما يشبه حلوى عيد الحب المخدرة، زجاجة جين من مقاس العينات، واقيان ذكريان برائحة الموز في غلاف بنفسجي، واحد من غلافَي الواقيين مقطوع وخالٍ من محتواه.

كانت ڤيك قد اشترت الواقيين من ماكينة بيع في الصيدلية، ونفخت واحدًا منهما كبالون ورسمت عليه وجهًا. كانت قد اختلقت شخصية «وجه الذكر» لتمزح به مع زملائها في فترة الراحة، أو تتحدث من خلاله من خلف مكتبها قبل أن يحضر المدرس. حين عاد السيد جافي من الحمام، كان الفصل يفوح برائحة الموز حتى إنه سأل عمن جلب فطيرة كريم الموز، مما فجر المكان بالضحكات.

وكان كريج قد ترك سجائره في ليلة وقد احتفظت بها ڤيك. هي لا تدخن (حتى الآن) لكنها كانت تحب أن تخرج سيجارة من العلبة، ثم ترقد في الفراش تشم رائحة التبغ الحلو، رائحة كريج.

أما أقراص الإكستاسي فكانت ڤيك تتعاطاها كي تتجاوز الليالي التي يصيبها فيها الأرق، حين تدور الأفكار في رأسها كمجموعة وطاويط مجنونة. في ليالٍ كانت تغلق عينيها فترى جسر الطريق المُختصر يبدو كماسورة تُفضي إلى الظلام. كانت تشم رائحته، رائحة الأمونيا الصادرة عن بول الوطاويط، ورائحة الخشب المتعفن. مصباحان عند نهاية الجسر يضيئان في الظلام، دائرتان من الضوء متجاورتان. مصباحان مضيئان رهيبان، أحيانًا ما كانت تراهما في يقظتها بعد أن تفتح عينيها. المصباحان يدفعانها إلى الصراخ دفعًا.

قرص الإكستاسي يهدئ كل شيء. قرص الإكستاسي يجعلها تشعر كأنما تطفو والهواء يضرب وجهها. يضع العالم في حالة من النعومة وانسيابية الحركة، كأنها تركب دراجة أبيها البخارية وتنزلق عبر منعطف. لم تكن ترغب في النوم حين تتعاطى الإكستاسي، كانت تحب العالم حتى إنها لا تريد أن تغادره بالنوم. كانت لتتصل بأصدقائها وتخبرهم أنها تحبهم، أو تعكف طيلة الليل على رسم وشوم جديدة تساعدها على عبور الفجوة بين «الفتاة بنت الجيران» و«سأضاجعك يا راقصة التعري حتى الموت». كانت تريد أن ترسم محرك دراجة بخارية فوق نهديها ليعرف الشباب أنها فاتنة، ويتناسون أنها في السابعة عشرة، وآخر عذراء في فصلها.

أما عينات الخمر فلم تكن شيئًا، هي تجعلها على مقربة منها كي تبتلع بها أقراص الإكستاسي.

قالت ڤيك: «ظني بي كما تشائين، لا يهمني».

- تفترضين أنني سأكون شاكرة حين أعرف أنك على الأقل تستخدمين واقيًا. لو حملت من الحرام فلا تتوقعي أن أساندك. لن يكون لي أي صلة به أو بمن ستنجبين.

أرادت ڤيك أن تخبرها أن كلامها هذا سيشجعها على الحمل في أقرب وقت ممكن، لكن ما تفوهت به كان: «أنا لا أنام معه».

- والآن تكذبين. يوم الرابع من سبتمبر، قلت إنك أمضيت الليلة عند ويلا، لكن مذكراتك تقول...

- أنت قرأتِ مذكراتي اللعينة؟!

- ... أنك نمت مع كريج طيلة الليل لأول مرة في حياتك. ألا تظنين أنني أعرف معنى هذا؟

ما عنته ڤيك أنهما قد ناما معًا بكامل ملابسهما تحت الغطاء في قبو ويلا مع ستة آخرين. لكن حين استيقظت وجدته ملتصقًا بظهرها، وذراعه حول خصرها، يتنفس جوار رقبتها. همست لنفسها: *رجاءً لا تستيقظ*. لدقائق كانت أسعد من أن تحتمل.

قالت ڤيك ببساطة: «أجل. أعني أننا تضاجعنا يا أمي لأني سئمت اللهو معه. لا لشيء آخر».

ما تبقى من لون في وجه أمها بهت، ثم قالت: «سأحتفظ بمتعلقاتك الشخصية، ولا يهمني إن كنت تقتربين من الثامنة عشرة. أنت تعيشين تحت سقفي وستعيشين بقواعدي. لو استطعت أن تسيري وفق النظام الجديد، ففي خلال شهور...».

- أهذا ما كنت تفعلينه حين كان يخذلك أبي؟ تمنعين نفسك عنه عدة أشهر وترين إن كان سيتبع نظامك؟

- صدقيني، إن كان لدي حزام عفة في البيت لكنت أجبرتك على ارتدائه. أيتها العاهرة بذيئة اللسان.

ضحكت ڤيك ضحكة مجنونة معذبة، ثم قالت أخبث ما يمكن أن تقول: «يا لك من إنسانة بغيضة. سأرحل من هنا».

- لو رحلت، ستجدين الباب موصدًا حين تعودين.

لم تسمع ڤيك ما قيل لأنها كانت قد خرجت بالفعل من حجرتها.

في البرد بالخارج

سارت.

المطر ستار رقيق يغرق سترتها الزرقاء ويجمد شعرها.

يعيش أبوها وصديقته في درهام، نيو هامبشير. ثمة طريقة للوصول إليهما لكنها تتطلب الكثير من المال. ذهبت إلى محطة القطار على أي حال، وتسكعت فيها هنيهة لأنها كانت محمية من المطر. فكرت فيمن قد تتصل به لتطلب أجرة القطار. ثم قررت أن تتصل بأبيها وتطلب منه أن يأتي ويأخذها، ولم تكن بالفعل تعرف لماذا لم تفكر في هذا الحل من قبل.

كانت قد ذهبت إليه مرة العام الماضي لتراه، وكانت مقابلته سيئة. تشاجرت ڤيك مع صديقته ورمتها بجهاز التحكم عن بعد، وبالمصادفة التعسة أصاب عينها بكدمة. أعادها أبوها في المساء إلى أمها ولم يعبأ حتى لسماع وجهة نظرها فيما حدث. لم تتصل به ڤيك من وقتها.

رد كريس مَكوين عند الجرس الثاني وقبِل دفع ثمن الاتصال، لكنه لم يبدُ سعيدًا بذلك. صوته خشن. في المرة الأخيرة التي رأته فيها كان اللون الفضي قد غزا شعره على نحو لم تعهده في العام السابق. كانت قد سمعت أن الرجال يبحثون عن حبيبات صغيرات كي يحافظوا على شبابهم، لكن يبدو أن هذه المقولة خاطئة.

قالت ڤيك وهي تحاول ألا تبكي مرة أخرى: «حسنًا. لقد طردتني أمي كما طردتك».

لم يكن هذا ما حدث بالطبع، لكن بدا لها أن هذه هي الطريقة المُثلى لبدء الحديث.

- أيتها المشاكسة. أين أنت؟ هل أنت بخير؟ اتصلت أمك وقالت إنك رحلت.

- أنا في محطة القطار. ليس معي أي مال. هل يمكنك أن تأتي يا أبي؟
- سأتصل بسيارة أجرة وستدفع أمك حين تعودين إلى البيت.
- لن أعود إلى البيت.
- ڤيك، أمامي ساعة حتى أصل إليك، والوقت قد جاوز منتصف الليل هنا، ولدي عمل غدًا في الخامسة صباحًا. المفترض أن أكون قد نمت الآن، لكني ظللت جوار الهاتف قلقًا عليكِ.

سمعت ڤيك صوتًا في الخلفية. لا بد أنها صديقته تيفاني تقول: «لن تأتي إلى هنا يا كريسي!».

قال: «يجب أن تحلي هذه المشكلة مع أمك الآن، لن يمكنني الانحياز إلى أيٍّ منكما يا ڤيك. أنت تعرفين ذلك».

قالت تيفاني مرة أخرى بصوت غاضب: «لن تأتي إلى هنا!».

صاحت ڤيك وكادت تصرخ: «هلا طلبت من تلك الغانية أن تغلق فمها اللعين؟».

قال والدها بصوتٍ قاسٍ: «لن أفعل. وبالنظر إلى أنكِ ضربتها في المرة الأخيرة التي كنت فيها هنا...».

- سحقًا!
- ... ولم تعتذري لها...
- أنا لم أمس هذه العاهرة خاوية العقل!
- ... حسنًا. هذا الحوار قد انتهى. يمكنك أن تمضي باقي ليلتك اللعينة في محطة القطار، ولن يهمني.
- أنت تفضلها عني؟ أنت اخترتها؟ سحقًا لك يا أبي. ارتح حتى تستطيع أن تفجر الأشياء غدًا. هذا ما أنت بارع فيه.

أغلقت الخط.

تساءلت ڤيك إن كان في وسعها النوم على المقعد في محطة القطار، لكن بحلول الساعة الثانية تأكدت أنها لن تستطيع. كان الجو باردًا. فكرت في أن تتصل بأمها وتطلب منها أن ترسل إليها سيارة أجرة، لكن فكرة طلب المساعدة كانت غير محتملة. لذا سارت...

البيت

لم تجرب حتى فتح الباب الأمامي، فقد افترضت بالفعل أنه مغلق. نافذة حجرة نومها على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض، وهي كذلك موصدة. النوافذ الخلفية موصدة وكذا الباب المنزلق، لكن هناك نافذة القبو التي لا تغلق تمام الغلق. ظلت مواربة مسافة ربع بوصة طيلة ستة أعوام.

وجدت ڤيك مقص أشجار فاستخدمته لقص الحاجز السلكي، ثم دفعت المصراع إلى الداخل وحشرت جسدها عبر الفتحة التي خلَّفها.

القبو كبير، لم يُشطَّب بالكامل، تظهر المواسير على سقفه. الغسالة والمجفف عند الطرف البعيد منه، جوار الدَّرج، والغلَّاية العمومية عند الطرف الآخر، باقي المساحة مشغولة بالصناديق وأكياس القمامة المملوءة بملابس ڤيك القديمة، ومقعد قديم وثير منقوش بمربعات تشبه نقشة التنورة الاسكتلندية، فوقه لوحة قديمة بالألوان المائية تمثل الجسر المُغطى. تذكرت ڤيك بالكاد أنها رسمتها في فترة الدراسة المتوسطة. كانت قبيحة كالأبالسة، بلا أي إحساس بالمنظور الهندسي. سلَّت نفسها برسم قوالب قرميد تطير في السماء فوق اللوحة، ثم ألقت بها بعيدًا، ومدَّدت المقعد حتى صار كالفراش تقريبًا. وجدت ملابس لها في المجفف. أرادت أن تجفف حذاءيها الرياضيين لكنها كانت تعرف أن صوت ارتطامهما ببعضهما بعضًا وبالمجفف سيلفت سمع أمها، لذا تركتهما عند أول درجة من السلم.

وجدت كذلك معطفًا شتويًا منفوخًا في أحد الأكياس، فتكورت فوق المقعد وتغطَّت به. لم يتمدَّد الفراش حتى النهاية ولم تتصور أنها ستستطيع النوم على هذا الحال، إلا أنها في لحظة ما أغلقت عينيها، وحين فتحتهما رأت عبر فتحة النافذة السماء مضيئةً زرقاء بالخارج.

ما أيقظها هو صوت الخطوات فوق رأسها، وكلمات أمها المضطربة. كانت تتحدث عبر الهاتف في المطبخ، ومن خلال الصوت استطاعت ڤيك أن تجزم أنها تسير جيئةً وذهابًا.

- أنا اتصلت بالشرطة يا كريس. أخبروني أنها ستعود إلى المنزل حين تكون مستعدة لذلك.

صمتت حينًا ثم قالت: «كلا! كلا، لن يفعلوا ذلك لأنها ليست طفلة مفقودة. عمرها سبعة عشر عامًا لعينة يا كريس. لن يعتبروها حتى هاربة في هذه السن».

كادت ڤيك تقوم من مقعدها وتصعد الدَّرج، فكَّرت: *سحقًا. سحقًا لهما.* ثم استلقت مكانها.

في لحظة قرارها أدركت أن فعلتها شنعاء، أن تكمن بالأسفل بينما أمها تُجن بالأعلى، لكن تفتيش حجرة الابنة، وقراءة مذكراتها، والاستيلاء على ما دفعت ثمنه من مالها أفعال شنعاء أيضًا. إن كانت ڤيك تتعاطى أقراص الإكستاسي من وقت لآخر، فهذا بسبب أبويها، بسبب طلاقهما. كانت غلطة أبيها أن ضرب أمها. فطنت الآن إلى أنه بالفعل ضربها -لن تنسى رؤيتها له وهو يغسل يديه في الحوض- حتى لو كانت العاهرة المتذمرة ذات اللسان الخشن تستحق ذلك.

تمنت ڤيك لو أن معها من الإكستاسي الآن. هناك شريط منه مُثبَّت في مقلمتها بحقيبتها، لكن الحقيبة بالأعلى.

تُرى هل ستخرج أمها بحثًا عنها؟

- لكنك لا تشارك في تربيتها يا كريس! أنا أفعل كل شيء وحدي!

ليندا تصرخ، وسمعت ڤيك أثر الدموع في صوتها، وللحظة أعادت التفكير في قرارها، ومرة أخرى تراجعت عن الخضوع، وكأن جسدها قد امتص أحداث الليلة الماضية، فتسربت إلى دمائها وجعلتها أكثر برودة بشكل ما. كانت تتوق إلى ذلك، لقلب أكثر قسوة وجمودًا، لصقيع داخلي يخدر كل الأحاسيس السيئة، ويجمد الأفكار الخبيثة في لحظة.

كنت تريدين مني أن أغرب عنك، وها أنا ذي قد غربت.

وضعت أمها السماعة بعنف مكانها، ثم رفعتها وضربتها بالهاتف.

تكورت ڤيك تحت السترة وعانقت نفسها.

وخلال خمس دقائق كانت قد نامت مرة أخرى.

القبو

حين استيقظت، كان النهار قد انتصف والمنزل خالٍ. عرفت ذلك فور أن فتحت عينيها واستشعرت ركود أجواء المنزل. لا تحتمل أمها منزلًا صامتًا، حين تنام ليندا تشغل المروحة، وحين تستيقظ ليندا تشغل التلفاز أو تشغل فمها.

انتزعت ڤيك نفسها عن المقعد، واجتازت الغرفة كي تقف فوق صندوق فتتمكن من النظر عبر النافذة إلى باحة المنزل الأمامية. سيارة أمها الخربة الصدئة ليست هناك. شعرت ڤيك بنبضة سعادة شريرة، وتمنت أن تكون ليندا تقود سيارتها في جزع عبر شوارع هاڤِرهيل بحثًا عنها في المركز التجاري، وفي الطرقات الجانبية، وفي منازل أصدقائها.

فكرت بصوت أجوف مُزلزل: *ربما أكون قد مت. اغتُصِبت وأُلقيتُ في النهر، وسيكون هذا كله ذنبك أيتها العاهرة المستبدة.*

في عقل ڤيك حصيلة من الكلمات المشابهة لـ«مستبدة» و«مُزلزل». ربما كان مستواها منخفضًا في المدرسة لكنها كانت قد قرأت لجيرارد مانلي هوبكنز، وأودِن، وقد جاوز ذكاؤها ذكاء والديها بسنين ضوئية. وكانت تعرف هذا.

وضعت حذاءيها الرطبَين في المجفف ليتصادما براحتيها، ثم صعدت فتناولت طبقًا من حبوب الإفطار أمام التلفاز. أخرجت بعد ذلك إكستاسي الطوارئ من مقلمتها، وخلال عشرين دقيقة بدأت تشعر بالراحة والهدوء. أغلقت عينيها وأحسَّت بحركتها السلسة كانزلاق طائرة ورقية في الهواء. راحت تشاهد قناة السفر والرحلات، وكلما رأت طائرة، تفرد ذراعيها وتتظاهر

أنها تحلِّق. الإكستاسي هو حركة على هيئة قرص، عظيم كركوب سيارة مكشوفة في الظلام، إلا أنك لا تحتاج إلى مغادرة الأريكة كي تركبها.

غسلت طبقها وملعقتها في الحوض، ثم جففتهما وأعادتهما إلى مكانيهما، ثم أغلقت التلفاز، الوقت يتأخر كما يبدو من الضوء المتسلل عبر الأشجار.

عادت إلى القبو لتأخذ حذاءيها، فوجدتهما رطبَين. لم تعرف ماذا تفعل بنفسها. أسفل الدرج وجدت مضرب تنس قديمًا وعلبة كُرات. فكَّرت أن تضربها إلى الحائط قليلًا، لكنها تحتاج إلى إفساح مكان أولًا. بدأت بتحريك الصناديق... وكان هذا حين وجدتها.

الدراجة الرالي مستندة إلى الحائط الأسمنتي، مخبأة خلف صناديق مُعدَّة للتبرع. صدم ڤيك مرآها هناك. استعادت ڤيك حديث والديها عنها حين كانا يظنان أنها لا تسمعهما. لقد مرَّت بحادث وفقدتها.

فيما عدا... فيما عدا احتمالية أنها لم تسمع ما ظنت أنها سمعته. تذكر أن أباها قد قال إن فقد الدراجة سيحطم قلبها. لسبب ما أيقنت هي أنها فُقدت وأنه لم يجدها. قالت أمها شيئًا عن سرورها بزوال الرالي عن الصورة لأن ڤيك كانت متعلقة بها.

لقد كانت *متعلقة* بها، هذا حقيقي. كان لڤيك حياة خيالية كاملة عن طريق ركوب الرالي عبر الجسر الخيالي، وإلى أماكن بعيدة، وأراضٍ مذهلة. لقد ركبتها إلى الأزقة الخطرة وجلبت سوار أمها، ثم ركبتها إلى قبو مملوء بالكتب حيث قابلت نصف جنيَّة سقتها الشاي وحذرتها من مصاص الدماء.

مررت ڤيك إصبعها على المقود، الذي التصقت به طبقة سميكة من الغبار الرمادي. كل هذا الوقت كانت بالأسفل، يتجمع عليها الغبار لأن والديها لم يشاءا أن تركبها. أحبت ڤيك الدراجة، وقد أهدتها آلاف القصص، ولهذا طبيعي أن يحرمها أبواها منها.

لكم افتقدت قصص الجسر، والفتاة التي قابلتها وقتها. كانت أفضل مما هي عليه الآن.

ظلت تحدق إلى الدراجة وهي ترتدي حذاءيها (كانا ساخنين الآن).

الربيع في أوج اعتداله، تشعر كأنك في يوليو تحت الشمس، وفي يناير في الظل. لم تشأ أن تسير عبر الشوارع وتخاطر بأن تراها أمها في طريق عودتها، لذا دارت بالرالي حول المنزل، واتخذت طريق الغابات الخلفي.

ضحكت ڤيك حين اعتلتها. كانت أصغر من أن تلائمها، وصار شكلها هزليًّا. تخيلت مهرجًا محشورًا في سيارة صغيرة للغاية. ركبتاها تصطدمان بالمقود، وردفاها يتدليان على جانبَي المقعد، لكن حين قادتها وهي واقفة على البدالين صار الوضع أفضل بكثير.

قادتها نازلة التل الذي تقل درجة الحرارة تحته عشر درجات، فتلفح أنفاس الشتاء وجهها. تعثرت في جذر، وتمسكّت بالهواء. لم تتوقع أن تسقط، لكنها هوت، وصرخت. صرخت صرخة جزلة، وللحظات لم تدرك الفارق بينها الآن وبين ما كانته في طفولتها. ما زال دوران الإطارين تحتها يسعدها، ومحاولات الريح أن تمسك بشعرها تثير ضحكاتها.

لم تقُد مباشرة إلى النهر، بل اتخذت طريقًا ضيقًا يمر من أمام التل. اخترقت الأشجار وخرجت منها إلى حيث تقف مجموعة من الأولاد حول نار أشعلوها في صفيحة قمامة وهم يتبادلون تدخين سيجارة مخدرة.

صاحت وهي تعبر بهم وتشير إلى ما يدخنون: «أعطوني نَفَسًا!».

شرِق الصبي الذي كان يحمل السيجارة في دخان ما كان يشربه. ظلت ڤيك مبتسمة وهي تبتعد عنهم حتى تمالك نفسه وصاح أخيرًا: «ربما لو جئت وأمتعتنا أيتها الغانية اللعينة».

أكملت طريقها عبر البرودة، وأسفل انعقاد مجلس للغربان فوق غصن شجرة سميكة. لا بد أنهم يناقشون مرورها بمصطلحات معقدة.

ربما لو جئت وأمتعتنا...

ولوهلة تخيلت الفتاة ذات السبعة عشر عامًا فوق دراجة الأطفال أن تعود لهم، فتتوقف وتسألهم ببساطة: «*موافقة. بمن أبدأ؟*».

أمها ترى بالفعل أنها عاهرة، وڤيك تكره أن تخيب ظنها.

شعرت بسعادة وهي تقطع المسافة أسفل التل على دراجتها، لكن السعادة احترقت مُخلِّفةً غضبًا باردًا. لم تكن واثقة تمامًا ممن هي غاضبة. ثورتها لا ترتكز على شخص بعينه، مجرد مشاعر تدور وتدور كما يدور إطار دراجتها.

فكرت أن تقود إلى المركز التجاري، لكن أزعجها اضطرارها إلى افتعال ابتسامة تواجه بها الفتيات في ساحة المطاعم. لم تكن في مزاج مناسب لمقابلة أشخاص تعرفهم، ولم ترُد أن تسمع نصيحة من أحد. لم تعرف إلى

أين تذهب، لكنها ترغب في أن تلقى مشكلات ما. كانت واثقة أنها لو ركبت دراجتها أكثر ستواجه بعضًا مما تريد.

كما تظن أمها، أن ڤيك قد لاقت مشكلتها، وهي الآن ترقد عارية ميتة في مكان ما. سعدت ڤيك أنها قد وضعت فكرة كهذه في عقل أمها، لكن للأسف بحلول الليل ستنتهي المتعة وستعرف أمها أنها حية. تمنت لو تجد طريقة تجعل بها ليندا غير موقنة مما حدث لها، وأن تختفي من حياتها ولا تعود مرة أخرى. لكم سيكون هذا لطيفًا، أن تترك والديها يتساءلان ما إن كانت ابنتهما حية أو ميتة.

أعجبتها الأيام والأسابيع التي سيفتقدانها فيها، معذبَين بتخيلاتهما المرعبة عما عساه قد حدث لها. سيتصورانها وحيدة بالخارج، تعيسة ترتجف بردًا، تركب شاكرة أول سيارة تتوقف لها. ربما تكون حية في صندوق تلك السيارة العتيقة (لم تعِ ڤيك أنها تتصور السيارة قديمة من طراز وتفاصيل محددة). لم يعرفا قط كم مكثت مع الرجل العجوز (قررت ڤيك بالفعل أن السائق سيكون مسنًّا لأن سيارته مُسنة)، أو ما فعل بها، أو المكان الذي تخلص فيه من جثتها. سيكون هذا أشد عليهما من أن تموت، وهما غير متأكدين إلى أي مكان ذهبت أو أي مصير لاقت.

وصلت ڤيك الطريق الترابي الواسع المؤدي إلى نهر ميريماك. سمعت هدير النهر إذ يندفع ماؤه خلال الصخور. كان هذا واحدًا من أروع الأصوات في العالم. رفعت رأسها لتستمتع بالمنظر لكن جسر الطريق المُختصر قطع الأفق أمامها.

ضغطت المكابح فأوقفت الرالي تدريجيًّا. كان الجسر أكثر تشوهًا مما تتذكر، وهيكله بالكامل يميل إلى اليمين كأن ريحًا تعصف به ليهوي في النهر. المدخل الدائري محاط بالنباتات المتسلقة المتشابكة. شمَّت رائحة الوطاويط، وعند النهاية البعيدة للجسر المغطى أبصرت ضوءًا خافتًا.

ارتجفت بردًا، وكذلك سعادةً. كانت تعرف -بشيء من اليقين- أن هناك خطبًا ما في عقلها. خلال كل الفترة التي كانت تتعاطى فيها الإكستاسي لم تهلوس، لكنها كانت تعي أن هناك دائمًا مرة أولى لكل شيء.

انتظرها الجسر لتعبره، وحين فعلت، كانت تعرف أنها ستسقط في العدم. سيتذكرونها دائمًا على أنها الفتاة المخبولة التي ركبت دراجتها لتهوي

بها عبر المنحدر وتكسر عنقها. الفكرة لم ترعبها، فهي أفضل ثاني احتمال بعد خطف الرجل العجوز الرهيب لها *(الشبح)*، وبهذا لن يسمعوا عنها شيئًا مرة أخرى.

في الوقت نفسه، ومع يقينها أن الجسر ليس هناك، جزء منها رغب في معرفة ما على الجانب الآخر الآن. وقفت ڤيك على البدالَين واقتربت أكثر حتى وصلت إلى الحافة، حيث يستريح إطار المدخل الخشبي فوق التراب.

الكلمتان المكتوبتان بالرذاذ الأخضر على يسارها كانتا...

بيت الزلاجة

1996

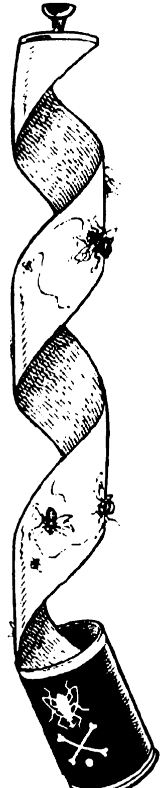

هافِرهيل

انحنت ڤيك وأمسكت بحجر، ثم طوحته إلى داخل الجسر. ضرب الحجر الخشب مُصدِرًا صوت ارتطام، ثم تقافز قبل أن يستقر. ثمة صوت حفيف من الأعلى، الوطاويط.

بدا لها الأمر كهلوسة ثابتة مجسمة كفاية، إلا أن هناك احتمالًا أنها تخيلت وجود الحجر أساسًا.

هناك طريقتان لاختبار الجسر، يمكن أن تتقدم أمامًا اثنتي عشرة بوصة، وتضع الإطار الأمامي على بداية الجسر. لو أنه كان مُتخيلًا، فيمكنها أن تميل إلى الخلف وتمنع نفسها من السقوط من علٍ. أو يمكن أن تقود دراجتها على أي حال. تغلق عينيها وتترك الرالي تحملها إلى حيث ما ينتظرها.

هي في السابعة عشرة، ولا تخشى شيئًا، وتحب صوت الريح إذ يداعب النباتات المحيطة بالمدخل. ضغطت البدال وانطلقت، سمعت الإطارين يعبران العتبة الخشبية، والألواح تعلو وتهبط تحتها. لا يوجد شعور بالسقوط. لم تهوِ من على ارتفاع عشرة طوابق إلى نهر ميريماك. يتزايد التشويش من حولها، وتشعر بألم يخترق عينها اليسرى.

اخترقت الظلام القديم المألوف. ومضات كالبرق الكهربي تظهر من بين فرجات الحوائط. كانت قد قطعت ثلث المسافة حتى المخرج، حين لمحت منزلًا أبيض اللون مُلحقًا به مرأب. بيت الزلاجة، أو أيًّا كان.

لم يكن للاسم معنى بالنسبة إليها، ولم تحتج إلى معنى. كانت تعرف بطريقة ما وجهتها، لكنها لا تعرف مكان تلك الوجهة.

كانت تريد بعض المشكلات، ولم يحدث قط أن وجَّهها جسر الطريق المُختصر إلى وجهة خاطئة.

الناحية الأخرى من الجسر

تصدر الحشرات المختبئة وسط العشب العالي صوتًا كالمناشير. في نيو هامبشير كان الربيع باردًا، قذرًا، صعبًا، لكني هنا... أيًّا كان مكان *هنا*... الهواء دافئ منعش. عند ركن عينيها، رأت ومضات ضوء، بصيص نور عبر الأشجار، لكن في أول دقائق لها هناك لم تلقِ له انتباهًا.

انزلقت من الجسر إلى الطريق الترابي المضغوط. ضغطت المكابح حتى توقفت وهي تُنزل قدمها، ثم أدارت رأسها إلى الخلف، نحو الجسر.

الطريق المُختصر قابع بين الأشجار عند أحد جانبَي المنزل، يمتد بعيدًا في أعماق الغابة. حين نظرت خلاله رأت هافرهيل على الجهة الأخرى، خضراء ظليلة تحت آخر أضواء ما بعد الظهر.

المنزل أبيض اللون على طراز كيب كود، يقف وحيدًا عند نهاية طريق ترابي ضيق. العشب ينمو حتى ارتفاع الخصر في باحته، ويغزو نبات السماق الأشجار، ينمو في شجيرات تضاهي طول ڤيك نفسها.

الستائر تحجب ما خلف سلك النوافذ الصدئ المنتفخ، ولم تكن هناك أي سيارة تقف عند المدخل، ولا سبب للظن أن هناك من يسكنه، لكن ڤيك خافت على الفور من المكان ولم تصدق أنه غير مأهول. المنزل مروع، وأول ما خطر ببالها لو أن الشرطة فتشته لوجدت جثثًا مدفونة في الباحة الخلفية.

حين كانت تعبر الجسر، شعرت أنها تُحلِّق وتهوي في سلاسة كما يهوي الصقر عبر تيار الهواء. شعرت أنها آمنة لن يضرها شيء. حتى الآن وهي ساكنة، تشعر كأنما تتحرك، تُبحر أمامًا، لكن هذا الإحساس لم يعد جيدًا؛ البيت يجذبها نحو شيء لا ترغب في رؤيته، ولا معرفة أي شيء عنه.

من مكان ما، انبعث صوت مذياع أو تلفاز. نظرت خلفًا مرة أخرى إلى الجسر الذي كان يبعد عنها بضعة أقدام فقط. لو رآها أحد فستقود دراجتها عائدة إلى الجسر قبل أن يختفي، وقبل أن يجد أي شخص فرصة للصراخ.

نزلت عن الدراجة ودفعتها جوارها. مع كل خطوة يتكسر تحتها العشب الجاف تشعر أن ما حولها حقيقي، لا وهم من أوهام الإكستاسي. يتعالى صوت المذياع تدريجيًّا إذ تقترب أكثر من المنزل.

بالنظر إلى الأشجار مرة أخرى، رأت ڤيك الومضات حول الصنوبرات المحيطة. احتاجت لحظات حتى تفهم كُنه ما ترى، وحين فهمت، تجمدت مكانها محدقة. الأشجار حول المنزل مزينة بزينة الكريسماس، مئات من المنمنمات البراقة تتدلى من عشرات الأشجار، كرات ذهبية وفضية مطلية بذراتٍ لمَّاعة تتدلى متمايلة من الأغصان. الملائكة المغطاة بالقصدير تمسك بأبواقها الصامتة أمام شفاهها. تماثيل سانتا كلوز السمينة تضع أصابعها أمام أفواهها، تهيب بڤيك أن تتقدم في هدوء.

وهي واقفة مكانها، تحول صوت المذيع المبهم إلى صوت المطرب بُرل آيفز الجهوري المخادع يحث العالم أجمع على الاستمتاع بكريسماس مجيد سعيد، بغض النظر عن كون الوقت في منتصف مارس. الصوت ينبعث من المرأب المرفق بالمنزل، وهو مبنى أغبر بباب معدني جرار يرتفع إلى أعلى، وأربع نوافذ مربعة غائمة بالقذارة.

تقدمت نحو المرأب خطوة صغيرة، ثم خطوة أخرى في ذعر كأنما تتقدم من إفريز مبنى عالٍ. في الخطوة الثالثة نظرت خلفًا مرة أخرى كي تتأكد من إمكانية الهروب السريع إن اضطرت إلى ذلك.

خطوة أخرى، ثم ركنت الرالي إلى حائط المرأب جوار الباب. ضغطت وجهها إلى زجاج النافذة، ورأت سيارة قديمة سوداء ذات واجهة زجاجية ضيقة. هي رولز رويس، من الطراز الذي ينزل منه وينستون تشيرشيل في الصور والأفلام القديمة، واستطاعت أن ترى لوحة أرقامها تحمل حروف: NOS4A2.

هذا هو كل ما تحتاجين. يمكن أن تتعقبه الشرطة بما وجدتِ. يجب أن ترحلي الآن. يجب أن ***تهربي***.

وقبل أن تبتعد عن المرأب، لمحت حركة بسيطة عبر واجهة السيارة. هناك من يتململ في المقعد الخلفي، محاولًا أن يجد وضعية أكثر راحة. استطاعت ڤيك أن ترى رأس الشخص الضئيل عبر الزجاج القذر.

هذا طفل. هناك طفل في السيارة... ولد ذو قصة شعر طفولية. راح قلب ڤيك يضرب حتى اهتزت كتفاها. هناك طفل حبيس السيارة، وربما لو عادت ڤيك عبر الجسر، ستتمكن الشرطة من القبض على صاحب السيارة العتيقة، لكنهم لن يجدوا الطفل فيها لأنه سيكون تحت الثرى في مكان ما.

لم تعرف ڤيك لماذا لم يصرخ الطفل أو يحاول الخروج من السيارة والهرب. ربما هو مُخدر أو مربوط، لن تستطيع الجزم بشيء. على أي حال، هو لن يخرج من هنا ما لم تدخل وتحرره.

تراجعت عن النافذة ونظرت مجددًا إلى الجسر الذي ظل مكانه بين الأشجار، وإن بدا فجأة أبعد عنها بكثير. كيف ابتعد هكذا؟

تركت الرالي ودارت حول المرأب. توقعت أن يكون الباب الجانبي موصدًا، لكنها حين أدارت المقبض انفتح فورًا، وانبعثت من المكان أصوات عالية خاشعة تترنم بأغاني الكريسماس.

هوى قلبها من فكرة الدخول. وضعت قدمًا فوق عتبة الباب بحرص، كأنها تخطو فوق قشرة ثلجية تغطي بحيرة لم تتجمد بالقدر الكافي. السيارة العتيقة الحالكة اللامعة كحجر بركاني تحتل أغلب مساحة المرأب، أما ما تبقى من مساحة فكانت مكتظة بفوضى من علب الدهان، والسلالم الخشبية، والصناديق، والأرفف.

مقصورة الرولز رويس الأمامية فسيحة، والمقعد الخلفي مُنجَّد بجلدٍ له لون الجلد البشري، ينام عليه طفل يرتدي سترة جلدية بأزرار من العاج، شعره داكن كثيف، ووجهه ممتلئ تعلو خديه حُمرة الصحة. بدا كأنه يحلم أحلامًا سعيدة، ربما رؤى عن الحلوى. لم يكن مقيدًا بأي شكل ولم يبدُ متضايقًا، وفكرت ڤيك في أن هذا الوضع غير مفهوم. هو بخير، يجب *أن ترحلي. هو على الأرجح هنا مع والده، وقد نام فتركه الأخير يرتاح. اتركيه وارحلي.*

أجفلت من مجرد الخاطر، بالطريقة نفسها التي قد تجفل بها من يعسوب. ثمة ما يريب بشأن هذا الخاطر، فهو لم ينبع من عقلها ولا تعرف كيف وصل إلى تفكيرها.

جلبها جسر الطريق المُختصر هنا كي تجد الشبح، رجل خبيث يؤذي الناس. لقد خرجت بحثًا عن المشكلات ولم يوجهها الجسر من قبل إلى وجهة خاطئة. خلال الدقائق الماضية، بُعثت في نفسها أحداث من سنوات. ماجي

لي كانت حقيقة لا وهمًا. خرجت ڤيك بالفعل على دراجتها وأعادت سوار أمها من مطعم تيري، ولم تكن تلك الرحلة مُتخيلة أو وهمًا.

طرقت على نافذة السيارة، فلم يتحرك الطفل. كان أصغر منها، ربما في الثانية عشرة تقريبًا، هناك زغب أشقر فوق شفته العليا.

نادته هامسة: «مرحبًا.. أيها الصغير...».

تململ فقط لينقلب على جانبه الآخر مُبعدًا وجهه عنها. حاولت ڤيك أن تفتح الباب لكنه كان مغلقًا من الداخل. عجلة القيادة على الجهة اليمنى من السيارة، الجهة التي تقف عندها، ونافذة السائق مفتوحة. حاولت أن تصل إليها، لكن لم تكن هناك مساحة كافية بين الباب والأغراض المركونة جوار الحائط.

المفاتيح في السيارة، والبطارية تكاد تفرغ. واجهة المذياع مضيئة بالأخضر. لم تعرف ڤيك من كان يغني الآن، لكنه يبدو كمغنٍّ قديم من فيجاس يترنم بأغنية أخرى عن الكريسماس. لقد مر الكريسماس منذ ثلاثة أشهر، وثمة ما يريب في أغانيه حين تذاع قرب الصيف. كأنها مهرج يقف تحت الأمطار بينما يسيل طلاء وجهه.

همست مجددًا: «أيها الصغير.. استيقظ...».

تحرك الولد ببطء، ثم قام جالسًا ليواجهها، فرأت ڤيك وجهه، عضَّت شفتيها كي لا تصرخ. لم يكن وجهه يشبه ذلك الوجه الذي رأته عبر النافذة. الولد في السيارة أقرب للموت... أو لما وراء الموت. وجهه في شحوب القمر، عيناه محاطتان بفجوتين بلون الكدمات. تزحف عروق سوداء مُسممة تحت جلده كأن الحبر يسري في شرايينه مسرى الدماء، تخترق العروق لحمه كفروع مقززة عند ركنَي الفم والعينين والصدغين. شعره بلون الثلج المتراكم على أفاريز النوافذ في الشتاء.

رمش، عيناه لامعتان فضوليتان، عيناه هما الشيء الحي الوحيد فيه.

زفر بخارًا أبيض كأنما هو جالس في براد، سألها والبخار الأبيض يتصاعد مع كل كلمة: «من أنت؟ لا يجب أن تكوني هنا».

- أنت متجمد... لماذا؟

- لست متجمدًا. يجب أن ترحلي. المكان ليس آمنًا.

- إلهي، أيها الصغير. لنُخرجك من هنا. هيا، تعال معي.

- لا أستطيع فتح بابي.

- حسنًا، اقفز إلى المقعد الأمامي.

- لا أستطيع.

كان يتحدث كأنما هو مُخدَّر، وفطنت ڤيك إلى أنه ربما يكون غير واعٍ. هل يمكن للتخدير أن يخفض درجة حرارة الجسد حتى تتحول الأنفاس إلى بخار؟ غير معقول. أردف الولد: «لا يمكنني مغادرة المقعد الخلفي. لا يجب أن تكوني هنا، هو سيعود قريبًا».

انساب البخار الأبيض من منخريه. سمعته ڤيك بوضوح لكنها لم تفهم أغلب ما قال، باستثناء عبارته الأخيرة: هو سيعود *قريبًا*. عبارة منطقية. بالطبع سيعود أيٌّ من كان (الشبح). لم يكن ليترك بطارية السيارة تفرغ ما لم يكن سيعود قريبًا. عليها أن ترحل هي وهو قبل عودته.

أرادت أن تفر أكثر من أي شيء، أن تنطلق من الباب وهي تخبر الولد أنها ستعود مع الشرطة. لكنها لم تجرؤ على الرحيل، لن تترك طفلًا عليلًا مخطوفًا وترحل. بهذا ستكون قد هجرت نفسها الحقيقية كذلك.

مدت يدها عبر النافذة وفتحت قفل الباب الأمامي، ثم فتحته.

- هيا.. خذ يدي...

مدت يدها نحو المقعد الخلفي عبر المقصورة الأمامية. نظر الطفل إلى كفها للحظات مفكرًا، كأنه يحاول قراءة مستقبلها فيها، أو كأنها تعرض عليه شوكولاتة لا يعرف بعد إن كان يريدها أم لا.

كان هذا رد فعل غريب على طفل مُختطف، وهي تعرف ذلك، لكنها لم تسحب يدها في الوقت المناسب. قبض على رسغها فصرخت للمسته؛ يده باردة حارقة، كأنها قد ضغطت رسغها إلى مقلاة ساخنة. احتاجت لحظات حتى أدركت أن ما تشعر به هو البرودة لا السخونة.

أطلق نفير السيارة صوتًا عظيمًا، وفي ضيق المرأب صار الصوت غير محتمل. لم تعرف ڤيك لمَ انطلق؛ هي لم تمس عجلة القيادة.

صاحت: «اتركني. أنت تؤلمني».

قال: «أعرف».

ابتسم، ورأت فمه مملوءًا بصفوف من الخطاطيف الصغيرة، كلٌّ منها في رقة إبرة الخياطة. الصفوف بدت ممتدة إلى حلقه.

وانطلق البوق مجددًا.

صاح الولد: *«سيد مانكس! سيد مانكس! أمسكت بفتاة! سيد مانكس، تعالَ!»*.

دفعت ڤيك ساقها نحو مقعد القيادة وجذبت جسدها إلى الخلف وهي تدفع أكثر، والولد يجذب أكثر. لم تظن أنه سيطلق سراحها؛ يده كأنما اندمجت برسغها، وبشرته تجمدت على بشرتها. لكن حين جذبت يدها نحوها من فوق مقعد السائق تركها. هوت على عجلة القيادة وانطلق النفير مجددًا بسببها هذه المرة.

تقافز الولد على المقعد الخلفي في حماس وهو يصيح: *«سيد مانكس! سيد مانكس، تعال وشاهد الفتاة الجميلة!»*.

سقطت ڤيك عند مقعد القيادة وارتطمت بالأرضية الأسمنتية، ضرب كتفها مجموعة من المذاري ومجارف الثلج، فانهارت فوقها.

ظل النفير ينطلق، يصم الآذان. أبعدت ڤيك أدوات البستنة عنها، ونهضت على ركبتها. نظرت إلى رسغها لتجد حرقًا بشعًا أسود اللون على شكل يد طفل.

أغلقت باب السيارة بعنف، وألقت نظرة أخيرة على الطفل الجالس في المقعد الخلفي. كان وجهه جشعًا يلتمع بالحماس، وقد تدلى لسان أسود من فمه وراح يلعق شفتيه.

صرخ: *«سيد مانكس! الفتاة تهرب!»*.

أنفاسه باردة، يتجمد بخارها على زجاج النافذة.

- *تعال وشاهدها!*

تحاملت على نفسها وقامت. ترنحت في طريقها نحو الباب الجانبي المفضي إلى الباحة. هدر المحرك الذي يدير باب المرأب الإلكتروني، ودارت السلسلة التي تحركه بالأعلى. تمالكت ڤيك نفسها وتراجعت بأسرع ما يمكن. باب المرأب الكبير يرتفع ويرتفع، كاشفًا عن حذاءين أسودين، وبنطال رمادي فضي، فاستنتجت أنه هو. *الشبح! الشبح!*

دارت ڤيك حول مقدمة السيارة حتى وصلت درجتين تؤديان إلى باب، علمت أنه يفضي إلى المنزل نفسه.

دار المقبض، وتراجع الباب إلى الظلام.

عبرته ڤيك، ثم أغلقته خلفها، وبدأت تتحرك إلى...

حجيرة الاستقبال

... حيث الأرضية المصنوعة من اللينوليوم مقشرة من عند الركن، وتمتلئ شقوقها بالتراب.

لم تشعر قط بساقيها بهذا الضعف من قبل، ورأسها يضج بصرخةٍ لا ترغب في أن تغادر عقلها، لأنها تعلم أنها لو صرخت سيجدها الشبح ويقتلها. ولم يكن لديها أي شك بهذا الصدد، سيقتلها ويدفنها في الباحة الخلفية، ولن يعرف أحد ما حدث لها.

ولجت من باب ثانٍ، يؤدي إلى...

الرواق

... الرواق الذي يحتل ما تبقى من متسع في المنزل. المكان مفروش من الحائط إلى الحائط بالموكيت الأخضر.

يفوح الرواق برائحة طهي ديك رومي.

راحت تعدو، غير عابئة بالأبواب عن يمينها ويسارها؛ تعلم أنها لن تؤدي سوى إلى دورات مياه أو حجرات نوم. ظلت قابضة على رسغها الأيمن تحاول التنفس بعمق للتغلب على ألمها.

انتهى الرواق إلى ردهة صغيرة، والباب المؤدي إلى الباحة الأمامية على يسارها، خلفه درج ضيق صاعد إلى الطابق الثاني. الحوائط مزدانة بملصقات الترويج للصيد، تصور رجالًا قساة مُكشرين عن أنيابهم في ابتسامة مخيفة يحملون حِزمًا من الإوز الميت، يعرضونها أمام كلاب صيد نبيلة المظهر.

على يمين ڤيك، باب مزدوج قصير يظهر من خلفه المطبخ، حيث رائحة الطهي أقوى، والحرارة أعلى بكثير.

رأت فرصتها جلية في ذهنها. الرجل الملقب بالشبح يدخل المنزل من خلال المرأب. لو أنها انطلقت الآن من الباب الأمامي ستصل جسر الطريق المُختصر سيرًا.

عدت ڤيك نحو الردهة، فصدمت عظمة حوضها في منضدة ترنحت فوقها أباجورة مزينة بالخرز، وكادت تسقط.

أمسكت ڤيك مقبض الباب، أدارته، ثم كادت تجذبه حين رأت المنظر عبر نافذة جانبية.

الرجل يقف في الساحة الأمامية، واحد من أطول الرجال الذين رأتهم، بلغ طوله ستة أقدام ونصفًا على الأقل. أصلع الرأس، وثمة شيء فاضح في شكل صلعته المغطاة بالعروق الزرقاء. يرتدي معطفًا من زمن غابر، له ذيل مزدوج وصفان من الأزرار النحاسية. بدا كأنه جندي، قائد لجيش أمَّةٍ غريبة حيث لا يسمى الجيش جيشًا، بل فيلقًا.

التفتَ قليلًا نحو الجسر لذا استطاعت أن ترى نصف وجهه. كان يقف أمام الطريق المُختصر ويضع يدًا واحدة على مقود دراجتها.

عجزت ڤيك عن الحركة، كأنما حُقِنَت بمادة شلَّتها، حتى إنها لم تستطع أن تدفع رئتيها للتنفس.

أمال الشبح رأسه إلى الجانب. لغة جسد كلب فضولي. رغم ضخامة رأسه، ملامحه كانت دقيقة شبيهة بابن عُرس، تحتشد كلها في منتصف وجهه. ذقنه غير ظاهر، وأسنانه العلوية بارزة مما أضفى عليه سمت السذاجة والدمامة.

راح يتفحص جسرها وطوله الممتد عبر الأشجار، ثم نظر نحو المنزل، فتراجعت ڤيك عن النافذة وألصقت ظهرها بالباب.

صاح: «مساء الخير، أيًّا مَن تكون! اخرج ورد التحية، أنا لا أعُض!».

تذكرت ڤيك أخيرًا أن تتنفس، وكان التنفس جهدًا هائلًا، هي تشعر كأن أحزمة ضاغطة تحيط بصدرها.

هتف الشبح: «لقد تركت دراجتك في ساحتي...».

بعد هنيهة أضاف: «وتركت جسرك المغطى هنا كذلك! يمكنك استعادته إن شئتِ!».

ضحك ضحكة كصهيل الخيل، وجال بخاطر ڤيك مرة أخرى أن الرجل ربما كان معتوهًا حقًّا.

أغلقت عينيها وثبتت نفسها بقوة إلى الباب، ثم فطنت إلى أنه لم يقل شيئًا منذ لحظات، وأنه ربما يقترب من مقدمة المنزل. أغلقت الرتاج، وحاول مرات قبل أن تنجح في تعليق سلسلة الحماية، كفاها عرقانتان مرتجفتان.

لكن ما إن أوصدت الباب، حتى تحدث مرة أخرى، ومن ارتفاع صوته استنتجت أنه ما زال واقفًا وسط الباحة المغطاة بالحشائش.

- أعتقد أنني أعرف بشأن هذا الجسر. أغلب الناس قد تتضايق من وجود جسر مغطى في باحات منازلهم، لكن ليس السيد تشارلي مانكس الثالث. السيد تشارلي مانكس رجل يعرف شيئًا أو اثنين عن الجسور والشوارع التي تظهر حيث لا يجب أن تفعل. سيارتي شخصيًّا تعبر طرقًا غير موجودة، وأنا أقود منذ زمن طويل. أراهن أنك ستتفاجئين لو عرفتِ منذ متى وأنا أرتحل. أعرف طريقًا لا يمكن أن أقطعه إلا على متن سيارتي الشبح. ليس موجودًا على أي خريطة، لكنه يوجد حين أحتاجه. يظهر كلما رافقني راكب مستعد للانتقال إلى أرض الكريسماس. إلى أين يؤدي جسرك؟ لا بد أن تخرجي! أنا متأكد أن لدينا ما نتشاركه! أراهن أننا سنتصادق سريعًا!

قررت ڤيك وقتها أن كل دقيقة تقضيها هنا وتنصت إليه هي دقيقة مخصومة من فرصتها للنجاة. تحركت مبتعدة عن الباب، وهرعت نحو الردهة ثم اخترقت الباب إلى...

المطبخ

... مكان قذر ضيق، في وسطه منضدة سطحها مغطى بالفورمايكا الصفراء، وثمة هاتف أسود قبيح معلق على الحائط، تعلوه لوحة كالحة مرسومة بيد طفل.

شرائط ملونة مُرقطة متربة تتدلى من السقف بلا حركة، وسط ركود الهواء. كان الانطباع أن أحدهم قد أقام حفل عيد ميلاد هنا منذ سنوات، ولم ينظف بعده من وقتها.

على يمين ڤيك باب معدني خلفه غسَّالة ومجفف، وبعض أرفف المعلبات، كل هذا في حجيرة من الصلب مبنية داخل الحائط. جوارها براد عتيق.

كان المطبخ دافئًا، والهواء خانقًا راكدًا. ثمة عشاء مُخزَّن في الفرن، استطاعت أن تتبين شرائح لحم الديك الرومي والبطاطس المهروسة، وطبق حلوى مغطى بورق القصدير. ثمة زجاجتان من عصير البرتقال على الكاونتر. لمحت بابًا يؤدي إلى الباحة الخلفية، فهرعت إليه في ثلاث خطوات.

كان الولد الميت يراقب مؤخرة المنزل، طفل ذاك الرجل تشارلي مانكس. هي موقنة الآن من أنه ميت، أو أسوأ.

كان يقف بلا حراك مرتديًا سترته الجلدية وبنطاله الجينز، وقدماه حافيتان. قلنسوته تتدلى على ظهر سترته، كاشفة عن شعره الباهت وفروع العروق الممتدة على صدغيه. فمه مفتوح تظهر منه أسنانه الإبرية. رآها فابتسم، لكنه لم يتحرك إذ صرخت وأغلقت الرتاج. كان الولد قد ترك أثر خطوات بيضاء خلفه على العشب، حيث تجمد من لمسه قدميه. وجهه ناعم كأنه مطلي بالمينا، وعيناه غائمتان بضباب ثلجي.

هتف والبخار يتصاعد من فمه: «اخرجي! تعالي هنا وكفي عن السخف. سنذهب جميعًا إلى أرض الكريسماس معًا».

تراجعت عن الباب، فارتطم جنبها بالفرن. التفتت وبدأت تفتح الأدراج بحثًا عن سكين. أول درج فتحته كان مملوءًا بخرق المطبخ، الثاني فيه ملاعق ومضارب وذباب ميت. عادت إلى الدرج الأول وأخرجت عدة مناشف، ثم فتحت الفرن ورمتها فوق الطعام، وتركت باب الفرن مواربًا.

كانت هناك مقلاة فوق الموقد، أمسكتها وشعرت بالطمأنينة أن لديها ما تضرب به.

صاح الولد: «سيد مانكس! سيد مانكس! لقد رأيتها! هي بلهاء طائشة! هذا ممتع!».

عادت ڤيك عبر باب المطبخ إلى مقدمة لمنزل، ثم نظرت خلال النافذة المجاورة للباب مرة أخرى.

مانكس نقل دراجتها إلى جوار الجسر. كان واقفًا أمام المدخل يتفحص الظلال وقد أمال رأسه إلى الجانب كأنما ينصت، ثم بدا أنه قد قرر شيئًا. مال دافعًا الدراجة إلى داخل الجسر. عبرت الرالي العتبة وغاصت في الظلام. إبرة خفية اخترقت عين ڤيكي اليسرى حتى مخها. انتحبت -لم تستطع أن تمنع نفسها- وترنحت إلى الخلف. تخرج الإبرة، ثم تخترق عينها مرة أخرى، فلم تُرد ڤيك شيئًا سوى أن ينفجر رأسها وتموت.

سمعت صوت فرقعة، كأن أذنها قد تأثرت باختلاف الضغط الجوي، ثم اهتز المنزل كأن طائرة تعبر من فوقه وتكسر حاجز الصوت.

الردهة الأمامية تعبق برائحة الدخان. رفعت ڤيك رأسها وضيقت عينيها وهي تنظر عبر النافذة.

جسر الطريق المُختصر قد اختفى.

كانت تعرف أنه سيختفي في اللحظة التي سمعت فيها صوت الفرقعة الحاد. انهار الجسر على نفسه مثل شمس تُحتضر وتتحول إلى مُستعر أعظم.

سار تشارلي مانكس نحو المنزل، ومن خلفه يرفرف ذيل معطفه. زال كل مرح عن وجهه الدميم العابس، فبدا كرجل أحمق ينتوي فعل شيء همجي.

نظرت إلى الدرَج، وعلمت أنها لو صعدت، لن تستطيع النزول مرة أخرى. لا مهرب لها سوى المطبخ.

عبرت بابه، ورأت الولد عند المدخل الخلفي، يلصق وجهه في نافذته. كشر عن أنيابه الشبيهة بالخطاطيف، فتكشَّفت صفوفها. أنفاسه تنشر ندف الثلج على الزجاج.

رن جرس الهاتف، فانتفضت ڤيك كأن أحدًا أمسك بها، ونظرت إلى الخلف نحوه، تضرب الزينة المرقطة المتدلية من السقف وجهها، إلا أنها لم تكن زينة على الإطلاق، كانت شرائط صيد ذباب تلتصق بها بقايا الذباب الميت. شعرت بالعصارة المعدية تتجمع في حلقها، الطعم اللاذع الحُلو يطغى عليها كأنه المخفوق الذي شربته عند تيري وقد فسد.

رن الهاتف مرة أخرى. أمسكت السماعة، وقبل أن ترفعها لفت نظرها الرسم الطفولي المُعلق أعلاه. كانت الورقة جافة بُنية بفعل الزمن، وقد تحول اللاصق الذي يثبتها إلى اللون الأصفر. مرسوم عليها غابة من أشجار الكريسماس والرجل المدعو تشارلي مانكس في زي سانتا، برفقة طفلتين تبتسمان بفم مملوء بالأنياب. الطفلتان في اللوحة تماثلان هذا الشيء الواقف في الباحة الخفية، والذي كان طفلًا في يوم.

وضعت ڤيك السماعة على أذنها وصرخت: «النجدة! أنقِذوني!».

قال رجل بصوت طفولي: «أين أنتِ يا سيدتي؟».

- لا أعرف! لا أعرف! أنا تائهة!

- لدينا بالفعل سيارة هنا، في المرأب. اذهبي واركبي في المقعد الخلفي، وسيوصلك سائقنا إلى أرض الكريسماس.

أيًّا كان من على الطرف الآخر من الخط، كان يقهقه وهو يضيف: «سنتولى رعايتك حين تصلين إلى هناك. سنُعلق كرتَي عينيك على شجرة الكريسماس».

أغلقت ڤيك الخط.

سمعت صوتًا تشقق من خلفها، فالتفتت لترى الولد يضرب رأسه بالزجاج فيمتلئ بالشروخ الشبيهة بشباك العناكب، لكن الولد نفسه كان سليمًا.

عند الردهة، سمعت مانكس يكسر الباب الأمامي حتى فتحه، وسمعت صوت سلسلة القفل تعطل دخوله.

تراجع رأس الولد، ثم هوى به مرة أخرى على الزجاج ليهشمه، فتنهمر الشظايا ويضحك الطفل.

بزغ أول ألسنة اللهب من الفرن نصف المفتوح، مُصدِرًا صوتًا أشبه برفرفة جناحَي حمامة. مد الولد ذراعه عبر نافذة الباب يتحسس موضع الرتاج. الزجاج المكسور يمزق رسغه ويسلخ عنه الجلد، فينزف دمًا أسود. لكن لم يبدُ أنه مهتم.

ضربت ڤيك يده بالمقلاة وقد وضعت كل قوتها في تطويحها، فدفعتها قوة الضربة نحو الباب. تراجعت مترنحة إلى الخلف، ثم هوت جالسة على الأرض. أخرج الولد يده بسرعة ورأت أن ثلاثًا من أصابعه قد انسحقت تمامًا.

صرخ ضاحكًا: «أنت مسلية!».

دفعت ڤيك جسدها بكعبيها، فتراجعت على ردفيها فوق البلاط سُكري اللون. دفع الولد رأسه عبر النافذة المهشمة وراح يحرك لسانه أمامها.

اندفع اللهب الأحمر من الفرن، فمسَّت النار جانب وجهها الأيمن. تجعدت الشعيرات والتفَّت حول نفسها. ضربت وجهها بينما يتطاير الشرر في كل اتجاه.

ضرب مانكس الباب الأمامي، فانكسرت السلسلة، وسقط لرتاج على الأرض، وسمعت الباب يصطدم بالحائط خلفه فاهتز المنزل.

مد الولد يده عبر النافذة المكسورة مرة أخرى، وفتح الرتاج.

تساقطت شرائط صيد الباب المحترقة حولها.

استقامت ڤيك في جلستها والتفتت، لترى مانكس عند باب المطبخ يهُم بالدخول، ينظر إليها بعينين متسعتين مُفتونتين شرهتين.

- حين رأيت دراجتك، ظننتك أصغر سنًّا. لكنك شابة وهذا ليس في صالحك. الفتيات الكبار لا يصلحن لأرض الكريسماس.

انفتح باب المطبخ، فشعرت بالهواء الساخن كله يُطرد خارج المطبخ، كان العالم بالخارج يجذب شهيقًا عميقًا. دار إعصار من النار واللهب خارجًا من الفرن، يتبعه فيض الشرر، واندفع خلفه الدخان الأسود.

حين عبر مانكس باب المطبخ متجهًا نحوها، تراجعت ڤيك مبتعدة عن متناول يده، واختبأت خلف البراد الضخم، وزحفت نحو المكان الوحيد الذي تبقى لها...

حجيرة المؤن

جذبت المقبض المعدني ودخلت، ثم أغلقت الباب خلفها.

الباب ثقيل، صدر عنه صوت احتكاك عظيم وهي تجره عبر الأرضية. هي لم تحرك بابًا بهذا الوزن في حياتها.

لم يكن له أي رتاج من أي نوع. المقبض الداخلي من الحديد المثبت إلى سطح الباب. جذبته وثبتت كعبيها على مسافة من بعضهما، ووضعت كل قدم على ناحية من ناحيتَي حلق الباب. بعد لحظة، راح مانكس يجذب الباب، وظلت هي تجذبه بكل ثقل جسدها.

تراخى جذبه لوهلة، ثم راح يدفع فجأة مرة بعد مرة محاولًا زعزعة ثباتها. كان يزيد عنها وزنًا بنحو سبعين رطلًا، وذراعاه طويلتان قويتان. تثبيت قدميها حول حلق الباب، قد يخلع ذراعيها قبل أن تستسلم ساقاها أو تتحرك.

توقف مانكس عن الجذب، وأتيح لڤيك فرصة أن تنظر حوها لتجد ممسحة ذات يد معدنية طويلة زرقاء. دفعتها من خلف المقبض لتحل محل قدميها في تثبيت الباب.

تراجعت ڤيك خطوتين. ساقاها تؤلمانها وكادت تجلس من فرط الألم. ارتكنت إلى الغسالة لتُريح قدميها.

جذب مانكس الباب مرة أخرى، فتصدت له يد الممسحة.

توقف قليلًا، ثم جذبه برقّة كأنما يختبره. سمعته ڤيك يسعل، وتصورت أنها سمعت همسات طفولية. ارتجفت ساقاها بقوة حتى تيقنت أنها لو تركت تشبثها بالغسالة لسقطت أرضًا.

قال مانكس عبر الباب: «لقد وضعتِ نفسك في مأزق أيتها الفضولية الصغيرة!».

صرخت: «ارحل عني!».

قال بخفَّة كأنما يمزح: «يتطلب الأمر كثيرًا من الوقاحة كي تقتحمي منزل رجل ثم تطلبي منه الرحيل! أظنك خائفة من الخروج. لو أنك عاقلة لخفتِ من البقاء مكانك أكثر!».

صرخت مجددًا: «ابتعِد عني!».

كان هذا هو كل ما استطاعت أن تفكر في قوله. سعل مرة أخرى، ورأت ضوء النار يتسرب من أسفل الباب، يقطعه ظلان يوضحان مكان ساقَي تشارلي مانكس.

قال هامسًا: «أيتها الطفلة. سأترك هذا المنزل يحترق ولن يهمني ذلك. لدي مكان آخر أذهب إليه، وهذا المخبأ قد صار محروقًا منذ زمن بشكل أو بآخر. اخرجي وإلا اختنقتِ بالداخل حتى الموت، وسيعجز الجميع عن التعرف على جثتك. افتحي الباب ولن أوذيك».

مالت على الغسالة وهي تقبض بقوة على جانبيها، وساقاها ترتجفان بعنف يكاد يصل إلى شكل هزلي لا يصدق.

قال: «خسارة. لطالما أحببت أن أتعرف إلى فتاة لديها ركوبتها الخاصة. ركوبة تستطيع اختراق دروب الأفكار. نحن نادران. يجب أن نتعلم من بعضنا بعضًا. حسنًا، ستتعلمين مني الآن ولو أني أعرف أنك لن تهتمي لهذا الدرس. كنت لأمكث وأتحدث أكثر، لكن الحرارة صارت لا تطاق! أنا رجل يُفضل البرودة بصراحة. أنا مُغرم بالشتاء! أنا واحد من أقزام سانتا السحريين!».

وضحك مرة أخرى ضحكة السُّذج الشبيهة بالصهيل.

سقط شيء في المطبخ مُصدِرًا صوت ارتطام عاليًا، فصرخت وكادت تقفز فوق الغسالة. هز الارتطام المنزل كله وأرجفَ البلاط تحت قدميها، فظنت للحظات أن الأرضية ستغور.

عرفت من الصوت والثقل والقوة، أنه أدار البراد الضخم القديم ليقف أمام الباب ويسد الفتحة.

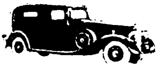

وقفت ڤيك مطولًا، مستندة إلى الغسالة في انتظار أن تتوقف ساقاها عن الارتجاف، لكنهما لم تفعلا.

في البداية تصورت أن مانكس قد رحل. كان قد توقع أنها سترمي نفسها على الباب وتترجاه أن يفتح لها.

تستطيع سماع النار، وأشياء تنفجر وتنكسر. ورق الحائط يحترق ويتقشر مُصدِرًا صوت تكتكة.

ألصقت ڤيك أذنيها بالباب كي تنصت إلى ما يحدث بالخارج، لكن مع أول لمسة للباب، أجفلت وأبعدت رأسها صارخة. الباب الحديدي صار مقلاة على نار عالية.

أزالت ڤيك يد المسَّاحة، وألقتها جانبًا وأمسكت بالمقبض عازمة على دفعه، لترى إن كانت ستستطيع دفعه ودفع الوزن خلفه، لكنها نزعت يدها سريعًا، المقبض ساخن كالباب. هزَّت كفها في الهواء لتُبرد إحساس الحرق على أطراف أصابعها.

تسلل إلى رئتيها الدخان المُعبَّق برائحة البلاستيك المحترق. كانت الرائحة سيئة حتى إنها كادت تختنق، فمالت أمامًا تسعل حتى كادت تقيء.

راحت تدور في دوائر، بالكاد توجد مساحة تسمح بهذا الفعل لا أكثر. الحجيرة مزدحمة بالأرفف وشكائر الأرز. ثمة دلو وزجاجتا أمونيا ومُبيض ملابس، وخزينة من الصلب مثبتة داخل الحائط، والغسالة والمجفف. لم تكن هناك نوافذ ولا أبواب أخرى.

شيء زجاجي قد انفجر في المطبخ، ووعت ڤيك إلى خفَّة الهواء حولها وهي تقف وسط الحرارة. نظرت إلى أعلى فلمحت السقف الأبيض يسود من فوق الباب.

فتحت المجفف فوجدت ملاءة بيضاء قديمة، فأخرجتها وغطت بها رأسها وكتفيها، ثم لفَّت طرفها على ذراعها وجرَّبت فتح الباب. بالكاد استطاعت أن تمسك المقبض بكفها الملفوفة بالملاءة، ولم تستطع أن تدفع بكتفها طويلًا. طوَّحت جسدها بقوة نحوه، مرة تلو الأخرى. اهتز الباب في إطاره وانفتح مسافة ربع بوصة، وكانت كافية لدخول هبَّة من الدخان البني. المطبخ غارق خلف سحابة دخان تمنعها من رؤية أي شيء حتى اللهب نفسه.

تراجعت، ثم انطلقت نحو الباب مرة ثالثة. ضربته بقوة حتى إنها ارتدت عنه وتعثر كاحلها في الملاءة فسقطت. صرخت حانقة وأبعدت الملاءة فرأت الدخان يملأ الحجيرة.

استندت على الغسالة بيد، وجذبت مقبض الخزينة المصنوعة من الصلب باليد الأخرى كي تقوم، لكن بمجرد أن وقفت انفتح بابها فجأة، فسقطت مرة أخرى وقد خذلتها ركبتاها.

ارتاحت هنيهة قبل أن تحاول مجددًا، وأدارت وجهها لتريحه على معدن الغسالة البارد. حين أغمضت عينيها، شعرت بكف أمها الباردة على جبينها المحموم.

استردت قدرتها على الوقوف على قدميها غير الثابتتين، وتركت مقبض باب الخزينة فارتد إلى مكانه وقد جذبته آلية زنبركية.

الهواء السام يحرق عينيها.

فتحت الخزينة مرة أخرى، وكان خلفها كُوة موصولة بممر حالك معدني مخصص كي ينزلق الغسيل خلاله من مكان آخر إلى حجيرة المؤن. دسَّت ڤيك رأسها عبر الفتحة ونظرت إلى أعلى، فرأت بابًا صغيرًا آخر على مسافة عشرة أو اثني عشر قدمًا.

لا بد أنه ينتظرني هناك.

لكن لم يكن هذا مهمًّا. البقاء في حجيرة المؤن أكثر من ذلك لم يعد ممكنًا. ارتكنت ڤيك إلى الباب المعدني المثبت إلى الحلق بزنبركَين. حشرت جسدها عبر الفتحة وجذبت ساقيها خلفها إلى...

كُوة الغسيل

وزن ڤيك في عمر السابعة عشرة لم يتجاوز أربعين رطلًا، وزاد طولها ثلاث بوصات عن طولها حين كانت في الثانية عشرة. هي فتاة نحيلة طويلة الساقين، لكن الكوة ضيقة حقًّا. ضغطت جسدها إلى حائط الممر الرأسي ودفعت قدميها أمامها على الجهة المقابلة. بدأت ترفع نفسها تدريجيًّا عبر الممر، وتدفع بكعبيها فتصعد ست بوصات في المرة. الدخان البُني يحيطها ويحرق عينيها.

بدأت عضلات فخذيها تؤلمها، لكنها ظلت ترتفع ببطء وهي منحنية حتى أنَّت عضلات ظهرها.

كانت في منتصف المسافة إلى الطابق الثاني، حين أفلتت قدمها تحتها، فهوى ردفاها وشعرت بعضلات فخذها تتمزق. صرخت، وللحظات استطاعت أن تظل مكانها، منحنية وركبتها اليمنى في مواجهة وجهها، واليسرى متدلية إلى أسفل، لكن التحميل على ساقها اليمنى كان هائلًا، فتركت قدمها تنفلت وسقطت مرة أخرى إلى القاع.

كانت السقطة قوية مؤلمة فتكومت على الأرضية المعدنية وقد صدمت ركبتها اليمنى وجهها، أما الساق الأخرى فقد تمددت خارج الكوة وأطلَّت على حجيرة المؤن.

اقتربت ڤيك للحظة من حد الذعر، فبدأت تبكي. حين وقفت داخل الكوة، لم تحاول التسلق مرة أخرى، بل راحت تقفز ولم تهتم أنها لن تبلغ القمة بهذه الطريقة، إلى جانب أنه ليس هناك ما تتشبث به عند الباب الآخر.

صرخت.. صرخت طلبًا للنجدة.

امتلأ الممر بالدخان وحجب عنها الرؤية، وفي منتصف الصرخة بدأت تسعل سعالًا جافًا مؤلمًا. ظلت تسعل حتى ظنت أنها لن تتوقف، وفي النهاية كادت تقيء، فبصقت كتلة من اللعاب لها طعم حمض المعدة.

لم يكن الدخان ما أرعبها، أو الألم في فخذها جراء تمزق عضلي، ما أرعبها هو وحدتها الأكيدة اليائسة. بماذا لامت أمها أباها؟ *أنت لا تُربيها يا كريس! أنا أربيها وأفعل هذا وحدي!*

مريع أن تجد نفسك في فجوة وحدك. عجزت عن تذكُّر آخر مرة عانقت فيها أمها، أمها المرتعبة المتوترة العصبية التعسة، التي وقفت جوارها ووضعت يدها الباردة على جبينها المحموم وقت مرضها.

مرعب أن تفكر في الموت هنا، وقد تركت كل شيء كما كان.

ثم بدأت تتسلق الممر مرة أخرى، ظهرها يدفع حائطًا، وقدماها تدفعان الحائط المقابل. دمعت عيناها، الدخان كان كثيفًا في الكوة الآن ويتصاعد ليحيط بقيك. ثمة إصابة عظيمة في عضلة فخذها. كلما دفعت للأعلى، تشعر أن عضلتها تتمزق من جديد.

رمشت وسعلت ودفعت نفسها إلى أعلى ممر الغسيل. المعدن خلف ظهرها كان دافئًا، وفكرت أنه خلال وقت قصير سيلتصق جلد ظهرها بالحائط، وستصير الكوة ملتهبة، إلا أنها لن تكون كوة، بل مدخنة، وهي سانتا كلوز يتسلق نحو حيوانات الرَّنة. ظلت أغنية الكريسماس الحمقاء تتكرر في ذهنها بلا انقطاع. لم تُرد أن تُشوى حتى الموت وأغنية كريسماس تتردد في عقلها.

بوصولها قمة الكوة، لم تكد ترى شيئًا من كثافة الدخان. ظلت تلوح بكفيها لتبعده وكتمت أنفاسها، بينما تهتز عضلة فخذها الكبرى بلا انقطاع.

رأت ضوءًا منحنيًا خافتًا في مكان ما فوق قدميها، الباب المؤدي إلى الطابق الثاني. شهقت ورئتاها تكادان تحترقان، لم تستطع تمالك نفسها عن ملء صدرها بالدخان ومن ثم السعال. شعرت بالأنسجة الرقيقة خلف ضلوعها تتمزق وتُقطَّع. استسلمت ساقها اليمنى دون إنذار. رفعت يديها لأعلى نحو الباب وهي تسقط وتقول لنفسها: *لن ينفتح. لا بد أنه قد وضع شيئًا أمامه يمنعه من الفتح.*

ضربت يدها الباب فعبرته إلى الهواء البارد. تشبثت بالفتحة وتعلَّقت بها من تحت إبطيها بينما تتدلى ساقاها إلى الأسفل وركبتاها تضربان حائط الممر المعدني.

بفتح الباب، جذبت كوة الغسيل الهواء، وشعرت ڤيك بنسمة حارة نتنة تتصاعد حولها. اندفع الدخان ليغطي رأسها ولم تستطع أن تتوقف عن الرمش والسعال حتى اهتز جسدها كله. شعرت بطعم الدماء وملمسه على شفتيها، وتساءلت إن كان شيء حيوي من جسدها قد خرج مع السعال.

للحظات طويلة، ظلت معلقة في مكانها، أضعف من أن تجذب نفسها إلى الخارج. ثم بدأت تدفع الحائط بأصابع قدميها، وراحت قدماها تضربان وتركلان. لم تحقق شيئًا من كل هذا، إلا أن الخروج من الباب لم يكن يستلزم أكثر من أن تميل إلى الأمام؛ رأسها وذراعاها كانوا داخل الحجرة بالفعل.

ألقت بنفسها على بساط ردهة الطابق الثاني. كان الهواء جيدًا، فارتمت هناك تشهق كسمكة. البقاء على قيد الحياة أمر شاق مقدس!

كان عليها أن تستند إلى الحائط حتى تستطيع أن تقف على قدميها. توقعت أن يمتلئ المنزل بالدخان والنار الهادرة، لكنه لم يكن كذلك. الرؤية ضبابية نوعًا في الطابق الثاني، لكنها ليست بالطبع مثل الكوة وممرها الرأسي.

لمحت ڤيك ضوء الشمس عن يمينها، فترنحت فوق البساط القديم حتى وصلت قمة الدَّرج. نزلته بحرص وسط الدخان.

كان الباب الأمامي مواربًا، وسلسلة الأمان متدلية من إطاره مع الرتاج نفسه وقطعة خشب طويلة معلقة به. الهواء الداخل من الخارج رطب بارد، أرادت أن ترمي نفسها في أحضانه، لكنها لم تفعل.

لم تكن ترى ماذا يحدث في المطبخ خلف الدخان واللهب، لكنها رأت ورق الحائط في حجرة المعيشة يتجعد ويحترق كاشفًا عن الجص تحته. تفحم البساط، والتهمت ألسنة النار البرتقالية الأزهار الصناعية في المزهرية وراحت تتسلق الستائر البيضاء الرخيصة. بدا لڤيك أن مؤخرة المنزل كلها مشتعلة، لكن المقدمة والردهة الأمامية مُعبَّقتان بالدخان لا أكثر.

نظرت ڤيك عبر النافذة المجاورة للباب. ممر السيارات المؤدي إلى المنزل ترابي، طويل، ضيق، نهايته في مكان ما وسط الأشجار. لم تكن هناك أي سيارات، لكنها لم تكن تستطيع رؤية المرأب من هذه الزاوية. ربما هو متربص بالخارج في انتظار خروجها، أو هو عند نهاية الممر يرى إن كانت ستفر عبره.

من خلفها، تشقق شيء ثم هوى مُصدِرًا صوتًا هائلًا. اندلع الدخان حولها، ولسعت شظية مشتعلة ذراعها. فطنت ڤيك إلى أنها قد نسيت شيئًا مهمًّا، سواء كان يتربص بها بالخارج أم لا، فلا يوجد مكان تذهب إليه سوى...

الخارج

العشب في الحديقة عالٍ غير مشذب، الجري فوقه كالجري بين أسلاك متشابكة. أنشوطات الحشائش المتشابكة تحاول عرقلتها. لم تكن هناك باحة أمامية بالمعنى المعروف، بل مجرد دغل من الأعشاب والحشائش، وخلفها الغابة.

لم تنظر خلفها إلى المرأب أو المنزل، ولم تهرع نحو ممر السيارات. لم تجرؤ على تجربة هذا الطريق الطويل المنبسط إذ ربما يكون مختبئًا بالقرب منه يترصد بها. بدلًا عن ذلك انطلقت نحو الأشجار، ولم تدرك أن هناك مرتفعًا ترابيًّا حتى عبرته، وسقطت من فوق ارتفاع ثلاثة أقدام على أرض الغابة. نزلت بقوة على أصابع قدميها، وشعرت بعضلة فخذها المصابة تصرخ من الألم. هوت فوق كومة من الأغصان الجافة، فتملصت منها حتى سقطت على ظهرها جانبًا.

أشجار الصنوبر تطل عليها من أعلى، تتمايل مع الريح. الزينة المعلقة بها تلمع وتعكس ألوان قوس قزح، شعرت أن رأسها ربما أصيب.

حين استعادت أنفاسها، تدحرجت ثم نهضت على ركبتيها تنظر عبر الساحة الأمامية.

باب المرأب الكبير كان مفتوحًا، والرولز رويس قد اختفت. اندهشت -وربما خاب أملها- من قلة الدخان هناك. استطاعت أن ترى خيطًا رماديًّا يتصاعد من مقدمة المنزل، والباب الأمامي يعبق بالمزيد، لكنها لم تسمع صوت احتراق من مكانها، ولم تر أي لهب. كانت قد توقعت أن يكون المنزل مشتعلًا.

قامت ڤيك وتحركت مرة أخرى. لم تستطع الجري، لكنها أكملت طريقها في هرولة عرجاء. رئتاها مفعمتان بالدخان، ومع كل خطوة تتمزق عضلة فخذها من جديد، لكنها كانت غير واعية لباقي إصاباتها وآلامها، والحرق على رسغها الأيسر، والطعنات المستمرة خلف عينها اليسرى. مكتبة ياسمين

ظلت تسير موازية لممر السيارات، محافظةً على مسافة خمسين قدمًا بينهما، واستعدت كي تنحني مختفية بين العشب في حال ظهرت الرولز رويس. لكن الممر الترابي كان يقودها بعيدًا عن المنزل الصغير الأبيض، ولم يكن هناك أثر للسيارة العتيقة ولا للرجل المدعو تشارلي مانكس، أو الطفل الميت الذي يرافقه.

ظلت تتبع الطريق فترةً، وقد فقدت شعورها بمرور الوقت، ولم تكن لديها فكرة عن الماضي أو الحاضر أو كم مر عليها وهي على طريق الغابة. كل لحظة هي الأطول في حياتها حتى تأتي اللحظة التالية. بدا لها لاحقًا أن هروبها المترنح عبر الأشجار كان بطول طفولتها كلها.

مع الوقت، تبدى لها الطريق السريع فتركت طفولتها خلفها، ملطخة محترقة مع ما تبقى من بيت الزلاجة.

الساتر الترابي عند الطريق السريع كان أعلى من ذاك الذي سقطت منه في الغابة، واضطرت إلى تسلقه على ركبتيها ويديها، وهي تقبض على العشب كي ترفع نفسها إلى أعلى. حين وصلت أعلاه، سمعت صوت أزيز، تلته فرقعة محرك دراجة بخارية تقترب. كانت آتية عن يمينها، لكن ما إن وقفت على قدميها حتى عبرت الدراجة الهارلي ورأت رجلًا ضخمًا يعتليها.

يخترق الطريق السريع الغابة، ويمتد تحت سماء عاصفة. على يسارها تلال زرقاء عالية، ولأول مرة تشعر ڤيك أنها في مكان مرتفع، في هاڤرهيل، ماساشوستس.

على الطريق الأسفلتي، راحت تعدو خلف الهارلي، وتنادي وهي تلوح بذراعيها. لن يسمع. لا أمل في أن يعلو صوتها فوق صوت محرك الدراجة البخارية. لكن الرجل الضخم نظر من فوق كتفه، ولفَّ الإطار الأمامي، فدار عائدًا إليها.

لم يكن يرتدي خوذة، كان رجلًا سمينًا تغطي اللحية ذقنه، وشعره البُني المجعد يتدلى فوق قفاه. جرت ڤيك تجاهه، والألم يطعن فخذها مع كل خطوة. حين وصلت الدراجة البخارية، لم تتردد، ولم تشرح ما حدث لها، فقط طوَّحت ساقها من فوق المقعد ولفَّت ذراعيها حول خصر السائق.

كانت عيناه مذهولتين، بهما شيء من الخوف. يرتدي قفازَين بلا أصابع وسترة من الجلد الأسود، لكن السترة لم تكن مغلقة، فكشفت عن تيشيرت

مطبوع عليه صورة المغني ويرد إيه آي. من تلك المسافة القصيرة، رأت أنها أساءت تقدير عمره، فقد كانت بشرته شابة وردية تحت ذقنه، وتعبيرات وجهة صريحة تلقائية. على الأرجح هو لا يكبرها كثيرًا.

قال: «مهلًا! هل أنت بخير؟ هل وقع لك حادث؟».

- أحتاج إلى الاتصال بالشرطة. ذاك الرجل... حاول قتلي. حبسني في غرفة وأضرم النار في بيته. معه طفل صغير... هناك طفل صغير معه... يجب أن نرحل الآن. ربما يعود!

لم تكن واثقة بأن أيًّا مما قالت له معنى. لقد أخبرته الحقيقة لكنها لم ترتبها بشكل دقيق.

نظر الشاب إليها في حيرة كأنها تحدثه بلغة غير مفهومة، لغة كلينجون[1] ربما، إلا أنها لو كانت قد تحدثت معه بتلك اللغة -كما عرفت لاحقًا- لكان لويس كارمودي فهمها.

صاحت: «حريق! حريق!».

وراحت تشير بإصبعها تجاه الممر الترابي المؤدي إلى المنزل.

لم تكن تراه من الطريق السريع، وربما كان خيط الدخان البادي من خلف الأشجار صادرًا عن مدخنة أو حريق أوراق شجر في باحة أحدهم. لكن صياحها كان كافيًا لإفاقته من ذهوله، فصاح بدوره: «تماسكي! سحقًا!».

صوته راجف، عالٍ. ظل يضغط دواسة الوقود حتى خشيت ڤيك أن يميل بالدراجة إلى الخلف على عجلة واحدة. انعقدت معدتها، واعتصرت خصره بين ذراعيها حتى كادت أصابعها تلامس بعضها بعضًا. ظل الشاب يؤرجح الدراجة ويتلوى بها على الطريق حتى ظنت أنها ستسقط عنها.

لكنه سيطر عليها، وتلاحقت الخطوط البيضاء على الأسفلت بانتظام جوارهما كطلقات البندقية الآلية، وكذا تلاحقت الأشجار على جانبي الطريق.

تجرأت ڤيك ونظرت خلفها. توقعت أن ترى السيارة العتيقة السوداء تقتحم الطريق السريع، لكن الدرب خلفهما كان خاليًا. أدارت رأسها ودفنته في ظهر الشاب السمين، وتركا منزل الرجل العجوز خلفهما، منطلقَين نحو التلال الزرقاء. ابتعدا، وصارا آمنَين، وانتهى كل شيء.

---

(1) Star trek: لغة غير حقيقية يتحدثها الفضائيون في الأفلام. (المترجمة)

جنباريل، كلورادو

ثم بدأ يبطئ السرعة.

صاحت: «ماذا تفعل؟».

كانا قد تحركا أقل من نصف ميل فقط على الطريق السريع. نظرت خلف كتفها وكانت لا تزال قادرة على رؤية الطريق الترابي المؤدي إلى ذاك المنزل المريع.

- نحن بحاجة -مثلًا- للحصول على مساعدة. لا بد أن لديهم هاتفًا هنا.

كانا يقتربان من حارة طريق أسفلتية مشققة، تفضي بهما إلى اليمين حيث متجر محلي أمامه مضختا وقود. قاد الشاب دراجته إلى المدخل.

أوقف المحرك فجأة -بدلًا من الحفاظ عليه في وضع الاستعداد- في اللحظة التي أنزل فيها مسند الدراجة. أرادت أن تمنعه؛ هما على مقربة من منزل الرجل، لكن الشاب السمين كان قد ترجَّل ومد لها يده يساعدها على النزول.

تعثرت في أول درجة تقود إلى المدخل، فكادت تقع لولا أن تلقاها بين ذراعيه. التفتت ونظرت إليه بعينين دامعتين. هل كانت تبكي؟ لم تكن تعرف، فكل ما تعرفه أنها قليلة الحيلة، تُنهنه وتشهق وتختنق في أنفاسها.

الشاب لويس كارمودي في العشرين، فتى له سجل سوابق يحوي جرائم حمقاء، تخريب، سرقة، تدخين تحت السن القانونية. بدا لها كأنه سيبكي هو الآخر. لم تعرف اسمه إلا لاحقًا.

قال: «مهلًا. مهلًا! لن أدع مكروهًا يصيبك. أنت بخير. أنا جوارك».

أرادت أن تصدقه. رغم ذلك، كانت تفهم الفارق بين أن تكون طفلًا أو بالغًا. الفارق أنه حين يخبرك أحدهم أنه سيبعد الأذى عنك، فالطفل سيصدقه. أرادت أن تصدقه، لكنها لم تستطع، لذا قررت أن تقبِّله بدلًا عن ذلك. ليس الآن، لكن لاحقًا... لاحقًا ستقبله أفضل قبلة على الإطلاق.

كان ممتلئ الجسد، شعره أشعث، ربما لم تقبله فتاة جميلة من قبل. ڤيكي لم تكن عارضة ملابس داخلية في مجلة، لكنها كانت جميلة بما يكفي. عرفت ذلك من الطريقة التي تردد فيها عن تركه خصرها.

قال لها: «لندخل ونجلب كل قوات الإغاثة التي نقدر عليها. ما رأيك في هذا؟».

- وعربات إطفاء.

- وهذه أيضًا.

قادها لُو إلى متجر ريفي ذي أرضية خشبية. رأت البيض المخلل يطفو كعيون البقر في برطمان من سائل مصفر فوق الكاونتر.

صف قصير من الزبائن يقود إلى ماكينة دفع وحيدة. الرجل خلف الكاونتر يحمل في ركن فمه غليونًا. ذكرها بالبحَّار بوباي في الرسوم المتحركة بغليونه، وعينيه الضيقتين، وذقنه البارز.

وقف شاب بملابس الجيش في بداية الصف، يحمل بعض العملات في يده، وزوجته تنتظر جواره، تحمل طفلهما. زوجته كانت أكبر من ڤيك بخمسة أعوام على الأكثر، شعرها الأشقر مُصفف في ذيل حصان مربوط بحلقة مطاطية. أما الصغير المشعث بين ذراعيها فكان يرتدي زِي باتمان مبقعًا بصلصة الطماطم عند الصدر، دليل غداء مغذٍّ على طريقة الطاهي بوياردي[1].

قال لُو رافعًا صوته الضعيف: «معذرة...».

لم يعبأ أحد به. سأل الرجل ذو زي الجيش: «ألن أجد عندك حليب أبقار أبدًا يا سام؟».

---

(1) Chef Boyardee: طاهٍ أمريكي إيطالي تتمحور وصفاته حول المكرونة والبيتزا الإيطالية، ولديه ماركة طعام محفوظ باسمه. (المترجمة)

قال الرجل شبيه بوباي وهو يفتح دُرج خزانة الدفع: «هذا حقيقي. لكنك لن تحب السماع عن طليقتي مرة أخرى».

انفجر مَن حولهم في الضحك. ابتسمت الشابة الشقراء في تسامح وهي تنظر حولها، حتى استقرت عيناها على لُو وڤيك، فانعقد حاجباها في اهتمام.

صاح لُو: «اسمعوني جميعًا!».

هذه المرة، التفت الجميع نحوه محدقين.

- نحتاج إلى هاتفكم.

قالت الشقراء التي تحمل الطفل لڤيك: «ما بك يا حلوتي؟».

علمت ڤيك على الفور أنها نادلة، وتنادي الجميع بـ «حلوتي» أو «حبيبي» أو «دميتي». أردفت: «هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟ حادث؟».

قال لُو: «هي محظوظة أنها ما زالت حية. ثمة رجل حبسها في منزله عند نهاية الطريق، وحاول حرقها حتى الموت. المنزل مشتعل الآن وهي قد خرجت منه لتوها. الحقير معه طفل آخر».

هزت ڤيك رأسها يمينًا ويسارًا. كلا، هذا ليس صحيحًا. الطفل لم يعد طفلًا. لقد صار شيئًا آخر لمسَتُه تحرِق، لكنها لم تجد طريقة لتصحح لرفيقها ما قال، لذا صمتت.

ظلت الشقراء تنظر إلى لُو كارمودي وهو يتحدث، ثم تعيد نظرها إلى ڤيك. نظرتها حريصة، تقيِّم الوضع بدقة، وهي نظرة اعتادتها ڤيك من أمها حين كانت تقيِّم حالة جرح ما، وتحكم على خطورته وتحدد علاجًا مناسبًا.

سألتها الشقراء: «ما اسمك يا حبيبتي؟».

- ڤيكتوريا.

هي لم تكن تذكر اسمها كاملًا من قبل. سألت الشقراء في رقة وطيبة: «هل أنت بخير يا ڤيكتوريا؟».

بكت ڤيك. استولت الشقراء على قيادة الحجرة بمن فيها، دون أن ترفع صوتها أو تُجلس صغيرها حتى.

لاحقًا، حين فكرت ڤيك فيما يعجبها في النساء، كانت تتذكر زوجة الجندي، وفي ثقتها وأدبها. تتذكر الأمومة التي هي مرادف للوجود والرعاية والاهتمام بما يحدث للآخرين. تمنت لو أنها تحوز هذه الصفات التي تجعلها

أمًّا، واعية لما يجب عليها فعله خلال الأزمات. كان ابن ڤيك، بروس، حاضرًا في ذهنها رغم أنها لن تنجبه قبل ثلاثة أعوام تالية.

جلست ڤيك فوق صناديق جوار الكاونتر. الرجل الذي يذكرها ببوباي قد رفع السماعة طالبًا من عامل الهاتف أن يوصله بالشرطة. كان صوته هادئًا، ولم يكن أحد يبالغ في رد فعله لأن الشقراء لم تبالغ، والآخرين قد استمدوا ردود أفعالهم منها.

سألتها زوجة الجندي: «هل تسكنين بالقرب من هنا؟».

- أنا من هافِرهيل.

سأل الجندي -واسمه توم بريست-: «هل هي في كلورادو؟».

كان في إجازة مدة أسبوعين قبل عودته إلى المملكة السعودية هذا المساء عبر قاعدة فورت هود الحربية.

هزت ڤيك رأسها نفيًا وأجابت: «ماساشوستس. يجب أن أتصل بأمي؛ هي لم ترني منذ أيام».

من هذه اللحظة، لن تتمكن ڤيك من العودة إلى حكي الحقيقة مرة أخرى. لقد فُقدت من ماساشوستس منذ يومين، والآن هي في كلورادو وقد فرت من رجل حبسها في بيته وحاول قتلها حرقًا. دون أن تعلن أنها قد خُطفت، استنتج الجميع أن هذا هو ما حدث لها.

وصارت هذه هي الحقيقة الجديدة، حتى بالنسبة إلى ڤيكتوريا نفسها، بالطريقة نفسها التي كانت تقنع نفسها بها أنها وجدت سوار أمها في سيارة العائلة، لا في مطعم تيري عند الشاطئ. من السهل ترديد هذه الكذبات لأنها لم تبدُ ككذبات على الإطلاق. حين سُئلت عن رحلتها إلى كلورادو، قالت إنها لا تتذكر ركوب سيارة تشارلي مانكس، فتبادل ضباط الشرطة نظرات حزينة متعاطفة. حين ضغطوا عليها في الاستجواب، قالت إن الرحلة كلها كانت في الظلام. كأنها كانت محبوسة في صندوق السيارة؟ أجل، ربما. أحدهم دوَّن شهادتها، فوقَّعت عليها دون أن تعبأ لقراءتها.

سألها الجندي: «أين هربت منه؟».

أجاب لويس كارمودي بدلًا عن ڤيك: «على بعد نصف ميل من هنا. يمكنني أن أقودك إلى هناك. المكان جوار الغابة. لو لم يرسلوا سيارة الإطفاء سريعًا يا صاح لتفحم نصف التل».

قال بوباي وهو يبعد فمه عن سماعة الهاتف: «هذا هو منزل سانتا كلوز».

تساءل الجندي: «سانتا كلوز؟».

قال رجل مستدير كاليقطينة يرتدي قميصًا بنقشة مربعات بالأحمر والأبيض: «أعرف هذا المنزل. لقد رأيته وأنا أصطاد. منزل غريب، والأشجار حوله مزينة بزينة الكريسماس طيلة العام. مع ذلك لم أر أي شخص هناك».

سأل الجندي: «هذا الرجل أضرم النار في منزله ورحل؟».

قال لُو: «وما زال معه طفل آخر».

- ما نوع سيارته؟

فتحت ڤيك فمها لتجيب، لكنها لمحت حركة عبر نافذة الباب، ثم نظرت إلى ما خلف الجندي فرأت الشبح واقفًا يضخ الوقود في سيارته بالخارج، وكأن سيرته قد استدعته. حتى من بعيد، وعبر باب مغلق، استطاعت أن تسمع أغاني الكريسماس.

محطة سام، للوقود والمُتفرِّقات

لم تستطع ڤيك أن تصرخ أو تتكلم، لكن لم يكن هناك داعٍ لذلك. رأى الجندي وجهها ولاحظ اتجاه نظرتها، فالتفت ليرى من قد توقف لِضخ الوقود.

كان السائق قد نزل عن كرسيه ودار حول السيارة ليستخدم المضخة. سألها الجندي: «هل هو هذا الرجل؟ سائق السيارة؟».

أومأت ڤيك إيجابًا. قال لُو وهو يميل ليرى عبر النافذة: «لا أرى طفلًا معه».

تلت عبارته لحظة صمت ثقيلة، كل واحد من الحاضرين يفكر في معنى ما قيل. سألها الجندي: «هل هو مسلح؟».

- لا أعرف. لم أرَ سلاحًا.

دار الجندي واتجه نحو الباب. نظرت إليه زوجته نظرة حادة وهي تقول: «ماذا تظن أنك ستفعل؟».

- دع الشرطة تتعامل معه يا توم بريست.

- سأفعل حين تصل. لكني لن أدعه يرحل قبل أن تصل الشرطة.

قال الضخم الذي يرتدي القميص بنقش المربعات: «سأذهب معك يا تومي. يجب أن أكون معك على أي حال، أنا الوحيد في هذه القاعة الذي يحمل شارة في جيبه».

غطى بوباي سماعة الهاتف بكفه وقال: «آلان، الشارة التي في جيبك شارة حارس الصيد، وتبدو كأنك قد فزت بها في علبة مقرمشات».

قال آلان وارنر وهو يضبط ربطة عنقه، ويرفع حاجبيه الفضيين في غضب زائف: «لم أفُز بها في علبة مقرمشات! كان عليَّ أن أذهب إلى مؤسسات

مرموقة للغاية للحصول عليها، وقد حصلت من المكان نفسه على مسدس ماء وعصابة عين قرصان حقيقية».

قال بوباي وهو يمد يده أسفل الكاونتر: «إن كنت مصممًا على الخروج، فخذ هذه معك».

أخرج مسدسًا آليًّا ضخمًا ووضعه أمامه جوار ماكينة الدفع، ثم دفعه بيد واحدة نحو حارس الصيد.

حدق آلان ورانر إلى المسدس، ثم هز رأسه وقال: «من الأفضل ألا أفعل. لا أذكر كم غزالًا صِدت، لكني لا أحب أن أصوب سلاحًا نحو رجل. تومي؟ ما رأيك؟».

تردد الجندي تومي بريست، ثم عبر الحجرة نحو السلاح، وأداره كي يتحقق من تأمينه.

قالت زوجة الجندي وهي تهز طفلها بين ذراعيها: «توماس. لديك ابن لم يتجاوز عمرة ثمانية عشر شهرًا. ماذا ستفعل لو رفع عليك هذا الرجل سلاحًا؟».

- سأطلق عليه الرصاص.

قالت بصوت أعلى قليلًا من الهمس: «سحقًا... *سحقًا*».

ابتسم... وحين فعل، بدا كطفل في العاشرة على وشك إطفاء شموع كعكة عيد ميلاده.

- كادي، يجب أن أفعل هذا. أنا أخدم في الجيش الأمريكي ومخول لي بتطبيق القانون الفيدرالي. لقد سمعنا للتو أن هذا الرجل قد نقل قاصرًا عبر طرق الولاية رغمًا عنها، ويعتبر هذا اختطافًا. واجبي أن ألصق مؤخرته بالأرض وأحتجزه حتى وصول القوات المدنية. والآن، كفى حديثًا.

اقترح بوباي: «لماذا لا ننتظره حتى يدخل ليدفع ثمن الوقود؟».

لكن توم وحارس الصيد كانا يتجهان بالفعل نحو الباب معًا. نظر آلان خلفه وقال: «لا نعرف إن كان سيدفع أم سيرحل دون دفع. كف عن الذعر. سيكون هذا مسليًا. لم أتصدَّ لأحد منذ المدرسة الثانوية».

ابتلع لُو كارمودي ريقه قال: «سأساندكما».

وسار خلف الرجلين، لكن كادي الجميلة الشقراء أمسكت ذراعه قبل أن يخطو ثلاث خطوات. هي على الأرجح أنقذت حياة لويس كارمودي. قالت

بصوت لا يقبل النقاش: «لقد فعلت ما يكفي. أريدك أن تمكث هنا. ربما يحتاجونك على الهاتف لتحكي ما رأيت للشرطة».

تنهد لُو تنهيدة مرتجفة، وتهدلت كتفاه. بدا كأنه قد ارتاح، وفهمت ڤيك أن البطولة أمر مرهق.

قال آلان وارنر وهو يومئ تجاه كادي وڤيك: «سيدتيَّ.. أستأذن منكما».

قاد توم بريست الرجل الآخر خارجًا، وأغلق الباب خلفهما. اهتز الجرس النحاسي، وراح الجميع يشاهدون ما سيحدث عبر النافذة الأمامية.

رأت ڤيك الرجلين يعبران الطريق الأسفلتي يتقدمهما الجندي وهو يحمل المسدس ملاصقًا لفخذه اليمنى. كانت السيارة الرولز رويس على الجهة الأخرى من المضخة والسائق يوليهما ظهره. لم ينظر خلفه مع اقترابهما، وظل يملأ الخزان.

لم ينتظر توم بريست أو يحاول الحديث. وضع يده على ظهر مانكس ودفعه نحو السيارة، ثم ألصق ماسورة المسدس بظهره.

حاول تشارلي مانكس أن يستقيم في وقفته، إلا أن بريست دفعه نحو السيارة مرة أخرى. لم تتزعزع السيارة عن مكانها أو تتمايل على ياياتها، وهي السيارة التي صُنعت في بريستول عام 1938. وجه توم بريست المسمر من أثر الشمس كان قاسيًا معاديًا، وقد زالت عنه أي لمحة من لمحات الطفولة الآن. بدا كأنه ابن عاهرة متوحش ينتعل حذاءين عاليَي الرقبة وتتدلى من صدره شرائح تعريف معدنية.

أمر مانكس بصوت منخفض، وببطء شديد رفع مانكس ذراعيه ووضعهما فوق ظهر السيارة. دسَّ توم يده اليسرى الحرة في جيب سترة مانكس السوداء، وأخرج بعض العملات المعدنية وقداحة نحاسية، ومحفظة ذات زينة فضية ووضعها فوق الرولز رويس.

في هذه اللحظة، سمع ضربة أو خبطة عند مؤخرة السيارة، وقد كانت صادرة عن حركة كافية كي تؤرجح هيكل السيارة. نظر توم بريست إلى آلان وارنر ثم قال بصوت عالٍ حتى إنهم استطاعوا سماعه من داخل المتجر: «آلان. دُر حول السيارة واجلب المفاتيح. لنَر ما الذي في صندوق السيارة».

أومأ آلان ودار من أمام السيارة وهو يخرج منديله ليمسح أنفه. وصل إلى باب السائق حيث النافذة مفتوحة مقدار ثماني بوصات تقريبًا. مد يده نحو المفتاح وكان هذا حين بدأت الأمور تتدهور.

ارتفع زجاج النافذة على الرغم من عدم وجود أي شخص فيها ليغلقه. ارتفع الزجاج لينغرز في ذراع آلان وارنر ويثبتها مكانها. صرخ آلان وأرجع رأسه للخلف مغمضًا عينيه، واقفًا على أطراف أصابعه من الألم.

أبعد توم بريست نظره عن تشارلي مانكس للحظة... فقط لحظة واحدة... لينفتح باب الراكب بقوة فيدفع توم جانبًا ويرتطم بالمضخة، ثم يدور حولها دون تحكم في نفسه. طار المسدس ليسقط على الأسفلت. من حيث وقفت ڤيك، بدت السيارة كأنما فتحت نفسها دون أن يمسها أحد. فكَّرت تلقائيًّا في سيارة السائق نايت، ذلك المسلسل الذي توقفت عن مشاهدته منذ عشرة أعوام، وتذكرت كيف كانت سيارة مايكل نايت تقود نفسها وتفكر بنفسها، وتطرد مِن داخلها مَن لا يعجبونها، وتفتح أبوابها لمن تحب.

أنزل مانكس ذراعه اليسرى عن سقف السيارة، ثم أمسك خرطوم تزويد الوقود واستدار ليضرب رأس توم بالفوهة المعدنية، فيهشم حاجز أنفه ويضغط زناد الضخ في الوقت نفسه فيغرق وجه الجندي بالوقود فينهمر على ملابسه الرسمية.

أطلق توم بريست صرخة مختنقة، وغطى عينيه بيديه. ضربه مانكس مرة أخرى بالفوهة المعدنية على قمة رأسه كأنه يحاول ثقبها. ارتفعت فقاقيع الوقود الشفافة فوق رأس بريست.

ظل آلان يصرخ ويصرخ مجددًا والسيارة تتقدم إلى الأمام وتجره معها. حاول بريست أن يلقي نفسه فوق مانكس، لكن الرجل الطويل تحرك من مكانه متحاشيًا إياه، فسقط توم على أربع فوق الأسفلت. صب مانكس الوقود على ظهر الجندي، غمره كما يغمر الرجل حديقة أزهاره.

انزلقت الأغراض -العملات والقداحة- من فوق سقف السيارة إذ تتحرك إلى الأمام. مد مانكس يده والتقف القداحة النحاسية ببراعة وبلا جهد.

أحدهم دفع ڤيك من جهة اليسار -لُو كارمودي- فكادت تسقط على الشقراء المدعوة كادي، التي كانت تصرخ باسم زوجها وهي تميل إلى الأمام من قوة صرختها. الطفل بين ذراعيها كان يصرخ أيضًا: «*أبي أبي!*»، انفتح باب المتجر، وانطلق منه الرجال، وللحظات حجبوا رؤية ڤيك في اندفاعهم.

حين استطاعت أن ترى الأسفلت مرة أخرى، كان مانكس يتراجع إلى الخلف وهو يشعل قداحته، ثم يرميها على ظهر الجندي، فيشتعل توم بريست بلهب أزرق هائل، أطلق دفعة حرارة قوية كافية لهز نوافذ المتجر.

السيارة الشبح كانت تتحرك الآن وتجر حارس الصيد المدعو آلان وارنر معها. ظل الرجل السمين يضرب الباب بيده الحرة وكأنه يحثها على تركه، وكان بعض الوقود قد وصل إلى الإطار أسفل مقعد السائق، فبدأ يشتعل.

ابتعد تشارلي مانكس خطوة أخرى عن الجندي الذي أضرم فيه النار، ثم تلقى ضربة من الخلف من أحد زبائن المتجر، وهو رجل نحيل يرفع سرواله بحمالتين. سقط الرجلان معًا، وهرع لُو كارمودي عابرًا من فوقهما وهو يخلع سترته ليُلقيها فوق جسد توم بريست المشتعل.

نزل زجاج النافذة فجأة، مُطلِقًا سراح ذراع آلان وارنر، فسقط على الأسفلت ونصفه تحت السيارة. تأرجحت الشبح إذ عبرت من فوق جسده المكتنز.

هرع سام -صاحب المتجر الشبيه ببوباي- جوار ڤيك حاملًا مطفأة حريق. كان لُو كارمودي يصيح بشيء وهو يطوح سترته فوق جسد توم بريست، ويضربه بها، كأنه يطفئ كومة من الجرائد يتصاعد منها قشور الرماد الأسود لتملأ الهواء حوله. لاحقًا فهمت ڤيك أن تلك القشور لم تكن سوى جلد بشري متفحم.

ضرب الطفل بين ذراعَي كادي النافذة بيده المكتنزة وهو يصيح: «*أبي، هذا ساخن! ساخن!*». فجأة أدركت كادي أن طفلها يرى كل شيء، فدارت على عقبيها وابتعدت به عن النافذة وهي تبكي.

سارت الرولز رويس عشرين قدمًا قبل أن تتوقف مصطدمةً بعمود أسلاك الهاتف. اللهب يزحف إلى مؤخرة السيارة، ولو كان هناك طفل في صندوقها لكان الآن يختنق أو يحترق حتى الموت، لكن لم يكن ثمة طفل في الصندوق، بل حقيبة مملوكة لامرأة تدعى سنثيا مَكولاي، وقد اختفت قبل ثلاثة أيام من مطار كيندي مع ابنها براد. لكن لم ير أحد سنثيا أو براد مرة أخرى بعدها، ولم يستطع أحد تفسير صوت الخبطات الذي صدر من السيارة، ولا النافذة التي انغلقت تلقائيًّا، ولا الباب الذي انفتح من تلقاء نفسه. بدا للجميع أن السيارة قد تصرفت بناءً على تفكيرها الخاص.

وصل سام كليري إلى الرجلين المصطرعين على الأرض، واستخدم مطفأة الحريق لأول مرة في ضرب وجه تشارلي مانكس، ثم استخدمها للمرة الثانية لإطفاء جسد توم بريست، الذي كان قد مات قبلها بثلاثين ثانية.

ولا داعي لذكر أنه قد مات مكتمل الشواء.

فاصل:

روح الإكستاسي

2000-2012

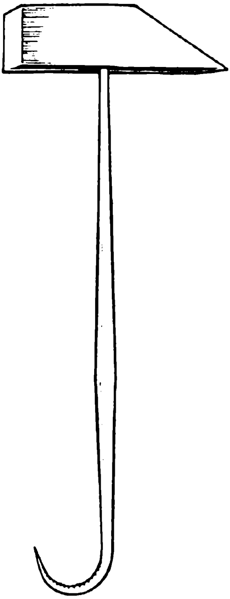

جنباريل، كلورادو

المرة الأولى التي تلقت فيها ڤيك مكالمة من أرض الكريسماس، كانت أمًّا غير متزوجة، تعيش مع حبيبها في مسكن ضيق. وكان الثلج ينهمر في كلورادو.

لقد عاشت حياتها كلها في نيو إنجلاند، وظنت أن الثلج قد صار مألوفًا لها، لكن الأمر يختلف جوار جبال روكي، والعواصف تختلف.

كانت تعتبر عواصف جبال روكي الثلجية عواصف زرقاء، تنهمر الثلوج في زخات سريعة قوية منتظمة، تضفي لونًا أزرق على الضوء فتشعر كأنها محبوسة في عالم سري تحت نهر متجمد. عالم شتوي يعيش ليلة الكريسماس أبدًا.

تسير ڤيك داخل المنزل منتعلة حذاءين بلا كعب، مرتدية واحدًا من قمصان لُو الواسعة قصيرة الكُمَّين (والتي ترتديها كرداء نوم) وتقف وسط الكآبة الزرقاء تنصت إلى انهمار الثلوج. صوت ارتطامها بفروع الأشجار مثل صوت الضوضاء الاستاتيكية. تفكر ڤيك كيف انتهى بها المطاف ملتهبة الثديين، وبلا عمل، وتبعد عن بيتها ألفَي ميل.

آخر ما تذكر أنها كانت هناك في مهمة انتقامية. عادت إلى كلورادو بعد أن تخرجت في مدرسة هاڤرهيل الثانوية، كي تلتحق بكلية الفنون، وكانت تريد الالتحاق بها لأن أمها ترفض هذا الاختيار، ولم يُرِد أبوها أن يدفع مصاريف الدراسة.

ثمة اختيارات أخرى لم تتحملها أمها، ولم يعلم بها أبوها، ڤيك تدخن الماريجوانا، وتهرب من الدروس للتزلق، تعيش بلا زواج مع السمين لجانح

الذي أنقذها من تشارلي مانكس، وتحمل دون أن تفكر في ضرورة الزواج. كانت ليندا تعلن دومًا أنها ستتبرأ من أي طفل غير شرعي لابنتها، لذا لم تدعُها ڤيك بعد ولادته، وحين عرضت ليندا الزيارة قالت ڤيك إنها تفضل ألا تأتي. لم تهتم حتى أن ترسل لأبيها صورة المولود.

ما زالت تتذكر كم أن النظر إلى وجه لُو كارمودي قد أسعدها، وهو ينظر إليها عبر أقداح القهوة في مقهى في بولدير، وتقول له في سعادة وبلا مواربة: «لذا، أعتقد أنني يجب أن أضاجعك بعد أن أنقذت حياتي، أليس كذلك؟ هذا أقل ما يجب أن أفعل. هل تريد أن تُنهي قهوتك أولًا، أم نبدأ الآن؟».

بعد مرتهما الأولى معًا، اعترف لُو أنه لم يضاجع فتاة من قبل. وجهه كان يتوهج حُمرة من المجهود والحرج معًا. كان لا يزال بتولًا وقد شارف على عمر العشرين. من قال إن الدنيا تخلو من العجائب؟

كان محتمًا أن يقع في حبها. هو يتوق إلى الحديث كما يتوق إلى الحميمية، وربما أكثر. كان يريد فعل ما يرضيها، وشراء ما تحب، ورسم وشوم معًا، والخروج معًا. أحيانًا كانت تكره نفسها لأنها تركته يحاصرها في ركن الصداقة. بدا لها أنها خططت لعلاقة أبسط، أن تضاجعه مرة أو اثنتين لتُبدي له تقديرها وامتنانها، ثم تتركه ليبحث عن حبيبة أخرى. فتاة ذات خصلة شعر مصبوغ بالوردي، وأقراط في لسانها. المشكلة في هذه الخطة هي أنها تفضل الرجال على النساء، وتفضل لُو على باقي الرجال: رائحته طيبة، حركته بطيئة، من الصعب إثارة غضبه كشخصية من شخصيات غابة الفدادين المائة[1]، وهو ليِّن كشخصية من شخصيات غابة الفدادين المائة. يضايقها حبها للمسه والارتكان إليه. جسدها يعمل على عكس إرادتها، ويتجه نحو نهاية غير ذات جدوى.

يعمل لُو في مرأب تصليح سيارات قد افتتحه ببعض المال الذي أعطاه له والداه، ويعيش هو وڤيك في عربة مقطورة خلفه، على بعد مائتَي ميل من جَنباريل، وألف ميل من أي مكان آخر. لم يكن لدى ڤيك سيارة، فكانت تقضي مائة وستين ساعة أسبوعيًّا في مسكن يفوح برائحة الحفاضات المتسخة والمحركات.

---

(1) Hundred Acre Wood: مكان خيالي تعيش فيه شخصيات كارتون ويني ذا بو. (المترجمة)

عند التفكير فيما حدث، تتفاجأ ڤيك أنها لم تُجن بعد، كما فوجئت أن كثيرًا من الأمهات الصغيرات لم يفقدن عقولهن. حين يصير صدرك قربة حليب، والموسيقى التصويرية لحياتك بكاءً هستيريًّا وضحكات مجنونة، كيف تتوقع أن تظل عاقلًا؟

كان لديها مهرب واحد، حين كان الجليد ينهمر، تترك وُين مع لُو وتقترض شاحنة القَطر، وتقول إنها ذاهبة إلى البلدة لتشتري مجلة وتحتسي الإسبريسو. ما قالته هو مجرد ذريعة للخروج، وهي في الحقيقة ستفعل ما تشعر أنه أمر فضولي خاص، وربما مخزٍ كذلك.

ثم حدث ما حدث وهم محبوسون جميعًا في القاطرة.

كان وُين يضرب الإكسليفون بملعقة، ولُو يحرق بعض الفطائر المحلاة، والتلفاز يعرض كارتون دورا -اللعينة- المستكشفة. خرجت ڤيك إلى الباحة لتدخن. كانت الأجواء بالخارج مُزرقة، والثلج يصدر صوت هسيس إذ ينهمر على الأشجار. وبمجرد أن أنهت تدخين سيجارتها حتى كادت تحرق أصابعها، عرفت أنها تحتاج إلى جولة بالشاحنة.

اقترضت المفاتيح من لُو، وارتدت معطف العواصف الثلجية، ثم عبرت إلى مرأب التصليح وهي تنظر إلى صباح الأحد الأزرق المتجمد حولها. داخل المرأب، الرائحة تتألف من زيت المحركات المسكوب والمعدن، رائحة أقرب لرائحة الدماء. التقط وُين هذه الرائحة وصارت رائحته طيلة الوقت، وهي تكره ذلك. الولد بروس وُين كارمودي -يناديه والدا لُو، بروس. وتناديه ڤيك وُين. ويناديه لُو، بات- يقضي أغلب يومه متشرنقًا داخل إطار شاحنة عملاق، وهذا ما كان لديهم عوضًا عن سياج لعب الأطفال. والد ابنها رجل لا يملك سوى طاقمَي ملابس داخلية ولديه وشم الجوكر على فخذه، وهو شيء يفوق تحمُّلها علاوةً على هذا المكان الجبلي المتجمد فاقد الأمل. هي لا تعرف كيف وصلت إلى هنا، رغم أنها دائمًا ما كانت تعرف الطريق إلى المكان الذي تريد.

تعلقت قدمها على عتبة الشاحنة وهي تنظر إلى شيء آخر. كان لُو قد تولى مهمة طلاء دراجة بخارية لزبون، وكان قد انتهى من طلاء طبقة تأسيس سوداء على خزان الوقود فبدا كأنه سلاح أو قنبلة.

على الأرض جوار الدراجة البخارية، ورقة مُفرغة عليها رسم جمجمة ولهيب وتحته كلمة «الصائع». لمحة واحدة على ما فرَّغه لُو على الورقة،

وعرفت أنه سيفسد العمل. شيء أكبر من ضعف الرسم والفشل الذي يلوح أمامها. شيء جعلها تشعر بالقرف من حبها له... وتشعر بالذنب لذلك. حتى في هذا الوقت، جزء من نفسها كان يعلم أنها ستتركه يومًا، وجزء آخر كان موقن أنه -هو ووُين- يستحقان ما هو أفضل من ڤيك مَكوين.

الطريق السريع يتلوى لمسافة ميلَين حتى جَنباريل حيث المقاهي ومتاجر الشموع والنوادي الصحية، لكن ڤيك قطعت أقل من نصف المسافة إلى هناك، قبل أن تنعطف إلى طريق جانبي ترابي يخترق أشجار الصنوبر إلى بلدة قروية.

أضاءت الكشافات وضغطت دوَّاسة الوقود. بدا الأمر كأنها تهوي من منحدر... كأنها تنتحر.

راحت الشاحنة تحطم الأغصان، وتضرب الأخاديد، وتتمايل عند المنحدرات. كانت تقود بسرعة خطرة، تتحرك منزلقة حول المنعطفات، وتنثر الأحجار والثلج خلفها.

ڤيك تبحث عن شيء. ظلت تحدق إلى الدائرة التي خرقها ضوء الكشافَين في ستائر الثلج المنهمر، تتبع طريقًا ناصعًا، تخترق نفقًا من التشويش الاستاتيكي.

شعرت أنه على مقربة، جسر الطريق المُختصر. ينتظرها عند نهاية ضوء كشافَي السيارة. آمنت أن المسألة مسألة سرعة، ولو أنها أسرعت فستجبره على الوجود، وستنتقل من الطريق الوعر إلى أرضية الجسر الخشبية. إلا أنها لم تستطع أن تدفع الشاحنة لسرعات أكبر لا تقدر على السيطرة عليها، لذا لم تبلغ قط جسر الطريق المُختصر.

لو أنها استعادت دراجتها... لو أنها في الصيف...

لو أنها لم تكن حمقاء لدرجة أن تنجب طفلًا. كانت تكره كونها أمًّا. الآن قد انتهى مستقبلها، لكنها كانت تحب وُين لدرجة منعتها عن ضغط دواسة الوقود والقفز إلى الظلام الأبدي.

كانت تظن أن ما منعها هو الحب، وإحساس كالسعادة، لكن اتضح لها أن الشعورين منفصلان. الحب بالنسبة إليها كان أقرب إلى الاحتياج، لا يزيد كثيرًا على الحاجة إلى الطعام أو التنفس. حين يغفو وُين، تشعر بلمسة خده

الدافئ على صدرها العاري، وتشم رائحة شفتيه حلوة من أثر حليب ثديَيها، فيغمرها إحساس أنها هي التي شبعت.

ربما هي عاجزة عن العثور على الجسر لأنه لم يعد هناك ما تبحث عنه لتجده من خلاله. ربما قد وجدت كل شيء أرادها العالم أن تجده، والآن هي قد يئست.

لا يجدي كونها أمًّا. أرادت أن تنشئ موقعًا إلكترونيًّا، أو تشن حملة توعية عامة عن المرأة والأمومة وكيف يمكن أن تفقد الأم كل شيء، وتظل رهينة الحب، الإرهاب الذي لن يقنع إلا بالإحاطة بكل مستقبلها.

انتهى الطريق إلى حفرة زلطية، وهنا كان عليها العودة. قادت مرة أخرى إلى الطريق السريع والصداع يعتصر رأسها.

كلا، لم يكن صداعًا ولا ألمًا في الرأس، بل في عينها اليسرى، وخفقان بطيء ضعيف.

عادت إلى المرأب وهي تغني مع أغاني كيرت كوبين[1]. كيرت كوبان يفهم كيف يشعر المرء حين يفقد جسره السحري الذي يوصله إلى ما يحتاج. فقْدٌ بطعم جَنباريل، كلورادو.

أوقفت الشاحنة في المرأب، وجلست خلف المقود في البرد، ترمق البخار المتصاعد من أنفاسها. كانت لتظل في مكانها إلى الأبد، لولا دق جرس الهاتف.

الهاتف معلق على حائط المكتب الذي لم يستخدمه لويس قط. كان عتيقًا من الطراز ذي القرص الدوار، مثل ذاك الذي كان في بيت الزلاجة الخاص بتشارلي مانكس، وصوته خشن معدني.

الهاتف ذو خط منفصل عن خط المنزل، ويشار إليه بـ «خط العمل»، ولم يتصل أحد به قط.

نزلت عن المقعد الأمامي، الذي يبعد أربعة أقدام عن الأرضية الأسمنتية، والتقطت السماعة قبل الجرس الثالث.

قالت: «ورشة كارمودي لتصليح السيارات».

---

(1) Kurt Cobain 1994 - 1967: مغنٍّ وكاتب كلمات أمريكي، من مغني الروك. (المترجمة)

كان الهاتف باردًا إلى حد الألم. كفها التي تقبض على السماعة تحيطها هالة برودة على سطح البلاستيك.

سمعت صوت هسيس، كأن المكالمة من مكان بعيد. في الخلفية صوت أطفال عذب يترنَّم. كانوا في منتصف نوفمبر، والوقت مبكر على ترانيم الكريسماس.

قال صوت طفل: «إمم...».

- مرحبًا؟ هل تريد مساعدة؟

قال الولد: «إمم.. أجل. أنا براد. براد مَكولاي. أتصل من أرض الكريسماس».

تذكرت اسم الولد، لكن في البداية لم تستطع أن تذكر من هو. قالت: «براد. كيف يمكن أن أساعدك؟ قلت من أين تتصل؟».

- من أرض الكريسماس.. هذا سخيف. أنت تعرفين من أكون. لقد كنت في السيارة في منزل تشارلي مانكس. هل تذكرين؟ لقد حظينا بوقت ممتع!

تجمَّد قلبها، وعجزت عن التنفس.

- سحقًا لك أيها الولد! سحقًا لك ولمزحتك اللعينة!

- سبب اتصالي أننا جميعًا جوعى. لا يوجد ما نأكل للأبد، فما فائدة كل تلك الأسنان لو لم نستخدمها؟

- اتصل مرة أخرى، وسأجلب الشرطة أيها اللعين المخبول.

قالت عبارتها ثم هوت بالسماعة بعنف إلى مكانها.

وضعت كفها على فمها، تكتم صوتًا ما بين الشهقة وصرخة الغضب. انحنت وظلت ترتجف وسط برودة المرأب.

حين تمالكت نفسها، استقامت، ثم رفعت السماعة واتصلت بعامل الهاتف تسأله: «هل يمكنك أن تخبرني الرقم الذي اتصل للتو؟ لقد انقطع الخط وأريد الاتصال به مرة أخرى».

- اتصلَ بهذا الرقم الذي تتحدثين منه؟

- أجل. وانقطع الخط منذ دقائق.

- معذرة. آخر مكالمة لهذا الرقم كانت ظهر الجمعة. هل تريدين أن أعطيكِ الرقم؟

- أنا أتحدث عن رقم اتصل منذ لحظات. أريد أن أعرف من يكون.

مرت فترة صمت يتخللها صوت غمغمات الموظفين الآخرين، قبل أن يرد العامل: «معذرة. لا توجد مكالمات واردة لهذا الرقم منذ الجمعة».

- أشكرك.

أغلقت ڤيك الخط، ثم جلست على الأرض تحت الهاتف، ولفَّت ذراعيها حول جذعها. حتى وجدها لُو.

- لقد ظللت جالسة هنا لفترة. هل تريدين أن أجلب لك غطاءً، أو تونتون[1]؟

- ما هو التونتون؟

- حيوان يشبه الجمل، أو ربما الماعز الكبير. لا يهم.

- ماذا يفعل وُين؟

- نام. هو بخير. ماذا تفعلين هنا؟

نظر حوله إلى العتمة، وكأنه يظن أن هناك احتمالًا ألا تكون وحدها. كان في حاجة إلى إجابة، إلى اختلاق تبرير لجلوسها على الأرض الباردة في المرأب المظلم. أومأت برأسها نحو الدراجة البخارية وقالت: «كنت أفكر في الدراجة التي تدهنها».

ضيق عينيه مفكرًا فيما قالت، واستطاعت أن تتبين أنه لا يصدقها. ثم نظر إلى الدراجة البخارية، وإلى الرسم المفرغ على الورق على الأرض جوارها، وقال: «أشعر أنني سأفسدها. هل تظنين أنها ستكون جيدة؟».

- كلا. لا أظن ذلك. آسفة.

نظر إليها متفاجئًا وسألها: «حقًّا؟».

ابتسمت في وهن وأومأت إيجابًا. تنهد تنهيدة ثقيلة ثم قال: «هل يمكن أن تخبريني أين الخطأ؟».

---

(1) نوع من أنواع الحيوانات الجليدية من أفلام حرب النجوم. (المترجمة)

- أعتقد أن كلمة «صائع» مكتوبة بشكل خاطئ، وكلها غير مقروءة. كذلك يجب أن تكتب الكلمة معكوسة، لأنك لو لصقت الورقة المفرغة كما هي ستُطبع الكلمة معكوسة.

- أوه! اللعنة يا فتاة! كم أنا أحمق!

نظر إليها لُو نظرة أمل وسألها: «على الأقل عجبتك الجمجمة، أليس كذلك؟».

- بصراحة؟

حدق لُو إلى قدميه وقال: «يا يسوع. كنت أتمنى أن يدفع لي توني بي خمسين دولارًا أو شيئًا من هذا القبيل لقاء هذا العمل. لو لم تُنبهيني لكنت سأضطر أنا إلى دفع خمسين دولارًا تعويضًا له. لماذا أنا فاشل في كل شيء؟».

- أنت أب رائع.

- هذه ليست مهمة صعبة.

فكرت ڤيك أنه مخطئ تمامًا. هي أصعب مما يتصور. سألته: «هل تريدني أن أصلح الرسم؟».

- هل رسمت على دراجة بخارية من قبل؟

- كلا.

أومأ قائلًا: «لا بأس. لو أفسدتها سأخبره أنني أنا من فعلت ذلك. لكن لو نجحت، فيجب أن نخبر الجميع من رسمها. ربما يجلب لنا هذا المزيد من العمل».

نظر إليها مطولًا كأنما يفحصها، ثم سألها: «هل أنت بخير؟ أنت لا تجلسين هنا تنسجين أفكارًا أنثوية غريبة، أليس كذلك؟».

- كلا.

- هل فكرت من قبل أنك تسرعت حين أوقفتِ العلاج؟ لقد مررت بوقت عصيب. ربما عليك أنت تتحدثين عما حدث، وعنه.

لقد تحدثت عنه للتو. كنت أدردش مع آخر من خطفه تشارلي مانكس. لقد صار نوعًا من أنواع مصاصي الدماء الآن، وهو في أرض الكريسماس ويريد شيئًا يأكله.

قالت وهي تمسك يد لُو الممدودة إليها: «لقد انتهى الكلام. ربما أبدأ بالرسم بدلًا عنه».

شوجركريك، بنسلفانيا

في بداية عام 2001، وصلت أخبار مرض تشارلي مانكس إلى بينج بارتريدج، وكان بينج وقتها في الثالثة والخمسين، ولم يرتدِ قناع الغاز منذ خمس سنوات.

عرف بينج هذا الخبر من الإنترنت، من خلال الكمبيوتر الضخم الأسود الذي أعطته له نور-كيم-فارم كونه مكافأة ثلاثين عامًا من الخدمة. ظل يتابع موقع «الأخبار أميركا» أون لاين يوميًّا بحثًا عن أخبار من كلورادو عن مانكس، ولم يعثر على شيء لفترة طويلة، حتى قرأ هذا:

نُقل تشارلز تالنت مانكس الثالث -غير معلوم العمر- المُدان بخطف وقتل عشرات الأطفال، إلى جناح المستشفى بمؤسسة إنجلوُد حالما ثبت استحالة استعادته لوعيه.

فحص طبيب الأعصاب الشهير مارك سوفر المُدان تشارلي مانكس، وأقر أنه حالة يتوجب نشرها في الكتب الطبية، ونقتبس من تشخصيه:

«المريض يعاني مرض الشياخ، أو حالة نادرة من متلازمة وِرنر. بشكل مبسط، هو يشيخ بشكل متسارع، وكل شهر يمر عليه بمقدار عام من العمر، وكل عام بمقدار عقد. الرجل لم يكن شابًّا على أي حال».

وقال الطبيب إنه من الصعب الجزم أن حالة مانكس قد تفسر جزئيًّا قتله الوحشي لجندي الدرجة الأولى توماس بريست عام 1996، وقد تراجع عن تشخيص حالة تشارلي مانكس الحالية بالغيبوبة.

«حالته لا تتوافق مع وصف (الغيبوبة)، نشاط المخ عالٍ كأنه يحلم، لكنه عاجز عن الاستيقاظ، فجسده مرهق ولا طاقة لديه لفعل أي شيء».

ظل بينج يفكر دائمًا في الكتابة للسيد مانكس، وأن يخبره أنه ما زال وفيًّا له، ويحبه، وسيظل يحبه، وسيكون موجودًا لخدمته حتى مماته. لكنه -رغم أنه لم يكن ألمع كرة زينة في شجرة الكريسماس- كان ذكيًّا كفاية ليعلم أن مراسلته ستثير حنق السيد مانكس. الخطابات ستقود الرجال ذوي البذلات والنظارات الشمسية والأسلحة إلى بابه. مرحبًا سيد بارتريدج، *هل تمانع في إجابة بعض الأسئلة؟ ما قولك في أن نحفر قليلًا في أرضية قبوك؟* لذا، لم يكتب إليه قط، وفوات الأوان يشعره بالحزن والاعتلال.

السيد مانكس مرَّر رسالة لبينج في مرة، إلا أن بينج لم يفهمها. وصله طرد عند بابه بلا عنوان للراسل، وكان ذلك بعد يومين من الحكم على مانكس بالسجن المؤبد في إنجلوُد. بداخل الطرد كانت لوحتا قيادة (NOS4A2/KANSAS)، مع بطاقة صغيرة مطبوع عليها ملاك الكريسماس.

احتفظ بهما

ربما أغيب قليلًا.

٩

احتفظ بينج باللوحتين في خزانة القبو، مع كل ما تبقى من حياته مع تشارلي مانكس، حاويات السيفوفلورين الخاوية، مسدس أبيه، ورفات الأمهات اللاتي جلبهن بينج معه إلى منزله بعد انتهاء مهام الإنقاذ مع السيد مانكس. تسع مهمات بالضبط.

براد مَكولاي هو آخر طفل أنقذوه وأرسلوه إلى أرض الكريسماس، وأمه سنثيا كانت آخر عاهرة تعامل بينج معها في قبوه الهادئ. بشكل ما هما قد أنقذاها هي الأخرى قبل مماتها، لقد علمها بينج ما هو الحب.

خطط مانكس وبينج لإنقاذ طفل آخر في صيف 1997، بعدها سيذهب بينج إلى أرض الكريسماس للعيش حيث لا يشيخ أحد، حيث الحزن ضد القانون، وحيث يمكنه أن يركب كل الألعاب، ويشرب كل مشروبات الكاكو، ويفتح هدايا الكريسماس كل صباح. لكنه علم بظلم العالم حين انتزعوا منه مانكس قبل أن يفتح له بوابة أرض الكريسماس على مصراعيها. شعر أنه قد سُحق، وكأن الأمل مزهرية دُفِعت من علٍ، فتهشمت.

الأسوأ من فقد أرض الكريسماس أو السيد مانكس، هو فقد الحب، وافتقاد الأمهات.

كانت آخر أم -السيدة مَكولاي- هي الأفضل. كانا يتحدثان مطولًا في القبو، وجسد السيدة مَكولاي العاري المثالي ملتصق بجانب بينج. كانت في الأربعين، لكن جسدها كان عضليًّا جراء تدريبها لرياضة الكرة الطائرة. بشرتها تشع بالدفء والصحة. تداعب شعر صدر بينج الرمادي وتخبره أنها تحبه أكثر من أمها وأبيها. أكثر من يسوع. أكثر من ابنها. أكثر من القطط الصغيرة. أكثر من نور الشمس.

لكم كان رائعًا أن يسمعها تهمس: «أحبك يا بينج بارتريدج. أحبك وحبك يحرقني».

رائحة فمها حلوة، تفوح برائحة كعك الزنجبيل. كانت جميلة ورشيقة وكان يمنحها جرعة سيفوفلورين كل ثلاث ساعات. كانت تحبه لدرجة أن قطعت شرايينها حين أخبرها باستحالة أن يعيشا معًا. ضاجعها للمرة الأخيرة بينما تنزف دمها عليه...

سألها: «هل يؤلمك الجرح؟».

قالت: «أوه يا بينج. أيها السخيف. لقد ظللت أحترق بالحب لأيام. جرحان كهذين لن يؤلماني».

كانت جميلة للغاية، ذات صدر أمومي مثالي. لم يجرؤ على صب المادة القلوية المذيبة عليها إلا حين بدأ جسدها يُنتن. حتى مع الذباب على شعرها، كانت جميلة للغاية حقًّا، والذباب الأزرق يلمع على جثتها كالجواهر.

زار بينج مقبرة الممكن مع السيد مانكس وعلم أن سنثيا مَكولاي لو ظلت حية، لكانت قد قتلت ابنها في أثناء نوبة غضب جراء تعاطيها الستروید. لكن في قبوه، علَّمها الحنان والحب وكيفية ممارسة الحميمية الصاخبة، لذا، فهي على الأقل قد أنهت حياتها وهي شخص أفضل.

كل ما يفعلانه باختصار هو أخذ شيء سيئ ومنح شيء جيد في المقابل. لقد أنقذ السيد مانكس الأطفال، وأنقذ بينج الأمهات. لكن الآن قد زالت الأمهات، وحُبس السيد مانكس، وعُلق قناع الغاز على خطاف خلف الباب منذ 1996.

قرأ أن السيد مانكس قد غاص في نوم أبدي عميق -كجندي شجاع تحت لعنة سحرية-، فطبع الخبر وطوى الورقة، وقرر أن يصلي لفترة.

في عمر الثالثة والخمسين، صار بينج بارتريدج من مرتادي الكنيسة، وقد عاد على أمل أن يمنح الرب الأمل لواحد من أكثر أبنائه وحدة. صلى بينج لأجل أن يسمع في يوم أغنية الكريسماس الأبيض تدوي عند مدخل بيته، فيدفع الستائر القماشية ليرى السيد مانكس خلف مقود الشبح، ويرى زجاج النافذة ينزل والرجل الطيب ينظر إليه ويهتف: «*تعال يا بينج! لنذهب في جولة! رقم عشرة ينتظرنا! لننقذ طفلًا آخر ثم تذهب إلى أرض الكريسماس! السماء تعلم أنك تستحق!*».

صعد بينج التل في حر ظهيرة من شهر يوليو. أزهار باحته المعدنية التسع والعشرين ساكنة. كان يكرهها ويكره السماء الزرقاء وتناغم أزيز صراصير الحقل المتقافزة فوق الأشجار. صعد بينج التل وخبر جديد في يده: «حالة نادرة تصيب قاتلًا مُدانًا»، وفي يده الأخرى بطاقة مانكس المكتوب فيها: «ربما أغيب قليلًا». توجه إلى الكنيسة عند القمة ليحدث الرب عن تلك الأمور.

تتوسط الكنيسة هكتارًا من الأرضية الأسفلتية غير المستوية، ينبثق من شقوقها العشب في طول ركبتَي بينج. يغلق باب الكنيسة الأمامي سلسلة قوية وقفل. لم يصلِّ أحد هناك منذ خمسة عشر عامًا إلا بينج. كانت الكنيسة

ملكًا للرب، لكنها الآن ملك للديَّانة، وهناك لافتة ورقية مغلفة بالبلاستيك، مثبتة على الباب، تعلن هذا.

صراصير الحقل تئز داخل عقل بينج فتثير جنونه.

عند نهاية طرف من طرفَي الساحة لافتة كبيرة مثل التي تعلق على ساحات بيع السيارات المستعملة، مكتوب عليها أي ترنيمة سُتغنى اليوم. «فقط في الرب»، و«حقًّا قد قام»، و«الرب لا ينام أبدًا». لم يُغيَّر ما على اللافتة منذ فترة رئاسة ريجان الثانية.

بعض النوافذ الملطخة بها كسور إثر قذف الأولاد لها بالطوب، لكن بينج لم يتجه إليها. ثمة كوخ عند جانب من جوانب الكنيسة، مخفي وسط النباتات المتسلقة الجافة. ثمة بساط صغير مهترئ عند مدخل الكوخ، وتحته مفتاح نحاسي لامع.

فتح بالمفتاح قفل باب السرداب المائل عند مؤخرة المبنى. دخل بينج وعبر حجرة باردة تحت الأرض، خائضًا خلال رائحة الكريوسين القديم والكتب المتعفنة، وصولًا إلى مسرح الكنيسة المفتوح.

لطالما أحب بينج الكنيسة منذ الأيام التي كان يذهب إليها مع أمه. أحب الطريقة التي يشرق بها نور الشمس عبر النافذة الضخمة ذات الزجاج المبقع، ليملأ الحجرة بالدفء والألوان. وأحب ما تلبسه الأمهات من فساتين ذات ياقات من الدانتيل، وأحذية عالية الكعبين، وجوارب بيضاء بلون الحليب. أحب بينج الجوارب البيضاء وصوت غناء السيدات. كل الأمهات اللاتي أقمن معه في بيت النوم كن يغنين قبل أن يريحهن الراحة الأبدية.

لكن بعد أن فر القس بكل الأموال، وأغلق المصرف الكنيسة، شعر بينج أن المكان يثقل روحه. كان يكره ظل المبنى الممتد كأنما يحاول القبض على منزله عند نهاية اليوم. وجد بينج نفسه غير قادر على النظر إلى أعلى التل، بعد أن بدأ بخطف النساء إلى منزله، المنزل الذي أسماه السيد مانكس بيت النوم. ظلت الكنيسة تلوح مُتوعدة، وإصبع ظلها الطويل المتهمة تشير إلى باحة منزله وتهتف: **هذا هو بيت القاتل المجرم! هناك تسع قتيلات في قبوه!**

حاول بينج إقناع الظل أنه أحمق، هو والسيد مانكس كانا بطلين. حقًّا هما بطلان يقومان ببطولات مسيحية. لو أن أحدهم قد كتب كتابًا عنهما، فبالتأكيد

سيضعهما في خانة الطيبين. لا يهم إن كانت العديد من الأمهات قد أبين أن يعترفن بجرائمهن المستقبلية تحت تأثير السيفوفلورين، بل أن الكثير منهن قد زعمن أنهن لم يعاقرن الخمر أو يتعاطين المخدرات أو يقترفن أي جرائم. لكن كل هذه الأمور هي أمور مستقبلية، عمل بينج والسيد مانكس ما في وسعهما لمنعها.

لو أنهم قد ألقوا القبض عليه –بالطبع لأنه لا يوجد رجل قانون سيقتنع بنبل ما فعلاه- لكان تحدث بكل فخر عما فعل. ليس هناك ما يخجل منه فيما فعل والسيد مانكس.

مع ذلك، كان يعاني صعوبة النظر إلى الكنيسة.

قال لنفسه وهو يصعد درجات القبو إنه مغفل، وإن بيت الرب يرحب بالجميع. السيد مانكس في حاجة إلى صلواته أكثر من أي وقت مضى. لم يشعر بينج بالوحدة والبؤس من قبل كما يشعر الآن. منذ أسابيع قليلة، سأله السيد بالادين عما سيفعل بعد تقاعده، فصُدم بينج وتساءل عن السبب الذي سيتقاعد من أجله؛ كان يعشق عمله. رمش السيد بالادين وقال إنه بعد أربعين عامًا من الخدمة لا بد أن يحيلوه إلى التقاعد، ولا خيار له في هذا. لم يفكر بينج في هذا من قبل، فقد كان يظن أنه بحلول وقت تقاعده، سيكون في أرض الكريسماس يشرب الكاكاو، ويفتح لفافات الهدايا كل صباح، ويترنم كل مساء.

الكنيسة الخالية الشاسعة لم تُهدئ باله، بل على العكس. كل مقاعد الكنيسة كانت موجودة، وإن لم تكن مصفوفة في أماكنها. كانت مكومة فوق بعضها بعضًا كأسنان السيد مانكس. الأرض مكسوة بشظايا الزجاج وقشور من طلاء السقف، تتكسر تحت ثقل وزنه. رائحة الحجرة تفوح بالأمونيا وبول الطيور. يبدو أن سكيرًا مر من هنا، وترك زجاجات الخمر وعلب البيرة الفارغة تحت المقاعد.

أكمل طريقه عبر الحجرة، تُقلق خطواته صغار السنونو الساكنة في السقف الخشبي. يتردد صدى صوت رفرفات أجنحتها، صوت يشبه تناثر بطاقات اللعب في يد ساحر.

الضوء المتسرب عبر النوافذ بارد مزرق، تتراقص ذرات الغبار في أعمدة نور الشمس، كأن الكنيسة داخل كرة ثلج رجها أحدهم ثم ترك الجزيئات فيها تنساب ببطء إلى الأسفل.

شخص ما -مراهق أو مشرد- قد أقام مذبحًا فوق واحد من أفاريز النوافذ الخشبية. شموع حمراء ذائبة في برك مُتصلبة، وخلفها صور لمايكل ستيب مغني فرقة R.E.M، وهو شخص نحيل غريب الأطوار ذو شعر باهت وعينين فاتحتين. أحدهم قد كتب على واحدة من الصور بأحمر شفاه «أفقد ديني». يعتقد بينج أنه لا يوجد ما يستحق السمع لموسيقى الروك بعد فريق «آبي رود».

وضع بينج بطاقة السيد مانكس، والخبر المطبوع من جريدة دينيفر بوست خلف هذا المذبح المرتجل، وأشعل شمعتين لأجل الرجل الطيب. أخلى مكانًا على الأرض، وراح يركل كتل المصيص وسروالًا داخليًّا متسخًا -مطبوعًا عليه قلوب صغيرة، يبدو أنه كان يخص فتاة في العاشرة- ثم ركع على ركبتيه.

أجلى حنجرته، فتردد صدى صوته قويًّا في الأجواء كطلقة رصاص.

طار عصفور سنونو من لوح سقف خشبي إلى آخر. يستطيع أن يرى من مكانه صف حمام يحدق إليه من أعلى بأعينه الحمراء. ظل الحمام يرمقه في إعجاب.

أغلق عينيه وضم كفيه، ثم تحدث إلى الرب قائلًا: «مرحبًا. أنا بينج، الشيء العجوز الأخرق. يا ربي، يا ربي، يا ربي، رجاءً ساعد السيد مانكس. السيد مانكس مصاب بمرض منوم ولا أعرف ماذا أفعل. لو لم يفق ويعُد لن أتمكن من الذهاب إلى أرض الكريسماس. حاولت أن أفعل شيئًا خيرًا في حياتي. حاولت إنقاذ الأطفال والتأكد أنهم سيحظون بالكاكاو والألعاب وكل الأشياء. لم تكن المهمة سهلة، لم يرد أحد أن ننقذهم. لكن حتى حين صرخت الأمهات وشتمننا، حتى حين بكى أطفالهن وبللوا ملابسهم، كنت أحبهم. لقد أحببت هؤلاء الأطفال وأحببت أمهاتهم حتى لو كُن نسوة خبيثات. لقد أحببت السيد مانكس أكثر من أي شيء. كل شيء يفعله كان لأجل سعادة الناس. أليس نشر السعادة هو أفضل ما يمكن للمرء فعله؟ رجاءً يا ربي، لو أننا قد فعلنا أي خير، رجاء ساعدني. أعطني إشارة. دلني ماذا أفعل. رجاءً، رجاءً، رجاءً...».

كان وجهه مرفوعًا وفمه مفتوحًا حين شعر بشيء ساخن على خده، ثم بمذاق مالح ومُر على شفتيه. أجفل كأن أحدهم قد قذفه بشيء. مسح فمه ثم نظر إلى أصابعه الملوثة بمخاط أبيض مخضر لزج. احتاج لحظات حتى يدرك أنه زَرَق حمام.

تأوه بينج مرة تلو الأخرى، ومذاق لعابه مالح مر من زرق الطائر. المادة على أصابعه أشبه ببلغم مريض. ارتفعت تأوهاته حتى غدت صرخات، وراح يتراجع إلى الخلف ويركل الشظايا وكتل المصيص. استند بيده الأخرى على شيء طري زلق، نظر إلى أسفل ليجد أنه قد استند إلى واقٍ ذكري مستعمل يزحف عليه النمل.

رفع يده في ذعر ورفض، لكن الواقي كان قد التصق بأصابعه. ظل يهز كفه مرات حتى طار الواقي وحطَّ على شعره. صرخ، ففرت الطيور من السقف.

هز صياحه الكنيسة وهو يقول: «*ماذا؟* ماذا؟! أنا جئت إلى هنا راكعًا! **جئت راكعًا!** وماذا فعلتَ لي؟ **ماذا؟!**».

جذب الشيء المطاطي ومعه خصلات من شعره الجاف الرمادي (متى تحول كله إلى الرمادي؟)، ثم ألقاه بعيدًا.

ذرات الغبار تدور وسط أعمدة الضوء.

نزل بينج بارتريدج التل مهرولًا غاضبًا، يشعر بالقرف والنجاسة.. بالقرف والنجاسة والسخط. ترنح عابرًا الأزهار الصفيحية في الباحة، ثم دخل بيته وصفق الباب وراءه.

مَن خرج مِن المنزل بعد ثلث ساعة كان رجل قناع الغاز، حاملًا في كل يد زجاجة وقود إشعال.

قبل أن يضرم النار في الكنيسة، أغلق الفتحات في زجاج النوافذ حتى لا تهرب الطيور. صب أغلب الزجاجة الأولى على المقاعد وتلال الأخشاب المكسورة والأرضية، ثم أفرغ الزجاجة الثانية على التمثال المصلوب. بدا له بردان في مئزره، فأشعل بينج عود ثقاب وألبسه ثياب اللهب. لمس بينج فمه من فوق القناع، ثم أرسل قبلة في الهواء إلى التمثال.

جنباريل، كلورادو

لم يتصل الأطفال قط وهي ترسم.

استغرق فهم الأمر بشكل واعٍ شهورًا، لكن على مستوى عقلي معين تحت قشرة المنطق، فهمت ڤيك على الفور. ما لم تكن ترسم أو تُبدع في عمل يشغلها، كانت تعي إلى تضخُّم القلق وتجسده، وكأنها تقف تحت العصا التي تحمل غطاء البيانو. في أي لحظة حتى يهوي فوقها كل هذا الثقل ويسحقها.

لذا، فقد وضعت كل الأعمال التي استطاعت أن تحصل عليها في صف، وأمضت سبعين ساعة أسبوعيًّا في المرأب تسمع فريق فورينَر وترسم على الدرجات البخارية المملوكة لرجال ذوي سجلات إجرامية ومفاهيم عنصرية مُهينة.

رسمت ڤيك مسدسات، ولهبًا، وفتيات عاريات، وقنابل، وأعلام ديكسي[1]، وأعلام النازي، ويسوع المسيح، والنمور البيضاء، والغيلان المتعفنة، والمزيد من الفتيات العاريات. لم تعتبر نفسها فنانة قط، لكن الرسم يمنع سكان أرض الكريسماس عن الاتصال بها، ويدفع لها تكلفة الحفاضات. أما باقي الاعتبارات الأخرى فلم تكن ذات أهمية.

أحيانًا كان العمل يقل، أحيانًا ما تظن أنها قد رسمت على كل دراجة بخارية في منطقة جبال روكي، ولن يكون هناك أي عمل آخر. حين يحدث ذلك -حين يمر أسبوع أو أكثر دون رسم- تجد نفسها تنتظر في غَم، تُعد نفسها لما سيحدث حين يرن الهاتف مرة أخرى.

---

(1) أعلام الولايات الكونفدرالية الأمريكية، وهو علم معروف بين المتمردين. (المترجمة)

حدث التالي في سبتمبر، صباح يوم الثلاثاء، بعد خمسة أعوام من سجن مانكس.

كان لُو قد خرج قبل الشروق لقطر سيارة غُرست في حفرة، وتركها مع وُين الذي كان يرغب في هوت دوج للإفطار. كل تلك السنوات تفوح برائحة الهوت دوج وبراز الأطفال.

كان وُين يجلس أمام التلفاز، بينما تضع ڤيك الكاتشب على لفافات الهوت دوج الرخيصة، حين رن جرس الهاتف.

حدقت إلى السماعة. كان الوقت مبكرًا على تلقي أي اتصالات، وقد عرفت على الفور المتصل لأنها لم تكن قد رسمت شيئًا منذ شهر.

لمست ڤيك السماعة، فوجدتها باردة. قالت: «وُين».

نظر إليها الولد وإصبعه في فمه، واللعاب يقطر على رسم الرجال إكسًا على صدر التيشيرت. سألته: «هل تسمع جرس الهاتف؟».

نظر إليها نظرة خاوية غير فاهمة، ثم أدار رأسه يمينًا ويسارًا.

رن جرس الهاتف مرة أخرى.

- ها هو ذا. هل تسمعه؟ هل تسمع الجرس؟

قال وهو يدير رأسه مجددًا من ناحية إلى الأخرى: «لا يا «مَا»».

ثم أعاد انتباهه إلى التلفاز.

رفعت ڤيك السماعة، فسمعت صوت طفل آخر، ليس براد مَكولاي، بل طفلة أخرى.

- متى سيعود بابا إلى أرض الكريسماس؟ ماذا فعلتِ بأبي؟

قالت ڤيك: «أنت لست حقيقية».

- بل حقيقية.

تصاعد بخار أبيض بارد من فتحات السماعة الصغيرة.

- نحن حقيقيون بالضبط مثل ما يحدث في نيويورك هذا الصباح. لا بد أن تشاهدي ما يحدث في نيويورك. كم هو ممتع! الناس يقفزون إلى السماء. هذا ممتع ورائع! يكاد يكون في روعة الكريسماس.

همست ڤيك مجددًا: «أنت لست حقيقية».

- أنت افتريت الأكاذيب على بابا. هذا أمر سيئ. أنت أم سيئة. لا بد أن يكون وُين معنا. يمكنه أن يلعب معنا طيلة اليوم. نعلمه لعبة المقصات للمشرَّدين.

هوت ڤيك بالسماعة على الهاتف، ثم رفعتها وهوت بها مرة أخرى. التفت إليها وُين وعيناه متسعتان قلقتان.

لوحت بيدها نحوه بمعنى «لا تهتم»، والتفتت مبتعدة عنه، تحاول كبت البكاء رغم تهدج أنفاسها.

ظل الهوت دوج يغلي، والماء يفور مغرقًا لهب الموقد الأزرق. تجاهلته، وتهاوت على أرضية المطبخ وغطت عينيها. مسألة كبت بكائها مسألة إرادة، وهي لم تشأ أن تقلق وُين.

هتف الولد وهو ينظر إليها رامشًا: ««مَا»! ماذا حدث لأوسكار!».

و«أوسكار» هو الاسم الذي يطلقه على حلقات شارع سمسم. أردف: «شيء حدث وذهب أوسكار باي باي!».

مسحت ڤيك السيل المنهمر من عينيها، وأخذت شهيقًا مرتجفًا، ثم أطفأت الموقد. سارت مترنحة نحو التلفاز، وكان فاصل إخباري قد قطع الحلقات. طائرة كبيرة قد اخترقت واحدًا من برجَي مركز التجارة العالمي في نيويورك. الدخان الأسود يلوث زرقة السماء الحزينة.

بعد بضعة أسابيع، أخلت ڤيك مكانًا في الحجرة الإضافية التي لا تتجاوز مساحتها مساحة خزانة، ونظفتها ورتبتها، ثم نقلت إليها حامل لوحات، وعلقت عليه لوحًا من ورق البريستول المقوى.

سألها لُو وهو يدفع رأسه عبر الباب في اليوم التالي لاستقرارها في الحجرة: «ماذا تفعلين؟».

- قررت أن أرسم كتابًا مصورًا.

كانت قد انتهت من رسم أولى صفحاته بالقلم الأزرق، واستعدت لتحبير خطوطها.

نظر لُو من فوق كتفها وسأل: «هل ترسمين مصنع دراجات بخارية؟».

- تقريبًا. أرسم مصنع روبوتات. بطل القصة روبوت اسمه محرك البحث. في كل صفحة يبدأ رحلة بحث عن شيء مهم في وسط متاهة، مثل خلايا طاقة، أو مخططات سرية وهكذا.

- لقد تحمست حقًّا. أمر رائع أن تفعلي شيئًا كهذا لوُين. سوف يسعد حتى يوسخ حفاضته!

أومأت. كانت سعيدة بظن لُو أنها ترسم الكتاب لأجل ابنهما، لكنها كانت ترسمه لنفسها.

رسم كتاب مصور كان أفضل من الرسم على دراجات هارلي البخارية. كان عملًا منتظمًا تمارسه يوميًّا.

بعد أن بدأت برسم قصة محرك البحث، لم يرن الهاتف مرة أخرى إلا إذا وردها اتصال من وكالة ائتمان.

وبعد أن باعت الكتاب، توقفت وكالات الائتمان عن الاتصال كذلك.

براندنبرج، كنتكي

كانت ميشيل ديميتر في الثانية عشرة، حين سمح لها والدها بقيادتها.

فتاة في الثانية عشرة تقود سيارة رولز رويس شبح إصدار عام 1938 وتقطع بها الطريق وسط الحشائش العالية في أول أيام الصيف، بينما النوافذ مفتوحة، وأغاني الكريسماس تُغنى من المذياع. ظلت ميشيل تغني معها بصوت مرح، عالٍ كالنهيق، يشذ عن الإيقاع وعن الزمن. حين كانت تجهل الكلمات، كانت تختلقها.

هلموا أيها المؤمنون! (المُستثارون) المُظفرون!

هلموا أيها المؤمنون! غنوا للإله!

تمخر السيارة غباب العشب، قرش أسود يخترق أمواج محيط من الأخضر والأصفر. تطير العصافير فرارًا أمامها منطلقة نحو السماء المنتعشة. تهوي العجلات وتتمايل فوق أخاديد مخفية.

أبوها -الثمل الذي يزداد ثمالة- يدير مؤشر المذياع وهو يثبت علبة بيرة ساخنة بين فخذيه. إدارة المؤشر لم تغير أي شيء. تحوَّل المذياع من محطة إلى أخرى، لم يلتقط شيئًا إلا التشويش، والمحطة الوحيدة التي التقطها كانت مشوشة ذات صوت بعيد، ولا تبث شيئًا إلا أغاني الكريسماس اللعينة.

قال بعد أن تجشأ بقوة وعنفوان: «من يذيع هذا الخراء في منتصف مايو؟».

قهقهت ميشيل في استحسان.

لم يكن ثمة سبيل لغلق المذياع أو خفض صوته. مؤشر الصوت يدور بلا فائدة ولا يُعدِّل شيئًا.

قال ناثان: «هذه السيارة مثل أبيكِ...».

أخرج علبة أخرى من البيرة من دستة العبوات عند قدميه، وأردف: «كانت ثمينة وصارت خردة».

لم يكن تعبيره سوى مزيد من مقولاته السخيفة. أبوها ليس بهذا السوء؛ لقد ابتكر نوعًا من الصمامات لطائرات البوينج، وقد دفع ما قبضه من ثمنها في شراء ثلاثمئة فدان بالقرب من نهر أوهايو، حيث يقودان السيارة الآن.

على جانب آخر، فالسيارة قد ولت أيامها حقًّا. اختفى بساطها، ومكانه ظهر المعدن العاري. ثمة ثقوب تحت الدواستين، من خلالها تستطيع ميشيل أن ترى العشب يتسابق من تحتها. غطاء التابلوه قد تقشر في أكثر من موضع، وواحد من البابين الخلفيين لا يماثل باقي الأبواب، كان غير مطلي ومبرقشًا بالصدأ. لم يكن هناك زجاج أمامي، فقط فتحة مستديرة الأركان، ولم يكن هناك أيضًا مقعد خلفي. أما مقدمة السيارة فقد كانت متفحمة، كأن أحدهم حاول إضرام النار فيها.

الفتاة تقود السيارة ببراعة مثلما علمها والدها. المقعد الأمامي كان مدفوعًا إلى الأمام، مع ذلك اضطرت إلى الجلوس فوق وسادة كي تتمكن من الرؤية من فوق التابلوه العالي.

- في يوم سيتاح لي فرصة إصلاح هذا الوحش. سأطوي كُميَّ وأعيد هذه السيدة العجوز إلى الحياة. سيكون شيئًا عظيمًا أن أصلحها بالكامل لتقوديها إلى حفل تخرجك. حين تصيرين في عمر التخرج بالطبع.

- اختيار ممتاز. هناك متسع بالخلف للمضاجعة.

قالتها والتفتت خلفها ناظرة إلى الفراغ مكان المقعد الخلفي. رد عليها أبوها وهو يحمل علبة البيرة ويتأرجح بها بتأرجح السيارة فوق الوِهاد: «ستكون ركوبة جيدة أيضًا وأنا أصحبك إلى دير الراهبات. أبقِ عينيكِ على الطريق».

المساحة التي تمخر فيها السيارة ممتدة كالمحيط بلا أي طريق على مرمى البصر في أي اتجاه، ولم تكن هناك إشارة على الوجود البشري إلا حظيرة تظهر في مرآة الرؤية الخلفية، وبخار الطائرة التي تعبر فوق رأسيهما.

ضغطت الدواستين، فصرًا وشهقا.

الشيء الوحيد الذي تكرهه ميشيل في السيارة هو حلية مقدمتها، مجسم سيدة من الفضة، بعينين عمياوين وأطراف فستان متطاير. كانت تميل نحو العشب الطويل كأنه يجلدها. المفترض أن تبدو السيدة الفضية ساحرة، لكن الابتسامة على وجهها أفسدت كل شيء. هي ابتسامة امرأة مخبولة قد دفعت حبيبًا من فوق جرف، وتهُم باللحاق به في الأبدية.

قالت ميشيل وهي تشير بذقنها نحو المجسم: «شكلها مفزع. كأنها مصاصة دماء».

تذكر والدها شيئًا قد قرأ عنه، فقال: «هي المُغوية».

- ال.. ماذا؟ هي ليست مغوية.

قال ناثان: «كلا. تُدعى روح الإكستاسي[1]. مجسم كلاسيكي لسيارة كلاسيكية».

- إكستاسي؟ مثل اسم المخدر؟ هل كان هذا المخدر موجودًا في الماضي؟
- كلا، الاسم لا يعني المخدر، بل المرح. هي رمز للمرح اللانهائي. أعتقد أنها جميلة.

والحقيقة أنه كان يعتقد أنها تشبه إحدى ضحايا الجوكر. امرأة ثرية ماتت وهي تضحك.

راحت ميشيل تغني *«لقد كنت أقود إلى أرض الكريسماس طيلة اليوم»*. للحظة اختفى صوت الأغاني، وتحول إلى صوت تشويش، لكنها ظلت تردد: «لقد كنت أقود إلى أرض الكريسماس، فقط كي أركب زلاجة سانتا».

سألها أبوها: «ما هذه الأغنية؟ لا أعرفها».

- لقد قررتُ أننا ذاهبان إلى أرض الكريسماس.

---

(1) روح الإكستاسي هو مجسم صغير يوضع على مقدمة سيارات رولز رويس القديمة. (المترجمة)

يتغير لون السماء ما بين درجات عديدة من اللون الليموني. شعرت ميشيل بالسلام التام، وبأنها تستطيع القيادة إلى الأبد.

كان صوتها رقيقًا، مرحًا، متحمسًا، وحين نظر إليها أبوها رأى قطرات عرق على جبينها، وعيناها ترنوان نحو الأفق البعيد.

- هي هناك يا أبي. هناك عند الجبال. لو استمررنا في التقدم، سنصل أرض الكريسماس بحلول المساء.

ضيق ناثان ديميتر عينيه، ونظر عبر زجاج النافذة المترب. ثمة جبال هائلة شاحبة عند الغرب، قممها مغطاة بالثلوج، تمتد لارتفاع أكبر من جبال روكي، ولم تكن هناك في الصباح، ولم يرها طيلة الدقائق العشرين الماضية إلا الآن.

أشاح بنظره وراح يرمش ليُجلي بصره، ثم نظر نحو الجبال مرة أخرى، فتحولت إلى كتلة سحب رعدية تحتشد عند الأفق الغربي. ظلت دقات قلبه تتسارع في غير انتظام لعدة دقائق تالية.

أخيرًا قال: «للأسف لديك واجب مدرسي. لا وقت للكريسماس هذا المساء».

قالها، على الرغم من أن اليوم السبت، ولا يوجد أب يرغم ابنته ذات الاثني عشر عامًا على حل واجب الجبر يوم السبت. أضاف: «يكفي هذا يا حبيبتي، لنعود. بابا لديه ما يؤديه اليوم».

استرخى في مقعده، وأخذ رشفة من البيرة، لكنه لم يعد يرغب فيها، بدأ يشعر بصداع ثمالة الغد يطرق باب رأسه، وجودي جارلاند تغني في المذياع متمنية كريسماس بهيجًا للجميع. ماذا يتعاطى المسؤول عن اختيار الأغاني في المذياع ليذيع أغاني الكريسماس في مايو؟

لكن الأغاني استمرت فقط حتى بلغا نهاية أرضهما، ثم أدارت ميشيل مقود الشبح متجهة بها إلى المنزل. والسيارة تدور في نصف دائرة، فقد المذياع أي إشارة كان قد تلقاها، وعاد يبث هدير الضجيج الأبيض والتشويش المجنون.

في عام 2006، اشترى ناثان ديميتر السيارة خردة من مزاد فيدرالي. شيء يسلي به نفسه في وقت فراغه. في يوم سيجد الوقت كي يصلحها. في يوم سيُلمع السيدة العجوز لتبرق من جديد.

نيويورك (وكل مكان آخر)

هذا ما قالوه عن الكتاب الثاني لـ«محرك البحث» في مراجعات كتب جريدة نيويورك، قسم كتب الأطفال، في يوم الأحد الثامن من يوليو 2007، وهي المرة الوحيدة التي كُتب فيها عن أحد كتب ڤيك مَكوين هناك.

محرك البحث - السرعة الثانية.

بقلم ڤيك مَكوين.

22 صفحة. صدر عن دار هاربر كولينز لكتب الأطفال. السعر 16 دولارًا و95 سنتًا. (كتاب مصور مع لعبة بازل - يصلح لعمر من 6 -12 عامًا).

لو أن م. ك. إيشر[1] قد بُعث من جديد ليعيد تخيل كتابه «أيمن والدو»، فقد يبدو تخيله قريبًا لسلسلة السيدة مَكوين الباهرة الشهيرة بجدارة «محرك البحث». البطل المُسمى «محرك البحث» روبوت مبهج طفولي -يشبه في شكله خليطًا من

(1) Maurits Cornelis Escher: كاتب ورسام قصص مصورة هولندي من مواليد 1898، وتوفي عام 1972. (المترجمة)

C-3PO[1] والدراجة البخارية هارلي ديفدسن- يتبع طريقًا على شكل شريط موبيوس[2] عبر سلسلة من المباني العجيبة المستحيلة فزيائيًّا، والمتاهات السيريالية. أحد تلك الألغاز لا يمكن حلها إلا بوضع مرآة أمام الكتاب، وواحد آخر يتطلب أن يلف الطفل الصفحة على شكل أنبوب ليصنع جسرًا سحريًّا مغطى. لغز ثالث يوجب أن يقص الطفل الصفحة ليكوِّن بها مجسم دراجة بخارية ليركبها محرك البحث كي يتمكن من متابعة رحلته بأقصى سرعة. القراء الصغار الذين أكملوا الكتاب الثاني من سلسلة محرك البحث وجدوا أنفسهم في مواجهة أصعب لغز على الإطلاق، ما هو موعد إصدار الكتاب الثالث؟!

---

(1) الآلي الشهير في رواية ساحر أوز. (المترجمة)

(2) شريط موبيوس هو سطح بجانب واحد كالشريط، بدايته موصولة بنهايته مع لف الشريط حول نفسه. هو شكل رياضي صعب الوصف لكن إذا مُرر سطح ثنائي الأبعاد على شريط موبيوس ثم أعيد إلى مكانه فإنه يرجع وكأنه صورة مرآة للشكل الأصلي. (المترجمة)

مؤسسة إنجلوُد الإصلاحية الفيدرالية
كلورادو

وصلت الممرضة ثورنتون عنبر العناية المطولة قبل الثامنة بقليل، وهي تحمل كيسًا من الدم لتشارلي مانكس.

دينفر، كلورادو

في أول سبت من شهر أكتوبر عام 2009، قال لُو لڤيكتوريا مَكوين إنه سيصحب الطفل في زيارة إلى والدته. لسبب ما، أخبرها بهذا همسًا، والباب مقفول عليهما، كي لا يسمعهما وُين من مكانه في حجرة المعيشة. التمع وجه لُو المستدير بعرق التوتر، وظل يلعق شفتيه وهو يتحدث.

كانا في حجرة النوم معًا، لُو يجلس عند طرف الفراش، متسببًا في هبوط الحشية حتى كادت تلامس الأرض. صعب على ڤيك أن ترتاح في حجرة النوم. ظلت ترمق الهاتف على الكومود في انتظار أن يرن جرسه. حاولت التخلص منه منذ أيام، فخلعت القابس ودسته في أحد الأدراج، لكن لُو اكتشف ما فعلت وأعاد توصيله.

أما لُو، فكان يحمل همَّ قلقه وقلق الآخرين. لم تنتبه لهذا؛ تركيزها كله كان منصبًّا على الهاتف، في انتظار مكالمة توقن أنها ستصلها. انتظارها كان رهيبًا، شعرت بالحنق حين أعادها لُو إلى حجرة النوم بينما كان من الممكن أن يتحدثا خارج المسكن. هز هذا ثقتها به. مستحيل أن تشترك في نقاش والهاتف في الحجرة. الأمر أشبه بنقاش في حجرة يتدلى من سقفها وطواط. حتى لو كان الوطواط نائمًا، كيف يمكن أن تركز تفكيرك أو ترى أي شيء آخر؟

لو أن الهاتف رن، ستخلعه من القابس وترميه خارج المنزل. حاولت أن تقنع نفسها بالانتظار وألا تفعل هذا الآن.

تفاجأت حين اقترح عليها لُو أن تذهب لزيارة أمها. كانت والدة ڤيك قد عادت إلى ماساشوستس، وكان لُو يعرف أنهما غير متوافقتين. ما يفوق

اقتراحه هذا هو اقتراح أن تذهب ڤيك لزيارة والدها الذي لم يتصل بها منذ أعوام.

- يا يسوع! أفضل أن أسجن على أن أمكث مع أمي. هل تعلم كم هاتف لدى أمي في منزلها؟

نظر إليها لُو نظرة ضجرة مضطربة. رأتها ڤيك نظرة استسلام.

- لو أردتِ الحديث -عن أي شيء عمومًا- فهاتفي المحمول سيكون معي.

كادت ڤيك تضحك على هذا، ولم تكترث لإخباره أنها فكَّكت هاتفه وتخلصت منه في القمامة أمس.

لف ذراعيه حولها، وضمها إلى صدره في عناق كعناق الدببة. كان رجلًا ضخمًا، مكتئبًا بسبب زيادة وزنه، لكن رائحته كانت أطيب من رائحة أي رجل قابلته. كان يفوح بالمسؤولية. للحظات، تذكرت وهي في حضنه كيف كانت السعادة.

قال لها أخيرًا: «يجب أن أرحل. أمامي مسافة طويلة لأقطعها».

سألته في قلق: «أي مسافة؟».

رمش ثم قال: «ڤيك! يا صاح! هل كنت تنصتين إلى ما أقول؟».

- تقريبًا.

الحقيقة أنها كانت تنصت، لكن ليس إليه، بل إلى الهاتف. كانت تنتظر جرسه.

بعد رحيل لويس والولد، راحت ڤيك تجول بين حجرات المنزل في شارع جارفيلد الذي اشترته بمال كتابها في الوقت الذي كانت ترسم فيه، وقبل أن يبدأ الأطفال في أرض الكريسماس بالاتصال بها من جديد كل يوم. أمسكت بمقص وراحت تقطع الأسلاك التي تصل إلى كل هاتف.

جمعت الهواتف، ثم وضعتها داخل الفرن في المطبخ، ثم أشعلت النار. لقد فادتها تلك الحيلة في الماضي حين واجهت تشارلي مانكس، أليس كذلك؟

حين بدأ الفرن يسخن، فتحت النوافذ وشغَّلت المراوح.

بعدها، جلست في حجرة المعيشة تشاهد التلفاز، ولا ترتدي شيئًا إلا سروالها الداخلي. في البداية شاهدت عناوين الأخبار، لكن هناك أصوات رنين هواتف كثيرة في استوديو أخبار سي إن إن، والصوت أزعجها. غيرت القناة

لتشاهد كارتون سبونج بوب، وحين رن هاتف شخصية كراستي كراب، غيرت القناة مرة أخرى. وجدت برنامجًا عن صيد السمك، وبدا لها آمنًا كفاية؛ لا هواتف في هذه النوعية من البرامج. مكان التصوير هو بحيرة وينيبيسوكي، حيث أمضت صيف طفولتها. لطالما أحبت شكل البحيرة في المساء. مرآة سوداء ناعمة ملفوفة في مخمل ضباب الصباح الباكر.

في البداية شربت الويسكي مخففًا بالثلج، ثم شربته مباشرة من الزجاجة لأن الرائحة في المطبخ خانقة ولن تتمكن من جلب المزيد من الثلج. عبِقت أجواء المنزل برائحة البلاستيك المحترق رغم المروحة والنوافذ المفتوحة.

كانت ڤيك مَكوين تشاهد معافرة أحد الصيادين مع سمكته العملاقة، حين رن جرس هاتف من مكان ما بالقرب من قدميها. نظرت إلى كومة الألعاب على الأرض، والمكونة من روبوتات وُين، اثنان منهما مجسمان لشخصية محرك البحث، وواحد آخر من شخصيات المتحولين، أسود ذو جسد منتفخ وعدستين حمراوين مكان العينين، وكان هو مصدر صوت الرنين.

حملته وحرَّكت الذراعين والساقين إلى الداخل، ثم دفعت الرأس إلى داخل الجسد، ثم أغلقت نصفَي الآلي على بعضهما بعضًا، فوجدت نفسها تنظر إلى نموذج هاتف محمول بلاستيكي.

راح نموذج الهاتف غير الموصول بشيء يرن مرة أخرى، فضغطت زر الرد، وقربته من أذنها.

قالت ميليسنت مانكس: «أنت كاذبة كبيرة! وسيستشيط بابا غضبًا منك حين يخرج. سيدس شوكة طعام في عينيكِ، ويُخرجهما من مكانهما مثل فلينة الزجاجة!».

حملت ڤيك اللعبة إلى المطبخ، ثم فتحت الفرن فاندفع منه دخان أسود مسموم. الهواتف المحترقة قد ذابت مثل حلوى المارشميلو المشوية على نار المخيمات. ألقت باللعبة فوق الكتلة الذائبة، وأغلقت باب الفرن في غضب.

الرائحة كانت غير محتملة، حتى إنها اضطرت إلى مغادرة المنزل. ارتدت سترة لُو الجلدية، وحذاءيها طويلَي الرقبة، ثم أخذت حقيبتها وخرجت. أمسكت زجاجة الويسكي ثم جذبت الباب خلفها فور انطلاق جرس حساس الحريق.

كانت عند نهاية الشارع، تستعد للانعطاف حين أدركت أنها لم ترتدِ شيئًا سوى السترة والحذاءين. هي تجول في شوارع دينفر في الثانية صباحًا مرتديةً سروالها الداخلي الوردي الباهت. يكفي على الأقل أنها تذكرت الويسكي.

انتوت أن تعود إلى المنزل لترتدي سروالًا من الجينز، إلا أنها ضلت طريق العودة، وهو شيء لم يحدث لها من قبل قط. انتهى بها الأمر بأن تسير في شارع لطيف على جانبيه مبانٍ حجرية من ثلاثة طوابق. الليل يفوح برائحة الخريف العطرة، ورطوبة الأسفلت. لكم أحبت رائحة الطريق. رائحة الأسفلت الساخن الناعم في يوليو، والطرق الترابية في يونيو، وشوارع البلدات الصغيرة المعبَّدة بأوراق الخريف الجافة في أكتوبر، رائحة الملح والرمال والطريق السريع، ونفحة مصبات الأنهار في فبراير.

في هذا الوقت المتأخر من الليل، كانت الشوارع لها وحدها، إلا أنها أبصرت في لحظة ما ثلاثة رجال يركبون دراجات هارلي البخارية. أبطؤوا سرعتهم لينظروا إليها. لم يكونوا من راكبي الدراجات المحترفين، بل من المرفهين العائدين -غالبًا- إلى بيتهم بعد ليلة جموح في حفل تعرٍّ. عرفتهم من ستراتهم الإيطالية وسراويل الجينز الغالية، ودرَّاجاتهم الفاخرة. على الأرجح هم قد اعتادوا حياة الحفلات، لا حياة الطريق القاسية.

تمهلوا في النظر إليها، فرفعت زجاجة الويسكي، ووضعت كفها الأخرى جوار فمها مُطلقةً صيحة ذئب، فانطلقوا مسرعين وذيولهم بين أفخاذهم.

انتهت بها الرحلة عند متجر الكتب الحالم، ذي الواجهة الزجاجية الكبيرة التي تعرض كتبها. كانت قد ألقت كلمة هنا منذ عام، لكنها كانت ترتدي سروالًا وقتها.

ضيقت عينيها ونظرت إلى داخل المتجر المظلم، وقد مالت مُدققة لترى أي كتب يعرضونها. أربعة من كتبها. هل وُزع كتابها الرابع؟ بدا لقيك أنها ما زالت ترسمه. ترنحت، فسقطت ووجهها يمسح الزجاج، ومؤخرتها مرتفعة إلى أعلى.

كانت سعيدة أن الكتاب الرابع قد ظهر في المكتبات. لقد مرت بلحظات قد أيقنت فيها أنها لن تُنهيه.

حين بدأت ڤيك برسم الكتب، لم يرن الهاتف بمكالمات من أرض الكريسماس قط. لهذا السبب كانت ترسم قصص محرك البحث. حين ترسم، يكف الهاتف عن تلقي الاتصالات. لكن، وسط انشغالها بالكتاب الثالث، بدأت محطات الإذاعة ببث أغاني الكريسماس في منتصف الصيف، وبدأت الاتصالات تطاردها مرة أخرى. حاولت أن تلف نفسها بخندق من معاقرة الخمر، لكن الشيء الوحيد الذي أغرقته فيه هو العمل نفسه.

همَّت ڤيك بالابتعاد عن الواجهة الزجاجية حين رن جرس الهاتف داخل المتجر.

كانت تراه يضيء فوق المكتب عند أقصى المتجر. في الليل البهيم الدافئ، استطاعت أن تسمعه بوضوح وعرفت أنهم هم. ميلي مانكس، وبراد مَكولاي وأبناء مانكس الآخرون.

همست للمتجر: «معذرة. لا أستطيع الرد على مكالمتكم. لو أردتم ترك رسالة، فأتمنى لكم حظًّا لعينًا».

ابتعدت عن الواجهة، دافعة نفسها بعيدًا، وسارت على الرصيف حتى انتهى، فزلت قدمها عن نهايته، وهوت جالسة على الأسفلت المبتل.

السقطة مؤلمة، لكنها أقل إيلامًا مما توقعت. لم تميز إن كان الويسكي أخفى عنها الألم، أم أن استمرارها على نظام لُو كارمودي الغذائي قد زودها بمصدَّات بالأسفل. خشيت أن تكون قد أسقطت الزجاجة فهشمتها، لكنها كانت في يدها، سالمة آمنة. جرعت منها فشعرت بطعم برميل خشب البلوط الذي كانت محفوظة فيه.

جاهدت كي تقف على قدميها، فرن جرس هاتف في مقهى مظلم، بالإضافة إلى استمرار صوت جرس هاتف متجر الكتب. وحين انتهى الجرس، انطلق ثالث من مكان آخر من الطابق الثاني لمبنى على يمينها، ثم تلاه رابع وخامس من الشقق على ناحيتَي الطريق.

صدح الليل بأصداء أجراس الهواتف. كانت الأصوات متناغمة كنقيق الضفادع في الصيف، وصفير اليعاسيب وصرير أجنحة الجنادب، كأصوات أجراس الكنائس صباح الكريسماس.

صرخت: «اغربوا عني!».

وقذفت الزجاجة نحو انعكاس صورتها في واجهة متجر عبر الشارع. تهشم الزجاج فتوقفت كل الهواتف عن الرنين، كمجموعة صاخبة قطع صخبها صوت طلقة نارية.

بعد نصف ثانية، انطلق جرس الإنذار من داخل المتجر، وبرق وميضه الفضي، مضيئًا محتويات الواجهة، ***درَّاجات***.

للحظة تجمد الليل. كانت الدراجة المعروضة في الواجهة -طبعًا- دراجة رالي بيضاء بسيطة. ترنحت ڤيك وزال إحساس التهديد فجأة. عبرت الشارع إلى متجر الدراجات، وبمجرد أن وطئت قدماها الزجاج المهشم، اتضحت لها خطتها، ستسرق الدراجة وتهرب بها خارج البلدة. ستقودها إلى جسر داكوتا، وستخترق بها الليل والغابات حتى تجد المُختصر.

سيأخذها جسر الطريق المُختصر إلى عنبر المستشفى حيث تشارلي مانكس، وستكون فضيحة! امرأة في الحادية والثلاثين ترتدي سروالًا داخليًّا، تقود دراجة أطفال، تقتحم عنبر العناية الفائقة ذا الحراسة المشددة في الثانية صباحًا. تخيلت نفسها تبحر بدراجتها بين المجرمين الغائبين عن الوعي فوق فُرُشهم. ستتجه رأسًا إلى مانكس، وستوقف الدراجة جانبًا، ثم ستسحب الوسادة من تحت رأسه وتخنقه بها. هذا سيقضي على مكالمات أرض الكريسماس للأبد.

كانت تعلم أن هذا هو الحل.

مدت ڤيك يدها عبر الزجاج المكسور وأخذت الدراجة. سمعت أول عويل لصافرة الشرطة تحملها أنسام الليل الدافئة الرطبة.

تفاجأت، إذ إن جرس الإنذار قد انطلق منذ نصف دقيقة، وها هي ذي الشرطة قد وصلت بهذه السرعة.

لكن الصافرة التي سمعتها لم تكن صافرة سيارة الشرطة. كانت سيارة إطفاء تتجه إلى بيتها. وبوصولها، لم يكن هناك ما يُنقذ.

أما الشرطة، فقد ظهرت بعد دقائق تالية.

براندنبرج، كِنتَكي

احتفظ ناثان ديميتر بالمهمة الأفضل حتى النهاية.

في عام 2012، أخرج ناثان محرك السيارة الشبح، وأمضى يومين في إصلاحه وتنظيفه، وتركيب ما أرسل في شرائه من قطع غيار له من متجر مختص في إنجلترا. المحرك بقوة ستة أحصنة وسعة CC 4257، والموضوع على منضدة العمل، أشبه بقلب ميكانيكي ضخم -وقد كان كذلك بالفعل-. أغلب اختراعات البشر -مثل المحقن والمسدس والسيف والقلم- مجاز يشير إلى قضيب الذكر، أما مخترع محرك الاحتراق الداخلي فقد حلم بتصميم مطابق للقلب البشري.

قالت ميشيل: «كان أسهل أن تستأجر سيارة ليموزين، بدلًا عن كل هذا التعب».

- لو أنك تظنين أنني ألتفت إلى مقدار التعب المبذول، فأنت لم تعرفي عني شيئًا طيلة الأعوام الثمانية عشر الماضية.
- الأمر له علاقة بطاقة التوتر داخلك، كما أفترض.
- من المتوتر؟

ظلت مبتسمة، وقبَّلته.

أحيانًا، بعد أن يمضي ساعات في إصلاح السيارة، يجد نفسه ممددًا على الأريكة الخلفية، وساقه متدلية من الباب المفتوح، ويده تمسك بزجاجة بيرة، يسترجع الأحداث الماضية. أحداث جولاتهما بالسيارة في الحقل الغربي، وابنته خلف المقود، والحشائش الطويلة تضرب جانبَي الشبح.

لقد اجتازت ابنته وهي في عمر السادسة عشرة اختبار ترخيص التيادة من المحاولة الأولى. هي الآن في الثامنة عشرة ولديها سيارتها الخاصة -فولكس جيتا رياضية صغيرة- وهي تخطط لقيادتها إلى دارماوث بعد تخرجها. فكرة أن تقطع هذه المسافة وحدها، تتحقق من غرف الفنادق الرخيصة، ويتحقق الرجال من جسدها وهم جالسون خلف ماكينات الدفع، وخلف مقود الشاحنات في الباحات، تثير قشعريرته، وتملؤه بطاقة توتر عنيفة.

كانت ميشيل تحب غسل ملابسهما، وكان يتركها تفعل ذلك. فرؤية ملابسها الداخلية الرقيقة الملونة من ماركة ڤيكتورياز سيكريت تثير لديه مخاوف عن الحمل غير المخطط له، وعن الأمراض المنقولة جنسيًّا. كان بارعًا في الحديث إليها عن السيارات، ومراقبتها وهي تُصلح المحركات وتقود ببراعة، لكنه لم يكن يعرف كيف يحدثها عن الرجال أو الجنس، ولم يرتح قط كونها لا تعرف رأيه عن تلك الأمور بالذات.

- من المتوتر؟

سأل المرأب الخالي في ليلة، وهو يرفع يده بالبيرة في نخب ظله.

قبل ستة أيام من الحفل الراقص الكبير، أعاد المحرك إلى الشبح، وأغلق الغطاء، ثم تراجع خطوتين ليقيم عمله كنحات يقيم تمثالًا عاريًا قد كان من قبل جلمودًا رخاميًّا. مفاصل أصابعه المجروحة، والزيوت المتراكمة تحت أظفاره، وشظايا الصدأ في عينيه ذات قداسة تماثل تلك التي لمخطوطات دينية بالنسبة إلى راهب في دير.

لقد فعل ما في وسعه ليصلحها، وقد نجح.

جسد السيارة الأبنوسي يلمع كطوربيد، كقطعة زجاج بركاني مصقولة. كان قد استبدل بابًا أصليًّا بذلك القديم الصدئ، وقد حصل عليه من جامع قطع غيار في الاتحاد السوفيتي السابق. أعاد تنجيد الفرش الداخلي بجلد طبيعي، وغيَّر الأدراج الأمامية بأخرى من خشب الجوز، صنعها نجار في نوفا سكوتيا. كان قد فكر في تركيب مُشغل أسطوانات موسيقى، لكنه في النهاية تراجع عن هذه الفكرة. حين تملك لوحة الموناليزا، فلا يليق أن ترسم فوق رأسها قبعة بيسبول.

كان قد وعد ابنته منذ وقت طويل، في يوم صيفي حار، وسط عاصفة رعدية، أنه سيصلح السيارة لأجل يوم حفل تخرجها، وها هو ذا قد أنهاها

قبل أسبوع كامل من الموعد. بعد حفل التخرج يمكنه أن يبيعها، فهي تقدر بربع مليون دولار في سوق جامعي النوادر، وهو مبلغ لا بأس به بالنسبة إلى سيارة كان ثمنها خمسة آلاف دولار أمريكي في سنة إصدارها. مبلغ لا بأس به إذا قارنه بما دفع لأجل شراء الشبح من مزاد المباحث الفيدرالية منذ عشرة أعوام.

سألته ميشيل في مرة، بعد أن ذكر كيف حصل عليها: «من تظنه كان مالكها السابق؟».

- تاجر مخدرات على ما أتصور.

- إلهي. أتعشم ألا يكون أحد قد قُتل فيها.

السيارة بحالة جيدة، لكن الحالة الجيدة ليست كل شيء. لن يأتمنها على ابنته إلا بعد أن يقودها عشرات الأميال ويتأكد أنها آمنة.

قال للسيارة: «هيا أيتها الغانية الحلوة. لنوقظك ونرى إمكاناتك».

جلس ديميتر خلف المقود، وأغلق الباب خلفه، ثم أدار مفتاح التشغيل.

بُعث المحرك إلى الحياة صارخًا بصوت خشن في البداية، ثم سرعان ما هدأ صوته مستحيلًا إلى هدير خافت منتظم. المقعد المغطى بجلد النعام كان مريحًا أكثر من فراشه نفسه.

في الماضي، في زمن صناعة الشبح، كانت المُعدات كالدبابات، تُصنع لتخلُد. وكان يشعر دومًا أن هذه السيارة قد شهدت أكثر من عمرها بمراحل... وقد كان مُحقًّا.

قد ترك هاتفه المحمول على منضدة الورشة، وكان يريده قبل أن يغادر، فهو لن يغامر بأن تتعطل به الشبح أو تسقط في وهدة وهو بلا مُعين. مد يده ليفتح الباب، وكانت هذه هي أولى مفاجآته لهذا المساء. ما إن فتح الباب، حتى أُغلِق من تلقاء نفسه بقوة، وصدح صوته كأنه صرخة.

فزع ديميتر، ولم يكن يتوقع أمرًا كهذا، حتى إنه شك أن ما حدث قد حدث بالفعل. ثم انغلقت باقي أقفال الأبواب واحدًا تلو الآخر -*بانج*، *بانج*، *بانج*- كرصاصات تنطلق متتالية، ولم يستطِع وقتها أن يقنع نفسه أنه يتخيل.

- ما هذا الهراء؟!

حاول جذب قفل باب السائق، لكنه ظل في مكانه. ارتعدت السيارة من قوة المحرك العاتية، وراح العادم يتكاثر على جانبيها. مال ديميتر أمامًا ليغلق المحرك، وهنا تلقى ثاني مفاجآت اليوم. لم يستطع لف المفتاح. ظل يهزه أمامًا وخلفًا، حاول لفه بكل قوته، لكن المفتاح كان مثبتًا مكانه، لا يدور ولا ينخلع.

ثم صدح صوت المذياع بأعلى صوت بأغنية كريسماس لا يجوز إذاعتها في الربيع. مع استمرار الصوت، تصلب جسد ديميتر من البرد، واستحال جلده إلى جلد إوزة. ضغط زر المذياع ليغلقه، وقد كف عن الشعور بالعَجَب، متوقعًا ألا يستجيب الزر.

حاول تغيير المحطة، لكن الأغنية كانت تُذاع على كل المحطات.

رأى العادم يملأ الهواء الآن. بل إنه قد شعر بطعمه، وراح وعيه ينسحب منه. الأغنية تؤكد له أن وقت الكريسماس هو الوقت الأمثل لركوب حصان الملاهي الخشبي. يجب أن يوقف تلك الأغنية اللعينة، يجب أن ينعم ببعض الهدوء. لكن مفتاح فصل الصوت لم يؤثر في شيء على الإطلاق.

العادم يغطي مصباحَي السيارة الأماميين، وشهيقه التالي كان مفعمًا بالسم، فانخرط في نوبة سعال قوية حتى إنه شعر أن حلقة يتمزق، وتسارعت الأفكار متلاحقة في عقله. لن تعود ميشيل إلى المنزل قبل ساعة أو ساعة ونصف. أقرب جار له على بعد ثلاثة أرباع ميل، فلن يسمع أحد صرخاته. لن ينطفئ المحرك، ولن تنفتح الأبواب، كأنه يعيش فيلم جاسوسية لعينًا يستعينون فيه بقاتل محترف يتحكم في الرولز رويس عن بعد ليغتال بها الأعداء. لكن كل هذا جنون. هو قد فكك الشبح إلى أجزاء، ثم جمعها بنفسه مرة أخرى، وهو موقن أن لا شيء فيها يسمح لشخص آخر بالتحكم في محركها وأقفالها ومذياعها.

حتى وكل تلك الأفكار تعابثه، كان يبحث عن جهاز فتح باب المرأب الأوتوماتيكي في لوحة تحكم السيارة. لو لم يدخل بعض الهواء إلى المرأب، فسيفقد وعيه خلال ثوانٍ. للحظة أعماه الذعر، وراح يردد: «*الجهاز ليس هنا.. الجهاز ليس هنا...*».

ثم وجدت أصابعه جهاز التحكم الصغير خلف الجزء المرتفع المثبتة إليه عجلة القيادة. قبض عليه ووجهه نحو باب المرأب، ثم ضغط الزر.

قعقع الباب مرتفعًا نحو السقف. فجأة تحرك ذراع الحركة في الشبح إلى وضع الرجوع إلى الخلف، واندفعت السيارة بظهرها نحو الباب وعجلاتها تصر بصوت حاد.

صرخ ناثان ديميتر، وقبض على المقود، لا بغرض التحكم في السيارة، بل ليجد شيئًا يتشبث به. اصطدمت العجلتان الخلفيتان الرفيعتان بعارضة المدخل السفلية، فدارت السيارة حتى كادت تنقلب إلى الخلف كعربة جر قديمة، ثم تهبط بقوة، وتنزلق فوق مدخل المرأب المائل مسافة ثلاثمائة قدم وصولًا إلى الشارع بالأسفل. بدا لناثان أنه قد صرخ طيلة تلك المسافة، لكن الحقيقة هي أنه قد توقف عن الصراخ في منتصف الطريق، والصرخة التي سمعها كانت حبيسة عقله فقط.

لم تبطئ الشبح سرعتها، بل زادتها، وأي سيارة ستقابله من الجهة الأخرى، ستصدمها بسرعة أربعين ميلًا في الساعة. بالطبع لو لم يحدث شيء من هذا، فالسيارة تندفع مباشرة نحو الأشجار على الجانب الآخر، وعرف ناثان أن جسده سيخترق الزجاج الأمامي إثر الاصطدام. الشبح -ككل سيارات عصرها- ليس بها أحزمة أمان من أي نوع.

الطريق كان خاليًا، دارت إطارات السيارة على الأسفلت، ودار المقود سريعًا بين يدَي ناثان حتى كاد يحرق كفيه. دارت الشبح حول نفسها تسعين درجة إلى اليمين، وانقلب ناثان ديميتر في مقعده، ثم استقر على المقعد المجاور، وارتطم رأسه بالهيكل الحديدي.

لوهلة، لم يُدرك مدى فداحة إصابته. كان ممددًا على المقعد الأمامي، يرمق السقف. ومن خلال نافذة مقعد الراكب، استطاع أن يرى سماء ما بعد الظهيرة داكنة الزرقة، تتناثر على صفحتها سحابات كالريش. لمس بقعة تؤلمه من جبهته، ثم نظر إلى إصبعه ليجدها ملوثة بالدماء. وراح صوت الفلوت يعزف افتتاحية أغنية «اثني عشر يومًا من الكريسماس».

السيارة تتحرك، وقد استقرت ذراع السرعات على الترس الخامس من تلقاء نفسها. كان يعرف الطرق المحيطة بمنزله، وأدرك أنه يتحرك في طريق 1638، متجهًا إلى طريق ديكسي السريع.

خلال دقيقة، سيصل إلى التقاطع، ثم...؟ سيعبره وربما يقطع طريق شاحنة متجهة إلى الشمال فتمزقه. خطرت الفكرة على عقله كاحتمال وارد، لكنه لم يبتلع المصادفة التي ستجعله يلقى سيارة انتحارية الآن بالذات.

فطن إلى أن الشبح تتحرك بإرادتها الخاصة، وأن لها مهامَّ معينة تسعى لتنفيذها. هي لا تحتاجه، وربما هي غير مُدركة لوجوده إلا كما يدرك الكلب وجود بقَّة تتعلق بشعره.

اتكأ على كوعه، فاستقام جالسًا، ونظر إلى انعكاس وجهه في المرآة الأمامية فرأى قناعًا من الدم يغطي وجهه. مسَّ جبهته مرة أخرى فشعر بجرح عرضه ست بوصات يقطع جبهته تحت منبت شعره. ضغط عليه بإصبعه، فشعر بالعظم تحته.

تباطأت السيارة عند تقاطع طريق ديكسي السريع. راح يراقب -مذهولًا- عصا السرعات تتحرك إلى موضع الترس الرابع فالثالث وصولًا إلى الثاني، وبدأ يصرخ مرة أخرى.

هناك سيارة أمامه، تنتظر، يجلس ثلاثة أطفال سِمان على أريكتها الخلفية. أداروا رؤوسهم ونظروا نحو الشبح.

صرخ والدماء تتسرب من خلال شعر حاجبيه إلى باقي وجهه: «**النجدة! النجدة النجدة النجدة انجدوني انجدوني!**».

ابتسم الأطفال كأنهم ينظرون إلى مشهد هزلي سخيف، ولوحوا له في حنق كي يصمت. ظل يصرخ كبقرة تُذبح، وتنزلق في دماء من ذُبحوا قبلها.

انعطفت السيارة التي أمامه إلى اليمين مع تحرك المرور، فانعطفت الشبح يسارًا، وتسارعت حتى شعر ناثان ديميتر أن يدًا خفية هائلة تضغطه إلى المقعد.

حتى ونوافذ السيارة مغلقة، استطاع أن يشم رائحة العشب المجزوز حديثًا، ودخان الشَّي المتصاعد من الباحات الخلفية، وعبق براعم النباتات.

احمرت السماء وكأنها -هي الأخرى- تنزف، والسحب كقطع من رقائق الذهب تتناثر على صفحتها.

في شرود، لاحظ ناثان أن الشبح تتحرك بكفاءة عالية. المحرك لم يكن صوته قط بهذه السلاسة والقوة. يمكنه الآن الإعلان أن العاهرة العجوز قد أصلحت إلى حد الكمال.

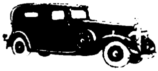

كان واثقًا أنه قد غفا وهو جالس خلف المقود، لكنه لا يتذكر كيف غفا، لكنه يعرف أنه في لحظة ما، وقبل حلول الظلام، قد أغلق عينيه، وحين فتحهما كانت الشبح تشق نفقًا من الثلوج المتساقطة من السماء، نفقًا من ليل ديسمبر.

النوافذ الأمامية ملطخة ببصمات كفيه الداميتين، خلالها استطاع أن يتبين ندف الثلج تدور في أعاصير صغيرة على جانبَي الطريق الأسفلتي ذي الحارتين، الذي لم يره من قبل. يحرك الهواء ستائر الثلج أمامه كالحرير، كالأشباح.

حاول أن يفكر في احتمالية أن السيارة قد قادته شمالًا في أثناء نومه مسافة كافية إلى حد ملاقاة عاصفة جليد ربيعية، لكنه وجد الفكرة سخيفة. أدرك أن الليل بارد والطريق غير مألوف وأخبر نفسه أنه يحلم، لكنه لم يصدق نفسه. تفاصيل شعوره -رأسه الذي يؤلمه، وجهه الملطخ بالدماء الجافة، ألم ظهره إثر الجلوس طويلًا خلف المقود- أقنعه أنه مستيقظ. السيارة تقطع الطريق كدبابة، لا تنزلق أبدًا، ثابتة، لا تقل سرعتها عن ستين ميلًا في الساعة.

صدحت أغنية «أنت هو كل ما أريد في الكريسماس»، تلتها أغنية «الأجراس الفضية»، ثم «البهجة للعالم»، ثم «لقد حلَّ في منتصف ليلٍ صافٍ». أحيانًا ما كان يعي للموسيقى، وأحيانًا يغفل عنها، لكن قط لم يقطعها فاصل إعلاني أو إخباري. فقط الترانيم المقدسة تشكر الرب، وإيرثا كيت تغني مناشدةً سانتا أن يحقق أمنياتها لأنها كانت فتاة مطيعة.

حين يغلق عينيه، تحل صورة هاتفه المحمول على المنضدة في الورشة. هل بحثت عنه ميشيل بمجرد أن وجدت باب المرأب مفتوحًا والمكان خاويًا؟ لا بد أنها الآن قد فقدت عقلها قلقًا، وتمنى لو أن هاتفه المحمول معه، ليس للاتصال بمن ينجده -فقد كان موقنًا أن ما يمر به يفوق القدرة على النجدة- بل لأنه شعر أنه سينال الطمأنينة لو أنه سمع صوت ابنته. تمنى لو يتصل

بها ويخبرها أنه يريدها أن تذهب إلى حفل التخرج وتحظى بالمرح. أراد أن يخبرها أنه ليس قلقًا بشأن أنوثتها، بل إن مصدر قلقه هو العمر الذي يجري، وخشيته من الوحدة بعيدًا عنها، لكنه لم يعد بحاجة إلى القلق بهذا الصدد الآن. أراد أن يخبرها أنها أفضل ما حدث في حياته. هو لم يعد يخبرها بذلك كثيرًا مؤخرًا، ولم يخبرها به بالقدر الكافي طيلة حياته.

بعد ست ساعات في السيارة، لم يعد يشعر بالذعر. فقط دهشة خَدِرة، وقبول بأن كل ما يحدث له أمر عادي، آجلًا أم عاجلًا ثمة سيارة سوداء تزور الجميع لتبعدهم عن أحبائهم، ولا ترجعهم إليهم مرة أخرى.

راح صوت بيري كومو يغني مُذكرًا ناثان أن الأجواء أجواء رأس سنة بالفعل.

قال ناثان بصوت مشروح: «لا تمزحي يا بيري...».

ثم بصوت نشاز راح يغني وهو يدق الإيقاع على باب السيارة. غنى أغنية روك لبوب سيجر من نوعية الأغاني التي تهدئ النفس. غناها بأعلى ما في صوته، مقطعًا تلو الآخر، وحين صمت أخيرًا كان المذياع قد أغلق نفسه.

هذه هي هدية الكريسماس، وفكر أنها الهدية الأخيرة التي سيحصل عليها.

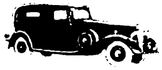

في المرة الثانية التي فتح فيها عينيه، كان وجهه منضغطًا إلى المقود، والضوء الساطع يعميه.

ضيق عينيه، لكن العالم كان ضبابيًّا أزرق، وألم رأسه لا يُحتمل، لم يمر بمثله قط، وشعر أنه ربما يقيء من الوجع المتمركز خلف عينيه كوميض أصفر. أشعة الشمس هذه تؤذيه.

رمش فزالت الدموع عن عينيه، وبدأت الرؤية تتضح شيئًا فشيئًا.

رأى رجلًا سمينًا يرتدي زيًّا عسكريًّا وقناع غاز يتحدث إليه عبر آثار الأكف الدامية على زجاج نافذة السيارة. قناع الغاز عتيق، ربما منذ عصر الحرب العالمية الثانية، لونه أصفر مخضر كالخردل.

سأله ناثان: «من تكون بحق الخراء؟».

بدا له الرجل كأنما يتقافز. لم يكن ناثان قادرًا على رؤية وجهه، لكنه عرف أنه يقفز حماسًا.

ارتفع زر قفل الباب مُصدِرًا صوتًا معدنيًّا. الرجل السمين يحمل شيئًا أسطوانيًّا في يده، علبة رش، مكتوبًا على جانبها «معطر جو برائحة كعك الزنجبيل»، ومرسومًا عليها أمًّا مبتسمة تُخرِج صحفة كعك من الموقد.

سأل ناثان ديميتر: «أين أنا؟ أين هذا المكان اللعين؟».

أدار رجل قناع الغاز مقبض السيارة، وفتح الباب على يوم ربيعي عطر وقال: «هذا المكان هو حيث تنزل».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مركز سانت لوك الطبي، دينفر

حين يموت أحد المشاهير، فهيكس يحب التقاط الصور معه.

كانت هناك مذيعة إخبارية محلية، جميلة في منتصف الثلاثينيات، ذات شعر أشقر رائع، وعينين زرقاوين فاتحتين، قد ماتت مختنقة بقيئها.

دخل هيكس إلى المشرحة في الواحدة صباحًا، وأخرجها من الثلاجة ثم أجلسها. لف ذراعًا حول جذعها، ثم مال ليخرج لسانه قريبًا من صدرها، وهو يمد ذراعه بهاتفه المحمول ليلتقط صورة. لم يلعق ثديها بالطبع، فقد كان هذا الأمر مقرفًا أكثر مما يحتمل.

في مرة أخرى وصلتهم جثة مغني روك نصف معروف، يغني في الفرقة التي ظهرت في فيلم سيلفستر ستالوني الأخير. كان السرطان قد أكل جسده فبدا هرِمًا، بشعره البني الرقيق، ورموشه الطويلة، وشفتيه الأنثويتين العريضتين. أَخرجه هيكس من ثلاجة المشرحة وشكَّل أصابع المتوفى على هيئة قرنَي شيطان، ثم مال عليه وضم كفه فاردًا إصبعيه السبابة والخنصر، ثم التقط صورة لهما معًا كأنهما كانا في نزهة معًا. جفنا مغني الروك مرتخيان فبدا ناعسًا مثيرًا.

عشيقة هيكس -ساشا- هي من أخبرته بوجود جثة قاتل متسلسل في المشرحة. ساشا ممرضة أطفال، يرتفع القسم الذي تعمل به ثمانية طوابق عن المشرحة. أحبَّت الصور التي يلتقطها للموتى، وكانت هي أول من يرسل إليها صوره. كانت تراه ظريفًا للغاية، موهوبًا يستحق الظهور في التلفاز. هيكس مغرم بساشا أيضًا. كان معها مفتاح خزانة الصيدلية، وفي ليالي السبت، كانت تجلب له مخدرًا لطيفًا منها، ثم يبحثان عن مكان خالٍ يتضاجعان فيه.

لم يسمع هيكس من قبل عن هذا السفاح، لذا فقد استخدمت ساشا الحاسوب في مكتب التمريض للبحث عن قصته كاملة. الصورة التي وجدتها كانت سيئة كفاية، ورأت فيها وجهه الرفيع ورأسه الأصلع وفمه ذا الأسنان المائلة الحادة. عيناه غائرتان، مستديرتان. العبارة تحت الصورة توضح أن اسمه تشارلز تالنت مانكس، وقد أُلقي القبض عليه قبل عَقد إثر حرقه لرجل جيش أمام عشرات الشهود.

قال هيكس: «ليس بهذه العظمة، لقد قتل رجلًا واحدًا».

- بل هو أسوأ من السفاح جون وُين ستاسي نفسه[1]. لقد كان يقتل الأطفال.. من كل عمر وجنس! لديه منزل حيث يقتلهم، ويعلق تماثيل ملائكة على الأشجار المحيطة به. تمثال لكل طفل يقتله. هذا رائع! رمزية مرعبة! ملائكة كريسماس صغيرة. كان يطلق على المنزل اسم بيت الزلاجة. أتفهم المقصد من هذه التسمية يا هيكس؟

- كلا.

- بيت الزلاجة، مثل بيت سانتا.

- كلا.

هو لا يعرف ما علاقة سانتا برجل مثل مانكس.

- احترق المنزل بالكامل، لكن الزينة على الأشجار ما زالت موجودة، كأنها نصب تذكاري.

داعبت حزام زي التمريض الذي ترتديه وأردفت: «السفاحون يثيرونني.. لا أستطيع سوى أن أفكر في كل الأمور الخليعة التي قد أفعلها كي لا يقتلوني. يجب أن تلتقط صورة معه وترسلها لي، ثم تخبرني بما ستفعله معي لو أنني تعريت لأجلك».

لم يجد سببًا لجدال منطقها هذا، بالإضافة إلى أن عليه أن يقوم بجولته الاعتيادية في المستشفى -بصفته حارس أمن- على أي حال. إلى جانب هذا، فلو أن الرجل قد قتل الكثير، فهو يستحق صورة تُضاف إلى مجموعته. التقط هيكس الكثير من الصور الغريبة المضحكة، لكنه وجد أنها فرصة جيدة لأن يحظى بصورة مع قاتل متسلسل ليرضي جانب نفسه الجاد المظلم.

---

(1) قاتل أمريكي متهم بقتل أكثر من ثلاثة وثلاثين ذكرًا وتعذيبهم واغتصابهم. (المترجمة)

في المصعد، راح هيكس يتدرب على دوره مع ساشا، فأخرج مسدسه، وأشار إلى انعكاس نفسه في المرآة مُهددًا: «إما أن أدس هذا في فمك، وإما أدس....».

كان كل شيء على ما يرام، حتى أزَّ جهاز اللاسلكي وسمع صوت عمه يهدر: «مهلًا أيها الأحمق. العب هكذا بالسلاح حتى تقتل نفسك، وحينها سنتمكن من تعيين حارس غيرك قادر على إتمام عمله اللعين».

كان قد نسي أن هناك كاميرا في المصعد، ولحسن الحظ لم تكن مزودة بسماعات. أعاد هيكس المسدس إلى حافظته وأحنى رأسه متمنيًا أن تكون قبعته قد أخفت وجهه. احتاج إلى لحظات يصارع فيها حنقه وحرجه، ويضغط زر الرد عازمًا على التفوه بشيء قاسٍ يُخرس الخراء العجوز، لكن بدلًا عن ذلك قال بصوت ضعيف يكرهه: «عُلِم».

عمه جيم هو من رشحه لوظيفة حارس الأمن، وأخفى أن هيكس قد ترك دراسته الثانوية مبكرًا، وأنه قد أُلقي القبض عليه من قبل بتهمة السُّكر. كان هيكس يعمل منذ شهرين في المستشفى، وقد استُدعي للمثول أمام التحقيق مرتين، مرة بسبب التأخير، وأخرى بسبب تجاهله الرد على اللاسلكي. (كان مشغولًا في مضاجعة ساشا). أخبره عمه أنه إن خالف التعليمات مرة ثالثة قبل مرور عام على شغل وظيفته، فسيضطرون إلى تسريحه.

سِجل عمه جيم ناصع، ربما لأنه لا يفعل شيئًا في حياته سوى الجلوس خلف مكتب الأمن ست ساعات يوميًا، يراقب فيها بث كاميرات المراقبة بعين، وبالأخرى يتابع قناة سكينماكس الإباحية. ثلاثون عامًا من مشاهدة ما يُعرض على شاشات المراقبة لقاء أربعة عشر دولارًا في الساعة مع كافة الميزات الأخرى، وهذا بالضبط ما كان هيكس يطمح إليه. لكنه إن خسر وظيفته بصفته حارس أمن -أو مثُل للتحقيق مجددًا- سيضطر إلى العودة إلى العمل في مطعم مَكدونالدز، وهذا سيئ بما يكفي.

حين تقدَّم للعمل في المستشفى، هجر مكانه الرائع خلف نافذة الطلبات، وكان يكره فكرة أن يبدأ من جديد مرة أخرى. والأسوأ أنه لو فقد وظيفته، سيفقد ساشا ومفتاحها إلى خزانة الصيدلية، وكل المتعة التي لقياها في مضاجعاتهما. أحبت ساشا زي حراسة هيكس، ولا يظن أن ملابس مَكدونالدز ستثيرها بالقدر ذاته.

وصل هيكس إلى القبو، فخرج من المصعد.

لم تكن هناك حركة في القبو في الحادية عشرة والنصف مساءً. أغلب الأنوار مطفأة إلا مصابيح فلورسنت تنير فوق رأسه كل خمسين قدمًا، وهذا واحد من الإجراءات التقشفية التي تتبعها المستشفى. الحركة الوحيدة كانت تصدر عن رجل يعبر نفق المترو من ساحة انتظار السيارات على الجهة الأخرى من الشارع.

سيارة أحلام هيكس كانت في الساحة أيضًا. سيارة سباق أمريكية Trans-Am ذات تنجيد بنقشة جلد الحمار الوحشي، ومصابيح نيون زرقاء. حين كانت تهدر عابرة الطريق، كانت تبدو كطبق طائر من فيلم خيال علمي، وهي حلم آخر سيضطر إلى التخلي عنه لو فقد وظيفته الحالية، وعاد إلى وظيفة قلب أقراص البرجر.

ودَّت ساشا لو تضاجعه في تلك السيارة؛ كانت مولعة بالحيوانات، والنوم فوق جلد الحمار الوحشي يثير شبقها الحيواني.

ظن هيكس أن القاتل المتسلسل سيكون في ثلاجة المشرحة، لكنه كان في حجرة التشريح، وقد بدأ أحد الأطباء بشق جسده، ثم تركه ليعود ويستكمل ما بدأ في اليوم التالي. أنار هيكس المصباح فوق طاولة التشريح، وترك باقي الحجرة تسبح في الظلام. سحب الستائر ليغطي نوافذ الطابق، ولم يكن هناك مزلاج، فدفع الساندة المطاطية أسفل الباب كي يمنع أي عابر من الدخول عليه بلا قصد.

أيًّا مَن كان قد بدأ تشريح تشارلي مانكس، فقد غطاه بملاءة قبل رحيله. هو الجسد الوحيد الموجود في الحجرة الليلة. تعلو المحفة التي يرقد فوقها لافتة مكتوب عليها HIC LOCUS EST UBI MORS GAUDET SUCCURRERE VIAE[1]. في يوم سيبحث هيكس عن معنى هذه العبارة على جوجل ليرى ماذا تعني بحق الجحيم.

أزاح الملاءة حتى عقبَي مانكس، وراح ينظر. كان الصدر مشقوقًا، أُعيدت خياطته بغرز كبيرة وبخيط أسود. كان الشق متفرعًا من أعلى، يمتد إلى

(1) هذا هو المكان الذي يساعد فيه الموت على تحسين الحياة. (المترجمة)

الأسفل وصولًا إلى عظم الحوض. أسنانه معوجة بنية، غائصة في شفته السفلى. عيناه مفتوحتان وبدا كأنه يحدق إلى هيكس في إعجاب.

لم يرتح هيكس لهذا. لقد رأى الكثير من الموتى، وكان أغلبهم مغلق العينين، وإن لم تكن مغلقة، فنظرتهم تكون غائمة كأن الحياة نفسها قد تخثَّرت بداخلهم. لكن هاتان العينان براقتان، واعيتان. عينا رجل حي، لهما نظرة فضولية كنظرات الطيور.

لكن هيكس لم يهتم لهذا كله.

لم يكن هيكس -على أي حال- يهاب الموتى أو الظلام. هو يخاف عمه جيم وساشا، وكوابيسه بأن يراه الناس عاريًا في الطريق.

هذه هي مخاوفه الحقيقية.

لم يكن واثقًا بالسبب الذي منعهم من إرجاع مانكس إلى الدُّرج، إذ يبدو أنهم قد انتهوا من تشريح صدره، لكن حين أجلسه هيكس -مُسندًا جسده إلى الحائط، وذراعيه الطويلتين على حِجره- رأى خطًّا مرسومًا بقلم ملون أسفل جمجمته. لقد قرأ في جريدة ساشا أن مانكس كان يدخل ويخرج من الغيبوبة طيلة عقد كامل، لذا من الطبيعي أن يخطط الأطباء للعبث في مخه قليلًا. إلى جانب هذا، من قد يقاوم إلقاء نظرة على مخ قاتل متسلسل؟ لا بد أن هناك بحثًا طبيًّا ما عن هذا الأمر.

كانت أدوات التشريح -المنشار، المبضع، مُباعد الضلوع، مطرقة العظام- موضوعة على صحفة ذات عجلات جوار الجثة. فكر هيكس في البداية أن يدس المبضع في يد مانكس، وهو ما بدا أنه يليق بقاتل متسلسل، لكنه كان صغيرًا للغاية، وبالنظر إليه عرف أنه لن يظهر بدقة في الصورة التي سيلتقطها بهاتفه الرخيص.

مطرقة العظام كانت مختلفة، كبيرة فضية، ذات رأس يشبه قالب الطوب، لكنها مدببة من ناحية واحدة، وحادة للغاية كالساطور. نهاية طرف المقبض معقوفة، تُستخدم في الحفر أسفل حافة الجمجمة لخلعها، مثلما تخلع الفتَّاحة غطاء زجاجة. مطرقة العظام مثيرة حقًّا.

احتاج هيكس دقيقة حتى استطاع لف أصابع مانكس الطويلة قذرة الأظفار حول مقبضها، ولفت نظره تشقق الأظفار المصفرة كأسنان صاحبها. يشبه مانكس الممثل لانس هينركسن في فيلم الفضائيين، لو أن هينركسن كان

حليق الرأس، وضربه أحدهم بضع ضربات على وجهه بصنارة. ثديا مانكس وردیان متهدلان، ذكَّرا هيكس بما كانت أمه تخفيه تحت حمالة صدرها.

اختار هيكس المنشار لنفسه، ثم لف ذراعه حول كتفَي مانكس، فمال رأسه الأصلع على صدر هيكس. لم يمانع الأخير، فقد بدوا كرفيقَين ثملَين. أخرج هيكس هاتفه المحمول وأمسكه بعيدًا عن جسده. ضيق عينيه، ورسم ابتسامة مخبولة على شفتيه، ثم التقط الصورة.

أراح الجثة، ونظر إلى الهاتف. لم تكن الصورة عظيمة، أراد هيكس أن يبدو خطرًا. فكَّر في أن يلتقط صورة أخرى، لكنه سمع جلَبة خارج حجرة التشريح. للحظة شنيعة ظن أن الصوت صوت عمه.

- أوه، هذا الوغد الصغير ينتوي هذا. ليس لديه فكرة عن...

فرد هيكس الملاءة فوق الجثة وقلبه يتقافز في صدره. ظلت الأصوات خلف الباب حتى ظن أنهم سيدفعونه ويدخلون. كان في منتصف المسافة إلى الباب ليُبعد السنَّادة، حين أدرك أنه ما زال يمسك المنشار. وضعه على الصحفة بيد مرتجفة.

بدأ يستعيد روعه حين وصل إلى الباب. رجل آخر يضحك، والأول يكمل كلامه: «... كي يخلع أضراسه الأربعة. سيخدرونه بالسيفوفلورين، وحين يهشمون أسنانه لن يشعر بشيء. وقتما يفيق سيشعر أن أحدهم قد اغتصب فمه بمجرفه...».

لم يكن هيكس يعرف عمن يتحدثون، لكنه تأكد أن المتحدث ليس عمه جيم، بل وغد آخر له صوت الأوغاد المُسنين المشروخ. انتظر حتى سمع صوتَي الرجلين يبتعدان قبل أن يزيح السنَّادة. عدَّ حتى رقم خمسة، ثم خرج بسرعة.

هيكس يحتاج إلى شربة ماء بعد أن يغسل يديه جيدًا. كان بعد يشعر برجفة خفيفة.

جال قليلًا حتى يهدأ. وصل إلى حمام الرجال، ولم يكن في حاجة إلى الشرب فقط، بل إلى إفراغ أمعائه. أمسك بمسند المعاقين وهو يُلقي قنابله في المرحاض، ويرسل الصورة إلى ساشا ويكتب: «انحني وأنزِلي سروالك، بابا آتٍ ليرى إن كنت ستعصينه أيتها الغانية المجنونة. انتظريني في غرفة العقاب».

وهو يقف عند الحوض يغسل يديه، بدأ القلق ينخر في عقله. الحديث خارج الغرفة قد أربكه حتى إنه قد نسي إن كان قد أعاد الجثة إلى مكانها والوضع الذي وجدها عليه أم لا. الأسوأ: راوده خاطر مفزع أنه قد ترك مطرقة العظام في يد تشارلي مانكس. لو وجدها طبيب متحذلق في الصباح، فسيرفد العم جيم كل طاقم الحراسة. لا يعرف جيم إن كان قادرًا على تحمل هذا النوع من الضغوط.

قرر أن يعود إلى حجرة التشريح، ويتأكد أنه قد أزال كل أثر لما فعل.

حاول أن يلقي نظرة من خلال النوافذ، لكنه تذكر أنه قد أسدل الستائر، وهذا شيء إضافي يجب إصلاحه بالداخل. وارب هيكس الباب وعقد حاجبيه. في أثناء تعجله للخروج من المكان، أغلق كل الأنوار، ليس فقط الكشاف فوق المحفة، بل حتى أضواء الأمان التي تُترك مضاءة دائمًا عند جوانب الحجرة وفوق المكتب. رائحة المكان تفوح باليود والبِنزالديهايد. ترك هيكس الباب ينغلق من خلفه، ووقف يعزله الظلام.

ظل يتحسس الحوائط بكفه بحثًا عن مفتاح النور، حتى سمع صوت عَجلة تتحرك في الظلام، وارتطام معدن بمعدن. تصلب هيكس وراح يُنصت، وفي اللحظة التالية شعر بشيء ينطلق نحوه عبر الحجرة. لم يكن هناك صوت أو شيء معين يراه، بل شيء أحس به على جلده، واستشعرته طبلتا أذنيه، كأنه تغير في ضغط الهواء، وانقلبت معدته. كانت يده قد وجدت مفتاح النور، لكنه سحبها نحو المسدس وكاد يُخرجه لولا سمع شيئًا يُصفر في الظلام، وضُربت معدته بما شعر أنه مضرب بيسبول معدني. اندفع الهواء من رئتيه وتراجع خلفًا تاركًا المسدس يعود إلى غمده.

ضربته العصا مرة أخرى لكن هذه المرة على صدغه الأيسر فوق أذنه، فأدارته على عقبيه وأسقطته. هوى وراح يهوي، حاول أن يصرخ، لكن لم تخرج منه أي أصوات.

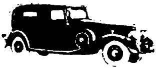

حين فتح إيرنست هيكس عينيه، وجد رجلًا ينحني فوقه، يبتسم في خجل. فتح هيكس فمه يسأل عما حدث، فانطلق الألم يغزو عقله، فأدار رأسه وتقيأ كل ما تناوله على الغداء فوق حذاءَي الرجل الأسودين.

قال هيكس بعدما أفرغ معدته: «آسف يا رجل».

قال الطبيب: «لا عليك يا بني. لا تحاول النهوض. سنأخذك إلى الطوارئ. أنت تعاني ارتجاجًا في المخ، ونحتاج إلى التأكد من أنه لا توجد كسور في الجمجمة».

عاد ما حدث إلى هيكس، الرجل في الظلام يضربه بهراوة معدنية. صاح: «اللعنة! اللعنة! مسدسي.. هل رأى أحد مسدسي؟».

وضع الطبيب سوفر -كما تعلن البطاقة على صدره- يده على صدر هيكس، يمنعه من الجلوس وهو يقول: «أعتقد أنه قد ضاع يا بني».

- لا تحاول النهوض يا إيرني.

قالتها ساشا وهي تقف على مسافة ثلاثة أقدام منه، وتنظر إليه نظرة رعب عاتية، وكانت هناك ممرضتان مذعورتان، شاحبتان مثلها.

- إلهي! إلهي! لقد سرقوا سلاحي. هل سرقوا شيئًا آخر؟

قال سوفر: «سروالك فقط».

- سروالي...؟ ماذا؟!

أحنى هيكس رقبته نحو جسده، ليرى أن نصفه السفلي عارٍ، وعورته مكشوفة أمام الطبيب وساشا والممرضتين. شعر هيكس أنه سيقيء مرة أخرى. الأمر يشبه الحلم الذي رأى فيه نفسه يذهب إلى العمل بلا سروال، والكل يحدق إليه. ثم ضربه خاطر مزعج، أن الذي مزق عنه سرواله ربما دس إصبعه في شرجه، مثلما تهدده ساشا دائمًا.

- هل لمسني؟ هل لمسني اللعين؟!

قال الطبيب: «لا نعرف بعد. غالبًا لم يفعل، فقد خلع عنك سروالك ليمنعك من ملاحقته، وعلى الأرجح قد أخذ مسدسك لأنه كان معلقًا في حزامك».

رغم أن الرجل لم يأخذ قميصه، لكنه خلع عنه سترته الواقية. بدأ هيكس يبكي، وانطلق منه ريح رطب مُخجل. لم يشعر بهذا البؤس من قبل. صاح: «إلهي. إلهي. ماذا حدث للناس؟».

هز الطبيب سوفر رأسه وقال: «من يعرف فيمَ كان يُفكر هذا الرجل. ربما كان مُخدَّرًا أو مخمورًا. أو هو مختل رغب في تذكار فريد. دع الشرطة تبحث في الأمر، ولنُركز جهودنا معك».

- تذكار؟!

تخيل هيكس سرواله معلقًا على حائط تذكارات وحوله إطار. قال سوفر وهو ينظر خلفه عبر الحجرة: «أجل. أعتقد أن هذا السبب الوحيد الذي يدفع شخصًا إلى التسلل إلى هنا ومحاولة سرقة جثة قاتل متسلسل».

أدار هيكس رأسه، فأصابه دوار عنيف، لكنه رأى المحفة في منتصف الحجرة، وقد انتزع أحدهم الجثة عنها. أنَّ هيكس وأغمض عينيه.

سمع صوت حذاءين يهرعان عبر الممر، وفطن إلى أنها خطوات عمه الشبيهة بخطوات الإوزة. يبدو أن الأخير قد خرج من خلف مكتبه وهو غير مسرور بما حدث. لم يكن هناك سبب منطقي للخوف من الرجل، هيكس هو الضحية هنا. بحق المسيح، لقد أُهين! لكن خلف ملجئه الوحيد -ظلام جفنيه المغلقين- لم يقنعه منطق بما حدث. عمه جيم سيأتي ومعه إنذار آخر من العمل. لقد وجدوه دون سرواله، ولديه شعور أنه لن يعود إلى سروال العمل هذا مرة أخرى. كل شيء قد ضاع، أُخِذ منه في ظلام حجرة التشريح، الوظيفة الجيدة، أيام ساشا ومضاجعاتها، وهداياها من خزانة الصيدلية، والصور الغريبة مع الجثث. حتى سيارة أحلامه ذات فرش جلد الحمار قد ضاعت، إلا أن أحدًا لن يلاحظ هذا قبل ساعات، المعتوه الذي أفقده الوعي قد سرق مفاتيح السيارة وهرب بها.

كل شيء ضاع. كل شيء.

كل شيء ذهب مع العجوز الميت تشارلي مانكس، ولن يعود مرة أخرى.

الأم السيئة

16 ديسمبر 2011 - 6 يوليو 2012

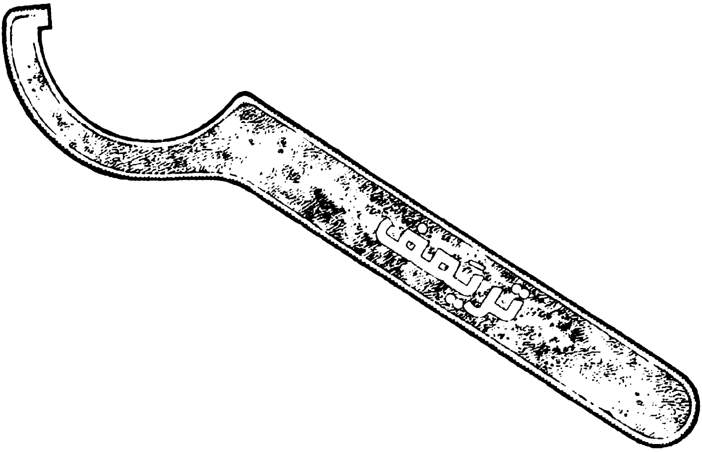

أحضر لُو الولد في زيارة احتفال مبكر بالكريسماس، كانت ڤيك في مصحة تأهيل تقضي أيام استشفائها الثمانية والعشرين. شجرة عيد الميلاد في حجرة الترفيه مصنوعة من الأسلاك والشرائط الملونة. جلس ثلاثتهم يأكلون الكعك المُحلى الرديء الذي يباع في المتجر.

سأل وُين، دون خجل، لم يكن يخجل من السؤال عن أي شيء: «هل كلهم هنا مجانين؟».

أجابت ڤيك: «كلهم مخمورون. المجانين في مكان آخر».

- وهل يعتبر هذا تحسنًا؟ أن تكون هنا وليس مع المجانين؟

- ارتقاءً اجتماعيًّا. الارتقاء الاجتماعي هو كل ما نطمح إليه في هذه العائلة.

هافِرهيل

أُطلِق سراح ڤيك بعد هذه الزيارة بأسبوع، وقد زال الكحول عن جسدها تمامًا لأول مرة في حياتها الراشدة. عادت إلى مسقط رأسها لتحضر وفاة أمها، وتشهد محاولات ليندا مَكوين البطولية لإنهاء حياتها.

ساعدتها ڤيك، فجلبت لها صناديق من سجائر فيرجينيا الرفيعة التي تفضلها، وراحت تدخنها معها. ظلت ليندا تدخن حتى بعد أن تبقى لها رئة واحدة في صدرها. جوار فراشها أسطوانة أكسجين منبعجة مخدوشة الطلاء، مطبوع على جانبها عبارة (قابل للاشتعال) فوق رسم لهب أحمر. ليندا تضع قناع الأكسجين على وجهها للحظات كل فترة لأجل بعض الهواء، ثم تخفضه وتمتص الدخان من سيجارتها.

أشارت ليندا بإبهامها إلى الأسطوانة وقالت: «الأمر آمن، أليس كذلك؟ ألا تخشين أن...».

سألتها ڤيك: «ماذا أخشى؟ أن تفجري حياتي؟ الوقت قد تأخر يا أمي، قد فجرتها أنا بنفسي».

لم تمضِ ڤيك يومًا كاملًا في المنزل نفسه مع أمها منذ تركته في الصيف الذي بلغت فيه الثامنة عشرة. لم تدرك في طفولتها كم كان منزلهم مظلمًا، هو مندس وسط أشجار الصنوبر الطويلة ولا يصل إلى داخله أي ضوء طبيعي، لذا فلا بد أن تضيء الأنوار الصناعية حتى في الظهيرة لترى موطئ قدميك. الآن، تفوح رائحته بدخان السجائر والبول. بحلول نهاية يناير، بدأت تتوق إلى الهرب. الظلام ورائحة الهواء النتنة تذكرها بكوَّة الغسيل في منزل تشارلي مانكس، بيت الزلاجة.

قالت ڤيك: «يجب أن نسافر إلى مكان ما في الصيف. يمكننا أن نؤجر مكانًا عند البحيرة كما كنا نفعل في الماضي. لدي مال».

لم تكن في حاجة إلى ذكر اسم بحيرة وينيبيسوكي، فقد كانت بالنسبة إليهم دومًا «البحيرة»، وكأنه ليس هناك سواها يستحق الذكر، بالطريقة نفسها التي كانت تعني بها كلمة «المدينة» مدينة بوسطن تحديدًا.

الحقيقة لم يكن معها مال يُذكر، لقد شربت بمدخراتها كلها تقريبًا، وما لم تشرب به، أنفقته على دفع الكفالات أو ارتياد المصحات. لكن ما تبقى سيكفل لها حياة أفضل من مدمني الكحول الآخرين ذوي الوشوم والسجلات الإجرامية. بل إن في وسعها كسب المزيد لو استطاعت إنهاء كتاب آخر من كتب «محرك البحث». أحيانًا كانت ترى أن وعيها قد عاد إليها فقط لتكمل الكتاب، أعانها الله. المفترض أن يكون الكتاب لابنها، لكنه لم يكن كذلك. هو لها.

ابتسمت ليندا تلك الابتسامة الناعسة الخبيثة التي تعني أن كلتيهما تعرف أنها لن تعيش حتى يونيو، وأنها ستقضي الصيف على بعد ثلاثة مجمعات سكنية، في المقابر، حيث دُفنت أخواتها الأكبر وأبواها. لكنها قالت: «بالتأكيد. ادعي لُو كذلك. أود أن أمضي بعض الوقت مع هذا الطفل... لو رأيتِ أنني لن أفسده طبعًا».

تغاضت ڤيك عن هذا، هي تنفذ الخطوة الثامنة من برنامج استشفائها لتعوِّض ما فاتها من علاقات أسرية. لسنوات لم تشأ أن تعرف أمها بشأن وُين، ولا أن تكون جزءًا من حياته. استمتعت بإبعاد أمها عن ابنها، شاعرة أن واجبها أن تحمي وُين من ليندا. تمنت لو أن هناك وسيلة لحماية ابنها من نفسها الآن. ثمة ترضيات أسرية تجاهه هو الآخر.

قالت ليندا: «يمكن أن تُعرِّفي أباك على ابنك في الصيف. هو هنا الآن، في دوفر. ليس بعيدًا عن البحيرة. ما زال يفجر الأشياء. أعرف أنه سيود أن يتعرف إلى الولد».

تغاضت ڤيك عن ذلك أيضًا. أيجب عليها أن تعوض علاقتها الأسرية بكريستوفر مَكوين كذلك؟ أحيانًا يخطر ذلك على بالها، ثم تتذكره وهو يغسل يديه الداميتين تحت ماء الصنبور، فتطرد هذا الخاطر.

استمر المطر طيلة الربيع، محاصرًا ڤيك في منزل هافِرهيل مع المرأة المحتضرة. أحيانًا تضرب الأمطار بقوة فتشعر كأنها محبوسة داخل طبلة. ليندا تسعل كتل بلغم دامية، وتبصقها في وعاء مطاطي وهي تشاهد برامج الطبخ بصوت عالٍ.

الهرب من كل هذا مسألة حياة أو موت. حين تغمض عينيها ترى امتداد البحيرة تحت شمس المغيب. يعاسيب في حجم السنونو تحوِّم فوق سطح الماء.

لكنها لم تقرر أن تستأجر مكانًا قرب البحيرة إلا عندما اتصل بها لُو في ليلة من كلورادو، مقترحًا أن يمضي وُين الصيف معها.

قال لُو: «الولد يحتاج أمه. ألا تظنين أن الوقت مناسب؟».

أجابته محاولة أن تُبقي صوتها منخفضًا: «أود ذلك...».

مضت ثلاثة أعوام منذ رافقت لُو آخر مرة، وآلمها أن يحبها إلى هذه الدرجة، وهي تعامله بجفاء هكذا. يجب أن تتصرف مع نفسها.

قال لُو إن الولد يحتاج أمه، لكنها تظن أنها هي من تحتاج إلى وُين. فكرة أن تمضي الصيف معه، وأن تبدأ من جديد محاولةً أن تصير الأم التي يستحقها وُين، فكرة أرعبتها، ومنحتها أملًا براقًا في الوقت نفسه. لا تحب هذه المشاعر الحادة، وقد ذكَّرها هذا أنها مجنونة.

قالت للُو: «هل ستطمئن إلى مرافقتي له؟ بعد كل الهراء الذي فعلت؟».

- يا صاح! أنت مستعدة للعودة إلى الحَلَبة، وهو كذلك مستعد لمشاركتك المباراة.

لم تذكر للُو أنه حين يدخل الناس الحَلَبة، فهم بالضرورة سيحاولون إنهاء حياة بعضهم بعضًا. ربما لم يكن هذا التشبيه منفرًا إلى هذا الحد. يعلم الله أن وُين ربما يكيل لها اللكمات حتى تفيق. لو احتاج وُين إلى كيس ملاكمة، فڤيك مستعدة لأداء هذا الدور، سيكون هذا تعويضًا أسريًّا بشكل ما.

لكم أحبت عبارة التعويض الأسري هذه، وقد ذكَّرتها بالأمل في تعويض الله لها عما فات.

بدأت البحث عن مكان يصلح لقضاء الصيف. مكان يشبه الصورة في مخيلتها. لو أن معها الدراجة الرالي، لوجدت المكان المثالي خلال دقائق.

رحلة سريعة عبر الطريق المُختصر ثم تعود. بالطبع هي تعرف أن كل تلك الرحلات لم تكن سوى وهم.

عرفت الحقيقة وراء رحلاتها الاستكشافية في أثناء استشفائها في مستشفى كلورادو للصحة العقلية. عقلها كان واهيًا كفراشة بين كفيها، تحملها معها في كل مكان، تخشى ما سيحدث لو أطلقتها... أو بالخطأ سحقتها.

من دون الطريق المُختصر، اضطرت ڤيك إلى الاعتماد على جوجل مثل أي شخص آخر. ظلت تبحث حتى نهاية أبريل إلى أن وجدت منزلًا ريفيًّا منفردًا حوله مائة ياردة من المساحة الخالية، مع مرفأ خاص وقارب بمرأبه. المنزل مؤلف من طابق واحد، ولن تحتاج ليندا إلى صعود الدرجات. أدركت أنها ما زالت تخطط الأمر على أن أمها ستصحبها، وأن هذا التعويض سينجح حتى النهاية، حتى إنها سُرَّت لوجود مدخل منحدر عند الباب الخلفي يصلح لصعود مقعد ليندا المتحرك.

أرسل عميل شركة التسويق العقاري العشرات من المنشورات الدعائية البراقة، فجلست جوار أمها في الفراش تعرضها عليها.

- انظري إلى مرأب القارب؟ سأنظفه وأحوله إلى استوديو رسم. أراهن أن الهواء رائع نقي هناك. له عبق التبن والخيول. لا أعرف لماذا لم أمُر بمرحلة حب الخيول. أعتقد أنها مرحلة طبيعية تمر بها كل فتاة مدللة.

- أنا وكريس لم نقتل أنفسنا في محاولة تدليلك يا ڤيكي. لكم كنت أخشى ذلك، والآن لا أظن أن في وسع أي أم أن تفسد ابنتها بالدلال. اكتشفت هذا بعد أن فات أوان فعل أي شيء. لا أظنني كنت أليق في دور الأم. كنت مذعورة من أن أخطئ إلى حد أنني لم أفعل أي شيء صحيح.

كررت ڤيك عدة عبارات محفوظة في عقلها على غرار: «لقد كنا أنا وأنت واحدًا. أنت بذلت كل ما في وسعك، وهذا ما لم أفعله أنا معك. لقد أحببتِ بقدر ما عرفتِ عن الحب. سأضحي بأي شيء لأعود إلى الماضي وأحبك أكثر». لكن أي من تلك العبارات لم تصل إلى حلقها... ومرَّت اللحظة المناسبة لقول أي شيء.

قالت ليندا: «على أي حال. لم تكوني في حاجة إلى حصان، كانت لديك دراجتك. دراجة ڤيك مَكوين الرهيبة التي سافرت بك أبعد من قدرة أي حصان.

أتعرفين أنني قد بحثت عنها منذ عامين تقريبًا؟ ظننت أن والدك قد أودعها القبو، وفكرت أن أهديها لوُين لو وجدتها. لطالما كنت أراها دراجة صبيان. لكنها اختفت، ولا أعرف أين ذهبت».

صمتت، وعيناها نصف مفتوحتين. أراحتها ڤيك على الفراش، وقبل أن تصل إلى الباب، سمعت صوت أمها تقول: «أنت لا تعرفين ما حدث لها يا ڤيك، أليس كذلك؟ أعني الدراجة؟».

هناك شيء خبيث خطر في صوتها.

- لقد اختفت. هذا كل ما أعرف.

قالت أمها: «أعجبني منزل البحيرة. لقد عثرت على مكان رائع يا ڤيك. لطالما كنت أعرف هذا، أنت بارعة في العثور على الأشياء».

تقلصت منابت الشعيرات على ذراعَي ڤيك. قالت وهي تتجه نحو الباب: «استريحي يا أمي. مسرورة أن المكان قد أعجبك. يمكنني أن أصحبك إلى هناك قريبًا. سيكون لنا في الصيف بعد أن أوقع العقود. لا بد أن نقضي يومين هناك، فقط أنا وأنت».

- بالطبع. وسنتوقف عند تيري ونشتري لنا مشروبَي حليب مخفوق.

بدت الحجرة المعتمة كأنما ازدادت عتمة للحظة، كأن سحابة حجبت عنها الشمس.

قالت ڤيك بصوت مُثقل: «العصير المثلج. لو كنت تريدين الحليب المخفوق فيمكننا الذهاب إلى مكان آخر».

أومأت أمها ثم قالت: «أجل. هذا صحيح».

- في نهاية الأسبوع. سنذهب إلى هناك في نهاية هذا الأسبوع.

قالت أمها: «عليكِ أن تتحققي من مواعيدي، ربما يكون لدي خطط أخرى».

توقف المطر في الصباح التالي، وبدلًا من أن تصحب ڤيك أمها إلى البحيرة، نقلتها إلى المقابر ودفنتها تحت سماء الأول من مايو الزرقاء الحارة.

اتصلت بلُو في الساعة الواحدة صباحًا بتوقيت الساحل الشرقي، والحادية عشرة بتوقيت جبال روكي، وقالت: «ماذا تظن أنه سيرغب في فعله؟ العطلة شهران، ولا أظنني قادرة على تسلية وُين يومين».

بدا لُو متفاجئًا من السؤال.

- هو في الثانية عشرة، لطيف المعشر. أنا متأكد أنه سيحب كل الأشياء التي تحبينها. ماذا تحبين؟

- ويسكي ميكرز مارك.

همهم لُو ثم قال: «أتعرفين؟ أعتقد أنني كنت أفكر في شيء مثل التنس مثلًا».

اشترت مضربَي تنس، ولم تكن تعرف إن كان وُين يمارس تلك اللعبة. لقد مر وقت طويل منذ لعِبتها هي، حتى نست كل شيء عنها. لكنها كانت تعرف أنها حتى لو لم تملك أي شيء فهي تملك الحب.

اشترت كذلك ملابس سباحة، وأخفافًا، ونظارات شمسية، وقرصًا طائرًا، كما اشترت لوشن واقيًا من أشعة الشمس، وأملت أنه لن يرغب في أن يمضي وقتًا طويلًا في الشمس.

خلال فترة تنقُّل ڤيك بين المصحات ومستشفيات الأمراض العقلية، غطت ساقيها وذراعيها بالكامل بالوشوم، والشمس ستؤثر سلبًا في الحبر.

افترضت أن لُو سيوصِّل الولد إلى الساحل الشرقي، لكنها فوجئت أنه يعطيها رقم الطائرة التي سيستقلها وُين، وطلب منها أن تتصل به حين يصل.

- هل سافر وحده من قبل؟

أجاب لُو: «لم يسافر مطلقًا بالطائرة، لكنني لن أقلق عليه. يا صاح، الولد بارع في الاعتناء بنفسه منذ وقت لا بأس به. يبدو كأنه في الثانية عشرة، وفي طريقه إلى الخمسين! أظنه متحمسًا لركوب الطائرة أكثر من حماسه للوصول».

تلت عبارته لحظات صمت مُحرج، ثم أضاف لُو: «آسف. جاء ما قلت أكثر فظاظة مما انتويت».

- لا بأس يا لُو.

لم يضايقها هذا. هي لن تغضب أبدًا من شيء يقوله لُو أو وُين. كانت تعرف أن علاقتها بابنها ستكون على هذا النحو، لقد كرهت أمها طيلة هذه الأعوام ولم تتخيل أنها ستفوقها سوءًا.

- بالإضافة إلى أنه لن يسافر وحده، هوبر سيكون معه.

- حسنًا. ماذا يحب أن يأكل هوبر؟

- غالبًا يأكل أي شيء على الأرض، جهاز التحكم عن بعد، سروالك الداخلي، البساط. هو يشبه قرش النمر في فيلم (الفك المفترس)، ذلك الذي وجدوا في بطنه لوحة أرقام سيارات. لذا أسميناه هوبر.

- أنا لم أشاهد الفك المفترس من قبل، لكنني شاهدت واحدًا من الأفلام من السلسلة نفسها بطولة مايكل كين.

ساد الصمت فترة أخرى، صمت، تعجُّب، ثم قال لُو: «إلهي. لا عجب أن علاقتنا لم تستمر».

بعد ثلاثة أيام، ذهبَت إلى مطار لوجان في السادسة صباحًا، ووقفت في البهو تنتظر وصول ابنها. خرج الركاب من النفق وعبروا جوارها، يهرعون صامتين، ثم بدأ الزحام يخف، وحاولت ألا تقلق... لكن أين الولد بحق الجحيم؟ هل أعطاها لُو رقم الطائرة الصحيح؟ لم يصبح وُين في عهدتها حتى الآن، لكنها أخفقت بالفعل... ظهر الصبي، يلف ذراعيه حول حقيبته كأنها دميته المحشوة المفضلة. أسقطها على الأرض، فعانقته وظلت تمسح وجهها في أذنه وعنقه حتى ضحك وترجاها أن تطلق سراحه.

سألته: «هل أعجبك السفر بالطائرة؟».

- أعجبني حتى إنني نمت بمجرد أن أقلعنا، ولم أدرِ بشيء من الرحلة كلها. منذ عشر دقائق كنت في كلورادو، والآن أنا هنا. أليس هذا جنونًا؟ أن نقطع كل هذه المسافة بهذه السرعة؟

قالت: «هذا جنون حقًّا!».

كان هوبر في قفص كلاب في حجم مهد طفل، وقد تعاونا في إخراجه من بطن الطائرة. في داخل القفص، لمحت ڤيك بقايا دليل هاتف ممزق تحت قدميه.

سألت ڤيك: «ما هذا؟ غداؤه؟».

- يحب أن يقضم الأشياء حين يكون متوترًا. مثلك.

انتقلا بالسيارة إلى منزل ليندا ليتناولا الغداء المكون من شطائر الديك الرومي، بينما أكل هوبر علبة من طعام الكلاب، وفردة من الأخفاف الجديدة، ومضرب تنس ڤيك، حتى لم يتبق منه إلا البلاستيك.

حتى والنوافذ مفتوحة، رائحة البيت مزيج من الدخان والنعناع والدم. لم تستطع ڤيك الانتظار أكثر من ذلك، فحزمت ملابس السباحة، وأوراقها المقوَّاة والأحبار والألوان المائية والكلب والولد الذي أحبته لكنها تخشى أنها لا تعرفه ولا تستحقه، وانطلقت إلى الشمال لقضاء عطلة الصيف.

ڤيك مكوين تحاول أن تكون أمًّا - الجزء الثاني.

والدراجة البخارية «تِريَمف» تنتظر...

بحيرة وينيبيسوكي

في الصباح الذي وجد فيه وُين الدراجة البخارية من ماركة تِريَمف، كانت ڤيك عند المرفأ تحاول فك تشابك خيطَي سنارتين. كانت قد اكتشفت السنارتين في خزانة في المنزل، وكانتا من بقايا فترة الثمانينيات. ظنت ڤيك أنها رأت صندوق معدات في البيت فأرسلت وُين ليبحث عنه.

جلست عند نهاية المرفأ، وقد خلعت حذاءيها وجوربيها وراحت تعبث بقدميها في المياه، وتصارع العُقَد في الخيط. حين كانت تتعاطى الكوكايين -أجل تعاطته فترة- كان يمكنها أن تمضي ساعة في حل عقد وتستمتع بهذا العمل كأنها تمارس الحب. بعد خمس دقائق استسلمت. لا داعي للتعب. لا بد أن هناك سكينًا في صندوق المعدات. عليك أن تعرف متى تتوقف عن حل العقد وتقطعها.

الطريقة التي ينعكس بها ضوء الشمس على الماء تؤلم عينيها، خاصة اليسرى. عينها اليسرى ثقيلة جافة كأنها صُنعت من رصاص لا من نسيج طري.

تمددت ڤيك في الحر، تنتظر عودة وُين. أرادت أن تغفو، لكن في كل مرة تغيب فيها عن الوعي، تستيقظ بغتة وتسمع أغنية الفتاة المجنونة تصدح في أذنيها.

سمعت ڤيك أغنية الفتاة المجنونة لأول مرة وهي في المصحة العقلية في دينڤر، وهو المكان الذي ذهبت إليه بعدما أحرقت بيتها.

أغنية الفتاة المجنونة خمسة أبيات فقط، لكن أحدًا -حتى بوب ديلَن، أو جون لينون، أو بَيرون كيتس- لم يستطع أن يخط في قوتها ومباشرتها.

لا ينام أحد لحظة وأنا أغني تلك الأغنية.

ولسوف أغنيها طيلة الليل!

تمنَّت ڤيك لو تركب دراجتها اللعينة وتهرب بها.

ربما تمنَّت كذلك أن تركب زلاجة سانتا!

أبقتها تلك الأغنية مستيقظة في أولى لياليها في المصحة. امرأة كانت تغنيها في مكان ما في الحبس، ولم تكن تغنيها لنفسها، بل كانت تخاطب ڤيك مباشرة.

ظلت الفتاة المجنونة تصرخ بأغنيتها هذه ثلاث أو أربع مرات في الليلة، عادة وقتما تنزلق ڤيك إلى النوم. أحيانًا أخرى كانت الفتاة تضحك وسط الغناء حتى تعجز عن إكمال اللحن بشكل صحيح.

كانت ڤيك تصرخ أحيانًا كذلك، تصرخ طالبة العون من أحد لإخراس تلك العاهرة. تصرخ حتى يأتي الممرضون ويحقنوها بالمهدئات.

في النهار، ڤيك تمسح وجوه المرضى بحثًا عن آثار الإجهاد أو الشعور بالذنب. في أثناء حضور مجموعات العلاج، تنصت إلى الآخرين منتبهة، وتظن أن الفاعل سيُفضح بسبب صوته المبحوح من كثرة الصراخ، إلا أن للجميع صوتًا مبحوحًا من الليالي الصعبة، ومن القهوة الرديئة، ومن السجائر.

ثم جاءت الليلة التي لم تسمع فيها ڤيك الفتاة المجنونة تغني. اعتقدت أنهم قد نقلوها إلى جناح آخر رأفةً بحال المرضى الآخرين. عرفت ڤيك من تكون الفتاة المجنونة بعدما خرجت من المستشفى بستة أشهر.

سألها وُين: «هل الدراجة البخارية في المرأب ملكك؟».

وقبل أن تهضم السؤال، أضاف: «ماذا كنت تغنين؟».

لم تعِ أنها كانت تهمس كلمات الأغنية حتى تلك اللحظة. بدت لها حين غنتها بصوت هامس أفضل بكثير عن غنائها لها وهي تصرخ وتضحك في حجرتها في مستشفى المجانين.

جلست ڤيك ومسحت وجهها.

- لا أعرف. لا شيء.

نظر إليها وُين نظرة شك.

كان قد جاءها عند المرفأ بخطوات ثقيلة -هوبر يتبعه كدب أليف كسول- وهو يحمل بكلتا ذراعيه صندوقًا أصفر. عند ثلث الطريق، سقط منه مُحدِثًا دويًّا على الأرض الخشبية واهتز المرفأ.

- أحضرت صندوق المعدات.

- هذا ليس صندوق المعدات.

- أخبرتِني أن أبحث عن صندوق بُني.

- لكن هذا أصفر.

- وبه بقع بنية.

- بقع صدأ بنية.

- ثم؟ الصدأ بُني.

فتح وُين الصندوق وحدق إلى محتوياته. قالت ڤيك: «خطأ بسيط».

أخرج أداة غريبة منه وهو يقول: «أداة صيد؟».

بدت كنصل منجل غير حاد، صغير في حجم كفه.

- تبدو كخطاف.

عرفت ڤيك ماذا يكون، رغم مرور أعوام منذ رأت واحدة. ثم سجَّلت في ذاكرتها ما قال وُين حين اقترب من المرفأ في البداية.

- دعني أرى هذا الصندوق.

أدارته نحوها لتنظر إلى مفاتيح الربط الصدئة، وصمامات ضغط الهواء، والمفتاح القديم ذي الرأس المستطيل، وكلمة «تِريَمف» المحفورة عليه.

- أين وجدت هذا؟

- كان فوق مقعد الدراجة البخارية. هل استأجرت المنزل بالدراجة؟

- أرِني أين هي.

سقيفة العربات

دخلت ڤيك سقيفة العربات مرة واحدة حين جاءت تعاين المنزل، وتحدثت مع أمها عن تنظيف المكان وتحويله إلى استوديو رسم، لكن حتى الآن، لم تخرج أدوات الرسم خاصتها من حدود حجرة النوم، وظلت السقيفة على حالها منذ وصلت.

الحجرة طويلة، تكتظ بالخردة حتى يعجز المرء عن السير إلى حائطها المقابل في خط مستقيم. هناك عدة أكشاك حيث كانت تبيت الخيول التي تجر العربات في الماضي. أحبت ڤيك رائحة المكان الذي هو خليط من عبق الجازولين، والتراب، والتبن القديم الجاف، والأخشاب التي شُويت تحت لهيب الشمس لثمانين عامًا.

لو كانت ڤيك في عمر وُين، لعاشت وسط ألواح سقفه، جوار الحمَامات والسناجب. لا يبدو أن هذا ذوق وُين، هو لا يتفاعل مع الطبيعة، فقط يلتقط لها بعض الصور بهاتفه «آي فون» ثم ينحني نحو شاشته محدقًا إليها. أفضل ما يحب في منزل البحيرة هذا هو وجود إنترنت هوائي.

لم تكن المشكلة في حبه للبقاء داخل المنزل، بل بالبقاء داخل هاتفه، ملجؤه من العالم الذي فيه أم مدمنة مجنونة، وأب يزن ثلاثمائة باوند، لم يكمل تعليمه ويعمل في إصلاح السيارات، ويرتدي زي «آيرون مان» لحضور مهرجانات الروايات المصورة.

الدراجة البخارية تقف عند نهاية سقيفة العربات، وقد غطوها بقطعة قماش مبقعة بالطلاء، لكن هيئتها ما زالت واضحة. لاحظتها ڤيك فورًا وتعجبت كيف لم ترها من قبل حين نظرت إلى الداخل أول مرة.

لكن تعجبها لم يدم أكثر من لحظة، لا أحد يعرف أكثر من ڤيك مَكوين كيف تختفي الأشياء المهمة عن النظر وسط الزحام. المكان كله يبدو كمشهد قد ترسمه في قصص «محرك البحث». جِد طريقًا إلى الدراجة البخارية وسط متاهة الخردة دون أن تخطو فوق فخ. لا مهرب! الحقيقة أن المشهد كان لا بأس به، ويستحق الرسم لاحقًا. لا يمكن أن تفوِّت أي فكرة جيدة. هل يمكن لأي شخص أن يتجاهل شيئًا كهذا؟

ترتدي الدراجة معطفًا من نشارة الخشب الناعمة بسمك ربع بوصة. المقود والعدادات مغطاة بشباك العناكب. يتدلى المصباح الأمامي من مكانه ولا يربطه إليه سوى الأسلاك. تحت التراب، يظهر خزان الوقود مطليًّا باللونين الأرجواني والأسود، وكلمة «ترِيَمف» محفورة على معدنه.

بدت كدراجة بخارية من فيلم قديم، ليس كأفلام راكبي الدراجات التي تعج بالنهود العارية، بل الأفلام الأقدم الأكثر تحفظًا، أفلام الأبيض والأسود التي تدور حول السباقات والتحدث عن الرجال الحقيقيين.

وأحبت ڤيك تلك الدراجة.

مرر وُين كفه على المقعد، ثم نظر إلى التراب عليها وقال: «هل يمكن أن نحتفظ بها؟».

كأنه يتحدث عن قط ضال.

بالطبع لا يمكنهم الاحتفاظ بها. ليست ملكهم، بل ملك السيدة العجوز التي تؤجر المكان.

ومع ذلك...

ومع ذلك، شعرت ڤيك أن الدراجة دراجتها بشكل ما. قالت: «أشك أنها تعمل».

- ثم؟

وأضاف كأي طفل واثق بالثانية عشرة: «أصلِحيها. يمكن أن يخبرك أبي كيف تصلحينها».

- هو قد علمني بالفعل.

لثمانية أعوام، حاولت أن تكون فتاة لُو. لم يكن الأمر مسليًا أو سهلًا، لكنها قضت أيامًا سعيدة في مرأب التصليح حيث لُو يصلح الدراجات البخارية

وڤيك ترسم عليها، وهما يسمعان الأغاني في المذياع ويجرعان البيرة المثلجة. كانت تجول بين الدراجات معه، وتسأله. علمها كل شيء عن أجزائها، وقد أحبَّت وجودها معه وأحبَّت أنها كانت أقرب لطبيعتها.

سألها وُين مجددًا: «هل تظنين أن في وسعنا الاحتفاظ بها؟».

- سأسأل صاحبة المنزل إن كانت تود بيعها.

قال: «أراهن أنها ستود ذلك».

ثم خطَّ على الغبار كلمة «دراجتنا»، وأضاف: «أي نوع من العجائز قد تحب وضع مؤخرتها السمينة فوق دراجة كهذه؟».

- نوع كنوعي!

ثم مدت يدها ومسحت الكلمة، فتطاير الغبار معلقًا وسط أشعة الشمس. ثم كتبت ڤيك على المقعد بإصبعها «دراجتي». أخرج وُين هاتفه المحمول، والتقط صورة.

هافِرهيل

في كل يوم بعد الغداء، يستخلص سيجموند دي زوت لنفسه ساعة يطلي فيها مجسمات الجنود الصغيرة. كانت هذه هي ساعته المفضلة. يستمع إلى أوبرا برلين تعزف مقطوعة فوربيشر «كلاود أتلس»، ويطلي خوذات الجنود، ومعاطفهم، وأقنعة الغاز التي تغطي وجوههم. لديه مصغر لساحة معركة تبين الأرض المعجونة بالدماء، والأشجار المحترقة، والأسلاك الشائكة، والقتلى.

سيجموند فخور بتلوينه الدقيق للأزرار النحاسية، ورسم بقع الصدأ على الخوذات. هو يؤمن أنه إن لوَّن جنوده بدقة، فقد تدب فيهم الحياة في أي لحظة، وينضمون إلى خطوط دفاع الفرنسيين.

كان يلونهم حين حدثت المعجزة أخيرًا، وتحركوا!

كان يطلي جنديًا جريحًا، وكان الرجل الصغير يضع يده على جرح في صدره، ويفتح فمه صارخًا. حملت فرشاة سيجموند قطرة من اللون الأحمر على طرفها، وقد قصد أن يلون بها أطراف أصابع الجندي، لكن قبل أن يفعل، أجفل الجندي.

اتسعت عينا سيجموند وهو يحدق إلى الجندي الذي لا يجاوز طوله نصف بوصة. اقترب منه بطرف الفرشاة مرة أخرى تحت ضوء الكشاف، ومرة أخرى أجفل.

حاول سجموند مرة ثالثة -*اثبت يا بن العاهرة*- لكنه أخفق تمامًا. لم يكن هذا الجندي فقط من يتحرك، بل كلهم. تحركوا متمايلين كلهب الشمع نحو بعضهم بعضًا.

حكَّ سيجموند جبهته بكفه، ماسحًا العرق الحار. شهق بعمق فشم رائحة كحك الزنجبيل.

أنا أعاني جلطة دماغية... ردد هذه الجملة في عقله بالألمانية، لم تكن الإنجليزية تطاوعه حتى وهي اللغة التي يتحدثها منذ كان طفلًا في الخامسة.

ارتكن على طرف الطاولة وحاول أن يدفع نفسه كي يقوم، لكنه سقط. ضرب سيجموند الأرض الخشبية بجسده، وشعر بشيء يُكسر عند عظام الحوض. ارتج المنزل كله من قوة سقطته، وفكر مرة أخرى -بالألمانية أيضًا-: *هذا سيقلق جيزيل*.

ناداها بالألمانية، لكنه شعر أن ما قال ليس صحيحًا. هي لن تفهم الألمانية، فصاح: «جيزيل! لقد سقطت!».

لم تأتِ، ولم تستجب بأي طريقة. فكر فيما يمكنها أن تفعله ويمنعها من سماع كل هذه الجلبة، ثم تساءل إن كانت بالخارج مع عامل إصلاح التكييف.

جاء العامل -وهو رجل أخرق اسمه بينج- واستبدل ملف المُكثِّف، كإجراء روتيني من شركة صيانة التكييف.

صار تفكير سيجموند أكثر صفاءً وهو ممدد بالأسفل. تذكر حين كان جالسًا على المقعد أن الهواء صار ذا رائحة غريبة، وازدادت درجة الحرارة، بعدها أصيب بدوار مع مباغتة رائحة كعك الزنجبيل لأنفه. بالأسفل، قرب الأرض، الهواء أبرد، وأكثر نقاء. رأى مفكًّا كان قد فقده منذ أشهر، وغطته كرات الغبار أسفل المكتب.

كُسر مفصل فخذه. هذا مؤكد. يستطيع الشعور بحرارة الكسر أسفل جلده. لكنه فكَّر أنه إن استطاع أن يقف على ساق واحدة، فيمكنه استخدام المقعد كعكاز حتى يخرج من الحجرة إلى الصالة.

ربما يستطيع أن يصل إلى باب المنزل وينادي عامل التكييف، أو ڤيك مَكوين عبر الشارع. لكن لا. ڤيكي في مكان ما من نيو هامبشير مع ابنها. لو استطاع أن يصل إلى الصالة، فالأفضل أن يتصل بالطوارئ، ويأمل أن تجده جيزيل قبل أن تصل سيارة الإسعاف. هو لا يرغب في إفزاعها أكثر من اللازم.

مد سيجموند ذراعه النحيلة إلى المقعد، وحاول أن يقوم مخففًا الحمل عن ساقة اليسرى، لكنها كانت تؤلمه على أي حال. سمع صوت عظمة تتحرك من مكانها.

صرخ مرة أخرى فخرج الصوت كزئير من حنجرته: «جيزيل! اللعنة... جيزيل!».

مال على المقعد، كل يد تقبض على ناحية منه، ثم أخذ شهيقًا عميقًا متقطعًا... استنشق رائحة كعك الكريسماس مرة أخرى. أجفل، الرائحة قوية للغاية، ونقية.

هذه جلطة مخية. هذا ما يحدث حين تسد الجلطة شرايين المخ، فيخرِّف وتشم روائح وهمية بينما يذوب العالم من حولك كما تذوب الثلوج متحولة إلى بركة وحل.

أدار نفسه ليواجه الباب الذي يبعد أقل من اثنتي عشرة خطوة، والذي كان مفتوحًا عن آخره. تعجب كيف لم تسمع جيزيل صرخاته لو أنها في أي مكان من المنزل. إما أنها بالخارج مع عامل التكييف، وإما تتسوق، وإما ماتت.

فكَّر مرة أخرى في ترتيب هذه الاحتمالات التي خطرت بباله عن زوجته -بالخارج مع عامل التكييف، تتسوق، ماتت- واكتشف أن الاحتمال الأخير ليس أقلهم ورودًا.

رفع المقعد ربع بوصة عن الأرض، حركه إلى الأمام، أنزله على الأرض، قفز نحوه. والآن بعد أن وقف، غام ذهنه مرة أخرى، وانجرفت أفكاره كريش إوزة تحمله نسمات دافئة.

دارت في عقله كلمات أغنية: «*كان هناك امرأة عجوز ابتلعت ذبابة. لا أعرف لماذا ابتلعت الذبابة... ربما ستموت!*». علا صوت الأغنية وتضخم أكثر فأكثر، حتى لم تعد تدور بين أسوار عقله، بل فرَّت وملأت الهواء حوله.

«*كان هناك امرأة عجوز ابتلعت عنكبوتًا، راح يرفس ويتململ ويقفز داخلها*». الصوت الذي يغني رفيع، نغماته نشاز. صوت أجوف كأنه يأتي من مسافة طويلة، عبر ممر التهوية.

نظر سيجموند إلى الأمام، فرأى رجلًا يرتدي قناع غاز يمر من أمام الباب وهو يجر سيدة ذات شعر أشقر، ولم يبد أن جيزيل تمانع. كانت ترتدي فستانًا وحذاءين باللون الأزرق، لكن مع الجر، انخلعت إحدى فردتَي الحذاء. رجل قناع الغاز يلف شعرها الذي يشوبه الشيب حول قبضته. عيناها مغلقتان، ووجهها هادئ.

أدار رجل قناع الغاز رأسه ونظر إليه. لم يرَ سيجموند شيئًا بهذه البشاعة. كان يبدو كفيلم خيال علمي خلط فيه عالم مجنون جيناته بجينات ذبابة. رأس الرجل عبارة عن كرة مطاطية ذات عدستين مكان العينين، وصمام غريب مكان الفم.

ثمة شيء غريب في عقل سيجموند. شيء ربما يكون أبشع من جلطة. هل يمكن أن تجعلك الجلطات تهلوس؟ واحد من الجنود الذي كان يطليهم قد هرب واختطف امرأته. ربما احتل الجنود هافِرهيل وقصفوا الشارع بقنابل غاز الخردل. لكن الرائحة لا تشبه الخردل. هذه رائحة كعك.

رفع رجل قناع الغاز إصبعًا ليُبين أنه سيعود سريعًا، ثم سحب جيزيل من شعرها واستكمل أغنيته.

«*كان هناك امرأة عجوز ابتلعت نعجة. فقط فتحت فمها وابتلعت النعجة. يا لها من عاهرة جشعة!*».

تعثر فوق المقعد. لا يشعر بساقيه. رفع كفه يمسح العرق عن وجهه، لكنه ضرب عينه.

صوت حذاءين يقرعان خشب الأرضية.

احتاج سيجموند إلى قوة هائلة ليرفع رأسه، كأنه يحمل فوقه كومة حديدًا بوزن عشرين رطلًا.

رجل الغاز يقف واضعًا قبضتيه على جانبَي خصره أمام مجسم ساحة الحرب، ينظر إلى الخراب الذي يحيطه سور السلك الشائك. أخيرًا تعرَّف سيجموند على ملابس الرجل، هو يرتدي زي عامل صيانة التكييفات، المبقع بالشحم.

قال رجل قناع الغاز: «رجال صغار! أنا أحب الرجال الصغار!».

ثم بدأ يغني: «فوق الجبال العالية، وداخل الوديان المسكونة بالعفريت المكَّار، لا يجرؤ أيُّنا على الصيد، خوفًا من الرجال الصغار!».

ثم نظر إلى سيجموند وأضاف: «السيد مانكس يقول إنني أفضل من ينشد كلامًا مُقفًّى. أنا أظنني شاعرًا بالفطرة، حتى لم أكن أعرف هذا. كم عمر زوجتك يا سيدي؟».

ليس لدى سيجموند نية للرد. هو فقط يريد أن يسأل عما فعل عامل الصيانة في زوجته، لكنه قال بدلًا عن السؤال: «تزوجتها عام 1976. زوجتي في التاسعة والخمسين. أصغر مني بخمسة عشر عام».

- أيها الكلب! أنت تفضل الصغيرات، هه؟ لديك أولاد؟

- كلا. رأسي كعش نمل.

قال رجل قناع الغاز: «هذا تأثير السيفوفلورين. ضخخته عبر جهاز التكييف. أستطيع أن أؤكد بالفعل أن زوجتك لم تنجب من قبل. اعتصرت هذين الثديين المشدودين، وأستطيع أن أؤكد هذا. النساء اللاتي أنجبن من قبل ليس لديهن هذان الثديان».

سأله سيجموند: «لماذا تفعل ذلك؟ لماذا أتيت؟».

- أنت تسكن أمام منزل ڤيك مَكوين، ولديك مرأب يتسع لسيارتين، لكنك لا تملك سوى واحدة.

أضاف: «حين يصل السيد مانكس بسيارته، سيجد مكانًا يوقفها فيه. عجلات *الشبح تدور وتدور وتدور وتدور*. عجلات *الشبح تدور وتدور وتدور وتدور طيلة اليوم*».

وعى سيجموند إلى سلسلة أصوات متتالية، فحيح، خمش، ارتطام. كلها تتكرر. بدا أن الصوت قادم من داخل رأسه بالطريقة نفسها التي بدت بها أغنية رجل قناع الغاز آتية من عقله هو. أصوات الفحيح والخمش والارتطام هي ما حلت محل أفكاره الآن.

نظر إليه رجل قناع الغاز وقال: «والآن، يبدو أن ڤيكتوريا مَكوين صار لديها ثديا أُم رائعان. أنت رأيتهما بالتأكيد، ما رأيك فيهما؟».

نظر سيجموند إليه. كان يعرف ما يسأل عنه رجل قناع الغاز، لكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية إجابة سؤال كهذا. عادت ڤيك مَكوين في ذهن سيجموند إلى عمر الثامنة. مجرد فتاة تركب دراجة صبيان. الطفلة التي كانت تزوره لتلون مجسمات الجنود الصغيرة بشغف بالغ، وهي تضيق عينيها كأنما تحدق عبر نفق، تحاول أن تتبين ما عند نهايته.

سأله رجل قناع الغاز: «منزلها هو ذاك الذي أمام منزلك، أليس كذلك؟».

انتوى سيجموند ألا يجيبه. انتوى ألا يعاونه. كلمة «يعاونه» هي الكلمة التي خطرت ببال سيجموند بدلًا عن كلمة «يتعاون معه»، ثم سمع نفسه يقول: «أجل. لماذا أجبت سؤالك؟ لستُ مُعاوِنًا».

أجاب رجل قناع الغاز: «هذا أيضًا من تأثير السيفوفلورين. لن تصدق ما يخبرني به الناس بعدما أمنحهم القليل من غاز كعك الزنجبيل الجميل هذا. صرَّحت لي امرأة جاوزت الرابعة والستين أنها لم تشعر بالنشوة قط إلا من خلال الضرب. تخيل، الرابعة والستين؟!».

ضحك ضحكة طفل بريء. بذل سيجموند مجهودًا هائلًا لصياغة سؤاله: «هل هذا هو مصل الحقيقة؟».

كل كلمة بدت كدلو ماء ترفعه يدويًّا بحرص من عمق بئر.

- ليس بالضبط. هو فقط يحرر لسانك ويتلاعب بإرادتك. انتظر حتى تفيق زوجتك. سنتضاجع كأنما لم تُضاجَع من قبل. لا تقلق، لن أرغمك على المشاهدة، ستكون ميتًا وقتها. اسمع، أين ڤيك مَكوين؟ ظللت أراقب منزلها طيلة اليوم ولا يبدو أن هناك أحدًا بالداخل. لقد سافرت لقضاء الصيف في مكان ما، أليس كذلك؟ سيكون هذا سخيفًا للغاية!

لم يُجبه سيجموند، كان مُشتتًا باستنتاج مصدر صوت الخربشة والفحيح والارتطام الذي يسمعه. لم يكن الصوت وليد عقله، بل كان صوت انتهاء أسطوانة معزوفة أوركسترا برلين التي كان يسمعها.

انتهت المقطوعة.

بحيرة وينيبيسوكي

حين ذهب وُين إلى المعسكر النهاري، انشغلت ڤيك في كتابها الجديد، وفي الدراجة البخارية «ترِيمَف».

اقترح عليها الناشر تيمة الإجازات والكريسماس لكتابها الجديد من سلسلة «محرك البحث»، وقد غلب ظنه أن كتابًا كهذا سيباع بشكل ممتاز. لم ترُق الفكرة لڤيك في البداية، لكن مع مرور الأيام ودوران الفكرة في عقلها بدأت تتقبلها وترى فيها نجاحًا تجاريًّا ما، ثم بدأت تتخيل كم سيبدو محرك البحث ظريفًا وهو يعتمر قبعة مخططة بألوان الحلوى. لم يخطر ببالها من قبل أن شخصية كرتونية مستوحاة من شكل محركات الدراجات البخارية قد تحتاج قبعة وربطة عنق، لكنها كانت رسامة لا مهندسة محركات. يمكن للواقع أن يكون مطواعًا أكثر بين يديها.

أجلَت مكانًا في إحدى زوايا سقيفة العربات، لتنصب فيه حامل اللوحات وأدوات الرسم ثم بدأت. أمضت ثلاث ساعات من أول يوم، ترسم بحيرة متجمدة بقلمها الأزرق، يقف محرك البحث ورفيقته بوني فوق قطعة من الجليد الطافي فوق ماء البحيرة، تحتهما متاهة هندسية صعبة تمثل غواصة على هيئة أخطبوط عملاق، أذرعه تمتد إليهما. على الأقل هي كانت تظن أنها ترسم أذرع أخطبوط.

ترسم ڤيك كعادتها والموسيقى جوارها تصدح عاليًا، وعقلها مغلق تمامًا. يبدو وجهها في أثناء الرسم كوجه طفل، ناعم بلا أي تجاعيد أو هموم.

ظلت ترسم حتى تقلَّصت عضلات يدها، فتركت كل شيء ومددت جذعها، وحركت ذراعيها فوق رأسها وهي تنصت إلى صوت طقطقة فقرات ظهرها. عادت إلى المنزل لتصب لنفسها بعض الشاي المثلج -لم تكترث ڤيك للغداء،

بالكاد تأكل شيئًا وهي تعمل- ثم رجعت إلى السقيفة لتفكر في محتوى الصفحة الثانية وهي تعبث قليلًا في الدراجة البخارية «تِريَمف».

خططت للعمل على الدراجة ساعة أو اثنتين ثم العودة بعدها إلى الرسم، لكنها أمضت ثلاث ساعات ولم تعِ إلى أنها فوَّتت موعد إحضار وُين من المعسكر النهاري.

بعد ذلك قسَّمت وقتها ما بين رسم الكتاب نهارًا، وإصلاح الدراجة بعد الظهيرة، واعتادت أن تضبط المنبه على موعد وُين كي لا تتخلف عنه مرة أخرى. وبحلول يونيو كانت رسومات الكتاب قد تكومت فوق بعضها، وصارت الدراجة البخارية هيكلًا معدنيًّا مفككًا.

تغني ڤيك وهي تعمل، ونادرًا ما كانت تعي لذلك. تغني وهي تصلح الدراجة البخارية: «لا أحد ينام وأنا أغني هذه الأغنية، وسأغنيها حتى الصباح، وسأرددها كأمنية!».

تغني وهي ترسم الكتاب: «بابا كان يقودنا إلى أرض الكريسماس، فقط لنركب زلاجة سانتا. بابا كان يقودنا إلى أرض الكريسماس، فقط لنمضي اليوم بعيدًا».

إلا أنهما كانتا الأغنية نفسها.

هافِرهيل

في الأول من يوليو، ودَّعت ڤيك وابنها بحيرة وينيبيسوكي في مرآة السيارة الأمامية، وانطلقا عائدين إلى منزل والدة ڤيك في ماساشوستس، منزل ڤيك الآن. دائمًا ما تنسى هذه الحقيقة.

طار لُو إلى بوسطن لقضاء عطلة الرابع من يوليو مع وُين، وليشاهدا معًا الصواريخ والألعاب النارية في سماء المدينة الكبيرة، وهو شيء لم يفعله لُو من قبل.

قررت ڤيك أن تمضي عطلة نهاية الأسبوع في ترتيب حاجيات السيدة المتوفاة، ومحاولة ألا تشرب. انتوت أن تبيع المنزل في الخريف وتعود إلى كلورادو، وهو أمر تحتاج إلى الحديث عنه مع لُو. يمكنها أن تكمل رسم سلسلة «محرك البحث» في أي مكان.

المرور كان متوقفًا على طريق 495، وحُبِسا عليه تحت سماء مُلبَّدة بسحب العوادم. سألها وُين وهما ينتظران تحرك السيارات أمامها: «هل تقلقين بصدد الأشباح؟».

- لماذا؟ هل تخاف أن تقضي الليل في منزل جدتك؟ لو أن روحها ما زالت هناك، فهي لن ترغب لك في أي سوء. لقد كانت تحبك.

قال وُين بنبرة غير مبالية: «أنا أسأل لأنني أعرف أن الأشباح كانت تُحدثك».

تحرَّكت السيارات أخيرًا، فصبَّت ڤيك ارتباكها في التقدم إلى الأمام وهي تجيب: «هذا لا يحدث الآن، ولم يحدث قط. عقل أمك كان مختلًّا فقط، لذا اضطررت أن أُعالَج في المستشفى».

- لم تكن الأشباح حقيقية؟

- بالطبع لم تكن. الموتى يظلون موتى. والماضي حبيس الماضي.

أومأ وُين، ثم سألها وهو ينظر عبر الطريق حين انعطفا إلى مدخل البيت: «من هذه؟».

كانت ڤيك تفكر في الأشباح، ولم تعِ إلى وجود امرأة تجلس عند أول درجة من سلم المنزل. ما إن أوقفت ڤيك السيارة، حتى قامت الزائرة التي كانت ترتدي بنطالًا من الجينز الكالِح، قماش الركبتين والفخذين فيه مجرد خيوط، لا صلة لها بالموضة الرائجة. في يدها سيجارة، يتصاعد منها خيط من الدخان، وفي اليد الأخرى ملف. للمرأة سمت المدمنين غير المتزنين. لم تستطع ڤيك أن تتذكر أين رأتها من قبل، لكنها قطعًا تعرفها، ليست لديها فكرة عن هويتها، لكن راودها إحساس أنها كانت تنتظر هذه الزيارة منذ سنوات.

سألها وُين: «أهي شخص تعرفينه؟».

هزَّت ڤيك رأسها، لم تجد لها صوتًا تجيبه به. لقد أمضت آخر عامين ونصف في محاولات مستمرة للتمسك بالتعقل واليقظة، تتشبث بهما كامرأة عجوز تتشبث بحقيبة بقالتها. بالنظر إلى الزائرة أمام منزلها، شعرت أن قاع حقيبة البقالة قد بدأ يتمزق.

رفعت الفتاة الثملة يدها مُحيِّيَة، تحية عصبية متوترة. فتحت ڤيك باب سيارتها ونزلت منها، ثم وقفت أمامها تحول بين وُين والزائرة. سألتها ڤيك بصوت مبحوح في حاجة إلى شربة ماء: «كيف يمكن أن أساعدك؟».

- أتمنى ذ... ذ... ذلك.

بدت عبارتها متقطعة كأنها في وسط عطسة. دَكَن وجهها وهي تجبر الحروف على الخروج وتقول: «لقد صار حُ.. حُ.. حُرًّا!».

- عمَّن تتحدثين؟

أجابت ماجي لي: «الشبح. يجوب الطرقات مرة أخرى. أظنك في حاجة إلى استخدام ج... ج... جسرك ومحاولة العثور عليه يا ڤيك».

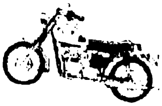

سمعت وُين يخرج من السيارة خلفها، ثم يغلق بابه، ويفتح الباب الخلفي ليقفز هوبر خارجًا. كانت تتمنى لو استطاعت أن تأمره بالعودة إلى السيارة دون أن تُظهر خوفها.

ابتسمت لها المرأة. لوجهها تلك الملامح البريئة الطيبة التي تربطها ڤيك دومًا بملامح المجانين. لقد رأتها مرارًا في مستشفى الأمراض العقلية.

قالت الزائرة: «أنا أ.. أ.. آسفة. لم يكن هذا م.. م.. م...».

اختنقت الحروف في حنجرتها قبل أن تُكمل: «مُقدرًا. أنا.. م.. م.. أوه، إلهي... م... ما... ماجي! لقد تناولنا الشاي معًا مرة بعد أن جرحتِ رُ.. رُكبتك، منذ أعوام طويلة مضت. لم تكوني أكبر من إ.. إ.. إ...».

توقفت عن محاولة استكمال الكلمة، ثم أخذت شهيقًا طويلًا، وأكملت: «... لم تكوني أكبر من هذا الطفل هنا. لكن عليكِ حقًّا أن تتذكري».

مريع أن تسمعها تتكلم، كأنك مرغم على مشاهدة شخص بلا قدمين، يجر جسده على الأرض جرًّا. تتذكر ڤيك أن لعثمتها لم تكن بهذا السوء من قبل، لكن في الوقت نفسه يردد عقلها أن المرأة الغريبة قد تكون خطرة. لا تعرف كيف تفكر في الأمرين معًا، كيف أن الفتاة مألوفة وغريبة، مأمونة وخطرة.

وضعت الفتاة الثملة يدها على يد ڤيك. كفها دافئة رطبة، فسحبت ڤيك كفها سريعًا. نظرت إلى ذراع المرأة فرأت ساحة حرب مزينة بجراح غائرة لامعة، حرق سجائر. بعضها ما زال ورديًّا حديثًا.

رمقتها ماجي في حيرة أقرب للشعور بجرح الكرامة، وقبل أن تنطق ڤيك، اندفع الكلب هوبر يدس أنفه بين ساقَي ماجي، فأبعدته ماجي وهي تضحك.

- أوه، مهلًا! لديك كلبك الخاص! يا له من «حبُّوب».

ثم نظرت خلف الكلب، إلى ابن ڤيك، وأضافت: «لا بد أ.. أ... أنك وُين».

سألت ڤيك بصوت أجش: «كيف عرفتِ اسمه؟».

تفكر في أمر جنوني: *قطع السكرابل لا يمكن أن تُبين لها أسماء حقيقية.*

أجابت ماجي: «أنت أهديت كتابك الأول له. كتبك كلها كانت لدينا في المكتبة. لكم كنت ف.. ف.. فخورة بك».

قالت ڤيك: «وُين، أدخِل الكلب إلى المنزل».

صفَّر وُين وسار عابرًا جوار ماجي والكلب يهرول خلفه، ثم أغلق وُين باب المنزل جيدًا خلفهما. قالت ماجي: «كنت أظنك ستراسليننى. لقد قلتِ لي إنك ستراسليننى. ظننت أنني سأتلقى منك خطابًا بعد اعتقال مانكس، ثم قلت لنفسي إنك سترغبين في نسيان كل شيء عن الأمر. لقد كتبت لك بالفعل عدة مرات، لكني خشيت أ.. أن.. أن يسألك أهلك عني، ثم قلت لنفسي مرة أخرى إنك ربما ترغبين في نسيان كل شيء عني كذلك».

حاولت أن تبتسم مرة أخرى، ورأت ڤيك أن بعض أسنانها مخلوعة.

- سيدة لي. أعتقد أن الأمر قد اختلط عليكِ. أنا لا أعرفك ولا أعرف كيف أساعدك.

ما أثار ذعر ڤيك حقًّا هو أنها هي التي قد اختلط عليها الأمر، لا ماجي. وجهها يشع بثقة مجنونة. ترى ڤيك كل شيء بعينَي عقلها: المكتبة الباردة المظلمة، قطع السكرابل المنثورة على المكتب، ثقَّالة الورق البرونزية على هيئة مسدس.

قالت ماجي وسط المزيد من اللعثمة حتى إنها احتاجت إلى نصف دقيقة كي تتفوه بعبارتها القصيرة: «إن كنت لا تعرفينني، كيف عرفتِ اسمي بالكامل؟ أنا لم أذكر اسم عائلتي».

رفعت ڤيك كفها طالبة الصمت، ما قالته ماجي كان مُشتِّتًا للغاية. لا بد أن ماجي قد ذكرت اسمها الكامل. بالتأكيد ذكرته وهي تقدم نفسها. ڤيك واثقة بهذا.

قالت ڤيك: «أرى أنك تعرفين الكثير عني كذلك. ابني لا يعرف أي شيء عن تشارلي مانكس. أنا لم أحدثه قط عنه، ولن أدعه يعرف عنه شيئًا من.. من شخص غريب».

كادت تقول: «من شخص مجنون».

- بالتأكيد لم أقصد إ.. إ.. إزعاجك، أو...

- لكنك أزعجتني بالفعل.

- لكن... ڤيك!

- لا تناديني ڤيك! نحن لا نعرف بعضنا بعضًا!

- هل تفضلين أن أناديك «ال.. المشاكسة»؟

- لا أريدك أن تناديني بأي اسم أو لقب. أريد أن ترحلي فقط.
- لكن يجب أن أخبرك عن م... م...

حاولت أن تُخرج الكلمة من فمها، فبدت كأنها تئِن.

- مانكس.
- شكرًا.. أجل. يجب أن نقرر كيف سنتعامل معه.
- مع من نتعامل؟! ماذا تعنين بقولك إن مانكس يجوب الطرقات مرة أخرى؟ لن يخرج بعفو قبل عام 2016، وآخر ما سمعت عنه أنه في غيبوبة. حتى لو أنه قد أفاق وسرَّحوه، فسيكون قد جاوز مئتَيْ عام. لكنهم لم يفرجوا عنه وإلا لكانوا قد أخبروني.
- هو ليس في عمر المئتين. ربما مئة وخ... خ... خمسة عشر.
- إلهي! لستُ مضطرة إلى سماع هذا الهراء. لديك ثلاث دقائق كي ترحلي، وإن وجدتك بعدها في الباحة سأتصل بالشرطة.

خطت ڤيك خارج الممر ووقفت على العشب، قاصدةً أن تدور حول ماجي لتصل إلى باب المنزل، لكنها لم تستطع. قالت ماجي: «لم يخطروك أنهم أطلقوا سراحه، لأنهم لم يُطلقوا سراحه. هم يظنونه قد مات في مايو الماضي».

تجمدت ڤيك مكانها، وسألت: «ماذا تقصدين بأنهم «يظنون» أنه قد مات؟».

فتحت ماجي المظروف، والتقطت عينا ڤيك رقم الهاتف المكتوب بالداخل. أول ثلاثة أرقام بعد رقم كود المنطقة هي تاريخ ميلادها، والأرقام الأربعة التالية لم تكن أرقامًا، بل أربعة حروف FUFU.

يحوي المظروف أوراقًا مطبوعة من عدة جرائد، الأوراق ذاتها كانت تحمل شعار مكتبة هير العامة في آيوا، وكانت مجعدة مثنية الأطراف.

أول مقال كان من جريدة دينڤر.

وفاة القاتل المتسلسل تشارلز تالنت مانكس، تترك لنا ألغازًا.

وفي الخبر صورة صغيرة له، تبين عينيه الجاحظتين وأسنانه البارزة. حاولت ڤيك قراءة المقال، لكن نظرها خانها.

تذكرت كوة الغسيل، وعينيها الدامعتين وصدرها المتحشرج بالدخان. تذكرت الذعر وصوت أغاني الكريسماس. عبارات من المقال تقفز أمام عينيها: «مرض يشبه الشلل الرعاش... توماس بريست... توقف التنفس الساعة الثانية مساء».

قالت ڤيك: «لم أكن أعرف. لم يخبرني أحد».

كانت مرتبكة حتى إنها عجزت عن إبقاء غضبها منصبًّا على ماجي. ظلت تردد لنفسها: *لقد مات.. مات. يجب أن تنسي كل شيء عنه. انتهت هذه الفترة من حياتك لأنه مات.*

لم تجلب لها تلك الأفكار أي سعادة.

قالت ڤيك: «لا أعرف لماذا لم يخبروني أنه قد مات؟».

- إمم.. أراهن أنهم مُحرجون. انظري إلى الصفحة التالية.

نظرت ڤيك إلى مارجارِت لي، وتذكرت ما قالته عن عودة مانكس إلى الطرقات مرة أخرى. ما يقود ماجي على الأرجح هو جنونها الذي دفعها للسفر كل هذه المسافة لتعطي ڤيك هذا المظروف. قلبت الصفحة لتقرأ:

اختفاء جثة القاتل المتسلسل من المشرحة.

الشرطة تلوم المُخرِّبين.

جالت ڤيك بنظرها في أول الصور، ثم أغلقت المظروف وأعادته إلى ماجي.

- يبدو أن مخبولًا قد سرق الجثة.

قالت ماجي ولم تمد يدها لتأخذ المظروف: «ل.. لا أظن هذا».

في مكان ما من الشارع، هدر محرك جزازة عشب، فأعاد صوتها ڤيك إلى الواقع، وأدركت حرارة الجو بالخارج، والشمس التي تشوي الرؤوس.

- إذًا تريدين القول إنه قد زيَّف وفاته، وخدع طبيبين، دعك من أنهم قد شرَّحوا جثته؟ بل، لحظة، تريدين القول إنه قد مات، ثم عاد إلى الحياة بعد ثماني وأربعين ساعة، ثم أخرج نفسه من ثلاجة المشرحة، وارتدى ملابسه وخرج؟

استرخت ملامح ماجي، وارتاحت فقالت: «أجل! أنا جئت كل هذه المسافة لأراكِ، لأنني موقنة يا ڤيك أنك ستصدقينني. والآن انظري إلى المقال التالي. ر... ر... رجل في كِنتَكي اختفى من منزله في سيارة رولز رويس عتيقة. سيارة مانكس الرولز رويس. ل... ل... لم يذكر المقال هذا بالضبط، لكن انظري إلى صورة السيارة المرفقة...».

- لن أنظر إلى أي خراء من هذا...

رمت ڤيك الملف في وجه ماجي وهي تضيف: «ارحلي من باحة منزلي أيتها الغانية المجنونة».

انفتح فم ماجي وانغلق، تمامًا مثل السمكة التي في حوض أسماك مكتبها في المكتبة العامة، وهي تفصيلة تتذكرها ڤيك جيدًا رغم أنها لم تذهب إلى هناك قط.

استعر غضب ڤيك حتى الذروة، وتاقت إلى إحراق ماجي به. ليس لأنها تسد الطريق إلى باب منزلها، ولا لأن تُرهَّاتها تهدد وعي ڤيك بما هو حقيقي أو زائف، ولا لأنها تحاول سرقة عقل ڤيك الذي عانت كي تستعيده، بل لأن مانكس قد مات، حقًّا مات، لكن هذه المجنونة تمنع ڤيك من الاستمتاع بهذه الحقيقة، أن تشارلي مانكس الذي اختطف أطفالًا لا يعلم سوى الله عددهم، وخطفها وعذبها وكاد يقتلها، قد مات وتوارى تحت الثرى. فقط ماجي لي اللعينة تريد بعثه، تريد نبش قبره وإجبار ڤيك على الخوف منه مرة أخرى.

قالت ڤيك: «خذي هذا الهراء وأنت راحلة».

خطت ڤيك فوق بعض الأوراق المتناثرة في طريقها إلى منزلها. قالت ماجي: «هو لم ينتهِ بعد. لهذا أردت -أملت- أن تحاولي ال... العثور عليه. أعرف أنني قد نصحتك ألا تفعلي ح... حي... حين تقابلنا أول مرة، لكنك كنت أصغر من اللازم، ولم تكوني مستعدة. أومن أنك الوحيدة القادرة على العثور عليه، لأنك إن لم تفعلي، سيحاول هو ال... ال... العثور عليكِ».

- الشيء الوحيد الذي سأحاول العثور عليه هو الهاتف، لأتصل بالشرطة. لو كنت مكانك لرحلت قبل أن يعتقلوني.

استدارت ڤيك لتنظر إلى وجه ماجي لي، واستطردت: «**أنا لا أعرفك!** خذي جنونك إلى مكان آخر».

رفعت ماجي إصبعًا وهي تقول: «ل... لكن يا ڤيك، ألا تذكرينني حقًّا؟ أنا من أعطيتك هذين القرطين».

دخلت ڤيك منزلها وصفقت الباب خلفها.

قفز وُين الذي كان يجلس على بعد ثلاث خطوات من الباب، وغالبًا قد سمع كل ما قيل. أجفل هوبر من خلفه وأطلق أنَّة، ثم استدار مبتعدًا، باحثًا عن مكان أكثر هدوءًا يجلس فيه.

استدارت ڤيك إلى الباب وأسندت جبهتها إليه، وأخذت شهيقًا عميقًا، ثم بعد نصف دقيقة، نظرت من العين السحرية إلى الباحة الأمامية، ورأت ماجي تستقيم وترتدي معطفها ذا القلنسوة وتغطي بها رأسها في كبرياء. ألقت نظرة واجمة إلى باب ڤيك، ثم سارت مبتعدة بخطى متعثرة. لم تكن معها سيارة، وكان عليها أن تسير مسافة ستة مجمعات سكنية في الشمس الحارقة حتى تصل إلى أقرب محطة حافلات. راقبتها ڤيك حتى اختفت عن نظرها. ظلت ترمقها وهي تداعب قرطيها، القرطان المفضلان عندها منذ طفولتها، قرطا سكرابل يحملان نقش حرفَي «س» و«ل».

على الطريق

حين خرج وُين لمرافقة الكلب في تمشيته -الحقيقة أن وُين قد خرج هربًا من مزاج أمه الحزين الضاغط- وجد الملف فوق الدرجة الأولى أمام المنزل، وقد أُعيدت الأوراق مُرتبة إليه.

نظر من فوق كتفه إلى الباب المفتوح، فوجد أمه في المطبخ، بعيدًا عن مرمى البصر. أغلق وُين الباب وانحنى يلتقط الملف ويفتحه. نظر إلى المطبوعات فيه عن القاتل المتسلسل والمخربين ومهندس الطيران المختفي.

طوى الأوراق ودسَّها في جيب بنطاله القصير الخلفي، ثم ألقى الملف الخالي خلف السور الذي يحيط المنزل.

لم يكن واثقًا بأنه يريد مطالعة تلك الأوراق، لكنه كان بعد في الثانية عشرة من عمره، ولا يعرف أن ما فعله يعني أنه حقًّا راغب في قراءتها، وأنه اتخذ هذا القرار في اللحظة التي ألقى فيها بالملف خلف السور، بعيدًا عن الأنظار. عبر الباحة وجلس على الرصيف. كان يشعر كأنه يحمل متفجرات في جيبه الخلفي.

حدق إلى الباحة عبر الشارع، إلى الحشائش المصفرة. العجوز الذي يسكن هذا المنزل قد أهمل حديقته حقًّا. للرجل اسم غريب، سيجموند دي زوت، ولديه حجرة ملأى بمجسمات جنود صغيرة. جال وُين في منزله يوم جنازة جدته، وقد أراه الرجل مجسماته وكان لطيفًا معه، وقد أخبره أن أمه -ڤيك- كانت تحب طلاء الجنود الصغار. قال له بلكنة غريبة مثل لكنة النازيين: «أمك كانت بارعة في التلوين حتى في تلك السن الصغيرة».

صنعت زوجته المُسنة الطيبة كوبًا من الشاي المثلج لوُين، ووضعت فيه شرائح برتقال جعلت مذاقه لا يصدق.

فكر وُين في أن يعبر الطريق ويسأل عن الرجل وجنوده. سيكون هذا ملاذًا له من حرارة الجو، وستبعد الزيارة تفكيره عن الأوراق في جيبه، التي من المفترض ألا يقرأها.

كاد يقوم من جلسته ويعبر الشارع، لولا أنه نظر إلى باب منزله، فجلس مرة أخرى. ستغضب أمه لو جال بعيدًا دون إذنها، ولا يظن نفسه قادرًا على العودة إلى البيت وطلب الإذن. لذا، ظل يحدق إلى الباحة مصفرة الأعشاب عبر الطريق، وزاد افتقاده للجبال.

شهد وُين انهيارًا جليديًّا مرة في الشتاء الماضي. كان فوق جبل لونجمونت مع أبيه ليقطُرا سيارة مرسيدس انزلقت عن الطريق وعلِقت عند منحدر. العائلة في السيارة مذعورة، لكنهم بخير لم يمسهم ضرر. عائلة عادية مكونة من أب وأم وطفلين، للطفلة الصغرى عَقصتا شعر شقراوان، وهذا يبين كم أنهم عاديون للغاية. بالنظر إليهم فقط، استطاع وُين أن يؤكد أن الأم لم تُحجز في مصحة عقلية من قبل، وأن الأب ليس لديه درع جندي الجليد -من أفلام حرب النجوم- معلق في خزانته. استطاع أن يؤكد أن للطفلين أسماء عادية مثل جون وسُو، على عكس اسمه المُستوحى من القصص المصورة. بعد دقائق من لقائهم، أحب وُين تلك العائلة وهام بها بلا سبب واضح.

أرسل لُو ابنه وُين أسفل المنحدر ومعه خطاف وحبل من السلك المضفور، لكن ما إن اتجه الولد إلى السيارة، سمع صوتًا من أعلى يصدح كطلقة نارية. نظر الجميع إلى القمم الجليدية لجبال روكي. وهم يحدقون، رأوا ساترًا من الثلج بعرض وارتفاع ملعب كرة قدم، يتزحزح من مكانه وينزلق نحو الجنوب، لذا لم يكونوا في مرمى خطره. ما إن تحول صوت الانجراف إلى همهمة رعد بعيدة، شعر وُين بالذبذبات ترج الأرض من تحته.

انجرف الساتر العظيم بضع ياردات إلى الأسفل ثم التقى بصفوف الأشجار، فانفجر مكونًا سحابة بيضاء، مُخلفًا مدًّا من الثلج بارتفاع ثلاثين قدمًا.

رفع الأب صاحب السيارة ابنه فوق كتفيه ليُمكِّنه من المشاهدة، ثم قال وأشجار الغابة تُدَك تحت ستمائة طن من الجليد: «نحن في البرية الآن يا بني».

قال لُو وهو ينظر إلى الأسفل نحو وُين: «أليس هذا أمرًا لعينًا رائعًا؟!».

أضاء وجه لُو بالسعادة وهو يضيف: «هل تتخيل أن تكون تحته؟ هل تتخيل أن يهوي فوقك كل هذا الخراء؟».

بالطبع يعرف وُين الكثير عن الخراء الذي يهوي فوق الرؤوس، وكان يتخيل موقفًا كهذا طريقة مُثلى للموت. أن تزول في لمح البصر بينما يتداعى العالم من حولك.

ظل بروس وُين كارمودي حزينًا لفترة طويلة حتى إنه لم يعد يدرك حزنه. أحيانًا يشعر وُين أن العالم ينزلق من تحت قدميه طيلة الأعوام الفائتة، وما زال ينتظر أن يسقط ويُدفن تحت أنقاض الدنيا.

أمه عانت الجنون منذ فترة، وكانت تؤمن أن الهاتف يرن وهو لا يرن، وكان تدور مكالمات طويلة بينها وبين أطفال موتى. أحيانًا كان يشعر أنها قد تحدثت إلى الأطفال الموتى أكثر مما تحدثت إليه. حرقت منزلهم، وقضت شهرًا في مستشفى نفسي، وفاتها حضور المحاكمة، واختفت من حياة وُين لعامين تقريبًا. أمضت فترة في جولة ترويجية لكتابها، زارت خلالها متاجر الكتب والمكتبات نهارًا، والحانات ليلًا. جابت شوارع لوس أنجلوس لستة أشهر في أثناء عملها على نسخة كرتونية من «محرك البحث»، منعها عن استكماله إدمانها للكوكايين. ظلت فترة ترسم جسورًا مغطاة لصالح معرض لوحات لا يؤمه أحد.

فاض الكيل بوالد وُين بسبب شُرب ڤيك، وتجوال ڤيك، وجنون ڤيك، ورافق المرأة التي وشمت أغلب وشومه، وهي شابة تدعى كارول، وترتدي ملابس من حقبة الثمانينيات، إلا أن كارول وعشيقها قد سرقا هوية لُو وهربا إلى كاليفورنيا حيث حصلا على قرض باسم لُو بمبلغ عشرة آلاف دولار، وما زال لُو يحاول تسديد هذا الدين.

تاق بروس وُين كارمودي إلى أن يحب والديه ويستمتع بمرافقتهما، وفي أغلب الوقت استطاع أن يفعل الأمرين، لكنهما كانا صعبَي المنال، لذا شعر أن الأوراق في جيبه الخلفي لها ثقل المتفجرات، قنبلة لم تنفجر بعد.

فكر أن القنبلة لو قُدِّر لها أن تنفجر لاحقًا، فالأفضل أن يلقي عليها نظرة ليعرف مقدار الدمار الذي قد تتسبب فيه وكيفية حماية نفسه من هذا الانفجار. أخرج الأوراق من جيبه، ثم نظر نظرة أخرى إلى باب بيته، وفتح الأوراق وفردها على ركبتيه.

يُفتتح أول مقال بصورة تشارلز تالنت مانكس، السفاح الميت. وجه مانكس طويل حتى يبدو أنه قد ساح قليلًا، له عينان جاحظتان وأسنان بارزة ورأس أصلع مكوَّر يشبه رسم بيضة ديناصور كرتونية.

أُلقي القبض على هذا الرجل منذ خمسة عشر عامًا في جَنباريل، وكان خاطفًا ينقل الأطفال عبر الولايات، ثم أحرق رجلًا حاول إيقافه.

لم يستطع أي شخص تحديد عمره بعد إلقاء القبض عليه، ولم يقدر هو على العيش في السجن، فدخل في غيبوبة عام 2001 واحتُجز في مستشفى للخطرين في دينڤر، وظل على هذا الحال أحد عشر عامًا حتى توفي في مايو الماضي.

بعد هذا، صار المقال مجرد تكهنات تهدف للإثارة. لمانكس كوخ خارج جَنباريل، حيث يعلق زينة الكريسماس على الأشجار المحيطة به، أطلقت الصحف على المكان اسم بيت الزلاجة، كناية عن منزل سانتا كلوز. تشير الصحيفة إلى أنه كان يختطف الأطفال ويذبحهم هناك، إلا أنه لم تُكتشف أي جثث حول المكان.

ما علاقة أي من هذا بڤيكتوريا مَكوين، والدة بروس وُين كارمودي؟ لا شيء، حسبما يعرف وُين. ربما لو طالع باقي المقالات لعرف أكثر، لذا أكمل.

المقال التالي كان عن اختفاء السفاح من المشرحة في دينڤر، وترجيح أن هناك مُخربين قد اقتحموا المكان وسرقوا الجثة بعدما هاجموا حارس الأمن، كما سرقوا سيارة من ساحة الانتظار أمام المركز الطبي.

الورقة الثالثة كانت قصاصة من جريدة في لويسفيل، كِنتَكي، ولا علاقة لها بتشارلز مانكس، تحمل عنوان: اختفاء مهندس طائرات بوينج. لغز محلي يؤرق الشرطة. مرفق بالخبر صورة رجل مُسمر ذي شارب أسود سميك، يرتكن بكوعه إلى سقف سيارة رولز رويس عتيقة.

عقد وُين حاجبيه وأكمل القراءة. أبلغت ابنة ناثان ديميتر عن اختفاء والدها بعدما عادت من المدرسة ووجدت باب المنزل غير موصد، وكذا باب المرأب، وقد اختفت سيارة والدها الرولز رويس. رجَّحت التحقيقات أن ديميتر قد هرب من تسوية ضرائب الدخل، لكن ابنته لم تصدق هذا الاستنتاج، أكدت أنه إما مخطوف وإما مقتول، ومستحيل أن يهرب دون أن يخبرها بالسبب والمكان الذي سيذهب إليه.

لم يستطع وُين أن يعرف علاقة كل هذا بتشارلز مانكس. ظن أنه قد فاته شيء، فعاد يقرأ الأوراق من البداية، لكنه رأى هوبر يقرفص عند باحة المنزل المقابل ويتبرز قطعًا في حجم الموز على العشب، ولها لون الموز أيضًا، أخضر مصفر.

صاح وُين: «يا للقرف! مهلًا أيها الضخم!».

فكَّر أولًا أن يبعد هوبر من الحديقة قبل أن يراه أحد، لكن ستار الطابق الأول انزاح قليلًا. يبدو أن أحدًا -الرجل اللطيف أو زوجته- يراقبه.

افترض وُين أن أفضل ما يفعل هو أن يعبر الطريق ويقلب الأمر إلى مزاح، ويسألهما إن كان لديهما كيس ينقل إليه الفوضى التي أحدثها كلبه. بدا له أن الرجل ذا اللكنة الغريبة قد يضحك على أي شيء.

كاد يصعد أولى الدرجات التي تقود إلى باب سيجموند دي زوت الأمامي، لولا أنه لمح ظلالًا تتحرك خلف فرجة الباب. نظر وُين خلال العين السحرية واعتقد أنه يرى ألوانًا مشوشة تتحرك. أحدهم يقف خلف الباب بمسافة ثلاثة أقدام يراقبه.

نادى وُين: «مرحبًا؟ السيد دي زوت؟».

تحرك الظل أسفل الباب، لكن لم يرد أحد. أقلق هذا وُين وأوقف الشعيرات على ساعده.

توقف عن الحمق. أنت خائف لأنك قرأت هذه القصص المخيفة عن تشارلي مانكس. هيا اضرب الجرس!

أبعد وُين قلقه، وصعد الدرجات وهو يمد ذراعه نحو زر الجرس. لم يلاحظ أن مقبض الباب يدور ومَن خلف الباب يستعد لفتحه.

الجهة الأخرى من الباب

وقف بينج بارتريدج على الجهة الأخرى من الباب ينظر إلى العين السحرية، كفه اليسرى على مقبض الباب، وهو يمسك بيمناه مسدس السيد مانكس الذي اشتراه من كلورادو.

همس بينج: «ابتعد أيها الصبي. ابتعد».

صوته منخفض مُلِح.

- تعال يومًا آخر.

لدى بينج خطة، خطة بسيطة لكنها ضرورية، حين يصل الصبي إلى الباب، سيفتحه ويجذبه إلى الداخل. مع بينج علبة من غاز كعك الزنجبيل في جيبه، وبمجرد أن يُدخل الصبي، سيخدره به.

ماذا لو صرخ الصبي؟ ماذا لو صرخ وقاوم لأجل حريته؟

أحدهم يشوي شيئًا عند بداية المجمع السكني، والأولاد يلعبون بقرص الفريسبي في الشارع، والكبار يشربون ويضحكون تحت الشمس. لم يكن بينج عبقريًّا، لكنه لم يكن غبيًّا كذلك. رجل يرتدي قناع غاز ويمسك مسدسًا في يده حتمًا سيجذب الأنظار وهو يصارع طفلًا صارخًا. ثم إن هناك الكلب. ماذا لو هجم عليه الكلب؟ هو من نوع سان بيرنار وفي حجم دب صغير. لو أقحم رأسه الضخم في فرجة الباب، لن يستطيع بينج أن يغلقه خلفه. سيبدو الأمر كأنك تحاول غلق باب في وجه قطيع جواميس.

السيد مانكس يعرف ما يُفعل في هذه المواقف، لكنه بعد نائم. ظل نائمًا لأكثر من يوم في حجرة نوم سيجموند دي زوت. حين يستيقظ سيعود لتألقه القديم، سيعود السيد مانكس العظيم! لكن بينج يشك أحيانًا في أنه

سيستيقظ حين ينام بهذه الطريقة. قال إنه سيتحسن في طريقه إلى أرض الكريسماس، وعرف بينج أن هذه هي الحقيقة... لكنه لم ير السيد مانكس شائخًا بهذا المنظر من قبل، وحتى حين نام، بدا كالموتى.

ماذا لو استطاع بينج أن يُدخِل الصبي إلى البيت؟ لا يعرف بينج إن كان يقدر على إيقاظ السيد مانكس في هذه الحالة التي هو عليها. كم سيطول اختباؤهما حتى تظهر ڤيك مَكوين وتصرخ بحثًا عن ابنها، وحتى تصل الشرطة؟ هذا مكان خاطئ وتوقيت خاطئ. لقد أكد السيد مانكس أن خطتهم تقتصر على المراقبة فقط الآن، وحتى إن كان بينج غبيًّا، فهو يفهم السبب. هذا الشارع الهادئ ليس هادئًا بما يكفي، وأي حركة قد تجذب الأنظار إليهما. يعرف بينج كم أن أمر ڤيك مهم بالنسبة إلى السيد مانكس، ويعرف عواقب إخفاقه فيه، لن يأخذه السيد مانكس أبدًا إلى أرض الكريسماس. لن يأخذه أبدًا أبدًا أبدًا.

صعد الصبي أول درجة، فالثانية.

أغمض بينج عينيه وشرع يهدئ نفسه بترديد أغنية أطفال، ثم همس: «اغرب عن هنا أيها الوغد الصغير. لسنا مستعدين لفعل شيء شرير...».

ابتلع شهيق هواء معبقًا برائحة المطاط، ثم أعدَّ المسدس للإطلاق. ظهر أحد على الطريق ينادي على الصبي.

- *كلا! وُين، كلا!*

سرت كهرباء في أطراف أعصاب بينج، وكاد المسدس ينزلق من يده المتعرقة. دخلت سيارة فضية لامعة الشارع، وعكست أشعة الشمس على حوافها. توقفت أمام منزل ڤيكتوريا مَكوين. نزل زجاج باب السيارة، وأخرج السائق ذراعًا متهدلة أشار بها إلى الصبي وصاح: «لا، يا وُين!».

توتر بينج حتى أفلتت منه معاني الكلمات التي تفوه بها الرجل.

- مهلًا يا صاح!

- أبي!

نسي الصبي كل شيء عن صعود الدرج والطرق على الباب، واستدار يجري نحو أبيه والكلب الضخم يهرول خلفه.

لانت عظام بينج وارتخت أعصابه. أسند رأسه على الباب وأغلق عينيه، وحين فتحهما ونظر عبر العين السحرية، وجد الصبي بين ذراعَي الرجل السمين ذي الرأس الحليق والساقين الضخمتين. لا بد أن هذا هو لويس كارمودي، الوالد. قرأ بينج عن العائلة على الإنترنت ولديه فكرة عن أفرادها، لكنه لم ير من قبل صورة للرجل. ذُهِل حين تخيل كارمودي ومَكوين يتضاجعان. سيشقها الوحش الضخم إلى نصفين. لم يكن بينج نحيلًا، لكنه يبدو كعارض أزياء مقارنة بكارمودي.

تساءل عما يمسكه الرجل عليها كي توافق على ممارسة الحميمية معه. ربما بينهما تسويات مادية. رأى بينج المرأة من بعيد، ولاحظ الوشوم على جسدها. كل الموشومات يحملن لافتة تُصرِّح بأنهن متاحات للإيجار.

دفعت نسمات الهواء الأوراق التي كان يقرؤها الصبي إلى أسفل سيارة الرجل السمين. أفلت الرجل الصبي من بين ذراعيه، فنظر الأخير حوله بحثًا عن الأوراق، لكنه لم ينزل على ركبتيه ليستعيدها. هذه الأوراق تقلق بينج. هي ثمينة وتعني شيئًا.

امرأة نحيلة تشبه المدمنين قد أحضرت تلك الأوراق وحاولت إجبار مَكوين على قراءتها. لقد شاهد بينج كل شيء من خلف الستائر. لم تحب ڤيكتوريا مَكوين المرأة الغريبة وصاحت بها وأمرتها بالرحيل بعد أن ألقت بالأوراق في وجهها. تناهى إلى مسامعه بعض مما كانتا تقولان، وسمع بينج إحداهما تقول اسم مانكس. أراد بينج أن يوقظ السيد مانكس، لكنه لا يستطيع إيقاظه وهو على هذا الحال.

لأنه ليس نائمًا حقًّا.

كان قد دخل إلى حجرة النوم ليلقي نظرة على السيد مانكس المستلقي فوق الملاءة، لا يرتدي أي شيء سوى سروال تحتي. رأى صدره المشقوق مخيطًا بخيط أسود سميك. الجرح قد شارف على الالتئام، لكنه ما زال ينز صديدًا ودماءً وردية، كأنه خندق محفور في جسده.

وقف بينج ينصت للحظات، لكنه لم يسمعه يتنفس ولو مرة واحدة. فم السيد مانكس فاغر قليلًا، تفوح منه رائحة الفورمالدهايد. عيناه مفتوحتان، باهاتتان، خاويتان، تحدقان إلى السقف. مد بينج يده يمس يد الرجل العجوز، فوجدها باردة متصلبة كيد أي جثة أخرى، واستولى على بينج شعور يؤكد أن

السيد مانكس قد مات، ثم تحركت عيناه حتى التقت عينَي بينج، وحدقتا إليه كأنهما لا تعرفانه، فتراجع الرجل.

والآن، وقد مرت الأزمة، ترك بينج ساقيه اللينتين تحملانه إلى حجرة المعيشة. خلع قناع الغاز وجلس مع السيد والسيدة دي زوت، يشاهد التلفاز. يحتاج وقتًا حتى يتعافى. أمسك يد السيدة دي زوت وشاهد برامج الألعاب وهو ينظر إلى الشارع مراقبًا منزل مَكوين من وقت لآخر. قرب السابعة مساءً، سمع حديثًا وصوت باب يغلق. عاد إلى الباب ونظر عبر العين السحرية. السماء برتقالية شاحبة، والصبي وأبوه يسيران نحو السيارة المُستأجرة.

قال كارمودي لڤيكتوريا مَكوين التي تقف عند عتبة الباب: «سنكون في الفندق إن احتجتنا».

لم ترُق لبينج فكرة أن يرحل الصبي مع أبيه. يجب أن يظل الصبي والمرأة معًا. مانكس يريدهما معًا وكذا بينج. الولد لمانكس، والمرأة هدية بينج، ليحظى بوقت لطيف معها، ليلة مرحة أخرى في بيت النوم، بعدها ينتقل إلى أرض الكريسماس مع السيد بينج ويظل هناك للأبد.

كان بينج قد فحص البريد في صندوق ڤيكتوريا مَكوين، ورأى فاتورة معسكر نهاري في نيو هامبشير. معسكر سيحضره الصبي في أغسطس. صحيح أن بينج ليس نابهًا، لكن أي شخص قد يدفع ثمانمائة دولار لحجز شيء كهذا ثم يُلغيه؟ اليوم الرابع من يوليو[1]، ويبدو أن الأب قد جاء لزيارة الابن في يوم الإجازة.

رحل الأب والابن تاركَين شبح ڤيكتوريا مَكوين واقفًا أمام المنزل. جذبت السيارة الأوراق التي كانت تحتها ويريدها بينج، وبعثرتها على الطريق.

عادت ڤيكتوريا مَكوين إلى الداخل، لكنها تركت الباب مفتوحًا. بعد ثلاث دقائق عادت بمفتاح سيارتها في يد، وحقيبة تبضُّع في اليد الأخرى. راقبها بينج حتى رحلت، وراقب الطريق قليلًا، ثم خرج. الشمس قد غربت الآن تاركةً ضوءًا برتقاليًّا مشعًّا عند الأفق، وبدأت بعض النجوم بثقب الظلام بالأعلى.

---

(1) عيد الاستقلال، ويحتفلون فيه عادةً بإطلاق الألعاب النارية. (المترجمة)

غنى بينج كعادته حين يتوتر: *كان هناك مرة، رجل غاز ومعه مسدس، طلقاته من الرصاص.. الرصاص.. الرصاص. ذهب إلى الجدول وأطلق النار على ڤيك مَكوين في الرأس.. الرأس.. الرأس.*

قطع الطريق جيئةً وذهابًا لكنه لم يجد سوى ورقة واحدة، تحوي صورة الرجل من كِنتَكي الذي وصل منزل بينج في السيارة الشبح قبل وصول السيد مانكس نفسه بيومين، شاحبًا، يتضور جوعًا، عيناه حمراوان، يركب سيارة Trans Am ذات فرش بنقشة جلد الحمار الوحشي، ويضع مطرقة فضية على المقعد جواره. وقت وصول مانكس، كان بينج قد أعاد للسيارة الشبح لوحة أرقامها المميزة NOS4A2.

مكث الرجل من كِنتَكي -ناثان ديميتر- هنيهة في قبو بيت النوم حتى رحل.

جزع بينج حين رأى صورة ناثان ديميتر وتحته خبر اختفائه. قلبت الصورة معدته، لم يفهم لماذا أحضرت السيدة الثملة هذه الصورة لڤيكتوريا مَكوين.

تأرجح أمامًا وخلفًا وهي يغني أغنيته المرتجلة عن رجل قناع الغاز ومسدسه، حتى سمع صوتًا ضعيفًا مختنقًا من خلفه يقول: «الأغنية ليست هكذا».

التفت بينج ليرى فتاة شقراء تركب دراجة وردية ذات سنَّادات. أتت من ناحية حفل الشواء عند نهاية الشارع، يبدو أن الهواء الرطب الليلي جرفها إليه كما جرف صوت ضحكات الكبار.

- كان أبي يغني لي هذه الأغنية. كان هناك رجل صغير معه مسدس صغير، اصطاد بطة، أليس كذلك؟ من هو رجل قناع الغاز؟

قال بينج: «هو رجل لطيف، الكل يحبه».

- لكني لا أحبه.

- ستحبينه لو عرفتِه.

هزَّت كتفيها، ثم استدارت بدراجتها وعادت إلى نهاية الشارع. راقبها بينج وهي تبتعد ثم عاد إلى منزل دي زوت ممسكًا الخبر عن ديميتر، المطبوع على ورقة من مكتبة في آيوا.

كان بينج جالسًا يشاهد التلفاز مع آل دي زوت، حين خرج مانكس في كامل حُلته وحذاءيه طويلَي المقدمة. وجهه الجائع يعكس ظلالًا زرقاء مريضة.

- بينج! أظنني أمرتك أن تضع السيد والسيدة دي زوت في الحجرة الإضافية!

- لقد.. لم يعودا خطرَين.

- بالطبع قد زال خطرهما، هما ميتان! لكن لا داعي كذلك لوضعهما تحت أقدامنا هكذا! بربك، لماذا لا تجلس معهما خارج المنزل أيضًا؟!

حدق بينجِ طويلًا إلى سيده. مانكس هو أذكى وأمهر شخص قابله، وأكثرهم تدقيقًا، لكنه أحيانًا لا يفهم أبسط الأمور.

- هما أفضل من الوحدة...

بوسطن

مكث لُو والصبي في حجرة في الطابق العلوي بفندق هيلتون بمطار لوجان. ليلة واحدة كلَّفت لو أجرة عمل أسبوع، لكن من يعبأ؟ هذه هي الطريقة المثلى لإنفاق النقود. ظلا ساهرَين في الفراش حتى الواحدة صباحًا، وظن لُو أن الصبي سينام، لذا لم يكن مستعدًّا حين تكلم وُين بصوتٍ عالٍ في الظلام. تفوه بتسع كلمات كافية لأن يقفز قلب لُو إلى حنجرته وينحشر هناك.

قال وُين: «هذا الرجل. تشارلي مانكس. هل هو خطر؟».

ضرب لُو برفق صدره المكتنز فعاد قلبه إلى مكانه، لُو وقلبه لم يكونا على وفاق قط. قلبه يتعب حين يصعد الدرجات. جال وُين ولُو طويلًا حول ميدان هارفارد، واحتاج لُو أن يرتاح مرتين كي يستطيع استكمال الجولة. كان يريح نفسه بأن يخبرها أنه لم يعتد العيش في مكان منخفض الارتفاع، وأن رئتيه اعتادتا هواء الجبال، لكن لُو لم يكن جاهلًا، وكان يعرف أن السمنة هي السبب. لقد حدث هذا لأبيه في آخر ستة أعوام من حياته، وعجز عن التجوال في المتاجر دون أن يركب سيارة جولف صغيرة مخصصة للعَجَزة. أن يقطع لُو دهونه بمنشار كهربي أهون لديه من أن يركب تلك السيارات المُهينة.

سأله لُو: «هل أخبرتك والدتك شيئًا عنه؟».

تنهَّد وُين وصمت هنيهة، وكان صمته كافيًا كي يدرك لُو أنه قد أجاب سؤال ابنه دون أن يشعر. قال وُين أخيرًا: «كلا».

- إذًا، كيف سمعت عنه؟

- جاءت امرأة اسمها ماجي إلى منزل أمي اليوم. أرادت أن تحدثها عن تشارلي مانكس، وغضبت منها أمي حتى كادت تركلها كي ترحل.

- أوه...

تساءل لو من قد تكون ماجي هذه، وما علاقتها بقضية ڤيك. سأل وُين: «أودعوه السجن لأنه قتل رجلًا، أليس كذلك؟».

- هل قالت تلك المرأة التي زارت أمك إن مانكس قد قتل رجلًا؟

زفر وُين، وأدار رأسه فوق الوسادة لينظر إلى أبيه. عيناه تلمعان في الظلام كنقطتين ورديتين.

- إن أخبرتك كيف عرفت بما فعل مانكس، هل سأقع في مشكلات؟

- ليس معي. هل بحثت عنه عبر جوجل أو شيء من هذا القبيل؟

اتسعت عينا وُين، وفهم لو أنه لم يفكر حتى في البحث عن تشارلي مانكس عبر الإنترنت، والآن ربما يفعلها. رغب لو بشدة في أن يضرب جبهته بيده. أنت أحمق يا كارمودي. أحمق غبي سمين!

- تركت المرأة مظروفًا به بعض الأوراق مطبوع عليها مقالات. قرأت بعضها. لا أظن أمي كانت لتسمح لي بذلك. أنت لن تخبرها، أم ماذا؟

- أي مقالات؟

- أخبار عن موته.

أومأ لو، وقد بدأ يفهم. مات مانكس بعد ثلاثة أيام من وفاة والدة ڤيك. سمع لو الخبر في المذياع يوم وقوعه. كانت ڤيك وقتها قد خرجت من المصحة منذ خمسة أشهر وأخذت تمضي الربيع في مشاهدة أمها تذوي. لم يشأ لُو أن يخبرها فيهز أعصابها. انتوى أن يخبرها لكن الظروف لم تواتِه، حتى أتت لحظة لم يعد فيها إخبارها لائقًا. لقد أجَّل الأمر أطول من اللازم.

يبدو أن ماجي هذه قد عرفت أن ڤيك هي الفتاة التي هربت من تشارلي مانكس. الطفلة الوحيدة التي هربت منه. ربما ماجي صحفية أو كاتبة قصص جريمة حقيقية وجاءت للحصول على تصريح وقد أعطتها ڤيك ما لا يمكن نشره من شتائم.

- لا يستأهل مانكس التفكير فيه، ولا علاقة له بنا.

- لكن، لماذا أرادت السيدة أن تُحدِّث أمي عنه؟

- يمكنك أن تسأل والدتك عن هذا. لا يجب أن أقول شيئًا، ولو قلت سأكون أنا من سيقع في مشكلات. فهمت؟

هذا هو الاتفاق الذي أبرمه مع ڤيكتوريا مَكوين بعدما عرفت بحملها وقررت الاحتفاظ بالجنين. تركت لُو يختار اسم الطفل، وأخبرته أنها ستعيش معه، وأنها ستراعي الطفل، وحين ينامان سيمرحان معًا. قالت إنها ستكون كزوجة غير رسمية له، بشرط ألا يعرف الولد أي شيء عن تشارلي مانكس إلا إذا قررت هي أن تخبره.

وقتما وافق لُو على هذا الشرط بدا منطقيًّا، لكنه لم يكن متحمسًا لإخفاء الموقف البطولي الوحيد الذي فعله عن ابنه، وأنه في لحظة ما صار في شجاعة أبطال القصص المصورة، وأنه أنقذ فتاة على ظهر دراجته البخارية وأبعدها عن وحشٍ مريع. حتى إنه حين أضرم هذا الوحش النار في رجل، كان هو من أول من حاول إطفاءه، حتى لو باءت محاولته بالفشل، لكن قلبه كان شجاعًا كفاية كي يغامر بحياته لأجل الآخرين.

أحزن لُو أن ما يعرفه ابنه عنه لا يتعدى كونه رجلًا مرحًا سمينًا، يشغل وظيفة عادية يصلح فيها الدراجات البخارية، ويقطر السيارات التي تقع في جروف، ولا يستطيع الاحتفاظ بڤيك.

تمنى لو حظي بفرصة أخرى، لو سنحت له فرصة إنقاذ شخص آخر على مرأى ومسمع من وُين. هو مستعد لاستخدام جسده الضخم السمين لصد الرصاصات ما دام وُين سيكون شاهدًا على هذا.

هل توجد حاجة بشرية أشد إلحاحًا وإيلامًا من الرغبة في فرصة أخرى؟

زفر ابنه وانقلب على ظهره. سأله لو: «حدثني عن صيفك. ماذا أعجبك فيه حتى الآن؟».

- أن أحدًا لم يدخل فيه المصحة.

جوار الخليج

انتظر لُو الانفجار الذي لا بد أنه سيقع في أي لحظة، ظلت ڤيك تذرع المكان وكفاها في جيبَي سترة الجيش التي ترتديها. سألته: «هل هذا المقعد لي؟».

نظر إلى المرأة التي لم تكن قط زوجة له، لكنها منحته طفلًا أعطى لحياته معنى. فكرة أنه قد نام معها في يوم وتذوق شفتيها صارت فكرة مرعبة كعنكبوت مُشع.

وقف وُين عند السور الحجري يرمق الخليج مع بعض الأولاد الآخرين. كل نزلاء الفندق قد خرجوا لمشاهدة الألعاب النارية، وتجمعوا ينظرون نحو أفق سماء بوسطن. بعضهم جلس على المقاعد المعدنية، بعضهم راح يجوِّل في المكان حاملًا كأس شمبانيا. الأطفال حولهم يحملون ألعابًا نارية تلمع في الظلام.

رمقت ڤيك ابنها ذا الاثني عشر عامًا في حنان وحزن. لم يلحظها وُين بعد، ولم تذهب هي إليه، ولم تفعل شيئًا يعرِّفه أنها هنا.

قال لُو: «وصلت في الوقت المناسب لبدء الألعاب النارية».

سترته الجلدية المميزة لراكبي الدراجات البخارية مطوية على المقعد جواره. أمسكها ووضعها على ركبتيه مفسحًا مكانًا جواره.

ابتسمت قبل أن تجلس، حين تبتسم ڤيك، يرتفع ركن واحد من ركنَي فمها في تعبير أقرب للندم منه للسعادة. قالت: «أبي اعتاد إشعال الألعاب النارية احتفالًا بالرابع من يوليو. كان ماهرًا».

- ألم تفكري من قبل أن تزوريه في دوڤر مع وُين؟ المسافة لا تجاوز الساعة من البحيرة.
- أعتقد أنني لن أتواصل معه إلا حين أريد تفجير شيء، أو حين أبحث عن «أنفو»[1].
- أنفه؟
- كلا، أنفو. هذا نوع من المتفجرات التي كان يستخدمها أبي في هدم الجسور والكباري وما إلى ذلك. ما هو إلا كيس كبير من خراء الخيل[2] قادر على تدمير أي شيء.
- من تقصدين؟ أباك أم متفجر الأنفو؟
- كلاهما. أعرف ما تريد الحديث بشأنه.
- ربما لم أرِد سوى قضاء يوم الرابع من يوليو معًا كعائلة. ألا يمكن أن يكون هذا هو سبب لقائنا؟
- هل قال وُين شيئًا عن المرأة التي زارت منزلنا أمس؟
- سألني عن تشارلي مانكس.
- سحقًا. لقد أبعدته إلى داخل المنزل. لم أفترض أنه سيكون قادرًا على سماعنا.
- هو سمع شيئًا مما قلتما.
- أي قدر سمع؟ أي جزء؟
- بعض من هذا وذاك. سمع ما يكفي ليثير فضوله.

سألته: «هل كنت تعرف أن مانكس مات؟».

مسح لُو كفيه الرطبتين بالعرق في بنطاله القصير وقال: «مهلًا يا صاح. أولًا كنتِ في المصحة، ثم توفيت والدتك... لم أشأ أن أثقل عليكِ بأمر آخر. بأمانة، كنت سأخبرك في الوقت المناسب. لم أشأ أن أوتِّرك، تعرفين.. لا يريد أحد أن يدفعك ل...».

ثم خبا صوته، فابتسمت بركن فمها وأكملت عبارته: «للجنون؟».

(1) ANFO. (المترجمة)

(2) يستخدم روث الخيل بالفعل في صناعة هذا المتفجر. (المترجمة)

حدق إلى ابنه في الظلام. أشعل وُين صاروخين وظل يلوح بهما وهو يحرك ذراعيه بينما ينثر الصاروخ الشرارات الملونة. بدا مثل إيكاروس، بجناحين مضيئَين يتجه نحو الشمس، قبل أن تذوب أجنحته ويهوي.

- كنت أريد أن أخفف عنك الحِمل لتكوني واعية مع وُين. لا أبعد عني الذنب، ولا أقرِّعك على... ما مررت به. أنا ووُين كنا بخير وحدنا. أتأكد يوميًّا من أنه يغسل أسنانه ويذاكر واجباته المدرسية. هو يحب ذلك جدًّا، وظننت أنه يستطيع التحدث معك، أو أنك ستبرعين في الإنصات إليه. كان يحتاج إلى هذه الأمور الأمومية.

صمت حينًا، ثم أضاف: «كان الأفضل أن أخبرك بمستجدات ما يحدث مع مانكس، كي تتهيئي لزيارة الصحافيين».

- الصحافيون؟!

- أجل. ألم تكن المرأة التي زارتك أمس صحافية؟

كانا يجلسان تحت شجرة منخفضة ذات أزهار وردية. سقطت بضع بتلات وعلقت في شعر ڤيك. لُو سعيد بغض النظر عما يتحدثان عنه. شهر يوليو قد حل، وهو معها، يعيشان أغنية من تلك التي يحبها.

قالت ڤيك: «هي مجرد مختلة».

سألها لُو: «أتعنين أنها من نزلاء المصحة؟».

عقدت ڤيك حاجبيها وقد شعرت بالبتلات على شعرها، فأبعدتها بكفها. لا وقت للرومانسية. قالت: «لم نتحدث أنا وأنت كفاية عن تشارلي مانكس، وكيف وصلت إلى بيته».

هذه المحادثة تتجه إلى حيث لا يحب. هما لم يتحدثا عن تلك الفترة التي قضتها في منزل مانكس، لأن لُو لم يشأ أن يعرف تفاصيل اعتداء العجوز عليها جنسيًّا، أو كيف احتجزها في صندوق سيارته ليومين. الحديث الجاد يؤلم لُو، هو يفضِّل الحديث العادي عن شخصيات القصص المصورة.

قال لها: «قلت لنفسي إنك ستحكين لي حيت تودين ذلك».

- لم أحكِ لك لأنني لا أعرف ماذا حدث.

- تقصدين أنك لا تذكرين. أفهم. لو كنت مكانك لفقدت ذاكرتي بخصوص هذا الخراء.

- كلا! أعني أنني لا أعرف. أتذكر كل شيء لكني لا أعرف.
- لكن... إن كنت تتذكرين، فكيف لا تعرفين ما حدث؟ لا يمكن أن تتذكري وتجهلي في الوقت نفسه.
- فقط إن كنت أتذكر ما حدث بطريقتين مختلفتين. في عقلي قصتان عما حدث، وكلتاهما تبدو حقيقية. أتحب أن تسمعهما؟

كلا. بالطبع لا.

لكنه أومأ إيجابًا.

- في قصة منهما، تلك القصة التي حكيتها للشرطة، تشاجرت مع أمي، هربت، انتهى بي المطاف في محطة قطار ليلًا. اتصلت بأبي وسألته إن كان في وسعي المبيت عنده، فأخبرني أن عليَّ أن أعود إلى البيت. بعدما أنهيت المكالمة معه، شعرت بوخز في ظهري، التفت خلفي، تشوش نظري، سقطت بين ذراعَي مانكس. ظللت في صندوق سيارة تشارلي مانكس طيلة الطريق عبر الولايات، ولم يُخرجني إلا لحقْني بالمزيد من المخدر. كنت واعية بشكل ما أن هناك طفلًا آخر معي، لكنه كان يبقينا منفصلين. حين وصلنا كلورادو، تركني في السيارة وخرج مع الطفل ليفعلا شيئًا. استطعت الخروج من السيارة وأضرمت النار في المنزل لألهيه عني. هربت وعدوت بين الأشجار المزينة بزينة الكريسماس حتى وصلت إلى الطريق السريع ولاقيتك يا لُو. أنت تعرف الباقي. هل تريد أن تسمع القصة الأخرى؟

لم يكن واثقًا بالإجابة، لكنه أومأ كي تُكمل.

- في نسخة مختلفة من حياتي، كان لدي دراجة اشتراها لي أبي وأنا طفلة. استطعت استخدام هذه الدراجة للعثور على المفقودات. كنت أركبها وأعبر بها جسرًا خياليًّا مغطى يوصلني إلى حيث أجد ما أبحث عنه. في مرة فقدت أمي سوارها، وعبرت الجسر لأجد نفسي في نيو هامبشير، على بعد أميال من بيتي، وكان السوار هناك في مطعم تيري. هل تتابعني؟
- جسر خيالي، دراجة خارقة. أتابعك.
- عبر السنين، استخدمت دراجتي وجسري للعثور على مختلف المفقودات، صور فوتوغرافية، دمى محشوة، أشياء مثل هذه. لم تكن

رحلاتي متكررة، فقط مرة أو مرتين في السنة، وظل العدد يقل كلما كبرت. أثار هذا هلعي، فكنت أعرف أن ما يحدث غير طبيعي. حين كنت صغيرة كنت أعتبره خيالًا زائدًا، وحين كبرت، اعتبرته جنونًا، وبدأت أخاف.

- أتعجب لماذا لم تستخدمي قوتك الخارقة هذه للعثور على شخص يؤكد لك أنك لست مجنونة.

اتسعت عيناها وأضاءتا من المفاجأة، وفهم لُو أنها فعلت ذلك حقًّا. سألته: «كيف عرفت؟».

- أقرأ الكثير من القصص المصورة. هذه خطوة تالية منطقية. من كان الشخص الذي عثرت عليه؟

- أخذني الجسر إلى أمينة مكتبة في آيوا.

- لا بد أن تكون الشخصية أمينة مكتبة فعلًا.

- فتاة، لا تكبرني كثيرًا، ولديها قوة خارقة، تستطيع قراءة السكرابل لتكشف أسرارًا، وتتفوه برسائل عن المجهول. شيء من هذا القبيل.

- هل كانت صديقة خيالية؟

ابتسمت ابتسامة معتذرة وهزت رأسها سريعًا وهي تقول: «لم تبد خيالية. بدت لي حقيقية تمامًا».

- ماذا عن الجزء الذي ركبتِ فيه دراجتك إلى آيوا، هل كان حقيقيًّا؟

- أجل. باستخدام طريق الجسر المُختصر.

- في كم من الوقت قطعت المسافة بين ماساشوستس وعاصمة الذرة الأمريكية العظيمة؟

- لا أعرف. ثلاثين ثانية؟ دقيقة على الأكثر.

- قطعت المسافة بين ماساشوستس وآيوا في ثلاثين ثانية؟ ولم يبد لك هذا الجزء خياليًّا؟

- كلا. أتذكر أنه كان واقعيًّا جدًّا.

- حسنًا. أكملي.. أكملي.

- كما أخبرتك، هذه الفتاة من آيوا، معها كيس من قطع السكرابل، تجذب منه حروفًا وترتبها أمامها لتقرأ من خلالها رسالة. السكرابل ساعدها في معرفة الأسرار كما ساعدتني الدراجة في العثور على المفقودات. أخبرتني أن هناك أشخاصًا مثلنا، أشخاصًا قد يفعلون المستحيل لو أن معهم أغراضًا مناسبة. أخبرتني عن تشارلي مانكس، وأنذرتني منه. قالت إن هناك رجلًا خبيثًا يركب سيارة خبيثة ويستخدمها لامتصاص الحياة من الأطفال. هو نوع من مصاصي الدماء... مصاص دماء جوَّال.

- تقولين إنك كنت تعرفين تشارلي مانكس قبل أن يختطفك؟

- كلا، لم أكن أعرف، لأنه لم يختطفني في هذه النسخة من حياتي. في هذه النسخة تشاجرت مع أمي، بعدها استخدمت دراجتي للبحث عنه. كنت أبحث عن المشكلات فوجدتها. عبرت طريق الجسر المُختصر إلى بيت الزلاجة الخاص بتشارلي مانكس. فعل ما في وسعه لقتلي، لكني فررت ثم قابلتك. وكل ما أخبرت به الشرطة من احتجازه لي في صندوق السيارة وانتهاكي كان اختلاقًا لأنني أعرف أنه لن يصدق أحد الحقيقة. يمكنني حكي أي قصة عن تشارلي مانكس، لكني أعرف أن الحقيقة أفظع بكثير. تذكَّر أن في هذه النسخة من قصتي، هو ليس خاطفًا قذرًا، بل مصاص دماء.

لم تكن تبكي، لكن عيناها كانتا رطبتين لامعتين، تعكسان أضواء الألعاب النارية وتفوقانها بريقًا.

قال لُو: «إذًا هو يمتص حيوات الأطفال؟ ثم؟ ماذا يحدث لهم بعدها؟».

- يذهب بهم إلى مكان اسمه أرض الكريسماس. لا أعرف مكانه، ولست واثقة أنه في عالمنا حتى، لكن يبدو أن به خدمة هاتف ممتازة لأن الأطفال يتصلون بي من هناك طيلة الوقت.

نظرت نحو الأطفال الواقفين عند السور الحجري، ووُين معهم، ثم همست: «امتصاص الحياة منهم يدمرهم، ولا يبقى منهم شيء إلا الكراهية والأسنان».

ارتجف لُو وقال: «يا يسوع...».

انفجرت مجموعة من النساء والرجال في الضحك على مقربة، فحدجهم لُو بنظرة استنكار، كيف يحتفلون هكذا في هذه اللحظات المخيفة؟

نظر إلى ڤيك وقال: «إذًا، لنُلخص الأمر. في نسخة من حياتك تشارلي مانكس خاطف أطفال بغيض، وقد اختطفك من محطة القطار وبالكاد هربت منه. هذه هي الرواية الرسمية. ثم هناك نسخة أخرى عبرت فيها جسرًا خياليًّا راكبة دراجتك بمفردك إلى كلورادو. هذه هي الرواية غير الرسمية».

- أجل.

- وكلتا النسختين تبدو لك حقيقية؟

- نعم.

قال لُو وهو يتفحصها بعينيه: «لكنك تعرفين أن قصة الجسر السحري غير مقنعة. في أعماقك تعرفين أنها قصة مختلقة ولا تظنين أن هذا قد حدث لك بالفعل. لذا، كنت مضطرة إلى الاقتناع بأنه قد اختطفك وكل ما تلا ذلك».

- هذا صحيح. هذا ما اكتشفته في المصحة العقلية. قصتي عن الجسر مجرد خيال قوي. أنا لم أتحمل فكرة أن أكون ضحية لذا اختلقت هذه القصة لأكون بطلة، مما يتسق مع خيالاتي السابقة التي لم تحدث قط.

أراح ظهره إلى ظهر المقعد. سترته معلقة على ركبة واحدة. أخذ شهيقًا عميقًا محاولًا الاسترخاء. لم يكن هذا سيئًا. لقد فهم الآن ما كانت تخبره حين قالت إنها مرت بأحداث فظيعة أفقدتها عقلها. عاشت في الخيال فترة كما يمكن أن يحدث لأي شخص، وهي الآن مستعدة لإبعاد الخيالات والتعامل مع الأمور كما هي.

قال لُو بعد تفكير: «أوه. اللعنة، هذا أبعدنا عما كنا نتحدث فيه. ما علاقة هذا بالمرأة التي زارتك أمس؟».

- هذه هي ماجي لي.

- ماجي لي؟ من تكون بحق الجحيم؟

- أمينة المكتبة التي قابلتها في آيوا. بحثت عني حتى وجدتني في هافِرهيل، كي تخبرني أن تشارلي مانكس قد عاد من الموت، وهو الآن يبحث عني.

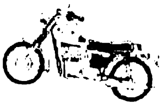

وجه لُو المستدير سهل القراءة كما لو أنه رسم هزلي. لم تتسع عيناه فقط حين سمع أن ڤيك قابلت امرأة من خيالها، بل جحظتا مما جعله يبدو كشخصية من القصص المصورة تناولت لتوها جرعة من مشروب مجهول. لو أن دخانًا خرج من أذنيه لاكتملت الصورة.

أحبت ڤيك لمس وجهه، وقلما قاومت هذه الرغبة. وجهه بالنسبة إليها كالكرة المطاطية بالنسبة إلى طفل. كانت طفلة في المرة الأولى التي قبَّلته فيها. كانا طفلين.

- يا صاح! ما هذا؟! ظننتكِ قلتِ إن أمينة المكتبة شخصية من خيالك؟ مثل الجسر المغطى.

- أجل. هذا هو ما قررته في المصحة، كل هذه الذكريات محض خيال خلقته كي أحمي نفسي من الحقيقة.

- لكن... لا يمكن أن تكون من خيالك، لقد جاءت إلى البيت، ورآها وُين، وتركت مظروفًا ومنه عرف وُين ما عرف عن تشارلي مانكس.

التاع وجه لُو فجأة، وقال: «آه، يا صاح! لم يكن مفترضًا أن أخبرك عن المظروف».

- وُين نظر إلى ما فيه؟ سحقًا. قلت لها أن تأخذه معها. ما كان له أن يراه.

ضرب لُو بقبضته ركبته التي تشبه ركبة الفيل وقال: «لا تخبريه أنني أخبرتك. أنا فاشل في الحفاظ على الأسرار».

- أنت تلقائي يا لُو، وهذه صفة من الصفات التي جعلتني أحبك.

رفع عينيه نحوها ونظر إليها نظرة متعجبة.

- أنا أحبك، وأنت تعرف. ليس ذنبك أنني أفسدت كل شيء. ليس ذنبك أنني مُخربة.

أحنى لُو رقبته وفكَّر في الأمر. سألته: «ألن تخبرني أنني لست بهذا السوء؟».

- إممم... كنت أفكر كيف أن كل رجل يحب فتاة رائعة ذات ماضٍ مملوء بالأخطاء، قد يكون هو أحد تلك الأخطاء.

ابتسمت ومدت يدها عبر المسافة بينهما لتضعها على يده وهي تقول: «لدي ماضٍ ذاخر بالأخطاء يا لُو كارمودي، لكنك لست واحدًا منها. آه يا لُو، تعبت من أن أعيش في عقلي. أخطائي سيئة ومبرراتها أسوأ. هذا هو العامل المشترك بين قصتَي حياتي. العامل الوحيد. في القصة الأولى أنا كارثة متنقلة لأن أمي لم تعانقني كفاية، ولم يعلمني أبي كيف أطيِّر الطائرات الورقية. في القصة الثانية، أنا مجنونة فوضوية...».

- كفى.. كفى.

- ... ودمرت حياتك وحياة وُين...

- توقفي عن جلد نفسك.

- ... لأن كل تلك الرحلات عبر طريق الجسر المُختصر جعلتني مختلة. في كل مرة كنت أعبره فيها كان يأخذ من عقلي المزيد، لأنه جسر، ولأنه في عقلي فقط. لا أتوقع أن يفهم أحد ما أقول، بالكاد أفهمه أنا. أنا خارجة من عالم التحليلات الفرويدية.

- فرويدية أو غيره، أنت تتحدثين عن الأمر كأنه واقع.

نظر إلى الليل أمامه وأخذ شهيقًا بطيئًا عميقًا، ثم أضاف: «هل هو كذلك؟».

حاولت ڤيك كبح كلمة (أجل) بكل ما أوتيت من قوة.

- كلا. لا يمكن أن يكون واقعًا. أحتاج ألا يكون كذلك. لُو، هل تذكر الرجل الذي أطلق الرصاص على عضوة الكونجرس في أريزونا؟ كان يظن أن الحكومة تحاول استعباد البشرية عبر الخُطب. بالنسبة إليه لم يكن مجالًا للشك أن هذا ما يحدث. الإثبات في كل مكان حوله. حين ينظر عبر النافذة ويرى أحدهم يسير مع كلبه، يكون وقتها متأكدًا أنه جاسوس أرسلته وكالة المخابرات الأمريكية لمراقبته. مرضى الفصام يخلقون ذكريات طيلة الوقت، لقاء مشاهير، اختطاف، انتصارات بطولية. هذه هي طبيعة الضلالات. هل تذكر الليلة التي وضعت فيها كل هواتفنا في الموقد وأحرقتها هي والمنزل؟ كنت متأكدة أن الأطفال الموتى يتصلون بي من أرض الكريسماس. كنت أسمع رنين جرس الهاتف حين لم يكن أحد غيري يسمعه. كنت أسمع أصواتًا لا يسمعها غيري.

- لكن يا ڤيك، ماجي لي كانت أمام منزلك. أمينة المكتبة التي تخيلتها! وُين رآها أيضًا!

عانت ڤيك كي تضع ابتسامة على وجهها وقالت: «حسنًا، سأحاول تفسير كيف حدث هذا. الأمر أبسط مما تتخيل. لا يوجد شيء سحري فيه. أنا لدي ذكريات عن طريق الجسر المُختصر وعن الدراجة التي كانت تُقلني إلى حيث أعثر على الأشياء. إلا أنها لم تكن ذكريات، كانت ضلالات، أليس كذلك؟ وفي المصحة حضرنا مجموعات علاجية تكلمنا فيها عن أفكارنا المجنونة. كثير من المرضى هناك سمعوا قصصي عن تشارلي مانكس والجسر. أعتقد أن ماجي لي واحدة منهم... من أكثر المجانين جنونًا. ارتبطت بتخيلاتي وأدخلت نفسها فيها».

- ماذا تعنين أنها كانت واحدة من المرضى؟ هل كانت في مجموعتك العلاجية أم لا؟

- لا أتذكر حضورها الجلسات. ما أتذكر أنني قابلت ماجي في مكتبة بلدة صغيرة في آيوا. لكن هذه هي طبيعة الضلالات. أنا دائمًا *أتذكر* أمورًا.

ورفعت إصبعيها كقوسين حول كلمة «أتذكر»، ثم أردفت: «الذكريات تهاجمني فجأة. فصول جنونية كاملة من تلك القصة التي يكتبها خيالي، لكن بالطبع لا يوجد شيء حقيقي فيها. عقلي يختلقها فورًا. خيالي يمده بها، وجزء مني يقرر فورًا أن يقبلها كحقائق. قالت ماجي لي إنها قابلتني حين كنت طفلة، وفورًا اختلق عقلي حكاية تعزز ما قالت. لُو، أنا حتى أتذكر حوض الأسماك في مكتبها، وبدلًا عن الزلط في قاع الحوض، كانت تضع قطع السكرابل. هل ترى كم أن الأمر جنوني؟».

- ظننتك يا ڤيك تتابعين تناول الدواء، وظننتك بخير الآن.

- الدواء الذي أتناوله ما هو إلا ثقَّالة ورق، كل ما يفعله هو تثبيت الخيالات فلا تتحرك، لكنها ما زالت هناك، وأي رياح قوية تهب ستبعثرها في كل اتجاه، وستحررها.

التقت عيناهما وهي تضيف: «لُو، ثق بي. سأعتني بنفسي، ليس فقط لأجلي، بل لأجل وُين. أنا بخير».

لم تخبره أن دواءها قد نفد منذ أسبوع، واضطرت أن تَمُد فترة استخدام الأقراص المتبقية خشية أعراض الانسحاب. لم تُرِد أن تقلقه، هي خططت لشراء الدواء في اليوم التالي.

- سأخبرك شيئًا إضافيًّا. أنا لا أتذكر مقابلة ماجي لي في المصحة، لكن يمكن أن أكون قد قابلتها ببساطة ونسيت. كانوا يضخون الدواء في عروقي طيلة الوقت حتى إنني لو كنت قد قابلت باراك أوباما نفسه ما كنت لأتذكر. ماجي لي -باركها الرب- مجنونة، وعرفت ذلك لحظة رأيتها. رائحتها مثل رائحة مآوي المُشردين، وذراعاها مغطاتين بآثار الحقن أو حروق السجائر أو كلتيهما. على الأرجح كلتاهما.

لُو جالس جوارها مُنكس الرأس، يفكر.

- ماذا لو عادت مرة أخرى؟ وُين كان مرعوبًا.

- سنتجه إلى نيو هامبشير غدًا، لا أعتقد أنها ستجدنا هناك.

- يمكنكما أن تأتيا إلى كلورادو. لست مضطرة إلى الإقامة معي، أنا لا أطلب منك أي شيء. لكن إذا وجدنا لك مكانًا تستطيعين فيه استكمال كتاباتك، فسيتمكن الولد من إمضاء اليوم معي والمبيت معك. لدينا أشجار وماء في كلورادو، لا تقلقي!

تراجعت في مقعدها. السماء منخفضة معبقة بالدخان. السحب تعكس أضواء المدينة، فتضيء بلون وردي مُترب باهت. في جبال جَنباريل، حيث يعيش وُين، السماء عميقة ذات نجوم أكثر مما يمكن أن تراه من مستوى سطح البحر. عوالم أخرى فوق هذه الجبال، وطرق أخرى.

أخيرًا قالت: «أعتقد أنني سأود ذلك يا لو. هو سيعود إلى كلورادو في سبتمبر ليبدأ الدراسة، وسآتي معه... لو أن هذا مناسبٌ لك».

- طبعًا سأسعد بهذا للغاية! هل جننتِ؟

للحظات طالت حتى سقطت بضع بتلات أخرى على شعرها، لم يتحدثا، ثم تلاقت أعينهما فانفجرا في الضحك. ضحكت ڤيك بقوة وحرية حتى إنها كانت تجاهد كي تُدخل الهواء إلى رئتيها.

قال لُو: «معذرة، أسأت انتقاء الكلمة».

التفت وُين -الذي كان يقف على بعد عشرين قدمًا منهما- إليهما، ثم لوَّح لهما ممسكًا بعود مفرقعات قد انطفأ وتتصاعد منه شرائط الدخان.

قالت ڤيك للُو وهي تلوح لوُين: «عد إلى كلورادو وابحث لي عن مسكن، وعند نهاية أغسطس سيعود وُين وسأكون معه. كان يمكن أن نعود الآن، لكن

ما زال لدينا وقت في منزل البحيرة حتى آخر أغسطس، وأمامه ثلاثة أسابيع من المعسكر الصيفي الذي دفعت اشتراكه بالفعل».

قال لُو: «وعليكِ أن تنهي إصلاح الدراجة البخارية كذلك».

- هل أخبرك وُين بهذا؟

- لم يخبرني فقط، بل أرسل لي صورًا عبر هاتفه المحمول. خذي هذه...

ناولها لُو سترته الضخمة الثقيلة، المصنوعة من خامة صناعية شبيهة بالجلد، مبطنة بألواح سميكة، درع من التيفلون. كانت تراها أجمل سترة في العالم منذ اللحظة الأولى التي لفت فيها ذراعيها حولها، قبل ستة عشر عامًا. الجيبان الأماميان مطبوع عليهما شعار درع كابتن أمريكا وحال لونهما من الزمن والتعرض للشمس. رائحة السترة رائحة لُو، رائحة البيت والأشجار والعرق والشحم والهواء النظيف الذي يهمس بين ممرات الجبال.

قال لُو: «ربما تحميكِ هذه من القتل. ارتديها».

في اللحظة نفسها، أضاءت السماء فوق المرفأ بضوء أحمر قاتم، ثم أمطرت شذرات بيضاء.

لقد بدأ السيل.

I-95

بعد أربع وعشرين ساعة، عادت ڤيك ووُين وهوبر إلى بحيرة وينيبيسوكي. أمطرت السماء طيلة الطريق مطرًا صيفيًّا ثقيلًا أجبرها على المحافظة على سرعتها تحت خمسين ميلًا في الساعة.

كانت قد عبرت الحدود ودخلت نيو هامبشير حين تذكرت أنها لم تشترِ دواءها. احتاجت كل تركيزها كي تحافظ على مسارها داخل حارة الطريق، لكن حتى وهي تنظر إلى المرآة الأمامية من وقت لآخر، لم تلاحظ السيارة التي تتبعها على مسابقة مائتي ياردة. في الليل لا يمكن التمييز بين سيارة وأخرى.

بحيرة وينيبيسوكي

استيقظ وُين في فراش أمه قبل موعده. شيء أيقظه ولم يدرك كُنهه إلا عندما سمع صوت الطرقات مرة أخرى على باب الحجرة. انفتحت عيناه، لكنه لم يشعر أنه قد استيقظ بعد، وهي حالة قد تلازمه باقي اليوم سيصير لكل شيء على إثرها سمت الأحلام، مخيف غريب له معنى باطني ما.

لا يتذكر أنه قد نام في فراش أمه، لكنه لم يندهش حين وجد نفسه فيه. أحيانًا ما تنقله إلى فراشه بعدما يغفو. كان يتفهم أن وجوده معها ضروري، كغطاء إضافي في ليلة باردة. هي ليست في الفراش معه الآن، دائمًا تستيقظ قبله.

قال وهو يفرك عينيه: «مَن؟».

توقف الطرق، ثم بدأ مرة أخرى بسرعة وبقوة. سأل وُين: «مَن بالباب؟».

توقف الطرق مجددًا، وانفتح باب الحجرة بضع بوصات، وارتمى ظل رجل على الحائط. استطاع وُين أن يرى ظل الأنف الكبير المعقوف، وجبهة تشارلي مانكس المائلة العريضة.

حاول الصراخ أو النداء على أمه، لكن ما صدر منه لم يكن سوى أزيز ضعيف، كصوت ترس مكسور في آلة. لو نظرنا إلى الرجل في صورة مقربة، لرأيناه يحدق إلى الكاميرا بعينيه الجاحظتين. أسنانه العلوية البارزة منغرزة في شفته السفلى، مما يعطيه سمت التشتت والحيرة. لم يميزه وُين من صورته الجانبية، لكنه تعرفه فورًا من ظله.

تحرك الباب إلى الداخل قليلًا، واستمر صوت الطرقات. جاهد وُين كي يتنفس، كان يريد أن يصرخ طلبًا للمساعدة، لكن مرأى الظل جمَّده وأخرسه ككف قد وضِعت على فمه.

أغلق وُين عينيه وعبَّ الهواء سريعًا وهو صرخ: «ابتعد!».

سمع الباب ينفتح أكثر وتصر مفصلاته. يد توضع على الفراش جوار ركبته. أطلق وُين أنَّة ضعيفة بالكاد تُسمع. فتح عينيه ونظر... هوبر!

الكلب الكبير فاتح اللون يحدق إلى وجه وُين، وقائمتاه الأماميتان على الفراش. نظرته تعيسة، منكوبة.

نظر وُين إلى ما خلف الكلب، الباب الموارب، ولم يكن مانكس هناك. فهم وُين أنه لم يكن هناك قط، وأن خياله نجح في خلقه من مجرد ظل عشوائي، إلا أن بعضًا من عقله كان موقنًا أنه قد رأى ظله مرسومًا بدقة على الحائط كأنما خُط بالحبر.

الباب مفتوح كفاية ليرى وُين الممر الخالي أمام الحجرة. لا أحد هناك.

كان موقنًا أنه قد سمع طرقات، لا يمكن أن يكون قد تخيل هذا. سمع صوت الطرقات مرة أخرى، نظر إلى الكلب فوجده يضرب الأرض بذيله السميك الثقيل.

قال وُين وهو يداعب الشعر الناعم الكثيف خلف أذني الكلب: «مرحبًا يا ولد. أتعرف؟ لقد أرعبتني. ماذا أتى بك؟».

استمر هوبر في التحديق إلى وجهه. لو طلب أحدهم من وُين أن يصف تعبير وجه الكلب الكبير الدميم، لقال إنه تعبير اعتذار، لكنه على الأرجح تعبير جوع لا أكثر.

- سأجلب لك ما تأكل. أهذا ما تريد؟

أصدر هوبر صوتًا كصوت ترس بلا أسنان يدور بلا توقف، وهو صوت يعني الرفض.

لكن... كلا. لقد سمع وُين هذا الصوت منذ قليل وظنه صادرًا منه لا من هوبر. الصوت خارج الحجرة، في مكان ما في ظُلمة الصباح المبكر.

ظل هوبر يحدق إلى وجه وُين. عيناه راجيتان تعيستان، كأنه يعتذر ويقول: «*آسف للغاية، كنت أود أن أكون كلبًا مطيعًا*. كنت أود أن أكون كلبك

المطيع». سمع وُين هذا الخاطر في عقله كأن هوبر يحدثه به مثل الكلاب المتحدثة في القصص المصورة.

أزاح وُين هوبر جنبًا، وقام ينظر من النافذة إلى الباحة الأمامية. لم يستطع أن يرى في الظلام سوى انعكاس وجهه في الزجاج.

ثم رأى مخلوقًا ذا عين واحدة يفتح عينه عن يمين النافذة على مسافة ستة أقدام، فصعد قلبه إلى حنجرته. انفتحت العين على اتساعها ببطء، وأضاءت بنور خافت مُترب لونه بين الأصفر الباهت والبرتقالي. قبل أن يصرخ وُين، خفت الضوء حتى صار بؤبؤًا نحاسي اللون يلمع في الظلام، حتى اختفى تمامًا.

زفر وُين مرتجفًا. ما رأى لم يكن سوى مصباح دراجة بخارية. نزلت أمه عنها وأزاحت شعرها عن وجهها. رؤيتها عبر الزجاج القذر كرؤية شبح بلا معالم. كانت ترتدي بلوزة ذات ظهر مكشوف، وبنطالًا قصيرًا يكشفان عن وشومها، فبدت كأن الليل نفسه يختلط بالوشوم على جلدها. لطالما عرف وُين أن أمه مغلقة على بعض الظلام، تخفيه عن الجميع.

رأى هوبر يتقافز حولها، والماء يقطر منه، يبدو أنه كان يسبح في البحيرة. لكن هذا غير منطقي. هوبر كان يقف جوار فراشه. حين نظر وُين خلفه وجد نفسه وحيدًا.

لم يفكر طويلًا في الأمر، كان متعبًا للغاية. ربما ما أيقظه هو حلم بالكلب. ربما هو يجن مثل أمه.

ارتدى وُين بنطالًا قصيرًا مقصوصًا من آخر طوله، وخرج إلى الفجر البارد. أمه تمسح الدراجة بخرقة، وفي يدها الأخرى أداة غريبة، المفتاح الذي يشبه الخطاف أو الخنجر المعقوف.

سألها: «كيف انتهى بي الأمر في فراشك؟».

- كوابيس.

- لا أتذكر أنني حلمت بكوابيس. مكتبة ياسمين

انطلقت طيور سوداء تشق الضباب فوق سطح البحيرة.

- لم تكن أنت من حلمت بها.

- هل وجدت القرص المُسنن المكسور؟

- كيف عرفت أن العطل من قرص مسنن؟

- لا أعرف. ربما تبينته من الصوت الذي صدر عنه حين حاولت تشغيله.

- هل كنت تمضي وقتًا في مرأب التصليح؟ كنت تعمل مع والدك؟

- أحيانًا. يقول إنني ذو نفع لأن يديَّ صغيرتان، أستطيع أن أصل إلى حيث لا يقدر هو. أنا بارع في فك الآلات، لكنني خائب في تجميعها.

- أهلًا بك في نادي المخربين.

عملا معًا على الدراجة البخارية. لم يدرك وُين كم من الوقت أمضيا، لكنهما حين انتهيا، كانت الشمس قد جاوزت ارتفاع خط الأشجار.

لم يتحدثا طيلة عملهما، وكان هذا أفضل بالنسبة إلى وُين من الثرثرة حول المشاعر أو عن والده أو الفتيات.

في لحظة ما، جلس وُين القرفصاء ونظر إلى أمه التي يلوث الشحم ذراعيها حتى المرفقين، وأرنبة أنفها، مع لطخات دماء من جرح في يدها. توقف وُين عما يفعل، ونظر إلى نفسه ليجد أنه ملوث مثلها.

قال: «لا أعرف كيف ستُزال هذه الأوساخ عنا».

قالت ڤيك وهي تُبعد شعرها عن عينيها، وتشير بذقنها نحو الأمام: «لدينا البحيرة. أقول لك، لو سبقتني إلى الطوف، سنتناول الإفطار في مطعم جرينبو».

- وماذا لو سبقتني؟

- سيكون هذا إثباتًا أن في مقدرة المرأة العجوز هزيمة مقامر صغير مثلك.

- ما هو المقامر؟

- المقامر هو...

قبل أن تكمل، كان قد نزع قميصه ورماه على رأس هوبر، وراح يعدو فوق الندى الساخن المتناثر على العشب. جرت جواره، وأخرجت لسانها له. وصلا المرفأ معًا، وخطت أقدامهما على الخشبة في الوقت نفسه.

في منتصف الطريق إلى خط النهاية، مدت يدها تدفع وُين، وسمعها تضحك وهي تشاهده يترنح كالسكارى، ثم يضرب بذراعيه وساقيه الهواء قبل أن يخترق الماء، ثم سمع صوتها تغطس جواره بعد لحظة.

لوح بذراعيه وهو يصعد إلى سطح الماء، ويشهق ويبصق محاولا السباحة نحو الطوف الذي يبعد عشرين قدمًا من الشاطئ. هو عبارة عن منصة من أخشاب رمادية تطفو فوق براميل نفط صدئة. بدا ككارثة بيئية. ظل هوبر ينبح في غيظ من ناحية المرفأ خلفهما، هو يكره الأوقات السعيدة إلا إذا كان هو محورها.

كاد وُين يصل إلى الطوف، حين لاحظ أنه وحده في البحيرة. الماء صفحة من زجاج معتم، وأمه ليست في أي مكان على مرمى بصره. نادى وُين في خوف: «أمي؟ أمي؟».

- خسرت!

جاءه صوتها عميقًا، ذا صدى. غطس، وسبح تحت سطح الماء، ثم ظهر تحت الطوف. كانت هناك في الظلام، وجهها وشعرها يلمعان. ابتسمت له حين ظهر جوارها.

- انظر، كنز مفقود.

أشارت نحو شبكة العنكبوت المتأرجحة، على بعد قدمين، وقد زينتها آلاف من قطرات الماء التي تضوي كالآلئ والألماسات.

- هل سنذهب للإفطار؟

- أجل. هزيمة المقامر شيء عظيم، لكنها لن تشبعني.

الطريق غير الممهد

عملت والدته على إصلاح الدراجة البخارية طيلة ما بعد الظهيرة.

السماء ملبدة باليوم. يهزم الرعد مرة، صوته كصوت شاحنة تعبر جسرًا حديديًّا. انتظر وُين المطر، لكنه لم يهطل.

سألها: «هل فكرت أنه كان من الأفضل أن تتبني دراجة بخارية من نوع هارلي ديفيدسن بدلًا عن إنجاب طفل؟».

- بالطبع ستكون تكلفة إطعامها أرخص. ناولني هذه الخرقة.

ناولها لها. مسحت كفيها، ثم وضعت مقعدًا جلديًّا فوق بطارية جديدة، ثم ركبت. ببنطالها الجينز الممزق وسترتها السوداء الجلدية، وحذاءَي الركوب، والوشوم على جسدها، كانت أبعد ما تكون عن وصف «أم».

أدارت المفتاح، وضغطت زر التشغيل، فاستيقظ الوحش ذو العين الواحدة. وضعت قدمها على دواسة التشغيل، ثم رفعت جسدها، ونزلت بوزنه إلى أسفل، فأزَّت الدراجة ولم تعمل.

- بورِكتِ!

كررت ڤيك ما فعلت مرة أخرى، فزفر المحرك ونفخ الغبار وأوراق الشجر من أنبوب العادم. لم ترُق لوُين الطريقة التي تضغط بها ڤيك بوزنها كله على بدال التشغيل، كان يخشى أن ينكسر شيء، وليس بالضرورة أن يكون الشيء في الدراجة.

قالت بصوت خفيض: «هيا. كلانا يعرف لماذا وجدك الصبي. هيا اشتغلي!».

دعست الدواسة مرة أخرى، وأخرى حتى غطى شعرها وجهها. قعقع المحرك ونفث المزيد من الهواء. قال وُين: «لا يهم إن كانت لن تعمل».

فجأة كره كل هذا، وبدا له جنونًا... مثل الجنون الذي رآه على أمه حين كان طفلًا.

- لنجرب لاحقًا.

تجاهلته، رفعت جسدها إلى أعلى، ودعست الدواسة.

- لنذهب في جولة بحث أيتها العاهرة! تحدثي إليَّ!

قعقع المحرك، وتصاعد من ماسورة العادم دخان أزرق قذر. كاد وُين يسقط من اتكائه على السور، وجثا هوبر ينبح في ذعر.

أخيرًا هدر المحرك مُصدِرًا صوتًا مرعبًا، مثيرًا في آن واحد. صاح وُين: «لقد دارت!».

أومأت ڤيك. سألها: «ماذا تقول الدراجة؟».

عقدت حاجبيها متسائلة، فقال موضحًا: «أنت أمرتِها أن تتحدث إليكِ، ماذا تقول؟ أنا لا أفهم لغة الدراجات البخارية».

- أوه.. تقول، لننطلق يا فضة[1]!

علا صوت وُين وهو يقول: «سأحضر خوذتي».

- لن تأتي معي.

كلاهما يصرخ كي يسمعا بعضهما بعضًا وسط صوت المحرك الهادر.

- لمَ لا؟!

- ليست مأمونة بعد. لن أبتعد. سأعود خلال خمس دقائق.

- انتظري!

رفع وُين إصبعًا وهو يناديها، ثم التفت وانطلق إلى المنزل.

(1) صيحة كان يرددها الطفل بطل رواية «الشيء» لستيفن كينج حين كان يُحمس دراجته. (المترجمة)

الشمس نقطة بيضاء باردة. الرغبة في السير عبر الطرقات جامحة، صعب تجاهلها. أرادت أن تقطع الطرق السريعة وترى إمكانات الدراجة، وعلامَ قد تعثر.

انغلق باب المنزل الأمامي. عاد ابنها سريعًا حاملًا سترة لُو والخوذة. قال لها: «عودي سالمة، اتفقنا؟».

- هذا هو ما أخطط له.

ارتدت السترة وأكملت: «سأعود سريعًا. لا تقلق».

أومأ.

العالم يرتج من حولها من قوة المحرك. كل شيء يهتز، الأشجار، الطريق، السماء، المنزل، الكل يرتجف ويهدد بالانفجار. أدارت الدراجة نحو الطريق. اعتمرت الخوذة ولم تغلق السترة. قبل أن تنطلق، انحنى ابنها أمام الدراجة وجذب شيئًا من التراب.

- ماذا؟

ناولها المفتاح الذي يشبه السكين المعقوفة، وكلمة «تِريَمف» محفورة عليه. شكرته، ودست المفتاح في جيب بنطالها. قال لها الصبي: «عودي سريعًا».

- كن هنا في انتظاري.

وانطلقت. في اللحظة التي تحركت فيها، توقف كل شيء عن الارتجاف. تراجع السور الخشبي إلى الخلف عن يمينها. مالت إلى الأمام وهي تنعطف إلى الطريق السريع كأنها تطير، ولا تمس الأسفلت بأي شكل.

انتقلت إلى السرعة الثانية، ابتعدت المنازل خلفها. ألقت نظرة أخيرة إلى ما وراء ظهرها فرأت وُين يلوح لها، وهوبر يقف على الطريق يرمقها بنظرة فضولية يائسة.

ثم زادت ڤيك السرعة، فانطلقت تِريَمف، واضطرت إلى التمسك بالمقود كي لا تسقط. سترتها غير مُغلقة، فانتفخت بالهواء كالبالون حولها. أكملت ڤيك اندفاعها نحو الضباب المنخفض، ولم تر زوجَي المصابيح الأمامية التي تتبعها، ولم يرها وُين أيضًا.

الطريق رقم 3

تراجعت البيوت والأشجار والباحات خلفها كأجرام مشوشة يخفيها الضباب.

أبعدتها الدراجة البخارية عن الأفكار، وكانت موقنة أنها ستفعل منذ اللحظة التي رأتها فيها في المرأب. عرفت أنها قوية وسريعة كفاية لتبعدها عن أسوأ ما فيها، عقلها الذي يحاول وضع كل شيء في سياق منطقي.

ضغطت بدال تغيير التروس بقدمها مرة تلو مرة، وقفزت تِريَمف في الهواء تبتلع الطريق من تحتها.

أعتم الضباب حولها وانغلق، لا يخترق لونه اللؤلؤي سوى ضوء الشمس القادم من مكان ما بالأعلى ناحية اليسار، جاعلًا العالم يبرق من حولها كأنما ينير ذاتيًّا. فكرت ڤيك في أن المرء يعجز عن التفكير في جمال أكثر من هذا في العالم.

هسَّ الطريق المبتل من تحت الإطارين ككهرباء استاتيكية، وشعرت بألم بسيط خلف عينها اليسرى.

لمحت حظيرة من خلف الضباب طويلة مرتفعة، مائلة. خداع النظر أوهم ڤيك أنها مبنية في وسط الطريق، لا على بعد مئة ياردة منه، رغم أنها تعرف أن الطريق السريع سينعطف بقوة نحو اليسار في أي وقت، وسيطوحها إلى الجهة الأخرى. ابتسمت للتشابه بين الطريق والجسر السحري.

أخفت ڤيك رأسها وراحت تنصت إلى فحيح الإطارين على الأسفلت المبتل، وكيف يبدو كصوت تشويش الراديو. تساءلت عما يسمعه المرء بالتحديد إن

ظل يستمع إلى التشويش؟ كان لديها فكرة في مكان ما من عقلها أن هذا التشويش هو ما يسبح فيه الكون بأسره.

انتظرت أن ينحني الطريق ليضعها خلف الحظيرة، لكنه ظل مستقيمًا. الطريق مستطيل معتم أمامها حتى اختفت هي في الظلال، ثم لم يعد هناك حظيرة، ولم تدرك أن الطريق يشق هذا المستطيل إلا متأخرًا. الضباب يزداد دُكنة وبرودًا.

طرقت ألواح تحت الإطارين، وتراجع الضباب وقد حملتها الدراجة بعيدًا عنه، وأدخلتها إلى باطن الجسر المغطى. عبَّت الهواء وشمَّت نتن الوطاويط.

ضغطت بكعبها على المكبح وأغمضت عينيها، وهي تهمس لنفسها: *هذا ليس حقيقيًّا*.

انضغط المكبح إلى الأسفل، ثم انكسر وغاص في ألواح الأرضية، ومع انكساره تناثرت الصواميل والتروس خلفه.

رفرف سلك المكابح خلف قدم ڤيك، وظل يضرب الأرض، ولمس حذاؤها الألواح الخشبية النخرة. جزء من عقلها كان مصممًا أنها تهلوس، وأنها ستفيق إن تركت الدراجة.

نظرت إلى أسفل وإلى الخلف لترى ماذا يحدث، فرأت طوقًا انفلت من مكان ما من الدراجة، يدور وسط الظلال، واهتز الإطار الأمامي. دار العالم من حولها وراح الإطار الخلفي ينزلق فوق الألواح غير المثبتة بعناية.

رفعت وزنها من فوق المقعد وألقت بنفسها يسارًا وهي تتمسك بالدراجة بقوة إرادتها لا بقوتها العضلية. تحركت الدراجة وانزلقت حتى توقفت أخيرًا قبل أن تسقط جانبًا. أنزلت ڤيك قدمها أولًا وانتظرت. اصطكت أسنانها وصدح صدى صوت أنفاسها في تجويف الجسر المغطى الذي لم يتغير منذ تركته آخر مرة، منذ ستة عشر عامًا.

ارتعدت داخل سترتها الجلدية وهي تهتف: «هذا ليس حقيقيًّا».

تزايد صوت التشويش القادم من الجهة الأخرى من الجدار. صبت ڤيك تركيزها على تنفسها وانتظامه، وراحت تشهق وتزفر ببطء بشفتين مزمومتين. نزلت عن الدراجة ووقفت جوارها، تمسك بمقوديها. رددت للمرة الثالثة: «*هذا ليس حقيقيًّا*».

أغلقت عينيها، ثم دفعت الدراجة البخارية نحو المكان الذي أتت منه. سارت وشعرت بالألواح تغوص تحت قدميها، وتحت ثقل وزن تِريَمف. ضاق صدرها وصعب عليها التنفس. شعرت بالمرض. يتوجب عليها أن تعود إلى المصحة العقلية. هي لن تصير أم وُين الصالحة العاقلة أبدًا. تقلصت حنجرتها هذا الخاطر.

- هذا ليس حقيقيًّا. هذا الجسر غير موجود. أنا أهلوس لأنني لست منتظمة في تناول دوائي. هذا كل شيء.

خطت خطوة فأخرى، ثم فتحت عينيها لتجد نفسها تقف مع دراجتها البخارية وسط الطريق، وحين نظرت خلفها، لم تر سوى الطريق السريع.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

منزل البحيرة

ضباب بعد منتصف الظهيرة هو الباب الذي انفتح أمام ڤيك مَكوين ودراجتها الخبيثة، ثم انغلق خلفها مبتلعًا حتى صوت المحرك.

قال وُين: «تعال يا هوبر، لندخل».

ظل هوبر واقفًا ينظر إليه في عدم فهم. ناداه وُين مرة أخرى وهو واقف يفتح باب المنزل يدعو الكلب للدخول، وبدلًا عن ذلك ظل الكلب ينظر إلى الطريق مؤرجحًا ذيله الكثيف، لكنه لم يكن ينظر إلى الجهة التي اختفت فيها والدة وُين، بل الجهة الأخرى.

لم يستطع وُين أن يجزم بماهية ما ينظر إليه، مَن يعرف ماذا ترى الكلاب، وما تعني لهم الأجرام التي تظهر في الضباب، وأي نيات غامضة ينتوون؟ وُين يؤمن أن الكلاب تتطيَّر كما يتطير البشر، وربما أكثر.

قال وُين وهو يغلق الباب: «على راحتك».

جلس أمام التلفاز وفي يده هاتفه المحمول يراسل أباه من خلاله لدقائق.

هل وصلت المطار بعد؟

أجل. أجّلوا موعد طائرتي إلى الثالثة. لذا فأنا ذاهب.

سأظل هنا حينًا.

هذا مقرف. ماذا ستفعل؟

سأغض قليلًا في صالة الطعام. سأغض حتى يصرخ الطعام.

شغَّلت أمي الدراجة. هي تركبها الآن.

هل ترتدي خوذتها؟

أجل. ذكرتها بها، وكذا السترة.

عظيم. تزيد السترة قوة التدريع بمقدار 5+

هاهاها. أحبك. كُن آمنًا في رحلتك.

لو مُت في حادث تحطم الطائرة، تذكَّر أن تجمع قصصك المصورة وتحفظها. أحبك أيضًا.

ثم لم يعد هناك ما يقال. شغل وُين التلفاز فوجد رسومًا متحركة «سبونج بوب»، وكان يعلن دائمًا أنه قد كبر على متابعتها، لكن حين تبتعد أمه، ينسى إعلانه الرسمي هذا ويفعل ما يشاء.

نبح هوبر.

قام وُين واتجه نحو النافذة الواسعة، لكنه لم يستطع أن يرى هوبر في أي مكان. اختفى الكلب وسط الضباب الأبيض. أنصت ليعرف إن كانت الدراجة البخارية في طريق العودة، كان يشعر أن غياب أمه قد طال أكثر من اللازم.

ركز في الشاشة وانعكاسها على النافذة. سبونج بوب يتحدث إلى سانتا كلوز، سانتا غرز خطافًا في رأس سبونج بوب ثم ألقاه وسط شوال الألعاب. أدار وُين رأسه ليرى سبونج بوب يتحدث إلى باتريك، ولم يكن هناك سانتا كلوز.

في طريقه إلى الأريكة، سمع هوبر ينبح أمام الباب وذيله يضرب الأرض كما كان يفعل في تلك الليلة.

- أنا آتٍ. اصبر.

فتح الباب، ولم يكن هوبر خلفه، بل رجل مشعر قصير يرتدي زيًّا رياضيًّا رماديًّا ذا خطوط ذهبية، ويشمر كُميه إلى قرب كوعيه، وفروة رأسه مبرقشة كأنما هو أجرب، وعيناه جاحظتان فوق أنفه العريض البارز. قال: «مرحبًا. هل يمكنني استخدام هاتفكم؟ وقع بنا حادث رهيب. صدمنا كلب بسيارتنا».

كان يتحدث كأنما يقرأ السطور من ورقة، ويعاني في إخراج الكلمات. سأله وُين: «ماذا؟ ماذا تقول؟».

نظر إليه الرجل الدميم نظرة قلقة وقال: «مرحبًا. هل يمكنني استخدام هاتفكم؟ وقع بنا حادث رهيب. صدمنا كلبًا بسيارتنا».

نطق العبارات نفسها، لكنه أكد على بعض المقاطع المختلفة، كأنه لا يعرف أي عبارة سؤال وأيها إقرار. نظر وُين خلف الرجل الدميم، ورأى على الطريق كومة بيضاء متسخة تشبه البساط أمام سيارة. وسط الضباب الأبيض، كان عسيرًا أن يميز التفاصيل، إلا أن الشيء لم يكن مجرد كومة أو بساط بالطبع. عرف وُين بالضبط ماذا يكون.

قال الرجل القصير وهو يومئ نحو ما خلف كتفه: «لم نر، وكان يقف وسط الطريق. ضربناه بسيارتنا».

رجل طويل يقف في الضباب جوار السيارة، كان منحنيًا ويداه على ركبتيه ينظر إلى الكلب متفحصًا، كأنه يتوقع أن يقوم هوبر في أي لحظة.

نظر الرجل القصير إلى كفه لحظة، ثم إلى وُين وقال: «هذا حادث رهيب. هل يمكنني استخدام هاتفك؟».

قال وُين مرة أخرى: «ماذا؟».

كرر السؤال رغم أنه سمع ما قال الرجل بوضوح، وكلماته تتردد في أذنيه، إلى جانب أنه ذكر الشيء نفسه ثلاث مرات بلا أي تغيير.

- هوبر؟ هوبر!

اندفع جوار الرجل القصير. لم يعدُ، بل مشى مسرعًا متخشبًا. بدا أن هوبر نائم على جانبه وسط الطريق أمام السيارة، ممدِّدًا قوائمه أمامه، عينه اليسرى مفتوحة غائمة، تنظر إلى السماء. حين اقترب وُين، تحركت تتبعه. ما زال حيًّا.

هوى وُين على ركبتيه وهو يقول: «هوبر.. هوبر!».

كشف وهج المصباحين آلافًا من قطرات الماء المعلقة في الضباب، كأنه مطر لن يهطل. مسح هوبر بطرف لسانه اللعاب الكثيف الذي يتساقط من فمه. تحرك بطنه حركات تنفسية سريعة. لم يستطع وُين أن يرى أثرًا لدماء.

قال الرجل الذي يقف جوار الكلب: «إلهي. هذا هو الحظ السيئ بعينه! آسف لما حدث له، لكن ربما يواسيك هذا!».

نظر وُين إلى الرجل الواقف وراء الكلب. كان ينتعل حذاءين عاليَي الرقبة، وسترة ذات طرف خلفي طويل مشقوق، وأزرار نحاسية في صفين أماميين. رأى وُين السيارة أيضًا. عتيقة هي لكن في حال ممتاز. «قديمة لكن عفيَّة» كما لا بد أن أباه سيقول عنها.

الرجل الطويل يمسك مطرقة فضية في يده في حجم مضرب كروكيت. القميص تحت سترته أبيض ناعم كالحليب الطازج.

رفع وُين عينيه أكثر، فحدق إليه تشارلي مانكس بعينيه الكبيرتين الذاهلتين، وقال: «بارك الرب الكلاب والأطفال! هذا العالم قاسٍ عليهم. العالم لص، يسرق منك طفولتك، ومن الكلاب أيضًا، لكن صدقني، سيكون هذا العالم أفضل قريبًا».

تشارلي مانكس يشبه صورته في المقال، إلا أنه بدا أكبر سنًّا، عتيقًا إن جاز التعبير. بضع شعيرات فضية مُصففة لتغطي صلعته المُرقطة، وبين أسنانه غير المنتظمة يطل لسان بلا لون، أبيض كلسان الموتى. كان طويلًا مثل لينكولِن[1]، وميتًا مثله. يشم وُين نتن الموت ينبعث منه.

- لا تلمسني!

قام وُين على ساقين مرتعدتين، وتراجع خطوة إلى الوراء، قبل أن يتعثر في الرجل القصير خلفه. أمسك الأخير بكتفيه وأجبره أن يواجه مانكس.

أدار وُين رأسه لينظر خلفه. لو كان في رئتيه هواء لصرخ. الرجل خلفه له وجه جديد، يرتدي قناع غاز مطاطيًّا بصمام مكان الفم، وتتبدى عيناه من خلف نافذة من بلاستيك شفاف. لو أن العينين نافذتان على الروح، فعينا رجل قناع الغاز تطلان على خواء بلا قرار.

صرخ وُين: «النجدة! ساعدوني!».

---

(1) رئيس أمريكي سابق. (المترجمة)

قال مانكس: «وهدفي هو مساعدتك ونجدتك!».

صرخ وُين مرة أخرى: «النجدة!».

قال رجل قناع الغاز: «اصرخ ونادِ، اصرخ ونادِ، كلنا نحب الآيس كريم بالزبادي! اصرخ وانظر إن كنت ستحصل على ما تريد أيها العفريت! لا آيس كريم للمتذمرين!».

- **النجدة!**

رسم مانكس تعبير ألم على وجهه وهو يغطي أذنيه بكفيه طويلتَي الأصابع.

- يكفي هذا الإزعاج القذر!

قال رجل قناع الغاز: «الأولاد يصدرون إزعاجًا قذرًا كهذا حين لا يحصلون على الألعاب. الأولاد الذين يصرخون لا يلعبون».

شعر وُين بالغثيان. فتح فمه وصرخ مرة أخرى. ضغط مانكس إصبعه على فمه بمعنى «صمتًا». أجفل وُين من رائحته التي هي خليط من الفورمالين والدم.

- أنا لن أوذيك. أنا لا أوذي الأطفال! لا داعي للصراخ. حسابي مع والدتك. أنا واثق أنك طفل طيب، وكل الأطفال طيبون... إلى حين. أمك حيزبون كاذبة، أدلت ضدي بشهادة زور. ليس هذا فحسب، بل إنها حالت بيني وبين أطفالي لسنوات. لعَقدٍ لم أرَ وجوههم الباسمة الحلوة، رغم أنني أسمع أصواتهم دومًا في أحلامي. أسمعهم ينادونني وأعرف كم هم جوعى. أنت لا تعرف كيف يشعر المرء حين يجوع أولاده ولا يستطيع مساعدتهم. أي شخص عادي قد يُجن.

- رجاءً.. اتركاني.

- هل تريد أن أخدره يا سيد مانكس؟ أهذا وقت دخان كعك الزنجبيل؟

عقد مانكس ذراعيه على صدره وقال: «غفوة صغيرة ستكون مناسبة. صعب إدارة حديث عقلاني مع طفل عنيد كهذا».

أجبر رجل قناع الغاز الطفل على السير نحو باب السيارة، ورأى وُين أنها رولز رويس، وتذكر المقال الذي قرأه من أوراق ماجي لي عن سيارة كهذه اختفت مع صاحبها.

صرخ وُين: «هوبر!».

تحرك هوبر ببطء وهو يراقب وُين، ثم في ضعفٍ أطبق أسنانه على كاحل رجل قناع الغاز. تعثر الأخير، ففكر وُين للحظة أنه يستطيع التملص منه، إلا أن ذراعَي الرجل القصير كانتا قويتين كذراعَي قرد بابون، وضغط بساعده على حنجرة الطفل.

- أوه، سيد مانكس! الكلب يعُض! الكلب يعُض! لقد غرز أسنانه في لحمي.

رفع مانكس المطرقة الفضية، وهوى بها على رأس هوبر. انسحقت جمجمة هوبر كمصباح كهربي تحت كعب حذاء. ضربه مانكس مرة أخرى لزيادة التأكيد. انتزع رجل قناع الغاز قدمه من بين الفكين، وركل هوبر وهو يصرخ: «أيها الكلب القذر. أتمنى أن توجعك ركلتي! أتمنى أن توجعك للغاية!».

حين استقام مانكس واقفًا، نشعت الدماء من تحت قميصه على شكل حرف Y، واتسعت الرقعة إذ نزف الجرح على صدر العجوز.

أراد وُين أن يصرخ، لكن صرخته خرجت همسةً بالكاد سمعها هو نفسه: «هوبر!».

تلطخ فراء هوبر الأبيض بالأحمر، كدماء على الثلج. لم يقدر وُين على النظر إلى ما فعله الرجل برأس الكلب.

انحنى مانكس على الكلب ليتأكد أنه مات، ثم قال: «حسنًا. هذا الجرو قد طارد صيده الأخير».

- أنت قتلت هوبر!

قال تشارلي مانكس: «أجل. يبدو أنني فعلت هذا. لطالما حاولت أن أصادق الكلاب والأطفال. مسكين. سأعوضك أيها الشاب الصغير، وتذكر أنني أحبك. اصعد معه إلى السيارة يا بينج، ولنعطِه شيئًا يريح عقله».

دفع رجل قناع الغاز وُين أمامه وهو يقفز محيلًا وزنه إلى قدمه السليمة. انفتح الباب الخلفي من تلقاء نفسه، ولم يكن أحد يجلس خلفه، ولم يمس أحد مقبض الباب. ذُهل وُين، لكن لم يتوقف كثيرًا عند هذه التفصيلة، الأمور تجري بسرعة ولا مكان لإمعان التفكير.

فطن وُين أنه لو ركب السيارة، فلن يخرج منها أبدًا، كأنه سيدخل قبره بقدميه، لكن هوبر ألهمه بما عليه فعله، ألهمه أن في وقت الهزائم، لا بأس من إثارة الخوف بالتكشير عن الأنياب.

أدار وُين رأسه وغرز أسنانه في ساعد الرجل السمين، وظل يضغط بفكيه حتى شعر بطعم الدماء. صرخ رجل قناع الغاز: «هذا يؤلمني! هو يؤذيني!».

انفتحت كف رجل قناع الغاز وانغلقت، ولمح وُين المكتوب عليها بقلم التلوين الأسود: هاتف - حادث - سيارة.

هتف مانكس: «بينج! ششش! ضعه في السيارة وهدئ نفسك!».

قبض بينج -رجل قناع الغاز- على شعر وُين وجذبه. شعر وُين أن فروة رأسه ستتمزق، مع ذلك رفع ساقه ووضع قدمه على جانب السيارة. أنَّ رجل قناع الغاز ولكم رأس وُين.

شعر الصبي كأنما مصباح مضيء قد انطفأ، وغلف الظلام عينيه. أنزل وُين قدمه، وبعد أن انجلى بصره، وجد نفسه يُدَس في السيارة، ويسقط على أربع فوق البساط.

صاح مانكس: «بينج! أغلِق الباب! أحدهم قادم. المرأة المريعة قادمة!».

قال رجل قناع الغاز لوُين: «مؤخرتك تنبت العشب، وأنا جزازة عشب، سأقص نبتات مؤخرتك ثم سأنتهكها!».

- بينج! أنصِت لما أقول الآن!

صرخ وُين: «أمي!».

ردت عليه: «أنا آتية!».

جاء صوتها من مسافة عظيمة، ولم يظهر فيه قلق. أغلق رجل قناع الغاز الباب. وقف وُين على ركبتيه، أذنه تنبض جراء اللكمة. طعم دماء يطغى على طعم لعابه.

نظر عبر المقعدين الأماميين نحو النافذة الأمامية. رأى ألاعيب الضباب الذي يشوه بها الأجسام، ولمح ما بدا له كأحدب يدفع كرسيًّا متحركًا. صرخ وُين مرة أخرى: «أمي!».

انفتح الباب الأمامي، وركب رجل قناع الغاز، ثم استدار في مقعده وهو يوجه مسدسًا نحو وجه وُين.

- أغلِق فمك وإلا سأثقبه. سأملأ فمك بالرصاص. ما رأيك؟

نظر رجل قناع الغاز إلى ساعده الأيمن ورأى كدمة بنفسجية غارقة في الدماء حيث عضه وُين. أسنان وُين اخترقت لحمه. ركب مانكس خلف المقود، ووضع المطرقة الفضية بينه وبين رجل قناع الغاز. أدار محرك السيارة فصدر عنه هدير فاخر منتظم.

اقترب الأحدب الذي يدفع مقعدًا متحركًا، حتى تحول الشكل العشوائي إلى امرأة تدفع دراجة بخارية. فتح وُين فمه لينادي أمه، فهز رجل قناع الغاز رأسه. حدق وُين إلى ماسورة المسدس السوداء. لم يشعر بخوف، بل بدهشة، كأنه ينظر إلى الهاوية من فوق مرتفع.

قال رجل قناع الغاز: «كفى ضحكًا. كفى مزاحًا. بدأ اجتماع الكويكرز[1]».

نظر تشارلي مانكس خلفه وهو يجهز السيارة للحركة، وقال لوُين: «اعذره. هو أحمق عجوز. أعتقد أننا سنحصل على بعض المتعة. أنا متأكد. في الواقع، نحن على وشك الاستمتاع الآن».

---

(1) الصحابيون أو الكويكرز، مجموعة دينية مسيحية. ويستخدم التعبير كنايةً عن الاجتماع الذي لا يسمح لأحد من الحضور بالكلام إلا المختارين فقط. (المترجمة)

الطريق رقم 3

فشلت ڤيك في تشغيل الدراجة التي لم يصدر عنها أي صوت يبث الأمل. ظلت تدعس الدواسة حتى كلَّت ساقاها، ولم تسمع هذا الصوت المتحشرج العميق الذي تنتظر، بل صدر عن المحرك صوت كأنما عجوز مرهق يتنهَّد.

لم يعد من شيء يُفعل سوى السير.

انحنت على المقودين ودفعت الدراجة ثلاث خطوات، ثم نظرت خلفها مرة أخرى ولم تر الجسر. لم يكن هناك جسر من الأساس.

سارت ڤيك وراحت تتخيل كيف سيكون نقاشها مع وُين.

مرحبًا أيها الصبي، لدي خبر سيئ. يبدو أنني كسرت شيئًا في الدراجة البخارية فتعطلت، ويبدو أنني كسرت شيئًا في عقلي أيضًا فتعطل. يجب أن أذهب إلى مركز الصيانة. سأرسل لك بطاقة مصورة حين أصل إلى المصحة العقلية.

ضحكت، وبدت ضحكتها لأذنيها كأنها انتحاب.

وُين، لطالما تمنيت أن أكون الأم التي تستحق، لكني لا أستطيع. حقًّا لا أستطيع.

فكرة التفوه بكلمات كهذه أشعرتها بالغثيان، حتى لو كانت الحقيقة، فلن يجعلها هذا أقل جبنًا.

وُين، ليتك تعرف أنني أحبك. ليتك تعرف أنني حاولت.

انجرف الضباب كأنما يعبر خلالها، وتحوَّل نهار يوليو الدافئ إلى البرودة.

صدح صوت قوي ذكوري في عقلها، صوت أبوها: *لا، لا تحاولي خداع مُخادع أيتها الصغيرة. لقد أردت أن تجدي الجسر وخرجت بحثًا عنه، لهذا توقفت عن تعاطي دوائك، ولهذا أصلحت الدراجة.* مم تخشين؟ *أتخشين أنك مجنونة، أم تخشين أنك عاقلة؟*

رغم أنها لم تحدثه إلا مرات معدودة خلال السنوات العشر الماضية، هي تسمع صوته يخبرها بأمور لا تريد سماعها، تساءلت لمَ تحتاج صوت رجل هجرها دون أن يفكر مرتين؟

دفعت دراجتها عبر برودة الضباب ورطوبته. تجمعت قطرات الماء على سترتها. من يعرف مم صُنع هذا الشيء؟ ربما خامته خليط من القماش والتيفلون وجلد التنين.

خلعت خوذتها وعلقتها على المقود، لكنها لم تثبت وظلت تسقط في الشارع، فاعتمرتها مجددًا. ظلت تدفع الدراجة بحذاء الطريق، وخطر ببالها أن تتركها ثم تعود إليها لاحقًا، لكنها لم تشرع في تنفيذ هذا الخاطر. لقد تخلَّت عن دراجتها الرالي من قبل، وتخلت عن جزء من نفسها معها. لو أنك وجدت مركبة تُقلُّك إلى حيث تشاء، فلا تتخلَّ عنها أبدًا.

تمنَّت ڤيك -ربما لأول مرة في حياتها- لو أن معها هاتفًا محمولًا. أحيانًا تبدو كأنما الوحيدة في أمريكا التي لا تملك واحدًا. تظاهرت أن الابتعاد عن هذا الجهاز ما هو إلا تحرر من قيود القرن الحادي والعشرين، وهي حقًّا لا تحتمل وجود هاتف جوارها طيلة الوقت أينما ذهبت، ربما يصلها اتصال مهم من أرض الكريسماس، وتسمع طفلًا ميتًا يقول: «*مرحبًا سيدة مَكوين، هل افتقدتنا؟!*».

عكفت على الدفع والسير، والسير والدفع، وهي تغني شيئًا بأنفاس متهدجة، ولوقت طويل لم تدرك أنها تغني. تخيلت وُين يقف خلف نافذة البيت، يحدق إلى الضباب والمطر، ويتململ ناقلًا وزنه من ساق إلى ساق.

وعت ڤيك إلى أن الذعر يجتمع في نفسها مما حدث، ومن الموقف كله. يجب أن تعود إلى البيت. لقد غابت كثيرًا، وكانت تخشى غضب وُين وبكاءه... إلى جانب أنها تشتاق إليه، وتشتاق إلى الاطمئنان أن كل شيء على ما يرام.

ظلت تدفع وتغني: «الليلة الهادئة... الليلة المباركة...».

سمعت نفسها فتوقفت عن الغناء، إلا أن الأغنية اكتملت في عقلها بنغمة نشاز: *كل شيء هادئ، كل شيء براق...*

شعرت ڤيك أنها محمومة. ساقاها مبتلتان باردتان من الضباب، ووجهها حار متعرق من المجهود. أرادت أن تجلس -بل تستلقي- على العشب، وتنظر إلى السحب المنخفضة، لكنها رأت المنزل أخيرًا كمكعب داكن على يسارها، يخفي الضباب معالمه.

النهار صار مظلمًا، وتعجبت كيف لم يشغل وُين الأضواء بينما التلفاز يعمل، وازداد تعجبها حين لم تلمح وُين يقف خلف النافذة ينتظرها.

ثم سمعت صراخه: «أمي!».

صوته من خارج الخوذة مكتوم بعيد. هزت ڤيك رأسها وقالت في قلق: «أنا آتية».

كانت قد وصلت المنزل حين سمعت صوت محرك سيارة. نظرت، رأت كشافين يضيئان خلف الضباب. السيارة التي تنظر إليها كانت واقفة عند جانب الطريق، لكن ما إن وصلت ڤيك حتى تحركت السيارة.

وقفت ڤيك ترمقها تتحرك، تشق الضباب. لا يمكن القول إنها تفاجأت. لقد أرسلته إلى السجن وقرأت نعيه، لكن جزء من نفسها كان ينتظر مقابلة تشارلي مانكس وسيارته الرولز رويس في حياتها كونها بالغة.

انزلقت الشبح فوق الضباب، كزلاجة تنزلق فوق السحب، وتجر خلفها ذيولًا من ندف ثلج ديسمبر. ثم انزاح الضباب عن لوحة الأرقام الصدئة المنبعجة.

NOS4A2

تركت ڤيك الدراجة تهوي، فانكسرت المرآة الجانبية وتشظَّت.

استدارت ڤيك وجرت.

السور الخشبي عن يسارها، وصلت إليه في خطوتين وقفزت فوقه. سمعت السيارة تقترب، قفزت إلى الأرض خلف السور وخطت خطوة أخرى، ثم رأت الشبح يخترق السور. طار عمود خشبي نحوها وظل يدور كمروحة هليكوبتر، ثم ضربها في كتفها فطرحها عن حافة العالم. سقطت في هاوية بلا قرار إلى برد ودخان أبدي.

منزل البحيرة

اصطدمت الشبح بالسور، فطار وُين من المقعد الخلفي إلى الأرضية تحته، واصطكت أسنانه بقوة.

ضرب أحد ألواح السور السميكة سقف السيارة، فصارت بالنسبة إلى وُين جسد أمه، وبدأ يصرخ.

أوقف مانكس السيارة، واستدار يتحدث إلى رجل قناع الغاز.

- لا أريده أن يرى أيًّا من هذا. رؤية كلبه يموت على الطريق أمر مؤسف كفاية. هلا أنمته؟ لقد أنهك نفسه.

- يجب أن أساعدك في أمر المرأة.

- شكرًا لك يا بينج، شكرًا لمراعاتك لي. لكني سأتصرف أنا معها.

تأرجحت السيارة إذ خرج الرجلان.

وقف وُين على ركبتيه ورفع رأسه لينظر عبر النافذة المجاورة للمقعد الأمامي إلى الباحة.

تشارلي مانكس يمسك المطرقة الفضية في يده، ويمر من أمام السيارة. والدة وُين منطرحة على الأرض بين الحشائش والضباب.

انفتح الباب الخلفي الأيسر، وركب رجل قناع الغاز جوار وُين الذي انزاح إلى اليمين محاولًا فتح الباب الآخر، لكن رجل قناع الغاز قبض على ذراعه وجذبه إلى جواره.

في يده الأخرى أمسك علبة رش زرقاء مكتوبًا عليها «معطر جو بتوابل كعك الزنجبيل»، وجوار العبارة رسم امرأة تُخرج صحفة كعك من الموقد.

قال رجل قناع الغاز: «سأخبرك عما في هذه العلبة. مكتوب أنه برائحة التوابل، لكن رائحته أقرب إلى رائحة الفراش الدافئ والنوم. شهيق واحد منه، وستنام حتى الأربعاء المقبل».

صاح وُين: «كلا! لا ترشه!».

رفرف الصبي كطائر وحيد الجناح مثبت إلى لوح خشبي.

- وكيف لا أفعل أيها الخراء؟ أنت عضضتني. ما أدراك أنني لست مريضًا بالإيدز؟ يمكن أن تصاب به. يمكن أن تصاب بملء فمك من الإيدز القذر الآن.

نظر وُين من فوق المقعد إلى الباحة. مانكس يقترب من أمه الراقدة بلا حراك.

قال رجل قناع الغاز: «المفترض أن أرد لك العضة. سأعضك مرتين، واحدة لأجل ما فعلت، وواحدة لأجل ما فعل كلبك النتن. يمكن أن أعض وجهك الصغير الذي يشبه وجوه الفتيات، لكنه لن يظل جميلًا لو عضضته وبصقت لحمك على الأرض. لكن يجب أن نمكث هنا ونشاهد العرض. شاهد ما يفعل السيد مانكس بالغانيات القذرات اللاتي يقصصن الأكاذيب القذرة. وبعدما ينتهي منها... بعدما ينتهي، سيأتي دوري، ولست في نصف طيبة السيد مانكس».

حركت أمه أصابعها، ضمتها وفردتها في ضعف. انزاح الهم من على صدر وُين وقد علم أنها لم تمت، فاستطاع أخيرًا أن يتنفس شهيقًا كاملًا. لم تمت.. لم تمت.

حركت كفها خلفًا وأمامًا برفق كأنها تبحث بين الحشائش عن شيء فقدته، ثم حركت ساقها اليمنى وثنت ركبتها كأنها تحاول النهوض.

مال مانكس عليها حاملًا مطرقته الكبيرة الفضية، ورفع ذراعه، ثم هوى بها. لم يسمع وُين صوت عظام تنكسر من قبل. ضرب مانكس كتفها اليسرى، وسمع وُين صوت المفصل ينخلع. قوة الضربة أسقطتها مرة أخرى على بطنها.

صرخ وُين، صرخ بكل ما في رئتيه من هواء وأغلق عينيه وأخفض رأسه...

قبض رجل قناع الغاز على شعره، ورفع رأسه ليجبره على المشاهدة. شيء معدني ضرب فم وُين، رجل قناع الغاز ضربه بعبوة الرش وهو يصرخ: «افتح عينيك وشاهد!».

حركت والدة وُين يدها اليمنى في محاولة لرفع جسدها والزحف بعيدًا، فضربها مانكس مرة أخرى، وانكسر عمودها الفقري بصوت كصوت قفزة فوق كومة من أطباق خزفية.

قال رجل قناع الغاز: «انتبه».

تسارعت أنفاسه حتى غطى البخار نافذة القناع الشفافة.

- الأفضل لم يأتِ بعد.

الأسفل

سبحت ڤيك.

كانت تحت ماء البحيرة، وقد غاصت إلى الأسفل حيث العالم أكثر حُلكة وبطئًا. لم تحتج إلى هواء، ولم تشعر أنها تحبس أنفاسها. لطالما أحبت الغوص إلى حيث السكون والهدوء، إلى حيث مملكة الأسماك الظليلة.

كانت ڤيك لتظل تحت الماء للأبد، وكانت مستعدة للتحول إلى سمكة، لكن وُين يناديها من فوق سطح العالم. صوته بعيد، لكنها تميز الإلحاح فيه. لم يكن ينادي، بل يصرخ. صعب أن تصعد إلى السطح، ساقاها وذراعاها لا تتحرك. حاولت التركيز على ذراع واحدة لدفع الماء بها.

أغلقت أصابعها، ثم فتحتها مرة أخرى.

فتحت يدها فوق العشب. ڤيك على التراب منطرحة على بطنها، رغم استمرار وجود الماء. لا تفهم كيف انتهى بها المطاف ملقاة في باحة منزلها. لا تتذكر ما ضربها. لا بد أن شيئًا ضربها. لا يغادر هذا الخاطر عقلها.

قال أحدهم: «هل أنت معي أيتها الذكية ڤيكتوريا مَكوين؟».

سمعته لكنها لم تفهم ما يقول. ليس هذا مهمًّا، وُين هو مَن يهمها الآن. سمعته يصرخ لتنجده، وهي واثقة بهذا. يجب أن تنهض وتتأكد من سلامته.

حاولت أن تقوم، لكن مانكس ضرب كتفها، وسمعت صوت العظم ينكسر، وتهاوت ذراعها تحتها، ثم تبعها جسدها.

- لم آذَنْ لك بالنهوض. أسألك إن كنت واعية، ستودين أن تسمعي ما سأقول.

مانكس. مانكس هنا ولم يمت. مانكس وسيارته الرولز رويس، ووُين بداخلها. كانت متأكدة من هذه الحقيقة كما هي متأكدة من اسمها. وُين في السيارة وعليها أن تُخرجه منها.

حاولت دفع جسدها إلى الأعلى مرة أخرى. هوى مانكس بالمطرقة مجددًا فسمعت صوت تهشم غريبًا. دفعت الضربة الهائلة الهواء من جسدها، وطرحتها أرضًا مرة أخرى.

وُين يصرخ، وهذه المرة صراخ بلا كلمات.

تمنت ڤيك لو استطاعت أن تنظر إليه حتى، لكن مستحيل أن تحرك رأسها الذي صار أثقل من أن يحملها عنقها. الخوذة... كانت ترتدي الخوذة وسترة لُو.

سترة لُو.

حركت ڤيك ساقها وثنت ركبتها. أول جزء من خطتها أن تقف على قدميها. تشعر بالتراب تحت ركبتها، تشعر بعضلات فخذها ترتجف.

سمعت مانكس وهو يكسر عمودها الفقري بضربته الثانية، فكيف تستطيع الشعور بساقيها؟ لا تفهم لماذا لا تعاني الألم. عضلات فخذيها الخلفية تؤلمها أكثر من أي شيء آخر جراء دفعها الدراجة لقرابة نصف ميل. كل أطرافها تؤلمها، لكن لم يُكسر منها شيء، حتى الكتف التي سمعتها تتهشم. أخذت شهيقًا عميقًا، فتمددت رئتاها بلا عناء رغم أنها قد سمعت أضلاعها تنكسر كأغصان وسط عاصفة.

لم تكن عظامها هي ما تكسرت، بل تدريعات سترة لُو عند الظهر والكتفين.

في المرة التالية التي ضربها فيها مانكس، جاءت ضربته على الجانب صرخت دهشة لا ألمًا، وسمعت صوت تحطم.

- ستجيبينني حين أسألك.

يؤلمها جانبها، لكن صوت التحطم لم يكن سوى لوح مدرع آخر. انجلى عقلها وعرفت أنها لو بذلت جهدًا ستستطيع القيام.

قال أبوها من مكان قريب كأنه يهمس في أذنيها: لا تقومي. *ارقدي مكانك ودعيه يحظى بلحظات مرحة. هذا ليس الوقت المناسب أيتها المشاكسة.*

كانت قد فقدت الأمل في أبيها، وقللت حديثهما إلى بضع عبارات يتبادلانها من حين لآخر. لكن ها هو ذا، يتحدث إليها بذات الصوت الهادئ الذي كان يستخدمه حين يشرح لها الأمور في الماضي.

هو يظن أنه قد هزمك يا صغيرة. حاولي النهوض وسيعرف أنك لست محطمة كما يظن، وقتها سينال منك. انتظري حتى الوقت المناسب، وستعرفينه حين يحل.

صوت أبيها، وسترة حبيبها. للحظة وَعَت إلى وجود الرجلين اللذين يحميانها في حياتها. لطالما ظنت أنه من الأفضل أن تبتعد عنهما ويبتعدا عنها، لكن الآن، وسط التراب، عرفت أنها لم تذهب إلى أي مكان دونهما.

سألها مانكس: «أتسمعينني؟ هل تسمعين صوتي؟».

لم ترد، وظلت ساكنة. قال بعد هنيهة تفكير: «ربما تسمعينني وربما لا».

هي لم تسمع صوته منذ عشر سنوات، لكنه ما زال ذات الصوت الأبله الريفي.

- كم تبدين كالعاهرات وأنت مستلقية هكذا في هذا البنطال القصير. أتذكر في زمن قريب، حين كانت الغانية تخجل من أن تظهر وسط الناس في رداء كهذا، وتفتح ساقيها فوق دراجة بخارية محاكيةً فعل المضاجعة الشائن. كنت تركبين دراجة في آخر مرة التقينا. لم أنسَها، ولم أنسَ الجسر. هل هذه دراجة ذات قدرات خاصة مثل دراجتك القديمة؟ أعرف كل شيء عن السفر العجائبي يا ڤيكتوريا مَكوين، وأعرف عن الطرق السرية. أتمنى أن تكوني قد تسكّعت كفاية، فلا مزيد من التسكع بعد الآن.

هوى بالمطرقة أسفل ظهرها، والضربة أقرب إلى تلقي كرة بيسبول بكليتك. صرخت من خلف فكها المغلق وقد شعرت بأن أعضاءها تنسحق.

الدرع لا يحمي هذه المنطقة. ضربة أخرى كهذه، وستحتاج إلى عكازين للحركة بقية عمرها. ضربة أخرى كهذه ستبول دمًا.

- لن تركبي دراجتك إلى الحانة أو إلى الصيدلية لتجلبي دواء عقلك المجنون. أوه، أنا أعرف كل شيء عنك يا ڤيكتوريا مَكوين. يا سيدة

الأكاذيب. أعرف أي حقيرة أنت، وأي أم مهملة. أعرف أنك كنت في بيت الضحك[1]. أعرف أنك أنجبتِ ابنك خارج إطار الزواج، وهو أمر مألوف للغانيات أمثالك. نحن نعيش في عالم يُسمح فيه لأمثالك بإنجاب الأطفال. حسنًا، ابنك معي الآن. سرقتِ أولادي مني بأكاذيبك، وها أنا ذا آخذ ابنك الآن.

انعقدت معدة ڤيك، فآلمها هذا الشعور كأنها ضُربت مرة أخرى. خشيت أن تتقيأ داخل الخوذة. يدها اليمنى منضغطة إلى حيث تؤلمها أحشاؤها، وأصابعها تتحسس شيئًا في جيب سترتها، شيئًا حادًّا معقوفًا.

مال عليها مانكس مرة أخرى متحدثًا بصوت أكثر لطفًا.

- ابنك معي ولن تستعيديه. لا أتوقع أن تصدقي هذا يا ڤيكتوريا، لكنه في مكان أفضل معي. سأجلب له من السعادة ما لن تجلبيه أبدًا. أعدك ألا يشقى مرة أخرى في أرض الكريسماس. لو لديك عقل، لشكرتني.

وكزها بالمطرقة وهو يميل نحوها ويقول: «هيا يا ڤيكتوريا، قوليها.. قولي أشكرك».

دست يدها اليمنى في جيبها وأغلقت أصابعها على المفتاح الذي يشبه السكين. تحسس إبهامها حروف كلمة تِريَمف البارزة.

قال لها أبوها: *حانت اللحظة. اقتنصيها.*

قبَّل لُو صدغها. شفتاه تمسِّدان جبينها.

رفعت ڤيك نفسها إلى أعلى. تقلص ظهرها بقوة حتى كادت تسقط من جديد، لكنها لم تسمح لنفسها حتى بالصراخ ألمًا. رأته، طويلًا مثل انعكاسات بيت المرايا في الملاهي. عيناه جاحظتان كالأسماك، ووجهه الغريب كرسوم الأفلام المتحركة. لم تصدق أنها أضاعت عمرها بين الشقاء والشرب والوعود المكسورة والوحدة لأجل رجل ممسوخ كهذا.

جذبت المفتاح من جيبها، فمنعته قطعة نسيج حتى كاد يسقط من بين أناملها. جذبته مجددًا فتحرر، ووجهته نحو عينه، لكن تصويبها جاء أعلى مما أرادت، فأصاب المفتاح صدغه الأيسر وفتح جرحًا كبيرًا في جلده المتهدل الميت.

---

(1) مستشفى الأمراض العقلية. (المترجمة)

قالت: «أشكرك».

وضع مانكس كفه على جبينه، كأن فكرة مباغته غريبة ضربته. تطوَّح بعيدًا عنها وقد زلت قدمه وسط الحشائش. حاولت طعن حلقه بالمفتاح، لكنه كان قد ابتعد عن مرماها، وهوى فوق مقدمة الشبح.

- أمي! أوه، أمي!

صرخ وُين من مكان ما. رغم ضعف ساقيها، لكنها انطلقت نحو الصوت. الآن ترى كم أن مانكس مسن للغاية، أمثاله يسكنون بيوت الرعاية ويضعون الأغطية على أفخاذهم لتقيهم البرد. يمكنها أن تثبته إلى مقدمة السيارة وتطعن عينيه بالمفتاح المدبب.

كادت تعتليه حين طوح المطرقة الفضية فشقت الهواء بصوت مسموع، وضرب جانب الخوذة، وكانت هذه الضربة كافيه لتُدير جسدها حول محوره حتى تسقط على ركبتيها. تردد صدى الضربة في رأسها. يبدو في عمر الثمانين أو أكثر، لكن قوة ضربته تجاوزت قوة ضربة شاب. سقطت شظايا من الخوذة على الحشائش. لو لم تكن ترتديها لكان مخها الآن كتلة بلا معالم.

صرخ مانكس: «أوه. أوه، إلهي، لقد شُقِقت كقطعة لحم! بانج بانج!».

قامت ڤيك سريعًا. الظلام يزحف حولها والدماء من رأسها تعميها. سمعت صوت باب سيارة يُغلق. أمسكت برأسها -بالخوذة- بين يديها محاولة إيقاف تردد الضربة. العالم يهتز كأنها جالسة فوق دراجة بخارية في وضع الانتظار.

ما زال مانكس ممددًا على مقدمة السيارة، ووجهه الأبله غارق في الدماء. لكنَّ هناك رجلًا آخر يقف عند مؤخرة السيارة، أو على الأقل مخلوق في هيئة رجل. رأسه كرأس حشرة ضخمة من فيلم من الخمسينيات. رأس وحش سينمائي مطاطي بفم بارز وعينين زجاجيتين.

الرجل الحشرة معه مسدس، حدقت ڤيك إلى ماسورته التي بدت لها في عرض قزحية بشرية.

قال الرجل الحشرة: «بانج بانج!».

الباحة

حين رأى بينج مانكس ممددًا على مقدمة السيارة، شعر بصعقة جسدية حقيقية، وارتعد. مر بالشعور نفسه من قبل حين أصاب أباه بمسدس المسامير في صدغه فأرداه صريعًا. الغانية طعنت الرجل الطيب، السيد مانكس، في وجهه. الغانية مصممة على قتله. الغانية قادمة والسيد مانكس يحتاجه.

أمسك بينج بعبوة رش الغاز، وأطلق الرذاذ في وجه الصبي، وهو شيء كان المفترض أن يفعله منذ دقائق ما لم يكن بهذا الاختلال العقلي الذي جعله يرغم الولد على المشاهدة. حاول وُين التملص، لكن بينج ثبت رأسه وظل يرش في وجهه. زمَّ وُين كارمودي شفتيه وأغلق عينيه. صاح مانكس: «بينج! بينج!».

صاح بينج بدوره وهو يحاول الخروج سريعًا من السيارة رغم أنه لم يُخدِّر الصبي بما يكفي. لا يهم. لا يوجد وقت. الصبي في السيارة الآن ولن يرحل. أطلقه بينج ووضع العبوة في جيب سترته الرياضية، وهو يُخرج بيده اليمنى المسدس من الجيب الآخر.

خرج وأغلق باب السيارة خلفه، وهو يصوب المسدس الكبير. كانت ترتدي خوذة سوداء لا يظهر منها سوى عينيها المتسعتين تنظران إلى المسدس في يده، وعرفت الغانية أنه آخر شيء ستراه في حياتها وهي تقف على بعد ثلاث خطوات من مرمى المسدس.

قال مانكس: «بينج بينج!».

كان بالفعل يضغط الزناد، حين قام مانكس بصعوبة ووقف في طريق الرصاصة التي انطلقت، فانفجرت أذن مانكس اليسرى مبعثرةً اللحم والدم.

صرخ مانكس، ووضع يديه على جانب رأسه حيث قطعة الجلد المتدلية. صرخ بينج وأطلق النار مرة أخرى عبر الضباب، ولم يكن يخطط لهذا. أطلق ريحًا -من الرعب- حرَّكت مؤخرة بنطاله من شدتها.

- سيد مانكس! أوه، إلهي! سيد مانكس، هل أنت بخير؟

هوى مانكس نحو جانب السيارة وهو يدير رأسه لينظر إليه.

- ماذا ترى؟! لقد طُعنت في وجهي، وأذني انفجرت! أنا محظوظ لأن مخي لا يسيل على صدر قميصي أيها الغبي!

- أوه، إلهي! لكم أنا أحمق! لم أقصد هذا! أنا أفضل الموت على أن أوذيك يا سيد ماكس! ماذا أفعل؟ هل أقتل نفسي؟

- المفترض أن تقتلها هي!

أنزل مانكس يديه عن جانب وجهه، فظهرت قطعة الجلد الحمراء. صاح في بينج: «افعلها! أطلِق عليها الرصاص! أنهِ حياتها! أسقِطها ميتة على التراب!».

أبعد بينج عينيه عن «الرجل الطيب» وقلبه يدق في صدره كالطبل. نظر إلى مَكوين التي تجري مبتعدة عنه. دوي صوت الرصاص في أذنيه يحجب عنه صوت الطلقة التي انطلقت منه الآن.

مطار لوجان

أنهى لُو كارومودي إجراءات الأمن، وظلت أمامه ساعة أخرى يقضيها في الانتظار. اشترى وجبة عملاقة رغم أنه كان ينتوي شراء سلاطة الدجاج المشوي وزجاجة ماء فقط. حين وصل إلى ماكينة الدفع، ملأت رائحة البطاطس المقلية أنفه، وداعبت الطفل داخله، فوجد نفسه يطلب شطيرتَي «بيج ماك»، وعلبة بطاطس مقلية كبيرة، وكوب مخفوق الحليب بطعم الفانيليا من أكبر حجم. الطلب نفسه الذي كان يطلبه منذ كان في الثالثة عشرة.

بينما ينتظر طلبه، رأى عن يمينه طفلًا لا يزيد عمره على الثامنة، عيناه سوداوان مثل وُين، يقف مع أمه جوار ماكينة الدفع. نظر إليه الولد، نظر إلى ذقنه المزدوج وثدييه الممتلئين. لم ينظر إليه نظرة اشمئزاز، بل نظرة أسف غريبة.

كان والد لُو سمينًا للغاية وقتما توفي، حتى إنهم اضطروا إلى صنع تابوت مخصوص له، بعرض مضاعف، حتى بدا كأنه منضدة عشاء ذات غطاء.

قال لُو للفتى الذي يأخذ منه طلبه: «سآخذ كوب مخفوق حليب صغيرًا. إلغِ المقاس الأكبر».

ولم ينظر نحو الولد مرة أخرى خشية أن يراه يحدق إليه.

لم يكن ما يُشعره بالخزي أن سمنته خطرة، كما أخبره طبيبه. ما يكرهه ويُمرضه هو عجزه عن تغيير عاداته. لا يمكنه أن يتفوه بما يريد قوله، لا يمكنه طلب سلاطة حين يشم رائحة البطاطس المقلية.

في آخر عام له مع ڤيك، عرف أنها تحتاج المساعدة في أمر تعاطي الكحول، والمكالمات الخيالية التي تتلقاها، لكنه كان عاجزًا عن مساعدتها

والتصرف بصرامة. إن ثملت وطلبت مضاجعته، كان يعجز عن قول إنه قلق عليها، وكل ما يفعله هو دفن وجهه في صدرها.

ظل سلبيًّا حتى اليوم الذي وضعت الهاتف داخل الموقد وأضرمت النار في البيت. لقد فعل كل شيء إلا إشعال عود الثقاب بنفسه.

جلس إلى منضدة تناسب قزمًا فاقد الشهية، وتحته كرسي يناسب مؤخرة طفل في العاشرة. هل يفهم مطعم مَكدونالدز زبائنه؟ فيمَ كانوا يفكرون حين وضعوا مقاعد كهذه لأشخاص مثله؟

أخرج حاسوبه المحمول وأوصله بالإنترنت الهوائي المجاني.

راجع بريده الإلكتروني، ورد على استفسارات محبي القصص المصورة. أسئلة بلهاء عن اللون الذي قد يتحول إليه رسم «هالك» بعد ذلك. مجتمع القصص المصورة وما يسألون عنه يسبب له الحرج. هل هذا سؤال؟ بالطبع سيتحول إلى درجة من الأخضر أو الرمادي. باقي الألوان سخيفة.

اهتز هاتفه المحمول في جيب بنطاله القصير، مد يده يخرجه، فبدأت أغنية «رحلة الزلاجة» تدوي في سماعات المطار. كان هذا غريبًا، درجة الحرارة في بوسطن الآن أقرب إلى درجة حرارة كوكب الزهرة، والأغرب أن الأغنية السابقة انقطعت فجأة حين رن جرس الهاتف.

أمسك لُو هاتفه في يده، ونظر إلى السيدة المجاورة يسألها وهو يشير إلى السقف: «يا صاح، هل تسمعين هذا؟ أغنية كريسماس في منتصف فصل الصيف!».

توقفت يدها بالشوكة التي تحمل بعض سلاطة الكرنب، ونظرت إليه في حيرة، فقال: «الأغنية. هل تسمعينها؟».

عقدت حاجبيها، ونظرت إليه النظرة نفسها التي قد تنظر بها إلى كومة قيء، كأنه شيء يجب تحاشيه.

نظر لُو إلى هاتفه ووجد رقم وُين. هذا غريب، لقد كانا يتبادلان الرسائل منذ قليل. ربما عادت ڤيك من رحلتها على الدراجة وتريد محادثته بشأنها.

قال لُو للسيدة جواره: «لا تشغلي بالك».

ثم فتح الخط قال: «ما الخطب؟».

قال وُين بصوت مبحوح هامس كأنه يجاهد كي لا يبكي: «أبي. أبي، أنا في سيارة ولا أستطيع الخروج منها».

شعر لُو بألم خافت خلف عظام صدره، وفي رقبته خلف أذنه اليسرى.

- ماذا تعني؟ أي سيارة؟
- سيقتلان أمي. الرجلان. وضعني رجلان في السيارة ولا أستطيع الخروج منها. واحد منهما هو تشارلي مانكس يا أبي، والآخر يرتدي قناع غاز...

ثم صرخ.

في الخلفية سمع لُو صوت فرقعة، لكنها لم تكن كذلك. صاح وُين: «هو يطلق الرصاص! يطلقان الرصاص على أمي!».

سمع لُو نفسه يقول بصوت غريب عنه، وأعلى من المألوف: «اخرج من السيارة! افتح قفل الباب واخرج!».

- لا أستطيع! لا أستطيع! هو غير مغلق بالقفل، حتى إنني حين أحاول الانتقال إلى المقعد الأمامي، يجذبني الخلفي مرة أخرى!

شهق وُين شهقة بكاء.

رأس لُو بالونة ممتلئة بغاز ساخن يرفعه من الأرض نحو السقف، وربما إلى خارج هذا العالم.

- ابحث جيدًا يا وُين، لا بد للباب من قفل.
- إنهما يعودان. سأتصل بك حين أستطيع. لا تتصل بي، ربما يسمعان. ربما يسمعان حتى لو أغلقت صوت الهاتف.

صرخ لُو وهو يقوم واقفًا: «وُين! وُين!».

وانغلق الخط.

كل من في المطعم ينظرون إليه، ولا ينطقون بشيء. يقترب منه رجلا أمن، واحد منهما يضع كفه على جراب سلاحه. فكر لُو: *اتصل بشرطة الولاية. افعل هذا الآن.*

حين أنزل هاتفه عن أذنه ليطلب الشرطة، سقط من يده، وحين انحنى ليرفعه، وجد نفسه يمسك صدره وقد تضاعف الألم فجأة وراح يطعنه بسكاكينه. حاول أن يرتكن إلى الطاولة، لكنها كانت أبعد من مرماه، فسقط على الأرض وضرب ذقنه. مالت المنضدة فسقط كوب مشروبه فوقه، وغرق في السائل البارد برائحة الفانيليا.

هو فقط في السادسة والثلاثين، أصغر من أن يصاب بأزمة قلبية رغم تاريخ عائلته المرضي، لكنه كان يعرف أنه سيدفع ثمن عدم أكل السلاطة غاليًا.

بحيرة وينيبيسوكي

حين ظهر رجل قناع الغاز بمسدسه، حاولت ڤيك التراجع، لكنها لم تتلق إشارة من ساقيها. منظر ماسورة المسدس ثبتها مكانها كأنها بندول تنويم مغناطيسي.

ثم حال مانكس بينها وبين الطلقة، وانقطعت أذنه. صرخ مانكس صرخة غضب لا ألم. انطلقت رصاصة أخرى، ورأت ڤيك سهمًا من الهواء يشق الضباب نحوها، يحدد مسار الرصاصة.

قال صوت أبيها، وشعرت بيده على ظهرها: *لو وقفت هنا ثانية أخرى، سيقتلك أمام وُين. لا تقفي هنا وتدعي وُين يرى هذا.*

نظرت عبر نافذة السيارة الأمامية ورأت ابنها يجلس هناك في المقعد الخلفي. وجهه محتقن وهو يشير إليها أن تبتعد.

لم تشأ ڤيك أن يراها تهرب وتتخلى عنه. هذه المرة لا تقارن بكل المرات التي خذلته فيها من قبل.

اخترقها خاطر كما اخترقت الرصاصة الضباب... *لو مُت هنا، فلن يستطيع أحد العثور على مانكس.*

صرخت: «وُين! سأعود. أينما ستكون، سأجدك!».

لا تعرف إن كان قد سمعها، هي بالكاد تسمع نفسها. استدارت واستطاعت أن تتحرك أخيرًا. أخفضت رأسها وأمسكت الخوذة تريد خلعها قبل أن تذهب إلى أي مكان. حركتها بطيئة والحشائش تعرقلها. لا يوجد صوت في العالم سوى صوت خطواتها المتعثرة التي تزيد الخوذة من عمقها في أذنيها.

سيطلق رجل قناع الغاز الرصاص عليها من الخلف. طلقة في العمود الفقري، وتمنت لو تقتلها الطلقة ولا تلقي بها مشلولة على الأرض.

وصلت نصف المسافة نزولًا من التل.

خلعت الخوذة وألقتها جانبًا.

صوت رصاص.

شيء ارتطم بالماء جوارها، كأن طفلًا ألقى حجرًا.

قدما ڤيك تضربان أخشاب المرفأ. الأخشاب تميد تحت قدميها.

ثلاث خطوات أخرى، ثم غطست في البحيرة.

لمست سطح الماء حين شقت رصاصة أخرى الضباب، ثم ها هي ذي في الأعماق.

غطست نحو القاع حيث العالم بطيء حالك.

راودها شعور أنها كانت في هذا السكون منذ دقائق، وها هي ذي تعود إلى حالة انعدام الوعي مرة أخرى.

أبحرت المرأة عبر السكون البارد.

ضربت البحيرة رصاصة، فعبرت على مسافة نصف قدم عن يسارها، وهي تحفر مسارًا في الماء وتبطئ سرعتها. أجفلت ڤيك وضربت بيدها كأنها تبعد شيئًا، فشعرت بشيء ساخن في كفها. فتحتها لترى ما يشبه الثقالة المستخدمة في الصيد. دفعها التيار عن كفها فهوت نحو القاع، وأدركت ڤيك أنها أمسكت الرصاصة.

حركت ساقيها أسرع هي تنظر إلى الأعلى. رئتاها تؤلمانها من الضغط. سطح الماء كملاءة فضية مفرودة فوقها. الطوف على مسافة عشرة أو خمسة عشر قدمًا.

صدرها ينبض بشعور حارق.

ركلت الماء وركلت... هي الآن تحت الطوف المستطيل. طفت تشهق. فكرت في أبيها، وفي المتفجرات التي كان يستخدمها. صدرها الآن مملوء بها، وقد ينفجر في أي لحظة.

طفت ڤيك تحت ظلال الطوف، بين البراميل الصدئة ذات رائحة الزيت والوقود. سمعت صوت رجل قناع الغاز يصيح: «أعرف أنك هنا. لا يمكنك الاختباء مني».

صوته غاضب غضبًا طفوليًّا. فهمت ڤيك حينها أنه مجرد طفل. ربما كان عمره ثلاثين أو أربعين عامًا، لكنه يظل واحدًا من أطفال مانكس المسمومين.

وربما هو حقًّا يعرف أين هي.

فكرت: *تعال إليَّ أيها الحقير*. مسحت وجهها، وسمعت صوتًا آخر، مانكس يناديها، وكأنه يدندن اسمها.

- ڤيكتوريا. ڤيكتوريا، ڤيكتوريا مَكوين!

ثمة فراغ بمقدار بوصة تقريبًا بين البراميل وبعضها. سبحت نحو واحد منها ونظرت، فرأت مانكس ورجل قناع الغاز خلفه، يقفان على مسافة ثلاثين قدمًا عند نهاية المرفأ. وجه مانكس غارق في الدماء.

- أوه، ويلي! لقد جرحتِني بشدة يا ڤيكتوريا مَكوين! شوهتِ وجهي، ورفيقي هذا مزق أذني! مع صديقين مثلكما، ها أنا ذا أغرق في دمائي. لن يدعوني أحد إلى الحفل الراقص نهاية العام الدراسي!

ضحك ثم أكمل: «صحيح ما يقولون، الحياة تدور في دوائر صغيرة للغاية. ها نحن أولاء نلتقي مجددًا. صعب هو الإمساك بك، أنت زلقة كسمكة! البحيرة أنسب مكان لك».

توقف مرة أخرى عن الكلام، وحين بدأ مرة أخرى، سمعت نبرة سخرية في صوته.

- أنت لم تقتليني، فقط أبعدتِني عن أطفالي. العدل عدل. يمكنني أن أبتعد وأتركك دون ابنك، لكن عليك أن تستوعبي أن ابنك معي الآن ولن تستعيديه، لكنني أتوقع أن يتصل بك من وقت لآخر من أرض الكريسماس. سيكون سعيدًا هناك، ولن أوذيه. أيٌّ ما تشعرين الآن، فحين تسمعين صوته مرة أخرى، ستعرفين أنه في حال أفضل معي.

أنَّت ألواح خشب المرفأ، تلا ذلك صوت محرك السيارة. تحررت ڤيك من وزن سترة لُو المشبعة بالماء، كانت تجذبها لأسفل. ظنت أنها ستغطس فورًا، لكنها طفت كبقعة زيت سوداء.

قال مانكس: «بالطبع ستحاولين البحث عنا، كما عثرت عليَّ من قبل. ظللت أعوامًا أفكر في الجسر الذي نبت وسط الغابة، جسرك المستحيل. أعرف كل شيء عن الجسور المماثلة، وأعرف كل شيء عن الطرق التي تُخلَق بقوة العقل فقط. بهذه الطريقة وجدت أرض الكريسماس. هناك طريق الظلام، وقطار دار الأيتام، وأبواب الأرض الوسطى، ودرب بيوت العقل الثلاثة القديمة. ثم هناك جسر ڤيكتوريا العظيم. أما زلتِ تعرفين كيف تصلين إليه؟ اعثري عليَّ لو استطعت. سأنتظرك في بيت النوم يا ڤيك. سأمكث هناك قليلًا قبل أن أذهب إلى أرض الكريسماس. تعالي ولنتحدث أكثر».

استدار، وابتعد عن المرفأ. تنهد رجل قناع الغاز تنهيدة سخط، ورفع المسدس، فتجشأ الأخير لهبًا.

انطلقت الرصاصة جوارها تخترق سطح الماء. أجفلت مبتعدة عن الفتحة التي كانت تتلصص عليهما من خلالها. ضربت رصاصة أخرى السلم المعدني، والأخيرة انغرزت في مقدمة الطوف.

ثم انغلق باب السيارة.

وسمعت ڤيك صوت العجلات إذ تقطع السيارة الباحة، وتعبر من فوق السور المتهدم.

فكرت ڤيك في احتمال أن تكون هذه حيلة، أحدهما يقود السيارة، والآخر ينتظر ظهورها ممسكًا بالمسدس. أغمضت عينيها وأنصتت.

حين فتحت عينيها وجدت نفسها تحدق إلى عنكبوت يتدلى مما تبقى من شبكته. شيء -رصاصة- مزقتها. ومثله مثل ڤيك، لم يتبقَّ له شيء في الحياة إلا التدلي والدوران.

محرك البحث

6-7 يوليو

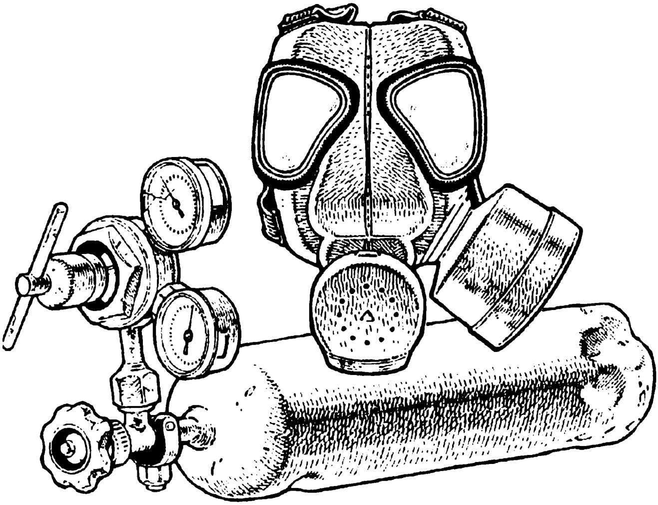

البحيرة

بمجرد أن وجد وُين نفسه وحيدًا في مقعد السيارة الخلفي، فعل الشيء الوحيد المعقول: حاول الهرب.

طارت أمه نازلة التل -بدا له هربها طيرانًا لا عدوًا-، وتبعها رجل قناع الغاز بخطوات ثملة. حتى مانكس انطلق نحو البحيرة وهو يمسك رأسه.

من مكانه في السيارة، لم يرَ وُين من البحيرة شيئًا، ورأى بالكاد الطوف. الضباب غطى كل شيء.

في هذه الأجواء، بدا مانكس كأنما هو شخصية من السيرك، بطوله الغريب وأنفه الكبير وصلعته. لعب الضباب الألاعيب بظله، فراح مانكس يسير عبر أبواب على هيئته، كل باب أكبر من سابقه.

أصعب شيء على وُين تحويل نظره عن الرجل. لا بد أن هذا هو تأثير غاز كعك الزنجبيل الذي رشه به رجل قناع الغاز. مسح وجهه بكلتا يديه محاولًا أن يستعيد وعيه وتركيزه، ثم بدأ يتحرك.

كان قد حاول بالفعل فتح البابين الأماميين، لكن الأقفال لم تنفتح مهما حاول. المقعد الأمامي قصة أخرى، الباب لم يكن مغلقًا بالقفل، والنافذة نصف مفتوحة، لكنها بعيدة عن وُين.

دفع نفسه إلى المقعدين الأماميين، عابرًا مسافة بدت له كطول باحة كاملة. أمسك وُين ظهر المقعد الأمامي، وحاول الدوران...

سقط على الأرض أمام المقعد الخلفي. الدفعة المفاجئة أدارت رأسه. ظل جاثيًا على أربع لثوان، محاولًا فهم ماذا حدث. لا بد أن الغاز الذي استنشقه جعله يهلوس، أو هو أضعفه فهوى إلى الخلف.

نهض ليحاول مجددًا، وانتظر حتى استقرت حالة الدوار التي انتابته. شهق عميقًا -وشم المزيد من الغاز- ودفع نفسه نحو المقعد الأمامي فوجد نفسه في الخلف مرة أخرى.

اندفع إفطاره إلى حلقه. ابتلعه. طعمه كان أفضل حين ابتلعه أول مرة.

أسفل التل، مانكس يتحدث -بصوت هادئ غير مُتعجل- مواجهًا البحيرة.

فكر وُين فيما حدث، وكيف ينتهي به الأمر في كل مرة في الخلف، كأن المقعد الخلفي ممتد إلى ما لا نهاية. يبدو أن لا شيء في العالم سوى المقعد الخلفي. شعر بالدوار كأنما قد نزل للتو من لعبة الملاهي الدوارة «جرافيترون»[1].

قُم، لا تيأس!

وجد هذه الكلمات في عقله بوضوح عبارة مكتوبة بالأسود على خلفية بيضاء. هذه المرة، أخفض وُين رأسه واتخذ وضعية استعداد الجري، ثم قفز نحو المقعدين الأماميين...

وعاد إلى المقعد الخلفي، حيث سقط هاتفه المحمول من جيبه. تمسَّك في البساط، السيارة كأنها تدور وتدور. إحساس الانزلاق إلى الجوانب رهيب، فاضطر إلى غلق عينيه كي لا يشعر به.

أخيرًا، تشجع وفتح عينيه، أول ما رأى كان هاتفه، ملقى على بعد بضعة أقدام منه. مد يده إليه ببطء حركة رائد فضاء وسط انعدام الجاذبية. اتصل بوالده، أول رقم وجده أمامه في قائمة المفضلات التي يستطيع الاتصال بها بلمسه واحدة.

- ما الخطب؟

صوت أبيه دافئ مريح مطمئن، شعر وُين بالنحيب يتجمع في حلقه، لكنه تمالك نفسه. لم يكن واثقًا بقدرته على التنفس، ناهيك بالحديث. استرجع اللحظات التي كان يريح خده على خد والده السمين الخشن، فحاول شرح وضعه قدر ما استطاع. صعب أن يجد الهواء الذي يحتاج، صعب أن يصف

(1) GRAVITRON: حجرة في الملاهي تدور بسرعة كبيرة حتى تلصق الركاب بالحائط وتبعدهم عن الأرض. (المترجمة)

كل شيء ويتحدث عن رجل قناع الغاز ومانكس، وما حدث لهوبر، وغاز كعك الزنجبيل الذي استنشقه.

لم يكن واثقًا بما قال، ربما ذكر مانكس وشيئًا عن السيارة. ثم أطلق رجل قناع الغاز الرصاص مرة تلو الأخرى. المسدس يقفز في يده ويضيء بالشرر. متى أظلمت الدنيا هكذا؟

أخبر أباه بما يحدث، وظل ينظر إلى الظلمة، وهو لا يعرف إن كانت إحدى الرصاصات قد أصابت أمه أم لا. هو لا يراها، لقد صارت جزءًا من البحيرة ومن الظلام. تذكر كيف ذابت من قبل واختبأت منه.

لم يمكث مانكس ليشاهد رجل قناع الغاز يصوب نحو البحيرة، واستدار صاعدًا التل وهو يمسك جانب رأسه كرجل ينصت إلى أوامر رئيسه في سماعة أذنه، رغم أنه من المستحيل أن يكون لمانكس رئيس.

أفرغ رجل قناع الغاز مسدسه، واستدار مبتعدًا عن البحيرة. صعد التل متثاقلًا كأن حملًا يثقل كتفيه. سيصل السيارة قريبًا. لا يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، لكنه موقن أنه إن رأى الهاتف معه سيأخذه.

قال وُين لأبيه: «إنهما يعودان. سأتصل بك حين أستطيع. لا تتصل بي، ربما يسمعان. ربما يسمعان حتى لو أغلقت صوت الهاتف».

صرخ أبوه باسمه، لكن لم يكن هناك وقت لقول شيء آخر. أغلق وُين الهاتف وشغَّل الوضع الصامت. بحث عن مكان يدس فيه الهاتف، وفكر فيما بين المقاعد. رأى أدراجًا خشبية بمقابض فضية أسفل المقعدين الأماميين، فتح واحدًا ووضع فيه الهاتف، ثم ركله ليُغلق في الوقت نفسه الذي فتح فيه مانكس الباب الأمامي.

طوح مانكس المطرقة على المقعد المجاور للسائق، ورفع منديلًا حريريًّا يمسح به وجهه. رأى وُين يركع على البساط بالخلف، وشهق وُين لمرأى وجه مانكس الغارق في الدماء وأشلاء الأذن المتدلية من جانب وجهه، والعظام البادية من خلف قطعة اللحم المنفصلة عن جبينه.

ابتسم مانكس مُظهِرًا أسنانًا مُدممة: «أرى أن منظري صار مرعبًا».

شعر وُين أنه سيفقد الوعي. داخل السيارة صار مظلمًا، كأن مانكس قد جلب الليل معه حين فتح الباب.

جلس الرجل الطويل خلف المقود، وانغلق الباب من تلقاء نفسه وكذا انغلقت النافذة. لم يكن مانكس من فعل هذا، فقد كان يمسك بيدٍ أذنه وبالأخرى يضغط المنديل على جبينه.

وصل رجل قناع الغاز إلى باب مقعد الراكب، وجذب المقبض، فانغلق القفل، وتحركت السيارة إلى الخلف وهي تسحق الحصى تحت عجلاتها. صرخ رجل قناع الغاز: «لا!».

كان يمسك المقبض حين تحركت السيارة وكادت تسحبه معها، فتمايل محاولًا الحفاظ على توازنه. جرى خلف السيارة مبقيًا يده على مقدمتها كأنه بهذه يمنعها عن الحركة.

- كلا يا سيد مانكس! لا تذهب! آنا آسف! لم أقصد هذا!

صوته مذعور حزين. أسرع الخطى وحاول جذب المقبض مرة أخرى. مال مانكس نحوه، وقال عبر النافذة: «أنت في قائمة المشاغبين الآن يا بينج بارتريدج. لا تظن أنني سآخذك إلى أرض الكريسماس بعد الفوضى التي تسببت فيها. أخشى أن أدعك تركب، كيف أعرف أنك لن ترشق السيارة بالرصاص لو سمحت لك بالركوب؟».

- أقسم إنني سأحسن التصرف! لا ترحل! أنا آسف... أنا آآآسف!

بخار أنفاسه ملأ قناعه. قال بين شهقات البكاء: «ليتني ضربت نفسي بالرصاص! ليتني قطعت أذني! أوه، بينج! أيها الشيء الأحمق!».

- كُف عن صخبك هذا. رأسي يؤلمني كفاية.

انفتح القفل، ففتح رجل قناع الغاز الباب وألقى بنفسه داخل السيارة.

- لم أقصد هذا! أقسم إني لم أقصد! سأفعل أي شيء لأكفر عن هذا. أي شيء.

اتسعت عيناه كأنما جاءه وحي: «سأقطع أذني! أذني أنا! لا يهمني، لا أحتاجها، لدي واحدة أخرى. هل تريدني أن أقطع أذني؟».

- أريد أن تصمت. لو أن أمر قطع شيء يُلح عليك، فابدأ بلسانك، لننعم ببعض الهدوء.

تسارعت السيارة رجوعًا إلى الخلف حتى وصلت الطريق، ثم دارت لتواجه الطريق السريع. تحركت التروس مرة أخرى، وانطلقت السيارة للأمام.

طيلة الرحلة، لم يمس مانكس عجلة القيادة ولا عصا السرعات، وظل ممسكًا بأذنه، وقد استدار في مقعده ليواجه رجل قناع الغاز.

فكر وُين أن غاز كعك الزنجبيل هو ما يجعله يرى هذه الأمور الغريبة. لا تقود السيارات نفسها، ولا تمتد المقاعد الخلفية إلى ما لا نهاية.

ظل رجل قناع الغاز يتأرجح أمامًا وخلفًا، وتصدر منه أصوات مثيرة للشفقة. تحدث إلى نفسه مهمهمًا: «أحمق. أنا فعلًا أحمق».

وضرب رأسه بقوة مرتين في خشب التابلوه أمامه.

- توقف فورًا، أو سأتركك في الشارع. لا داعي لإخراج فشلك في تابلوه سيارتي الفاخر.

ابتعدت السيارة عن المنزل، ودارت عجلة القيادة يمينًا ويسارًا تُرشد الرولز رويس إلى الطريق. ضيق وُين عينيه وحدق إليها. قرصَ خده بقوة كي يستعيد وعيه، لكن شيئًا مما يرى لم يتغير. إما أن الغاز يؤثر فيه وإما... لا يوجد في التفسيرات العقلانية شيء يُذكر. لا يوجد تفسير آخر.

أدار رأسه ونظر عبر الزجاج الأمامي، فرأى آخر لمحة للبحيرة تحت ملاءة الضباب. صفحة الماء ناعمة كالمعدن، ملساء كحد سكين. لو أن أمه هناك، فلا أثر لها.

- بينج. افتح صندوق القفازات أمامك. أعتقد أن هناك مقصًّا ولاصقًا.

سأل رجل قناع الغاز في أمل: «هل تريدني أن أقص لساني؟!».

- كلا. أريدك أن تُضمد رأسي. إلا إذا كنت تفضل أن تجلس مكانك وتشاهدني أنزف حتى الموت. لا بد أن هذا المنظر ممتع لك.

صرخ رجل قناع الغاز: «كلا!».

- إذًا عليك أن تفعل ما تستطيع لعلاج أذني ورأسي. اخلع قناعك. لا يمكن الحديث معك وأنت على هذه الهيئة.

أصدر القناع صوتًا كصوت الفلينة إذ تخرج من فوهة زجاجة. الرأس تحته محمر ملتهب، والوجه مبتل بالدموع. فتح الصندوق وأخرج اللاصق الطبي والمقص الفضي الصغير.

فتح بينج سترته الرياضة فكشف عن فانلة داخلية خلفها جسده المشعر كالغوريلا. خلع الفانلة وأعاد ارتداء السترة على اللحم.

أبطأت السيارة وأشعلت مصباح الإشارة، ثم انعطفت نحو الطريق السريع. قص بينج شرائح من فانلته، ثم وضعها بدقة فوق أذن مانكس وهو يقول بصوت متقطع بسبب الفواق الذي أصابه: «ثبِّت هذه».

قال مانكس وهو يلقي نظرة إلى المقعد الخلفي، فتلاقت عيناه وعيني وُين: «أريد أن أعرف بمَ جرحَتني. لدي تاريخ سيئ مع أمك كما تعلم. التعامل معها خطر كالتعامل مع شوال من القطط».

قال بينج: «أتمنى أن تأكلها الديدان. أتمنى أن تأكل الديدان عينيها».

- هذا تشبيه مقرف.

لف بينج شريحة أخرى من القماش حول رأس مانكس، فغطى بها جرح جبهته، ثم بدأ تثبيت الشرائح بقطع من اللاصق الطبي.

نظر مانكس إلى وُين وقال: «أنت طفل هادئ. ألا يوجد ما تقوله؟».

- أطلِقني.

- سأفعل.

عبرا جوار المطعم حيث تناول وُين وأمه إفطارهما هذا الصباح. هذه ذكرى تبدو كأنها مجرد حلم. هل رأى ظل مانكس حين استيقظ حقًّا؟

قال وُين وتفاجأ هو نفسه بما يقول: «لقد كنت أعرف أنك قادم. كنت أعرف طيلة اليوم».

- لا يمكن منع طفل من التفكير في هدايا الكريسماس.

أجفل مانكس حين ضغط بينج على الجرح. ظلت السيارة تسير بنعومة، وتنعطف بانعطاف الطريق. سأل وُين: «هل تقود هذه السيارة نفسها، أم أنني أتخيل هذا لأنه رش هذا الشيء في وجهي؟».

صرخ فيه رجل قناع الغاز: «لا تتكلم! اجتماع الكويكرز بدأ! لا ضحك ولا استمتاع وإلا قطعت لسانك!».

قال مانكس: «هلا توقفت عن الحديث عن قطع الألسنة؟! بدأت أتأكد أنك مخبول. أنا أتحدث مع الصبي، ولا أريدك أن تتدخل».

في حرج، عاد بينج إلى قطع شرائط اللاصق. قال مانكس: «أنت لا تهلوس بشيء، والسيارة لا تقود نفسها. أنا أقودها. أنا السيارة، والسيارة أنا. هذه رولز رويس أصلية موديل الشبح، صُنعت في بريستول عام 1937، وشُحنت

إلى أمريكا عام 1938. واحدة من أقل من خمسمائة سيارة في الولايات. هي امتداد أفكاري وتستطيع أن تنقلني عبر طرق لا وجود لها إلا في مخيلتي».

قال بينج: «ها قد أصلحت كل شيء».

ضحك مانكس وقال: «بالنسبة إليَّ، إصلاح كل شيء يتوجب العودة إلى باحة المرأة والعثور على بقية أذني».

تقلص وجه بينج، وضيق عينيه. تقوست كتفاه وبدأ ينتحب في صمت. قال وُين: «لكنه رش شيئًا في وجهي. رذاذ له رائحة كعك الزنجبيل».

- هو شيء يُهدئك. لو أن بينج استخدمه بدقة، لكنت الآن نائمًا.

ونظر مانكس نظرة جانبية متقززة نحو رفيقه. فكر وُين فيما قال، والتفكير بالنسبة إليه صار في صعوبة جر صندوق ضخم عبر حجرة. سأل أخيرًا: «ولماذا لا يؤثر فيكما الرذاذ؟».

قال مانكس وهو ينظر إلى قميصه الحريري المبقع بالدماء: «إمم؟ أوه، أنت في كونٍ منفصل حيث تجلس. لا أسمح لأي شيء بالعبور إلى نصف السيارة الأمامي».

تنهد ثم أضاف: «لا يمكن إنقاذ هذا القميص! أظننا نحتاج إلى دقيقة صمت حدادًا عليه. هذا القميص صنعه أمهر صناع القمصان في الغرب منذ مئات السنين. لم يرتدِ الرئيس فورد أي نوع من القمصان سوى هذا. ربما سأستخدمه في تلميع المحرك. الدم لا يُزال من الحرير أبدًا».

كرر وُين: «الدم لا يُزال من الحرير أبدًا».

بدت له العبارة ذات معنى أكبر من معناها المباشر، كأنها حقيقة مهمة. نظر مانكس إليه، ونظر وُين إلى مانكس عبر ومضات الضوء وسط ظلام الطريق، إلا أن مصدر الضوء الوامض كان من مكان ما خلف عقله وعينيه. هو على شفا الصدمة، حيث الوقت مختلف، يتحرك في قفزات، أو يتجمد لفترات، ثم يقفز أمامًا مرة أخرى.

سمع وُين صوتًا يشبه ولولة غاضبة. لوهلة ظن أنه صوت شخص يصرخ، وتذكر حين ضرب مانكس أمه بالمطرقة الفضية، فظن أنه مريض. ثم اقترب الصوت، وفطن إلى أنها سارينة سيارة الشرطة.

قال مانكس: «لا بد أنها قد أبلغتهم. لا تتهاون أمك في خلق المصائب لي».

سأله وُين: «ماذا ستفعل حين ترانا الشرطة؟».

- لا أظنهم سيعبؤون بنا، هم متجهون إلى أمك.

بدأت السيارات التي أمامهم تفسح الطريق لسيارة الدورية التي ظهرت أعلى التل، واندفعت نحوهم. أبطأت الشبح سرعتها، واتجهت إلى جانب الطريق، لكنها لم تتوقف. عبرت السيارة جوارهم بسرعة ستين ميلًا في الساعة، ولم ينظر إليهم السائق حتى. وانطلق مانكس -السيارة- دون أن يمس عجلة القيادة. أرخى الحاجز الشمسي ونظر إلى انعكاس وجهه في المرآة المثبتة خلفه.

قلَّ تتالي الومضات في عقل وُين الآن. لا يشعر بهلع حقيقي، كان قد ترك الخوف في الباحة مع أمه.

قام من الأرض، وجلس على الأريكة. قال وُين: «يجب أن يفحصك طبيب. لو أنزلتني في أي مكان هنا، يمكنك الذهاب إلى طبيب يصلح أذنك ورأسك، وسأسير أنا إلى المدينة حتى يجدني أحدهم».

- شكرًا لاهتمامك، لكنني لا أحب تلقي الرعاية الطبية وأنا مكبل بأصفاد الشرطة. سيداويني الطريق. هو دائمًا يداويني.

سأله وُين بصوت قادم من بعيد: «إلى أين نذهب؟».

- أرض الكريسماس.

- أرض الكريسماس؟ ما هذا؟

- مكان مميز للأطفال المميزين.

- حقًّا؟ لا أصدقك. هذا شيء تقوله فقط كي لا أفزع.

صمت قليلًا، ثم قرر أن يتشجع أكثر، فقال: «هل ستقتلني؟».

- أتعجب أنك تحتاج إلى سؤال كهذا. كان يمكن أن أقتلك هناك في بيت أمك. كلا. وأرض الكريسماس مكان حقيقي لكن صعب العثور عليه. لا يوجد أي طريق في هذا العالم يؤدي إليها، وليس لها وجود على الخرائط. هو مكان خارج عالمنا، وفي الوقت نفسه يبعد عن دينقر عدة أميال. مرة أخرى أكرر، هو هنا، في عقلي!

لمس صدغه الأيمن بإصبعه، ثم قال: «وآخذه معي أينما ذهبت. هناك أطفال كثيرون هناك، ولا نحبس أحدًا دون رغبته. هم لن يغادروا لأي سبب،

وهم يتوقون إلى مقابلتك يا وُين كارمودي. يتوقون إلى مصادقتك. ستراهم قريبًا، وحين تفعل، ستشعر وكأنك في بيتك».

عبرت السيارة انبعاجًا على الطريق، فتأرجحت. قال مانكس: «الساعات الأخيرة كانت مشحونة للغاية. ارتح قليلًا. لو حدث أي شيء مثير، سأوقظك».

لا يوجد سبب يجبره على إطاعة أوامر مانكس، لكن وُين وجد نفسه راقدًا على جانبه، ورأسه يرتاح على المقعد الجلدي. لو أن هناك صوتًا أجمل من صوت الطريق تحت العجلات، فوُين لا يعرفه.

البحيرة

غطست ڤيك تحت المياه الضحلة، وسبحت حتى الشاطئ. ارتمت على ظهرها وساقاها متدليتان في الماء. ارتجفت وتقلص جسدها وهي تنتحب بشهقات غاضبة. ربما كانت تبكي، لم تكن واثقة. أحشاؤها تؤلمها بشدة كأنها أمضت ليلة تقيء بلا توقف.

لا شيء يهم في حوادث الاختطاف أكثر مما حدث خلال نصف الساعة الأولى. تذكرت هذه العبارة التي سمعتها في التلفاز من قبل.

لم تفكر ڤيك في أهمية ما ستفعله خلال نصف الساعة التالية، لا يوجد شرطي على وجه الأرض قادر على العثور على تشارلي مانكس والشبح. مع ذلك، تحاملت على نفسها وقامت لتفعل ما عليها فعله، وما قد يُحدث فارقًا.

سارت مترنحة حتى بابها الخلفي، حيث سقطت مرة أخرى. صعدت الدرجات على أربع، واستخدمت الإفريز لتقف على قدميها. بدأ الهاتف يرن، فضغطت ڤيك على نفسها رغم الألم الشديد الذي يدفع الهواء من رئتيها دفعًا.

وصلت إلى الهاتف في المطبخ، ورفعت السماعة في منتصف الرنة الثالثة قبل أن تحوَّل المكالمة إلى جهاز الرد الآلي.

- أحتاج مساعدة. من؟ يجب أن تساعدني؟ أحدهم أخذ ابني.

أجابت الفتاة الصغيرة: «أوه، لا بأس يا سيدة مَكوين. أبي سيقود بأمان وسيتأكد أن وُين سيصل بسلام. سيكون هنا قريبًا. سيكون هنا في أرض الكريسماس، وسنريه ألعابنا. أيكفي هذا؟».

أغلقت ڤيك الخط، ثم طلبت النجدة.

أجابتها امرأة بهدوء: «ما اسمك، وما طبيعة المشكلة التي تواجهينها؟».

- ڤيكتوريا مَكوين. لقد هوجِمت، واختطف رجل ابني. يمكن أن أصف السيارة. رجاءً أرسلي المساعدة.

حاولت الموظفة أن تحافظ على هدوئها، لكنها لم تستطع، الأدرينالين يغير كل شيء.

- ما حالة إصابتك؟

- لا يهم هذا. المهم الخاطف. اسمه تشارلي مانكس.. هو في سن... لا أعرف. هو مُسن.

هو ميت، لكنها لم تقل هذا. أضافت: «ربما في سن السبعين. أطول من ستة أقدام، أصلع، وزنه مائتا رطل. معه رجل أصغر سنًّا، لكني لم أرَ ملامحه جيدًا».

لأنه كان يرتدي قناعَ غاز لعينًا لسبب ما. لكنها لم تقل ذلك أيضًا.

- كانا يركبان رولز رويس، شبح، من طراز الثلاثينيات. ابني في المقعد الخلفي. في الثانية عشرة اسمه بروس، لكنه لا يحب هذا الاسم.

بدأت ڤيك تبكي دون حيلة.

- شعره أسود، طول الولد خمسة أقدام، ويرتدي قميصًا أبيض بلا رسوم.

- ڤيكتوريا، الشرطة في الطريق. أكان أحد الرجلين مسلحًا؟

- أجل. الأصغر سنًّا معه مسدس، ومانكس معه مطرقة ضربني بها عدة مرات.

- سأرسل سيارة إسعاف للكشف على إصاباتك. هل رأيتِ لوحة أرقام السيارة؟

- سيارة رولز رويس من الثلاثينات، وابني فيها. كم سيارة بهذه المواصفات في الشوارع؟

تحول صوتها إلى نحيب، وهي تقول: «ن.. و.. س.. 4.. أ.. 2. الحروف والأرقام تكون كلمة ألمانية، نوسفراتو».

- وما معناها؟

- هل يهم هذا؟! ابحثي عنها!

- آسفة. أتفهم غضبك. سنفعل كل ما في وسعنا للعثور على ابنك. أعرف أنك مذعورة. اهدئي. حاولي.

شعرت ڤيك أن الموظفة توجه الكلام إلى نفسها أيضًا. صوتها مرتجف كأنها تحاول ألا تبكي.

- النجدة في الطريق يا ڤيكتوريا.

- ڤيك. أشكرك. آسفة لعصبيتي.

- لا بأس. إن كانت سيارة مميزة كما تصفين يا ڤيك، فهذا أمر إيجابي. لن يبتعدا بسيارة كهذه. لو أنها في أي مكان على الطريق، سيراهم أحد وسيبلغ الشرطة.

لكن أحد لم يفعل.

حين حاول المسعفون اصطحاب ڤيك إلى سيارة الإسعاف، وكزتهم بكوعها وأمرتهم أن يبتعدوا عن وجهها. وقفت الشرطية الهندية الضئيلة بينها وبين المسعفين وقالت وهي تعيد ڤيك إلى الأريكة: «افحصوا عينيها».

لكنتها الخفيفة تحيل أغلب كلماتها إلى نبرة تساؤل. أضافت: «الأفضل ألا تغادر المنزل. ماذا لو اتصل الخاطف؟».

تكومت ڤيك على الأريكة في ملابسها المبتلة، ملتفة بغطاء. طلب منها المسعف الجالس جوارها أن تُنزل الغطاء وتنزع قميصها. أطاعت ڤيك، وبلا تفكير خلعت قميصها وألقته على الأرض. لم تكن ترتدي مشدًّا للصدر، فغطت صدرها بذراع واحدة، انحنت لتدع المسعف يكشف على ظهرها، فزفر الأخير بحدة.

وقفت الشرطية الهندية «شيترا» جوار ڤيك على الجهة الأخرى تنظر إلى ظهرها. صدر عنها تنهيدة تعاطف هي الأخرى.

قالت: «قلتِ إنه حاول مداهمتك بالسيارة، لكنك لم تذكري أنه نجح في ذلك».

قال المسعف: «يجب أن توقعي على إقرار برفضك الانتقال إلى سيارة الإسعاف. رفضك قد يسبب لي مشكلات، قد يكون لديك ضلع مكسور أو تهتك

في الطحال لا يُكشف بالنظر. أريد أن أثبت في الإقرار أن رفضها ليس في مصلحتها الطبية».

قالت ڤيك: «ربما ليس في مصلحتي الطبية، لكن في مصلحتك».

سمعت ڤيك صوت ضحكة ذكورية مكتومة، صادرة عن أحد أفراد الشرطة السبعة المتحلقين حولها، الذين يتظاهرون أنهم لا ينظرون إلى صدرها أو إلى وشم المحرك فوق ثدييها.

جلس شرطي آخر إلى جوارها، وهو أول شرطي تراه لا يرتدي زي الشرطة. كان يرتدي سترة زرقاء قصيرة الكُمين عند المعصمين، وربطة عنق حمراء مبقعة بالقهوة. وجهه قبيح، حاجباه مشعثان أبيضان، مصفران عند الطرفين، وأسنانه مصفرة من النيكوتين، وأنفه منبعج كرتوني.

بحث عن دفتره في جيبيه، حتى وجده في جيب بنطاله الخلفي. فتحه ونظر إلى الصفحة الخاوية في حيرة، كأنه مطلوب منه كتابة مقال من خمسمائة كلمة عن الفن التأثيري.

نظرته الخاوية تلك هي ما جعلت ڤيك تعرف أنه ليس الرجل المناسب لهذه القضية. أجابت أسئلته على أي حال. بدأ بالأسئلة المعتادة عن مواصفات ابنها وملابسه، وما إن كان لديها صورة حديثة له. في مرحلة ما، قامت شيترا وخرجت ثم عادت حاملةً قميصًا ثقيلًا يحمل شارة شرطة نيو هامبشير على صدره، وطلبت من ڤيك ارتداءه، فوصل طوله إلى ركبتيها.

سأل الشرطي الضخم دالتري: «والأب؟».

- يعيش في كلورادو.

- مطلقان؟

- لم نتزوج.

- كيف يشعر حيال حصولك على حضانة الولد؟

- الحضانة ليست لي. وُين ... نحن متوافقان بشأن ابننا. لا مشكلة.

- هل لديك رقم نتواصل معه من خلاله؟

- أجل، لكنه على متن طائرة الآن. زارنا لأجل يوم الرابع من يوليو وهو في طريق العودة إلى بيته.

- هل أنت واثقة بذلك؟ كيف تعرفين أنه ركب الطائرة؟

- أنا واثقة أن لا دخل له بما حدث، إن كان هذا ما تفكر فيه. لا يوجد خلاف بيننا حول ابننا. هو أكثر رجل مسالم يمكنك مقابلته.

- أوه، لا أعرف. قابلت الكثير من المسالمين. أعرف رجلًا من مَين يقود مجموعة علاج نفسي ويعالج الناس من العصبية من خلال التأمل، لكنه حين فقد أعصابه مرة، كانت النتيجة أمرًا بحبسه في شاوشانك. كثير من الرجال لديهم مشكلة في التحكم في الغضب.

- ليس للُو أي صلة بما حدث. قلت لكم إنني أعرف من خطف ابني.

- حسنًا. يجب أن أطرح كل هذه الفرضيات. احكي لي عن الرجل الذي ضربك. كلا، احكي لي عن سيارته أولًا.

حكت له. هز دلتري رأسه وأصدر صوتًا كأنما يضحك كتعبير عن المزاح وخفة الظل، لكن ما عبر عنه هذا الصوت هو القسوة.

- رجلك ليس ذكيًّا. لو أنه على الطريق، فأمامه أقل من نصف ساعة.

- نصف ساعة حتى؟

- حتى يُلقى على وجهه في التراب وأحد شرطيَي الولاية يضع حذاءه على رقبته. لا عاقل يخطف طفلًا في سيارة عتيقة لافتة للنظر كسيارة بيع آيس كريم. أي شخص سيلاحظ سيارة رولز رويس.

- لن يُجدي هذا.

- ماذا تعنين؟

هي لا تعرف ماذا تعني، لذا لم تجبه. نظر إلى شيء كتبه في دفتره، ثم قال: «أنت تعرفين واحدًا من مهاجميكِ. تشارلز... مانكس. كيف تعرفينه؟».

- خطفني حين كنت في السابعة عشرة، واحتجزني يومين.

صمتت الغرفة تمامًا. أضافت ڤيك: «كل شيء في ملفه. هو بارع في الإفلات من الشرطة. يجب أن أغير ملابسي المبتلة هذه، وأود أن أفعل هذا في غرفة نومي. اعذروني، أعتقد أنني أظهرت من جسدي ما يكفي اليوم».

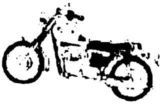

احتفظت ڤيك في عقلها بآخر لمحة رأتها من وُين وهو حبيس المقعد الخلفي للرولز رويس. كان يشير لها أن تهرب كأنه غاضب منها. وجهه شاحب كالموتى.

رأت وُين في لمحات كأنها ضربات مطرقة تهوي فوقها مرارًا، تضرب قلبها لا ظهرها. لمحة تراه فيها يجلس خلف منزلهم في دينڤر، ينقل التراب بمجرفة بلاستيكية ليدفن هاتفًا بلاستيكيًّا. لمحة من يوم كريسماس في المصحة، يجلس على أريكة ويفتح هديته التي كانت هاتفًا محمولًا، آيفون. لمحة يسير فيها إلى المرفأ حاملًا صندوقًا أثقل منه.

كل لمحة تضربها، فتؤلمها جراحها. ضربة، ينام رضيعًا عاريًا على صدرها. ضربة، يجثم بيدين ملوثتين بالشحم، يساعدها في تصليح دراجة بخارية. أحيانًا يكون الألم قاسيًا، صافيًا، حتى إن الحجرة تظلم حولها وتكاد تفقد الوعي. كان يجب أن تغادر الأريكة بأي عذر. قالت: «إن كان أحدكم جائعًا، يمكنني صنع بعض الطعام. الثلاجة ملأى».

كانت الساعة التاسعة والنصف مساءً وقتها.

قال دالتري: «سنرسل في طلب طعام. لا تتعبي نفسك».

شغلوا التلفاز على محطة إخبارية محلية أذاعوا فيها منذ ساعة خبر اختطاف وُين. شاهدته ڤيك مرتين، ولن تستطيع مشاهدته مرة أخرى.

في البداية عرضوا صورة وُين في قميص مطبوع عليه شعار فريق إروسميث الغنائي، على رأسه قبعة صوفية، ويضيق عينيه تحت شمس الربيع. ندمت على تزويدهم بهذه الصورة، هو لا يحب منظر أذنيه البارزتين من تحت هذه القبعة.

تلا ذلك عرض صورة ڤيك، مأخوذة من موقع كتاب «محرك البحث» الإلكتروني، ترتدي فيها تنورة سوداء وتنتعل حذاءين طويلَي الرقبة، ورأسها مرفوع وهي تضحك. تعتقد ڤيك أنهم اختاروا هذه الصورة لأنهم يودون عرض صورة فتاة جميلة على الشاشة، لكنها صورة غير مناسبة للحادث.

لم يعرضوا صورة مانكس ولم يذكروا اسمه حتى. وصفوا الخاطفين على أنهما رجلان أبيضان يركبان رولز رويس عتيقة.

سألت ڤيك في المرة الأولى التي شاهدت فيها الخبر: «لماذا لم يخبروا الناس عمن نبحث؟».

هز دالتري كتفيه، ثم قال إنه سيسأل، ثم خرج ليكلم الرجال بالخارج. حين عاد، لم يصرح بأي معلومات. عندما عُرض الخبر مرة أخرى، لم يتغير في صياغته شيء. هم يبحثون عن ذكرَين أبيضين وسط أربعة عشر مليون ذكر أبيض في نيو إنجلاند.

لو شاهدت إعادة الخبر للمرة الثالثة، ولم تجد ذكرًا لتشارلي مانكس أو صورة له، سترمي التلفاز بمقعد.

قالت ڤيك: «لدي لحم وسلاطة كرنب وخبز. سأصنع لكم بعض الشطائر».

تحرك دالتري في كرسيه، ونظر متسائلًا إلى الرجال الآخرين بالحجرة، وقد تمزق الجميع بين الجوع والأدب. قالت الشرطية شيترا: «لا بأس. سأساعدك».

ارتاحت ڤيك للخروج من حجرة المعيشة المكتظة بالأجساد، والرجال يخرجون منها ويعودون إليها ممسكين بأجهزة اللاسلكي التي لا تكف عن إصدار الضجيج. توقفت ڤيك لتنظر إلى الباحة تحت أضواء المصابيح. صار المكان أكثر إضاءة مما كان عليه في النهار وسط الضباب. رأت السور المتهدم، ورجلًا يرتدي قفازًا مطاطيًّا يقيس عرض الإطارات المحفورة على الأرض أمامه.

تدور كشافات الطوارئ فوق أسقف سيارات الشرطة، لكن الطوارئ قد انتهت بالفعل منذ ساعات. ومض وُين في عقلها مثل ومضات تلك الكشافات، فشعرت بدوار خطِر.

رأتها شيترا تترنح، فأسندتها، وساعدتها على العودة إلى المطبخ. الوضع فيه أفضل، على الأقل هو ذو خصوصية.

يطل المطبخ على الباحة والبحيرة. ثمة شرطي يجول حول البحيرة بكشاف يدوي، ويغوص إلى منتصف فخذيه في الماء، لكنها لم تتبين ماذا يفعل. رجل بملابس مدنية عند المرفأ يوجه تعليماته إلى الجميع.

عبر قارب على بعد أربعين قدمًا من الشاطئ، فوقه صبي وكلبه، ينظر الأول إلى ما يحدث في فضول.

حين لمحت ڤيك الكلب، تذكرت هوبر. هي لم تره منذ رحلت السيارة في الضباب.

قالت ڤيك بصوت متهدج: «يجب أن... نبحث عن الكلب. هو بالخارج في مكان ما».

نظرت إليها شيترا متعاطفة وقالت: «لا تقلقي بشأن الكلب الآن يا سيدة مَكوين. هل لديك ماء؟ يجب أن تحافظي على مستوى الماء في جسدك».

- الغريبة أنه... أنه لا ينبح... لا ينبح حتى يحتقن وجهه... مع كل هذا الزحام.

ربتت شيترا على يد ڤيك، ثم اعتصرت كوعها. نظرت ڤيك إلى الشرطية ثم فهمت فجأة. قالت الشرطية: «لديك ما تحملين همه».

- أوه! ربي!

بدأت ڤيك تبكي وتنتفض.

- لم يشأ أحد أن يزيد حزنك.

بكت ولفت ذراعيها حول نفسها. انتحبت مثلما لم تفعل منذ هجرها والدها. استندت ڤيك إلى المنضدة كي لا تهوي. مدت شيترا يدها لتمسد على ظهرها.

قالت والدة ڤيك التي ماتت منذ شهرين: *اهدئي. تنفسي بهدوء يا ڤيكي. تنفسي لأجلي...*

قالت ما قالت بلكنة هندية خفيفة، لكن بالنسبة إلى ڤيك كان هذا هو صوت أمها ولمستها على ظهرها. *كل من فقدتِ ما زال هنا معكِ، إذًا، ربما لا يوجد فقد على الإطلاق في هذا العالم.*

إلا إذا كان المفقود مع تشارلي مانكس.

جلست ڤيك وشربت كوب ماء. أفرغته في جوفها في خمس جرعات دون أن تتوقف للتنفس. الماء دافئ حلو له طعم البحيرة.

فتحت شيترا خزانة المطبخ بحثًا عن أطباق ورقية، قامت ڤيك رغم اعتراض الشرطية، وراحت تساعدها في صنع الشطائر. صفَّت الأطباق ووضعت في كل واحد شريحتَي توست أبيض. الدموع تتساقط من أنفها إلى الخبز.

أملت ألا يكون وُين قد عرف بموت هوبر. كانت تشعر أحيانًا أن وُين أقرب لهوبر منه إليها أو إلى والده.

أحضرت اللحم والسلاطة وكيسًا من مقرمشات «دوريتوس»، وبدأت تملأ الأطباق.

قالت المرأة التي جاءت من خلفها: «ثمة سر في شطائر الشرطيين».

نظرت ڤيك خلفها، فعرفت أن هذه المرأة التي تراها لأول مرة هي الشخص المنشود لهذه القضية. للمرأة شعر بُني، وأنف مفلطح قليلًا. تجدها عادية

عند أول نظرها، ثم ترى جمالها. ترتدي معطفًا ذا رقعتين عند الكوعين، مع بنطال من الجينز، وتبدو كطالبة جامعية ما لم يكن غمد المسدس يظهر من تحت ذراعها اليسرى.

سألتها ڤيك: «ما السر؟».

- سأريكِ.

أخذت المرأة الملعقة منها، ووضعت بعض السلاطة في واحدة من الشطائر، ثم قطعة لحم، ثم بعض المقرمشات، واعتصرت علبة المسطردة فوق هذا كله، وألصقت فوقهم ورقة خس، ثم توجت الشطيرة بشريحة الخبز الثانية التي دهنتها بالزبد.

- الزبد هو الخطوة الأهم.

- يلصق المكونات ببعضها بعضًا.

- أجل. والشرطيون ينجذبون للكوليسترول بالفطرة!

- كنت أظن أن العملاء الفيدراليين هم من يحققون في جرائم خطف الأطفال عبر الولايات.

عقدت المرأة حاجبيها، ثم نظرت إلى البطاقة المعلقة على صدر سترتها.

مكتب المباحث الفيدرالي

قسم التقييم النفسي

تابيثا ك. هَتر

قالت هَتر: «لم نتدخل رسميًا في الأمر بعد. لكن مكانك يبعد عند حدود ثلاث ولايات أخرى مسافة أربعين دقيقة، ومسافة ساعتين من حدود كندا. مهاجماكِ رحلا ومعهما ابنك منذ...».

- مهاجماي؟! لماذا لا تكفون عن الحديث عنهما باعتبارهما مجهولَين؟! الأمر بدأ يغضبني بشدة. رجلكم هو تشارلي مانكس. تشارلي مانكس ورجل آخر اختطفا ابني.

- تشارلي مانكس قد مات يا سيدة مَكوين. مات شهر مايو الماضي.

- هل لديكم جثته؟

صمتت هَتر، وزمَّت شفتيها، ثم قالت: «لدينا شهادة وفاة، وصور له في المشرحة. أجريت عليه إجراءات التشريح وشُق صدره وأخرج الطبيب الشرعي قلبه ووزنه. هذه أسباب مقنعة لنتأكد أنه ليس من هاجمك».

- وأنا لدي بضعة أسباب تؤكد أنه فعل، كلها مرسومة على ظهري. هل تريدينني أن أخلع قميصي وأريكِ الكدمات؟ كل من في الحجرة بالخارج ألقوا نظرة متفحصة عليها.

حدقت هَتر إليها دون رد، وعيناها فضوليتان. هزت تلك النظرة ڤيك، لا تحب أن يتفحصها أحد بهذه الطريقة. أخيرًا نقلت هَتر عينيها عنها ونظرت إلى الطاولة وهي تقول: «هلا جلستِ معي قليلًا؟».

دون أن تنتظر استجابة، وضعت حقيبتها الجلدية على الطاولة، ونظرت إلى ڤيك كي تجلس. نظرت ڤيك إلى شيترا كأنها تطلب منها النصيحة، وقد تذكرت كيف واستها المرأة، تحدثت إليها كأنها أمها، لكن الشرطية كانت تُنهي صنع الشطائر وتنقلها إلى الخارج.

جلست ڤيك.

أخرجت هَتر جهازًا لوحيًا «آيباد» من حقيبتها، وأضاءت شاشته. مررت إصبعها على الشاشة لتفتح ملفًا، ثم نظرت إلى ڤيك.

- في آخر فحص طبي، سُجل عمر مانكس خمسة وثمانين عامًا.

- هل تفكرين في أنه أكبر سنًا من أن يفعل ما فعل.

- أظنه أكثر «موتًا» من أن يفعل أي شيء. لكن احكي لي ما حدث وسأحاول أن أفهم.

لم تشتكِ ڤيك من أنها حكت القصة من البداية إلى النهاية ثلاث مرات من قبل، لأن هذه هي المرة الأهم، هذه هي الشرطية القادرة على تولي تحقيق كهذا.

تشارلي مانكس ظل يحصد الأرواح لعقود، ولم يعتقله أحد. كان يهرب من الشرطة كأنه دخان. كم من أطفال ركبوا سيارته ثم لم يرهم أحد بعدها؟ مئات...

حكت ڤيك القصة -الأجزاء التي كانت صالحة للحكي-، وأزالت ما يخص ماجي لي، وركوب الدراجة البخارية عبر جسر خيالي. وبالطبع لم تذكر أنها توقفت عن تعاطي أدويتها النفسية.

حين وصلت ڤيك إلى الجزء الذي ضربها فيه مانكس بالمطرقة، عقدت هَتر حاجبيها، وطلبت منها أن تصف المطرقة، وكتبت هذا الوصف على الآيباد، ثم أوقفت ڤيك عن الحكي مرة أخرى حين سمعت كيف قامت ڤيك وضربت مانكس بالمفتاح المعقوف.

- مفتاح معقوف؟

- أجل. شركة تِريَمف تصنعها خصوصًا لدراجاتها البخارية. كنت أعمل على دراجة من هذا النوع، وكان المفتاح في جيبي.

- أين هو الآن؟

- لا أعرف. كان في يدي وأنا أهرب. غالبًا ظل معي حتى قفزت في البحيرة.

- وكان هذا حين بدأ الرجل الآخر بإطلاق الرصاص نحوك؟ احكي لي.

فحكت...

سألت هَتر: «أطلق الرصاص على وجه مانكس؟».

- أصابه في أذنه فقطعها فقط.

- ڤيك، أريدك أن تساعديني في التفكير فيما حدث. هذا الرجل، تشارلي مانكس، في الخامسة والثمانين من عمره كما أكد الفحص الطبي الأخير. أمضى عشرة أعوام في غيبوبة، والمتعافون من الغيبوبة يحتاجون إلى شهور من العلاج والتأهيل ليستطيعوا المشي مرة أخرى. تقولين إنك جرحته بمفتاح معقوف، ثم تلقى رصاصة، ومع ذلك ظلت لديه القوة ليتحرك؟

لم تستطع ڤيك أن تخبرها أن مانكس ليس كأي رجل آخر. شعرت بهذا حين طوح المطرقة بقوة لا تتناسب مع حجمه ولا عمره. أصرت هَتر على أن جثة مانكس فُتحت وأزيل قلبه خلال التشريح، ولم تشكك ڤيك في هذا. فقطع أذن رجل مات من قبل ونُزع قلبه ليس أمرًا مؤثرًا.

- ربما الرجل الآخر هو من قاد السيارة. هل تريدين تفسيرًا؟ ليس لدي واحد. أنا فقط أخبرك ما حدث. مانكس معه ابني، ولسبب ما نجلس هنا نناقش حدود خيال مكتب الاستخبارات الفيدرالي!

نظرت إلى وجه هَتر وعينيها الهادئتين، ففهمت.

- إلهي! أنت لا تصدقين كلمة لعينة مما أقول، أليس كذلك؟!

صمتت هَتر للحظة، بعدها قالت: «أنا أصدق أن ابنك مفقود، وأنك مصابة. أصدق أنك تعيشين جحيمًا الآن. سوى ذلك، ما يحكم هو عقلي. تذكري أننا نريد الشيء نفسه، فيجب أن تتعاوني معي. أنت تريدين ابنك سالمًا، لو أنني أعرف أن ما قلتِ سيساعدني، لكنت بالخارج الآن أبحث عنه. هذه هي الطريقة التي أعثر بها على المجرمين. أعثر عليهم عن طريق جمع معلومات عنهم، وانتقاء ما ينفعني منها. لا يختلف ما أفعل عما تكتبينه في كتب «محرك البحث»».

- أتقرئين كتبي؟ كم عمرك؟

ابتسمت هَتر بخفة وقالت: «لست صغيرة إلى هذا الحد. الكتب مذكورة في ملفك، ومُحاضر في كوانتيكو يستخدم صور «محرك البحث» في محاضراته التي يتحدث فيها عن صعوبة العثور على تفاصيل ذات صلة وسط كم كبير من المرئيات».

- ماذا في ملفي غير ذلك؟

خبت ابتسامة هَتر، لكن عينيها لم تخبوا.

- أنك تسببت في حريق متعمد في كلورادو عام 2009، وأنك أمضيت شهرًا في مستشفى كلورادو للصحة العقلية، حيث شُخصتِ باضطراب ما بعد الصدمة، والفصام. أنت تتناولين مضادات ذهان، ولديك تاريخ إدمان كحول...

- إلهي. أنت تظنين أنني أتخيل كل هذا؟ أتخيل أن أحدهم أطلق الرصاص عليَّ؟

- لم تصلنا تأكيدات عن حقيقة إطلاق الرصاص.

دفعت ڤيك كرسيها إلى الخلف وهي تقول: «هو ضرب ست رصاصات نحوي. أفرغ مسدسه».

تتذكر الآن أنه على الأغلب، كل الرصاصات التي صُوبت نحوها بما في ذلك تلك التي أصابت مانكس، قد انتهى بها الأمر تحت الماء.

- ما زلنا نبحث عن فوارغ الطلقات.

- وكدماتي؟

- أنا لا أشكك في أن أحدهم هاجمك. ولا يشكك أحد في هذا.

ثمة شيء في هذه العبارة، شيء لم تستطع ڤيك الإمساك به، لكنه ذو معنى. من قد يكون هاجمها إن لم يكن مانكس؟ لكن ڤيك كانت مرهقة، ومستنزفة عاطفيًّا حتى إنها لم تقوَ على استنتاج شيء من هذا. نظرت ڤيك إلى البطاقة على صدر هَتر مرة أخرى. قسم التقييم النفسي. قالت غاضبة: «انتظري لحظة. انتظري لحظة لعينة.. أنت لست محققة. أنت طبيبة!».

قالت هَتر: «لماذا لا نرى بعض الصور؟».

- كلا. هذه مضيعة للوقت. لا أريد أن أرى صور المشتبه فيهم. قلت لك إن واحدًا منهما كان يرتدي قناع غاز، والآخر هو تشارلي مانكس. أنا أعرف شكل تشارلي مانكس بحق الله! سحقًا، لماذا أتحدث إلى طبيبة؟ أنا أريد محققًا!

- لم أكن سأعرض عليك صور مجرمين. كنت سأريك صور مطارق.

كان هذا أمرًا غير متوقع، فجلست ڤيك بفم مفتوح غير قادر على إصدار أي صوت.

قبل أن تبدأ، سمعت ڤيك صوت شيترا يعلو، ثم دالتري يقول شيئًا، وصوتًا آخر يتحدث. تساءلت ڤيك ماذا يفعل صاحب الصوت الثالث في بيتها، والمفترض أن يكون على متن طائرة الآن. أخرت حيرتها رد فعلها، حتى إنها لم تكن قد قامت من كرسيها بعد حين دخل لُو المطبخ وخلفه عدد من أفراد الشرطة.

بالكاد بدا كنفسه، وجهه شاحب وعيناه جزعتان في وجهه المستدير. بدا كأنما قد فقد عشرة أرطال منذ رأته ڤيك منذ يومين. قامت مندفعة، فتلقاها بين ذراعيه.

سألها لُو: «ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل يا ڤيك؟».

المطبخ

جلس الجميع إلى الطاولة، وأمسكت ڤيك بيد لُو. تعجبت لشعور الدفء في يده السمينة رغم وجهه الشاحب. أفزعها منظره المريض، لكنها فسرت هذا أنه جزع لا أكثر.

هم خمسة في المطبخ الآن، لُو وڤيك وهَتر حول الطاولة، ودالتري يقف مرتكنًا إلى الخزانة، يضغط أنفه المحمر بمنديل، وشيترا عند الباب، بعدما منعت دخول الرجال بأمر هَتر.

قالت هَتر بصوت كصوت مدير المدرسة في مسرحية أطفال: «أنت لُو كارمودي. أنت الأب».

قال لُو: «هل أنا متهم؟ أجل أنا الأب. من أنت؟ أنت تعملين مع مؤسسة التضامن الاجتماعي؟».

- أنا عميلة فيدرالية. اسمي تابيثا هَتر. ظننت أنك في دينڤر.

- فوَّتُّ طائرتي.

قال دالتري: «لم يحدث هذا. ماذا طرأ؟».

قالت هَتر: «أيها المحقق دالتري، سأتولى أنا أمر الأسئلة. شكرًا لك».

مد دالتري يده في جيب سترته وهو يقول: «هل تمانعون لو دخنت؟».

قالت هَتر: «أجل».

أمسك دالتري علبة السجائر لحظة وهو يحدق إليها، ثم أعادها إلى جيبه. سألت هتر: «لمَ فوتَّ طائرتك يا سيد كارمودي؟».

- لأن وُين اتصل بي من السيارة بينما يحاول أحدهم أن يطلق النار على ڤيك. تحدثنا دقيقة ثم أغلق الخط لأن مانكس والرجل الآخر يقتربان من السيارة. كان مرتعبًا حقًّا لكنه تماسك. هو رجل صغير. لطالما كان رجلًا حقيقيًّا.

ضرب لُو المنضدة بقبضته، ثم نكس رأسه. أجفل إذ شعر بألم في أحشائه، وتساقطت دموعه.

- لا بد أنه صار رجلًا في سنه هذه، فأنا وڤيك لم نكن كبيرين بما يليق بنا كأبوين.

وضعت ڤيك كفها على كتفه. تبادل دالتري وهَتر نظرة، وبالكاد لاحظا دموع لُو. سألت هَتر: «هل تعتقد أن ابنك أغلق هاتفه بعدما حادَثك؟».

قال دالتري: «لو أن شريحة الهاتف فيه، فلا يهم إن كان أغلقه أو تركه مفتوحًا. أمام الفيدراليين عمل شاق».

قالت ڤيك وقد تسارع نبضها: «هل يمكنكم استخدام هاتفه في العثور عليه؟».

تجاهلتها هَتر، وقالت لدالتري: «طبعًا، لكن سيحتاج الأمر إلى بعض الوقت. سأتصل ببوسطن. إن كان نوع الهاتف آيفون، وكان مفتوحًا، فيمكن تتبعه عن طريق خدمة «اعثر على هاتفي»، وسنجده فورًا، والآن».

ثم رفعت جهاز آيباد في يدها. قال لُو: «هذا صحيح. أنا شغلت هذه الخاصية يوم اشترينا له الجهاز خوفًا من أن يفقده».

قام ووقف خلف كتف هَتر. لم يتحسن لونه رغم إضاءة الشاشة القوية. سألت هَتر: «ما هو بريده الإلكتروني، وكلمة السر؟».

مد لُو يده ليكتبه على الشاشة، لكن هَتر أمسكت رسغه وضغطت إصبعين على مرفقه وهي تنظر إليه في قلق. من حيث تجلس ڤيك، رأت أثر لاصق على جلده. سألت هَتر: «هل أجريت رسم قلب الليلة؟».

- فقدت الوعي من الغضب. مررت بما يشبه نوبة الذعر يا صاح. أحدهم أخذ ابني.

حتى الآن، كان كل تركيز ڤيك منصبًّا على وُين، حتى إنها لم تلاحظ شحوب لُو وإجهاده، حتى صُدمت بما سمعت.

- أوه، لُو! ماذا تعني أنك فقدت الوعي؟!

- حدث هذا بعدما أغلق وُين الخط. سقطت للحظات. أحضروا لي جهاز رسم قلب كي يطمئنوا أنني لن أموت أمامهم.

سأله دالتري: «هل أخبرتهم أن ابنك مخطوف؟».

نظرت إليه هَتر نظرة محذرة، تظاهر دالتري أنه لم يلاحظها.

- لست متأكدًا مما قلت لهم. أعتقد أنني أخبرتهم أن ابني يحتاجني. كل ما كنت أفكر فيه هو العودة إلى سيارتي. قالوا لي إنهم سيجلبون لي سيارة إسعاف، قلت لهم... قلت لهم ابتعدوا عني. نهضت وابتعدت. ربما أمسك أحدهم بذراعي، فجررته خلفي بضع خطوات. كنت متعجلًا.

سأل دالتري: «إذًا أنت لم تتحدث مع شرطة المطار حول ما حدث لابنك؟ ألم تفكر أن هذا قد يكون أسرع في نجدته؟».

- لم يخطر ببالي هذا. أردت أن أتحدث إلى ڤيك أولًا.

رأت ڤيك تبادل النظرات بين دالتري وهَتر. سألت الأخيرة: «لماذا أردت أن تتحدث مع ڤيك أولًا؟».

صرخت ڤيك: «وما أهمية ذلك؟ هلا فكرنا في وُين!».

قالت هَتر وهي ترمش وتنظر إلى الآيباد: «أجل. لنركز على وُين. ماذا عن كلمة السر؟».

كتب لُو على شاشة الجهاز بإصبعه السمينة. أنفاسه سريعة متلاحقة. حمَّل الجهاز الخدمة المنشودة، وظهر على صفحته خريطة العالم، وعند الطرف العلوي الأيمن كُتب:

هاتف وُين...

جاري البحث...

جاري البحث...

جاري البحث...

بدأت خريطة تفصيلية تظهر، لتبين مكان الهاتف. رأت ڤيك نقطة زرقاء تتحرك على طريق سانت نِك. مال الجميع نحو الجهاز. قال دالتري: «كبِّري الخريطة».

ضغطت هَتر على الشاشة مرة تلو الأخرى...

أظهرت الشاشة خريطة تشبه أمريكا، كأن أحدهم صنعها من صلصال، ثم بعج المنتصف. في هذه النسخة من الولايات كيب كود في نصف مساحة فلوريدا، وجبال روكي أقرب شكلًا لجبال الأنديز. كل القارة تنسحق وتميل نحو المنتصف.

أغلب المدن الكبرى اختفت، وظهر بدلًا عنها نقاط مهمة أخرى. في فيرمونت ظهرت غابة كثيفة تحيط بمكان اسمه «ملجأ الأيتام». في نيو هامبشير، مكان يُدعى «منزل شجرة العقل». شمال بوسطن مكان يُدعى «ثقب مفتاح لافكرافت»، وهي مدينة على شكل قفل. في مَين، قرب ديري وأوبورن، وليستون، مكان اسمه «سيرك بينيوايز»[1].

(1) يشير الكاتب إلى شخص المهرج المخيف بينيوايز من رواية أبيه الكاتب ستيفن كينج «الشيء». (المترجمة)

طريق سانت نِك مرصع بالنقاط التي تمثل مناطق الاستراحات على الطريق. في إلينوي «رجل الثلج المُراقِب». في كانساس «الدمى العملاقة». في بنسلفانيا «بيت النوم»، و«مقبرة الممكن».

ثم في النهاية، عند جبال كلورادو، نهاية طريق القديس نِك: «أرض الكريسماس».

القارة نفسها تسبح في بحر من الظلام، وبدلًا عن اسم البلد المألوف «الولايات المتحدة الأمريكية»، مكتوب «التخيلات المتحدة الأمريكية».

تتحرك النقطة الزرقاء التي تشير إلى مكان الهاتف من غرب ماساشوستس، إلى ما يسمى بأرض الكريسماس. التخيلات المتحدة لا تمثل الولايات المتحدة بدقة، فمقاييسها أصغر بكثير.

حدق الجميع إلى الشاشة.

أخرج دالتري منديله من جيبه، وأفرغ أنفه فيه. شعرت ڤيك أن المطبخ يبتعد عنها، نظرها يزيغ. احتاجت إلى ما ترتكن إليه، خشيت أن تبتلعها الأرضية، أو تطير هي مبتعدة كبالون تركته يد طفل. أمسكت معصم لُو. لطالما كان هناك حين تحتاج ما تتمسك به. نظرت إليه، فرأت انعكاسًا لصدمتها في وجهه.

قالت هَتر في صوت طبيعي فاجأ الجميع: «لا أعرف ما هذا. هل يعني هذا شيئًا لكما؟ هذه الخريطة الغريبة؟ أرض الكريسماس؟ طريق القديس نِك؟».

سأل لُو ڤيك في حيرة: «هل يعني هذا شيئًا؟».

كان سؤاله يعني: هل نخبرهم عن أرض الكريسماس؟ عن تلك الأشياء التي كنت تؤمنين بها حين جُننت؟

أجابت ڤيك إجابة واحدة تكفي كل الأسئلة: «كلا».

حجرة النوم

قالت ڤيك إنها بحاجة إلى الراحة، وسألت إن كان يمكنها الاستلقاء قليلًا. قالت لها هَتر إن انهيارها لن يفيد أحدًا.

في حجرة النوم، كان لُو هو من استلقى على الفراش، بينما عجزت ڤيك عن الاسترخاء. فتحت ستائر النافذة ونظرت إلى السيرك القائم بالخارج.

لو رآها أحد من بالخارج خلف النافذة، لظنها تحدق إلى الطريق على أمل أن تظهر سيارة شرطة تحمل إليها ابنها الذي عاد آمنًا، شفتاه ملطختان بالآيس كريم الذي جلبه له الشرطيان.

لكنها لم تكن تنظر إلى الطريق على هذا الأمل. لو أن أحدًا سيعيد وُين، فسيكون هي. كانت حدقت إلى الدراجة البخارية حيث أسقطتها.

انقلب لُو على الفراش، وتحدث ناظرًا إلى السقف.

- هلا تمددت جواري قليلًا؟ فقط.. أريدك جواري.

أغلقت الستائر وعادت إلى الفراش، فانهارت جوار لُو، وهو شيء لم تفعله منذ سنوات.

- أتعرفين هذا الرجل، دالتري؟ قال إنك أُصبتِ.

فطنت إلى أنه لم يسمع الحكاية، ولم يخبره أحد ما حدث معها. اضطرت إلى حكي الأحداث مرة أخرى بطريقة تكرار السطور المحفوظة في بروفات المسرحيات.

ثم حكت له عن رحلتها بالدراجة البخارية، ولم تُخفِ عنه موضوع الجسر. اكتشفت أنها تستطيع أن تحكي له عن الجسر وسط الضباب لأنه كان حقيقيًّا بلا شك.

قالت وهي تنظر إلى وجهه: «رأيت الجسر، وعبرته يا لُو. خرجت أبحث عنه فوجدته. هل تصدقني؟».

- لقد صدقتك في أول مرة حكيت لي فيها عنه.
- يا لك من كاذب!

ابتسمت في وجهه، فمد يده ووضعها على جانب صدرها الأيسر وهو يقول: «ولمَ لا أصدقك؟ هل تذكرين الشعار على بوستر مسلسل «الملفات إكس»؟ «أريد أن أصدق». هذه قصة حياتي يا سيدتي. أكملي. عبرتِ الجسر، ثم ماذا حدث؟».

- لم أعبره هذه المرة. خفت. حقًّا خفت يا لُو. كدت أجن مرة أخرى. ضغطت المكابح حتى كسرت الدراجة نفسها.

حكت له كيف استدارت وعادت من منتصف الطريق. وصفت الأصوات في الجسر وخارجه، وقالت له إنها عرفت أنه قد اختفى حين لم تعد تسمع أصوات التشويش، بعدها سارت عائدة إلى البيت.

أكملت ڤيك الحكاية، وكيف كان مانكس والرجل الآخر في انتظارها، وكيف ضربها مانكس بالمطرقة. أجفل لُو وأطلق السباب. ثم حكت له كيف جرحته بالمفتاح المعقوف، فقال: «ليتك اغتصبتِ جمجمته بهذا الشيء».

قالت له إنها حاولت كل ما بيدها. أكملت ما حدث مع أذن مانكس، فتوتر جسد لُو مثل وتر قوس مشدود. لم يقاطعها حتى وصلت إلى الجزء الذي فرت منهما فيه إلى البحيرة.

- هذا ما كنتِ تفعلين حين اتصل بي وُين.
- ماذا حدث لك يا لُو في المطار؟ أخبِرني الحقيقة.

أدار رأسه ليريح عضلات رقبته، وقال: «كما أخبرتك. فقدت الوعي. ما هذا المكان على الخريطة؟ أرض الكريسماس؟».

- لا أعرف.
- هو ليس في عالمنا، أليس كذلك؟
- لا أعرف.. أنا فقط أفكر أنه قد يكون في «عالمنا»، عالمنا أنا وهو وأشباهنا. كل واحد منا يعيش في عالمين، أليس كذلك؟ العالم المادي، والعالم الذي نخلقه داخلنا من خلال خيالنا. عالم مخلوق من أفكار

لا مادة. هو حقيقي بالضبط كالواقع، لكنه داخلنا. كل واحد منا لديه عالمه الخيالي، وكلها متصلة مثلما تتصل فيرمونت بنيو هامبشير. ربما لبعض الأشخاص القدرة على التنقل بين تلك العوالم لو حصلوا على مركبة أو أداة مناسبة، مفتاح، سيارة، دراجة...

- كيف يتصل عالمك الخيالي بعالمي الخيالي؟

- لا أعرف. لكن.. ربما مثلما يحلم شاعر بقصيدة، فتسمعها أنت كأغنية في المذياع. أنت تسمع أفكاره.

عقد لُو حاجبيه وقال: «إذًا، تقولين إن تشارلي مانكس ينقل الأطفال من العالم المادي إلى عالم خاص مصنوع من أفكاره هو. حسنًا. الأمر غريب، لكن يمكن أن أجاريكِ. لنعُد إلى ما حدث معك. رجل قناع الغاز معه مسدس».

حكت له ڤيك عن الغوص في البحيرة، وكلام مانكس معها وهي تحت الطوف. حين انتهت، أغلقت عينيها ودفنت وجهها في عنق لُو. كانت مرهقة، بل بعد حدود الإرهاق. لقد عبرت عوالم أخرى من الوعي، حيث الجاذبية أخف. لو لم تتشبث بلُو، لطَفت في الهواء.

قال لُو: «هو يريدك أن تبحثي عنه».

- يمكنني العثور عليه. يمكنني العثور على بيت النوم كما قلت لك. لقد عبرت الجسر إليه قبل أن أكسر الدراجة.

- على الأرجح تمزقت السلسلة.

فتحت عينيها وقالت: «يجب أن تصلح الدراجة البخارية يا لُو بأسرع ما يمكن. أخبِر هَتر والشرطة أنك عاجز عن النوم وتريد أن تُخرج توترك في أي عمل يدوي. أنت ميكانيكي، لن يشكوا في الأمر».

- تحداكِ مانكس أن تعثري عليه. ماذا تظنين أنه سيفعل حينها؟

- يجب أن يفكر هو فيما سأفعل أنا فيه.

- ماذا لو لم يكن في بيت النوم؟ هل تأخذك الدراجة إلى حيث يوجد؟ حتى لو كان يتحرك؟

- لا أعرف...

لكن عقلها قال لها إنها لن تعثر عليه لو كان يتحرك. هي حقًا لا تعرف من أين لها بهذا اليقين الذي تتحدث به.

تذكرت أنها خرجت تبحث يومًا وهي صغيرة عن قِط يدعى تايلور، وكانت واثقة أنها وجدته لأنه كان ميتًا. لو كان حيًّا ويتحرك من مكان لآخر، لما وجدت مرساة تثبت إليها نهاية الجسر. يمكنها العبور بين عالمَي الموجود والمفقود، فقط لو كان المفقود ثابتًا في مكان واحد.

رأى لُو الشك على وجهها وهي تكمل: «لا يهم. سيتوقف مانكس في وقت ما، أليس كذلك؟ ربما ليأكل أو ينام».

في الواقع لم تكن واثقة إن كان بحاجة إلى طعام أو نوم. لقد مات ونُزع قلبه، ثم قام حيًّا وهرب. من يعرف ماذا يحتاج رجل مثله؟ ربما افتراض أنه رجل من الأساس هو افتراض خاطئ، ومع ذلك هو يتألم وينزف. لقد رأته يشحب ويترنح، ورأت أنه بحاجة إلى فترة استشفاء مثله مثل أي مخلوق جريح.

لوحة أرقام سيارته، أهي مزحة أم نذير أم حقيقة؟ نوسفراتو. الكلمة الألمانية التي تعني مصاص دماء، وهذه هي حقيقته بشكل ما.

في الحكايات يقال إن مصاصي الدماء يختبئون في توابيتهم لفترات من وقت لآخر. أزاحت تلك الأفكار عن عقلها، وكررت لنفسها: «عاجلًا أم آجلًا سيتوقف لسبب أو لآخر، وقتها سأعثر عليه».

قال لُو: «سألتِني من قبل إن كنت أظنك مجنونة بعد كل ما قلتِ عن الجسر. وقلت لك لا أظنك مجنونة. لكن هذا؟ هذا الجزء هو الجنون نفسه. أن تركبي دراجتك وتذهبي إليه بنفسك وأنت تعرفين خطورته، وتعرفين أنه ينتوي إنهاء ما قد بدأه معك هذا الصباح».

نظرت ڤيك تجاه الباب وقالت: «هذا كل ما لدينا. لُو، هذه هي الطريقة الوحيدة التي قد نجد بها وُين. هؤلاء الناس بالخارج لن يعثروا عليه، وأنا أستطيع. هل ستصلح الدراجة البخارية؟».

تنهد مُطلِقًا كمًّا كبيرًا من الهواء، ثم قال: «سأصلحها يا ڤيك. بشرط».

- ما هو؟

- بعدما أصلحها، خذيني معكِ.

طريق القديس نيكولاس

نام وُين طويلًا في سلام وهدوء، وعندما فتح عينيه عرف أن كل شيء على ما يرام.

زادت سرعة NOS4A2 عبر الظلام. السيارة تصعد التلال، وتنعطف بنعومة كأنما تسير على قضبان، ووُين سعيد مستمتع.

تتساقط الثلوج بخفة كالريش، فتتحرك المسَّاحات تُزيحها.

مروا بعمود إنارة وحيد في الليل، عبارة عن عمود طويل على قمته كرة حلوى تضيء بلون الكرز، مُحولةً ندف الثلج إلى شرر نار.

عبرت الشبح منعطفًا يكشف امتداد الأرض التي تشمخ الجبال عند نهاية انبساطها. لم ير وُين من قبل جبالًا كهذه، إذ تبدو جبال الروكيز مقارنة بها كتِباب. أصغرها يبلغ ارتفاع إيفرست. تشبه الجبال أسنانًا عملاقة مدببة مغروزة في السماء. صخور بارتفاع آلاف الأقدام تخترق الليل، وترفع الظلام، وتدفع السماء إلى أعلى.

فوق كل هذا هلال كقوس فضي، نظر إليه وُين، ثم ظل يحدق إليه. للهلال أنف معقوف وفم مزموم، وعين مغلقة نائمة. حين يزفر الهلال، ينتشر السحاب الفضي على صفحة سماء الليل. كاد وُين يصفق انبهارًا بما يرى.

مع ذلك، صعب جدًّا النظر بعيدًا عن الجبال. القمم القاسية المدببة تجذب نظر وُين كما يجذب المغناطيس برادة الحديد، فوق قمة أطول الجبال، جوهرة ضخمة تضوي بضوء أقوى من لمعان القمر، وتلمع أكثر من النجوم، وتلتهب وسط الظلمة كشُعلة.

أرض الكريسماس.

للحظات، نسي وُين من يقود السيارة وكفَّ عن القلق بهذا الشأن. لا يهم، المهم أن يصل إلى هذا المكان. شعر باشتياق للوصول والدخول عبر بوابةٍ مبنية من عصي الحلوى.

قال مانكس: «انظر إلى بلورات السكر...».

- بلورات سكر؟ أم إنك تقصد بلورات ثلج؟

- لو أنني أقصد بلورات ثلج، لقلت إنها بلورات ثلج. هذه بلورات سكر قصب نقية، ولو كنا نركب طائرة، لكنا نخترق سحبًا من غزل البنات. افتح نافذتك وأمسك واحدة منها لترى إن كنت كاذبًا.

سأل وُين: «ألن يكون الجو بالخارج باردًا؟».

نظر السيد مانكس إليه عبر المرآة الأمامية، وابتسم. لم يعد مخيفًا. كان شابًّا، حتى وإن لم يكن وسيمًا، وبدا أنيقًا في قفازيه الجلديين الأسودين ومعطفه الأسود الثقيل. شعره الآن أسود مُصفف إلى الخلف تحت قبعة ذات حافة جلدية، تبرز جبهته العريضة أكثر.

رجل قناع الغاز نائم جواره وابتسامة هانئة على وجهه السمين. يرتدي زي بحرية أبيض، تُزين صدره ميداليات شرف ذهبية. حين دقق وُين النظر، تبين أن تلك الميداليات لم تكن سوى تسع قطع شوكولاتة ملفوفة في غلاف ذهبي.

فهم وُين الآن أن الذهاب إلى أرض الكريسماس أفضل من الذهاب إلى مدرسة هوجورتس[1]، أو مصنع شوكولاتة ويلي وُنكا[2]، أو مدينة السحاب في أفلام حرب الكواكب، أو أرض رافندال في رواية «سيد الخواتم».

دخول أرض الكريسماس ممنوع سوى على الأطفال الذين يحتاجونها حقًّا. مستحيل أن يشقى طفل هناك، حيث كل صباح هو صباح كريسماس، وكل أمسية هي أمسية عيد الميلاد المجيد. حيث البكاء مخالف للقوانين، وحيث يطير الأطفال، أو يطفون. لم يكن وُين واثقًا بالفارق.

---

(1) مدرسة هوجورتس، هي مدرسة خيالية لتعليم السحر، من روايات هاري بوتر. (المترجمة)

(2) مصنع شوكولاتة سحري من رواية تشارلي ومصنع الشوكولاتة. (المترجمة)

عرف شيئًا آخر، أن أمه تكره السيد مانكس لأنه رفض اصطحابها إلى أرض الكريسماس. وإن لم تستطع الذهاب، فلن تسمح لوُين بهذا. سبب إدمان أمه الخمر، أن السُّكر هو أقرب إحساس إلى ما يشعر به المرء حين يكون في أرض الكريسماس، رغم أن اختلاف زجاجة خمر عن أرض الكريسماس أقرب لاختلاف كعك الكلاب عن قطعة لحم مشوي فاخر.

أمه تعرف أن وُين سيذهب إلى أرض الكريسماس في يوم ما، لذا لم تُطق المكوث معه، وفرت منه كل تلك السنوات.

لا يريد التفكير في هذه الأمور. سيتصل بها ما إن يصل أرض الكريسماس. سيخبرها أنه يحبها، وأن كل شيء على ما يرام. سيتصل بها كل يوم لو اضطر إلى ذلك. صحيح أنها أحيانًا ما كانت تبغضه، وتكره أمومتها، لكنه يحبها على أي حال، وسيشاركها سعادته.

صاح مانكس مُبعدًا أفكار وُين: «برد؟ أنت تقلق كأنك خالتي ماتيلدا! هيا افتح النافذة. أنا أعرفك جيدًا يا بروس وُين كارمودي. أفكارك جادة أليس كذلك؟ أنت رفيق صغير جاد! نريد أن نشفيك من هذه الجدية، وسنفعل! يصف لك الطبيب مانكس كوبًا من الكاكاو بالنعناع، ورحلة في قطار القطب الشمالي السريع مع باقي الأولاد. لو ظللت متجهمًا بعد ذلك، فلا أمل فيك! هيا افتح النافذة! كأنني أركب مع جدة مُسنة لا مع طفل! دع هواء الليل يزيح الهموم».

التفت وُين ليفتح النافذة، وحين فعل، باغتته مفاجأة مرعبة، جدته ليندا تجلس جواره. لم يرها منذ شهور. صعب زيارة الأقارب لو كانوا موتى.

ما زالت ميتة حتى الآن. ترتدي رداء المستشفيات، ويرى ظهرها العظمي من فتحته الخلفية حين تميل إلى الأمام. كانت تجلس على المقعد الجلدي الفاخر بمؤخرتها العارية. ساقاها نحيلتان إلى حد مريع، بيضاوان في الظلام، تغطيهما أوردة سوداء. عيناها مغطاتان بقطعتين فضيتين من فئة نصف دولار.

فتح وُين فمه ليصرخ، لكن الجدة ليندا رفعت إصبعها أمام فمها، همست: «ششش...».

قالت محذرة: «بالعكس فكرت لو، وُين يا، شيء كل إبطاء يمكنك. الحقيقة عن بعيدًا يقودك هو».

أمال مانكس رأسه كأنه قد سمع صوتًا في السيارة لا يعجبه. تحدثت ليندا بوضوح فسمعها مانكس، لكنه لم يستدر نحوها. تعبير وجهه يقول إنه ليس متأكدًا مما سمع.

مرآها كان مخيفًا كفاية، لكن ما قالت.. هذا هراء يحوم حول حافة المعنى. ارتجف وُين، ولمعت العملتان فوق عنيها.

همس: «ارحلي».

أوضحت الجدة ليندا وهي تضغط إصبعها إلى صدره مؤكدة: «لنفسه بشبابك وسيحتفظ، خلفك روحك سيترك. تنقطع حتى مطاطي كحبل سيجذبك. روحك عن سيبعدك».

أنَّ خوفًا، وتراجع بعيدًا عن لمستها، في لوقت نفسه وجد نفسه يحاول فهم شيء مما تقول. تنقطع حتى؟ *مطاطي كحبل؟*

كلا. كحبل مطاطي. هي تتكلم بالعكس، ولهذا لم يفهمها مانكس وشك في أنه سمع شيئًا. حاول أن يتذكر ما قالت ليرى إن كان يستطيع فك لغز المرأة الميتة، لكن الكلام كان يُنسى ويختفي من عقله.

قال السيد مانكس: «افتح النافذة أيها الولد الصغير! هيا!».

صوته جاد، وليس لطيفًا كما كان. أردف: «أريدك أن تمسك بعضًا من هذه البلورات بنفسك! أسرع الآن! النفق يقترب!».

لكن وُين لم يفتح النافذة، لأنه كي يفعل، عليه أن يمد يده من أمام ليندا، وهو خائف. خائف كما كان خائفًا من مانكس. أراد أن يغطي عينيه كي لا يراها. شهق عدة شهقات قصيرة متتالية، كأنه عدَّاء يلهث، فخرج البخار من فمه كأن الجو بارد حيث يجلس، لكنه لا يشعر بذلك.

نظر إلى المقعد الأمامي طلبًا للمساعدة، لكن مانكس كان قد تغير، وعاد أصلع مقطوع الأذن، وقطعة لحم تتعلق مز جبهته فوق حاجبه كما كان. زاد على ذلك أن عينيه تحولتا إلى فجوتين حمراوين متوهجتين كأن بداخل تجويفيهما قطعتَي فحم ملتهبتين.

جواره، رجل قناع الغاز غير واعٍ لشيء.

من خلال الزجاج الأمامي رأى وُين نفقًا محفورًا في جدار صخري كماسورة سوداء تفضي إلى جانب التل الآخر

سأل مانكس بصوت مرعب. صوت ألف ذبابة تئز معًا: «مَن معك بالخلف؟».

نظر وُين إلى ليندا، فوجدها قد اختفت وتركته. ابتلع النفق الشبح، ولم يعد شيء ظاهرًا في الظلام سوى جمرتَي عينَي مانكس، تحدقان إلى وُين.

قال الأخير: «لا أريد الذهاب إلى أرض الكريسماس».

قال الشيء في المقعد الأمامي، الذي كان رجلًا، ثم لم يعد كذلك: «الكل يريد الذهاب إلى أرض الكريسماس».

ربما هو لم يعد رجلًا منذ مئات السنين.

تقترب السيارة من نهاية النفق، حيث يبزغ نور الشمس رغم أنهم دخلوا النفق في الليل. آلم النور عينَي وُين.

غطى وجهه بكفيه، فاخترق الضوء أصابعه، وظل يسطع حتى رأى عظامه الداكنة وسط لحم يديه المضيء. شعر كأنه قد يشتعل هو نفسه في أي لحظة.

صاح: «لا أحب هذا!».

اندفعت السيارة نحو طريق مفروش بالحصى، وارتطمت ببدايته بقوة حتى أبعدت يديه عن وجهه عنوة، فرمش في مواجهة ضوء الشمس.

اعتدل بينج بارتريدج -رجل قناع الغاز- في جلسته، والتفت نحو وُين. اختفى زيه الأبيض، وعاد إلى ملابسه التي كان يرتديها اليوم السابق.

قال وهو يدس إصبعًا في أذنه: «كلا، أنا أيضًا لا أحب الصباح».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

شوجركريك، بنسلفانيا

قال رجل قناع الغاز: «أيتها الشمس، اغربي!».

ثم تثاءب، وقال في حرج: «حلمت حلمًا جميلًا. حلمت بأرض الكريسماس».

قال مانكس: «أتمنى أن تروق لك. بعد كل الفوضى التي تسببت فيها، فليس لديك سوى الحلم بأرض الكريسماس».

انكمش رجل الغاز في مقعده، ووضع كفيه على أذنيه.

وصلوا إلى مكان محاط بالتلال، مفروشًا بالعشب العالي، تعلوه سماء صيفية زرقاء. ثمة بحيرة طويلة على اليسار، والوادي مغطى بضباب الصباح الذي ستبخره الشمس قريبًا.

فرك وُين عينيه لطرد النعاس عن عقله. جبهته وخداه ساخنة محمومة. زفر، واندهش لمرأى بخار يتصاعد من فتحتَي أنفه بالضبط كما في حلمه. لم يكن يدرك كم أن الجو بارد في المعقد الخلفي.

قال وُين رغم أنه يشعر بالدفء: «أنا أتجمد».

- الصباح الباكر قد يكون باردًا. ستتحسن سريعًا.

سأل وُين: «أين نحن؟».

قال مانكس وهو ينظر إليه نظرة سريعة: «بنسلفانيا. كنا نقود طيلة الليل بينما كنت تنام كرضيع».

رمش وُين في حيرة وتخبط، واحتاج إلى لحظات ليعرف السبب. ضمادة أذن مانكس كانت في مكانها، لكنه خلع الضمادة التي تلف جبهته. الجرح على جبينه داكن متغضن، مع ذلك بدا كأنه قد شُفي خلال الاثنتي عشرة ساعة الماضية بقدر ما قد يشفى جرح مثله خلال اثني عشر يومًا.

تحسن لون مانكس، وصارت عيناه أكثر حدة، تضيئان بخفة الظل والنية الطيبة.

قال وُين: «وجهك في حال أفضل».

- بالنسبة إلى الناظر من بعيد، أجل. لكني لن أستطيع أن أشارك في مسابقة جمال قريبًا!

- كيف شفيت سريعًا هكذا؟

فكر مانكس في الإجابة قليلًا، ثم قال: «السيارة تعتني بي، وستعتني بك أنت أيضًا».

قال رجل قناع الغاز وهو ينظر من فوق كتفه نحو وُين: «لأننا في الطريق إلى أرض الكريسماس التي تبدل حزنك فرحًا، أليس كذلك يا سيد مانكس؟».

- لست في مزاج يسمح لي بتحمل كلامك السخيف يا بينج. لماذا لا تلعب اجتماع الكويكرز، أليس هذا أفضل؟

اتجهت NOS4A2 جنوبًا، ولم يتكلم أحد. خلال هذا الصمت، فكَّر وُين.

طيلة حياته، لم يشعر بالذعر قط كما شعر ذاك الصباح. ما زالت حنجرته تؤلمه من الصراخ، مع ذلك، هو الآن لا يشعر بأي شعور سلبي.

زينة السيارة الذهبية الداخلية تعكس أشعة الشمس التي تسبح فيها ذرات الغبار. مد وُين يده خلالها، فراحت تدور كأنها دوامة.

أمه غطست في الماء هربًا من رجل قناع الغاز. أجفل، وشعر بذعر البارحة يضربه كتيار كهربي. صحبة تشارلي مانكس لم تكن ما أخافه، بل اللحظة التي نسي فيها أنه أسيره. لقد كان لاهيًا يسعد بمشاهدة أشعة الشمس.

نظر إلى الدُّرج الخشبي أسفل المقعد، حيث خبأ هاتفه المحمول. ثم نظر إلى أعلى، فرأى مانكس يراقبه في المرآة الأمامية وهو مبتسم، فغاص وُين في مقعده.

قال وُين: «قلت إنك ستعوضني».

- قلت، وسأفعل.

- أريد أن أتصل بأمي وأخبرها أنني بخير.

أومأ مانكس وعيناه على الطريق، ويده على المقود. هل كانت السيارة تقود نفسها أمس؟ كان وُين يتذكر شيئًا كهذا بينما كان رجل قناع الغاز

يضمد جراح مانكس. لكنَّ أحلامًا متجلية كهذه قد تزور الناس وهم مرضى مثلًا، فيقتنعون أنها حقيقة. لكن تحت أشعة شمس الصباح، لم يعد وُين واثقًا أنها قد وقعت.

صار النهار أدفأ، ولم يعد يرى البخار يخرج من أنفه.

- طبيعي أن تود الاتصال بها لإخبارها أنك بخير. حين نصل إلى وجهتنا ستهاتفها كل يوم، وستود هي معرفة ماذا تفعل. يجب أن نتصل بها حين نصل. لكن هذا لا يُحتسب تعويضًا! أي طفل عاق قد لا يود الاتصال بأمه؟! للأسف لا يوجد مكان نتوقف فيه لتتصل بها، ولم يفكر أينا في جلب هاتف معه.

استدار مانكس، ونظر إلى وُين ثم أضاف: «أم إنك جلبت هاتفًا؟».

فهم وُين أنه يعرف. شعر بأحشائه تتقلص وكاد يبكي. قال بصوت بالكاد طبيعي: «كلا».

يجب أن يقاوم الرغبة في فتح الدرج الخشبي تحت قدميه.

أعاد مانكس نظره إلى الطريق وقال: «الوقت مبكر على الاتصال على أي حال. الساعة السادسة صباحًا، وبعد يوم البارحة العصيب، لا بد أنها نائمة الآن».

زفر ثم أضاف: «وشوم أمك أكثر من وشوم البحارة!».

قال بينج بارتريدج: «كانت هناك شابة من ييل، موشومة بعبارات على الذيل، وعلى الظهر وفي كل مكان، وشوم ظاهرة حتى في الليل!».

قال وُين: «أنت تُفرط في الكلام المسجوع».

ضحك مانكس ضحكة استحسان، وضرب المقود وهو يقول: «هذا صحيح. بينج العجوز شيطان سجع. لو نظرت في إنجيلك ستعرف أنها شياطين رديئة، لكن لها نفعها».

أسند بينج رأسه إلى النافذة، وراقب الطريق فراقبته الخراف وسط المزارع. غمغم لنفسه: «ماء، ماء، أيها الخروف الأسود، هل لديك أي صوف أو دماء؟».

قال بينج: «كل هذه الوشوم على جسد أمك».

قاطعه مانكس: «أسمعك...».

ظل وُين يفكر في أنه لو فتح الدرج، فلن يجد الهاتف. كانت لديهما فرصة ممتازة للعثور عليه في أثناء نومه.

- ربما أنا رجل عتيق الذوق. لكني أرى الوشوم دعوة للرجال كي يحدقوا إلى الجسد. هل تعتقد أنها تحب هذا النوع من جذب الانتباه؟

غمغم رجل قناع الغاز: «كانت هناك عاهرة من بيرو...».

ثم ضحك ضحكة خافتة مكتومة. قال وُين: «الوشوم جميلة».

- ألهذا طلقها والدك؟ لأنه لا يقبل أن تخرج هكذا بساقيها مكشوفتين موشومتين؟ أهو رجل محافظ؟

- لم يطلقها. لم يكونا متزوجين.

ضحك مانكس وقال: «مفاجأة».

انعطف خارجًا عن الطريق السريع، ودخل بلدة غافية. مكان مهجور متواضع الحال. النوافذ الزجاجية مدهونة بالصابون، معلق عليها لافتات (للإيجار).

أبواب دار السينما مغلقة بألواح الخشب. خيمة سرادق احتفالي معلق عليها زينة بحروف ناقصة، كانت تعني (كريسماس سعيد لشوجركريك)، وأضواء الكريسماس تلمع في منتصف يوليو.

لم يتحمل وُين ألا يطمئن على هاتفه. يمكنه الوصول إلى الدرج بقدمه، فتحه بوضع إصبعه الأكبر تحت المقبض.

قال مانكس، ووُين بالكاد ينصت: «جسدها قوي رياضي، أعترف أن هذه ميزة. أفترض أن لديها صديقًا؟».

قال وُين: «أنا صديقها كما تقول».

- كل أم تقول الشيء نفسه لابنها. هل أبوك أكبر من أمك؟

- لا أعرف. أعتقد أكبر بقليل.

جذب وُين الدرج بإصبع قدمه، وفتحه مقدار بوصة. هاتفه في مكانه. دفعه برفق ليغلقه. لو أخرجه الآن سيلاحظان.

سأله مانكس: «هل تعتقد أنها تفضل الرجال كبار السن؟».

تساءل وُين عن سر خوض مانكس في وشوم أمه وعلاقاتها. لن يندهش لو بدأ يسأله عن سباع الماء أو السيارات الرياضية. هو حتى لا يتذكر كيف بدأ الحديث في هذا الأمر، وحاول أن يستعيد كلامهما بالعكس حتى يصل إلى نقطة البداية.

لو فكرت بالعكس... بالعكس.

زارت جدته ليندا أحلامه، وتحدثت بالعكس. أغلب ما قالته قد تبخر ونُسي، لكن هذا الجزء كان واضحًا كوضوح كتابة بالحبر على ورقة تحترق. *لو فكرت بالعكس*... ماذا سيحدث لو فعل ذلك؟

توقفت السيارة عند التقاطع. سيدة في منتصف العمر عند الرصيف على بعد ثمانية أقدام. ترتدي بنطالًا قصيرًا وعصبة رأس، وتجري في مكانها منتظرة عبور الشارع رغم أنه كان شبه خالٍ.

تصرف وُين بلا تفكير. هرع نحو النافذة، وضربها بيده وصاح: «النجدة! ساعديني!».

عقدت المرأة حاجبيها ونظرت حولها، ثم حدقت إلى الرولز رويس. صرخ وُين وهو يقرع النافذة: «رجاء، ساعديني!».

ابتسمت، ولوحت له.

انعطف مانكس نحو التقاطع مبتعدًا. على يسار الجهة المقابلة من الشارع، رأى وُين رجلًا يرتدي زي شرطة يخرج من متجر دوناتس. رمى وُين نفسه نحو النافذة الأخرى للسيارة، وراح يضرب الزجاج. حين اقترب أكثر من الرجل، تبين له أنه رجل بريد لا شرطي. رجل قصير بدين في منتصف الخمسينيات.

- النجدة! أنا مُختطف! النجدة، النجدة، النجدة!

ظل وُين يصرخ حتى تهدجت أنفاسه. قال مانكس: «هو لا يسمع. للدقة، هو لا يسمع ما تريده أنت أن يسمع».

نظر رجل البريد إلى السيارة، ثم رفع إصبعين إلى قبعته محيِّيًا. أكمل مانكس طريقه.

- هل انتهيت من الصياح؟

- لماذا لا يسمعونني؟!

- ما يحدث في الشبح، يظل في الشبح.

قطعوا البلدة في اتجاه المغادرة، تاركين خلفهم مجمعات المباني والمتاجر المتربة. قال مانكس: «لا تقلق. سنصل قريبًا لو أنك تعبت من الطريق».

- سنصل إلى أرض الكريسماس؟

زمَّ مانكس شفتيه مفكرًا، ثم قال: «كلا. ما زالت بعيدة».

قال رجل قناع الغاز: «سنصل بيت النوم».

البحيرة

أغمضت ڤيك عينيها للحظات، ثم فتحتهما وحدقت إلى المنبه الموجود على المكتب، الذي انتقلت أرقام الساعة فيه من السادسة إلا دقيقة، إلى السادسة.

ثم دق جرس الهاتف.

حدث الشيئان في الوقت نفسه، حتى ظنت ڤيك أن صوت الجرس هو صوت المنبه، ولم تفهم لماذا قد ضبطته على السادسة صباحًا. دق جرس الهاتف مجددًا، وانفتح باب حجرة النوم، لتطل منه تابيثا هَتر، وتنظر إلى ڤيك من فوق عدستَي نظارتها.

- الرقم المتصل يبدأ بـ 603. شركة تفجيرات مبانٍ في دوڤر. الأفضل أن تردي، غالبًا ليس هو، لكن...

- ليس هو.

مدت ڤيك يدها إلى الهاتف. جاءها صوت أبيها: «لم أسمع بالخبر إلا متأخرًا، واحتجت وقتًا للبحث عن رقمك. انتظرت قدر ما استطعت خشية أن تكوني نائمة. كيف حالك يا صغيرة؟».

قالت ڤيك لهَتر وهي تبعد السماعة عن فمها: «هذا أبي».

- أخبريه أن المكالمة مسجلة. كل المكالمات التي سترد إلى هذا الرقم ستكون مسجلة حتى إشعار آخر.

- أسمعت هذا يا كريس؟

- أجل. حسنًا. فليفعلوا ما يحتاجون. سعيد أنني سمعت صوتك يا صغيرة.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أعرف كيف حالك. أريدك أن تعرفي أنني جوارك إن احتجتني.
- هناك مرة أولى لكل شيء، أليس كذلك؟

زفر في ضيق، ثم قال: «أتفهم ما تمرين به. مررت به مرة منذ زمن، أنت تعرفين. أحبك يا فتاتي. قولي لي إن كان في وسعي فعل أي شيء».

- لا يوجد شيء تفعله. لا يوجد ما تنسف أو تفجر. كل شيء قد زال. لا تتصل مرة أخرى. أنا في كرب يكفيني، وأنت تزيده.

أغلقت الخط، بينما تنظر إليها تابيثا هَتر من خلال فرجة الباب.

- هل جلبت خبراء المحمول ليحددوا مكان وُين؟ هل الأمر قد اختلف عن محاولتك؟ لا أعتقد أنكم قد توصلتم إلى شيء، وإلا لما تركتني نائمة.
- لم يتمكنوا من تحديد مكان هاتفه.
- لم يتمكنوا؟ أم تتبعوه حتى طريق سانت نِك، في مكان ما شرق أرض الكريسماس؟
- هل يعني هذا شيئًا بالنسبة إليك؟ كان لتشارلي مانكس بيت في كلورادو، تحيطه الأشجار المزينة بزينة الكريسماس. أطلقت عليه الصحافة اسم «بيت الزلاجة». هل هو أرض الكريسماس؟

أجابت ڤيك في عقلها فورًا: *لا. لأن بيت الزلاجة في عالمنا، وأرض الكريسماس في خيال مانكس.*

ظلت هَتر تدرس وجه ڤيك بهدوء. لو أن ڤيك أخبرت هذه المرأة أن أرض الكريسماس مكان في بُعد رابع، حيث يغني الأطفال ترانيم عيد الميلاد، ويتصلون بولايات بعيدة، فلن يتغير تعبير وجع هَتر الهادئ هذا.

قالت ڤيك، وما قالت لم يكن ببعيدٍ عن الحقيقة: «لا أعرف ما هي أرض الكريسماس ولا مكانها. لا أعرف أيضًا معنى الخريطة التي تظهر حين تبحثون عن هاتف وُين. هل تريدينني أن أرى صور المطارق؟».

البيت يعج بالناس بعد، وإن كان أغلب الموجودين الآن فنيين لا شرطيين. ثلاثة شباب منهم يضعون حواسيب محمولة على منضدة صغيرة في حجرة المعيشة. واحدة منهم آسيوية ذات وشوم، وآخر نحيل صغير السن وجهه مرقط بالنمش، والثالث رجل أسود يرتدي بلوفر ذا ياقة عالية كأنه مسروق

من خزانة ستيف جوبز[1]. رائحة البيت تعبق بالقهوة. صبَّت هَتر بعضًا منها لڤيك، وأضافت لها الحليب والسكر كما تفضلها.

سألت ڤيك: «هل مكتوب في ملفي أنني أحب القهوة هكذا؟».

- وجدت الحليب في البراد. لا بد أنك تستخدمينه في شيء. ووجدت ملعقة القهوة في برطمان البن.

- هذه أمور بديهية يا عزيزي واتسون[2].

قالت هَتر: «كنت أتنكر في زي شيرلوك هولمز في الهالوين. لدي غليون وقبعة وكل شيء. ماذا عنك؟ ما زيك التنكري في الهالوين؟».

- قميص ذو أحزمة تقييد. كنت أتنكر في زي هاربة من مستشفى مجانين. كان هذا تدريبًا كافيًا لما حدث في حياتي بعدها.

خبت ابتسامة هَتر، ثم اختفت. جلست إلى الطاولة مع ڤيك، ثم ناولتها الجهاز اللوحي «آيباد»، وشرحت لها كيف تحرك الصور في الملف كي تشاهد المطارق المختلفة.

- لماذا يهمكم معرفة بأي مطرقة ضُربت؟

- لن أعرف أهمية هذا إلا عندما نجدها. لذا يجب أن نحاول البحث عن كل شيء.

شاهدت ڤيك شتى أنواع المطارق والمضارب.

- ما هذا؟ قاعدة بيانات القتلة الذين يستخدمون المطارق؟

- نوعًا.

نظرت ڤيك إليها، فرأت وجهها يعود إلى خلوه السابق من التعبيرات. بحثت ڤيك وسط الصور مرة أخرى، ثم أشارت إلى واحدة منها.

- هذه هي.

---

(1) ستيف جوبز، رئيس مجلس إدارة شركة أبل، وكان يرتدي بلوفر خفيفًا ذا ياقة عالية في أغلب صوره. (المترجمة)

(2) تقصد ڤيك عبارة شيرلوك هولمز الشهيرة التي يخاطب بها رفيق تحرياته دكتور واتسون. (المترجمة)

نظرت هَتر إلى الشاشة، لترى مطرقة بطول قدم، ذات رأس من الصلب، ويد معقوفة الطرف.

- هل أنت متأكدة؟

- أجل. بسبب الخطاف. أي نوع من المطارق هذا؟

عضت هَتر شفتها السفلى، ثم دفعت كرسيها للخلف ووقفت.

- هو نوع لا يباع في المتاجر. سأجري اتصالًا.

ثم توقفت مترددة، ويدها على ظهر مقعد ڤيك وسألت: «هل ستستطيعين الإدلاء بشهادة أمام الصحافة ظهر اليوم؟ الجميع مهتم بكاتبة «محرك البحث»، وآسفة لقول إن البعض يعتبر التحقيق نوعًا من أنواع تحديات محرك البحث في البحث عن الأدلة. التوعية بما حدث أفضل أسلحتنا الآن».

- هل عرفت الصحف أن مانكس اختطفني وأنا صغيرة؟

عقدت هَتر حاجبيها كأنما تفكر، ثم قالت: «كلا. لم يتوصلوا إلى هذا بعد، ولا أعتقد أن ذلك في صالحك لو ذكرته. الأفضل أن نُبقي تركيز الإعلام على المعلومات المهمة. نريد أن يبحث الناس عن ابنك وعن السيارة. كل التفاصيل الأخرى تافهة أو مُضللة».

- السيارة، وابني، ومانكس. يجب أن يبحث الجميع عن مانكس.

سارت خطوتين نحو الباب، ثم استدارت لڤيك وقالت: «طبعًا. أنت قوية يا ڤيك وصمدت في مواجهة كل ما حدث. لقد فعلت كل ما يجب فعله، حتى إنني أخجل من أن أطلب منك المزيد. لكن حين تكونين مستعدة، اجلسي واحكي كل شيء بطريقتك. أريد أن أعرف أكثر عن مانكس. ربما يساعدنا هذا في تحسين فرص العثور على ابنك».

- لقد أخبرتكم بالضبط ما فعله بي. ضربني بالمطرقة وطاردني حتى البحيرة واختطف ابني.

- أعتذر. يبدو أنني لم أوضح مرادي. لا أتحدث عما فعله بك مانكس أمس. أنا أتحدث عما فعله عام 1996 حين اختطفك أنت.

هَتر بالنسبة إلى ڤيك امرأة دقيقة، صبورة، عاقلة. ومن خلال دقتها وصبرها وعقلها، توصلت إلى أن ڤيك تهلوس بشأن تشارلي مانكس. لكن إن كانت غير مقتنعة أن مانكس هو من اختطف وُين، فمن فعلها؟

شعرت ڤيك بالخطر ولا تعرف السبب. كأنها تقود السيارة ثم تدرك فجأة أن العجلات تسير فوق طبقة جليد. أي حركة زائدة ستخرج السيارة عن السيطرة.

أنا لا أشكك في أن أحدهم هاجمك. ولا يشكك أحد في هذا...

قالتها هَتر من قبل، لكنها أيضًا أضافت: «*... وأنك أمضيت شهرًا في مستشفى كلورادو للصحة العقلية، حيث شُخصتِ باضطراب ما بعد الصدمة، والفصام*».

جلست ڤيك بكوب قهوتها بين يديها، هادئة ثابتة وقد فهمت كل شيء أخيرًا. شعرت ببرودة خلف عنقها وقشعريرة تزحف على فروة رأسها، وهما مؤشران جسديان للتعجب والهلع. هي واعية أنها تشعر بكليهما في الوقت نفسه وبالقدر نفسه. ابتلعت المزيد من القهوة محاولةً إبعاد الانزعاج.

إذًا هَتر تظن أن ڤيك قتلت وُين بنفسها في أثناء نوبة جنون. قتلت الكلب ثم أغرق وُين في البحيرة. لا يوجد شهود على إطلاق النار، ولم يجد أحد طلقة واحدة أو فوارغ. سقطت الرصاصات في الماء، وبقيت الفوارغ داخل المسدس. السور مُهدَّم والباحة في حالة فوضى، وهو الأمر الذي لم يجدوا له تفسيرًا حتى الآن. حاولوا كل شيء لاختراع تفسير يناسب الحقائق الأخرى لديهم.

كانوا يرونها تكرارًا لحادث المرأة من كارولاينا الجنوبية سوزان سميث. أغرقت أطفالها وادعت أن رجلًا أسود اختطفهم، وتركت الناس يبحثون في كل مكان مدة أسبوع. لذا لم تذكر الأخبار شيئًا عن مانكس. الشرطة لا تؤمن بوجوده. هم حتى لا يصدقون في وجود اختطاف حتى الآن.

أنهت ڤيك قهوتها ووضعت الكوب في الحوض، ثم خرجت من الباب الخلفي. اتجهت إلى المرأب ونظرت عبر نافذته. لُو نائم جوار الدراجة البخارية على الأرض، وقد فككها تمامًا. وضع قطعة قماش تحت رأسه كوسادة مرتجلة. يداه مغطاتان بالشحم، وقد تلوث وجهه ببصمات سوداء.

قال صوت من خلفها: «ظل يصلحها طيلة الليل».

دالتري تبعها. فمه مفتوح في ابتسامة تكشف سنًّا ذهبية، وبين أصابعه سيجارة.

- رأيت هذا كثيرًا. بعض الناس ينغمسون في العمل حين يشعرون بالحزن. لم تصدقي عدد السيدات اللاتي ينهمكن في الغزل في انتظار

عودة حبيب من غيبوبة، أو خروجه من جراحة. حين يشعر المرء باليأس، يشغل رأسه بأي شيء...

قالت ڤيك: «أجل. هذا صحيح. هو ميكانيكي. هذا ما يفعله بدلًا عن الغزل. هل يمكن أن آخذ سيجارة؟».

فكرت أن التدخين قد يهدئ أعصابها.

قال وهو يخرج علبة سجائر مارلبورو ويهزها ليُخرج منها واحدة: «لم أر مطافئ سجائر في البيت».

- أقلعتُ عن التدخين لأجل ابني.

أومأ ولم يرد. أخرج قداحة كبيرة نحاسية، مرسومًا عليها شخصية كرتونية ما. ضغط زر الإشعال فانبثق وانطفأ.

- وقودها كاد ينفد.

أخذتها منه وجربتها، فانبعث منها لهب أصفر صغير. أشعلت سيجارتها وأغمضت عينيها وامتصت الدخان. الأمر أشبه بالغوص في حمام مائي دافئ. فتحت عينيها ونظرت إلى الرسم على جانب القداحة، شخصية البحار بوباي يكور قبضته، وتحته كلمة «انفجار»، مع لهيب أصفر.

سألها: «أتعرفين ما يذهلني؟ لم يرَ أحد سيارتك الرولز رويس العتيقة. كيف فرت سيارة كهذه من الملاحظة؟ ألا تتعجبين من هذا؟».

نظر إليها بعينين متسائلتين مستمتعتين. أجابت بالحقيقة: «كلا».

كرر دالتري: «كلا؟ لماذا؟».

- لأن مانكس بارع في التخفي.

أدار دالتري رأسه ونظر إلى الماء وهو يقول: «غريب. رجلان في سيارة رولز رويس قديمة موديل 1938. تحققت من قاعدة البيانات على الإنترنت. أتعرفين أن هناك أقل من أربعمائة سيارة مثلها في الولايات كلها؟ سيارة لعينة نادرة، والشخص الوحيد الذي رآها هو أنت. لا بد أن هذا يقودك إلى الجنون».

- لست مجنونة. أنا مرتعبة. هناك فرق.

- أنت أدرى.

ألقى سيجارته على الأرض وسحقها بطرف حذائه، ثم اختفى داخل المنزل قبل أن تكتشف ڤيك أنها ما زالت تمسك قداحته.

بيت النوم

الأزهار الصفيحية تتراص في باحة منزل بينج، تدور بألوانها الزاهية تحت أشعة الشمس.

المنزل وردي لنوافذه حواف بيضاء، من النوع الذي تدعو فيه الجدات الأطفال الصغار في القصص لتناول كعك الزنجبيل، ثم تحبسهم في قفص، وتُسمنهم لأسابيع ثم تشويهم.

بيت النوم هو.

شعر وُين بالنعاس بمجرد أن رآه.

فوق التل الذي يطل على منزل بينج، كنيسة احترقت حتى صارت رمادًا، لم يتبقَّ منها شيء إلا الواجهة الأمامية ذات البرج الطويل المدبب والباب الأبيض والنوافذ الملطخة.

بالخارج لافتة من تلك التي يُثبت عليها حروف متحركة، كان يستخدمها الكاهن في كتابة جدول الكنيسة اليومي. عبث أحدهم بالحروف وكتب عليها ما لا يتناسب بدقة ورؤية الرعية.

كنيسة الإيمان المسيحي الجديدة

الرب احترق حيًّا، غير مسموح إلا بوجود الشياطين.

تحرك الرياح أشجار البلوط العالية حول المبنى المحترق، فيشم وُين رائحة الاحتراق حتى ونافذة السيارة مغلقة.

دخلت NOS4A2 المرأب، بعدما فتح بينج بابه بجهاز تحكم عن بعد.

المرأب حجرة أسمنتية باردة ظليلة، ملأى بأسطوانات غاز معدنية خضراء مصطفة كالجنود موازية للحوائط، مكتوب على جانبها: غاز سيفوفلورين، قابل للاشتعال تحت الضغط. خلف كل هذا سلم خشبي يؤدي إلى الطابق الثاني.

قال بينج وهو ينظر نحو تشارلي مانكس: «وقت الإفطار! سأعد لك أفضل إفطار يمكن أن تأكله. أقسم لك، ولأموت إن كنت كذابًا. أفضل إفطار! فقط قل لي ماذا تشتهي».

قال مانكس: «أريد أن أقضي بعض الوقت بمفردي يا بينج. أريد أن أريح رأسي. لو أنني لست جائعًا، فهذا لأن لغوك أتخمني. كله سعرات حرارية بلا قيمة».

تقلص بينج ووضع يديه على أذنيه.

- لا تغطِّ أذنيك وتتظاهر أنك لا تسمعني. لقد كانت تصرفاتك كارثية.

تجعد وجه بينج وأغلق عينيه، وبدأ يصرخ: «يمكن أن أطلق النار على نفسي وينتهي الأمر!».

قال مانكس: «أوه، هذا مزيد من الحمق. ستخطئ التصويب وتصيبني أنا على الأرجح».

ضحك وُين، ففاجأهما وفاجأ نفسه. كانت ضحكته كعطسة لا يمكن التحكم فيها.

نظر الرجلان خلفهما. بينج يبكي مبللًا وجهه السمين، ومانكس يرمق وُين في تعجب.

صرخ بينج: «اخرس. لا تضحك عليَّ! سأمزق وجهك. سأجلب مقصي وأقطعه إلى شرائح!».

أمسك مانكس المطرقة الفضية وضرب بها صدر بينج فدفعه نحو الباب.

- اصمت. أي طفل كان سيضحك على تلك الأفعال الهزلية. هذا طبيعي.

للحظة خطر على بال وُين كيف سيكون الأمر أفضل لو أن مانكس ضرب وجه بينج بمطرقته وكسر أنفه، فانفجر كأنف المهرج الأحمر. كاد يضحك مرة أخرى.

جزء ضئيل من نفس وُين ما زال يتساءل كيف يرى أي شيء مضحكا. ربما هو مُخدر من الغاز الذي رشه بينج بارتريدج في وجهه. كان يشعر بالتعب والمرض والسخونة. يغلي داخل جلده، وتمنى لو أخذ حمامًا باردًا، أو انغمس في ماء البحيرة، أو التهم بعض الثلج.

نظر مانكس بجانب عينيه إلى وُين، وغمز، فأجفل وُين وتقلصت معدته.

قال لنفسه: *هذا الرجل سُم*. ثم ردد: *سم الرجل هذا*. بمجرد أن صاغ وُين عبارته مرة أخرى بالعكس، شعر أنه أفضل، على الرغم من أنه لا يعرف السبب.

- لو أردت الترحيب بنا، فاطهُ بعض اللحم المقدد للشاب الصغير. واثق أنه سيحبه.

أخفض بينج رأسه وبكى.

- أكمِل بكاءك في المطبخ حيث لا أسمعك. سأتصرف معك لاحقًا.

خرج بينج من السيارة، ثم رمق وُين بنظرة كارهة كأنما يتمنى قتله.

كاد يضحك، لكن أفكاره ظلت تهاجمه، تدور في عقله كالفراشات السوداء. تنفس بعمق. الأفكار الغريبة تضحكه، إطلاق النار على رأس أحدهم، كسر الأنوف...

قال مانكس: «أفضل القيادة في الليل. أنا رجل ليلي حتى النخاع. كل شيء جميل في النهار، هو أجمل في الليل، الملاهي، عجلة الخيول الدوارة، قبلة فتاة. كل شيء. إلى جانب أنني في الخامسة والثمانين والشمس تؤذي عينيَّ. هل تريد أن «تعمل بي بي»؟».

- تقصد.. أذهب إلى الحمام؟

- أو تصنع كعكة شوكولاتة.

ضحك وُين مرة أخرى، ضحكة حادة عالية، فوضع يده على فمه ليكتمها. راقبه مانكس بعينين معجبتين لا تطرفان. لا يظن وُين أنه رآه يرمش من قبل.

سأله وُين: «ماذا ستفعل بي؟».

- سأبعدك عن كل شيء أتعسك. حين نصل وجهتنا، ستكون قد تركت كل بؤسك خلفك. هيا، ثمة دورة مياه في المرأب.

خرج مانكس في اللحظة نفسها التي انفتح فيها الباب جوار وُين. كان قد خطط للهرب بمجرد أن تمس قدماه الأرض، لكن الهواء كان حارًّا رطبًا ثقيلًا، ألصقه وأثقله كما تلتصق الذبابة بشرائط الصيد اللاصقة.

خطا وُين خطوة، ثم شعر بيد مانكس القوية توضع خلف عنقه وتديره بعيدًا عن باب المرأب.

توقفت عينا وُين على أنابيب غاز السيفوفلورين الخضراء. تبعت عينا مانكس نظرة وُين، ففهم وابتسم قائلًا: «السيد بارتريدج يعمل في مصنع كيماويات قريب. السيفوفلورين مخدر ومهدئ يستخدمه أطباء الأسنان للتخدير. في أيامي، كان الأطباء يخدرون مرضاهم، حتى الأطفال، بالخمر، لكن السيفوفلورين أفضل وأكثر أمانًا. بينج يأخذ الأنابيب التالفة، وهي ليست تالفة بالكامل كما تظن».

قاد مانكس وُين إلى سلم الطابق الثاني، تحت السلم حجرة مواربة. سأل مانكس: «هل يمكن أن أقرص أذنك؟».

تخيل وُين مانكس يقرص أذنه ويديرها حتى يهوي وُين على الأرض ألمًا. شيء في نفسه اعتبر هذه الصورة مضحكة، في الوقت نفسه ارتعد جسده وقد تقلصت قبضة مانكس على مؤخرة عنقه.

قبل أن يتكلم، أضاف مانكس: «أنا حائر بخصوص بعض الأمور، أتمنى لو تساعدني في توضيحها».

أخرج بيده الأخرى ورقة مصفرة مطوية من داخل معطفه، فتحها أمام وجه وُين.

اختفاء مهندس طائرات بوينج

- ظهرت امرأة ملونة الشعر أمام منزل أمك ذلك اليوم. واثق أنك تتذكرها. كان معها ملف فيه أخبار عني. أخبرني بينج عما حدث وقد رآه من خلف نافذة المنزل عبر الشارع.

عقد وُين حاجبيه متعجبًا كيف لبينج أن يراقب من خلف نافذة المنزل عبر الشارع. آل دي زوت يعيشون هناك. خطر له تفسير، ولم يكن مضحكًا قط.

وصلا الباب أسفل الدرج، ففتحه مانكس كاشفًا عن دورة مياه صغيرة ذات سقف مائل. جذب السلسلة المعلقة ليفتح النور، لكنه كان معطلًا.

- بينج يترك المكان يتعفن. سأترك الباب مفتوحًا لأسمح لك ببعض الضوء.

دفع وُين برفق إلى الحجيرة وأبقى الباب مواربًا، ثم تنحى جانبًا ليمنح الولد بعض الخصوصية.

- كيف عرفت أمك هذه المرأة، ولماذا كانتا تتحدثان عني؟

- لا أعرف. لم أرها من قبل.

- ومع ذلك قرأت القصاصات التي جلبتها. قصاصات عني. أريدك أن تعرف أن كل الأخبار مُضللة، أنا لم أقتل طفلًا واحدًا، ولم أتحرش بأيٍّ منهم، نار جهنم لا تكفي لعقاب هؤلاء. المرأة التي زارتكم كانت تؤكد أنني لم أمُت رغم الأخبار التي نُشرت عن وفاتي بل وتشريحي. لماذا تظنها مؤمنة أنني لا أموت؟

وقف وُين في الحمام عاجزًا عن التبول.

- لا أعرف. قالت أمي إنها مجنونة.

- أنت لا تخدعني يا وُين، أليس كذلك؟

- لا أخدعك يا سيدي.

- ماذا قالت تلك المرأة عني؟

- أبعدتني أمي إلى داخل المنزل. لم أسمع ما قالت.

- أنت تكذب عليَّ كذبة كبرى الآن يا بروس وُين كارمودي.

لكنه لم يقل ما قال في غضب. أردف: «هل تعاني صعوبة في «رشاشك»؟».

- ماذا؟

- الوي وي.. البي بي...

- أوه، بعض الشيء.

- هذا لأننا نتكلم. صعب على المرء التبول حين يتحدث إليه أحد. سأبتعد ثلاث خطوات.

سمع خطوات مانكس تقرع الأرض الأسمنتية، ففرغت مثانة وُين على الفور.

رأى أعلى الحائط أمامه صورة امرأة عارية على ركبتيها، ويداها مقيدتان خلفها، ورأسها داخل قناع غاز. خلفها رجل يرتدي زي الجيش النازي وفي يده سلسلة متصلة بطوق حول عنقها.

أغمض وُين عينيه وأعاد «رشاشه» -كلا، عضوه، رشاش كلمة عجيبة- إلى داخل سرواله. غسل يديه في حوض يقف عند حافته صرصار. ارتاح أنه لم يجد محتوى الصورة مضحكًا.

السيارة.. السيارة هي ما تجعل كل شيء مضحكًا حتى لو كان رهيبًا.

بمجرد أن خطر له هذا الخاطر، عرف أنه الحقيقة.

خرج فوجد مانكس ممسكًا بباب السيارة الخلفي، والمطرقة في يده. ابتسم حتى ظهرت أسنانه الصفراء. فكر وُين في الفرار قبل أن يحطم مانكس رأسه بالمطرقة.

قال مانكس: «أريد أن أعرف أكثر عن صديق أمك الحميمي. أعتقد أنك لو ركزت، ستجد تفاصيل تحكيها. لماذا لا تجلس في السيارة وتفكر؟ سأجلب لك إفطارك، وحين أعود ربما تكون قد تذكرت شيئًا. ما قولك؟».

هز وُين كتفيه، لكن قلبه تاق إلى أن يكون وحده في السيارة. الهاتف. هو يحتاج دقيقة فقط يتصل بها بأبيه ويحكي له كل شيء. شوجركريك، بنسلفانيا. منزل وردي أمام كنيسة محترقة. ستكون الشرطة هنا قبل أن يجلب مانكس اللحم المقدد والبيض. دخل السيارة طوعًا، وبلا تردد.

أغلق مانكس الباب، ثم طرق على النافذة وقال: «سأعود سريعًا!».

وضحك بينما يُغلق القفل.

عندما اختفى الرجل العجوز، فتح وُين الدرج الصغير، فلم يجد الهاتف.

مرأب بينج

من مكان ما، انبعث صوت نباح كلب، وصوت محرك جزازة عشب، واستيقظ العالم، لكن هنا داخل الرولز رويس، تجمد العالم لأن الهاتف غير موجود.

سحب وُين الدرج فأخرجه من مكانه، ومد يده يبحث عنه فربما يكون قد انزلق إلى الخلف. كان متأكدًا أن هذا هو الدرج الذي وضع فيه الهاتف، لكنه فتح الدرج الآخر احتياطيًّا، فلم يجد شيئًا.

- أين أنت؟!

فطن وُين إلى أن مانكس قد أخذ الهاتف بينما كان يغسل يديه في الحمام. كاد يبكي، فقد بنى أحلامًا عريضة على هذا الهاتف، وقد سحقها مانكس ثم أضرم فيها النار.

الرب احترق حيًّا، غير مسموح إلا بوجود الشياطين.

عاد وُين وفتح الدرج الأول للتأكد، فوجد زينة كريسماس لم تكن هنا منذ لحظات. وجد في الدرج ملاكًا ذا عينين حزينتين من الخزف، ومجسم بلورة ثلج حاد الزوايا مغطى بغبار لامع فضي، وهلالًا نائمًا يعتمر قلنسوة سانتا كلوز، كل من تلك القطع معلق من حلقة ذهبية. أعاد وُين الزينة إلى الدرج حيث وجدها ثم أغلقه.

حين فتحه مرة أخرى لم يجد شيئًا.

زفر في حنق وهو يهمس: «أريد هاتفي».

سمع صوت شيء إلكتروني عند المقعد الأمامي، نظر من فوقه ليجد هاتفه فوق مجموعة خرائط. حاول الوقوف والوصول إليه، ترى هل سيفلح؟ الشبح تثير غيظه.

الشبح أو مانكس، لدى وُين حدس أنهما شيء واحد، أو أن أحدهما امتداد للآخر. الشبح جزء من مانكس كما أن يد وُين جزءٌ منه.

حدق إلى الهاتف، لا بد أن يصل إليه، لكن السيارة تمنعه عنه بطريقة ما.

لكن الهاتف لا يهم. باب السائق الجانبي غير موصد ولا شيء يمنعه من الهرب من السيارة. لا شيء سوى أنه في المرات الثلاث الفائتة التي حاول فيها العبور إلى المقعد الأمامي انتهت بعودته إلى المقعد الخلفي.

لكنه كان مخدرًا وقتها، بالكاد قادر على الحركة. لا عجب أنه كان يهوي إلى الخلف في كل مرة يتحرك فيها إلى الأمام.

مد يده نحو الأمام، فلاحظ أنه يحمل قطعة الزينة على شكل هلال. لقد كان يحك إصبعه على الجزء المنحني منه لأكثر من دقيقة، وكان ناعمًا إلى حد غريب. نظر إليه متعجبًا، هو واثق أنه قد أعاد القطع الثلاث إلى الدرج.

لاحظ وُين أن الهلال، بخديه المنتفخين وأنفه الكبير ورموشه الطويلة، يشبه أباه. وضع المجسم في جيبه، ومد يده مرة أخرى نحو الحاجز بين المقاعد. مجرد أن لمست يده بداية نصف السيارة الأمامي، اختفت عقلتا إصبعيه في الفراغ، وتقلصت كتفه، لكنه لم يسحبها. الأمر غريب لكنه مذهل أيضًا.

ما زال يشعر بأطراف أصابعه، وبملمسها حين تمس بعضها بعضًا، رغم أنه لا يراها.

مد وُين يده عبر الحاجز غير المرئي، فبدت ذراعه كأنها مبتورة. فتح وأغلق قبضة لا يراها. يده هناك. هو يشعر بها هناك، لكنه ليس متأكدًا من مكان «هناك» هذا.

مد يده أكثر نحو درج القفازات وهاتفه. شعر بشيء يمس ظهره في الوقت نفسه الذي شعر أن أصابعه قد اصطدمت بشيء. أدار وُين رأسه خلفه ليرى ذراعه تخرج من ظهر المقعد وكأنها جزء منه، يكسوها الجلد البني الفاتح نفسه الذي يكسوه.

الطبيعي أن يصرخ، لكن الصرخات قد نفدت من وُين.

- يمكن أن تجرب لعب المصارعة مع يدك.

قالها مانكس، فقفز وُين مكانه وسحب ذراعه، فانسحبت من المقعد وعادت تتصل بكتفه. وضع وُين كفيه على صدره، فوق قلبه الذي يدق كالطبل.

مال مانكس ليطل من نافذة الباب الأمامي، وابتسم مبرزًا أسنانه المدببة الصفراء.

- هناك المزيد من المتعة التي يمكنك الحصول عليها في المقعد الخلفي. لا توجد سيارة أخرى تمنحك هذه المتعة.

كان يمسك طبقًا في يده، به بيض ولحم مقدد وخبز، وفي اليد الأخرى يحمل كوب عصير برتقال.

- سيسرك أن تعرف أن هذه الوجبة ليست صحية، كلها زبد وملح وكوليسترول. حتى عصير البرتقال مؤذٍ لك، ما هو إلا مشروب بطعم البرتقال. أنا لم أتناول مقويات في حياتي، ومع ذلك عشت حتى هذه السن المتأخرة. السعادة ستفيدك أكثر من أي شيء آخر.

فتح مانكس الباب، ومالَ مقدمًا الطعام والعصير لوُين. لاحظ أنه لم يحضر له شوكة، فهي سلاح، وهو ليس صديق مانكس كما يحاول إقناعه. هو أسيره.

أخذ وُين الطبق، فركب مانكس جواره في المقعد الخلفي.

قال مانكس من قبل أن النار ليست عقابًا كافيًا للذين يتحرشون بالأطفال، لكن وُين استعد لأي تجاوز منه.

حين تحرك مانكس، تهيأ وُين للمعركة. سيرمي الطبق في وجهه وسيعضه.

لكن هذا لن يجدي. لو أن مانكس يريد إنزال بنطال وُين لفعل، هو يفوقه حجمًا. سيفعل وُين أي شيء ليمر ما سيفعل مانكس. سيتظاهر أمام عقله أن هذا ليس جسده، وسيفكر في الانهيار الجليدي الذي رآه مع أبيه. سيتخيل أنه قد دُفن تحت الجليد، هو سيدفن يومًا ما في مكان ما على أي حال، ولا يهم ما سيفعله به الناس. فقط تمنى ألا تعرف أمه هذا. هي تعيسة وتعبت كثيرًا كي تتخلص من الجنون والشرب، ولن يتحمل أن يكون مصدرًا إضافيًّا لألمها.

لكن مانكس لم يلمسه. فقط زفر ومد ساقيه أمامه.

- أرى أنك قد اخترت قطعة زينة تعلقها حين نصل إلى أرض الكريسماس، كي تحدد مكانك في العالم.

نظر وُين إلى يمناه ليرى أنه يمسك بالهلال النائم مرة أخرى، ويمرر إصبعه على جانبه المنحني. لا يذكر أنه قد أخرجه من جيبه.

قال مانكس بصوت مُنغَّم بعيد: «بنتاي اختارتا مجسمات ملائكة صغار لتحددا مكان نهاية رحلتهما. حافظ عليه يا وُين. حافظ عليه كأنه حياتك!».

ربت على ظهر وُين، ثم أومأ نحو مقدمة السيارة. تبع وُين إيماءته، ورأى أنه ينظر إلى الهاتف.

سأله مانكس: «هل كنت حقًّا تظن أنك ستخفي شيئًا عني؟ في هذه السيارة؟».

لم يبد هذا من نوع الأسئلة التي تتطلب إجابة. عقد مانكس ذراعيه، لكن صوته لم يكن غاضبًا.

- إخفاء شيء في هذه السيارة أشبه بإخفائه في جيب سترتي. وهو شيء لن ألومك على محاولة فعله. كُل البيض وإلا برد.

حاول وُين ألا يبكي. ألقى الهلال إلى الأرض.

- مهلًا، مهلًا! لا تحزن! لا أتحمل أن يحزن أي طفل! هل ستشعر أنك أفضل لو تحدثت إلى أمك؟

رمش وُين، فسقطت دمعة فوق اللحم المقدد. فكرة سماع صوت أمه فجرت بركان مشاعر بداخله، وشعر بألم الحاجة إليها.

أومأ إيجابًا.

- هل تعرف ما سيشعرني بالتحسن؟ أن تخبرني عن المرأة التي جاءت لأمك بالملف. ساعِدني أساعدك!

همس وُين: «لا أصدقك. لن تسمح لي بالاتصال بها مهما فعلت أنا».

نظر مانكس إلى المقعد الأمامي، فانغلق الدرج أمامه مع صوت قفل. كان هذا مفاجئًا حتى كاد وُين يُسقط طبقه. انفتح الدرج الآخر تحت المقعد بلا صوت، ورأى الهاتف فيه. حدق إليه وُين عاجزًا عن التنفس.

- أنا لم أكذب عليك قط. أنت تعرف أنني لن أعطيك الهاتف ما لم تخبرني عن زائرة أمك. سأضع الهاتف على أرضية المرأب وأوقف السيارة فوقه. والآن لو أخبرتني بما أريد، ستتعلم شيئًا أيًّا كان ما سيحدث. لو لم أسمح لك بالاتصال بأمك، فستعرف أنني كاذب ولا تثق بي مرة أخرى، ولو سمحت لك ستعرف أنني رجل أحترم كلمتي.

قال وُين: «لكني لا أعرف أي شيء لا تعرفه أنت عن ماجي لي».

- ها أنت ذا أخبرتني اسمها، أرأيت؟! لقد بدأنا رحلة التعلم.

أجفل وُين شاعرًا أنه قد اقترف إثمًا لا يُغتفر.

- السيدة لي معها شيء أخافَ أمك. ماذا كان؟ أخبرني وسأدعك تتصل بأمك حالًا!

فتح وُين فمه غير واثق بما قد يقول، لكن مانكس أسكته، وأمسك كتفيه وضغط عليهما.

- لا تختلق قصصًا يا وُين! اتفاقنا غير سار لو كذبت. غيِّر في الحقيقة لو قليلًا، وستندم!

التقط مانكس قطعة لحم مقدد، تلك التي تلمع فوقها دمعة وُين، وقضم نصفها.

- حسنًا؟

- قالت إنك تتحرك، وإنك خرجت من السجن وعلى أمي أن تأخذ حذرها. أعتقد أن هذا ما أخاف أمي.

عقد وُين حاجبيه وهو ينظر إلى مانكس إذ يمضغ ببطء، وفكاه يتحركان في مبالغة.

- حقًّا لم أسمع شيئًا آخر.

- كيف تعرف أمك هذه المرأة؟

هز وُين كتفيه وأجاب: «قالت ماجي لي إنها قابلت أمي حين كانت طفلة، لكن أمي قالت إنها لم تقابلها قط».

- وأيهما تقول الحقيقة في رأيك؟

صمت وُين قليلًا، ثم قال ببطء: «أعتقد... أمي».

ابتلع مانكس قطعة اللحم وقال: «أفهم. كان هذا سهلًا. حسنًا، أعتقد أن أمك ستُسر حين تطمئن عليك».

انحنى أمامًا ليجلب الهاتف... ثم عاد واستند إلى ظهر المقعد.

- أوه، هناك أمر آخر. هل ذكرت ماجي لي أي شيء عن جسر؟

انتفض جسد وُين لهذا السؤال، وأهاب به صوت داخله ألا يخبره.

قال دون تفكير: «لا».

صوته مختنق غليظ، كأن الكذبة قطعة خبز انحشرت في حلقه. ابتسم مانكس ابتسامة خبيثة ناعسة، ثم بدأ يخرج ساقه خارج السيارة، في الوقت نفسه الذي دبت فيه الحياة في الدرج، فبدأ ينغلق.

صرخ وُين وهو يجذب ذراع مانكس: «أقصد نعم!».

أسقطت الحركة المفاجئة الطبق عن فخذيه، فغطت محتوياته الأرض.

- أجل... قالت لها إن عليها أن تعثر عليك مرة أخرى! سألتها إن كانت تستطيع استخدام الجسر في العثور عليك!

توقف مانكس، نصفه خارج السيارة، وقبضة وُين متشبثة به. حدق إلى قبضته في خبث وهو يقول: «ظننت أننا اتفقنا على أن تخبرني الحقيقة من الألف إلى الياء».

- لقد فعلت! أنا فقط نسيت للحظة! رجاء!

- نسيت، حسنًا. نسيت أن تخبرني الحقيقة!

- أنا آسف!

لم يبد أن مانكس غاضبًا على الإطلاق. قال: «حسنًا. ربما سأسمح لك بمكالمة، لكني سأسألك سؤالًا، وفكر جيدًا قبل أن تجيب. أريدك أن تخبرني الحقيقة، وليساعدك الرب. هل ذكرت ماجي لي شيئًا على الطريقة التي قد تصل بها أمك إلى الجسر؟ ماذا قالت عن الدراجة؟».

- هي... هي لم تذكر أي شيء عن دراجة! أقسم لك!

بدأ مانكس يجذب يده ليحررها من قبضته، فأضاف: «لا أظنها تعرف شيئًا عن تِريَمف!».

تردد مانكس وسأل: «تِريَمف؟».

- دراجة أمي البخارية. هل تذكرها؟ تلك التي كانت تدفعها على الطريق. ظلت تصلحها لأسابيع. هل هذه هي الدراجة التي تقصدها؟

ارتاح وجه مانكس وصار أهدأ. عض شفته السفلى وهي إيماءة تجعله يبدو معتوهًا.

- أه.. أمك تصنع ركوبة جديدة لتستطيع فعلها مرة أخرى. أتعرف، فكرت حين رأيتها تدفع هذه الدراجة أنها قد عادت لحيلها مرة أخرى. أتصور أن لماجي لي هذه ركوبة خاصة بها، أو أنها على الأقل تعرف بشأن المسافرين عبر الطرق الأخرى. لدي أسئلة أخرى، لكني أفضل أن أطرحها على السيدة لي شخصيًّا.

أخرج مانكس الورقة المطبوع عليها خبر ناثان ديميتر، وأشار إلى العنوان المطبوع على الصفحة نفسها.

«مكتبة هير العامة، هير، آيوا».

- هذا هو المكان الذي سنبحث فيه عنها. هو في طريقنا!

قال وُين وهو يتنفس بسرعة كأنه كان يعدو في سباق: «أريد الاتصال بأمي».

جذب مانكس ذراعه ليحررها من قبضته وقال: «كلا. اتفاقنا كان أن تخبرني بالحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة. ما زالت أذناي توخزانني من الكذبة التي ألقيتها عليَّ! ستتعلم قريبًا أنك لن تستطيع أن تُعمي عينيَّ عن الحقيقة!».

صاح وُين: «لا! أنا أخبرتك بكل ما أردت معرفته! أنت وعدتني بفرصة أخرى!».

- أنا قلت «ربما» أسمح لك بالمكالمة لو قلت الحقيقة بشأن دراجة أمك. لكنك لا تعرف شيئًا، وعلى أي حال أنا لم أقل إنني سأسمح لك بالمكالمة اليوم. عليك أن تنتظر إلى الغد، ولو أنك ستنتظر إلى الغد، فلتعلم أن لا أحد يحب الكذابين يا وُين!

أغلق مانكس الباب فانغلق القفل ذاتيًّا.

صرخ وُين: «لا! هذا ظلم!».

لكن مانكس عبر المرأب نحو الأسطوانات الخضراء، واتجه إلى درج الطابق الثاني. نزل وُين إلى أرضية السيارة، وحاول جذب مقبض الدُّرج الذي يحوي الهاتف، لكنه لم ينفتح كأنه مثبت مكانه بمسامير. أسند قدمه ودفع بها أسفل المقعد وهو يجذب بثقل جسده، حتى انخلع المقبض دون جدوى.

صرخ وُين: «رجاء! رجاء!».

عند أسفل الدرج، استدار مانكس نحو السيارة وعلى وجهه حسرة وتعاطف. هز رأسه في رفض، أو كتعبير عن الخذلان. مستحيل معرفة المعنى. ضغط زرًّا على الحائط، فنزل باب المرأب، ثم أغلق النور وصعد إلى الطابق الثاني، تاركًا وُين وحده مع الشبح.

البحيرة

شعرت ڤيك أنها مستنزفة بعدما فرغت منها هَتر تلك الظهيرة. مفاصلها وظهرها يؤلمانها. كانت جائعة، لكن باغتها الغثيان حين عرضوا عليها شطيرة لحم ديك رومي، وعجزت عن ابتلاع قضمة واحدة.

أخبرت هَتر كل الكذبات القديمة حول مانكس وهربها من بيت الزلاجة، ثم سألتها هَتر عن السنوات التي تلت اختطافها، وعن الأسباب التي انتهت إلى إرسالها للعلاج في مصحة عقلية. أرادت تحديدًا أن تعرف كل شيء عن الوقت الذي حرقت فيه ڤيك منزلها.

- لم أقصد أن أحرق هذا المنزل. كنت فقط أحاول التخلص من الهواتف. وضعتها جميعًا في الموقد. كانت هذه هي الطريقة الأبسط للتخلص من تلك المكالمات.

- المكالمات التي تصل من الموتى.

- من الأطفال الموتى. أجل.

- هل هذا الأمر شائع في هلاوسك؟ هل تدور دائمًا حول الأطفال الموتى؟

- كانت، فعل ماضٍ.

حدقت هَتر إلى ڤيك كأنها مدرب حيَّات يقترب من كوبرا سامة. فكرت ڤيك: *اسأليني مباشرة إن كنت قتلت ابني الصغير*. كوني *مباشرة*. نظرت إلى هَتر دون أن ترمش أو تتحرك. ڤيك تعرضت للضرب بالمطرقة، وإطلاق النار، ومحاولة دهم بالسيارة، وإعادة تأهيل نفسي، وإدمان كحول، ومحاولة حرق، ونجت من كل هذا. تلك النظرة المعادية لا تعني لها شيئًا.

قالت هَتر: «ربما تحتاجين إلى الراحة. لقاؤك الصحفي الساعة الخامسة والنصف، وهو موعد ذروة مشاهدة الأخبار».

- تمنيت لو أن هناك شيئًا أعرفه.. شيئًا أذكره ليساعدك.

- ساعدتني كثيرًا. لدي الكثير من المعلومات الجيدة الآن.

أشاحت هَتر بنظرها، فعرفت ڤيك أن الجلسة انتهت. قبل أن ترحل، مدت هَتر يدها نحو ألواح ورقية تستند إلى الحائط، وقالت: «ڤيك، ثمة شيء آخر».

وقفت ڤيك ووضعت يدها على ظهر المقعد. فردت هَتر الأوراق المقواة على المنضدة، فرأت ڤيك رسوماتها من كتابها الجديد الذي لم يُطرح بعد، قصة عيد الميلاد وموسم الإجازات.

عرضت هَتر الصفحات على ڤيك واحدة تلو الأخرى، كأنها قارئة طالع تعرض بطاقات اللعب. قالت هَتر: «قلت لك إنهم في كوانتيكو استخدموا رسومات محرك البحث لتوضيح طرق تحليل التفاصيل. رأيت هذه الصفحات في المرأب، فلم أتمالك نفسي. هل موضوع الكتاب عن الكريسماس؟».

فاجأتها رغبة في الابتعاد عن لوحاتها كأنها صور حيوانات مسلوخة. أرادت أن تقول إنها لم تَر أيًّا من هذه اللوحات من قبل، وأن تصرخ أنها لا تعرف من أين جاءت، وكانت صادقة في كلا الأمرين. تحاملت على نفسها حتى هدأت، وأجابت: «أجل. فكرة ناشر الكتب».

- حسنًا. هل تعتقدين، أو لنقُل، هل يمكن أن تكون هذه هي أرض الكريسماس؟ يمكن أن يكون خاطف ابنك قد عرف عن موضوع الكتاب، وأن هناك صلة بينك وبين موضوع الكتاب وبين ما رأيناه حين حاولنا تتبع الآيفون؟

حدقت إلى اللوحة الأولى التي تظهر محرك البحث وبوني يمسكان أيدي بعضهما بعضًا ويقفان على بحيرة متجمدة، ذات شروخ على سطحها. تذكر ڤيك أنها رسمت متاهة من متاهات موبيوس ستريب المجنونة أسفل البحيرة، لكنها الآن تنظر إلى رسم أطفال غرقى تحت البحيرة، يمدون أيديهم العظمية عبر الشقوق إلى أعلى، وأفواههم مبتسمة تكشف عن عشرات الأنياب الحادة.

في لوحة أخرى، محرك البحث يجول وسط متاهة مصنوعة من عصي الحلوى الملونة. تذكر ڤيك أنها رسمتها وهي في حالة نعاس، لكنها لا تذكر

أنها رسمت الأطفال المختبئين في جوانب اللوحة يحملون مقصات، ولا تذكر أنها رسمت بوني تضع كفيها على عينيها وتلعب الغميضة معهم.

قالت ڤيك بشكل عشوائي: «لا أعرف كيف يمكن ذلك، لم يطلع أحد على هذه اللوحات».

- تعجبت أنك ترسمين مشاهد من الكريسماس في منتصف الصيف. هل تعتقدين أن هناك أي علاقة بين هذه اللوحات...

- وقرار تشارلي مانكس للانتقام مني بعدما كنت السبب في سجنه؟ لا أظن ذلك. الأمر أبسط من كل هذا. لو أنهينا حديثنا، فأنا أريد الاستلقاء قليلًا.

- أجل، لا بد أنك مُتعبة. من يعرف، ربما لو ارتحتِ قد تتوصلين إلى استنتاج جيد.

صوت هَتر كان هادئًا كفاية، لكن ڤيك سمعت التلميح في آخر عبارتها أن هناك ما تشك هَتر في أنها تخفيه.

لم تتعرف ڤيك على بيتها وقد تناثرت في أرجائه المُعدات والخرائط والملفات، وجلس الفنيون الذين جلبتهم هتر على الأريكة، يعملون على حواسيبهم المحمولة ويتحدثون عبر سماعات الأذن. لم ينظر إليها أحد، ليست موضع اهتمام.

كان لُو جالسًا على مقعد هزاز في ركن حجرة النوم. أغلقت الباب خلفها برفق وسارت نحوه في الظلام. الستائر مُسدلة وهواء الغرفة راكد.

قميصه ملطخ بالبصمات الدهنية السوداء، رائحته كرائحة المرأب مع نفحة من كولونيا. رقة بُنية مثبتة على صدره، ووجهه السمين رمادي اللون في العتمة. مع هذه اللوحة المعلقة على صدره، بدا كراعي بقر مشنوق تتدلى من عنقه لافتة مكتوب عليه: هذا ما نفعله بالخارجين عن القانون.

نظرت إليه ڤيك في اهتمام في البداية، ثم في قلق. مدت يدها تتحقق من نبضه، هي واثقة أنه لا يتنفس... ثم شهق فجأة وصفرت إحدى فتحتَي أنفه. هو فقط نائم. لقد نام منتعلًا حذاءيه.

سحبت يدها عنه. لم تره مريضًا مرهقًا إلى هذا الحد من قبل. رأت شعيرات بيضاء عند مفرقه. مستحيل أن يشيخ لُو الذي يعشق القصص المصورة، ويحب ابنه، والبيرة، وحفلات عيد الميلاد.

ضيقت عينيها لتقرأ المكتوب على الورقة.

«الدراجة تحتاج إلى قطع غيار تصل بعد أسابيع. أيقظيني حين تريدين الحديث عن الأمر».

قراءة هذه العبارة وقع في نفسها وقع عبارة «وجدنا وُين ميتًا». هي عبارة خطرة قد يؤدي معناها إلى العبارة الأخرى، موت وُين.

لأول مرة في حياتها تشعر كأنما لم ينقذها لُو على دراجته البخارية في ذاك اليوم، وأنها ما زالت تختنق في كوة الغسيل، معفية من خوض حياتها الأليمة اللاحقة. لو لم تهرب، لما فقدت وُين، لأنه لن يكون هناك وُين من الأساس. الموت اختناقًا بالدخان أفضل مما تشعر به الآن. نفسها تتمزق بلا توقف ولم تعد شيئًا سوى خرقة مهترئة.

جلست على طرف الفراش تسترجع لوحاتها التي عرضتها عليها هَتر. لا تعرف كيف يرى أي شخص تلك اللوحات ويفترض أنها بريئة. كل هؤلاء الأطفال الغرقى، كل هذه المتاهات، كل عصي الحلوى... كل هذا اليأس.

سيعتقلونها قريبًا، ولن تلومهم. وسيضيع وُين للأبد.

أمال وزنها الحشية، فانزلق نحوها هاتف ومحفظة لُو الذي وضعهما في منتصف الفراش. تمنت لو أن هناك أحدًا تتصل به، وتسأله عما يجب عليها أن تفعل، ويخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ثم وجدت أن هناك من تتصل به.

أخذت هاتف لُو، ودخلت دورة المياه وأغلقت بابها عليها. ثمة باب عند طرف الحمام المقابل يفضي إلى حجرة وُين، فذهبت تغلقه، ثم ترددت وهي تنظر خلفه.

وُين هنا، في فراشه تحت الأغطية، يحدق إليها ووجهه شاحب مرتعب. دق قلبها حتى آلمتها عظام صدرها. دققت النظر، فلم تجد ما في الفراش سوى دمية قرد بعينين زجاجيتين. أغلقت الباب وأسندت جبهتها إليه تنتظر أن يهدأ قلبها.

أغلقت ڤيك عينيها، وتذكرت رقم ماجي...

فتحت ماجي المظروف، والتقطت عينا ڤيك رقم الهاتف المكتوب بالداخل. أول ثلاثة أرقام بعد رقم كود المنطقة هي تاريخ ميلادها، والأرقام الأربع التالية لم تكن أرقامًا، بل أربعة حروف FUFU.

لا بد أن ماجي قد دفعت الكثير مقابل هذا الرقم، ربما لأنها تعرف أن ڤيك ستتذكره. ربما لأنها تعرف أن ڤيك ستحتاجه. ربما كانت تعرف أن ڤيك ستطردها حين تقابلها. كل أنواع الاحتمالات، ولم تهتم ڤيك سوى باحتمال واحد: هل ابنها ما زال حيًّا؟

انتظرت ڤيك أن تفتح ماجي الخط. لو حُوِّلت المكالمة إلى البريد الصوتي فلن تستطيع ترك رسالة. ثم حين يئست أن ترد ماجي، انفتح الخط...

- ڤ... ڤ... ڤيك؟

قبل أن تقول ڤيك شيئًا، فطنت إلى أن هوية المتصل الظاهرة لدى ماجي هي «ورشة كارمودي». لا يمكن أن تكون قد عرفت أنها هي، لكنها عرفت، ولم تتعجب ڤيك.

- أردت الاتصال بك ب... ب.. بمجرد أن عرفت. يقولون في الأخبار إن أحدهم ا.. ا.. اعتدى عليكِ.

- لا تهتمي لهذا. أريد أن أعرف إن كان وُين بخير. أعرف أنك تستطيعين العثور عليه.

- أنا أعرف بالفعل. هو لم يؤذَ.

ارتعدت ساقا ڤيك، واضطرت إلى الاستناد إلى الخزانة.

- ڤيك؟ ڤ... ڤيك؟

عجزت عن الرد فورًا، كانت تستهلك كل قوتها كي تكبح دموعها.

- أنا هنا. كم لدي من الوقت؟ كم لدى وُين من الوقت؟

- لا أعرف... ماذا أخبرت الشرطة؟

- ما كان عليَّ إخبارهم به. لم أذكرك. حاولت قدر استطاعتي أن أجعل ما أقول سهل التصديق، لكن لا أعرف إن كانوا يصدقونني.

- ڤيك، ر... ر... رجاءً. أريد مساعدتك.

- أنت ساعدتني للتو.

أغلقت ڤيك الخط. هو حي، وما زال هناك وقت. أرادت أن تعود إلى الحجرة وتوقظ لُو وتطلب منه إصلاح الدراجة بأي طريقة، لكنه قد غفا منذ بضع ساعات فقط، وهو يبدو سقيمًا، وخطر ببالها أنه لم يخبر أحدًا سبب أو تفاصيل إغماءته في المطار.

لا بد أن تفحص الدراجة بنفسها. هي لا تفهم ماذا قد يكون هذا العطل الذي لا يمكن إصلاحه.

خرجت من الحمام، وألقت الهاتف على الفراش، فانزلق وسقط على الأرض من الجهة الأخرى. أجفل لُو لحظة، ثم أكمل نومه.

فتحت باب الحجرة، وكتمت شهقتها، هَتر على الجهة الأخرى من الباب، وقد رفعت قبضتها لتدق عليه.

حدقت المرأتان إلى بعضهما بعضًا، وفكرت ڤيك في أن هناك خطبًا قد استجد. لا بد أنهم وجدوا وُين ملقى في مكان ما، مذبوحًا من الأذن إلى الأذن، مُصفى من الدماء.

لكن ماجي قالت إنه حي، وماجي تعرف، إذًا ما الأمر؟

رأت ڤيك المحقق دالتري من فوق كتف هَتر، وجواره أحد شرطيي الولاية. قالت هَتر بهدوء: «ڤيكتوريا. نريد أن نتحدث».

خرجت ڤيك إلى حجرة المعيشة، وأغلقت باب حجرة النوم خلفها.

- ماذا حدث؟

- هل هناك مكان يتيح لنا حديثًا منفردتين؟

نظرت ڤيك إلى دالتري، ثم إلى الشرطي الضخم معه. طوله يزيد على ستة أقدام، وعنقه بعرض رأسه. ذراعا دالتري معقودتان على صدره، وفمه مزموم، وفي يده عبوة مكسوة بالجلد الأسود... رذاذ فلفل على الأرجح.

أشارت ڤيك إلى حجرة وُين وقالت: «لن يضايقنا أحد هنا».

ارتكنت هَتر إلى الخزانة، فانفتحت سترتها وظهر من تحتها سلاحها. في الصباح لاحظت ڤيك أن المرأة ترتدي قرطين على شكل شعار سوبرمان. قالت ڤيك: «لا تسمحي للُو أن يرى هذين القرطين. هو مجنون بسوبر مان».

قالت هَتر: «كوني صريحة معي».

انحنت ڤيك ومدت يدها تحت الفراش فأخرجت دمية قرد رمادية ترتدي ملابس راكبي الدرجات البخارية، مكتوبًا على خوذته (قرد الشحم). هي لا تذكر أنها ابتاعت هذه الدمية. سألت هَتر دون أن تنظر إليها: «ماذا تقصدين؟».

وضعت القرد على الفراش وأراحت رأسه على الوسادة.

- أنت لم تكوني صريحة معي ولا مرة واحدة، لا أعرف السبب. ربما هناك ما تخشين إخباري به، ربما هناك ما تخجلين منه في وجود الرجال حولنا، أو أنك تظنين أنك بإخفاء التفاصيل عني تحمين ابنك. لا أعرف السبب، لكن أخبريني هنا.

- أنا لم أكذب عليك في أي شيء.

قالت هَتر بصوتها الهادئ البارد: «كُفي عن العبث معي. من تكون مارجارِت لي؟ ما صلتك بها؟ كيف عرفت أن ابنك لم يؤذَ؟».

- أنت تتنصتين على مكالمات لُو؟

شعرت ڤيك أنها حمقاء كي تفترض العكس.

- بالطبع نتتبعها! أنت أخبرت مارجارِت لي أنك أخبرتني بما يمكنني أن أصدقه، ولا تعرفين إن كنا نصدق بعد. حسنًا، لم أبتلع ما قلت.

تساءلت ڤيك إن كانت تقدر على دفع هَتر نحو الخزانة وأخذ سلاحها منها، لكن لا بد أن الغانية الذكية قد تدربت على إحدى الرياضات القتالية. إلى جانب هذا، فيمَ قد تُجدي مهاجمتها؟ ماذا ستفعل ڤيك بعدها؟

- هذه آخر فرصة يا ڤيك. أريدك أن تفهمي أن في مقدوري اعتقالك بتهمة الاشتباه في التورط...

- في أي شيء؟ في ضرب نفسي؟

- نحن لا نعرف مَن ضربك. ربما كان ابنك وهو يحاول مقاومتك.

لم تتفاجأ ڤيك من هذا الاستنتاج، المفاجأة الوحيدة هي أنهم لم يصلوا إليه في وقت مبكر عن هذا.

- لا أريد الاعتقاد أن لك يدًا في اختفاء ابنك، لكنك تعرفين شخصًا يطمئنك عليه. أنت تحجبين عنا المعلومات. تفسيرك للأحداث هو بالضبط المذكور في الكتب عن ضلالات البارانويا. هذه آخر فرصك لتوضيح كل شيء، لو أن هذا في مقدورك. فكري قبل أن تتكلمي. بعد أن أنتهي

منك، سأتحدث مع لُو، هو يحجب عنا معلومات أيضًا. أنا متأكدة. لا يوجد أب يمضي عشر ساعات يصلح دراجة بخارية وابنه مخطوف. سألته أسئلة لم يجِبها، وشغل المحرك كي يتحاشاني، كأنه مراهق يرفع صوت الموسيقى كي يتهرب من أوامر أمه أن ينظف حجرته.

- ماذا تعنين بأنه شغل المحرك؟ شغل محرك تِريَمف؟

زفرت هَتر زفرة طويلة بطيئة، وتهدلت كتفاها. أخيرًا قد ظهر عليها أي تعبير سوى البرود المهني. أخيرًا بدت مرهقة، وربما مهزومة.

- حسنًا. ڤيك، أنا آسفة. أتمنى فقط لو...

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟ المطرقة... بدوتِ مدهوشة لاختياري تلك المطرقة بالذات. لماذا؟

لمحت ڤيك نظرة ارتباك في عينَي هَتر قبل أن تقول: «هذه مطرقة عظام. يستخدمونها في التشريح».

- هل هي مفقودة من مشرحة كلورادو حيث كانت جثة مانكس؟

لم تُجب هَتر عن هذا السؤال، لكنها أخرجت لسانها تبلل شفتها السفلى. إيماءة عصبية لم ترها ڤيك تصدر عنها من قبل، وكانت إجابة وافية.

قالت ڤيك: «كل كلمة قلتها لك حقيقة. لو أنني حجبت شيئًا، فهذا ليقيني أنك لن تقبلي به. سوف تدونين ما سأقول في خانة الضلالات، ولن يلومك أحد».

- يجب أن نرحل الآن يا ڤيك. مضطرة أن أقيدك بالأصفاد. لكن لو شئت يمكنك وضع سترة فوق الأصفاد لتخفيها. سوف تركبين السيارة معي، ولن يدرك أحد ما يحدث.

- ماذا عن لُو؟

- أخشى أنني لن أسمح لك بالحديث معه الآن. سيكون في سيارة خلفنا.

- ألا يمكن أن تتركوه ينام؟ هو ليس بخير وقد ظل مستيقظًا أربعًا وعشرين ساعة متواصلة.

- معذرة. ليس من مهام وظيفتي رعاية صحة لُو. مهمتي هي رعاية مصالح ابنك. قفي لو سمحتِ.

رفعت هَتر طرف سترتها، وفكَّت الأصفاد عن حزامها. انفتح الباب الآخر جوار الخزانة، ودخل لُو وهو يغلق سحَّاب بنطاله. عيناه محتقنتان مجهدتان.

- لقد استيقظت. ماذا يحدث؟ ما الحكاية يا ڤيك؟

صاحت هَتر بمجرد أن خطا لُو إلى الأمام: «أيها الضابط!».

شغلت كتلة لُو ثلث الحجرة حين وقف بين هَتر وڤيك. دارت ڤيك حوله، وانطلقت نحو باب الحمام من خلفه.

- يجب أن أرحل.

قال لُو وهو يثبت نفسه أمام هَتر: «إذًا اذهبي».

نادت هَتر على الضابط مرة أخرى.

عبرت ڤيك الحمام إلى حجرتها وأغلقت الباب خلفها. لم يكن عليه قفل، فدفعت الخزانة ذات المرآة خلفه. أوصدت الباب المفضي إلى حجرة المعيشة، ثم اندفعت نحو النافذة المطلة على الباحة الخلفية.

فتحت النافذة...

الرجال يتصايحون بالخارج.

يعلو صوت لُو في غضبه.

- يا صاح، ماذا تريد؟ لنجلس ونتفاهم!

- أيها الضابط!

نادت هَتر للمرة الثالثة، ثم أضافت: «جهِّز سلاحك!».

عبرت ڤيك النافذة، فسقط إطارها كله إلى الخارج معها. كانت ترتدي البنطال القصير نفسه الذي كانت ترتديه أمس، وقميصًا خفيفًا. ليس معها سترة ولا خوذة. لا تعرف إن كانت المفاتيح في الدراجة أم على الفراش مع أغراض لُو.

كادت تعود إلى الحجرة، ثم سمعت أحدهم يكسر الباب.

- اهدأ يا صاح! حقًّا اهدأ!

البحيرة صافية والهواء ثقيل. الباحة الخلفية لها وحدها. رجلان يرتديان قبعتَي قش، يصطادان. لوح لها أحدهما، وقد وجد أن مرأى امرأة تخرج من بيتها عبر النافذة أمر عادي.

دخلت ڤيك المرأب عبر الباب الجانبي. الدراجة مائلة مرتكنة إلى سنَّادتها، والمفاتيح معلقة فيها. باب المرأب الأساسي مفتوح، ترى ڤيك من خلاله المدخل والصحافيين يقفون في انتظار اللقاء الذي لن يقام. كاميرات

مثبتة حول المدخل، متصلة بأجهزة تكبير صور عند الزاوية، وحزم أسلاك كالأفاعي تمتد نحو سيارات البث الواقفة على اليسار. لم تكن هناك فرصة للعبور من هذه الجهة، لكن الجهة اليمنى نحو الشمال مفتوحة.

الصمت يغلف المكان خلف المنزل، وقد حانت ساعة القيلولة من اليوم، فتمددت الكلاب ناعسة تحت الأجمة، حتى الذباب قد توارى.

ركبت ڤيك الدراجة وأدارت المفتاح، فتوهج المصباح الأمامي. هذه علامة جيدة. لكن ربما لن تتحرك كما لمَّح لُو في ملاحظته المكتوبة على صدره.

اقتربت هَتر من المرأب، فضغطت ڤيك الدواسة مرات ومرات. تعتقد هَتر أن ڤيك مجنونة، وما تفعله الآن يؤكد هذا الاعتقاد.

أخيرًا، تحركت الدراجة، وخرجت ڤيك من المرأب. نظرت خلفها، فرأت هَتر تقف في غضب عند منتصف المسافة بين المنزل والمرأب. لم تُخرج سلاحها، ولن تخرجه الآن. لم تنادِها حتى. فقط وقفت مكانها تشاهد ڤيك تبتعد. أومأت ڤيك نحوها كأنهما تعقدان اتفاقًا، وشعرت بامتنان أنها كفَّت نفسها عنها.

هناك مسافة بينها وبين الكاميرات، لكن أحد الرجال لمحها وصوب كاميرته التي كان يحملها بارتفاع خصره نحوها. ظل ينظر إلى شاشتها حتى وهي تصور الخطر القادم نحوه، أربعمائة رطل من الحديد تقودها امرأة مجنونة، تنزل التل تجاهه. لن يتحرك... قبل فوات الأوان.

ضغطت ڤيك المكابح، فلم يحدث شيء. شعرت بشيء يرفرف عند فخذها اليسرى، نظرت إلى أسفل لتجده أنبوبًا أسود يتدلى. هذا هو خط المكابح الأمامية وليس موصولًا بشيء.

لم تكن هناك طريقة لتفادي الانتحاري صاحب الكاميرا إلا إن خرجت عن الطريق. زادت سرعة تِريَمف.

قفزت العجلة الأمامية فوق العشب، ثم تبعتها باقي الدراجة. أخيرًا سمع المصور صوت تِريَمف، وشعر بالزلزال الذي يسببه محركها، فابتعد في اللحظة التي كادت تحتك به فيها. اختل توازنه فتقهقر إلى الخلف ثم تعثر، وتحطمت الكاميرا الغالية.

خرجت ڤيك مرة أخرى إلى الطريق، وقد قشَّر الإطار الخلفي العشب عن الأرض. مالت الدراجة حتى كادت تكسر ساق ڤيك تحتها، ثم أخيرًا استقامت وابتعدت تِريَمف عن الكاميرات ومكبرات الصوت وتابيثا هَتر ولُو والمنزل... والعقل.

بيت النوم

لم يستطِع وُين النوم. أراد التقيؤ، لكن معدته فارغة. أراد الخروج من السيارة لكنه لا يعرف الكيفية.

فكر في أن ينتزع أحد الأدراج ويكسر بها زجاج النافذة، لكن الأدراج لا تخرج حين يجذبها. كوَّر قبضتيه وألقى بكل وزنه نحو النافذة، فضربه ألم حاد سرى حتى مرفقيه.

لم يجبره الألم على التراجع، بل أغضبه أكثر. تراجع ثم ضرب الزجاج برأسه، فشعر كأن أحدهم وضع قضيبًا حديديًّا بسمك ثلاث بوصات فوق حاجبه، ثم ضربه بمطرقة مانكس. أُلقي وُين إلى بحر من الظلام، كأنه هوى من فوق درجات سلم شاهق.

عادت إليه الرؤية بعد لحظات، أو هكذا ظن. ربما قد غاب عن العالم لساعات. أيًّا كان الوقت، فقد عاد إلى صفاء أفكاره، وهدوئه. عقله ليس فيه سوى صدى أفكار زالت.

لم يشعر برغبة في الحركة أو الصراخ أو التخطيط أو البكاء أو القلق بشأن المستقبل. لسانه يشعر بشيء متهدل، طعم صدأ يملأ فمه. تساءل وُين إن كانت قوة الضربة قد كسرت إحدى أسنانه الأمامية. سقف حلقه خشن جاف. لا يقلقه هذا، لكنه شيء لاحظه لا أكثر.

أخيرًا مد ذراعه ليلتقط قطعة الزينة على شكل الهلال من على الأرض. ناعم هو كناب قرش، وشكله المقوس يذكِّره بمفتاح تستخدمه أمه لإصلاح الدراجة البخارية. هذا مفتاح من نوع ما. مفتاح القمر لعبور بوابة أرض

الكريسماس، ورغمًا عنه، أسعدته الفكرة. لا شيء يستطيع الوقوف أمام إحساس السعادة. السعادة أحد عناصر تكوين الكون.

فراشة برونزية سمينة وقفت على زجاج النافذة من الخارج. كم هو مريح النظر إلى حركة جناحيها. لو كانت النافذة مواربة، لشاركته الفراشة المقعد الخلفي، ولكانت له حيوانًا أليفًا.

مسَّد وُين على هلال حظه بحركة أصابعه إلى الأعلى والأسفل. أمه ودراجتها، مانكس وشبحه. لكن وُين لديه قمر كامل لنفسه.

فكر فيما قد يفعله بفراشته. أحب فكرة تعليمها الهبوط على إصبعه كصقر مُدرَّب. يراها بعقله، تقف فوق طرف سبابته، ترفرف بجناحيها ببطء. سيسميها «صني».

من بعيد، صدح صوت نباح. خلفية صوت طبيعية لأيام الصيف. خلع وُين سنه ووضعها في جيب بنطاله القصير. مسح الدم بقميصه. عاد إلى تحريك إصبعه على الهلال، فلطخته بالدم.

ماذا تأكل الفراشات؟ هو متأكد أنها تأكل حبوب اللقاح. ماذا يمكنه تدريبها عليه أيضًا؟ هل يمكنه أن يعلمها الطيران عبر حلقات مشتعلة؟ رأى نفسه كمؤدي استعراضات في الشارع، يعتمر قبعة عالية ويلصق شاربًا أسود مضحكًا. سيرك الفراشة لصاحبه كابتن بروس وُين كارمودي! في عقله، رأى أنه يعلق الهلال كشارة على صدره.

نزل زجاج النافذة بوصة. صعدت الفراشة إلى أعلى، ثم رفرفت بجناحيها وأبحرت في الهواء حتى رست عند ركبته. أمسكها وُين بيد واحدة.

ظل فترة يحاول تعليمها الحيل، لكن الفراشة تعبت، فوضعها على الأرض، وتمدد على المقعد وقد تعب هو نفسه. لقد دربها على الدوران عدة مرات قبل أن تتوقف عن الحركة.

أغلق عينيه، وراح لسانه يتحرك على سقف حلقه الجاف. ما زالت لثته تنزف، لكن لا يهم. دمه طعمه لذيذ. حتى وهو غافٍ، ظلت يده تفرك الهلال الناعم اللامع.

لم يفتح وُين عينيه حتى سمع صوت باب المرأب يُفتح. جلس بصعوبة وقد تصلبت عضلاته من طول الرقاد. ظهر مانكس. اقترب من السيارة وانحنى وأمال رأسه ككلب يُنصت، ثم نظر عبر النافذة إلى وُين.

- ماذا حدث للفراشة؟

نظر وُين إلى الأرض، فرأى الفراشة مكومة، مقطعة الأوصال. عقد حاجبيه في حيرة، لقد كانت بخير وهما يلعبان.

طقطق مانكس بلسانه وقال: «لقد أطلنا البقاء هنا. يجب أن نتحرك. هل تريد الذهاب إلى الحمام؟».

هز وُين رأسه. نظر إلى الفراشة مرة أخرى في ذعر، في خزي. هو يذكر أنه مزق جناحًا واحدًا على الأقل، لكن وقتما فعل ذلك، بدا له الأمر مسليًا مثل تمزيق غلاف هدية كريسماس.

أنت قتلت صني... قبض أكثر على الهلال في يده. *أنت مزقتها*...

لا يريد أن يتذكر كيف نزع سيقانها الواحدة تلو الأخرى وهي تتلوى وتركل. نقل وُين الفراشة إلى واحدة من مطافئ السجائر المثبتة عند مقابض الباب، ثم أغلقها. هذا أفضل.

دار المفتاح من تلقاء نفسه، وانطلق صوت المحرك، مع صوت إلفيس بريسلي في المذياع يقول إنه سيعود إلى البيت في الكريسماس. ركب مانكس خلف المقود.

- أنت نمت طوال اليوم! بعد مجهود البارحة، لم أتعجب! كنت سأوقظك لتناول الغداء، ثم قررت أن النوم أفضل لك.

- لست جائعًا.

مرأى صني الممزقة أثار معدته.

- حسنًا. سنصل إنديانا هذا المساء. أتمنى أن تكون قد استعدت شهيتك وقتها! أعرف مطعمًا هناك يمكنك أن تأكل عنده سلة بطاطا حلوة مقلية ومغطاة بالسكر والقرفة. لن تستطيع التوقف عن أكلها حتى تنتهي، ثم تلعق الورقة تحتها أيضًا.

تنهد مضيفًا: «أنا أحب الحلوى. معجزة أن السوس لم ينخر أسناني ويخرج من رأسي!».

استدار مبتسمًا، فظهرت أسنانه البنية غير المتناسقة. رأى وُين كلابًا مسنة ذات أسنان أفضل مظهرًا من هذه.

قلَّب مانكس في مجموعة أوراق قديمة مثبتة إلى بعضها بعضًا بمشبك أصفر كبير، ثم وضعها في درج القفازات الأمامي. قال مانكس: «انشغل بينج في بحث على حاسوبه. يمكنك الآن أن تجد أي معلومة عن أي شخص بضغطة زر. لا يوجد أي خصوصية والجميع يتصارعون على تفاصيل حيوات الآخرين التي لا تهمهم في شيء. يمكنك أن تبحث عبر الإنترنت عن لون ثوبي التحتي الذي ارتديته أمس. لكن لتكنولوجيا هذا الزمن الأغبر مزايا. لن تتخيل كم المعلومات التي عثر عليها بينج عن مارجارِت لي. آسف، مضطر أن أخبرك أن صديقة أمك مدمنة مخدرات، وذات سوابق. لست متعجبًا. أستطيع تخيل أصدقاء أمك بوشومها وتصرفاتها غير الأنثوية. يمكنك أن تقرأ كل شيء عن السيدة لي بنفسك لو أردت. لا أريدك أن تَمَل في الطريق».

انفتح الدرج أسفل المقعد وظهرت فيه الأوراق عن ماجي لي. رأى وُين هذه الحيلة أكثر من مرة والمفترض أن يكون قد اعتادها، لكنه تفاجأ بها.

التقط الأوراق، فانغلق الدرج بسرعة. أجفل وُين فسقطت الأوراق منه. ضحك مانكس ضحكة ريفية فظة وقال: «هل فقدت إصبعًا؟ سيارات هذه الأيام ملأى بمزايا لا يريدها أحد، مذياع متصل بالأقمار الصناعية، دفايات مقاعد، قيادة آلية. لكن للرولز رويس مزية لن تجدها في السيارات الحديثة: خفة الظل!».

لف مانكس جذعه لينظر إلى باب المرأب عبر الواجهة الزجاجية الخلفية لسيارة. الجرح على جبينه صار خطًّا ورديًّا كأنما مر عليه شهران، أما أذنه فقد كانت بالطبع غير موجودة، لكن اللحم مكانها قد التأم وصار غير ملحوظ للأعين.

خرجت السيارة، ثم أوقفها مانكس. جاء بينج بارتريدج -رجل قناع الغاز- حاملًا حقيبة بنقشة المربعات، وهو يعتمر قبعة مطبوعًا عليها «مطافئ نيويورك»، تتماشى مع القميص القذر الذي يحمل العبارة نفسها، أما عيناه فقد غطاهما بنظارة شمس نسائية وردية.

غمغم مانكس: «أه... أعتقد أن الأفضل أن تنام الآن يا سيد وُين. أعتقد أن الدقائق القادمة لن تكون مناسبة لك. لا يصح أن يشاهد الأطفال شجارات الكبار».

أسرع بينج نحو صندوق السيارة وحاول فتحه، لكن الصندوق ظل مغلقًا. حاول بينج معه مجددًا، واستدار مانكس إلى الخلف في مقعده يراقبه. رغم أنه قد ذكر أن الدقائق القادمة لن تكون مناسبة لمشاهدة الأطفال، إلا أن وُين لمح شبح ابتسامة على ركنَي فمه.

- سيد مانكس! لا أستطيع فتح باب الحقيبة!

لم يُجبه مانكس.

سار بينج إلى الباب الأمامي محاولًا أن يبعد وزنه على الكاحل الذي عضه هوبر. حاول فتح باب الراكب، فانغلق القفل من تلقاء نفسه. عبس بينج وهو يجذب المقبض ويقول: «سيد مانكس؟».

- لن أستطيع مساعدتك يا بينج. السيارة لا تريدك.

وبدأت الشبح تتراجع إلى الخلف. لم يتخلَّ بينج عن المقبض، وظل يجذبه وهو يسير جوار السيارة متمايلًا والحقيبة تضرب ساقه.

- سيد مانكس! لا ترحل! انتظرني! لقد قلت إنك سمحت لي بالمجيء معكما!

- كان هذا قبل أن تتركها تفر يا بينج. أنت خذلتنا. ربما أسامحك، أنت تعرف أنني أعاملك كابن، لكن ليس لي يد في هذا. أنت تركتها تفر والشبح كالنساء كما تعلم! لا يمكنك مجادلة النساء أو إقناعهن بشيء لا يُرِدنه. أراهن أنها تبصق عليك في جنون بسبب ما فعلت بمسدسك!

- لا يا سيد مانكس! امنحني فرصة أخرى! رجاءً، أريد فرصة أخرى!

ارتطمت الحقيبة بساقه مرة أخرى، فانفتحت وسقطت منها على امتداد الطريق القمصان والملابس التحتية والجوارب.

قال مانكس: «بينج، بينج، بينج! ارحل بعيدًا، ربما أعود وألعب معك، فلا تكن عنيدًا!».

- يمكنني أن أحسن من نفسي! سأفعل ما تأمر به! رجاءً يا سيد مانكس! أريد فرصة أخرى!

- ألا نريد جميعًا فرصًا أخرى؟ لكن الوحيدة التي مُنحت فرصة أخرى هي ڤيكتوريا مَكوين، وهذا ليس أمرًا جيدًا يا بينج.

استدارت السيارة لتواجه الطريق، فتراجع بينج وسقط على الأسفلت. جرَّته السيارة عدة أقدام وهو متعلق بالمقبض يصرخ وينادي: «سأفعل أي شيء يا سيد مانكس! حياتي لك!».

- ولدي المسكين.. ولدي الطيب المسكين. لا تُحزنني. أنت تشعرني بالذنب! اترك الباب رجاءً، لا تصعب الأمر عليَّ أكثر من هذا!

ترك بينج المقبض، ولم يعرف وُين هل ما فعله امتثال للأوامر، أم إن قوته خانته. تدحرج على الطريق، ثم تمدد على بطنه يبكي.

ابتعدت الشبح عن منزل بينج وعن أنقاض الكنيسة فوق التل. قام بينج وهرول خلفهم عشر ياردات، ثم توقف في وسط الطريق يضرب رأسه بقبضتيه، ويجذب أذنيه. مالت نظارته الوردية على أنفه، وانكسرت عدستها. وجهه المستدير الدميم محتقن وهو يصيح: «سأفعل أي شيء! أي شيء، لتمنحني فرصة واحدة أخيرة!».

استدارت الشبح عند المنعطف، واختفى بينج.

نظر وُين إلى الأمام، فنظر مانكس إليه عبر المرآة الأمامية وقال: «آسف أنك شهدت هذا الموقف. صعب رؤية غضب شخص طيب مثل بينج. صعب... لكن، هو سخيف حقًّا! هل رأيت كيف تشبث بالباب؟ ظننت أننا سنضطر إلى جره خلفنا حتى كلورادو!».

ضحك مانكس بقلب صافٍ. لمس وُين فمه، وأدرك أنه هو أيضًا يبتسم.

طريق رقم 3، نيو هامبشير

للطريق رائحة نظيفة، رائحة المزروعات، رائحة الماء، رائحة الغابات.

اعتقدت ڤيك أن سيارات الشرطة ستلاحقها، لكن الطريق خلفها كان خاويًا، ولا صوت إلا صوت محرك تِريَمف. انعطفت تاركة طريق البحيرة، متجهة نحو التلال الخضراء المطلة على بحيرة وينيبيسوكي، نحو الغرب.

لا تعرف كيف ستصل إلى خطوتها التالية، ولا كيف ستجد ابنها، لكن وقتها محدود. لقد عثرت على الجسر أمس، وكأنها عثرت عليه منذ سنوات، كأنه ذكرى من طفولتها.

الطقس مشمس لا يمكن أن تحدث فيه المستحيلات. زهو اليوم يؤكد على وجود الواقع فقط، ذلك الذي ينصاع لقوانين الطبيعة، حيث خلف كل منحنى طريق أسفلتي لامع.

تبعت الطريق نحو التلال. يداها معروقتان فوق المقود، وقدمها تؤلمها من كثرة ضغطها على الدواسة. أسرعت وأسرعت، كأن السرعة ستمكنها من تمزيق الحاجز بين العوالم.

خططت ڤيك أن تقود الدراجة حتى ينفد وقودها، وقتها ستتركها وتكمل طريقها جريًا. ستجري حتى يظهر جسر الطريق المُختصر اللعين، أو تخذلها ساقاها.

ربما لن يظهر الجسر، ربما لأنه ليس هناك جسر من الأساس سوى في خيالها. مع كل ميل تقطعه، تتأكد من هذه الحقيقة، لا يوجد جسر.

أصر معالجها النفسي على أن الجسر مجرد مهرب حين لا يتحمل عقلها الواقع. مكان خلقه مريح لعقل امرأة ذات تاريخ مع الصدمات النفسية.

أسرعت، واستدارت عند المنعطفات على سرعة ستين ميلًا في الساعة.

اندفعت سيارة شرطة من الجهة المقابلة على مسافة قريبة للغاية منها، فرجَّها تفريغ الهواء الذي أحدثته. السائق سمين يضع خلَّة أسنان في فمه. كانت قريبة منه حتى إنها لو مدت يدها لاستطاعت التقاط العود الخشبي من بين شفتيه.

نظر إليها، وعرفت ڤيك أنه سينطلق نحو المنعطف التالي ثم يلاحقها. لديها دقيقة تقطعها بأسرع ما يمكن لتستطيع الفرار منه.

ابتعد الطريق عن البحيرة، وتساءلت متى سترى الماء مرة أخرى. لقد قضت وقتًا طويلًا من حياتها في إصلاحيات. تأكل طعام الإصلاحيات والمصحات، وتعيش بقوانينها. النور يُطفأ في الثامنة والنصف. أقراص الأدوية تقدم في أكواب ورقية. الماء له طعم صدأ المواسير القديمة. المرة الوحيدة التي ترى الماء فيها هي حين تغسل يديك.

مرت ڤيك بمتجر ريفي من طابقين، مبني بجذوع الأشجار، معلق عليه لافتة بلاستيكية تعلن عن نشاط المكان، تأجير شرائط الفيديو. المتاجر هنا ما زالت تؤجر شرائط الفيديو والأقراص المدمجة. كادت ڤيك تعبر المتجر، لولا أنها فكرت أن تتوقف عند باحته الترابية وتختبئ. باحة الانتظار تمتد إلى ما وراء المتجر تحت ظلال أشجار الصنوبر.

ثم تذكرت أن المكابح الخلفية لا تعمل، فجربت المكابح الأمامية. توقف الإطار الأمامي فجأة عن الدوران، فكادت ڤيك تطير من فوق المقود. انزلق الإطار فوق الأسفلت تاركًا خلفه علامات من مطاط أسود. ظلت الدراجة تنزلق حتى وصلت الباحة الترابية وأثارت عاصفة رملية من تحتها، ثم توقفت أخيرًا خلف المتجر تحت الظلال غير المكشوفة للعابرين على الطريق.

لم تسمع صوت سارينة سيارة الشرطة إلا حين اقتربت، أذناها ما زالتا تطنان من صوت محرك دراجتها، وضربات قلبها. عبرت السيارة بسلام ولم تتوقف.

لمحت حركة بجانب عينها. نظرت إلى النافذة الزجاجية شبه المغطاة بملصقات إعلانات الأفلام. رأت فتاة سمينة ذات حلق في أنفها ترمقها من الجهة الأخرى وهي تتحدث في الهاتف.

نظرت ڤيك إلى الممشى الضيق المفروش بأشواك الصنوبر خلف المتجر. هو غالبًا يؤدي إلى طريق رقم 11. لو أن هذا الطريق لا يؤدي إلى الطريق السريع، يمكنها أن تتبعه حتى ينتهي إلى طريق الغابة وتوقف الدراجة هناك. سيكون الوضع أكثر سلامًا هناك ويمكنها أن تمكث قدر ما تشاء حتى ينتهي الخطر.

ركبت الدراجة على الطريق المظلم الذي يفوح برائحة الصنوبر، رائحة الكريسماس. ارتجفت. ذكَّرتها الرائحة بهافِرهيل وغاباتها والمنزل الذي ترعرعت فيه. مر الإطاران فوق الجذور البارزة والحفر. مالت أمامًا كي تراقب سير العجلة الأمامية، لكن لا وقت للتركيز في أي شيء سوى العثور على الجسر.

صعب التركيز وسط الطريق المظلم غير الممهد. ظهرها يؤلمها، لكنه ألم لذيذ، يوحدها أكثر بالدراجة. الرياح تجري بين أغصان الصنوبر كنهر ينساب.

تمنت لو سنحت لها فرصة اصطحاب وُين على ظهر الدراجة كي تريه هذه الغابات والأرض المغطاة بإبر الصنوبر تحت سماء يوليو الصافية. ذكرى يتمسكان بها إلى نهاية عمريهما.

يا لها من رحلة، ووُين يلف ذراعيه حول خصرها، يتبعان طريقًا ترابيًّا حتى يجدا مكانًا يستريحان فيه ويتناولان غداءً منزليًّا وزجاجتَي صودا، ثم يستلقيان جنبًا إلى جنب جوار الدراجة.

حين أغمضت عينيها، كادت تشعر بذراعَي وُين حولها. أغمضت عينيها لحظة، ثم فتحتهما لتجد الدراجة البخارية تترك الطريق الترابي، وتعبر إلى الجسر المغطى.

المُختصر

ضغطت ڤيك المكابح دون جدوى، وقد نسيت أنها معطلة. أكملت الدراجة طريقها. عجيب أن ترى جسرًا مغطى بهذه الضخامة يخترق غابة، ولا يصل بين أي شيء وآخر. خلف مدخله المغطى باللبلاب، ظلام دامس.

صاحت ڤيك ساخرة: «يا له من رمز فرويدي...».

لكنه لم يكن كذلك. لم يكن جهازًا تناسليًّا نسائيًّا، ولا كانت الدراجة رمزًا للقضيب ولا علاقتها بالجسر تعني في عقلها الباطن علاقة جنسية. الجسر وصلة بين المفقود والموجود، يعبر فوق الممكن.

لم يكن الجسر أيضًا عالم اختلقته لأنها امرأة معتلة العقل، بل الجسر هو ما تسبب في اعتلال عقلها. الجسر امتداد لأفكارها، وفي كل مرة تعبره، كانت تذوِّب فيه حياتها، فتكسر ألواح الأرضية، وتغير الكتابة على الحائط، وتقلق سبات الوطاويط.

مكتوب عند المدخل بالرذاذ الأخضر: بيت النوم ←

لم تسأل نفسها مرة أخرى إن كان الجسر موجودًا أم أنها تخترق وهمًا. لقد حُلت المشكلة، وها هو ذا حلها.

الوطاويط تنام مقلوبة، تتدلى من السقف. وجوهها كوجه ڤيك. ألواح الأرضية تقعقع تحت الإطارين، وبعضها مفقود. هيكل الجسر كله ترنح من ثقل الدراجة البخارية. التراب يهوي من السقف، حوائطه مائلة. لم يكن الجسر في هذه الحالة آخر مرة عبرته.

عبر فجوة حيث كان لوح خشب، رأت ضوءًا باهرًا يعبر من خلالها. أرادت ڤيك أن تتوقف لتلقي نظرة أقرب، لكن اللوح تحت قدميها أصدر صوت فرقعة عالية كأنه صوت طلق ناري.

وزن الدراجة أكبر من قدرة تحمل الجسر. لو توقفت، ربما تهوي بها الأرضية إلى... إلى... إلى أيًّا كان بالأسفل، إلى الفراغ بين الحقيقة والوهم.

لم تكن ترى ما يفضي إليه الجسر، لا يوجد سوى وميض عند النهاية يؤلم عينيها. أدارت وجهها بعيدًا عنه، فرأت دراجتها القديمة ترتكن إلى الحائط وقد غطتها خيوط العناكب.

أخيرًا، انتهى الجسر، ونزلت إلى الأسفلت. أنزلت قدمها وأبطأت سرعتها تدريجيًّا، ثم نظرت حولها.

لقد وصلت إلى ما خلف تلال كنيسة هدمتها النيران. فقط واجهتها الأمامية باقية تعطي انطباعًا أنها واجهة ديكور لفيلم. دارت بدراجتها حول المبنى لتبحث عن بيت النوم المزعوم. نظرت إلى العبارات الغريبة المكتوبة على اللافتة الأمامية، واقشعر جسدها.

كنيسة الإيمان المسيحي الجديدة

الرب احترق حيًّا، غير مسموح إلا بوجود الشياطين.

خلف الكنيسة شارع مشمس. تساءلت أين تكون. ربما ما زالت في نيو هامبشير، لكن لا... الضوء ليس ضوء نهار نيو هامبشير. النهار هنا أكثر سطوعًا، والجو أكثر حرارة، مع تكاثر سحب عند الأفق تشي بعاصفة رعدية صيفية. ها هي ذي تسمع صوت الرعد من بعيد. ربما تصل السحب المثقلة بالأمطار خلال دقيقة أو اثنتين.

نظرت إلى الكنيسة مرة أخرى، إلى البابين المثبتين إلى مدخل القبو. كانا موصدَين بسلسلة حديدية سميكة وقفل. خلف الأشجار مرأب أو حظيرة، تكسو الطحالب سقفها، وبعض الأعشاب تنمو على حوائطها الخارجية. للمرأب باب أمامي يسمح بمرور سيارة، وباب جانبي بنافذة وحيدة مغطاة بقطعة ورق من الداخل.

هو هنا.. لا بد أنه هنا.

أحداث كلورادو تُعاد مرة أخرى، والسيارة تقف داخل المرأب، بينما وُين ومانكس بداخلها، ينتظران مرور النهار.

هبت الريح تعوي بين أغصان الأشجار، لكن هناك صوت آلي آخر خلف ڤيك. نظرت إلى الطريق بالأسفل، إلى أقرب المنازل إليها. منزل مطلي بالوردي ذو سقف أبيض، يشبه كعكة الفراولة بزينة جوز الهند.

باحته الأمامية ملأى بأزهار صفيحية دوارة مما يحب بعض الناس تزيين باحاتهم بها. دوران الأزهار يحدد قوة وسرعة اتجاه الريح، وهي الآن تدور في جنون.

رجل سمين قبيح يقف أمام منزله، يمسك مقص أشجار وينظر إليها. ربما هو من نوع الجيران المراقبين. إذًا لو لم تهطل الأمطار خلال خمس دقائق، ستضطر إلى مواجهة الشرطة.

أغلقت محرك الدراجة البخارية وتركت المفاتيح فيها كي تكون جاهزة للهرب، ثم سارت نحو المرأب أو الحظيرة بحلق جاف. شعرت بضغط خلف عينها اليسرى، إحساس تتذكره منذ طفولتها.

انحنت تأخذ قطعة أسفلت مكسورة في حجم الطبق. هزم الرعد مرة أخرى.

كانت تعرف أن مناداة ابنها باسمه خطأ فادح، لكنها وجدت شفتيها تناديانه.

تسارع نبض خلف عينها اليسرى. رائحة الهواء كرائحة برادة المعدن. هي على بعد خمس خطوات من الباب الجانبي، قرأت المكتوب على الورقة المثبتة من الداخل.

ممنوع الدخول.

خاص بموظفي المدينة فقط.

اخترقت قطعة الأسفلت الزجاج ومزقت الورقة. لم تعد ڤيك تفكر، بل تتحرك فقط. لقد عاشت هذا المشهد من قبل وتعرف كيف ستجري الأمور.

ستحمل وُين لو كان قد أصيب بما أصاب براد مَكولاي. لو تحول مثله إلى نصف غول، أو مصاص دماء جليدي، ستعالجه. ستجلب له أفضل الأطباء.

ستصلحه كما تصلح الدراجات البخارية. لقد خُلق في جسدها، فلا يمكن أن تقتله سيارة مانكس.

أدخلت يدها عبر الكسر في الزجاج لتفتح الباب، رغم أنها لم تر الشبح بالداخل. لا يوجد سوى أجولة سماد.

قال صوت رفيع من مكان ما خلفها: «أنت! ماذا تفعلين؟ سأتصل بالشرطة! سأتصل بهم الآن!».

أدارت ڤيك المقبض وفتحت الباب، ثم وقفت تحدق إلى المكان الضيق البارد المظلم... الخاوي.

صرخ الرجل: «كان عليَّ أن أتصل بالشرطة منذ رأيتك! أنت كسرت المدخل!».

كانت بالكاد تسمعه، حتى لو أصغت، ما كانت لتتذكر صوته. كان مبحوحًا متحشرجًا كأنه كان يبكي لساعات. لم يخطر ببالها وهي تقف فوق التل أنها قد سمعت هذ الصوت من قبل.

استدارت على عقبيها، فرأت رجلًا يرتدي قميصًا مطبوعًا عليه شعار مطافئ نيويورك. هذا هو الرجل الذي كان يقف أمام المنزل ويمسك المقص. ما زال المقص معه. عيناه جاحظتان من خلف نظارة ذات إطار بلاستيكي سميك. شعره قصير متقصف، يخالطه الشيب.

تجاهلته ڤيك، وتفقدت المكان حولها. أمسكت حجرًا واتجهت إلى باب القبو عند الكنيسة. ركعت على ركبة واحدة وبدأت تطرق على القفل بالحجر. لو لم يكن وُين ومانكس في الحظيرة أو المرأب، فهذا هو المكان الوحيد الباقي. لا تعرف أين خبأ مانكس السيارة، لكنها إن وجدته نائمًا في القبو، فلن تتورع عن شج رأسه بهذا الحجر.

ظلت تضرب القفل بالحجر، فيتطاير شرر أحمر. صرخ الرجل السمين: «هذه ملكية خاصة! أنت وأصدقاؤك غير مسموح لكم بالدخول هنا! سأتصل بالشرطة!».

لفت انتباهها العبارة الأخرى، تلك التي لا تخص الشرطة. ألقت الحجر جانبًا، ومسحت العرق عن جبهتها، ثم قامت واقفة. استدارت فرأته يرفع المقص الضخم. تراجعت خطوتين في هلع وهي تقول: «لا تؤذِني!».

هي تعرف أنها تبدو مجنونة أو مجرمة، وهي لا تلومه. لقد كانت مجنونة ومجرمة في فترة من حياتها.

- لن أوذيك. لا أريد شيئًا منك. أنا أبحث عن شخص، وظننت أنه يختبئ هنا.

أشارت إلى المرأب ثم أضافت: «ماذا قلت عن أصدقائي؟ أي أصدقاء؟».

ابتلع الرجل القبيح لعابه وقال: «هما ليسا هنا. من تبحثين عنهما ليسا هنا. غادرا منذ وقت قليل. نصف ساعة تقريبًا أو أقل».

- مَن؟ رجاءً ساعِدني. من الذي غادر؟ هل هو رجل ي...

- يركب سيارة قديمة. هو ليس هنا. غادر منذ قليل... ظننتك من المدمنين أو المتسكعين الذي يأتون ليختبئوا في الأطلال المحترقة.

رغبت ڤيك في أن تمسك رقبته السمينة وتهزه حتى ينطق.

- هل كان معه صبي؟ يركب في المقعد الخلفي؟

- لماذا؟ لا أعرف!

وضع الرجل السمين إصبعه على فمه، ونظر إلى السماء مفكرًا، ثم أضاف: «أعتقد أن هناك شخصًا معه... أجل في الخلف. أجل، أراهن على أن هناك طفلًا في الخلف! هل أنت بخير؟ هل تريدين استخدام هاتفي؟ هل تشربين شيئًا؟».

- كلا.. أجل... شكرًا لك. حسنًا.

تمايلت كأنها ستفقد الوعي. لقد كان هنا. وُين كان هنا منذ نصف ساعة.

لقد وجهها الجسر إلى وجهة خاطئة. جسرها الذي يوصل بين المفقود والموجود لم يوصلها إلى أي مكان. ربما كانت هذه الكنيسة المحترقة هي بيت النوم. ربما هي أرادت أن تعثر على هذا المكان من كل قلبها ظنًّا منها أن وُين هنا. المفترض أن يكون وُين هنا، لا على الطريق مع مانكس.

ربما جسرها يحتاج إلى تثبيت طرفيه في مكان وزمان محددَين. لو أن مانكس على الطريق بين الولايات، فالجسر لن يمكنه توصيلها إليه. الأمر أشبه بمحاولة وخز رصاصة في الهواء بعصا. لا يعرف جسر الطريق المُختصر كيف يوصلها إلى نقطة تتحرك باستمرار، وبدلًا عن أن يقودها إليه، قادها إلى أقرب مكان كان فيه.

المنزل الوردي يقف وحيدًا وسط الشارع كبيت ساحرة مبني بكعك الزنجبيل، مصمم لجذب الأطفال. قادها الرجل الدميم إلى باب خلفي يفضي إلى مطبخ.

همس: «أتمنى لو أحصل على فرصة أخرى».

- أي فرصة؟

احتاج لحظات كي يفكر، ثم قال: «فرصة لتصحيح ما أخطأت فيه. لم أستطع أن أوقف الرجل قبل رحيله».

- وكيف كنت ستعرف أنه قد اختطفه؟

هز كتفيه وهو يسألها: «هل قطعت طريقًا طويلًا؟».

- نوعًا.

- أفهم...

ثبت الباب مفتوحًا، فدخلت أمامه إلى المطبخ. الهواء البارد الصادر من التكييف أنعشها كأنه كوب ماء مثلج في يوم حار.

المطبخ مطبخ امرأة تعرف كيف تخبز الكعك. رائحة البيت تشبه رائحة كعك الزنجبيل. معلق على الحوائط لافتات زينة صغيرة تحمل عبارات مضحكة ذات سجع مثل: أصلي إلى الله في الخفاء، ألا تطعمني أمي البازلاء.

رأت ڤيك أسطوانة معدنية خضراء ذكرتها بأنبوب الأكسجين الذي كان يرافق أمها في أيامها الأخيرة، فافترضت أن للرجل زوجة تعاني مرضًا ما.

قال بصوته الغريب العالي: «اعتبري الهاتف هاتفك».

صوت الرعد يرج البيت. عبرت المطبخ نحو الهاتف القديم الأسود المعلق جوار باب القبو الموارب. كانت هناك حقيبة مفتوحة على الطاولة، يخرج منها ملابس خارجية وداخلية. بعض الرسائل قد سقطت من فوق المنضدة على الأرض، لم تلحظها إلا بعدما داست عليها.

- آسفة!

- لا عليكِ. هذه فوضاي! سأنظفها!

راح يجمع الخطابات من الأرض وهو يغمغم: «بينج، بينج... أيها الأرعن، أنت فوضوي كالكلاب وأرعن!».

هي أغنية رديئة، تمنت لو لم يغنها. بدت كأنها شيء قد يردده أحدهم في حلم أو هلوسة.

نظرت إلى الهاتف العتيق ذي القرص الدوار. مدت يدها نحو السماعة، ثم أنزلتها وأسندت رأسها إلى الحائط. كانت مرهقة وعينها اليسرى تؤلمها، بالإضافة إلى أنها لا تعرف بمن تتصل. أرادت أن تخبر تابيثا هَتر بأمر الكنيسة فوق التل، حيث أمضى مانكس الليلة. أرادت أن تطلب منها المجيء والتحدث إلى الرجل السمين بينج (بينج؟)، لكنها لا تعرف في أي مكان هي، ولم يكن في نيتها الاتصال بالشرطة إلا الآن.

بينج... الاسم مألوف.

سألته، فربما قد أخطأت السمع: «قلت لي ما اسمك؟».

- بينج.

- مثل محرك البحث بينج؟

- هذا صحيح، لكني أستخدم محرك بحث جوجل.

ضحكت ضحكة مرهقة وهي تنظر إليه بجانب عينها. أدار ظهره لها، وأنزل شيئًا عن خطاف خلف الباب، يبدو مثل قبعة سوداء بلا ملامح. نظرت نظرة أخرى إلى الأسطوانة، وفطنت إلى أنها ليست أسطوانة أكسجين على الإطلاق. مكتوب عليها: سيفوفلورين، قابل للاشتعال.

رفعت السماعة، ولم تعرف بمن تتصل. قالت: «هذا غريب. أنا لدي أيضًا محرك بحث. هل يمكن أن أسألك سؤالًا غريبًا يا بينج؟».

- طبعًا.

وضعت إصبعها في إحدى فتحات قرص الهاتف الدوار لكنها لم تُدِره. بينج... بينج... اسم مألوف...

- أنا مضغوطة قليلًا، واسم البلدة قد تبخر من عقلي. هلا أخبرتني أين نحن؟

مانكس معه مطرقة فضية، ومرافقه معه مسدس. هل قال «بانج» قبل أن يطلق النار عليها مباشرة؟ هو نطقها بشكل موسيقي فبدت كأغنية أكثر منها كتهديد.

قال من خلفها بصوت مكتوم كأنه يغطي فمه بمنديل: «سأخبرك».

هنا تعرفت على صوته. كان مكتومًا بالطريقة نفسها حين سمعته آخر مرة على خلفية من صوت طلقات الرصاص. استدارت ڤيك وهي تعرف جيدًا ما ستراه.

بينج يرتدي قناع الغاز العتيق، وما زال يمسك المقص في يمناه.

- أنت في بيت النوم. هذه آخر محطة لك أيتها العاهرة.

وضربها في وجهها بالمقص، فكسر أنفها.

بيت النوم

تراجعت ڤيك ثلاث خطوات صغيرة إلى الخلف، فلمس كعبها عتبة باب، وهو الباب الوحيد في المطبخ، باب المخزن. آخر ما تذكرته هو أنها مالت إلى الخلف كأنها ستجلس، إلا أنه لم يكن هناك مقعد ولا أرض مستوية. فقط هوت إلى الخلف وظلت تهوي...

لن يؤلمني هذا. لم تكن قلقة، هي فقط تعرف حقيقة أن ما يحدث مقبول وغير مؤذٍ.

ضربت ڤيك الدرجات بمؤخرتها أولًا، ثم دارت حول نفسها. اصطدمت الدرجة التالية بكتفها، ثم ارتطمت ركبتها بشيء، وخدها بشيء آخر، كأنها تلقت ركلة في وجهها.

ظنت ڤيك أنها سترتطم بالأرض في الأسفل وستتحطم كمزهرية، لكنها شعرت بشيء طري ملفوف بالبلاستيك تحتها، وتمددت على ظهرها. نظرت ڤيك إلى الدرجات أعلاها. هي لا تشعر بذراعها اليمنى، وثمة شعور بالضغط في ركبتها، سرعان ما سيتحول إلى ألم قوي.

نزل رجل قناع الغاز الدرجات، حاملًا الأسطوانة الخضراء من صمامها، وقد ترك المقص بالأعلى. مرعب كيف ينزع رجل قناع الغاز ملامحه البشرية، ويضع مكانها هذه الملامح الغريبة، ملامح قناع الغاز. أرادت أن تصرخ لكنها كانت ذاهلة، فلم تصدر صوتًا.

وقف ورأسها بين حذاءيه. رفع الأسطوانة، ثم أنزلها على صدرها، يفرغ منه الهواء. سعلت ڤيك بقوة وانقلبت على جانبها. جذب رجل قناع الغاز شعرها، فصرخت صرخة ضعيفة رغم قرارها أن تظل صامتة. أرادها أن

تجثم على أربع، فامتثلت لأن هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكنه إيقاف الألم. مد يده تحتها واعتصر ثديها كمن يختبر ثمرة جريب فروت. ثم بدأ يجرها، ولم يهتم لألمها. خشيت أن تسمع نفسها تستجدي الرحمة.

لم تلتقط ڤيك سوى لمحات من القبو الضيق. لمحت غسالة ومجففًا، ومجسد امرأة عارية ترتدي قناع غاز، وتمثال يسوع المسيح يفتح مقدمة ردائه كاشفًا عن قلب دقيق التشريح، وجانب وجهه مسود ذائب كأنه تعرض لنار.

سمعت صوت رنين معدني يصدر من مكان ما، ولا يتوقف.

توقف رجل قناع الغاز عند نهاية الحجرة، ثم رأته يفتح بابًا معدنيًّا منزلقًا. عقلها مشتت بين مشهد يسوع المحترق، وأسطوانة الغاز في الصالة، الكنيسة أعلى التل، ودالتري وقداحته في نيو هامبشير.

دفعها رجل قناع الغاز كي تسير على أربع نحو الباب وهو يجذب شعرها ويجر الأسطوانة بيده الأخرى في الأرضية الأسمنتية غير المستوية. هذا هو مصدر الرنين المعدني.

بعدما عبرت العتبة، ركلها فتمددت على وجهها وضربت ذقنها بالأرض، وتسرب الظلام من كل شيء في الغرفة إليها، من المصباح عند الركن، من الفراش، من الحوض، كأن كل قطعة أثاث لها ظلالها الخاصة التي استيقظت فجأة وبدأت تهاجمها كالوطاويط.

صرخت...

للغرفة رائحة المواسير القديمة، والأسمنت، والملاءات القذرة، والاغتصاب.

أرادت ڤيك أن تقوم، لكن الأفضل أن تفقد الوعي الآن فلا تشعر به يغتصبها، أو يقتلها.

انغلق الباب. قلبها رجل قناع الغاز على ظهرها، فتأرجح رأسها وارتطم بالأرض. ركع فوقها، وفي يده قناع غاز بلاستيكي شفاف طرف خرطومه موصول بالأسطوانة، وثبته فوق أنفها وفمها.

ضربت اليد التي تثبت القناع إلى وجهها، لكنه كان يرتدي قفازين سميكين أشبه بقفازات البستنة، فلم تستطع أن تخمشه أو تصل إلى أي لحم يؤلمه.

قال بطريقة كلامه المسجوعة: «تنفسي بعمق. استرخي. اليوم راح، وذهب الصباح».

أبقى القناع على وجهها، وباليد الأخرى فتح الصمام. سمعت صوت هسيس، وشعرت بهواء بارد له رائحة كعك الزنجبيل يندفع إلى فمها وأنفها.

لفت الخرطوم حول كفها وجذبته، فانخلع من الصمام، وتصاعد الغاز في الهواء. التفت رجل قناع الغاز نحوه، لكنه لم يبدُ قلقًا.

- نصف النساء يفعلن الشيء نفسه. لا أحب هذا لأنه يهدر الغاز، لكن إن كنت تحبين المعاناة، فلتعاني...

خلع القناع عن وجهها وألقاه إلى الركن. حاولت القيام مستندة إلى كوعيها، لكنه ضربها في معدتها. اندفع الهواء من فمها، ثم حل محله الغاز المخدر مع الشهيق التالي.

رجل قناع الغاز أقصر منها بنصف قدم، رغم سمنته يتحرك برشاقة وخفة. حمل الأسطوانة وسار نحوها ثم سلط الغاز المندفع على وجهها. ابتلعت هواءً بطعم الحلوى، كتمت أنفاسها وراحت تزحف على أليتيها نحو الحائط، ثم عجزت عن كتم أنفاسها أكثر.

سألها من خلف قناع الغاز وهو يسير نحوها حاملًا الأسطوانة: «إلى أين تذهبين؟ أينما تذهبين ستستنشقين الغاز. لدي ثلاثمائة لتر في الأسطوانة قادرة على تخدير عشرة أفيال يا حبيبتي».

ركل قدمها بعيدًا عن الأخرى، ثم ضغط على أسفل بطنها. صرخت غاضبة. للحظة تمنت لو أن الغاز قد خدرها، لا تريد أن تشعر بقدمه هنا، ولا تريد أن تشعر بما يلي ذلك.

- أيتها العاهرة نامي، نامي في مضجعك، خذي قيلولة هادئة بينما أعاشرك!

دفعت ڤيك نفسها إلى الحائط حتى ارتطمت به. ما زال يتقدم منها، يرش الغاز في أنحاء الغرفة. السيفوفلورين غاز أبيض، يشوش الرؤية، فيجعلها ترى الفراش الصغير ثلاثًا فوق بعضها بعضًا، مختبئة خلف الضباب. رجل قناع الغاز نفسه صار اثنين، ثم اندمج في واحد.

مالت الأرض تحتها، ظلت تدفع جسدها بقدميها كي لا تنزلق.

صاح رجل قناع الغاز بصوت مستمتع: «أنت هنا.. أنت فرصتي الثانية! أنت هنا، وسوف يعود السيد مانكس ليصحبني إلى أرض الكريسماس!».

دارت الصور سريعًا في عقلها... هي في الباحة الخلفية لمنزلها الآن، ودالتري يعطيها قداحته. تنظر إلى رسم بوباي عليها. ثم تذكرت الكتابة على أسطوانة السيفوفلورين: غاز قابل للاشتعال، ثم تلا ذلك خاطر، بل قرار... *اقتلي هذا الوغد!*

القداحة في جيبها الأيمن. أدخلت يدها لتخرجها، لكنها شعرت كأنها تمد يدها في كيس السكرابل الخاص بماجي. الجيب يمتد إلى الأبد بلا قرار.

الغاز ينطلق نحوها، ويطلق هسيسًا كأنه يأمرها أن تصمت.

لمست أصابعها شيئًا معدنيًّا. قبضت على القداحة وأخرجتها ثم رفعتها بينها وبين رجل الغاز، كأنها صليب ترفعه في وجه مصاص دماء: «لا تجبرني على ذلك».

طعم الغاز يملأ فمها.

- لا أجبرك على أي شيء؟

أظهرت القداحة، فرآها رجل قناع الغاز لأول مرة، تراجع إلى الخلف ورفع الأسطوانة بين ذراعيه.

- مهلًا! هذا خطر! هل جننت؟!

حركت ڤيك الترس المعدني بإبهامها، فأشعلت شرارة صغيرة، وكمعجزة، تحول الهواء فوق القداحة إلى شريط من لهب أزرق، تلوى ثوانٍ كأفعى، ثم انقض على البخار الأبيض المتصاعد من الأسطوانة فأشعله.

تحولت الأسطوانة إلى قاذفة لهب ذات مدى قصير فورًا، تقذف اللهب يمنة ويسرة بينما يتراجع رجل قناع الغاز عن ڤيك. انفجر قاع الأسطوانة كأنها صاروخ فدفع رجل قناع الغاز إلى الخلف. لم تتصور ڤيك صوت انفجار ثلاثمائة لتر من السيفوفلورين، لكنه كان أقرب لشعور انغراز إبرة في طبلتَي أذنيها.

ضرب رجل قناع الغاز بجسده الباب المعدني، فومض الغاز المشتعل حوله حتى أخفى نصف الحجرة من شدة الضوء. رفعت يديها تحمي وجهها، فرأت الشعر الرفيع الأشقر على ساعديها يتجعد ويحترق من الحرارة.

تغير العالم بعد الانفجار. الغرفة كأنما تنبض خلف سحابة الدخان الذهبي بوميض خافت. شعرت بسائل على خدها، ظنته دموعًا. لكن حين وضعت إصبعها عليه رأته يصبغها بالأحمر.

حاولت ڤيك النهوض، لكنها هوت مكانها مرة أخرى. كل شيء حولها يومض، كأن كل شيء في العالم يحوي داخله النور والظلام، ويحتاج إلى ضغط هائل كي يضيء. هي لا تسمع شيئًا سوى صوت رئتيها تبحثان عن هواء.

تنفست رغمًا عنها الغاز المحترق. العالم كرة ضوء تجعل رؤيتها مزدوجة. العالم يتضخم وينتفخ... ثم ينفجر.

أرض الكريسماس

7-9 يوليو

طريق القديس نيكولاس

شمال كولومبس.

أغلق وُين عينيه لدقائق، ثم فتحهما ليرى هلال الكريسماس نائمًا في السماء التي تطل على طريق سريع تحفه تماثيل رجل الجليد، تنظر إليهم وتتابعهم وهم يمرون أمامها.

الجبال حولهم شاهقة سوداء كأنها أسوار حافة العالم. القمم عالية حتى تكاد تحشر الهلال بينها. بين الجبال، يشع نور في الظلام، يمكن رؤيته من على بعد مائة ميل. ضوء زينة الكريسماس. مرآه جعل وُين غير قادر على الجلوس في مقعده من فرط الحماس.

مانكس يضع يدًا مرتخية واحدة على عجلة القيادة. الطريق مستقيم كأنما رُسم بمسطرة. المذياع يصدح بأغنية «هلموا أيها المؤمنون»، فيجيب وُين على الكورس بقلبه: *نحن في الطريق، آتون بأسرع ما يمكن، اتركوا لنا بعضًا من سعادة الكريسماس.*

تقف مجسمات رجل الثلج في جماعات، في عائلات. رجال من ثلج، نساء من ثلج، أطفال من ثلج، يقفون جوار كلاب من ثلج، ترفرف أوشحتهم المخططة إذ تعبر الشبح أمامهم.

يحركون أيديهم بعصيهم المعقوفة، ويميلون رؤوسهم ذات الأنوف المصنوعة من الجزر، تحية للسيد مانكس، والشبح، ووُين.

أعينهم كالجمرات، تضيء كالنهار، سوداء أشد حُلكة من الظلام. كلب من الثلج يحمل عظمة في فمه. رجل من ثلج يقبل خد امرأة من ثلج. صفَّق وُين دهشةً، رؤية رجال الثلج تدب فيهم الحياة كان أكثر المشاهد التي رآها في حياته بهجة.

سأل مانكس: «ماذا تريد أن تفعل بمجرد أن نصل أرض الكريسماس؟».

الاحتمالات أكثر من أن يرتب أولوياتها.

- سأذهب إلى كهف الحلوى لأرى رجل الثلوج القبيح! كلا! سأركب زلاجة سانتا كلوز وأنقذه من قراصنة السحاب!

- هناك خطة. الألعاب أولًا، والركوب تاليًا!

- أي ألعاب؟

- للأطفال لعبة اسمها المقصات للمشرَّدين، وفي أثنائها ستقضي أفضل وقت! بعدها لعبة وخز الأعمى. أنت لن ترى متعة ما لم تلعب وخز الأعمى مع شخص خفيف الحركة. انظر! انظر يمينك! هناك أسد ثلجي يقضم رأس حمل ثلجي!

استدار وُين لينظر يمينه، لكن جدته كانت تجلس جواره، تحجب عنه الرؤية. كانت كما رآها آخر مرة، تغطي عينيها عُملتان من فئة نصف دولار. كانت قد أرسلت له أنصاف الدولارات بالبريد في يوم عيد ميلاده، وأخبرته أنها لن تستطيع الحضور لأنها مريضة.

قالت ليندا مَكوين: «زائفة سماء هذه. نفسه الشيء ليسا المتعة والحب. بالعكس التفكير تحاول لا أنت. المقاومة تحاول لا أنت».

سألها وُين: «ماذا تعنين أن السماء زائفة؟».

أشارت نحو النافذة، فانحنى وُين ينظر إلى السماء التي كانت الثلوج تهبط منها منذ دقائق. الآن هي مغطاة بتشويش استاتيكي. ملايين النقاط البيضاء والسوداء والرمادية تومض فوق الجبال. أجفل وُين وآلمته عيناه. لم تكن مضيئة، لكن مرآها تتحرك بهذه الطريقة أزعجه للغاية، فتراجع وأغلق عينيه.

استدارت له جدته وهي تنظر إليه بعينين مغطاتين بعملتين. قال: «لو كنت تريدين اللعب معي، لكنت جئتِ إلى بيتي في كلورادو وتحدثنا بالعكس قدر ما تشائين. نحن حتى لم نكن نتحدث بشكل طبيعي حين كنت حية. لا أفهم لماذا تريدين الحديث معي الآن».

سأله مانكس: «مع من تتحدث؟».

- لا شيء.

ثم مد يده من أمام ليندا مَكوين وفتح الباب، ثم دفعها منه. سقطت على الأسفلت وتكسرت كأنها خزف.

إنديانا

فزع وُين والتفت نحو النافذة الخلفية. ثمة زجاجة قد انكسرت على الطريق وانتثرت شظاياها. مانكس ألقى زجاجة من نافذته. رآه وُين يفعل ذلك مرة أو اثنتين. لا يبدو أن تشارلي مانكس من محبي تدوير النفايات.

فرك وُين عينيه، فاختفت مجسمات رجل الثلوج والهلال الغافي وزينة الكريسماس البراقة. رأى حقول ذرة، وحانة ذات لافتة مضيئة مرسوم عليها بالمصابيح شقراء ترتدي تنورة قصيرة وتنتعل حذاءَي رعاة بقر. تومض اللافتة، فتظهر كأنها تتحرك وتركل بساقها وترفع رأسها وهي تقبل الهواء.

التفت مانكس إلى وُين. الأخير يشعر أن رأسه يدور من كثرة النوم، حتى إنه لم يلاحظ كم بدا مانكس شابًّا.

خلع قبعته، فظهرت صلعته المعتادة، لكنها كانت لامعة وردية، في حين كانت بالأمس مبقعة ككوكب بقاراته، لا يود أحد زيارته. هذه قارة البقع الكبدية، وتلك جزيرة سرطانية.

نظر مانكس إلى وُين في ثبات من تحت حاجبيه المقوسين. لم يره من قبل يرمش حتى كاد يؤمن أنه ليس له جفنان.

بالأمس كان يبدو كجثة، اليوم هو في منتصف الستين، يتمتع بصحة وحيوية. نظرة عينيه لها سمت غباء عصفور ينظر إلى الطريق ويتساءل عن كيفية التقاط قطعة خبز على الجانب الآخر دون أن تدهمه السيارات.

سأله وُين: «هل ستأكلني؟».

ضحك مانكس ضحكة كنعيق غراب، ثم قال: «أنا لم أذق منك شيئًا، وعلى الأرجح لن أفعل. لا أظن أن فيك من اللحم ما يُشبِع، واللحم الموجود بدأت رائحته تتغير. سأقف هنا لأشتري البطاطا الحلوة التي أخبرتك عنها».

يشعر وُين أن هناك شيئًا قد ألمَّ به. مرض أو حمى، شيء لا يمكن تحديده. ربما هذا أثر النوم في السيارة. ما لاحظه أن ردود أفعاله ليست معتادة، فقد كاد يضحك على ما قال مانكس، وهو شيء مخيف أن يضحك طفل على اختيار كلمات خاطفِه.

- لكنك مصاص دماء. ستأخذ مني شيئًا وتهضمه في جسدك.

حدق مانكس إلى انعكاس وُين في المرآة الأمامية وقال: «السيارة تجعل كلينا في حالة أفضل. هي مما يسمونه هذه الأيام سيارة «هجين». هل سمعت عن السيارات الهجين؟ تلك التي تعمل بالبنزين والنيات الحسنة معًا! لكن هذه هجين أصلية! هذه السيارة تعمل بالبنزين والنيات السيئة! الأفكار والمشاعر نوع من الطاقة، مثلها كمثل الوقود. هذه السيارة تقطع الأميال بحرق مشاعرك السيئة، وكل ما حدث وآلمك. أنا لا أتحدث بصيغة مجازية. هل لديك أي ندوب؟».

أجاب وُين وهو يرفع يده اليمنى: «جرحتني سكين هنا، وخلَّف الجرح ندبة...».

لكنه لم يجد الندبة مكانها، فذهل مما حدث، ومن تفسيره.

- الطريق إلى أرض الكريسماس يزيل كل الجراح، ويخفف كل الآلام، ويمحو كل الندوب. الطريق يأخذ منك كل ما لا ينفعك بخير، ويترك فقط النقاء. بوصولك إلى أرض الكريسماس ستُنقى حتى من ذكرى أي ألم.

- لو لم أكن معك في السيارة، لو كنت ستذهب إلى أرض الكريسماس وحدك، هل سيكون للسيارة التأثير نفسه فيك؟ هل ستعود شابًّا؟

- لديك أسئلة كثيرة! أراهن أنك طالب ممتاز! كلا، لا يمكن أن أذهب إلى أرض الكريسماس وحدي دون راكب في السيارة. هذا أفضل جزء فيما يحدث، يمكن أن أُشفى فقط حين أُدخِل السعادة على قلوب الآخرين! طريق أرض الكريسماس لا يسير فوقه إلا الأنقياء، ولا تدعني السيارة

أقطعه وحدي. يجب أن أقدم الخير إلى الآخرين. تخيل لو أن العالم كله يُدار بالطريقة نفسها!

نظر وُين خارج النافذة وقال: «هل هذا هو طريق الشفاء؟ يبدو مثل طريق I-80».

- هو بالفعل طريق رقم 80 بين الولايات. أنت استيقظت. منذ دقائق كنت نائمًا تحلم بأحلام جميلة، وكنا على طريق القديس نِك، تحت ظل السيد هلال وحولنا رجال الثلج والجبال البعيدة.

فزع وُين، لا يحب أن يظن أن السيد مانكس يرافقه في أحلامه. عاد إلى ذكرى السماء التي قالت له جدته إنها سماء مزيفة. يعرف وُين أن الجدة ليندا تريد أن تخبره شيئًا، أو تلمح له بطريقةٍ تحميه من مانكس والسيارة وما يفعلانه به. لكن معرفة هذه الطريقة جهد ربما لا يقدر عليه. هي حتى لم تُكلف نفسها عناء تعليمه أي شيء وهي حية، وكان يشك في أنها تكره والده لأنه سمين.

- لو نمت مرة أخرى ستُكمل الحلم. حين نصل أرض الكريسماس ستركب الزلاجة الدوارة، وتلعب مع بنتيَّ وأصدقائهما.

يعبران من بين حقول الذرة. يرى رشاشات الماء بينها، ويتخيل أنها ترش سمًّا يمنع المخلوقات الدخيلة من التهام الذرة. ردد عقله عبارة «مخلوقات دخيلة» لسبب لا يدريه.

- هل يغادر أي شخص أرض الكريسماس؟

- بمجرد أن تدخلها، لن ترغب في الخروج منها. كل ما تريده هناك، ومن أفضل نوع.

- لكن... هل يمكن أن أغادر أرض الكريسماس لو رغبت في ذلك؟

نظر إليه مانكس عبر المرآة مرة أخرى وقال: «أراهن أن أساتذتك كانوا يشكون من كثرة أسئلتك. كيف كانت درجاتك؟».

- ليست جيدة.

- سيسُرك أن تعرف أنه لا مدارس في أرض الكريسماس. أكره المدارس، وأفضِّل أن أصنع التاريخ على أن أقرأه. يقولون إن التعليم مغامرة، لكن

هذا هراء. التعليم تعليم، والمغامرة مغامرة! لا يلزمك سوى المعرفة بالحساب والقراءة، ما سوى ذلك سيودي بك إلى كوارث.

فهم وُين أنه لن يستطيع مغادرة أرض الكريسماس.

- هل لي في طلب أخير؟
- لماذا تبدو كأنك محكوم عليك بالإعدام؟ أنت ستصل إلى أرض الكريسماس وسيكون لديك كل شيء!
- لكن لو أنني سأظل هناك للأبد، فهناك أشياء أود فعلها قبل أن أصل. هل يمكنني تناول وجبة أخيرة؟
- هل تظننا لن نُطعمك في أرض الكريسماس؟
- ماذا لو أن الطعام الذي أريده ليس متوافرًا هناك؟ هل يمكنك أن تأكل أي شيء تريده في أرض الكريسماس؟
- لدينا حلوى وكاكاو ونقانق.. لدينا كل ما قد يتمناه أي طفل.
- أريد ذرة. ذرة مدهونة بالزبد... وبيرة.
- لا أعتقد أن هناك مشكلة في الذرة... وماذا قلت؟ بيرة؟ يوجد لدينا بيرة جذور من أفضل ما يمكن.
- لا أريد بيرة جذور. أريد بيرة حقيقية.
- لماذا تريد شيئًا كهذا؟
- وعدني أبي أن أشرب معه حين أبلغ الحادية والعشرين. سنشرب البيرة معًا ونحن نشاهد احتفالات الرابع من يوليو. أظن هذا لن يحدث الآن، بالإضافة إلى أنك قد ذكرت أن كل يوم سيكون يوم كريسماس، ولن يكون هناك يوم الرابع من يوليو. أريد صواريخ احتفالات كذلك.

عبرا جسرًا طويلًا للغاية، ولم يتحدث مانكس إلا عندما وصلا نهايته.

- أنت ثرثار الليلة. حسنًا، تريدني أن أبتاع لك ذرة، وبيرة، وصواريخ تكفي احتفالًا خاصًا بالرابع من يوليو؟ هل أنت واثق أنك لا تريد شيئًا آخر؟ هل كنت تخطط لتناول الكافيار وكبد الإوز مع أمك بعد تخرجك في المدرسة الثانوية؟
- لا أريد احتفالًا خاصًا. أريد فقط الألعاب النارية الصغيرة... ربما صاروخين. أنت قلت إنك ستعوضني عن كلبي.

تلا ذلك فترة صمت كئيب، ثم قال مانكس أخيرًا: «قلت ذلك. أنا فقط نسيت، ولست فخورًا بقتله. لو جلبت لك ما تريد، ستعتبر هذا ترضية كافية؟».

- كلا، لكني لن أطلب منك شيئًا آخر.

نظر وُين إلى السماء، فرأى الهلال مجرد قطعة صخر. حقًّا، كل شيء أجمل في أرض الكريسماس. سأل وُين: «كيف اكتشفت أرض الكريسماس؟».

- نقلت بنتيَّ إليها، وزوجتي الأولى. كانت قاسية صعبة الإرضاء. أغلب ذوات الشعر الأحمر مثلها. كانت دائمة الشكوى وأفقدت بنتيَّ الثقة بي. أعطاني أبوها مالًا كي أقيم عملًا خاصًّا، فاشتريت سيارة. هذه السيارة. ظننت كاسي -زوجتي- قد تسعد عندما أعود لها بها، لكنها غضبت كعادتها وقالت إنني بددت المال. قلت لها إنني سأصبح سائقًا لكنها أهانتني أمام البنتين، وهو شيء لا يقبله أي رجل.

قبض مانكس على المقود بقوة حتى ابيضت مفاصله. أردف: «في مرة، رمتني زوجتي بمصباح زيت، واحترقت أفضل ستراتي. هل تظنها اعتذرت؟ بالطبع لا. ظلت تسخر مني في تجمعات العائلة وفي الأعياد، وقلدتني حين أمسكت النار بملابسي. تجري في الأنحاء وتصرخ كديك وهي تلوح بذراعيها، فتضحك أخواتها ويسخرن مني. هل تعرف أن دماء ذوات الشعر الأحمر أبرد بثلاث درجات عن سواهن؟ هذه دراسة علمية حقيقية. صعوبة الحياة معهن تكمن في أن الرجال لا يستطيعون الإفلات منهن. هل تفهمني؟».

أومأ وُين رغم أنه لا يفهم.

- لقد وصلنا إلى مكان يمكنني فيه شراء صواريخ صاخبة ستصيبك بالصمم! يجب أن نذهب إلى مكتبة هير بعد غروب الغد، وسنطلقها هناك، وسيظن الناس أن الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت بسبب الصوت!

ثم أضاف في صوت خبيث: «ربما تشاركنا السيدة ماجي لي الاحتفال. لا أمانع أن أشعل صاروخًا أو اثنين تحتها لتتعلم ألا تتدخل فيما لا يعنيها».

- لماذا تهمك؟ لماذا لا تتركها وشأنها؟

عثٌّ أخضر ضخم ارتطم بالواجهة الأمامية للسيارة، فلطخها باللون الزمردي.

- أنت ذكي يا بروس وُين كارمودي. أنت قرأت كل شيء عنها. أظنك لو فكرت ستعرف مدى أهميتها.

كان وُين قد قرأ الأوراق التي أعطاها له مانكس، وهي تحكي حياة ماجي لي ومعاناتها مع الفقد والإدمان والوحدة... والغرائب والمعجزات.

أول خبر يعود إلى أواخر التسعينيات، ويقول:

مستبصرة، أم ذات بصيرة؟

حدس أمينة مكتبة محلية ينقذ الأطفال.

الخبر يحكي عن رجل يُدعى هايس أرتشر، يسكن في ساكرامنتو. في ليلة، اصطحب أرتشر ابنيه في رحلة بطائرته الجديدة ذات المحرك الواحد عبر ساحل كاليفورنيا تحت ضوء القمر. لم تكن طائرته هي الشيء الوحيد الجديد، بل رخصة قيادته أيضًا. بعد أربعين دقيقة من التحليق، اختفت الطائرة من الرادار، وخشي الناس أن تكون قد سقطت في الماء بعد أن فقد الطيار القدرة على تمييز الأرض قبيل الهبوط. أذيع الخبر عدة مرات في النشرات.

اتصلت مارجارِت لي بالشرطة وأخبرتهم أن أرتشر وطفليه لم يموتوا، ولم يسقطوا في الماء، بل هووا في ممر ضيق، ولم تحدد المكان بدقة، لكنها نصحت بالبحث حيث قد يجدون المِلح.

للمفاجأة، عُثر على الطائرة وقد حطَّت على ارتفاع أربعين قدمًا من سطح الأرض، فوق شجرة ضخمة تقع في حديقة *الملح*. الأطفال لم يؤذوا، بينما عانى الأب كسرًا في الظهر، لكنه سينجو. صرحت ماجي أن خاطرًا بشأن الطائرة قد خطر لها في أثناء لعبها لعبة السكرابل.

نُشر الخبر مصحوبًا بصورة للطائرة المقلوبة رأسًا على عقب، وصورة لماجي لي وهي تلعب بالسكرابل في مسابقة محلية.

خلال الأعوام التالية، شاركت ماجي لي بحدسها في الإنقاذ، لكن مع الوقت قلَّت تخميناتها حتى انقطعت أخبارها من عام 2000 حتى عام 2008، حين نُشر عنها خبر بعيد عن معجزاتها المألوفة.

وقع فيضان في بلدة هير في آيوا، تسبب في كثير من الخسائر من ضمنها غرق المكتبة، وكادت ماجي نفسها تغرق وهي تحاول إنقاذ الكتب. فشل المتبرعون في جمع معونات تكفي لترميم المكتبة، فأُغلِقت.

أدينت ماجي لي بإضرام حريق في مبنى مهجور عام 2009، وكان بحوزتها وقتها معدات تعاطي المخدرات.

في عام 2010 اعتُقِلت بتهمة حيازة وتعاطي الهيروين.

في عام 2011 اعتُقِلت بسبب توزيع المخدرات، ولم تنفعها موهبتها في التنبؤ بوجود أفراد شرطة متخفين في الفندق حيث كانت تمارس مهمتها. وفي العام نفسه، نُقلت إلى المستشفى بسبب سوء حالتها الصحية إثر إقامتها في الشوارع.

قال وُين أخيرًا: «أنت تريدها لأنها حاولت تحذير أمي من مجيئك؟».

- أريد مقابلتها لأنها تعرف أنني على الطريق، وتنتوي افتعال المشكلات معي. هذه ليست المرة الأولى التي يتسبب لي أمثالها في متاعب، رغم أنني أفعل ما في وسعي لتجنبهم.
- أمثالها؟ تقصد ممن يعملون أمناء مكتبات مثلها؟

نخر مانكس ثم قال: «أنت تلوّم عليَّ! سعيد أنك قد استعدت حس المزاح. أريد القول إن هناك أمثالي، ممن يستطيعون الولوج إلى عوالم الأفكار».

أشار بإصبعه إلى رأسه، يؤكد مكان تلك الأفكار، ثم أردف: «لدي الشبح، أجلس خلف مقودها وأعرف الدروب التي تؤدي إلى أرض الكريسماس. أعرف آخرين لديهم أدوات يستطيعون بها تشكيل الواقع كالصلصال. كان هناك من يدعى كرادوك مَكديرموت[1]، يزعم أن روحه تسكن بذلته. وهناك السائر إلى الخلف، الذي يملك ساعة تدور بالعكس. يا ويلك لو قابلته! وهناك جماعة الميثاق الحقيقي، يعيشون على الطرق والدروب يشبهونني كثيرًا! أنا أتركهم وشأنهم، وهم يردون لي هذا الجميل. ماجي لي لديها أداة خاصة بها

(1) Craddock McDermott: شخصية خيالية من رواية Heart shaped box للكاتب جو هيل. (الكاتب يشير بكثرة إلى أعماله السابقة وأعمال والده الكاتب ستيفن كينج داخل نص وأحداث هذه الرواية). (المترجمة)

تستخدمها للتجسس. غالبًا هي قطع السكرابل التي ذكرتها. يبدو أنها مهتمة بي، ومن الذوق أن نمر عليها، فأحاول شفاءها من فضولها!».

هز رأسه ضاحكًا ضحكة مُسن. ربما يُرجع الطريق إلى أرض الكريسماس صبا جسده، لكنه لا يؤثر في ضحكته. قاد سيارته، فتسارعت الخطوط الصفراء على الطريق عن يسار وُين أخيرًا زفر مانكس ثم قال: «لا أمانع في أن أصرح لك يا وُين، أن أساس كل المشكلات امرأة. مارجارِت لي، وأمك، وزوجتي الأولى، كلهن قصاصات من الثوب ذاته. أتعرف؟ أفضل أيام حياتي كانت تلك الخالية من النساء! الرجال يقضون أغلب حيواتهم يتنقلون من ضغط امرأة إلى ضغط امرأة أخرى، ومن خدمة واحدة إلى خدمة أخرى. لن تتخيل الحياة التي أنقذتك منها! لا يتوقف الرجال عن التفكير في النساء، والتفكير فيهن مثل تفكير الجائع في قطعة لحم شهي. حين ترى اللحم يُشوى، يتشتت تركيزك ولا صوت يعلو فوق صوت معدتك. النساء يعلمن هذه الحقيقة، ويستغللنها. يضعن القوانين كما تضع أمك القوانين لمواعيد غدائك وتنظيف حجرتك وتغيير ملابسك. بعض الرجال يظنون أن ليس لهم قيمة ما لم يطيعوا قوانين نسائهم. حين تزيل النساء من الصورة، سيصير هناك متسع للرجال كي يواجهوا الرجال، ويعرفون قدر أنفسهم بدقة».

سأل وُين: «لماذا لم تُطلِّق زوجتك الأولى إن كانت لا تعجبك؟».

- لم يكن أحد يطلق زوجته وقتها. لم يخطر هذا ببالي، لكن ما خطر لي هو الرحيل، بل إنني رحلت مرة أو اثنتين، لكنني كنت أعود.

- لماذا؟

- جوعًا للحم.

- متى تزوجت أول مرة؟

- هل تسأل عن سني؟

- أجل.

ابتسم مانكس وقال: «سأخبرك بهذا: في أول موعد لنا، خرجت وكاسي لنشاهد فيلمًا صامتًا. هل يعطيك هذا نبذة عن سني؟».

- أي فيلم؟

- فيلم رعب من ألمانيا. كانت كاسي تدس رأسها في صدري وقت عرض المشاهد المخيفة. حضرنا العرض مع والدها، لكنه لم يكن يعبأ بنا. كانت في السادسة عشرة وقتها، صغيرة، خجولة. هذا شأن كل النساء. في صباهن، هن جواهر احتمالات غالية، مليئات بالحياة والرغبة، وحين ينضجن، يصرن مثل الدجاج، يسقط عنهن زغب الأفراخ الصغيرة، ويستحيل ريشًا قاسيًا داكنًا! تسقط رقة الماسات عنهن، كما تسقط الأسنان اللبنية من أفواه الأطفال.

أومأ وُين وهو يضغط بلسانه على سنه المخلوعة، فشعر بالفتحة الصغيرة الدامية، وداخلها سن جديدة تنمو. إلا أن السن كانت مدببة، حادة معقوفة كخطاف صيد الأسماك.

في جيبه الآن خمس أسنان فقدها خلال الساعات الست والثلاثين الماضية. لم يكن قلقًا بشأنها، هو يشعر بصفوف الأسنان الجديدة تخترق لثته.

- لاحقًا، اتهمتني زوجتي أنني مصاص دماء، تمامًا كما اتهمتني أنت. قالت إنني أشبه الشرير في أول فيلم شاهدناه معًا. الفيلم الألماني. قالت إنني أمتص الحياة من ابنتينا وأتغذى عليهما. لكن مرت الأعوام وما زالت ابنتاي قويتين سعيدتين! لو أنني كنت أحاول امتصاص الحياة منهما، فقد فشلت. بعد وقت، أتعستني زوجتي حتى صرت مستعدًّا لقتلها وبنتيَّ، ثم قتل نفسي. لكن الآن أتذكر هذه الأيام وأضحك. أنظر إلى لوحة أرقام سيارتي. أتذكر مزاعم زوجتي عني فأسخر منها. هكذا تنجو! يجب أن تتعلم أن تسخر وتضحك يا وُين. يجب أن تبحث عن سبل التسلية! هل تظن أنك ستتذكر هذا؟

- أعتقد.

- حسنًا. رجلان في سيارة يشقان الليل! هذه هي التسلية والمتعة! أنت رفيق أفضل من بينج بارتريدج، على الأقل أنت لا تشعر برغبة مُلحة في الغناء الأبله! سافرت مع بينج كثيرًا، كل رحلة أطول من سابقتها. لا أعرف كيف أعبِّر عن ارتياحي في مرافقة شخص لا يغني أغاني بلهاء طيلة الوقت، ولا يسأل أسئلة غبية.

سأل وُين: «هل سنأكل قريبًا؟».

ضرب مانكس المقود وهو يضحك، ثم قال: «أظنني أبديت رأيي عن رفقتك سريعًا! لو أن سؤالك هذا ليس سؤالًا غبيًا، فهو أقرب للغباء يا سيد وُين الصغير! لقد وعدتك بالطعام، أقسم لك إنني كنت سأبر بوعدي. لقد نقلت مئات الأطفال إلى أرض الكريسماس، ولم يمت أحدهم جوعًا».

وصلا المطعم بعد عشرين دقيقة. هو مبنى من طابق واحد من المعدن والزجاج، ينتصب وسط باحة انتظار سيارات في مساحة ملعب كرة قدم. يضيء المكان كشّافات ضخمة تحيل الليل إلى نهار.

الباحة مكتظة بالشاحنات ذات الإطارات الثمانية عشر، رأى وُين من النافذة أن كل مقاعد المطعم مشغولة كأنهم في منتصف النهار لا منتصف الليل.

البلاد تبحث عن طفل ورجل في سيارة رولز رويس عتيقة، لكن لا أحد يبحث عنها في الخارج، ولم يلاحظهما أحد. فهم وُين أن السيارة تُرى ولا تُلاحَظ. كانت كقناة تلفاز تبث تشويشًا، الكل يراها ولا يتوقف أحد عندها. أوقف مانكس السيارة ملاصقة للمبنى، ولم يحاول وُين الاستغاثة أو لفت الأنظار.

نظر مانكس إلى وُين، ثم غمز وهو يقول: «لا تذهب إلى أي مكان».

خرج من السيارة متجهًا إلى المطعم، ورآه وُين يخترق صف الزبائن الجالسين عند المشرب. التلفاز يعرض الأخبار. امرأة شقراء تقف ووراءها بحيرة. بدت البحيرة مألوفة لوُين. انتقلت الكاميرا إلى منزل البحيرة والشرطة حوله. مانكس كان يتابع الأخبار أيضًا.

ثم عُرض تسجيل لأمه تركب تِريَمف دون خوذة وتقترب من الكاميرا. يبدو أن المصور لم يستطِع الفرار في الوقت المناسب، فتعثر وسقطت منه الكاميرا وسط الحصى والحشائش.

خرج تشارلي مانكس سريعًا من المطعم، ثم ركب السيارة وانطلق. عيناه غائمتان، فمه مزموم، ملامحه غاضبة. قال وُين: «أظننا لن نتناول البطاطا المقلية».

لو أن مانكس قد سمعه، فإنه لم يبدِ أي إشارة تدل على ذلك.

بيت النوم

لم يبد أنها جُرحت، ولا تشعر بألم. سيأتي الألم.

بل لم يبد لها أنها أفاقت، لكنها شعرت بأطرافها تتجمع معًا مرة أخرى ببطء، كأنها دراجة بخارية مفككة يُعاد تركيبها.

تذكرت تِريَمف قبل أن تتذكر اسمها حتى.

رن جرس هاتف. سمعته خشنًا عتيقًا. أعادها الصوت إلى العالم، لكن الرنين توقف بمجرد أن أفاقت.

ڤيك منبطحة على الأرض، جانب وجهها بارد مبلل بماء على الأرض، شفتاها مشققتان جافتان، والعطش يداهمها كما لم يفعل من قبل. لعقت الماء ذا الطعم الأسمنتي، لكنه رواها كفاية. ثمة حذاء ثابت أمام عينيها، تراه كلما استعادت وعيها. تنظر إليه في كل مرة، ثم تغيب وتنساه.

لم تستطع ڤيك تحديد مكانها، وافترضت أن عليها النهوض الآن، لن يأتي أحد ويبحث عنها هنا.

هل أصيبت في حادث؟ لكنها في قبو، ترى حوائطه الأسمنتية التي تكشف عن القرميد خلفها في بعض المواضع المتهدمة، وروائح مجارٍ عطنة تزكم أنفها. قامت على ركبتيها مستندة إلى ذراعيها. لم تشعر بالألم الذي توقعته. ما ذعرت به لم يتعد شعور تكسير العظام الذي يشعر به المصاب بالبرد.

حين رأته تذكرت كل شيء. هروبها من منزل البحيرة، الجسر، الكنيسة، الرجل المدعو بينج الذي حاول تخديرها واغتصابها.

جسد رجل قناع الغاز مشطور، لا يصل شطريه إلا حبل أمعاء. نصفه العلوي في الصالة، وساقاه عند مدخل الباب، وفردة من حذاءيه حيث كانت ڤيك راقدة.

انفجرت أسطوانة السيفوفلورين، لكن منظم الضغط ما زال في مكانه أعلاها. أدركت ڤيك أن رائحة المجاري ما هي إلا رائحة أمعاء بينج لا أكثر.

الحجرة نفسها منبعجة، لا تستطيع ڤيك التركيز في شيء من أثاثها دون أن تشعر بالدوار. الفراش مكسور، الحوض مخلوع من الحائط، المواسير تقطر بالماء فيتجمع على الأرض. لو أن ڤيك غابت عن الوعي أكثر، ربما كانت لتغرق.

القيام على ساقيها كان صعبًا، مفاصلها متصلبة، تؤلمها الحركة فتدفعها للأنين. ركبتاها لن تتحملا وزنها كاملًا. ألقت نظرة أخيرة إلى الحجرة، كزائر يشاهد متحفًا لفن المعاناة، ثم يقرر أن لا شيء يستحق المشاهدة، فيغمغم: لننطلق، ربما هناك ما يصلح للمشاهدة في حجرة أخرى.

خطت من فوق شطرَي جثة بينج. لم تجزع لأن كل ما تراه كان يبدو غير حقيقي. أبعدت عينيها عن رأسه خشية أن ترى وجهه، لكن ما إن خطت خطوتين، فقدت القدرة على المقاومة والتفتت خلفها. عينا بينج الذاهلتان تطلان من خلف نافذة الخوذة. الخرطوم المثبت إلى فمه قد ذاب وتحول إلى كتلة سوداء.

قطعت طريقها عبر الصالة، كأنها تقطع سطح سفينة يؤرجحها الموج. ظلت تتمايل يمينًا ويسارًا فتستند إلى الحوائط. الصالة سليمة، ڤيك هي السفينة التي تصارع الغرق في الظلام. نسيت أن ركبتها مصابة، فكادت تسقط لولا تمسكت بصدر تمثال يسوع المسيح المحترق، فاسودت يدها.

لا يجب أن تنسى أمر ركبتها المصابة مرة أخرى. باغتها خاطر لم تعرف سببه: حمدًا لله أن الدراجة البخارية بريطانية الصنع.

تعثرت مرة أخرى في أكياس القمامة أسفل الدرج، تلك التي وَقَتها إثر السقطة وكسر الجمجمة. الأكياس تحوي أشياء طرية مختلطة بأخرى صلبة. عرفت ڤيك محتوياتها فورًا. لم ترد أن ترى المحتوى، لكن يداها مزقتا أحد الأكياس لتظهر جثة ملفوفة بشريط لاصق. فاحت رائحة التعفن المختلطة برائحة كعك الزنجبيل. رائحة شيطانية مريعة. الجثة لرجل رشيق، ربما كان

وسيمًا من قبل. عيناه غائصتان في محجريهما، وجلده مصفر جاف. شفتاه منفرجتان كأنه قد مات وهو يصرخ. ربما كان هذا من أثر تراجع اللحم عن الأسنان بعد الموت.

شهقت ڤيك وغطت فمها، ثم وضعت كفها على وجه الرجل البارد وهمست: «معذرة...».

عجزت عن مقاومة دموعها. لم تكن من النساء الباكيات لأتفه الأسباب، لكن أحيانًا ما يكون البكاء هو التصرف الأمثل الوحيد. مسَّدت ڤيك خد المتوفى، وهنا لمحت قطعة ورق محشورة بين شفتيه. جذبتها دون اشمئزاز. هذا الرجل واجه نهاية مؤلمة هنا وحده، أهين ومُثِّل بجثته. أيًّا ما كان يريد هذا الرجل قوله، فإن ڤيك مستعدة للإنصات، حتى لو جاء إنصاتها بعد فوات الأوان.

الكلمات على الورقة المقصوصة من غلاف هدايا كريسماس ورقي، مكتوبة بقلم رصاص، وبيد مرتجفة.

«عقلي بالكاد صافٍ لأكتب. المهم هو:

- أنا ناثان ديميتر من براندنبرج، كِنتَكي.

- يحتجزني بينج بارتريدج.

- يعمل لدى رجل يدعى مانكس.

- لدي ابنة جميلة طيبة تدعى ميشيل، وحمدًا لله أن السيارة أخذتني ولم تأخذها هي. أريدها أن تقرأ التالي:

أحبك يا فتاتي. لن يمكنه إيذائي لأني حين أغمض عينيَّ أراكِ. لا بأس من البكاء، لكن لا تتخلي عن الضحك.

أنت تحتاجين كليهما، وكان لدي كلاهما.

أحبك يا طفلتي - والدك».

قرأتها ڤيك وحاولت ألا تبكي. صعدت الدرجات متعجبة كيف هوت من هذه المسافة ولم تؤذَ. ركبتها تنبض ألمًا مع كل خطوة. في منتصف الطريق إلى أعلى، رن جرس الهاتف مرة أخرى. راحت تصعد بسرعة أكبر وهي تحجل على ساق واحدة، تذكرت أغنية كانت تغنيها وهي تقف بهذه الطريقة في أثناء لعبها وهي طفلة. *أنا فتاة هولندية ترتدي الأزرق، وها أنا ذي أفعل ما أبرع فيه، وأقفز كاللَّقلق!*

دفعت الباب لتواجه نور الشمس الباهر. الهاتف يرن، والضوء يجعلها تتمايل من الدوار. مدت ڤيك يدها ورفعت سماعة الهاتف القديم السوداء وهي واقفة عند باب القبو بعد، تستند بيدها اليسرى إلى الباب، وأدركت أنها ما زالت تمسك رسالة ناثان ديميتر.

وضعت السماعة على أذنها، فسمعت مانكس يهتف: «إلهي، يا بينج! أين كنت؟ ظللت أتصل وأتصل. بدأت أقلق من أن تكون قد فعلت شيئًا طائشًا. عدم مجيئك معي ليس نهاية العالم. ربما هناك فرصة أخرى، وحتى وقتها، ثمة ما تفعله لي. أولًا، اجلب لي أخبار صديقتنا ڤيك مَكوين. سمعت في الأخبار أنها ركبت دراجة بخارية من منزل البحيرة ثم اختفت. ألم تسمع عنها شيئًا من وقتها؟ ماذا تظنها ستفعل؟».

ابتلعت ڤيك لعابها، وزفرت ببطء، ثم قالت: «أوه، لقد كانت مشغولة جدًّا. مؤخرًا، كانت تساعد بينج في إعادة ترتيب قبوه. رأيت أنه يحتاج بعض الألوان بالأسفل، لذا طُليت الحوائط بأمعائه... ابن الغانية».

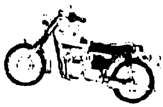

صمت مانكس طويلًا حتى ظنت ڤيك أنه قد أغلق الخط. كادت تنطق باسمه، لولا قال: «يا للهول! أتريدين أن تقولي إن بينج مات؟ آسف لذلك. لقد افترقنا على خلاف. أشعر بالخزي تجاه ذلك الآن. لقد كان مجرد طفل. لقد ارتكب الفظائع، لكنك لا تستطيعين لومه! لم يكن يعرف شيئًا آخر يفعله!».

- اخرس وأنصِت لي. أريد ابني، وسآتي لأنقذه يا مانكس، والأفضل لك ألا تكون معه حين أصل. قف حيث أنت وأطلِق سراح ابني على الطريق

دون أي أذى. اطلب منه أن ينتظرني، وأخبره أنني سآتي إليه قبل أن تطرف عينه. افعل هذا ولا تقلق من أن أتعقبك. سأتركك تفر، وسنكون متعادلين.

لم تكن تعرف إن كانت تعني ما قالت، لكنه بدا لها جيدًا.

- كيف وصلت إلى بينج بارتريدج يا ڤيكتوريا؟ هذا ما أريد معرفته. هل وصلت إليه كما فعلت من قبل؟ عن طريق الجسر؟

- هل وُين بخير؟ أريد محادثته. دعني أتحدث إليه.

- الناس في الجحيم يريدون ماءً باردًا، فهل طلبهم دومًا مُجاب؟ أجيبي أسئلتي، وسأرى إن كنت سأستجيب لمطالبك. أخبريني كيف وصلت إلى بينج وسأرى ما يمكنني فعله.

ارتجف جسدها، هذه هي بدايات أعراض الصدمة.

- لا بد أن تخبرني أنتَ إن كان حيًّا، وليساعدك الرب إن كان غير ذلك. لو أن مكروهًا حدث له، فما فعلته ببينج لن يقارن بما سأفعله بك.

- هو بخير كشعاع شمس! هذا كل ما يمكنك معرفته مني. أخبريني كيف وصلت إلى بينج؟ بدراجتك البخارية؟ حين وصلت إليَّ في كلورادو كان معك دراجة، أظنك وجدت ركوبة أفضل الآن. هل تنقلك عبر الجسر أيضًا؟ أجيبيني وسأدعك تتحدثين معه.

حاولت أن تقرر ما الصواب، ولم يخطر ببالها أي كذبة. لكن ما الفارق لو عرف الحقيقة؟

- أجل. عبرت الجسر فأوصلني إلى هنا.

- إذًا لقد وجدت لنفسك طاقم عجلات لئيمًا! لديك دراجة أفضل، لكنها لم تقُدك إليَّ، وقادتك إلى بيت النوم. أظنني أعرف ماذا حدث. أنت طلبت مني أن أقف وأنزل ابنك على الطريق، وقلت إنك ستصلين إليه قبل أن يطرف. الجسر لا يوصلك إلا إلى أماكن ثابتة، أليس كذلك؟ هذا منطقي، فهو جسر قبل أي شيء، ويجب أن يستقر طرفاه عند مكانين ثابتين، أو... فكرتين ثابتتين.

- ابني... أريد أن أسمع صوته. أنت وعدتني.

- الحق حق. ها هو ذا يا ڤيك. ها هو ذا الشاب الصغير بنفسه.

متجر الألعاب النارية، إلينوي

تحت شمس النهار الساطعة، أوقف مانكس سيارته بالقرب من متجر الألعاب النارية، مرسوم على لافتته قمر مغروز في عينه صاروخ، ينفجر بالشذرات الملونة. ضحك وُين حين رأى اللافتة، واعتصر هلاله الصغير في كفه.

المتجر ذو طابق واحد، مرفق به إسطبل خيل، فخطر لوُين أنهم في الغرب، حيث أمضى أغلب حياته. في الشمال يبنون إسطبلات على سبيل الزينة والحنين إلى الماضي، لكن في الغرب يمكنك أن ترى فيها فضلات خيول جافة تشي بأنها تُستخدم بالفعل. وقتها تشعر أنك في بلاد رعاة البقر حقًّا، رغم أن رعاة البقر المعاصرين يركبون الدرجات البخارية ويسمعون أغاني إمينيم.

سأل وُين: «هل هناك خيول في أرض الكريسماس؟».

- رَنَّات.. رَنَّات مروضة بيضاء.

- هل يمكن ركوبها؟

- يمكنك أن تطعمها من يدك مباشرة!

- ماذا تأكل؟

- أي شيء. تبنًا. سكرًا. تفاحًا.

- وكلها بيضاء؟

- أجل. صعب رؤيتها وسط الثلج. الثلوج دائمة في أرض الكريسماس.

هتف وُين في حماس: «يمكننا طلاؤها، فيسهل رؤيتها!».

الأفكار الحماسية تراوده كثيرًا مؤخرًا. قال مانكس: «يبدو هذا ممتعًا».

- سنلونها بالأحمر مثل الشاحنات!

- رائع!

رأى وُين مشهد الرنة الواقفة دون حركة، وهو يمرر عليها فرشاة الألوان بلون أحمر مثل حلوى التفاح، فتحمس. مرر لسانه على أسنانه الجديدة، وخطر له أن يصنع قلادة من أسنانه القديمة حين يصل أرض الكريسماس.

أخرج مانكس هاتف وُين من درج القفازات، وقد كان يستخدمه طيلة الطريق للاتصال ببينج، لكن الأخير لم يكن يرد، ولم يترك له مانكس رسالة. نظر وُين عبر النافذة، فرأى رجلًا يخرج من المتجر يحمل كيسًا كبيرًا في يد، ويمسك في اليد الأخرى يد ابنته الشقراء الصغيرة. من الممتع أن يطلي المرء الفتيات بالأحمر. أن ينزع ملابسهن ويطلي أجسادهن المشدودة بعد أن يحلق شعرهن كله. تساءل وُين ماذا يمكن أن يفعل بكيس مملوء بالشعر الأشقر. لا بد أن هناك شيئًا ممتعًا يستخدمه فيه.

هتف مانكس: «إلهي يا بينج. أين كنت؟».

فتح مانكس بابه وخرج من السيارة. ركب الرجل وابنته سيارة تقف على الجانب الآخر من الطريق. لوح لها وُين، فلوحت له. شعرها رائع! يمكن صنع حبل متين منه، تربطه كأنشوطة تشنقها بها. تساءل وُين إن كان يمكن للمرء أن يُشنق بشعره.

تحدث مانكس في الهاتف قليلًا وهو يسير وينثر الغبار الأبيض حول حذاءيه. انفتح باب السائق، ومال مانكس وهو يقول لوُين: «وُين؟ هل تذكر أنني وعدتك أمس أنك لو أحسنت التصرف سأدعك تتحدث إلى أمك؟ لا تظن أن تشارلي مانكس لا يفي بوعده! ها هي ذي. تريد أن تطمئن عليك».

أخذ وُين الهاتف.

- أمي؟ أمي، هذا أنا. كيف حالك؟

- وُين؟ وُين؟! هل أنت بخير؟

- أجل! توقفنا لشراء ألعاب نارية. سيشتريها لي السيد مانكس. هل أنت بخير؟ هل تبكين؟

- أوحشتني. أحتاجك يا وُين. سآتي إليك.

- أوه... حسنًا. لقد فقدت سنًّا. بل بضع أسنان! أمي، أحبك. كل شيء على ما يرام، أنا بخير. نحن نقضي وقتًا ممتعًا.

- وُين! أنت لست بخير! هو يفعل بك شيئًا. يسيطر على عقلك. يجب أن تقاومه. هو ليس رجلًا صالحًا.

شعر وُين بمعدته تتقلص. مرر لسانه على أسنانه الحادة الجديدة ثم قال: «هو يشتري لي ألعابًا نارية».

كان قد أمضى النهار يفكر في الألعاب النارية، وكيف سيثقب بها سماء الليل. تمنى لو استطاع إضرام النار في السحاب. يا له من منظر! قطع السحاب تهوي مشتعلة من السماء تجر خلفها ذيول الدخان.

- لقد قتل هوبر يا وُين!

عبارتها كانت كصفعة على وجهه. أجفل...

- هوبر مات دفاعًا عنك يا وُين.

هوبر؟ لم يفكر في هوبر منذ عقود. الآن يتذكره ويتذكر حزنه العظيم وهو ينظر إلى وجهه الضخم. تذكر وُين رائحة أنفاسه الأخيرة، وملمس شعره الناعم، وكيف مات. لقد عض قدم رجل قناع الغاز، ثم... مانكس.. قال وُين فجأة: «أمي، أعتقد أنني مريض. أظنني مريضًا يا أمي، كأنني مسموم».

- أوه، يا طفلي. تماسك يا حبيبي. تماسك، سآتي إليك.

احتشد الدمع في عينَي وُين، فغامت الصورة أمامه. تعجب من بكائه، لم يعد يشعر بالحزن، بل ذِكراه فقط.

فكَّر: *أخبرها بشيء يمكنه مساعدتها... مساعدتها يمكنه بشيء أخبرها...*

- لقد رأيت جدتي ليندا. رأيتها في حلم وطلبت مني مقاومته، لكن المقاومة صعبة.

قالت أمه من بين دموعها: «افعل ما أخبرتك به أيًّا كان».

قال في عجالة: «أجل. أمي... أمي، ثمة شيء آخر. نحن ذاهبان لمقابلة...».

انتزع مانكس الهاتف من يد وُين، وقد احتقن وجهه، وكأنه قد خسر خطوة مهمة. قال مانكس بصوت مُنغم لا يتناسب مع الحنق في نظراته: «كفانا حديثًا».

ثم أغلق الباب في وجه وُين الذي ارتمى على المقعد كأن الكهرباء قد فُصلت عنه. شعر بالإرهاق وآلام الرأس والرقبة. كان غاضبًا. صوت أمه، وبكاؤها، وذكرى هوبر، كل هذا أثار غضبه.

فكر: *أنا مسموم. هو سممني*. وضع كفه على جيبه المنبعج بما فيه من أسنان، وفكر في التسمم الإشعاعي. خطر بباله النمل العملاق الذي تعرض للإشعاع في الأفلام التي كان يشاهدها مع والده. ماذا قد يحدث للنمل لو تعرض لأشعة المايكروويف؟ سيُطهى بالطبع ولن يصير ضخمًا كالأفلام. لكن لا يمكنك الجزم بما سيحدث ما لم تجرب. قبض على الهلال وتخيل النمل يفرقع كحبات الفُشار.

ثمة صوت في عقله يرجوه أن يفكر بالعكس، لكنه تجنبه. هذا ليس أمرًا ممتعًا.

حين عاد مانكس إلى السيارة، كان وُين يبتسم مرة أخرى. لا يعرف كم مر من الوقت، لكن مانكس كان قد اشترى الصواريخ التي يرغب فيها، في عبوات مكتوب عليها: **سيل النجوم. نهاية رائعة لليلة رائعة!**

قال مانكس في ضيق: «لقد اشتريت لك ما طلبت، لكن استخدامه أمر آخر لم أقرره بعد. أنت كنت ستخبر أمك بأننا ذاهبان لملاقاة السيدة ماجي لي، وكنت ستفسد المتعة. لا أعرف لماذا قد أحاول إسعادك وأنت تستكثر عليَّ المتعة!».

قال وُين: «أشعر بصداع قوي».

لم يعلق مانكس، وانطلق يشق الطريق، وبعد عدة أميال ضرب قنفذًا على الطريق، فضحك وُين. ابتسم له مانكس ابتسامة دافئة، وراح يغني أغنية «أيا بلدة بيت لحم الصغيرة»، فصار كل شيء على ما يرام.

بيت النوم

ارتكنت ڤيك إلى منضدة المطبخ وراحت تبكي. الطفل على الخط تحدث بصوت وُين، لكنه لم يكن وُين. كان منفصلًا عن العالم وعن الموقف المريع الذي يمر به، وعن نفسه المتماسكة العاقلة. لكنه قرب نهاية المكالمة، بعدما تذكر هوبر، صار أقرب لوُين الحقيقي. للحظة بدا حائرًا خائفًا. بدا مخدرًا، أو كأنه يفيق من تخدير عميق.

السيارة تخدره بشكل ما، وتسحب منه نفسه وشخصيته، وتترك أفكارًا سعيدة فارغة في عقله. لقد صار مصاص دماء مثل براد مَكولاي، الطفل الذي حاول قتلها منذ سنوات في جَنباريل.

قال مانكس عبر الهاتف: «هل أنت بخير يا ڤيكتوريا؟ هل أتصل بك في وقت لاحق؟».

- أنت تقتله! هو يموت.

- هو لم يحيَ مثلما يحيا الآن! ثقي أنني سأعامله أفضل معاملة، وسأعدك أنني لن أوذيه. أنا لن أوذي طفلًا أبدًا، وبالطبع لا يعرف أحد هذا بسبب كل الكذبات التي تفوهت بها عني. لقد أمضيت حياتي في خدمة الأطفال، وأنت زعمت أنني متحرش! حقي أن أفعل بابنك الفظائع كلها التي زعمتِها، لكني لا أستطيع أن أفعل شيئًا يؤذي أبنائي.

صمت هنيهة، ثم أضاف: «أما الكبار، فالأمر يختلف».

- اتركه. رجاءً اتركه. أنت تريد الانتقام مني، أفهم هذا، لكن لا ذنب له في أي شيء. قف في أي مكان وأطلِق سراحه، ثم افعل ما تشاء بي.

- أنتِ زعمت للعالم كله أنني تحرشت بك جنسيًّا. أنا حزين لاتهامي بشيء لم أحظَ بمتعة تجربته.

- هل تريد ذلك؟ هل سيرضيك؟

- أن أغتصبك؟ إلهي، كلا! أنا فقط أجاريكِ. أعرف أن بعض النساء يحببن الأفعال الجنسية المهينة والشتائم، لكن هل يليق أن تُضاجع امرأة دون رغبتها؟ لا أظن ذلك! ربما لن تصدقيني، لكن لدي ابنتان ولا أرضى لهما ذلك. أتعرفين؟ أحيانًا ما أظن أننا تعارفنا في الوقت الخطأ، أراهن أنك كنت ستعجبين بي لو تقابلنا في وقت أفضل.

- سحقًا!

- ليس هذا مستحيلًا! لقد تزوجت مرتين، ونادرًا ما عشت دون رفقة امرأة. كل واحدة منهما وجدت بي ما يعجبها بالطبع.

- ماذا تريد؟ تريد أن نتواعد؟!

- نظرًا إلى ما فعلته ببينج في أول موعد لكما، فأنا أفضل -حرصًا على صحتي- أن نتحدث فقط. فكري فيها. لم تكن مقابلاتنا السابقة رومانسية للغاية. أنت جرحتني وكذبتِ بشأني، وأرسلتني إلى السجن. أنت أسوأ من زوجتي الأولى. لكن، ما زال لديك ما يجعل الرجل يعود إليكِ رغبةً في المزيد! أنت تشغلين البال!

- لا تشغل بالك بشيء إذًا. أنت لن تستطيع القيادة للأبد. آجلًا أو عاجلًا ستتوقف في مكان ما لترتاح قليلًا، وقتها ستجدني. تخلصت من صديقك بينج بسهولة يا مانكس، أنا غانية خطرة. سأحرقك حتى الموت في سيارتك، وسأستعيد ابني.

- أنا واثق أنك ستحاولين يا ڤيكتوريا. لكن ألم تفكري في احتمال أن تجدينا، ولا يرغب هو في الذهاب معك؟

ثم انقطع الخط.

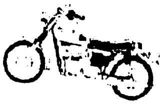

بعدما أغلق مانكس الخط، انحنت ڤيك تشهق كأنها قد أنهت سباق عدو. بكاؤها مرهق غاضب.

قال لها أبوها: *لو أنك ستغضبين، فاستغلي غضبك ولا تدعيه يستغلك.*

هل قال يومًا شيئًا كهذا؟ لا تعرف، لكنها سمعت صوته بوضوح يقولها في عقلها.

مشت نحو الحوض، فقط لتدرك أنها ما زالت تمسك السماعة. عادت إليه ووضعت السماعة مكانها. بعد أن انتهت من البكاء، شعرت لأول مرة منذ أيام بالسلام الذي كانت تشعر به وهي ترسم صفحات قصص محرك البحث.

هناك أشخاص تتصل بهم، وقرارات تتخذها.

في لوحات محرك البحث، كانت المهام صعبة لأنها تدور في بيئة مكتظة بالتفاصيل المُشتتة. الكبار يجدونها صعبة، على عكس الأطفال، وفسرت ڤيك هذا بأن الكبار يحاولون دومًا رؤية نقطة النهاية، ويعجزون عن ذلك لأن التفاصيل تحجبها عنهم وتجعلهم يفكرون فيها. أما الأطفال، فلا يحاولون رؤية اللغز ككل، بل يتصورون أنهم هم «محرك البحث»، بطل القصة، وينظرون إلى كل تفصيلة على حِدة، ويخطون معه خطوة بخطوة. الفارق بين الطفولة والبلوغ هو الفارق بين الخيال والاستسلام. تستبدل الثانية بالأولى فتضل.

فطنت ڤيك إلى أنها لا تحتاج العثور على مانكس، فلا جدوى من محاولة إصابة سهم متحرك بآخر مثله. لقد جعلته يظن أنها ستستخدم الجسر لتعثر عليه، لكنها لا تحتاج إلى ذلك. هي تعرف إلى أين يتجه، ويمكنها الذهاب إلى هناك في أي وقت تريد.

لكن يجب أن تتجهز لمواجهة مانكس أينما ستجده. إن كانت تفكر في قتله، فيجب أن تعرف كيف ستقتله. ثم هناك سؤال أهم، هل سيكون وُين نفسه حين يصل إلى أرض الكريسماس؟ ماذا لو أن ما حدث له لا يمكن الشفاء منه؟

تعرف ڤيك شخصًا يمكنه إخبارها بتفاصيل عن وُين، وشخصًا يمكنه إحضار سلاح يهدد الشيء الوحيد الذي يهتم له مانكس. كلاهما في طريقها.

أولًا، هناك فتاة تدعى ميشيل ديميتر فقدت أباها وتريد أن تعرف ماذا حدث له. نظرت ڤيك إلى النافذة، وعرفت من خلال زاوية الضوء أن الوقت

بعد الظهيرة، يبدو أنها فقدت الوعي ساعتين أو ثلاثًا. السماء مكفهرة ملبدة بالغيوم الرعدية، لو أن أحدًا قد سمع صوت انفجار أسطوانة السيفوفلورين سيظن أنه صوت الرعد.

أرادت أن تلقي نظرة على الخطابات على منضدة المطبخ، ورأت عنوان بينج في بنسلفانيا عليها. أربع ساعات ليست كافية للسفر إلى بنسلفانيا من نيو هامبشير. ثم خطر ببالها أنها ليست في حاجة إلى تفسير شيء، فليعبأ الآخرون بشأن التفسيرات.

طلبت الرقم وقلبها يدوي في صدرها.

قال لُو: «نعم؟».

لم تكن واثقة أن لُو سيرد على الهاتف، توقعت أن ترد هَتر أو الرجل الآخر دالتري، فتخبره أين سيجد قداحته. صوت لُو أضعفها ومزق زخم ثقتها بقرارها. شعرت أنها لم تحبه قدر ما يستحق قط، وأنه أحبها أكثر مما تستحق بكثير.

- هذا أنا. هل تنصت؟

- آه، اللعنة! ڤيك!

جاء صوت هَتر عبر الخط الآخر: «أنا هنا يا ڤيك. أنت أغضبت الكثير هنا. هل تريدين أن تخبريني لماذا هربتِ؟».

- ذهبت أبحث عن ابني.

- أعرف أن هناك ما لم تخبريني به. ربما هي أمور خفتِ أن تحكيها، لكني أريد أن أسمعها يا ڤيك. أنت تظنين أن ما تفعلينه طيلة الساعات الأربع والعشرين الماضية هو عين الصواب، وتعتقدين أن...

- أربع وعشرون ساعة؟ ماذا تعنين... أربع وعشرون ساعة؟!

- هذه هي الساعات التي كنا نبحث فيها عنك بعد اختفائك. لماذا لم تخبريني إلى أين...

- مر عليَّ أربع وعشرون ساعة؟

فكرة إضاعة يوم كامل أرعبتها. قال هَتر في صبر: «أريدك أن تمكثي في مكانك».

- لا يمكنني هذا.

- يجب أن...

- كلا، اصمتي واسمعي. ابحثي عن فتاة تدعى ميشيل ديميتر، تعيش في براندنبرج في كِنتَكي. والدها مفقود من فترة ربما هي تجن من القلق عليه. هو هنا بالأسفل، في القبو. مات منذ أيام على ما أظن. هل سمعتِ ما قلت؟

- أجل، أنا...

- عاملوه برفق عليكم اللعنة! لا تضعوه في خزانة حقيرة في مشرحة. اجعلوا أحدًا يمكث معه حتى تأتي ابنته. لقد ظل وحيدًا بما يكفي.

- ماذا حدث له؟

- قتله رجل يدعى بينج بارتريدج، وهو الرجل ذو قناع الغاز الذي أطلق عليَّ الرصاص. الرجل الذي تظنون أن لا وجود له. كان يعمل مع مانكس ويبدو أنهما تشاركا تاريخًا طويلًا معًا.

- ڤيك، تشارلي مانكس ميت.

- كلا. أنا رأيته، وكذا رآه ناثان ديميتر، وسيعزز شهادتي.

- ڤيك، أنت تقولين إن ناثان قد مات، كيف سيعزز شهادتك؟ اهدئي، لقد مررت بالكثير...

- لست مجنونة ولم تدرِ مناقشة بيني وبين رجل ميت. ترك ديميتر رسالة. رسالة تذكر اسم مانكس يا لُو! لُو، هل أنت هنا؟

- أجل يا ڤيك. أنا هنا. هل أنت بخير؟

- تحدثتُ هاتفيًّا مع وُين يا لُو، وهو حي. سأستعيده.

فضح صوته عواطفه الجياشة ومحاولته لكبح بكائه. قال: «أوه، إلهي! ماذا قال؟».

- إنه بخير.

قالت تابيثا هَتر: «ڤيك، متى...».

صاح لُو مقاطعًا: «ڤيك، يا صاح... لا يمكنك أن تفعلي هذا وحدك. لا يمكن أن تعبري هذا الجسر وحدك».

قالت ڤيك بحرص: «اسمعني يا لُو. يجب أن أقابل من يحضر لي «أنفو». لو جاءني به، فسأمحو عالم مانكس من على الخريطة».

قالت تابيثا هَتر: «أنفه؟ أنف مَن؟ مانكس؟ ڤيكتوريا، لُو مُحق. لا يمكنك أن تتعاملي مع الأمر وحدك. عودي ولنتحدث. من ستقابلين؟ ما هذا الذي تريدين منه؟».

قال لُو بصوت متهدج: «ارحلي الآن يا ڤيك، سيأتون إليكِ. ارحلي وافعلي ما عليكِ فعله. سنخوض في خراء الخيل وقتًا آخر...».

قالت تابيثا في قلق: «سيد كارمودي؟!».

- سأرحل. أحبك يا لُو.

أعادت السماعة برفق إلى مكانها. غالبًا قد فهم التلميح. لقد قالت: *سنخوض في خراء الخيل وقتًا آخر*... وروث الخيل مكون مهم في صناعة متفجرات «أنفو» التي كان يستخدمها أبوها.

ذهبت إلى الحوض وغسلت الدماء والسناج من على جسدها. هي مغطاة بأشلاء رجل قناع الغاز التي تتدلى من ملابسها وشعرها. سمعت صوت صافرة سيارة شرطة من بعيد. كان عليها أن تغتسل قبل أن تتصل بلُو، أو تفتش البيت بحثًا عن سلاح. هي تحتاج إلى سلاح كما تحتاج إلى صابون الآن.

فتحت الباب الخلفي وخرجت بحذر محاولةً ألا تضغط بوزنها على ركبتها اليسرى. يمكن أن تثبتها طيلة الطريق، وحمدت الله على أن دراجتها البخارية بريطانية، فيمكنها استخدام ساقها اليسرى في التبديل بين السرعات.

صعدت ڤيك التل، وصوت الصافرة يعلو أكثر. ستثور ثائرة هَتر حين تعرف أن سيارات الشرطة قد جاءت إلى المنزل وهي تعلن مجيئها لڤيك بتلك الصافرات الغبية.

وصلت ڤيك باحة الانتظار أمام الكنيسة، ثم نظرت خلفها لتجد سيارة الشرطة قد توقفت بعرض الطريق ونزل منها الجنود يقتحمون منزل بينج. تساءلت ماذا كانت ستفعل لو لم تكن دراجتها بالأعلى، أو أن أحدهم اكتشفها واكتشف وجود المفاتيح فيها فأخذها. لكن تِريَمف كانت حيث تركتها، تستند مائلة إلى سنادتها الصدئة.

رفعت نفسها فوقها وهي تئن. أدارت المفتاح، ثم انطلقت ولم تعطلها أمطار اليوم السابق. غمغمت ڤيك: «سعيدة أن إحدانا مستعدة».

دارت من حول أطلال الكنيسة، ونزلت التل وقد بدأ المطر بالانهمار. الماء بارد منعش، ينظف شعرها وجسدها ويرويهما.

حين عادت إلى حيث الجسر، وجدته مكانه وسط الأشجار. عبرت المدخل، فرأت على يسارها كلمة بالرذاذ الأخضر: هير🡐

انطلقت داخل فم الجسر المظلم، تضرب عجلتَي الدراجة ألواحُه النخرة. بعد دقيقتين اختفى الجسر كبالون انفجر، بل إنه قد صدر عنه صوت انفجار مع انطلاق موجات أردت الغراب فوق الشجرة قتيلًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لاكونيا، نيو هامبشير

لاحظت هَتر ما يحدث قبل أي شخص آخر. بدأ لُو كارمودي يتهاوى وهو يضع يديه على المنضدة البيضاوية في حجرة الاجتماعات.

- سيد كارمودي؟

هوى جالسًا على أحد المقاعد ذات العجلات. شحب وجهه وغرق في العرق. نادته هَتر مرة أخرى عبر الحجرة: «سيد كارمودي؟!».

الرجال حوله لا يدركون أن الرجل يمر بأزمة قلبية. صوت ڤيك يقول عبر السماعة اللاسلكية في أذن هَتر: «أحبك يا لُو».

كان الجميع في غرفة الاجتماعات في مقر الشرطة خارج لاكونيا، وهي غرفة واسعة تتوسطها منضدة بيضاوية ضخمة تطل على ساحة انتظار سيارات.

بمجرد أن أغلقت ڤيك الخط، انتزعت هَتر سماعتها. كان گندي يتابع مكان الاتصال على الخريطة الظاهرة على شاشة حاسوبه ويقول: «ستصل سيارات الشرطة إلى مكان ڤيكتوريا مَكوين خلال ثلاث دقائق أو أكثر. اتصلت بهم وقد أطلقوا الصفارات في الطريق إليها».

فتحت هَتر فمها لتقول له: «أغلِقوا الصافرات. لا يصح أن تنذر من تحاول مداهمته»، لكن لُو مال إلى الأمام حتى أسند رأسه على الطاولة، وانضغط أنفه على خشبها.

هتفت هَتر: «استدعوا الإسعاف. الآن!».

سأل گندي: «تريدين إرسال الإسعاف إلى ڤيكتوريا مَكوين؟».

- كلا، أريدها هنا.

اقتربت من لُو وصوتها يعلو هاتفةً: «افسحوا أيها السادة. السيد كارمودي بحاجة إلى هواء. ابتعد من فضلك، ابتعد...».

انزلق مقعد لُو كارمودي من تحته، فهوى الرجل على الأرض. كان دالتري الأقرب إليه، يقف خلف المقعد ممسكًا بكوب منقوش عليه عبارة: أفضل جد في العالم. تنحى جانبًا فانسكبت القهوة على قميصه الوردي. صاح: «ماذا يحدث؟!».

ركعت هَتر جوار لُو الذي سقط أسفل المنضدة. حاولت قَلْبَه على ظهره كأنها تحاول قلب حشية ثقيلة. عضلات وجهه مرتخية وشفتاه رماديتان. شهق بعنف، ودارت عيناه في المكان في حيرة.

قالت هَتر: «ستصل المساعدة فورًا».

فرقعت بأصابعها، فجذب الصوت انتباهه. رمش وابتسم وهو يقول: «يعجبني قرطاكِ أيتها الفتاة الخارقة. لم أكن أعرف أنك خارقة!».

سألته وهي تحاول أن تحافظ على انتباهه: «ماذا كنت تظنني إذًا؟».

تحسست نبضه هنيهةً دون أن تشعر به، ثم أخيرًا أحسَّت حركته البطيئة حينًا والمتسارعة حينًا.

- ظننتك فيلمًا. من كارتون سكوبي دو.

- لماذا؟ لأنها حمقاء مثلي.

- كلا، لأنك ذكية مثلها. أنا مذعور. هلا أمسكتِ يدي.

أمسكت يده، فحرك إبهامه ببطء على مفاصل أصابعها.

- أعرف أنك لا تصدقين أي شيء قالته ڤيك عن مانكس. أعرف أنك تظنين أنها مجنونة. لا يمكن أن تسمحي للوقائع أن تقف في وجه الحقائق.

- وما الفارق؟

فاجأها بضحكة واهنة. ركبت سيارة الإسعاف معه إلى المستشفى، ولم يطلق سراح يدها طيلة الرحلة.

هير، آيوا

بمجرد أن خرجت ڤيك من الجهة الأخرى من الجسر، أبطأت ڤيك السرعة إلى أقل حد. تذكرت زيارتها الأخيرة إلى مكتبة هير العامة، وكيف انزلقت دراجتها وجرحت ركبتها. لن تتحمل أن تصاب مرة أخرى فوق إصاباتها الحالية.

في زيارتها الأخيرة، كان الطريق خلف المكتبة نظيفًا ظليلًا، مكان يمكن التمدد فيه فوق ملاءة والاستمتاع بالقراءة. هو الآن عبارة عن نصف فدان من الوحل مطبوع بعلامات إطارات الجرارات وشاحنات النفايات. خُلعت الأشجار العتيقة التي يربو عمرها على قرن، وتكومت على جانب الطريق.

ثمة مقعد شُوِيَ تحت أشعة الشمس وأكل الصدأ حديده، هو ما تبقى مما كان هنا في الماضي. فوقه تغفو ماجي جالسة، وذقنها يلمس صدرها، ولا تبالي بالشمس. تمسك بعلبة عصير ليمون في يدها، والذباب يدور حول فمها. قميصها بلا كُمين، يكشف عن جسد نحيل، وذراعين مرقطتين بآثار حروق السجائر. تظهر جذور شعرها البني والأبيض تحت الصبغة البرتقالية. لم تبد والدة ڤيك مسنة مثلما تبدو ماجي الآن.

منظر ماجي الشنيع آلم ڤيك أكثر مما تؤلمها ركبتها اليسرى، وتذكرت لحظة غضبها، وكيف رمت الأوراق في وجه هذه المرأة وهددتها بالاتصال بالشرطة. لم تسمح لنفسها بتجاهل إحساس الخزي، وتركته يحرقها.

توقفت الدراجة البخارية مُصدرةً صوتًا حادًّا. رفعت ماجي رأسها وأزاحت خصلات شعرها الجاف عن وجهها، وابتسمت ناعسة.

اختفت ابتسامة ماجي فجأة كما ظهرت، وقامت تسأل: «ڤ... ڤ... ڤيك؟ ماذا فعلت بنفسك؟ أنت مغطاة بالدماء».

- لو أن هذا سيطمئنك، فأغلبه ليس دمي.

- س.. س... سأفقد الوعي. ألم ألصق لك الضمادات في المرة الأخيرة التي كنت فيها هنا؟

- بلى، فعلتِ.

نظرت ڤيك خلف ماجي إلى أطلال المكتبة. نوافذ الطابق الأول مغطاة بالورق المقوى، والبوابة مغلقة بشريط الشرطة الأصفر.

- ماذا حدث لمكتبتك يا ماجي؟

- لقد شهدت أيامًا أفضل. م... م... مثلي.

شعرت ڤيك أنها على وشك البكاء. همست: «أوه، ماجي... لا أعرف أينا تحتاج أكثر إلى طبيب».

- أنا بخير. فقط ل... ل... لعثمتي تدهورت.

- وذراعاكِ.

نظرت ماجي إليهما وإلى الحروق عليهما، ثم رفعت رأسها وقالت: «هذا يساعدني على الحديث بشكل طبيعي. ويساعدني في أ... أ... أمور أخرى أيضًا».

- ما الذي يساعدك؟

- الأ.. أ.. ألم. تعالي، لندخل. ماما ماجي ستعتني بك.

- أريد أكثر من الاعتناء بي يا ماجي. أحتاج إلى مشورة السكرابل.

قالت ماجي وهي تستدير نحو الطريق: «ربما لن تجدي إجابات. لم يعد السكرابل يعمل كما كان. هو يتلعثم مثلي. لكني سأحاول بعدما أنظفك وأعتني بك».

- لا أعرف إن كان لدي وقت لهذا.

- بالطبع لديكِ. هو لم يصل إلى أرض الكريسماس بعد. كلتانا تعرف أنك لن تستطيعي العثور عليه قبلها.

نزلت ڤيك عن الدراجة. لفت ماجي ذراعًا حول خصرها لتعينها على القفز على ساق واحدة سليمة. سارتا خطوة أو اثنتين، ثم التفتت ماجي تنظر نحو الجسر الذي يغطي الآن نهر سيدَر.

- ماذا عند نهاية الجسر هذه المرة؟

- جثتان.

- هل سيتبعك أحد من خلال الجسر؟

- لا أظن. الشرطة تبحث عني هناك، لكن الجسر سيختفي قبل أن يجدوه.

- الش... ش... شرطة كانت هنا.

- يبحثون عني؟

- لا أعرف! ر... ر... ربما! كنت عائدة من متجر الأدوية ورأيتهم يقفون أمام المكتبة، لذا ابتعدت. أنا أقيم هـ... هـ... هنا أحيانًا، وأ... أ... أحيانًا في أماكن أخرى.

- أين؟ ذكرت في آخر مرة تقابلنا أنك تعيشين مع أقاربك... عمك تقريبًا؟

هزت ماجي رأسها وهي تقول: «لقد توفي. كل ساحة القاطرات زالت عن الوجود».

تحركت المرأتان نحو الباب الخلفي. قالت ڤيك: «غالبًا هم يبحثون عنك لأنني اتصلت بك. لقد سمعوا المكالمة وتتبعوا هاتفك المحمول».

- فكرت في هذا بالفعل وتخلصت منه. أعرف أن... أنك لا تحتاجين إلى الاتصال بي كي تعرفي مكاني.

مكتوب على الشرائط الصفراء التي تغلق البوابة «خطر»، وعُلقت ورقة مغلفة بالبلاستيك خلفها تحذر من دخول المكان الذي قد ينهار في أي لحظة.

البوابة مواربة مسنودة بقطعة قرميد. رفعت ماجي الشرائط ودخلت، فتبعتها ڤيك إلى الظلام. أغلب الكتب التي كانت تملأ المكان قد احترقت، وما تبقى منها موضوع في أكوام هنا وهناك، تفوح برائحة العفن والرطوبة.

- اكتسح الفيضان الكبير عام 2008 كل شيء. الحوائط ما زالت م.. م... مبتلة.

تحسست ڤيك الحوائط الرطبة. اخترقتا المكان، ورأت ڤيك بعدما تعودت عيناها الظلام رسوم الجرافيتي على الحوائط، التي تمثل المعتاد من رسم

لأعضاء ذكرية هائلة الحجم وأثداء في حجم أطباق العشاء. ثم رأت ڤيك رسالة مكتوبة بالطلاء الأحمر:

رجاء إلتيزام الهودوء في المكتبة.

الناس يحاولون الانتيشاء[1]!

قالت ڤيك: «أنا آسفة يا ماجي. أعرف كم أحببت هذا المكان. هل هناك ما أفعل للمساعدة؟ هل نقلوا الكتب إلى مكان آخر؟».

- أعتقد.

- مكان قريب؟

- قريب للغاية. م... م... مستودع نفايات المدينة جوار النهر.

- المكان أثري! لماذا لم يحاول أحد إصلاحه؟ هذه تحفة تاريخية.

للحظات اختفت اللعثمة إذ قالت ماجي: «هذا صحيح. المكان تحفة تاريخية، وقد صار الآن تاريخًا مضى وانتهى».

طغى الألم على ملامح ماجي. حقًّا، الألم يساعدها على الحديث بطلاقة.

(1) العبارة مكتوبة في النص الأصلي بأخطاء هجائية متعمدة. (المترجمة)

المكتبة

يمكننا القول إن مكتب ماجي لي خلف حوض الأسماك ما زال موجودًا. الحوض خاوٍ، وقطع السكرابل في القاع، والزجاج الغائم يبين ما كان في الماضي مكتبة الأطفال. مكتب ماجي موجود، لكن الماء قد خرَّبه وقشر طلاءه، ورسم أحدهم على جانبه رسمًا فاضحًا. فوقه استقرت شمعة وسط تل من الشمع الذائب. ثقالة الورق على شكل مسدس موضوعة فوق كتاب لبورجيس. في ركن رأت ڤيك أريكة لا تتذكرها. هي رخيصة، ممزقة القماش، لكنها على الأقل لا تفوق برائحة العطن.

- ماذا حدث لسمكتك؟

- لا أعرف. أظن أحدهم ق... ق... قد أكلها.

ثمة محاقن وأنابيب مطاطية على الأرض. حرصت ڤيك على ألا تطأ أيها وهي تعبر نحو الأريكة. في الركن قبعة ماجي القديمة معلقة فوق عصا مكنسة. قالت ماجي وهي تومئ نحو المحاقن والأنابيب: «ليست ملكي. لم أُحقَن منذ العام الماضي. لم أعد قادرة على شراء هذا النوع».

وضعت ماجي قبعتها على رأسها في فخر الثمل الذي يستعد لمغادرة الحانة ليترنح في شوارع باريس المطيرة، ثم أمسكت المكنسة وكنست النفايات.

- الأوكسي[1] أرخص بكثير من الهيروين.

فتحت درج مكتبها وأخرجت علبة دواء برتقالية، وعلبة سجائر، وكيس السكرابل المهترئ.

---

(1) أوكسيكودون، مخدر قوي من عائلة المواد الأفيونية. (المترجمة)

قالت ڤيك: «اليقظة أرخص عمومًا من الأوكسيكونتين[1]».

قالت ماجي وهي تدس سيجارة في ركن فمها وتشعلها: «أتناوله فقط عند الحاجة».

- عند الحاجة؟

- هو مسكن، وأتناوله لتسكين الألم. هذا هو كل ما في الأمر. ماذا ح... ح... حدث لك يا ڤيك؟

اتكأت على مسند الأريكة، وعجزت عن ثني ركبتها اليسرى أو حتى النظر إليها. كانت في ضعف حجم اليُمنى وقد غطتها خرائط من كدمات. حكت ڤيك ما حدث خلال اليومين السابقين، ولم تقاطعها ماجي أو تسأل عن توضيحات. وضعت الأخيرة خرقة مبللة على ركبة ڤيك، وثبتتها هناك، ثم فتحت علبة الدواء وأخرجت قرصين. قالت ڤيك: «لا يمكن أن أتناوله».

- بالطبع يمكنك. لن تضطري إلى ابتلاعهما دون ماء. لدي عصير ليمون. هو دافئ لكن لذيذ!

- أعني أنني قد أنام بسبب تأثيره. نمت بما يكفي.

- على أرض أسمنتية؟ بعد أن خُدِّرتِ؟ هذا ليس نومًا.

أعطت ڤيك القرصين وأردفت: «هذا فقدان وعي».

- ربما بعد أن نتكلم.

- سأساعدك أن تجدي ما تبحثين عنه. هل تعدينني أنك لن ترحلي قبل أن ترتاحي؟

اعتصرت ڤيك يد المرأة الأخرى وقالت: «أعدك. شكرًا يا ماجي على كل شيء. شكرًا لمحاولتك تحذيري. سأدفع أي شيء مقابل أن أصحح ما فعلت معك في هاڤرهيل. كنت خائفة منك. هذا ليس عذرًا، ولا يوجد أي عذر لما فعلت. هناك الكثير مما أتمنى لو عاد بي الزمن ولم أفعله. أتمنى لو أن هناك شيئًا أفعله لك لأبدي أسفي. شيء غير الكلمات».

أضاء وجه ماجي كوجه طفل يشاهد طائرة ورقية ترتفع إلى السماء.

---

(1) أحد الأسماء التجارية لدواء يحوي الأوكسيكودون. (المترجمة)

- أوه، أ... أ... ألعن يا ڤيك! س... س... ستجعلينني أبكي! ماذا في العالم قد يكون أ... أ... أفضل من الكلمات؟ إلى ج... ج... جانب هذا، أنت بالفعل تفعلين شيئًا لي، أ... أ... أنت هنا، وأنا سعيدة لوجود شخص أتحدث معه!

- كفاكِ. في أول مرة تقابلنا، أخبرتني أن دراجتي والسكرابل سكينان تقطعان الحجاب بين الواقع والأفكار. أنت مُحقة، لكن ليس هذا فقط ما يقطعانه، بل هما يقطعان في نفسَينا. أعرف أن جسري دمرني.

أشارت إلى رأسها وهي تضيف: «عبرته مرات أكثر من اللازم، فأفسدَ عقلي. أحرقت منزلي وأحرقت حياتي. هذا ما فعلت سكيني بي. أنت أيضًا تعانين اللعثمة...».

- كأنني ق... ق... قطعت لساني بسكيني.

- أعتقد أن الوحيد الذي لم يؤذَ من سكينه هو مانكس.

- أوه، كلا يا ڤيك! لقد أصيب مانكس إ... إ... إصابة أبشع من إصابتينا. لقد نزف حتى جف!

امتصت ماجي الدخان بقوة، فتوهج طرف سيجارتها. أبعدتها عن شفتيها ونظرت إليها مليًّا، ثم أطفأتها في فخذها. فزعت ڤيك وكادت تنهض، لولا دارت بها الحجرة فهوت مرة أخرى إلى مكانها. قالت ماجي عبر أسنانها: «هذا أفضل. أريد أن أتحدث معك، لا أن أغرقك ب... ب... بلعابي. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أجبر السكرابل على قول شيء مفهوم. ماذا كنا نقول؟».

- أوه، ماجي...

- لا مشكلة. لنتحدث سريعًا وإلا سأفعلها مرة أخرى، وكلما كررت ذلك، قل المفعول.

- قلت إن مانكس قد نزف حتى جف.

- أجل... الشبح تحفظ شبابه وصحته، لكنها تسحب منه أي قدرة على الندم أو التعاطف. الإنسانية هي ما بترته سكينه.

- وستقطع الشيء نفسه من ابني. السيارة تغير الأطفال الذين يركبونها إلى أرض الكريسماس. تحولهم إلى مصاصي دماء أو شيء لعين كهذا.

تمايلت ماجي أمامًا وخلفًا، مغمضةً العينين من الألم في فخذها. قالت: «هذا حقيقي. أرض الكريسماس وليدة خيال مانكس، أليس كذلك؟».

- مكان خيالي.

- بل مكان حقيقي. الأفكار حقيقية مثل الصخور. جسرك حقيقي، أنا أعرف هذا. الأعمدة، ألواح الأرضية، السقف... كلها كسوة مُتخيلة لمكان حقيقي. حين غادرت منزل رجل قناع الغاز وجئت إلى هنا، عبرت فكرة تبدو كجسر، وحين يصل مانكس إلى أرض الكريسماس، سيصل إلى فكرة السعادة التي تشبه... تشبه ورشة سانتا كلوز؟

- أعتقد أنها أقرب إلى الملاهي.

- هذا أدق تصور. مانكس لا يعرف معنى السعادة، لقد تحولت في ذهنه إلى تسلية ومتعة لا متناهية فقط، وتجسدت في شكل مجنون، وسيارته هي التي تفتح الباب إليها. التعاسة والمعاناة تمدان السيارة بالوقود الذي يسمح لها باختراق الواقع، وهذا هو السبب الذي يدفعه لاختطاف الأطفال. السيارة تحتاج إلى شيء لم يعد يمتلكه. هو يمتص التعاسة من الأطفال كما يمتص الدم مصاص الدماء.

- وحين ينتهي منهم، يتحولون إلى مسوخ.

- لكنهم يظلون أطفالًا كما أعتقد. أطفال لا يفهمون شيئًا سوى لغة المتعة. لقد تحولوا إلى تصور مانكس عن الطفولة المثالية. هو يريد أن يظل الأطفال أ... أ... أبرياء إلى الأبد، وبراءة الأطفال تتضمن تمزيق أجنحة الحشرات مثلًا لأنهم لا يعرفون شيئًا ولا يمتلكون ضميرًا يؤنبهم. السيارة تأخذ من راكبيها ما تحتاج، وتترك ما يتلاءم وعالم أفكار مانكس. تنتزع أسنانهم وكل رغبة لديهم في الدفء، فعالم من الأفكار الصافية لا بد وأن يكون باردًا. الآن يا ڤيك تناولي دواءك. يجب أن ترتاحي لتستطيعي مواجهته مرة أ... أ... أخرى.

مدت ماجي كفها المفرودة بالقرصين، قالت ڤيك وهي تقاوم ألم ركبتها: «ربما أحتاج شيئًا لرأسي كذلك. أتساءل، لماذا أشعر بألم خلف عيني اليسرى كلما عبرت الجسر؟ يحدث هذا لي منذ طفولتي، حتى إن عيني نزفت في مرة».

- الأفكار الإبداعية تُخلق في النصف الأيمن من المخ، لكن هل تعرفين أن نصف مخك الأيمن يرى من خلال عينك اليسرى؟ لا بد أن قدرًا هائلًا من الطاقة يعبر من مخك إلى عينك، فتؤلمها.

نظرت ڤيك إلى القرصين مترددة.

- هل ستجيبين أسئلتي باستخدام السكرابل؟

- أنت لم تسأليني عن شيء بعد.

- أريد أن أعرف كيف أقتله. هو مات في السجن، لكن موته لم يدُم.

أخذت ڤيك المسكن وعلبة عصير الليمون، وابتلعت الأول بالثاني ثم قالت: «السيارة... الشبح».

- أجل. حين تنتهي السيارة، سينتهي هو. في وقت ما، نزع أحدهم المحرك منها، فسقط هو ميتًا، وحين أعاد المحرك إليها، قام. ما دام السيارة عاشت، سيعيش هو.

- إذًا لو دمرتها، سأدمره.

- أراهن على ذلك.

- حسنًا.

بعد دقيقة أو اثنتين، بدأ مفعول المسكن، أغمضت عينيها وشعرت كأنها تقود دراجتها القديمة في الطريق الظليل. قالت ماجي بلطف: «ڤيك...».

رمشت ڤيك وقد أدركت أنها غفت. سألتها ماجي: «بماذا تريدين أن تسألي السكرابل؟».

- ابني يتحول إلى مسخ... هل يمكنني علاجه حين أصل إليه؟

- لا أعرف. لم يعُد طفل قط من أرض الكريسماس.

- إذًا، اسألي السكرابل، فربما أمكنه مساعدتنا.

هزت ماجي كيس الحروف جيدًا، ثم دست يدها بداخله وأخرجت حفنة من المربعات وضعتها على الأرض.

Xoxoxoxoxo

نظرت إليها ماجي في ضيق وقالت: «هذا هو ما أحصل عليه طيلة الوقت، رموز الأحضان والقبلات».

جمعت ماجي الحروف ودستها في الكيس. قالت ڤيك مواسية: «لا بأس. لا يمكن للمرء الإلمام بكل شيء».

- كلا. حين تذهبين إلى المكتبة بحثًا عن معلومة، يجب أن تجديها.

مدت يدها في الكيس مرة أخرى وأخرجت الحروف ونثرتها على الأرض.

Pppppppppp

- لا تخرجي لي لسانك أيتها الحمقاء!

أعادت القطع إلى الكيس مرة أخرى، ثم دست ذراعها بالكامل حتى الكتف، وسمعت ڤيك صوت مئات القطع ترتطم ببعضها بعضًا. أخرجت ماجي بعض الحروف ونثرتها.

س ل س ل س ل

صاحت ماجي: «سحقًا لي؟! سحقًا لك أنتِ!».

قبل أن تحاول ماجي مرة أخرى، أمسكت ڤيك بذراعها ونظرت إلى عينيها وهي تقول: «سنحاول لاحقًا يا ماجي. لست أنا الوحيدة التي تحتاج إلى راحة. كنت في ماساشوستس الأسبوع الماضي، هل عدت بالحافلة؟».

- أوقفت سيارة في الطريق وركبتها.

- متى آخر مرة أكلت فيها؟

- أ... أ... أمس. ش... شطيرة م... م...

تقلصت ملامحها واحمر وجهها كأنها تُخنق، وتكومت رغوة البصاق عند ركنَي فمها.

- كفى. سأحضر لك شيئًا تأكلينه.

- بعد أن تنامي يا ڤيك.

أومأت ڤيك، وتمددت. لم يعد بها طاقة للجدال مع ماجي.

- ستنامين وسأنام، بعدها سنأكل، ثم نغير ملابسنا، ثم ننقذ وُين وننقذ المكتبة ونحول العالم إلى مكان أفضل بقوة التوأمتين الخارقتين! ارتاحي.

- حسنًا. خذي الأريكة، وأنا لدي غطاء قديم سميك، سأتمدد على ف... ف...

- نامي جواري يا ماجي، هناك متسع.

- ألن يضايقك هذا؟

قالت كأنها تحدث ابنها: «كلا يا عزيزتي».

تمددت ماجي جوار ڤيك، عظامها تجاور عظام ڤيك، وكوعها المدبب يضغط بطنها. سألت ماجي بصوت مرتجف: «هلا عانقتني؟ مر وقت طويل للغاية منذ عانقني أحدهم و...».

عانقتها ڤيك وقالت: «اصمتي الآن...».

- أرحتني من عناء الحديث.

لاكونيا

لم يسمحوا للُو أن يتحرك خشية أن يسقط مرة أخرى. بعد الفحص الطبي، أجلسوه على كرسي متحرك يدفعه ممرض اسمه بيلبو، في عمره نفسه، تحيط عينيه هالات داكنة، موشوم على ذراعه سفينة الفضاء سيرينيتي من مسلسل «الطوَّافة»[1].

قال لُو: «أنا ورقة شجر في مهب الريح».

فقال الممرض: «يا صاح، لا تقل هذا. لا أريد البكاء في أثناء تأدية وظيفتي».

تبعهما دالتري يحمل كيسًا ورقيًّا فيه ملابس لُو. لم يحب لُو رائحة الممرض التي تفوح بالنيكوتين والنعناع، ولا صغر حجمه إذ يبدو كأنه يسبح داخل ملابسه.

سأل دالتري: «عمَّ تتحدثان؟».

- عن الطوافة. نحن من ذوي السترات البنية[2].

- ماذا تعني؟

ضحك دالتري. قال بيلبو بصوت خفيض فلم يسمعه المحقق: «إلهي. يا صاح، عُد إلى الخمسينيات وأرِحنا».

---

(1) Firefly: مسلسل خيال علمي أمريكي إنتاج عام 2002. (المترجمة)

(2) جنود يحاربون لصالح الكواكب المستقلة التي فقدت حلفاءها. (المترجمة)

حجرة النقاهة هي حجرة كبيرة تحوي صفين من الأسرَّة، كل سرير يحيطه ستار أخضر باهت. وصل بيلبو إلى فراش لُو عند نهاية الغرفة على اليمين، ثم قال: «جناحُك الخاص يا سيدي».

نقل لُو جسده إلى الفراش، وأوصله الممرض بكيس من سائل رائق معلق على حامل جواره. سأل لو: «هل المفترض أن أخاف؟».

- من القسطرة؟ لا. من الناحية الطبية، هي أصعب قليلًا من خلع ضرس العقل. لا تقلق.

- لا أتحدث عن القسطرة، بل عن السائل الذي توصله بعروقي؟ ما هو؟

- لا شيء. لن تجري العملية اليوم. هذا عقار مسيل للدم. يجب أن تسترخي.

- هل سأنام؟

- سريعًا، كأنك قد تناولت أحد عقاقير الدكتورة كوين[1].

وضع دالتري ملابس لُو على الفراش جواره، مطوية يعلوها ملابسه الداخلية في حجم كيس الوسادة. سأل: «إلى متى سيظل هنا؟».

- سيظل هنا ليلة تحت الملاحظة.

- ليس هذا وقتًا مناسبًا...

- ضيق الشرايين مزعج، لا يتصل قبل مجيئه. يحل على أي حفل يشاء وقتما يشاء.

أخرج دالتري هاتفه المحمول من جيبه، فقال بيلبو: «لا يمكنك استخدام هذا هنا».

- أين أستخدمه؟

- خارج قسم الطوارئ.

أومأ دالتري ورمق لُو محذرًا وهو يقول: «لا تذهب إلى أي مكان يا سيد كارمودي».

(1) يقصد مسلسل الغرب الأمريكي Dr. Quinn, medicine woman، يحكي مغامرات طبيبة في مكان ناءٍ لا يألف أهله الأطباء من النساء. (المترجمة)

خرج الرجل، فسأل لُو: «لو احتجت أن أجري مكالمة، ماذا أفعل؟ هل سمعت عما حدث لابني يا رجل؟ يجب أن أتصل بأبويَّ، لن يتمكنا من النوم ما لم أطمئنهما».

هو يكذب، فلو أنه اتصل بأمه وأخبرها عن وُين، فلن تعرف عمن يتحدث، هذا لو عرفت لُو من الأساس. قال بيلبو: «يمكن أن أهرِّب لك هاتفًا عاديًّا نوصله بالقابس جوار الفراش. استرخِ، وسأعود لك خلال خمس دقائق».

أغلق بيلبو الستار، ورحل. لم ينتظر لُو، فقد عاد الشاب الذي أنقذ ڤيك النحيلة على دراجته البخارية، وشعر بذراعيها ترتجفان حول جذعه. نزع الأنبوب المتصل بوريده.

ما إن دارت به الدنيا عقب اتصال ڤيك، وهو يحمل هم ما سيحدث لها ولابنه. سأل الطبيبة وقتها إن كان يمر بأزمة قلبية، لأنها تبدو أخف مما كان يظن. أجابته أنها ليست أزمة قلبية، بل قصور مؤقت بالدورة الدموية المخية. بمعنى آخر، جلطة صغرى. أخبرته كذلك أن تلك الجلطة الصغرى ناتجة عن طعامه المملوء بالدهون، وأنه سيحتاج إلى قسطرة، وربما دعامة كي لا تهاجمه نوبات أخطر.

جذب لُو الكيس البني وأخرج ملابسه التحتية فارتداها تحت رداء المستشفى. رغم ما كان يمر به، فقد فهم أن هناك تلميحًا في كلمات ڤيك، وقد فهمه.

اسمعني يا لو. يجب أن أقابل من يحضر لي «أنفو». لو جاءني به، فسأمحو عالم مانكس من على الخريطة.

كلٌّ من كان يسمع ڤيك لم يفهم ما قالت، أو على أقصى تقدير قد فهموا أنها تتحدث عن كسر أنف مانكس، أو لَي ذراعه بشيء يذله، لكن لُو كان يعرف كيف ينصت إلى كلامها ويفهمه.

خلع لُو رداء المستشفى وارتدى قميصه.

يعرف لُو أن والد ڤيك ذو معرفة كبيرة بالمتفجرات، وكان يعرف أنها تحبه وتشتاق إليه رغم القطيعة بينهما منذ سنوات، ورغم كل ما قالت عنه من مساوئ.

ڤيك ستذهب إلى أبيها، وهي تريد أن يكون هناك حين تصل، وإلا لما لمَّحت له عن خطتها.

أخرج لُو رأسه من بين الستائر، فلم ير إلا ممرضة وطبيبة تنظران إلى الجهة الأخرى، فحمل حذاءيه وتسلل عبر الباب ومنه إلى الخارج.

ركب أول سيارة أجرة قابلته، سأله السائق: «إلى أين».

كاد يجيبه: «إلى السجن»، لكنه قال: «إلى محطة القطار».

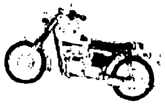

رأى الممرض بيلبو برنس سيارة الأجرة تبتعد. أخذ رقمها ثم هرع إلى استقبال الطوارئ حيث وجد دالتري يدخن سيجارة.

- لقد رحل كما توقعت أنت. ركب سيارة أجرة ورحل.

- لديك رقم السيارة؟

أخبره الممرض بالرقم، فأومأ دالتري ثم ضغط زرًّا واحدًا فيه، ووضعه على أذنه، وقال: «هو يتحرك. أمرت هَتر أن تراقبه فقط، لذا اكتفِ بالمراقبة ولنرَ إلى أين سيذهب، ولا تتدخل إلا إذا حاول الوغد السمين شيئًا أحمق».

أغلق دالتري الخط ووأد السيجارة، ثم هرع إلى ساحة الانتظار. تبعه الممرض وربت على كتفه، فاستدار المحقق.

- أين «عربون المحبة»؟

أخرج دالتري عشرة دولارات ووضعها في يد بيلبو، لكن الأخير لم يبدُ راضيًا وأراد أن يُلقيها في وجهه، توقع عشرين دولارًا على الأقل. ثم فكر في المال الذي كاد ينفد من جيبه، فابتلع حنقه.

هير، آيوا

حين استيقظت ماجي، وجدت أن ڤيك نائمة على صدرها بينما هي تلف ذراعها حول خصرها. تمنت ماجي لو أن معرفتهما تدوم أكثر فتتحدثا عن أمور أفضل من تشارلي مانكس. لم ترد ماجي أن تتحدث، بل تسمع؛ هي تكره لحظات الحوار التي تضطر فيها إلى أن تتكلم.

ابتعدت ماجي عن ڤيك برفق، وقررت أن تحاول مع السكرابل مرة أخرى. أشعلت سيجارة وشمعة، ثم فكَّت الحبل الذي يربط الكيس. تأملت الظلام لحظات وهي تمتص دخان السيجارة. الوقت قد تأخر وجاء موعد المخدرات، لكنها لن تفعل هذا قبل أن تُنهي ما طلبت ڤيك.

رفعت قميصها وكشفت عن ثديها الأيسر، ثم دست عقب السيجارة المشتعل فيه، وأنَّت من بين أسنانها وهي تشم رائحة الاحتراق.

ألقت السيجارة بعيدًا ومالت على المكتب تنظر بعينين دامعتين. الألم حاد قاسٍ رائع... مقدس.

لديها دقيقة أو اثنتان من الألم تستغلهما في سؤال السكرابل. أخرجت ملء كفها من القطع المربعة ونثرتها أمامها، ثم حركتها وبدلت أماكنها مرات ومرات. لقد لعبت هذه اللعبة طيلة حياتها، والآن طاوعتها وأفشت السر.

حين رأت الإجابة، زفرت زفرة ارتياح كأن ثقلًا قد أزيح عن كتفيها. ليس لديها فكرة عن معنى الرسالة أمامها، لكنها متأكدة أنها دقيقة، كما يتأكد المرء أن المفتاح يلائم القفل من صوت التكَّة. ربما تستطيع ڤيك استخلاص معنى. ستسألها حين تستيقظ.

نقلت الرسالة إلى ورقة تحمل شعار المكتبة. قرأتها مرة أخرى وشعرت بفخر.

أعادت السكرابل إلى كيسه. ثديها يؤلمها، لكن لا يهم. أشعلت سيجارة أخرى، لا لأجل الألم، بل لأجل التدخين.

دخل طفل إلى قسم الأطفال، ورأته عبر زجاج حوش الأسماك المغبر، يحمل عصا وميض يُديرها بذراعه فتقذف الشرر الصغير في كل صوب وترسم دوائر حمراء في الظلام. دار في المكان لحظات، ثم خرج. فكرت ماجي في أن تطرق على الحوض فتفزعه، الدخلاء يفسدون المكان. في مرة خرجت كالمجنونة من مكتبها تتعقب مجموعة مراهقين تسللوا لحرق كومة كتب. تذكرت أن ڤيك نائمة، فتراجعت.

قبلت صدغ ڤيك قبل أن تخرج بهدوء إلى مكتبة الأطفال، وتعبر المكان الرطب الذي غزاه العطن وسكنته الطيور فنثرت فيه فضلاتها وريشها. لاحظت في منتصف القاعة أنها ما زالت تحمل كيس السكرابل ولم تُعِده إلى درج لمكتب. حمقاء.

سمعت صوتًا أقرب إلى ذوبان الزبد في مقلاة ساخن. نظرت إلى يمينها نحو المكتب الذي كان مزينًا في الماضي بكتب الأطفال الشهيرة. رأت وهجًا مصفرًّا يظهر من جهة القاعة الرئيسية.

الولد يقف وسط القاعة الكبيرة، يحمل العصا التي تقذف الشرر في يد، وفي اليد الأخرى علبة معدنية، وشمَّت رائحة طلاء.

قال بصوت جهوري غريب وهو يضحك: «نفسي أتمالك أن يمكنني لا...».

- ماذا تقول؟ اخرج من هنا أيها الصبي.

هز رأسه، وهرب منها في الظلام. هو ابن الظلال، يتحرك وسطها كما تتحرك شخوص الأحلام، يضيء دربه بمشعل اللاوعي. تمايل ثملًا، وميزت ڤيك رائحة البيرة من مكانها.

- مهلًا!

اختفى في مكان ما، وسمعت صدى ضحكاته. وفي عتمة المكان الذي اختبأ فيه، رأت وهج النار.

جرت فوق المحاقن والزجاجات التي تغطي الأرض، عبرت النوافذ المغطاة التي ينفذ الضوء من ثقوب بها. رأت على أحد الحوائط رسالة كتبها أحدهم:

الرب احترق حيًّا، غير مسموح إلا بوجود الشياطين.

الطلاء ما زال رطبًا، يقطر لونًا أحمر كأن الحائط ينزف.

اتجهت سريعًا نحو حجرة الوثائق، وهي حجرة ضخمة ذات سقف عالٍ، تعج بالمجلات والصحف الجافة المجعدة النتنة من أثر الماء. وفي الركن رأت سلة مهملات معدنية قد أشعل الوغد الصغير محتوياتها، ووسط النيران لمحت نسخة من رواية 451 فهرنهايت تحترق وتتوهج.

نظر إليها الصبي عبر القاعة ومدخلها المقوس. صاحت: «مهلًا! القذر الصغير!».

قال وهو يقفز من جهة إلى جهة: «الأوان فات لكن، استطاعتي قدر أحاول أنا. تتبعيني لا. رجاءً، رجاءً، رجاءً».

لم تكن تسمع، لم تستطِع أن تسمع ما قال أو تفهم منه شيئًا. بحثت حولها حتى وجدت كيس نوم يفوح برائحة القيء، فحاولت أن تطفئ به النار بعدما دست كيس السكرابل تحت إبطها. كادت تختنق من رائحة الاحتراق والدخان.

حين انتهت أخيرًا، كان الصبي قد اختفى.

- اخرج من مكتبتي أيها اللعين الصغير! اخرج قبل أن أمسك بك!

ضحك، ولم تميز مكانه. ضحكته متهدجة، رنانة، لا يمكن تعقبها، كصوت رفرفة أجنحة طير يحلق تحت سقف كنيسة مهجورة. خطر ببالها العبارة المكتوبة بالأحمر...

الرب احترق حيًّا، غير مسموح إلا بوجود الشياطين.

كانت ماجي في منتصف القاعة حين انطلق الصاروخ، فصرخت، وانحنت تختبئ كجندي تحت القصف، وجرت نحو القاعة الرئيسية في الوقت الذي

ارتطم فيه الصاروخ بالسقف ثم هوى إلى الأرضية الرخامية، وانفجر مُطلِقًا زخات من شرارات ذات لون زمردي.

المخبول الصغير هنا كي يحرق المكان.

ارتطم صاروخ آخر بالجدار خلفها، فصرخت من الألم الحاد الذي شعرت به في ذراعها. الصبي يجري في حجرة القراءة، يضحك ساخرًا مستمتعًا.

طاردته ماجي غاضبة، ولم يستطع أن يهرب من الباب الأمامي المغلق بالجنازير. عدا نحو باب الحريق الموارب، المفضي إلى ساحة انتظار السيارات، فتبعته. لا تعرف ماذا ستفعل به إن سقط بين يديها، وجزء من نفسها كان يخشى ما ستفعل.

بوصولها حجرة القراءة، رأت الباب الموارب يغلق، فسبَّت وانطلقت إلى الخارج.

يضيء الساحة عمود إنارة وحيد يضيء منتصفها، أما الأطراف فمظلمة تمامًا. وقف الصبي خارج حدود الضوء، يمسك عصاه المشتعلة في يده، يلوح بها جوار مستودع كتب قديمة.

صاحت ماجي: «هل فقدت عقلك اللعين؟!».

- أراك من خلف نافذتي السحرية!

رسم دائرة مشتعلة حول وجهه وهو يردف: «والآن، رأسك يحترق!».

- أ... أ... أنت أضرمت النار في المكان، وربما يؤذى أحدهم!

تهدجت أنفاسها وارتجف جسدها. أمسكت كيس السكرابل بيدها المبتلة عرقًا وعبرت الساحة نحوه، ومن خلفها أُغلِق باب طوارئ الحريق. اللعنة.. الصبي قد أزال الحجر الذي كان يمنعه من الانغلاق. عليها أن تدور حول المكتبة إلى الباب الخلفي كي تدخلها.

- أترين! يمكنني أن أكتب باللهب!

حرَّك طرف العصا بسرعة، فخلَّف الضوء خطوطًا منحنية تُمثل حروفًا تنبض في الهواء.

ا

ه

ر

ب

ي

سألت غير واثقة بما قرأت: «من أنت؟».

- انظري! يمكنني أن أرسم بلورة ثلج! يمكنني أن أصنع الكريسماس في يوليو!

ورسم بلورة ثلج. اقشعر جسد ماجي وتحول جلدها إلى ما يشبه جلد الإوزة.

- وُين؟

- نعم.

- أه! إلهي!

أضاء كشافان خلف مستودع الكتب القديمة، وانطلقت سيارة عتيقة سوداء تبينتها بصعوبة وسط الظلام. صاح صوت من خلف الكشافين: «مرحبًا! يا لها من ليلة جميلة تصلح للنزهة! تعالي يا سيدة مارجارِت لي! اسمك مارجارِت لي، أليس كذلك؟ تشبهين صورتك في الجرائد!».

ضيقت ماجي عينيها أمام الضوء الباهر. تهيب بنفسها أن تهرب من الساحة، لكن قدماها ملتصقتان بالأرض. باب طوارئ الحريق مغلق على أي حال.

خطر لها أن ما تبقى من حياتها لن يزيد على دقيقة. تساءلت إن كانت مستعدة للرحيل. انطلقت الأسئلة في عقلها كالسهام، وصار من المستحيل أن تجلي تفكيرها.

هو لا يعرف *أن ڤيك هنا.*

اهربي بالصبي...

لماذا لم يهرب وُين؟

لأنه لم يعد يستطيع. لأنه لا يعرف أن في وسعه الهرب. أو أنه يعرف، لكن لا يستطيع التنفيذ.

لكنه أمرها أن تهرب، وكتب ذلك باللهب في الظلام. ربما حاول تحذيرها في المكتبة أيضًا.

سألت ماجي غير قادرة على تحريك قدميها: «سيد مانكس؟».

- لطالما كنت تبحثين عني طيلة حياتك يا سيدة لي! حسنًا! ها أنا ذا أخيرًا! واثق أن لديك أسئلة كثيرة لي، وتعرفين أن لدي أسئلة كثيرة لك! تعالي اجلسي معي. تعالي وتناولي الذرة!

- دع ال... ال...

عجزت ماجي عن استكمال عبارتها. أرادت أن تطلب منه أن يدع الصبي، لكن لعثمتها منعتها. صاح مانكس: «ه... ه... هل أكلت القطة ل... ل... لسانك؟!».

- سحقًا لك!

السين حرف صعب، لكنه خرج منها هذه المرة بطلاقة.

- تعالي هنا أيتها الغانية النحيلة. اركبي معي، أو أركب وسيارتي فوقك. هذه فرصة أخيرة.

شهقت، وشمت رائحة الكتب القديمة التي جففت شمس يوليو بللها. شهيقًا واحدًا لخص حياة كاملة. لا يوجد ما يقال لمانكس. أدارت وجهها نحو وُين وقالت: «اهرب يا وُين! اهرب واختبئ!».

انطفأت الشظايا التي تخرج من عصاه، وخلفت وراءها خيطًا من دخان. قال وهو يسعل: «لماذا أفعل ذلك؟ آسف. نحن ذاهبان إلى أرض الكريسماس الليلة! سنحظى بالمزيد من المتعة! آسف أنا».

سعل مرة أخرى، ثم هتف: «لماذا لا تهربين أنت؟! ستكون هذه لعبة ممتعة! نفسي في التحكم أستطيع لا!».

دارت العجلات صارخة فوق الأسفلت، فانفك وثاق قدميها، وانطلقت تجري عبر الساحة نحو وُين، منتويةً أن تحمله وتهرب به إلى الغابة حيث الأمان.

عبرت من أمام الشبح، فزأرت السيارة واندفعت نحوها. لم تكن تقصدها، بل تعبر من جوارها، ومانكس يخرج جذعه من النافذة المفتوحة. الرياح تبعد شعره عن جبينه، فتكشف عن عينيه المجنونتين المنتصرتين المستمتعتين. في يده اليمنى مطرقة فضية ضخمة.

لم تشعر بالمطرقة تضرب عنقها من الخلف. سمعت صوت تهشم، ورأت وميضًا، وطارت قبعتها كطبق طائر. ظلت ساقاها تعدوان، وحين نظرت إليهما فطنت إلى أنها تجري على الهواء، لقد أطارتها الضربة من فوق الأرض.

ارتطمت ماجي بالسيارة وهي تسقط، ثم دارت وهوت على الأسفلت جوار الرصيف.

عجزت عن تحريك رقبتها أو رأسها. ساقها اليسرى مثنية إلى الخارج بطريقة غير مألوفة. تمزق كيس السكرابل وتقيأ حروفه. رأت حرف «ف» و«م». فم؟ *هل تعرفين أنك تموتين يا سيدة لي؟ أغلقي هذا الفم إذًا.*

سعلت سعلة أقرب إلى ضحكة، فخرج من فمها فقاعة وردية. متى امتلأ فمها بكل هذه الدماء؟

وقف وُين وسط الساحة يطوح ذراعيه أمامًا وخلفًا، يبتسم فيكشف عن صفين من الأسنان المعقوفة اللامعة، والدموع تغرق وجهه.

مسح الدموع بظهر كفه وهو يقول: «شكلك مضحك!».

توقفت السيارة على بعد عشرة أقدام، وانفتح باب السائق، وتردد صدى وقع الحذاءين الثقيلين.

- لا يوجد ما يضحك في سقوطها هكذا بعد أن ارتطمت بالشبح. لقد انبعج جانب السيارة! لكن المهم أن هناك انبعاجًا أكبر في جسد هذه العاهرة. عد إلى السيارة يا وُين، يجب أن نسرع إن كنا نريد أن نبلغ أرض الكريسماس قبل الشروق.

ركع وُين على ركبة واحدة جوارها، وقد خلفت دموعه أثرًا أحمر اللون على خديه الباهتين.

تخيلت ماجي أنها تخبره أن أمه تحبه، لكن ما خرج منها لم يكن إلا فقاعات مدممة. حاولت أن تخبره بعينيها أنها تريد استعادته. مدت يدها نحوه، فأخذها بين يديه وقال: «آسف أنا. نفسي في أتحكم أن أستطع لم».

همست: «لا بأس...».

ولم يخرج عنها أي صوت. أمسك وُين يدها وقال: «ارتاحي. ارتاحي هنا واحلمي بشيء جميل. احلمي بأرض الكريسماس!».

قام واختفى عن عينيها، ثم سمعت صوت باب سيارة يُفتح ثم يُغلق. انتقلت عينا ماجي إلى حذاءَي مانكس حيث يقفان فوق السكرابل. رأت حروفًا تكوِّن كلمة «ترين». *لقد كسر عنقي، فماذا قد أرى بعد ذلك؟!*

وابتسمت مرة أخرى.

قال مانكس بصوت يتهدج كراهية: «لماذا تبتسمين؟ لا يوجد ما تبتسمين له! ستموتين، وسأحيا! كان يمكن أن تحيي يومًا آخر لولا عنادك. ثمة ما أريد معرفته... مثل: مَن يعرف عني سوى ڤيك؟ أردت أن... لا تنظري بعيدًا وأنا أكلمك!».

أغلقت عينيها. هي لا تريد أن ترى ذلك الوجه الغبي الذي يطل عليها من أعلى. وضع قدمه فوق معدتها وضغط. لو كان هناك عدالة في هذا العالم لما شعرت بشيء، لكنها شعرت، وصرخت. من قد يتصور أن أحدًا قد يتحمل ألمًا كهذا دون أن يفقد الوعي؟

- اسمعي. لم يكن مفترضًا أن تموتي بهذه الطريقة! لست مجرمًا! أنا صديق الأطفال، ولا أوذي إلا من يحاول منعي مما أفعل! ما كان لك أن تقفي أمامي، وانظري ماذا حدث لك نتيجة ذلك؟! سأحيا إلى الأبد، وكذا الصبي. سنعيش حياة هانئة بينما تتحولين أنت إلى تراب في صندوق، و...

الآن فهمت ما ترمي إليه الحروف. فهمت فصدر عنها صوت مكتوم وتناثرت الدماء من فمها على حذاء مانكس، لكن الصوت كان واضحًا، صوت ضحكة. تراجع مانكس خطوة كأنها حاولت أن تعضه.

- ماذا يضحكك؟! ما الذي يضحكك في موتك ونجاتي؟ سأبتعد ولن يوقفني أحد، وستموتين هنا، فما الذي يضحكك؟!

حاولت أن تخبره، وحركت شفتيها لتنطق الحروف، لكن لم يصدر صوت إلا الأزيز. لقد فقدت كل قدرة على الكلام، وارتاحت لهذا.

لا مزيد من اللعثمة. لا مزيد من محاولات إيضاح الكلام بينما يعند معها لسانها.

ركل مانكس الحروف التي يقف فوقها، فتناثرت، لكنها تظل حروف كلمة واحدة محددة:

تِريَمف.

ابتعد، ولم يتوقف إلا مرة واحدة ليأخذ قبعتها، وينفضها ثم يضعها على رأسه. ركب سيارته وشغَّل أغنية كريسماس يترنم بها صوت ذكوري.

تحركت السيارة، واسترخت ماجي.

تِريَمف... خمس وأربعون نقطة لتكوين كلمة صعبة كهذه. تِريَمف... وستنتصر ڤيك.

شاطئ هامبتن، نيو هامبشير

دفعت ڤيك باب مطعم تيري بريمو، حيث الهواء الدافئ الثقيل الرطب، ورائحة حلقات البصل المقلية.

بيت العجوز الطيب خلف الكاونتر، بشرته محترقة من الشمس.

- أعرف لماذا جئت.

مد يده تحت الكاونتر وقال: «لدي شيء يخصك».

- كلا. لا أريد سوار أمي اللعين. أنا أبحث عن وُين. هل رأيت وُين؟

أصابتها الحيرة حين وجدت نفسها في مطعم تيري، تقف تحت شرائط صيد الذباب. عجز بيت عن مساعدتها في العثور على وُين. هي تضيع وقتها هنا بينما المفترض أن تبحث عن الصبي.

علا صوت صافرة سيارة شرطة في الحارة الخلفية. ربما رأى أحدهم الشبح. ربما وجدوا ابنها.

قال بيت: «كلا. لا أتحدث عن السوار. هناك شيء آخر».

وأخرج مطرقة فضية يلوثها الدم وخصلات شعر رأسها.

شعرت ڤيك بالحلم يضيق من حولها. صاحت: «كلا، لا أريدها. ليس هذا ما جئت لأجله. لا فائدة منها».

توقف صوت صافرة الشرطة فجأة. لم يكن بيت هو الواقف خلف الكاونتر، بل تشارلي مانكس. وضع يديه على مقبض المطرقة وقال: «بل لها فائدة».

كان يرتدي زي الطهاة الأبيض، فوق مريول أبيض مبقع بالدم.

- والمطارق الجيدة تظل جيدة، مهما هشمت بها رؤوسًا.

رفع المطرقة، فصرخت ڤيك وتراجعت عنه خارجة من الحلم.

الواقع

استيقظت ڤيك وأدركت أن الوقت قد تأخر، وأن هناك شيئًا غير طبيعي.

سمعت أصواتًا بعيدة، مكتومة، وميزت أن المتحدث ذكر، لكنها لم تميز ما يقول، وشمت رائحة احتراق فسفور.

قامت من رقادها كي ترحل سريعًا، وأدركت أنها نامت بكامل ملابسها، وأن ركبتها متورمة وصارت في حجم ركبة لُو.

ثمة شمعة تحترق في الظلام، صورتها منعكسة في حوض السمك القذر. هناك رسالة على المكتب يبدو أن ماجي قد تركتها لها. أرادت ڤيك تعليمات واضحة تساعدها على العثور على وُين، وعلى علاج ركبتها ورأسها وحياتها كلها، بدلًا عن ذلك وجدت عبارة:

«سأذهب إلى مطعم البومة الليلة لأشتري حساء رامين. سأعود سريعًا. قبلاتي».

سمعت ڤيك الأصوات مرة أخرى. أحدهم ركل عبوة بيرة في مكان قريب. هم يتحركون نحوها، يقتربون. لو لم تطفئ الشمعة، فقد يهتدون إلى مكانها، لكنها فطنت كذلك إلى أن الأوان قد فات بعدما سمعت زجاجة تتهشم تحت ثقل حذاء.

حاولت أن تتحرك سريعًا، آلمتها ركبتها وهوت. كتمت صرختها، وحاولت أن تقف مرة أخرى لكنها عجزت عن ذلك. جرَّت نفسها على الأرض حتى استطاعت أن ترتكن إلى المقعد والمكتب وترفع نفسها. الرجال في الحجرة المجاورة، لم تصل أضواء كشافاتهم إلى حوض الأسماك بعد، وأملت ألا

يكونوا قد ميزوا ضوء الشمعة الخافت. مالت تطفئ الشمعة، فوجدت نفسها تنظر إلى رسالة مكتوبة على ورقة من أوراق المكتبة.

«حين تسقط الملائكة، يعود الأطفال إلى بيوتهم»

الورقة مجعدة من أثر قطرات مطر قديمة، كأن أحدهم قد قرأ الرسالة من قبل وبكى.

سمعت ڤيك صوتًا يصيح: «هناك، ثمة ضوء هناك».

تبع ذلك صوت لاسلكي يشوِّش، وأحدهم ينطق برسالة مشفرة بالأرقام، هناك 10-57 في مكتبة عامة. ستة ضباط بالموقع وضحية واحدة.

مالت ڤيك على الشمعة لكن أوقفتها عبارة «ضحية واحدة»، ونسيت ما كانت تنتوي فعله. تحرك الباب خلفها واحتك الخشب بالأحجار مُزيحًا في طريقه زجاجات ملقاة على الأرض.

قال صوت من ورائها: «من فضلك يا سيدتي، تقدمي ومدي يديك إلى حيث نراهما».

التقطت ڤيك ثقالة الورق على هيئة مسدس، واستدارت بها تشير نحو صدره وهي تقول: «كلا».

يقف عند الباب رجلان، لا يحملان أسلحة ظاهرة. شابان سمينان هما، أحدهما يبرز كشافًا قويًا، والآخر ما زال واقفًا في مكتبة الأطفال خلفه.

صرخ صاحب الكشاف: «معها سلاح!».

صاحت ڤيك: «اخرس وقف حيث أنت، وأنزِل هذا الكشاف اللعين عن عيني!».

أنزله الشرطي، فسقط على الأرض وانطفأ فورًا. وقف الثلاثة في ضوء الشمعة المتراقص. هذان شابان في مقتبل العمر، ربما التحقا بالشرطة ليحصلا على مخفوق حليب من مَكدونالدز مجانًا.

- مَن مات؟

قال الشاب بصوت رفيع كأصوات المراهقين: «أنزِلي السلاح يا سيدتي. لا نريد أن يصاب أحد الليلة».

اختنق صوتها عند حافة الصراخ وهي تقول: «من مات؟ تقولون إن هناك ضحية. أخبرني الآن».

أجاب الشاب بالخلف وهو يفعل شيئًا بيديه، على الأرجح يخرج مسدسه، لكن لا يهم هذا الآن: «امرأة. بلا هوية».

- ما لون شعرها؟

سأل الشاب الأقرب: «هل تعرفينها؟».

- ما لون شعرها اللعين؟

- أقرب للبرتقالي. هل تعرفينها؟

رأت السلاح في يد الشرطي، فلم تتحرك. من الصعب أن تستوعب حقيقة أن ماجي ماتت. منذ لحظات كانتا ممددتين على الأريكة، ودفء جسدها يدفئ ڤيك. كيف ابتعدت وهي نائمة وذهبت لتموت في مكان آخر؟

منذ أيام كانت تسبها وتهددها بالاتصال بالشرطة، والآن ڤيك تنام في سلام بينما ماجي تموت في الشارع.

- كيف ماتت؟

- يبدو أن سيارة صدمتها. بربك أنزلي السلاح ولنتكلم.

- لا داعي.

أطفأت الشمعة، وأسدلت ستائر ال...

الظلام

لم تحاول ڤيك الهرب، ربما حاولت الطيران.

تراجعت إلى الحائط والشرطيان أمامها. الظلام مُطبق، حالك. تصايح الشرطيان في الظلام، وسمعت صوت قرعات أحذية على الأرض. يبدو أن أحدهم قد دفع الآخر من دون قصد.

طوحت ثقالة الورق عبر الحجرة، فارتطمت بالأرض. تبعا الصوت فتعثر أحدهما بالمكنسة عند الركن. تراجعت بحذر حتى شعرت بدرجات تحت قدميها.

لو اضطررت إلى الهرب سريعًا، مثل أن تهربي من الشرطة مثلًا، تذكري: ظلي على اليمين واهبطي الدرجات. هذا هو أسرع مخرج.

تذكرت أن ماجي أخبرتها بذلك، ولا تذكر متى. ثمة مخرج من هذا الظلام عند نهاية الدرجات غير معلومة العد.

قفزت درجة، فنزلت فوق كتاب مبلل وكادت تنزلق. استندت إلى الحائط وأكملت طريقها إلى أسفل. تهدجت أنفاسها من الألم. ماجي ماتت، لكن دموعها جافة. رغبت ڤيك أن يسدل موت ماجي الهدوء والسكينة على المكتبة، كما رغبت هي طيلة حياتها، لكن المكان يعج بأفراد الشرطة، وضوضاء لهاثها وضربات قلبها وأنينها المكتوم.

بعد عشرات الدرجات، رأت ضوء الليل بالخارج يتسلل عبر باب المكتب الخلفي الموارب. اقتربت منه ببطء متوقعة أن يكون خلفه عشرات الضباط وسيارات الشرطة، لكنها لم تجد أحدًا سوى نهر سيدَر يجري وجواره دراجتها

البخارية حيث تركتها، وتوقعت أن ترى وراءها جسر الطريق المُختصر، لكنه لم يكن هناك.

رفعت الشرائط الصفراء وخرجت، لم تر سوى أضواء سيارات الشرطة على مبعدة. ركبت الدراجة وشغلت المحرك. انفتح الباب الخلفي وخرج الشرطي يمزق الشرائط ويندفع نحوها وهو يرفع مسدسه.

دارت بالدراجة متحركة بسرعة خمسة أميال في الساعة. هي لم تعثر على الجسر قط وهي بهذا البطء. وجوده مسألة سرعة وفراغ عقلي يساعدها على خلقه.

صاح الشرطي: «لقد هربت بالدراجة البخارية!».

قادت تِريَمف على الطريق الضيق خلف المكتبة، وانتقلت إلى السرعة الثانية صاعدة التل، ثم دار بها الطريق البعيد إلى مدخل المكتبة الأمامي المزدحم بسيارات الشرطة. التفت الرجال في الزي الأزرق نحوها حين سمعوا صوت المحرك القوي. بعض سكان البلدة الفضوليين متحلقون حول المشهد يطمعون في رؤية المزيد من الدماء.

انطلقت نحو الطريق المنحدر الذي جاءت منه، وانتقلت إلى السرعة الثالثة، أربعين ميلًا في الساعة، مندفعة نحو النهر.

- اظهر أيها اللعين! لا وقت لدي!

انتقلت إلى السرعة الرابعة عائدة إلى حيث المقعد خلف المكتبة، والشرطي الواقف هناك. تدور في دوائر علَّ الجسر يظهر حيث كان. تمنت لو تسقط في النهر وتغرق. هذا أفضل من أن تعيش باقي حياتها مسجونة، تعرف أن وُين يحيا في أرض الكريسماس.

أغلقت عينيها وظلت تغمغم: «سحقًا، سحقًا، سحقًا!»، ربما هذه هي الصلوات الوحيدة التي تعرفها وتنطقها من قلبها. غاصت عجلات تِريَمف في الوحل، وتعالى صوت خرير النهر، ثم صوت العجلات تضرب ألواح أرضية خشبية. فتحت عينيها لتجد نفسها في ظلام جوف جسر الطريق المُختصر العفن.

عبرت ڤيك جوار دراجتها القديمة المغطاة بخيوط العنكبوت، وعرفت أن نهاية الجسر قادمة. جذبت المكابح التي تعمل فأبطأت الدراجة ودارت حول نفسها وهي تخرج إلى غابة رطبة في مكان ما.

لم يكن هناك مطر، لكن المكان مبلل. أوقفت الدراجة وأسندتها. نظرت إلى الجسر ونهايته البعيدة التي تُظهِر المكتبة والشرطي الذي ينظر في حيرة إلى حلق الجسر، ويفكر في عبوره.

أغمضت ڤيك عينيها وأخفضت رأسها. عينها اليسرى تؤلمها كأن رصاصة معدنية مغروزة فيها.

- اختفى!

صدح صوت قرقعة عالية، وفاحت رائحة الأوزون في الهواء، وانطلقت موجة تضاغطية كادت تقذفها ودراجتها بعيدًا. الجسر قد اختفى تاركًا خلفه أشجار الصنوبر العالية المبتلة بماء المطر.

تساءلت ڤيك عما حدث للشرطي عند الجانب الآخر. هل وضع قدمه على بداية الجسر، أم قُذف بعيدًا عند اختفائه. ماذا قد يحدث إن كان جزء منه قد عبر الجسر؟

- لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك الآن.

التفتت ڤيك تفحص ما حولها بدقة للمرة الأولى. كانت خلف منزل خشبي من طابق واحد، مطبخه مضاء. على الجانب الآخر ممر غير معبَّد يؤدي إلى الطريق. لم تر هذا المكان من قبل، لكنها متأكدة أنها تعرفه.

انفتح الباب الخلفي وظهر رجل نحيل ينظر إليها عبر الباب السلكي، ممسكًا كوب قهوة. لم تكن ترى وجهه، لكنها عرفته فورًا من هيئته حتى لو كانت لم تره منذ أكثر من عشر سنوات.

هي عند منزل أبيها أخيرًا، منزل كريس مَكوين.

دوفر، نيو هامبشير

فرقعة مدوية، أزيز إلكتروني، هدير استاتيكي.

ألقت تابيثا هَتر سماعتها، وأجفل دالتري جوارها، وتقلص وجهه ألمًا، لكنه لم ينزع سماعته. سألت هَتر كَندي: «ماذا حدث؟».

كان خمستهم جالسين في سيارة تحمل علامة الصحافة، على بعد مائة قدم من منزل كريستوفر مَكوين. هناك فرق أخرى موزعة في الغابة حول كوخ مَكوين، تسجل وتلتقط الأصوات وتبثها إليها، حتى دقيقة مضت. تراقب هتر الطريق على شاشتَي مرقاب تدعمان الرؤية الليلة، والآن لا تُظهر الشاشات سوى تشويش أخضر.

اختفت الصور في اللحظة نفسها التي انقطع فيها الصوت. في لحظة كانت هَتر تسمع لُو كارمودي يتحدث مع كريس مَكوين بصوت منخفض في المطبخ، وفي اللحظة الأخرى اختفى صوتاهما وانطلق التشويش المزعج.

قال كَندي وهو يضغط أزرار حاسوبه المحمول الذي اسودت شاشته: «لا أعرف. كل شيء تعطل. كأننا ضربنا بنبضة كهرومغناطيسية ابنة زانية».

كَندي مضحك حين يسب. هو رجل أسود ذو لكنة بريطانية يحاول جاهدًا أن تكون لكنة شوارع.

نزع دالتري سماعته ونظر إلى ساعته وضحك، ضحكة لا علاقة لها بالسعادة. سألته هَتر: «ماذا؟».

أبرز دالتري ساعته العتيقة مقشرة الطلاء، فرأت هَتر عقرب الثواني يدور بسرعة إلى الخلف، والعقربين الآخرين ثابتين.

- قُتلت ساعتي. هل تفعل النبضة التي قلت عنها كل هذا؟ تفسد أجهزتكم الإلكترونية وساعتي؟

- لا أعرف ما الذي تسبب في هذا. ربما مستنا صاعقة.

- أي صاعقة لعينة؟ هل تسمع رعدًا؟

قالت هَتر: «سمعنا فرقعة عالية، ثم تعطل كل شيء».

كاد دالتري يخرج علبة سجائره، لكنه تذكر أن هتر تجلس جواره وترمقه بنظرة جانبية. سألت: «متى سنستعيد القدرة على المتابعة؟».

قال كَندي: «ربما هذا هو أثر البقع الشمسية. سمعت أن هناك عاصفة شمسية هذه الأيام».

ضم دالتري كفيه معًا وقال ساخرًا: «بقع شمسية؟ أتعرف؟ يبدو أنك درست ستة أعوام في جامعة ما وحصلت على شهادات عالية، لأن الحمقى أمثالكم فقط هم من يتحدثون عن بقعٍ شمسية في الليل!».

صاحت هَتر قبل أن يتراشق كَندي مع دالتري بالألفاظ: «كَندي. متى سنستطيع المتابعة؟».

- لا أعرف. خمس دقائق؟ عشر؟ لا يمكن الحسم. ربما قامت الحرب النووية ونحن لا نعرف.

- سأخرج بحثًا عن سحابة عيش الغراب إذًا.

قامت هَتر محنية القامة قاصدة باب السيارة. قال دالتري: «لو أن الصواريخ تطير فوقنا الآن، فأنا أريد تدخين سيجارة قبل أن أموت».

أدارت هَتر مقبض الباب الثقيل وخرجت إلى الليل البارد الرطب. خرج دالتري خلفها. صحبته لا تسعدها، بل تذكرها أكثر بوحدتها. آخر من واعدته قال لها قبل أن ينفصلا: «لا أعرف إن كنت مملًّا، لكني لا أشعر أن عقلك حاضر ونحن معًا. أنت تعيشين في أفكارك، ولا مكان لي هناك. ربما كنت ستعجبين بي أكثر إن كنت كتابًا».

كرهته وكرهت نفسها، ثم لاحقًا فطنت هَتر إلى أنه إن كان هذا الرجل كتابًا، لكن كتاب اقتصاد ومال، وكانت ستعبره باحثة عن رواية خيالية.

المتجر خلف الساحة التي تقف فيها سيارتهما مضاء، ينظر من نافذته بائع باكستاني يرمقهما في قلق. كان يعرف من هما، ويعرف أنه غير مراقب،

لكن هذا لم يمنعه من التوتر. سألها دالتري: «ألم يكن أفضل أن تذهبي إلى بنسلفانيا؟».

- ربما أذهب غدًا. حالما تتضح الأمور.

- فيلم رعب يجري هناك.

تلقت هَتر رسائل صوتية وإلكترونية عديدة تخبرها عن منزل حارة بلوك في شوجركريك. غطوا المكان بخيمة عازلة، لا يدخلها أحد دون بذلة خاصة وقناع غازات. كانوا قد أخرجوا رفات قتلى من القبو، وقد ذوبها صاحب البيت، بينج بارتريدج، بسائل قلوي، وما لم يذُب، خزنه في القبو، لكنه لم يُذوِّب قتيله الأخير، وهو رجل يدعى ناثان ديميتر من كِنتَكي، وقد ذكرت ڤيك وجوده عبر الهاتف. كان ناثان قد اختفى منذ شهرين مع سيارته العتيقة من نوع رولز رويس، الشبح، والتي قد اشتراها قبل عشرة أعوام من مزاد فيدرالي.

مالك السيارة الأول هو تشارلز تالنت مانكس، أحد نزلاء إنجلوُد في كلورادو.

ذكر ناثان اسم مانكس في الخطاب الذي كتبه قبيل موته خنقًا، وقد رأت هَتر صورة عن الخطاب وقرأته بنفسها عشرات المرات.

لطالما كان عقل تابيثا منظمًا رائقًا إلى درجة غير بشرية، لكنها حين تعيد التفكير في أحداث آخر ثلاثة أيام، تشعر بالحيرة والتخبط. لم تمدها المعلومات المتاحة بأي استنتاجات، بل كانت كبرطمان ذباب، ما إن رفعت غطاءه حتى طار في كل اتجاه، وصار من المستحيل جمعه مرة أخرى.

استنشقت هَتر هواء الليل الرطب، وحاولت ترتيب الذباب.

في عمر السابعة عشرة، اختطف تشارلي مانكس ڤيك مَكوين، كما اختطف آخرين قبلها. في هذا الوقت كان يقود سيارة رولز رويس موديل عام 1938. هربت ڤيك منه، واعتُقل مانكس بتهمة خطفها وقتل جندي.

ڤيك لم تهرب مما حدث، وظل يطاردها فأدمنت الكحول واعتل عقلها -مثلها مثل ضحايا الاختطاف والتحرش الجنسي- حتى دمرت نفسها، وفعلت ما فشل مانكس في فعله بها.

ظل مانكس حبيس الغيبوبة لعقد كامل، حتى مات في الربيع الماضي عن عمر تسعين عامًا تقريبًا، لكن لا أحد يعرف الرقم الحقيقي، لكنه زعم أن عمره مائة وستة عشر عامًا.

سُرقت جثته من المشرحة، لكن لا شك في وفاته وفي تشريحه.

زعمت ڤيك مَكوين أنها تعرضت للضرب مرة أخرى منذ ثلاثة أيام، وزعمت أن الفاعل هو مانكس ومعه رجل مقنَّع، وقد اختطفا ابنها في سيارة رولز رويس قديمة.

طبيعي أن تكون روايتها محل شك. ثمة آثار ضرب على جسدها، يمكن أن يكون من أحدثها هو ابنها البالغ من العمر اثني عشر عامًا، وقد كان يحاول النجاة بحياته. هناك آثار إطارات في باحة منزلها، قد تكون خلفتها دراجتها البخارية أو سيارة أخرى. التربة الطرية أفسدت ملامح تلك الآثار فلم يعد من السهل التعرف عليها. زعمت كذلك أن الرجل المقنع أطلق عليها الرصاص، لكن أحدًا لم يجد فوارغ.

على جانب آخر، تواصلت ڤيك مع امرأة أخرى تُدعى مارجارِت لي، فتاة ليل ومدمنة مخدرات، ويبدو أنها تعرف معلومات عن الطفل المختفي. حين واجهت هَتر ڤيك بأمر السيدة لي، فرت على ظهر دراجتها البخارية، واختفت تمامًا.

مستحيل معرفة مكان السيدة لي لتنقُّلها بين الملاجئ والشوارع والإصلاحيات، ولم تدفع ضرائب أو تشغل وظائف منذ عام 2008. عملت لي أمينة مكتبة من قبل، واشتركت في بطولات لعبة السكرابل، وقد اشتهرت بقدراتها التنبؤية التي ساعدت الأمن كثيرًا في فترة سابقة.

لكن ماذا قد يعني ذلك؟

ثم إن هناك المطرقة التي شغلت بال هَتر منذ أيام. كلما عرفت أكثر عما حدث، زاد وزن المطرقة في عقلها. لو أن ڤيك قد اختلقت القصة، فلماذا لم تزعم أن مانكس قد هاجمها بمضرب كرة قاعدة أو جاروف؟ وصفت ڤيك السلاح الذي ظهر أنه مطرقة عظام، وهي ذاتها الأداة المفقودة مع جثة مانكس، وهي تفصيلة لم تُذكر في أي مصدر إخباري.

وأخيرًا، لويس كارمودي، والد ابن ڤيك، والرجل الذي أبعدها عن تشارلي مانكس منذ سنوات طويلة. لم تعوقه مشكلاته الصحية عن الهرب ومساعدة

ڤيك رغم خطورة حالته. لامت هَتر نفسها على مغادرته من دون إجراء طبي يجعل حالته مستقرة.

سأل دالتري: «في أي شيء تورطت ڤيك؟».

- تورطت؟

- لقد أنهت حياة بينج بارتريدج. تبعته كي تعرف معلومات عن ابنها، وقد عرفتها، أليس كذلك؟ يبدو أنها متورطة في دلو خراء عظيم، وخطف الطفل هو عقاب لها من شركائها.

- لا أعرف. سأسألها حين أقابلها.

- أراهن أن الأمر له علاقة بالإتجار بالبشر، أو الأفلام الإباحية التي تعرض الأطفال.

- كلا.

ابتعدت هَتر، فالسير يجعل تفكيرها أفضل. دارت حول السيارة متجهة إلى الطريق، تنظر إلى إضاءة منزل كريستوفر مَكوين.

قال الأطباء إن كارمودي ينتحر بهذه الطريق، لكنها تعرف أن هناك شيئًا يحتاجه من هذا المنزل، ويكاد يضحي بنفسه لأجله... بل شيء يحتاجه وُين. كل التفسيرات في هذا المنزل على بعد مائتي قدم.

لحقها دالتري هاتفًا: «ماذا سنفعل الآن؟».

- أحتاج إلى الحديث مع طاقم المراقبة في الغابة. لو أنك ستأتي معي، فتخلص من هذه السيجارة.

ألقاها دالتري على الطريق ودعسها. عبرا إلى الجهة المقابلة، وقبل أن يبلغا الممر المؤدي إلى بيت مَكوين، سمعت صوتًا يناديها: «سيدتي؟».

رأت شيترا، المرأة الهندية من الشرطة، تخرج من بين الأشجار حاملةً كشافًا معدنيًا طويلًا مُطفأً. قالت هَتر: «أنا هَتر.. من معكِ؟».

- أنا وبول هوفر وجبران بالتير. ثمة عطل في الأجهزة.

قال دالتري: «نعرف».

- ماذا حدث؟

- بقعة شمسية.

منزل كريستوفر مَكوين

تركت ڤيك دراجتها وسارت مترنحة نحو منزل أبيها. لو قابلها شرطي لاشتبه في سُكرها. بل لو قابلها شرطي ورأى منظرها لضربها بعصاه واعتقلها.

ظهر جوار أبيها ظل رجل أكثر ضخامة، لُو. يمكنها التعرف عليهما من على مسافة مائة قدم وسط حشد رجال، هما اثنان من الرجال الثلاثة الذين أحبتهم طيلة حياتها، لا ينقصهما إلا وُين.

الرجال من أهم مسببات الراحة في هذا العالم، مثلهم كمثل غطاء في برد أكتوبر، كمثل الكاكاو والخفين الدافئين. وجوههم الخشنة ورعونتهم وحماسهم لفعل أي شيء يمكن فعله... قلي البيض، تغيير مصابيح الإضاءة، العناق...

شعرت كأن مفتاحًا يدور في عينها اليسرى يحاول اقتلاعها. هرع والدها ولُو نحوها، فلوحت بيدها تطمئنهما، لكنها عجزت عن الوقوف. لف والدها ذراعه حول خصرها، وضغط كفه الأخرى على خدها.

- أنت ساخنة!

حملها هو ولُو إلى الداخل. الأخير محمر الوجه يلهث. تمنت حقًّا لو كان قد قابل امرأة تستحقه. حين دخلت إلى دائرة الضوء، رأت ما فعلته الأعوام بوجه أبيها الذي تجعدت بشرته وابيض شعره. ملابسه واسعة عليه، يكاد يختفي في طياتها.

فاجأها أبوها بالبكاء وهو يسألها: «ماذا حدث لك بحق الله يا ڤيك؟!».

بكى واهتزت كتفاه، وظهرت حشوات أسنانه المعدنية في فمه المفتوح. شعرت برغبة في البكاء، هي لا تصدق أنها في حال يدفع رجلًا للبكاء بهذا الشكل، بل إنها في حال أسوأ من هذا الرجل المتهدم. نظر لُو خارج النافذة وقال: «سمعنا صوتًا يشبه الانفجار».

قال أبوها والدموع تجري على خديه وتتعلق قطراتها بشاربه المصفر من أثر التبغ: «ظننته طلقًا ناريًّا في مكان ما».

سألها لُو متعجبًا: «هل كان هذا صوت جسرك؟».

أراحاها على مقعد في المطبخ الصغير المضاء. المكان مرتب كأنه صورة في مجلة، والشيء الوحيد الذي يدل على وجود شخص في هذا المنزل هو المطفأة الملأى بأعقاب السجائر، والأنفو.

الأنفو على الطاولة، داخل حقيبة مدرسية مفتوحة، محفوظ في أكياس بلاستيكية سعة عشرين كيلو، مغطاة بعلامات التحذير. عرفت ڤيك بالنظر أنها ستكون ثقيلة الوزن كالأسمنت.

جلست ومددت ساقيها. وَعت إلى عرق دهني على وجهها لا يُمسح. الضوء يؤلم عينيها إلى درجة لا تُحتمل.

- هل يمكن أن نطفئ هذا؟

أغلق لُو المصباح، وأظلمت الحجرة، ثم أضاء مصباح آخر بعيد أضفى ضوءًا دافئًا. قالت ڤيك: «أنا جعلت الجسر يختفي، حتى لا يتبعني أحد. لهذا أنا... أنا محمومة. لقد عبرته عدة مرات خلال اليومين الماضيين، وهذا يجعلني محمومة. لا بأس».

غاص لُو في المقعد أمامها، فأنَّ الخشب. بدا سخيفًا وهو يجلس إلى المنضدة الخشبية الصغيرة كدُب في قصة مصورة.

عقد والدها ذراعيه على صدره النحيل، وارتكن إلى خزانة المطبخ. الظلام راحة لكليهما، ويستطيع الآن أن يعود إلى نفسه القديمة، حين كان يجلس جوارها في الفراش وهي مريضة، يحكي لها عن رحلاته على ظهر دراجته البخارية. يمكنها أيضًا العودة إلى نفسها القديمة، وقتما كانا يتشاركان البيت نفسه. لكن اشتاقت إلى تلك الفتاة وأحبتها.

قال أبوها وهو يفكر فيما تفكر فيه: «دائمًا ما كنت تمرضين هكذا وأنت صغيرة، بعد جولتك بدراجتك وعودتك ومعك شيء مفقود. تصيرين محمومة، وتحكين لنا الأكاذيب. كنا نفكر أنا وأمك كثيرًا في هذا الأمر، وكنا نظنك... إمممم، تسرقين هذه الأشياء، ثم تعيدينها حين يلاحظ أصحابها اختفاءها».

- أنت لم تظن أنني لصة!

- في الحقيقة، والدتك هي صاحبة هذا التفسير.

- وماذا كان تفسيرك أنت؟

- تفسيري أنك تستخدمين دراجتك مثلما يستخدمون عصي الكشف. هل تعرفينها؟ في الماضي كان البعض يستخدمون فرعًا من شجرة بندق أو غيرها، ويوجهونه إلى الأرض ويسيرون خلفه بحثًا عن الماء. يبدو هذا خبلًا، لكن عندما كبرت وجدت أن لا أحد يحفر بئرًا دون مشورة واحد من هؤلاء الكشَّافين.

- تفسيرك ليس بعيدًا عن الحقيقة. هل تذكر المُختصر؟

- أجل. كان الأطفال يتحدون مع بعضهم بعضًا لعبوره. هدموه عام 1985 تقريبًا.

- 1986، لكنه بالنسبة إليَّ لم يُهدم. كنت أعبره فأجد نفسي في المكان الذي توجد فيه المفقودات. هل تذكر الدراجة الرالي التي اشتريتها لي في عيد ميلادي؟

- تلك التي كانت كبيرة عليكِ وقتها.

قالت وهي تنظر إلى الباب السلكي: «كبرت عليها الآن، ولدي تِريَمف. في المرة القادمة التي سأعبر فيها الجسر، سأعثر على تشارلي مانكس، خاطف وُين».

لم يرد أبوها، وأطرق برأسه، فبدا كما كان في عمر الثلاثين. قال لُو: «مهما بدا ما قالته غريبًا، أنا أصدق كل حرف فيه يا سيد مَكوين».

سأل كريس: «هل عبرت جسرك الآن لتأتي إلى هنا؟».

- منذ ثلاث دقائق كنت في آيوا، أقابل امرأة تعرف... كانت تعرف كل شيء عن مانكس.

قطب لُو حاجبيه وهو يسمع ڤيك تستخدم صيغة الماضي وهي تتحدث عن ماجي، فأكملت ڤيك كي لا تسمح له بسؤال لن تتحمل أن تجيب عنه: «بمجرد أن تخبرني كيف أستخدم المتفجرات، سأجعل الجسر يظهر، وسأنطلق إلى سبيلي. ستراه، هو أكبر من بيتك».

ثم تحسست عينها اليسرى. قال أبوها: «لن ترحلي في حالك هذه. تحتاجين إلى الراحة، وربما إلى طبيب أيضًا».

- ارتحت كفاية. لو ذهبت إلى مستشفى فلن يصف لي الطبيب سوى الأصفاد ورحلة إلى السجن. الفيدراليون يظنون أنني قتلت وُين، أو أنني قد فعلت شيئًا خارجًا عن القانون وخطفه أحدهم مني ليؤدبني. هم لا يصدقون شيئًا عن تشارلي مانكس، ولا ألومهم. مانكس مات وشرَّحه طبيب شرعي.

نظرت إلى أبيها في الظلام وسألته: «كيف تصدقني بعد كل هذا؟».

- لأنكِ ابنتي.

قالها ببساطة وصدق حتى إنها لم تتحمل أن تنظر إليه ولم تتحمل أن تتمسك بكراهيته. أشاحت بنظرها وأخذت شهيقًا عميقًا يغطي على مشاعرها، ثم قالت: «أنت تركتني يا أبي. أنت فقط لم تترك أمي، بل تركتنا. وقعت في مشكلات وتخليت عني».

- عرفت كم أنا مخطئ بعدما فات أوان العودة. طلبت من أمك أن تغفر لي وتعيدني إلى حياتيكما، فرفضت، وكان لديها حق.

- كان يمكنك أن تزورنا أو تمضي معي عطلات نهاية الأسبوع. كنت أحتاجك.

- كنت أشعر بالخزي، ولم أشأ أن تري الفتاة التي كنت أرافقها. أول مرة رأيتكما معًا، عرفت أنني لا أليق بها. لا أستطيع أن أقول إنني كنت سعيدًا مع أمك، ولا إنني قد استمتعت بالأعوام العشرين التي قضيتها وهي تحكم عليَّ وتتحكم بي.

قالت ڤيك بصوت مشمئز: «وقد أعلمتها بهذه المشاعر بضربها».

- ضربتها في الأيام التي كنت أثمل فيها. طلبت منها أن تغفر لي قبل موتها، ففعلت، لكني لم أسامح نفسي. لن تصدقي أنني مستعد لفعل أي شيء لمحو ما فعلت، لكن قول كهذا لا يُصدق ولا يساوي شيئًا.

- متى سامحتك؟

- في كل مرة تحدثنا فيها، كنت أتصل بها يوميًّا في آخر ستة أشهر عاشتها، وكانت تتصل بي بينما تحضرين اجتماعات المتعافين من إدمان الكحول، وتحكي لي أخبارك وتخبرني عن رسومك وعن وُين.

حدق إليها لحظة قبل أن يكمل: «لا أتوقع أن تسامحيني، اتخذت قرارات لا يمكن مغفرتها. كل ما تظنين بي حقيقة، لكنني أحبك، ولطالما أحببتك، ولو أن هناك ما يمكنني مساعدتك به الآن فسأفعله دون تفكير».

مالت حتى كاد رأسها يلمس ركبتيها. هي مرهقة مفككة الأوصال، الظلام ينتفخ حولها ويخنقها. أضاف كريس: «لا أحاول تبرير ما فعلت الآن، فلا يوجد مبرر».

لم تتمالك نفسها، فضحكت. آلمتها عضلاتها، لكنها في النهاية رفعت رأسها واستطاعت أن تنظر إلى عينيه.

- أجل. ولا أنا. فعلت أشياء جيدة، لكنها ليست كافية. عشت حياتي أدمر كل شيء حولي، أفجر كل شيء مثلك.

قال لُو وهو يشير نحو الحقيبة: «على ذكر التفجير. ماذا سنفعل بهذا؟».

ظهر سوار مستشفى بلاستيكي من تحت طرف كُمه، رأته ڤيك، فدسه إلى الداخل مرة أخرى في خجل، وأكمل: «هذه متفجرات، أليس كذلك؟ التدخين جوارها آمن؟».

أنهى كريس سيجارته، وأطفأها في المطفأة جوار الحقيبة وهو يقول: «المتفجرات آمنة ما لم ألقِها في النار مباشرة. أجهزة التفجير في حقيبة أخرى معلقة إلى ظهر مقعد ڤيك. كل كيس من أكياس الأنفو قادر على نسف مبنى فيدرالي كامل، وأتمنى ألا يكون هذا ما تخططان له».

قالت ڤيك: «كلا. تشارلي مانكس يتجه إلى مكان اسمه أرض الكريسماس. مملكته التي يظن أنه آمنٌ فيها. سأقابله هناك وأستعيد وُين، ثم سأفجر هذا المكان. هذا الأحمق يريد أن يعيش الكريسماس كل يوم، وأنا سأجعله يعيش يوم الرابع من يوليو إلى الأبد».

الخارج

كلما سكنت هَتر، أز البعوض في أذنها، فتضرب وجهها وتمسح أذنيها في جنون. قال دالتري الجالس جوارها مع الآخرين في العراء: «البعوض يحبك. البعوض يحب دماء النساء».

كانوا خمسة، ثلاثة آخرين غيرهما من ضمنهم شيترا، يرتدون ملابس سوداء مضادة للبلل ودروعًا. واحد من العملاء الفيدراليين يحمل ما يشبه المسدس ذا فوهة تشبه السماعة، موصولًا بسلك إلى سماعة في أذنه.

سألته هَتر بصوت منخفض وهي تميل نحوه: «هل تسمع أي شيء؟».

هز رأسه وأجاب: «أتمنى أن يكون الفريق الآخر قد التقط شيئًا. أنا لا أسمع سوى تشويش منذ دوى الرعد».

قال دالتري: «ليس رعدًا، هو لا يشبه صوت الرعد في شيء».

هز الرجل كتفيه.

المنزل خشبي مكون من طابق واحد، تقف أمامه سيارة نصف نقل، ولا يضيء البيت سوى مصباح واحد قرب غرفة المعيشة التي ترى هَتر تفاصيلها، تلفاز مغلق، أريكة، ستار خفيف. يبدو أن كارمودي ومَكوين في مكان ما خلف المنزل حيث لا تراهما. سألت هتر: «هل يمكن أن يكون حديثهما همسًا، وجهازك ليس بالحساسية الكافية لالتقاط صوتيهما؟».

- لو أن هذا الجهاز يعمل، فهو قادر على التقاط الأفكار لا الأصوات فقط. المشكلة أنه حساس أكثر من اللازم، ويمكن أن يتعطل مُكثِّفه لو تأثر بأي مجال كهربي قوي.

أخرجت شيترا عبوة رش حشرات من حقيبة معها وقدمتها لهَتر، فقامت لترش المستحضر على جسدها. رأت من مكانها الممشى الصغير خلف المنزل المؤدي إلى خط الأشجار الذي ينيره ضوء خافت قادم من نوافذ المنزل الخلفية. ضغطت زر الرش، فتناثر الرذاذ فوق دالتري الذي أغلق عينيه في ضيق.

قال دالتري شيئًا عن كارمودي السمين، الذي قد تتسبب نوبة قلبية أخرى في وفاته وإنهاء أمر هذه المهمة. قالت هَتر: «نحتاجه حيًّا لنعرف ما الذي يخطط له. أنت تعرف أن الأهم هنا هو وُين، لا صحته».

قال دالتري: «أتعرفين ما يعجبني فيك؟ أنك ابنة حرام قاسية أكثر مني!».

أدركت هَتر أنها تكره أغلب رجال الشرطة، هم قبيحون، ثملون، قساة، سيئوا الظن دومًا. أغمضت عينيها ورشت الرذاذ على وجهها، ثم فتحتهما لترى أن الضوء خلف المنزل قد اختفى، وهو أمر لم تكن لتلاحظه لو كانت جالسة كرفاقها.

نقلت نظرها إلى حجرة المعيشة المؤدية إلى الباب الأمامي، فلم يظهر أحد فيها ولا في حجرة النوم. نظر إليها دالتري من مجلسه متعجبًا من تحديقها وقال: «هل تؤدين دور شجرة؟».

- من يراقب مقدمة المنزل؟

قال خامس الموجودين: «لا أحد. لا شيء هناك إلا أميال من الغابات، ولا توجد طرق. حتى لو قرروا الخروج، فلن...».

تحركت هَتر وهي تمد يديها أمامها تبعد عن وجهها الأغصان الكثيفة، تبعتها شيترا وسألتها: «ماذا يلفت نظرك؟».

خلفها سمعت أغصانًا تتحطم وصوت خطوات. لا بد أنه دالتري يتبعهم سريعًا. مزعج هو كالبعوض، ويحتاج إلى رش يبعده.

- لا أرى ما يمنع أن يغادرا من الباب الأمامي. لكن لماذا يجلسان في الظلام؟ لقد أغلقا النور ولم يخرجا، إذن هما يجلسان في حجرة بالخلف والنور مُطفأ. أليس هذا مريبًا؟

في اللحظة التالية غاصت قدم هَتر في بركة ماء ضحلة لا تظهر وسط الظلام، ثم تعثر دالتري خلفها وغاص في الماء حتى فخذيه وكاد يسقط. قالت شيترا: «يمكن أن نضيء كشافًا».

قالت هَتر: «لن نضيء شيئًا، وعد يا دالتري إن كنت تكره الماء».

- ماذا؟ وأضيع على نفسي المغامرة؟ أفضِّل أن أغرق على أن أضيعها.

- لا ترفع سقف آمالنا.

الداخل

جلس كريس مَكوين ممسكًا جهاز التفجير. خاب أمل لُو إذ إن الجهاز لا يشبه ذاك الذي يظهر في أفلام المهمة المستحيلة. هو جهاز أسود صغير ذو سلكين نحاسيين يتدليان منه.

سأل لُو: «أه.. سيد مَكوين؟ الجهاز يبدو مثل المؤقت الذي يشغل أضواء الكريسماس في المنزل حين يحل الظلام».

- هو كذلك بالفعل. لقد جهزت أكياس المتفجرات، ويعني هذا أنها قد نُقِعت في الوقود وثبَّتُّ إليها أسلاك الاشتعال. المؤشر الأسود في الجهاز يحدد الوقت، والأحمر يخبرك عن موعد إشعال كيس المتفجرات، الذي يكفي محتواه لتفجير واجهة بناية من ثلاثة طوابق.

نظر نحو ڤيك وأردف: «لا توصلي المتفجرات إلا حين تستعدين وتبتعدين بالدراجة مسافة كافية».

لا يعرف لُو ما الذي يرعبه أكثر، حقيبة المتفجرات، أم نظرة الرجل لابنته بعينين صافيتين لا لون لهما.

وضعت ڤيك المؤقت في حقيبته، وقالت: «أفهم. يجب أن أرحل يا أبي. المكان هنا ليس آمنًا بالنسبة إليَّ».

- أعرف أنك لم تكوني لتأتي لولا اضطررت إلى ذلك.

مالت نحوه تُقبِّل خده ثم قالت: «كنت أعرف أنك ستساندني».

- دائمًا وللأبد.

لف ذراعيه حولها، عيناها ذكَّرتا لُو بالنظر إلى البحيرات المتجمدة الشفافة بعدما قتل المطر الحمضي كل شيء حي تحت سطحها.

- أقل مسافة آمنة لتفجير متفجر فوق سطح الأرض هي مئة قدم. أي شخص داخل دائرة نصف قطرها مئة قدم ستحول الموجة التصادمية أمعاءه إلى هلام. هل مسحتِ المكان؟ أرض الكريسماس؟ هل تعرفين أين ستزرعين المتفجرات؟ ستحتاجين ساعة أو اثنتين لغرسها وتجهيز التفجير.

- سيكون لدي وقت.

عرف لُو من نظرتها الثابتة وصوتها القوي أنها تعرف ما تفعل. رفع لُو حقيبة المؤقتات من فوق فخذَي مَكوين وقال: «لن أدعها تقتل نفسها. ثق بي».

قالت ڤيك: «عمَّ تتحدث؟».

- سأذهب معك. وُين ابني أيضًا. لقد اتفقنا، أتذكرين؟ أصلح لك الدراجة وتأخذينني معك. لن تذهبي وحدك. لا تقلقي، سأركب خلفك وأدعك تقودين.

قال كريس مَكوين: «ماذا عني؟ هل تعتقدون أن في إمكاني اتباعكما بسيارتي فوق هذا الجسر؟».

زفرت ڤيك ثم قالت: «كلا. أعني... لن يأتي أيكما معي. أعرف أنكما تريدان مساعدتي، لكن هذا الجسر... هو حقيقي ويمكنكما رؤيته، ويظل موجودًا في عالمنا، لكن أحيانًا.. لا أعرف. هو من صنع عقلي المُجهد ولم يعد متينًا منذ كنت مراهقة. ربما ينهار من ثقل وجود عقول أخرى تعبر فوقه. بالإضافة إلى أنني قد أضطر إلى العودة ووُين يركب خلفي على الدراجة. سنعود بهذه الطريقة. أين ستركب يا لُو؟».

- ربما أتبعكما سيرًا. ألم تفكري في هذا قط؟

- فكرة سيئة. لو رأيته لفهمت.

- أريني إياه إذًا.

نظرت إليه مترجية، محاولةً ألا تبكي، فقال: «أحتاج إلى أن أراه. لا أعني أنني أصدق أنك مجنونة، بل أريد أن أتأكد أن هناك فرصة لعودة وُين».

هزت ڤيك رأسها ثم استدارت نحو الباب الخلفي. سارت خطوتين ثم تمايلت. أمسك لُو ذراعها وقال: «يا صاح! أنت بالكاد تقفين على ساقيك!».

سخونة جسدها أقلقته. قالت: «أنا بخير. سينتهي كل هذا سريعًا».

وأطل من عينيها ما هو أسوأ من الخوف، اليأس. قال أبوها إنها قد تتعثر في المتفجرات أو تفقد وعيها جوارها، ووافقه لُو دون أن ينطق.

خرج الثلاثة إلى الليل البارد. لاحظ لُو أن ڤيك تمسح عينها اليسرى من وقت لآخر. لم تكن تبكي، لكن الدموع تسيل من عينها لا إراديًّا. رأى هذا من قبل في أيام كلورادو القاسية، حين كانت تعاني مع اتصالات أرض الكريسماس. تعجب كيف مرت الأيام، وصار جنونها هو الحقيقة المقبولة الوحيدة، إلا أنه منذ طفولته كان يؤمن أن كل شخص يعيش جزئيًّا في عالم من خياله يستحيل أن يراه غيره، وكل ما فعلته ڤيك أنها جعلت خيالها مُجسدًا. ما الخيال إلا حقيقة تنتظر أن يُسلط عليها الضوء.

أشعل والدها سيجارة، ونظر إلى دراجتها مُضيقًا عينيه، وقبل أن ينطق، سمعوا صوتًا من خلف الأشجار يصيح: «المباحث الفيدرالية! لا تتحركوا. ارفعوا أذرعكم جميعًا!».

ضرب الألم جانب جسد لُو ورقبته، ووصل إلى أسنانه. هو مثل ڤيك، يحمل متفجرات في جسده قد تقتله في أي لحظة. امتثل لُو ورفع يديه عاليًا، وحقيبة المؤقتات معلقة من إبهامه. رأى مَكوين بطرفَي عينيه ثابتًا، تلمع قداحته في يده.

أما ڤيك، فقد انطلقت تجري، ركبتها لا تنثني ولا تساعدها. وقبل أن تصيح المرأة خلف الأشجار مرة أخرى، طوحت ڤيك ساقها فوق الدراجة البخارية، ثم أدارت المحرك.

صاحت تابيثا هَتر: «لا! ڤيك! لا! لا تضطريني إلى إطلاق الرصاص عليكِ!».

اقتربت المرأة الضئيلة تتقافز بين الحشائش، نظارتها الطبية مغطاة بقطرات الماء، وهي ترفع سلاحها أمامها، تمسكه بكلتا يديها كما تفعل الشرطة في الأفلام، من خلفها يقترب دالتري وشيترا. الأول كان مبللًا، وأوراق الشجر ملتصقة بفخذيه، وسلاحه مصوب إلى أسفل، أما الثانية فتصوب سلاحها مباشرة نحو ڤيك وتنظر إليها متعاطفة كأنها تترجاها ألا تضطرهم إلى إيذائها.

صاحت ڤيك: «أنا ذاهبة لأستعيد وُين. لو قتلتموني، ستقتلونه. لا سبيل للعودة إلا من خلالي».

صرخ لُو: «انتظروا! لا تطلقوا النار!».

صاحت هَتر: «لا تتحرك!».

للحظة لم يعرف لُو مَن تقصد، فڤيك جالسة، ووالدها واقف بلا حراك، ثم أدرك أنه هو من يتحرك نحو ڤيك وذراعاه مرفوعتان، حتى وقف بينها وبين الشرطة.

صارت هَتر على مسافة ثلاثة أقدام منه. أخفضت سلاحها قليلًا نحو بطن لُو، وهي تنظر من فوق عدستَي النظارة. على الأرجح هي تراه جيدًا، كأنها تصوب نحو حظيرة، والتحدي هنا هو ألا تصيبه رصاصتها.

وقف دالتري خلف كريس مَكوين دون أن يصوب نحوه مسدسه. قال لُو: «المجرم ليس منا... المجرم هو تشارلي مانكس».

قالت هَتر: «تشارلي مانكس مات».

صاحت ڤيك: «قولي هذا لماجي لي. تشارلي قتلها منذ ساعة في باحة مكتبة هير العامة، في آيوا. لقد كنت هناك، تأكدي بنفسك».

- كنتِ هناك؟! ترجلي عن الدراجة، وانبطحي يا ڤيك.

من بعيد، سمع لُو أصوات آخرين يقتربون من المنزل من كل صوب. هي مسألة ثوانٍ حتى يطوقهم الجنود.

- يجب أن أرحل.

قال لُو: «سآتي معكِ».

صاحت هَتر: «أيتها الضابطة سورينام، هلا صفَّدتِ هذا الرجل».

دارت شيترا سورينام حول هَتر وهي تخفض ماسورة مسدسها تُخرج الأصفاد من جيبها الخلفي. تراجع لُو خطوة للخلف، فصار خلف الدراجة، يشعر بسخونتها. قالت ڤيك: «هات حقيبة المؤقتات».

قال لُو: «سيدة هَتر، رجاءً... اطلبي من رجالك أن يسألوا عن ماجي لي. اسأليهم عما حدث في آيوا. أنت على وشك اعتقال الشخص الوحيد القادر على إنقاذ ابني. لو رغبتِ في مساعدته، فاتركينا».

قالت ڤيك: «يجب أن أرحل الآن يا لُو».

ضيقت هَتر عينيها كأنها تعاني صعوبة الإبصار بسبب الماء على نظارتها. هي بالطبع تعاني.

اقتربت شيترا من لُو، مد يده كأنه يطلب منها ألا تقترب أكثر. سمع صوتًا معدنيًّا وأدرك أنها صفَّدته.

- ما هذا يا صاح؟!

أخرجت هَتر جهازًا فضيًّا من جيبها، ضغطت زرًّا فيه فتصاعد صوت ذكوري يسأل: «أنا كَندي. هل أمسكتم بالأشرار؟».

سألت هَتر: «كَندي، هل هناك خبر عن ماجي لي؟».

قالت شيترا للُو: «قرِّب يدك الأخرى لو سمحت. سيد كارمودي؟ يدك الأخرى...».

لم يُطِعها، وأبقى يده مرفوعة بالحقيبة، كأنها حقيبة حلوى سرقها طفل ولا يريد تسليمها لوالديه.

سمعا صوت كَندي التعيس يقول: «كيف عرفت أن هناك خطبًا؟ وصلنا خبر منذ خمس دقائق وكنت سأتصل بك».

اقتربت صوت الخطوات حولهم أكثر. قالت هَتر: «أخبرني الآن».

سأل دالتري: «ما الخطب اللعين؟».

قال كَندي: «لقد قُتلت. أحدهم ضربها. يشتبه الجنود هناك في السيدة مَكوين. لقد رأوها تغادر مكان الجريمة على ظهر دراجة بخارية».

قالت هَتر: «أين المكان؟ في هير؟ آيوا؟ مستحيل!».

- المكان في آيوا، والجريمة وقعت منذ ساعة. ما المستحيل...

قالت ڤيك: «لست من قتلها. مانكس القاتل. ستكتشفون أنها ضُربت بمطرقة».

أنزلت هَتر سلاحها، ووضعت الجهاز في جيبها، ثم مسحت الماء عن وجهها وهي تقول: «مطرقة عظام. المطرقة التي أخذها مانكس معه قبل هروبه من المشرحة في كلورادو. لا أفهم... لا أستطيع أن أفهم. أنا أحاول يا ڤيك. كيف قام من الموت؟ كيف نراك أمامنا وقد كنتِ في آيوا منذ دقائق؟».

- ليس لدي وقت للشرح، لكن إن كنت تريدين أن تعرفي كيف جئت من آيوا إلى هنا، انتظري. سأريكِ.

قالت هَتر لشيترا: «هلَّا.. هلَّا فككتِ أصفاد السيد كارمودي؟ سنتحدث وديًّا أفضل. يجب أن نتحدث جميعًا».

- لا وقت لدي ل...

وأدارت ڤيك المحرك فلم يسمع أحد باقي عبارتها. صاح دالتري وهو يصوب سلاحه نحو ڤيك: «ماذا فعلتِ؟ انزلي من على الدراجة».

هتفت هَتر: «أنزِل سلاحك أيها المحقق!».

- أنت جُننت يا هَتر. انزلي عن دراجتك يا سيدة مَكوين. الآن.

- أيها المحقق! أنا المسؤولة هنا، وآمرك أن...

هنا صاح أول عميل فيدرالي يظهر من خلف المنزل وهو يصوب بندقية نحو ڤيك: «انبطحي!».

الجميع يتصايح. شعر لُو بنغزة أخرى عند صدغه وجانب عنقه الأيسر. لم تكن شيترا تنظر إليه، بل إلى هَتر، متعجبة قلقة.

أشعل كريس مَكوين قداحته أسفل عين دالتري اليسرى، فأجفل الأخير وابتعدت فوهة سلاحه عن الهدف. انحنى كريس والتقط شريحة خشب سميكة، وضرب بها ظهر دالتري وهو يصيح: «ارحلي أيتها المشاكسة!».

ترنح دالتري، ثم تمالك نفسه ورفع سلاحه مرة أخرى، وأطلق رصاصتين نحو كريس مَكوين، أصابت واحدة بطنه، والأخرى رقبته.

صرخت ڤيك. التفت لُو نحوها فاصطدمت كتفه بشيترا، فتطوحت إلى الوراء كأنما صدمها حصان، ثم سقطت على وجهها في الطين، لكنها اعتدلت على الفور.

صرخت هَتر: «لينزل الجميع أسلحته! اللعنة! أوقفوا إطلاق النار!».

لف لُو ذراعيه حول ڤيك، وكان السبيل الوحيد إلى ذلك هو أن يركب خلفها. صاح أحد الرجال: «ترجلا! ترجلا!».

واقترب من ڤيك ولُو ثلاثة جنود بأسلحة آلية.

ڤيك تنظر إلى أبيها، تصرخ، تُعميها المفاجأة. عانقها لُو ولثم خدها المحموم وهو يقول: «يجب أن نرحل. الآن!».

انطلقت تِريَمف على الفور، وأضاء الليل بضوء طلقات الأسلحة النارية.

الطرق الخلفية

هز صوت الطلقات الليل. شعرت ڤيك بالرصاصات التي تطير حولها، فزادت من سرعة الدراجة.

بعض منها ما زال ينظر إلى الخلف، يرى أباها يتراجع وهو يمسك حلقه، وشعره يغطي عينيه، وفمه مفتوح. بعض منها يتلقفه بين ذراعيه قبل أن يهوي إلى الأرض، ويضمه إلى صدره.

بعض منها كان يقبله ويهمس له: *لا بأس يا أبي. أنا جوارك*. أنفها يشم رائحة دمه الطازج.

خد لُو السمين منضغط على رقبتها، وحقيبة المتفجرات بينهما. راح يحثها على استكمال طريقها بينما تضرب الرصاصات الأرض خلف الدراجة. صوت تابيثا هَتر يعلو فوق الضوضاء، يأمر الجميع أن يوقفوا إطلاق النار.

توقفت ڤيك عن التفكير، وتركت جسدها يتصرف. انتقلت إلى السرعة الثانية، فالثالثة. شقت الدراجة أرض التل. أخفضت رأسها متفادية أفرع الأشجار المنخفضة. اخترقت الأجمة واندفعت العجلات نحو طريق الجسر المُختصر.

صاح لُو: «ما هذا!».

لم تدخل ڤيك النفق، بل تجاوزته واصطدمت بحائطه، دارت...

عقلها هناك، مع أبيها، حيث تضمه.

عادت تنطلق نحو الجسر... عقلها يهمس لأبيها أنها جواره، ولن ترحل.

ترتطم الدراجة بالأشجار فتكاد تميل وتسقط.

تقبل جبين أبيها وتطمئنه أنها هنا...

تندفع تِريَمف نحو حائط الجسر عن اليسار، فترتطم به ذراع لُو. يصرخ. يتمايل الجسر من قوة الارتطام.

تشم ڤيك رائحة شعر أبيها. تريد أن تسأله كم أمضى وحيدًا، وكيف كان يمضي أمسيات الوحدة. كانت تريد أن تعتذر له وتؤكد له أنها تحبه، ومهما حدث، كانت تحبه طيلة حياتها.

ثم رحل كريس مَكوين، تركته يبتعد. يجب أن تعبر الجسر دونه.

صرخت الوطاويط في الظلام ورفرفت بأجنحتها. لم يفزع لُو الضخم، لكنه انحنى يقي رأسه من هجمة الوطاويط المباغتة التي راحت تدور حولهما وتخمشهما. وجوهها هي وجه ڤيك ذاته.

ظهرت دراجتها القديمة قرب نهاية النفق، بدت كأنما تندفع نحوها، وأدركت ڤيك أنها إن صدمتها فالعواقب ستكون وخيمة.

ضربت تِريَمف الدراجة الرالي المكسوة بخيط العناكب، ودفعتها وهي تكاد تتعثر فيها خارجة من الجسر، وتبعتها عشرات الوطاويط.

مزق الإطارين التراب والحشائش، ورأت ڤيك الأرض المائلة المفضية إلى غابة صنوبر مزينة بمجسمات الملائكة وبلورات الثلج.

هبطت الدراجة بعنف، وانزلقت على الأرض، فطارا من فوقها، ثم حطَّت هي عليهما كسيل من الحديد. لقد انفتح العالم وهويا إلى الظلام.

بيت الزلاجة

أفاق لُو منذ ساعة، قبل أن يرى الجليد ينهمر فوق أوراق الشجر الجافة حوله. همست ڤيك: «لُو؟».

عضلات عنقه متصلبة، لا يستطيع أن يرفع رأسه. نظر إلى ڤيك المُمدَّدة على الأرض جواره. كانت نائمة منذ دقائق، والآن هي متيقِّظة.

- أجل...
- هل أمي هنا؟
- أمك مع الملائكة يا حبيبتي.
- الملائكة؟ هناك ملائكة معلقة على الأشجار. الثلج ينهمر.
- أعرف، ونحن في يوليو. عشت في الجبال، وزرت أماكن باردة طيلة العام، لكني لم أشهد قط ثلجًا ينهمر في هذا الشهر. حتى عند قمم الجبال.
- أين؟
- في جَنباريل، حيث بدأ كل هذا.
- بل بدأ في مطعم تيري بريمو، حيث نسيت أمي سوارها في الحمام. أين ذهبت؟
- هي ليست هنا يا ڤيك. لقد توفيت. ألا تتذكرين؟

أشارت إلى المرتفع الصغير الذي سقطا من فوقه وقالت: «بل كانت تجلس هنا. قالت شيئًا عن وُين. قالت إن لديه وقتًا بعدما يصل إلى أرض الكريسماس

لأنه يفكر ويتكلم بالعكس. هو يتأخر خطوتين عن كل ميلين إلى الأمام. لن يتحول فورًا إلى واحد من تلك المسوخ».

ڤيك ممددة على الأرض، ذراعاها جوارها، وكعباها متلاصقان، وضع لُو سترته الخفيفة فوقها، فغطتها حتى الركبتين. نظرت ڤيك إليه، فهالته النظرة المذعورة في عينيها.

- أوه، لُو! وجهك!

لمس خده الأيمن فوجد المساحة بين عينه وركن فمه متورمة. ظهر يده اليسرى مصاب، بلا جلد يغطيه. كان يتذكر كيف أصيب بكل تلك الإصابات في أثناء وبعد عبورهما الجسر. لم يتحمل النظر إليها، فأبعدها إلى جواره.

لا تهم يده، ولم يفكر في الوقت المتبقي. الألم في حنجرته وصدغه الأيسر صار مستمرًّا الآن، ودمه ثخين كحديد منصهر. كان يسير حاملًا قنبلة في دماغه، قد تنفجر في أي لحظة. تمنى لو يرى وُين قبل أن يحدث هذا.

كان قد سحب ڤيك من تحت الدراجة البخارية بعدما سقطت فوقهما، وكان مرتعبًا أن تكون قد أصيبت بكسر في عمودها الفقري. سألها لُو: «هل تصدقين ما يعنيه هذا الثلج؟».

نظرت إلى الليل، وندف الثلج تتساقط على وجهها.

- هذا يعني أنه شارف على الوصول.

أومأ لُو، فهذا ما كان يفكر فيه؟ قالت ڤيك: «بعض الخفافيش غادرت الجسر وعبرت معنا».

اقشعر جسده وتمنى لو لم تذكر تلك الوطاويط. ما زال يشعر بها تضرب جسده وتخمشه، ويرى وجوهها الوردية المرعبة. قال: «أعتقد أنهما عبرا فعلًا».

- هذه الوطاويط هي... أنا. أفكاري. عندما أعبر الجسر، فأنا أخاطر أن تفر أحدها. هذا هو الثمن. هناك دائمًا ثمن. عانت ماجي اللعثمة أكثر كلما استمرت في استخدام السكرابل. استهلكت السيارة روح مانكس. هل تفهمني؟

- أعتقد.

- لو قلت شيئًا غير معقول، نبِّهني. لو تخبطتُ، قوِّمني. هل تفهمني يا لُو كارمودي؟ سيصل تشارلي مانكس قريبًا، وأريد أن أتأكد أنك تساندني.

- سأساندك دائمًا.

لعقت شفتيها، ثم قالت: «عظيم... هذا عظيم كالذهب. الذهب يظل ذهبًا للأبد، أتعرف هذا؟ لهذا سيظل وُين بخير».

حطَّت بلورة ثلج على رموشها، فتساءل لُو إن كان سيرى مشهدًا بهذا الجمال مرة أخرى. في الواقع، هو لا يتعشم أن يعيش بعد هذه الليلة.

- الدراجة...

انتبهت ڤيك، وقامت مستندة إلى كوعيها.

- يجب أن تكون الدراجة بخير.

كان لُو قد أخرجها من التراب وأسندها إلى جذع شجرة. انخلع الكشافان الأماميان، وسقطت المرآة اليمنى، فصارت الدراجة خالية من مرآتيها.

- أوه. لا بأس.

قال لُو: «حسنًا... لا أعرف. لم أحاول تشغيلها، ولا أعرف إن كان شيء فيها قد تعطل. هل تريدينني أن...».

- كلا. ستعمل.

هبَّ الهواء فدفع الثلج نحوهما، وامتلأ الليل بصوت الأجراس. رفعت ڤيك رأسها لترى الأغصان مزينة بالملائكة والكُرات الفضية، وبلورات الثلج والأجراس.

قال لُو: «كيف لا تتحطم هذه أو تسقط عن الأشجار؟».

- هي هوركروكس[1].

نظر إليها لُو نظرة قلقة وقال: «أتعنين، مثل المذكورة في رواية هاري بوتر؟».

---

(1) الهوركروكس في روايات هاري بوتر، هي أغراض قسم فولدمورت الساحر الشرير روحه فيها، ولن يموت قبل أن تُدمر أجزاء روحه في الهوركروكس. (المترجمة)

- انظر إليها. يوجد هنا ذهب وياقوت أكثر مما في أوفير[1]، وستنتهي كما انتهت أوفير.

- أوفير؟ ڤيك، أنت تقولين كلامًا غير مفهوم.

أطرقت وهزَّت رأسها كأنما تُجليه، ثم وضعت يدها على خدها في ألم. نظرت إليه من خلف شعرها، فبدت له على طبيعتها القديمة، بمشاكستها وتصميمها اللذين يثيرانه.

- أنت رجل طيب يا لُو كارمودي. ربما أكون مجنونة، لكني أحبك. آسفة لكل ما مررتَ به بسببي، وأتمنى من كل قلبي لو كنت قد قابلت من هي أفضل مني، لكني لست آسفة على إنجابنا ابننا. ورثَ عني ملامحي، وورث عنك قلبك، وأعرف أيهما أكثر قيمة.

جر نفسه على الأرض نحوها، ثم ضمها إلى صدره، وأراح رأسه على شعرها. قال: «من يزعم أن هناك أفضل منك؟ أنت تقولين عن نفسك أمورًا لو قالها غيرك لما تركته حيًّا. لقد ربيتِ ابنًا صالحًا، وسنستعيده».

ابتعدت ڤيك عنه وسألته: «ماذا حدث للمتفجرات والمؤقتات؟!».

مد يده نحو الحقيبة على بعد بضعة أقدام وفتحها.

- بدأتُ بإعدادها قبل أن تستيقظي، لكن ليس معي معدات، ولست بارعًا في استخدام يديَّ.

مد يديه أمامه كأنه يريها كم هي قليلة النفع، فتأرجحت الأصفاد من رسغه. ابتسمت ڤيك وضمته، ثم قالت وهي تنظر نحو الأصفاد: «سنفعل بها شيئًا شقيًّا لاحقًا».

لم يبد من نبرة صوتها أنها تقصد شيئًا إباحيًّا، بل ليلة من لياليهما معًا تحت ضوء الشموع.

احمر وجهه خجلًا، فضحكت وقرصت خده.

- أرِني ما وصلت إليه.

- ليس الكثير. بعض المؤقتات تحطمت، لكني ركبت أربعة منها.

---

(1) أرض أوفير، مذكورة في العهد القديم، وقد أرسل النبي سليمان وفدًا إلى أوفير ليجلبوا الذهب والأحجار الكريمة. (المترجمة)

وأخرج من الحقيبة كيس متفجرات وقد ثبت إليه الأسلاك والمؤقت.

- تضبطين التوقيت، ثم تضغطين هذا الزر. هل ترينه؟ لكن ما لا أفهمه هو، متى ستزرعينها؟ وأين؟

نظر حوله كطفل يحاول عبور الشارع. هما وسط غابة ممتدة، والطريق المؤدي إلى بيت الزلاجة خلفهما، وهو طريق ضيق لا يسمح إلا بمرور سيارة واحدة.

على يساره الطريق السريع الذي قابلت فيه فتاة نحيلة شابًّا سمينًا يركب دراجة بخارية منذ ستة عشر عامًا. كان لُو وقتها قد ترك منزل أبيه إثر شجار بينهما، فقد رفض الأخير إعطاءه مالًا لإقامة استوديو للكتب المصورة، وقال إنه لو مسح مؤخرته بهذا المال، لكان سيستفيد منها أكثر مما قد يفيده إعطاؤها للُو. أمره أن يفعل كما فعل هو في شبابه وينضم إلى القوات البحرية، لكن عليه أولًا أن يحلق شعره ويفقد بعض الدهن.

خرج لُو على ظهر دراجته البخارية كي لا تراه أمه يبكي، وكان قد خطط أن يذهب إلى دينڤر وينضم إلى القوات البحرية فيختفي من حياة أبيه عامين أو ثلاثة، ولا يعود إلا حين يصير رشيقًا قويًّا يُعتمد عليه. شخصًا يعانقه أبوه فخرًا، ولا يشعر هو تجاهه بالشيء نفسه. سينادي أباه «سيدي»، ويجلس متخشبًا على المقعد وهو يسأله: «ما رأيك في شعري يا سيدي؟ هل يليق بمعاييرك؟».

أراد أن يهرب فلا يعود إلا كشخص لا يعرفه أبواه، وهذا ما حدث، لكنه لم يصل دينڤر.

على يمينه البيت الذي أحرقته ڤيك، والذي لم يعد بيتًا، بل تل مسود من الأخشاب والأسمنت. جوار الأطلال براد ضخم منبعج، وفراش محترق، وجزء من دَرج. حائط واحد من المرأب لم يمس، بابه مفتوح يظهر من خلفه المزيد من الأطلال.

قال لُو: «هذا المكان ليس أرض الكريسماس، أليس كذلك؟».

- هو بوابة. ربما لا يحتاج هو إلى القدوم إلى بيت الزلاجة ليعبر، لكن يبدو أن العبور أسهل من هنا.

تمايلت الملائكة التي تحمل الأبواق من أثر هبة هواء. قال لُو: «ماذا عن بوابتك؟ لقد اختفى الجسر بمجرد أن لمسنا قاع المنحدر».

- لا تقلق. أستطيع أن أظهره وقتما أحتاج.

- ليتنا اصطحبنا الشرطة معنا، فيصوبوا أسلحتهم تجاه المجرم الحقيقي.

- كلما زاد الوزن على الجسر، زاد خطر تفككه. لذا كنت أخشى مجيئك.

قال لُو وهو يرفع حقيبة المتفجرات: «وها أنا ذا! ما الخطة؟».

- أول خطوة، أن تعطيني هذه.

جذبت الحقيبة، فظلت معلقة بينهما وهو متردد، ثم قرر أخيرًا أن يتركها. لقد نال ما أراد، وهو برفقتها الآن، ولا خلاص منه.

قالت ڤيك: «الخطوة الثانية...».

نظرت إلى الطريق السريع، إلى السيارة القديمة ذات الكشافات العالية، التي تنعطف منه متجهة نحو الطريق الضيق. شعر لُو بألم خلف أذنه اليسرى وهمس: «إلهي! هذا هو! لسنا مستعدين!».

جذبته من كُميه وابتعدا عن الطريق، ثم اختبئا خلف شجيرات كثيفة. ارتجفت ساقا لُو السمينتان وهمس لنفسه: يجب *أن أتشجع*. يؤمن لُو بالله. يؤمن به منذ شاهد جورج بيرنز في فيلم «إلهي»[1]. صاغ صلاة إلى العجوز جورج بيرنز يقول فيها: «*رجاءً، لقد كنتُ شجاعًا مرة، امنحني الشجاعة مرة ثانية لأجل وُين وڤيك. سأموت على أي حال، فاكتب لي أن أموت في سبيلهما*».

عبرت السيارة ببطء على مسافة خمسة عشر قدمًا منهما، كأن السائق قد رآهما، لكن السيارة لم تتوقف.

- ما الخطوة الثانية؟

تسارع النبض في عنق لُو، وتمنى لو يعيش فقط حتى ينتهي كل هذا.

- ماذا؟

- الخطوة التالية في الخطة؟

- أوه...

نظرت إلى الأصفاد في يده، ثم أغلقت طرفها الآخر حول غصن شجرة، وقالت: «أن تظل هنا».

---

(1) Oh, God: فيلم كوميدي أمريكي يحكي عن موظف في متجر، يختاره الله لنشر رسالة الإيمان إلى العالم كله. (المترجمة)

بين الأشجار

بدا على وجه لُو المستدير نظرة طفل رأى سيارة تدوس على لعبته المفضلة. لمعت دموعه في الظلام. أحزنها أن تراه يبكي، وأن ترى خيبة أمله وصدمته وهي تقيده إلى الغصن. مسحت وجهه بكفها وقالت: «لُو، لا تبكِ. لا بأس».

- لا أريدك أن ترحلي وحدك. أريد أن أكون معك. عاهدتك أن أكون معك للأبد.

- ما زلت معي، وستكون معي أينما ذهبت. أنت جزء من روحي.

قبَّلت شفتيه، فاستطعمت الدموع. لا تعرف هل كانت دموعها أم دموعه. أردفت: «بطريقة أو بأخرى، سيتحرر وُين الليلة، وإن لم أكن معه، فهو سيحتاجك».

رمش بسرعة وهو يبكي. لم يحاول تحرير نفسه، سُمك الغصن ثماني بوصات وطوله ثلاثون قدمًا، وسوار الأصفاد يضغط على لحمه. نظر إليها في حزن، وعجز عن قول أي شيء.

توقفت الشبح جوار أطلال المرأب، وانتقلت إلى وضع الانتظار. نظرت إليها ڤيك وهي تسمع صوت بُرل آيفز.

قال لُو: «لا أفهم. لماذا فعلتِ ذلك؟».

جذبت شريط المستشفى البلاستيكي حول معصمه وسألته: «ما هذا يا لُو؟».

- آه، هذا... لقد فقدت الوعي مرة أخرى.

- لا أصدقك. لقد فقدت والدي الليلة ولن أتحمل أن أفقدك. لو تصورت أنني سأخاطر بحياتك فأنت أكثر جنونًا مني. وُين يحتاج أباه.

- ويحتاج أمه أيضًا، وأنا أحتاجك.

ابتسمت ڤيك ابتسامتها القديمة المشاكسة وقالت: «لا وعود. أنت الأفضل يا لُو كارمودي. لست فقط رجلًا صالحًا، أنت بطل حقيقي. ولا أقصد بهذا يوم أنقذتني على ظهر دراجتك. أقصد أنك بطل لأنك كنت مع وُين في كل لحظة من حياته، لأنك أعددت شطائر مدرسته، وحافظت على مواعيد طبيبه، وقرأت له قبل النوم. أحبك».

نظرت إلى الطريق مرة أخرى، ورأت مانكس ينزل من سيارته ويعبر من أمام كشافيها. استطاعت أن تتفحصه جيدًا. يرتدي سترة عتيقة الطراز بصفَّي أزرار نحاسية، شعره أسود لامع مصفف للخلف، مبرزًا جبهته العريضة، وبدا كرجل ثلاثيني. يحمل في يده مطرقة فضية، وفي اليد الأخرى شيئًا لم تتبينه. خرج من رقعة النور إلى الظلال.

قالت ڤيك بعدما قبَّلت خد لُو: «يجب أن أذهب».

حاول أن يمسكها، لكنها تملصت منه متجهة نحو تِريَمف. تفحصتها فرأت انبعاجة بحجم قبضة في خزان الوقود، وإحدى مواسير العادم مخلوعة، لكنها سليمة وستعمل. تستطيع أن تشعر أنها تنتظرها.

خرج مانكس من الظلام ووقف أمام مصباحَي السيارة الخلفيين. بدا كأنه ينظر إليها رغم أنه مستحيل أن يراها في الظلام والثلج المنهمر.

صاح: «مرحبًا! هل أنتِ معنا يا ڤيكتوريا؟ هل معك دراجتك الخبيثة؟».

قالت ڤيك: «دعه يا تشارلي. دعه يرحل إن كنت تريد أن تعيش».

- لا بد أنك تعرفين الآن مدى صعوبة قتلي! لكن تعالي يا ڤيكتوريا واتبعيني إلى أرض الكريسماس! لننهِ كل شيء هناك! سيسعد ابنك برؤيتك في أرض الكريسماس!

دون أن ينتظر ردها، ركب الشبح، وانطلق.

قال لُو: «إلهي! ڤيك! الرجل مستعد لك. لا بد أن هناك طريقة أخرى. لا تتبعيه. امكثي معي ولنفكر في طريقة أخرى».

- آن أوان الرحيل يا لُو. انتظِر وُين.

ركبت الدراجة وأدارت المحرك. أضاء الكشاف الأمامي خافتًا، ثم انطفأ. ارتجفت ڤيك في ملابسها الخفيفة، لكنها استجمعت قوتها ونزلت بثقلها على دوَّاسة التشغيل. سعلت الدراجة واهتزت، ثم خَبت. كررت ڤيك المحاولة مرة أخرى، فأزَّ المحرك، ثم هدر بصوت منتظم أخيرًا.

- هيا يا حلوتي... لننطلق ولنستعِد طفلنا.

ناداها لُو، لكنها لو نظرت إليه ورأته يبكي ستترك كل شيء، وتجلس جواره تهدهده.

ابتعدت تتعقب الشبح التي فقدت أثرها وسط الأشجار. تسارعت الدراجة ونثرت الأحجار والتراب تحت عجلتيها. ترنحت وتمايلت فوق الثلج متجهةً إلى ما خلف الأطلال، حيث فرجة في الأشجار السامقة تتسع لمرور الشبح.

أبطأت الشبح سرعتها قليلًا كي تراها ڤيك، ثم أسرعت حين تأكدت أنها تتبعها.

الهواء البارد يملأ رئتَي ڤيك ويجمدهما. رأت أمامها عند نهاية الطريق حائطًا حجريًّا، يتوسطه نفق ضيق بالكاد يتسع لمرور سيارة. فكرت ڤيك في جسرها، فطنت إلى أن هذا هو جسره.

رأت لافتة معدنية مثبته جوار النفق، مكتوبًا عليها: **المتنزه مفتوح كل يوم طيلة السنة! استعدوا للمرح أيها الأطفال!**

دخلت الشبح النفق، وتردد صدى صوت بُرل آيفز. ڤيك متأكدة الآن أن هذا النفق لم يكن موجودًا منذ عشر دقائق. تبعته، فصدح صوت محرك دراجتها بين الحوائط الحجرية.

خرجت الشبح من النفق، وهي خلفها، واخترقت بوابة من عصي الحلوى، أمامها تمثال يضحك لحارس كسارة البندق.

ها هي ذي أرض الكريسماس أخيرًا.

تِريَمف
ليلة كريسماس أبدية

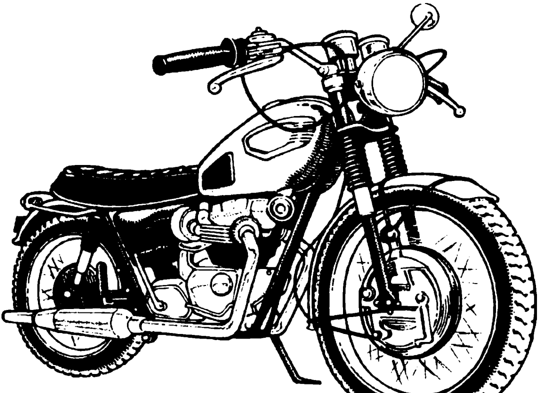

أرض الكريسماس

تبعت الشبح حتى الشارع الرئيسي، شارع العلكة. وقفت السيارة، وانطلق نفيرها ثلاث مرات، ثم ثلاث مرات أخرى، تعزف لحن أغنية «أجراس العيد».

ارتعدت ڤيك من البرد، واصطكت أسنانها. الهواء البارد يشق ملابسها مباشرة إلى جسدها كأنها لا ترتدي شيئًا. الدراجة غير متوازنة فوق الأرض المرصوفة بحجر الإسكافي، والمغطاة بالثلج.

الشارع أشبه بشوارع مدن منتصف القرن التاسع عشر المهجورة، تحفه على الجانبين أعمدة إنارة حديدية، مبانيه صغيرة ذات أسقف مائلة ونوافذ مظلمة. بمجرد أن عبرت الشبح على الطريق، أضاءت أعمدة الإنارة بشعلات زرقاء، وأشرقت واجهات المحلات.

مرت ڤيك جوار متجر حلوى اسمه: دكان الشوكولاتة، تزين واجهته مجسمات زلاجات تجرها الرنَّات، ومجسمات ذباب وأطفال برؤوس ماعز من الشوكولاتة الداكنة. ثم مرت بمتجر يعلق دُمى خشبية تمثل فتاة تضع كفيها على عينيها وفمها فاغر من الدهشة، وولد يمسك فأسًا دامية وأمامه مجموعة من الرؤوس والأطراف المبتورة المصنوعة من الخشب.

خلف كل هذا، سوق البلدة المظلمة كسائر شوارعها قبل دخول الشبح. رأت دوَّارة الملاهي ذات الزلاجات، تنتصب كشبح معدني عملاق، ورأت حلقة الخيل الدوارة، وخلف كل هذا جبل ضخم مغطى بملايين الأطنان من الجليد.

مع كل هذا، ما لفت نظر ڤيك السماء التي تغطي نصفها السحب الفضية، وتفترش النجوم حلكة النصف الآخر، بينهما يتدلى هلال ضخم ذو وجه معقوف الأنف، وثغر باسم، وعين ناعسة. يزفر القمر فيخرج البخار الأبيض

من أنفه، فترتعد السحب. وجه الهلال المطل فوق أرض الكريسماس، هو وجه تشارلي مانكس نفسه.

ظلت ڤيك تعاني الجنون سنوات، لكنها لم ترَ أو تحلم قط بشيء كهذا. لو صادفها أي شيء في الطريق ستصدمه، المشهد يحتل مجال إبصارها كله.

أخفضت نظرها إذ لمحت شيئًا يتحرك، طفلًا يقف في حارة مظلمة بين متجر الأيام الخوالي، وكوخ السيد مانكس لبيع مخفوق التفاح.

دقت الساعات في الشوارع حين مرت بها الشبح، ثم تصاعد البخار من مدخنة كوخ السيد مانكس لبيع مخفوق التفاح.

الطفل في الحارة يرتدي معطفًا من الفراء، وشعره طويل غير ممشط يشبه شعر الفتيات، لكن الظلام منع ڤيك من تحديد جنس الطفل. الوجه شاحب بلا تعبير كأنه قناع. راقبها الطفل -الشيء- إذ تمر، ولم يتكلم. عيناه تعكسان ضوءًا أحمر كأنهما عينا ثعلب أمام كشاف قوي.

أدارت رأسها راغبة في التحقق مما رأت، فأبصرت ثلاثة أطفال يخرجون من الحارة مندفعين نحوها، واحد منهم يحمل منجلًا، والاثنان الآخران حافيان فوق الجليد.

هذا سيئ. لقد حوصِرت.

نظرت أمامها، فوجدت دوارة الزلاجات الضخمة التي تحيط بأكبر شجرة كريسماس رأتها في حياتها. جذع الشجرة في سُمك كوخ صغير. يتفرع شارعان عن يمين ويسار الشجرة، أما وراءها فلا يوجد شيء إلا سور حجري ضخم كأن العالم ينتهي هناك، فوقه سماء مرصعة بالنجوم التي تدور حول نفسها، ساطعة أكثر آلاف المرات من النجوم العادية، مُصطنعة مثل أي سماء أخرى رسمتها ڤيك في كتب محرك البحث. هذا العالم ينتهي هنا بالفعل. هي ترى حدود خيال تشارلي مانكس.

أضاءت شجرة الكريسماس بغتة، فظهر تحتها الأطفال المحتشدون حولها. بعضهم يجلس فوق الفروع الدانية -قرابة ثلاثين طفلًا- وبعضهم يقفون أسفلها، يرتدون سترات من فراء فوق فساتين وبذلات من موضة عتيقة. للحظة ظنت ڤيك أنهم يرتدون أقنعة زجاجية ذات أفواه باسمة وشفاه ممتلئة حمراء. لكن حين دققت أكثر، اكتشفت أن هذه هي وجوههم التي

تتعرج فوقها الأوردة السوداء، وتكشف ابتساماتها أسنانًا حادة معقوفة. أطفال مانكس ليسوا أطفالًا، بل دمى باردة ذات أنياب.

أحد الأطفال الجالسين فوق غصن، يشهر سكينًا في طول ذراعه، وتحمل طفلة أخرى سلسلة ذات خطاف، وثالث يطوح ساطورًا ويرتدي قلادة مكونة من أصابع مبتورة.

اقتربت ڤيك لترى بوضوح الزينة المعلقة، فهالها المنظر، واندفع الهواء خارج رئتيها. الشجرة مزينة برؤوس مجففة مُجمدة، تحتل فجوات سوداء محل الأعين، والأفواه مفتوحة في صرخة أبدية. لفت نظرها رأس معلق لرجل ملتحٍ يرتدي نظارة خضراء.

توقفت الشبح بالعرض، تغلق الطريق على ڤيك، فأوقفت تِريَمف على مسافة ثلاثين قدمًا. اندفع الأطفال نحو الشبح، لكن بعضهم طوق ڤيك من الخلف كأنهم سور بشري، أو غير بشري لو تحريت الدقة.

صاحت ڤيك: «اتركه يرحل يا مانكس!».

تطلب حديثها الواثق كل قوتها كي تتخطى رجفة الرعب والبرد. لا توجد جهة آمنة تنظر إليها. الشجرة مرصعة برؤوس التعساء الذين وجدوا طريقهم إلى أرض الكريسماس. يحيطها من كل صوب مسوخ مانكس الباردة.

انفتح باب الشبح وخرج تشارلي مانكس، يرتدي قبعة ماجي. صار مانكس أصبى من ڤيك نفسها، وعلى وجهه بدت لمحة وسامة. ما زالت أذنه مفقودة، لكن الجرح مندمل ناعم. يحمل في يده المطرقة الفضية، يطوحها أمامًا وخلفًا في تكاسل، كأنها بندول ساعة في مكان لم يعد للزمن فيه أهمية.

أطلق القمر شخيرًا عاليًا، فاهتزت الأرض.

ابتسم مانكس، ورفع قبعة ماجي في تحية لڤيك، ثم التفت إلى أطفاله الذين يهرعون إليه من كل حدب.

- مرحبًا أيها الصغار! أوحشتموني... أوحشتموني...! لنضئ الأنوار فأراكم جيدًا.

رفع يده وجذب حبلًا خياليًّا، فأضاءت لعبة دوارة الزلاجات بلون أزرق، ودارت الألعاب الأخرى وانطلقت الموسيقى من اللامكان، تعزف ترانيم الكريسماس المبهجة.

تحت أضواء الملاهي الساطعة، رأت ڤيك ملابس الأولاد مبقعة بالطين والدم. طفلة تنطلق نحو مانكس مادَّة يديها أمامها، يبقع صدر فستانها علامات أكف دامية. لفت ذراعيها حول ساقَي مانكس، فقرب رأسها نحوه وعانقها.

- أوه يا لوري الصغيرة!

اقتربت منه فتاة أطول، ذات شعر أسود يصل إلى ركبتيها، فأضاف: «حبيبتي ميلي».

ترتدي الفتاة الكبرى زي حارس كسارة البندق ذا اللونين الأحمر والأزرق، وتدس سكينًا ذهبية في حزامها.

استدار مانكس نحو ڤيك، وذراعاه تطوقان كتفَي ابنتيه. نظر إليها في كبرياء وقال: «كل شيء فعلته يا ڤيكتوريا، فعلته من أجل أطفالي. هذا المكان خالٍ من الحزن والشعور بالذنب. الكريسماس يدوم هنا للأبد. في كل يوم يجد الأطفال الهدايا والحلوى. انظري ما منحته لابنتيَّ -دَمي ولحمي- وما منحته للأطفال السعداء الآخرين! هل في وسعك أن تقدمي لابنك ما هو أفضل؟ هل قدمت له ما هو أفضل؟».

قال طفل من خلف ڤيك: «هي جميلة. جميلة مثل أمي».

قال طفل آخر: «تُرى كيف ستبدو من دون أنف؟».

وانطلقت الضحكات. سأل مانكس: «ماذا منحتِ وُين غير التعاسة يا ڤيكتوريا؟ هل يمكنك أن تمنحيه نجومًا وهلالًا خاصين به؟ ملاهٍ لا تهمد، وهدايا لا تنفد؟ أصدقاء يلعبون ولا يملون؟ حياة خالية من المرض والسأم؟».

قالت ڤيك: «لم آتِ للتفاوض يا تشارلي».

هي عاجزة عن تثبيت نظرها إليه، مع كل الحركة المريبة حولها، والأطفال الذين يحملون السكاكين والسلاسل، ويعلقون في أعناقهم الأصابع المبتورة.

- أتيت لأقتلك. لو لم تعِد لي ابني، سأمحو كل هذا، أنت وأطفالك وعالمك الخيالي المريض. هذه فرصتك الأخيرة.

قال الولد الصغير ذو الصوت الرفيع: «هي أجمل فتاة على الإطلاق! عيناها جميلتان. عيناها تشبهان عينَي أمي».

قال الولد الآخر: «لا بأس. لتأخذ أنت العينين، وأنا سآخذ الأنف».

صدح صوت غناء هستيري من مكان ما تحت الشجرة ينشد:

في أرض الكريسماس سنصنع فتاة من ثلج.
وسنجعلها تصدق أنها مهرج سخيف.
سنتسلى كثيرًا مع الآنسة فتاة الثلج
حتى يمزقها الأطفال بشكل مخيف!

سكتَ الصوت، وساد الصمت الذي لم تشهد ڤيك مثله من قبل. وضع مانكس خنصره على شفتيه مفكرًا، ثم أطرق.

- ألا تظنين أنه من الأفضل أن نسأل وُين عما يريد؟

ثم مال وهمس شيئًا إلى ابنته الكبرى، فسارت -ميلي- إلى مقدمة الشبح. شعرت ڤيك بحركة خلفها، فرأت طفلة ترتدي معطفًا من الفراء، بلا شيء تحته إلا سروال داخلي. حين رأتها الفتاة تنظر إليها تجمدت في مكانها كتمثال وهي تحمل بلطتها معلقة في الهواء. ضحكة الفتاة تكشف عن صفَّي أسنان حادة تمتد إلى حلقها.

التفتت ڤيك مرة أخرى نحو السيارة. ميلي تفتح الباب وتقف جواره. لا شيء خلفه سوى الظلام الفاخر. مرت لحظات حتى رأت كف وُين تمسك إطار الباب، ثم يُنزل قدميه، ويخرج إلى الطريق.

نظر إلى ما حوله في دهشة: كان نظيفًا براقًا مُصفف الشعر، فمه فاغر يكشف عن...

رأت أسنانه، صفان من العظام الحادة المعقوفة، مثله كمثل الآخرين. صاحت بصوت مختنق: «وُين!».

- أمي! أمي، أليس هذا مذهلًا؟ هذا حقيقي! كل شيء حقيقي!

نظر إلى الجدار الحجري، والهلال المعلق وسط السماء، ثم ضحك. لا تذكر ڤيك آخر مرة ضحك فيها ابنها بهذا الصدق والانطلاق.

- أمي! للقمر وجه!

- تعال يا وُين. تعال الآن. تعال إليَّ. يجب أن نغادر.

نظر إليها حائرًا وسألها: «لماذا؟ لقد وصلنا للتو».

لفت ميلي ذراعها حول خصر وُين، كأنهما عاشقان. استدار نحوها متسائلًا، فهمست في أذنه شيئًا. ميلي خارقة الجمال. أنصت إليها وُين وعيناه تتسعان أكثر وفمه يكشف عن مزيد من الأنياب.

نظر إلى ڤيك وهتف: «آها! أنت تمزحين! هي تقول لا يمكن أن نغادر إلى أي مكان. يجب أن أفتح هدية الكريسماس!».

مالت الفتاة وأكملت همسها في أذن وُين. صاحت ڤيك: «ابتعِد عنها يا وُين».

اقتربت الفتاة السمينة ذات المعطف من ڤيك أكثر، حتى كادت بلطتها تلامس ساقها. سمعت ڤيك صوت خطوات أخرى خلفها، تقترب منها إذ يتحرك الأطفال.

نظر وُين إلى الفتاة نظرة جانبية طويلة، ثم قال عاقدًا حاجبيه: «بالطبع يمكن المشاركة في فتح هديتي. كلكم يستطيع المشاركة. أين هي؟ لنحضرها ونمزق غلافها الآن!».

أخرجت الفتاة سكينها وأشارت بها نحو ڤيك.

تحت الشجرة العظيمة

قال مانكس: «ماذا قلت لتوك يا ڤيكتوريا؟ فرصتي الأخيرة؟ أعتقد أن هذه هي فرصتك أنت الأخيرة. لو كنت مكانك، لرحلت بينما أستطيع».

نادت ابنها وهي تنظر إلى عينيه: «وُين. أما زلت تفكر بالعكس كما قالت لك جدتك؟ أخبرني أنك ما زلت تفكر بالعكس».

نظر إليها نظرة خاوية، كأنها تحدثه بلغة لا يفهمها. ظل فمه مفتوحًا هنيهة، ثم قال ببطء: «صعب هذا لكن، أمي يا أحاول».

ابتسم مانكس وتراجعت شفتاه عن أسنانه المعوجَّة، لكن ڤيك لمحت شيئًا يتغير في ملامحه، ربما ضيق أو قلق.

- ما هذا الهراء؟ هل تلعبان لعبة يا وُين؟ دعوني أشارككما... ماذا قلت لتوك؟

قال وُين في حيرة صادقة: «لا شيء! لماذا تسأل؟ ماذا بدا لك أنني أقول؟».

قالت ڤيك: «قال إنه لي. قال إنه لن يكون ملكك».

قال مانكس: «لكنه بالفعل ملكي الآن يا ڤيكتوريا، ولن أتخلى عنه».

أنزلت ڤيك حقيبة المتفجرات عن كتفها، وأخرجت منها كيس أنفو.

- إذًا ساعدني ما دمت لا تريد إطلاق سراحه. ليكون هذا آخر كريسماس لعين لكم جميعًا. سأفجر هذا المكان.

عدَّل مانكس من وضع قبعة ماجي على رأسه، وقال: «أنت تستخدمين ألفاظًا غير لائقة! لم أعتد هذه الكلمات من النساء، تجعلهن كحثالة».

اقتربت الفتاة السمينة نصف خطوة أخرى. عيناها حمراوان، ذكرت ڤيك بأعين الحيوانات المسعورة. ابتعدت ڤيك بدراجتها قليلًا لتُبقي على مسافة آمنة بينها وبين الأطفال. ضبطت مؤقت المتفجرات على خمس دقائق، ثم ضغطت الزر ليبدأ العد العكسي. توقعت ڤيك أن ينفجر الشيء وينسفها من العالم، لكن هذا لم يحدث، ولم يصدر الجهاز أي إشارة لأنه يعمل.

رفعت الكيس فوق رأسها وقالت: «هناك مؤقت يا مانكس سيفجر هذا الشيء خلال ثلاث دقائق، أو أكثر أو أقل قليلًا. معي عشرات منه في الحقيبة. أرسِل معي وُين الآن، وما إن يركب الدراجة، سأوقف المؤقت».

- ماذا لديك في هذا الكيس؟ يبدو مثل الوسائد الصغيرة التي يوزعونها في الطائرات.

- هذا كيس خراء. مثلك.

- هذا... ماذا قلتِ؟

- أنفو. أسمدة غنية بالنترات، نُقِعت في وقود الديزل، وهي مماثلة لانفجار صندوق TNT. فجر تيموثي مَكڤي[1] مبنى فيدرالي من اثني عشر طابقًا باستخدام كيسين من هذا. يمكنني أن أفعل هذا في عالمك كله.

رغم المسافة بينهما، استطاعت ڤيك أن تراه يحسب الاحتمالات، تتسع ابتسامته وهو يقول: «لا أصدق أنك قد تفجرين نفسك وابنك. لا بد أن تكوني مجنونة لتفعلي هذا».

- أوه، يا رجل! هل أدركت هذا لتوك؟!

خبت ابتسامته، وغاصت عيناه، وتحول تعبير وجهه إلى الإحباط. صرخ، ففتح الهلال عينه المحمرة الوحيدة وصرخ معه. صوته صوت مانكس.

- **احضروها! اقتلوها! لقد أتت إلى هنا لتُنهي الكريسماس! اقتلوها الآن!**

اهتزت الأرض، وارتعشت أغصان شجرة الكريسماس بما فيها من رؤوس. فقدت ڤيك سيطرتها على تريَمف، فقفزت أمامًا بضع بوصات، وانزلقت حقيبة المتفجرات من فوق فخذها لترتطم بأحجار الأرضية.

---

(1) تيموثي جيمس مَكفي، إرهابي أمريكي. (المترجمة)

ارتعدت المباني إثر صراخ القمر. ذُعِرت ڤيك وعبر ذعرها حدود الوعي واللغة. ظل القمر يصرخ فتنهال ندف الثلج كالسيل.

طوحت الفتاة السمينة المنجل نحو ڤيك، فرشق النصل الصدئ في ركبتها المصابة. الألم يفوق كل قدرة على التحمل.

ارتفعت يد ڤيك عن المكابح، فانطلقت الدراجة بضعة أقدام، تجر حقيبة المتفجرات خلفها. ما زال معها حتى لو كان بعيدًا عن يدها.

تضم كيس الأنفو إلى صدرها. الوقت على المؤقت يقل.

تخلصي منها في أي مكان لتريه الدمار الذي يمكنك إحداثه.

انطلق الأطفال نحوها من كل صوب، وسمعت صوت خطواتهم الدقيقة خلفها. نظرت خلفها لترى الفتاة الطويلة تُمسك بوُين وتقف جوار الشبح، والفتاة الأخرى تلف ذراعها حول صدره، وتمد يدها بالسكين التي فطنت ڤيك إلى أنها قد تقتل بها وُين لو حاول الهرب.

قفز طفل نحوها بغتة، فزادت ڤيك السرعة ليسقط مهاجمها خلفها. ما زالت حقيبة المتفجرات تتبعها، معلقة خلف الدراجة، تتخبط على الأرض وتنزلق فوق الثلج. وجهت ڤيك الدراجة نحو الرولز رويس كأنها تريد اختراقها. سحب مانكس الفتاة الصغيرة وتراجع بها نحو باب السيارة المفتوح. رد فعل أبوي خالص.

فهمت ڤيك أخيرًا أنه مهما تحول الأطفال، ومهما فعل بهم، فهو يحميهم ويمنع عنهم الأذى. مانكس يؤمن بضلالاته من كل قلبه. يا له من وحش صادق!

ضغطت ڤيك المكابح، ودارت بالدراجة مائة وثمانين درجة قبل أن تصطدم بالشبح، ثم انطلقت بأقصى سرعة، فتعثر الأطفال الذين كانوا يتبعونها وتكوَّموا كما تتكوم أوراق الشجر الجافة عند جانب الطريق.

واحدة منهم، ترتدي رداء نوم ورديًا، أكملت طريقها ودارت حول ڤيك التي لم تقدر على دهمها بالدراجة، فاستدارت سريعًا بعيدًا عنها. انزلقت تِريَمف على أحجار الشارع الزلقة وفقدت سرعتها، فوجدت ڤيك الطفلة تعتلي الدراجة وتنشب مخالبها -حقيقةً لا مجازًا- في ساقها قبل أن تجلس خلفها.

أسرعت ڤيك مرة أخرى، ودارت حول نفسها. الفتاة خلفها تصدر أصواتًا غريبة لا تصدر إلا عن كلب. قبضت على ذراع ڤيك، فأجفلت من برودة يدها. طوحت الفتاة السلسلة التي تحملها، وضربت بها ركبة ڤيك المصابة، كأنها تعرف ما يؤلمها أكثر. صرخت وضربت بكوعها إلى الخلف لتضرب وجه الفتاة الأبيض البارد. صرخت الفتاة، فنظرت ڤيك خلفها وفقدت تحكمها في الدراجة، تغير وجه الفتاة واتسع فمها ليصير فجوة وردية تمتد الأسنان على عمقها حتى الأمعاء. لسانها أسود، أنفاسها نتنة. فتحت فمها حتى صار باتساع يكفي ذراعًا كاملة، ثم نهشت كتف ڤيك. تمزق اللحم والرداء كأنما قُطعا بمنشار كهربي. مالت الدراجة تمسح الأرض وينطلق منها شرر ذهبي. لا تعرف ڤيك إن كانت قد سقطت أم قُذِفت، المهم أنها الآن تتدحرج وسط الثلج.

- **لقد سقطت! لقد سقطت! مزقوها! اقتلوها!**

صرخ القمر، وُزلزِلت الأرض تحتها. تمددت على ظهرها ونظرت إلى السحاب الفضي فوقها. *(تحركي)* حاولت أن تحدد مدى تضررها. هي لا تشعر بساقها اليسرى. *(تحركي)*.

جانبها الأيسر مكشوط ملتهب. رفعت رأسها قليلًا، فدار العالم من حولها وغشيها الغثيان. *(تحركي تحركي)*.

رمشت، وللحظة رأت السماء مفروشة بالتشويش الاستاتيكي. *(تحركي)*.

استندت إلى كوعها ونظرت يسارًا. سحبتها تِريَمف إلى طريق فرعي يخترق الملاهي. الأطفال يهرعون نحوها، صامتين، ينبثقون من الظلام. خلفهم أشجار بارتفاع عشرة طوابق، وراءها الشبح ووُين.

نظر إليها القمر من أعلى بعينه الجاحظة المحمرة البشعة.

- **المقصات للمشرَّدين! المقصات للعاهرات!**

ومضت السماء فاختفى الهلال ثم عاود الظهور، كأنها تشاهد قناة تلفاز تغيب وتظهر بين التشويش الاستاتيكي. السماء مشوشة، تسمع ڤيك هسيسها.

تحركي! استجمعت عزيمتها ووقفت، ترفع الدراجة عن الأرض. صرخت وضرب الألم ركبتها اليسرى وصولًا إلى جانبها.

الفتاة التي عضتها ملقاة عند باب متجر «ملابس تشارلي الاحتفالية». تجلس وتهز رأسها كأنها تُجليه، ورأت ڤيك كيس الأنفو قرب ساقَي الفتاة.

الأنفو! مالت ڤيك تحرر حقيبة المتفجرات العالقة في الدراجة، ثم تعلقها على كتفها وتعتلي تِريَمف. المفترض أن يصرخ الأطفال الذين يعدون نحوها، أو يتصايحون أو يصدرون أي صوت. هذا الهدوء مرعب.

حاولت ڤيك تشغيل الدراجة، لكنها لم تفلح. أحد الأنابيب قد انكسر، وتدلى على الأرض. كلما حاولت تشغيل المحرك، يطرق أزيزًا ثم يموت.

ضربت صخرة مؤخرة رأسها، فانفجر وميض خلف عينيها. السماء مشوشة، تختفي وتظهر. حاولت مع الدراجة مرة أخرى، لكن لم يستجدِ شيء.

وصل إليها أول الأطفال، ولم يكن يحمل سلاحًا. ربما هو من ضربها بالحجر. أنشب أنيابه في ساقها واخترقت الخطاطيف عضلة ما فيها. ركلت ڤيك وصرخت. حاولت تشغيل المحرك سريعًا، فبُعِث حيًّا أخيرًا. طوحت الولد بعيدًا، وانطلقت بأقصى سرعة نحو دوَّارة الزلاجات. عشرون أو ثلاثون أو ربما أربعون طفلًا يتبعونها، أغلبهم حفاة. الطفلة الجالسة عند متجر ملابس تشارلي الاحتفالية تمسك كيس المتفجرات تتفحصه، ثم ومض ضوء أبيض.

دفع الانفجار الهواء، وشعرت ڤيك للحظة أنه سيقتلع الدراجة من الطريق. انفجرت نوافذ المباني وانهار المتجر. امتدت النيران عبر الطريق لتصل إلى مجموعة أطفال فتطوحهم إلى ظلمة الليل. انخلعت أحجار الشارع وطارت في الهواء.

صرخ الهلال في رعب، وعينه الوحيدة تزداد جحوظًا، قبل أن تضرب الموجة التضاغطية السماء فتموِّجها كأنها صورة على سطح الماء. اختفى الهلال والنجوم خلف التشويش.

شمَّت ڤيك رائحة الديزل والهواء المحترق، والأحجار المفتتة. أخيرًا تراجعت موجة الانفجار، وعاودت السماء الظهور. شقت ڤيك شوارع مدينة الملاهي حتى ابتعدت كفاية، وتوقفت. احتاجت إلى دقيقة كي تستوعب ما ترى. طفل تلو الآخر يخرجون من وسط الأطلال والنيران والدخان، ينطلقون نحوها. واحد منهم كان مشتعلًا بالفعل. كلٌّ من تحطمت عظامهم يقومون ويسيرون نحوها. لم تتعجب ڤيك مما ترى، هم في النهاية موتى من قبل الانفجار، ولن يموتوا أكثر. فحصت محتويات الحقيبة وتأكدت أنها لم تفقد

أيها. أوصل لُو المؤقتات بأربعة أكياس، وقد استخدمت واحدًا منها. هناك كيسان في قاع الحقيبة بلا مؤقتات.

تحركت ڤيك مرة أخرى عبر الملاهي، نحو مقدمة المكان ودوَّارة الزلاجات الخاوية التي تدور وتضيء بلا انقطاع. الدوَّارة ذات طراز عتيق مألوف في الثلاثينيات، ومدخلها عبارة عن وجه سانتا كلوز.

ألقت بكيس من المتفجرات ذات المؤقت في فم سانتا، وكادت تبتعد لولا لمحت الأجساد المحنطة التي تركب الزلاجات. عشرات الرجال والنساء ذوو الأجساد الجافة المسودة ومحاجر الأعين الفارغة. أحدهم علق على أجسادهم زينة الكريسماس، وواحد من الرجال يطوق رأسه تاج الشوك، كأنه يسوع المسيح.

كانت تحدق إلى الجثث، حين رماها طفل بسكين مطبخ، فأصاب أسفل ظهرها. لم يكن عمره قد جاوز العاشرة، وابتسامته الحلوة لم تختفِ عن وجهه رغم ما فعله.

شعرت ڤيك بألم يختلف عن أي ألم آخر شعرت به. السكين اخترق ظهرها ووصل إلى أمعائها. فكرت في دهشة: *لقد قتلني! أنا أموت!*

جذب الطفل السكين وهو يضحك في براءة. لم يضحك ابنها بهذا الانطلاق من قبل. قال: «أريد أن ألعب معك. امكثي معنا والعبي المقصات للمشردين».

كان يمكن أن تضربه أو تركله، لكنه ابتعد عن دراجتها ببساطة، وتنحى عن طريقها وعيناه تحملان تساؤلًا بريئًا: *هل ضايقها؟*

المؤقتات غير دقيقة، فقد انفجر الكيس الأول بعد عشر دقائق لا خمس. ضبطت مؤقت دوَّارة الزلاجات بحيث يمنحها وقتًا كافيًا لتبتعد، لكن بعد أن ابتعدت مائة ياردة، انفجر الأنفو، وتماوجت الأرض تحتها. الهواء يحرق رئتيها، والدراجة تُدفع بلا تحكم منها. ألم بطنها يتزايد.

تهاوت الدوَّارة واشتعلت، وراحت تبصق الشظايا والألواح المعدنية. انعطفت إلى طريق تعتقد أنه يؤدي إلى مدخل الملاهي. طعم فمها مُر. بصقت، فرأت الدماء تلوث كل شيء أمامها.

أنا أموت...

همست بها في استسلام وهدوء. أخرجت ڤيك كيس متفجرات آخر وضبطت المؤقت ليُفجره بعد خمس دقائق، ثم طوحته لأعلى ليسقط فوق العجلة الدوارة الرأسية المضيئة. تذكرت دوران عجلتَي دراجتها الرالي، وكيف كانت تحب إضاءة الخريف في نيو إنجلاند. هي لن ترى هذه الإضاءة مرة أخرى.

امتلأ فمها بالدماء، وسال من جرحها ليغرق مقعد الدراجة. فطنت إلى أن ما تشعر به من ألم أقرب لألم الولادة. شعور بأن شيئًا مستحيلًا يحدث.

دارت حتى وصلت أطلال متجر تشارلي إلى الملابس الاحتفالية، حيث تستطيع أن ترى الرولز رويس تقف جوار شجرة الكريسماس. لم تبطئ سرعتها، واندفعت نحوها. مدت يدها داخل الحقيبة وأخرجت آخر أكياس المتفجرات، وضبطت مؤقته.

ثم دوى الانفجار الثاني وطار الأطفال في الهواء، وطارت من أيديهم أسلحتهم المرتجلة. رجَّ الانفجار العالم بأسره، وأفسد السماء فوق أرض الكريسماس للحظات.

اندفعت ڤيك نحو الشجرة العظيمة، وألقت تحتها كيس المتفجرات، هدية كريسماس أخيرة لمانكس.

صوت الحريق وصراخ التروس والمعادن، وأنين الأخشاب يغطي على أي شيء آخر. ثم تحرر الجليد من فوق قمة أحد الجبال، وبدأ ينزلق نحو أرض الكريسماس، يفوق صوته أي صوت تخيلته ڤيك من قبل.

الاهتزازات المنبعثة منه تُرجِف العظام في اللحم. ضرب الجليد المتاجر ونهاية الملاهي، وانهار هذا الجزء من البلدة على نفسه، ودُفن تحت السيل الأبيض الذي يكتسح كل شيء في طريقه الآن.

شعرت ڤيك أن الأرض قد تنشق وتبلعهم في... فيمَ؟ ماذا ينتظر خلف خيال مانكس؟

الانهيار الجليدي يكتسح أرض الكريسماس.

الرولز رويس تقف، مضاءة الكشافات، محركها يهدر، يغطيها الرماد والثلوج. لمحت ڤيك ابنة مانكس المدعوة لوري، تجلس في المقعد الأمامي المجاور للسائق، تنظر عبر النافذة إلى الظلام المباغت.

لقد انطفأت أنوار أرض الكريسماس، ولا يوجد مصدر ضوء إلا التشويش الاستاتيكي في السماء. يقف وُين أمام صندوق السيارة الخلفي، يحاول التملص من الفتاة المدعوة ميلي. يمسك بذراعها بقوة، يمنعها من أن تذبحه بسكينها. صرخت الفتاة: «يجب أن تفعل ما يريد أبي! يجب أن تدخل صندوق السيارة! أنت تملصت كفاية!».

ومانكس... مانكس يدور حاملًا مطرقته، كجندي يبحث عن الثأر. صاح مانكس بابنته: «اتركيه يا ميلي! لا وقت لدينا. اتركيه ولنرحل».

غرزت ميلي أسنانها في أذن وُين، فصرخ وهز رأسه بقوة، ففارقت شحمة أذنه صحبة وجهه. دار حول نفسه وانزلق من داخل قميصه، تاركًا الفتاة تقبض على القماش الفارغ.

صاح وُين بالعكس: «أمي، أوه! أمي!».

جرى خطوتين، ثم انزلق في الجليد فهوى على أربع على الطريق.

اندفعت ملايين الأطنان التي استطاع مانكس تخيلها من الثلج، ودفنت كل شيء في طريقها. اتجه مانكس نحو وُين، رافعًا مطرقته، منتويًا ضرب رأس الصبي الجاثي.

صاحت ڤيك: «ابتعد عن طريقي يا تشارلي!».

التفت تشارلي نحوها، فكادت تضربه بدراجتها. دفعته قوة المحرك فتعثر وكاد يسقط. ثم انفجر آخر أكياس الأنفو تحت الشجرة، واقتلعت العالم كله معه.

حارة العلكة

نحيب عالٍ...

التراب يدفع الشظايا واللهب.

خبا كل صوت، إلا صوت إشارة بث الطوارئ.

ارتخى الزمن، وتحرك بطيئًا لزجًا كعسل يسيل من فم زجاجة.

اخترقت ڤيك سحابة الحطام، ورأت جذع شجرة بحجم سيارة كاديلاك يتدحرج أمامها، يتحرك بخُمس سرعته الطبيعية.

فقدت ڤيك أثر تشارلي مانكس وسط عاصفة الرماد والحطام. لم ترَ إلا وُين يعدو، خلفه الفتاة تلوح بسكينها، حتى انفلقت الأرض تحتها فتدحرجت نحو الحائط الحجري عند حافة المنحدر.

دارت ڤيك من حولها، ففتحت ميلي فمها الواسع في سخط. دفعت الفتاة الحائط كي تقف، لكنه تداعى وسحبها معه نحو الفراغ الاستاتيكي.

نادت ڤيك ابنها، لكنه ظل يعدو، أعمى، أصم، لا ينظر خلفه. حملتها تِريَمف نحوه، حتى استطاعت أن تلف ذراعها حول خصره وتُجلسه على الدراجة خلفها. كان هناك وقت لفعل كل هذا، الزمن يدور ببطء شديد حولهما. تزايد الألم، لكن ڤيك لم تعبأ، هي تموت على أي حال.

تحولت ثلوج مئات الأعوام إلى وسادة تخنق وجه رجل مُسن.

لكم استمتعت برائحة لُو كارمودي، رائحة المرأب والصنوبر. والآن هي تستمتع في لحظاتها الأخيرة بملمس ذراعَي ابنها حول خصرها.

في الحُلكة الهابطة فوق كل شيء، صمتت أصوات الكريسماس. لكم كرهت أصوات أغاني الكريسماس.

تدحرج جذع شجرة آخر وارتطم بالأرض، فانفجر مبعثرًا قطعًا ملتهبة بحجم الطبق. شظية مشتعلة في حجم ذراع ڤيك طارت نحوها وجرحت جبهتها.

زادت سرعة تِريَمف إلى السرعة الرابعة.

اعتصر ابنها خصرها فأنَّت كليتها، كأنه يعتصر الحياة منها، وهو شعور جيد.

وضعت كفها فوق كفيه المعقودتين على بطنها، وربَّتت على أصابعه الناعمة. ما زال ابنها. عرفت هذا لأن يديه دافئتان، لا مثل أطفال تشارلي مانكس. هو طفل من ذهب، والذهب لا يصدأ أبدًا.

انبثقت NOS4A2 من الغبار خلفها، وسمعتها عبر الصمت المميت. سمعت صوت زئيرها غير البشري، ومحركها الثمن، وهدير كراهيتها. إطاراتها تطحن الأنقاض. مصابيحها تكشف دوامات الغبار المعلق في الهواء، وتضيئها فتصير كآلاف الماسات الدقيقة.

مانكس خلف المقود، يتحدث عبر نافذته المفتوحة، فيأتي صوته غريبًا، عاليًا، ذا رنين كأنما يتحدث في صَدَفة.

- **سأذبحك، أيتها الغانية البائسة! سأسحقك... سأسحقكما! قتلتما كل ما لدي، وسأقتل كل ما لديكما!**

ضرب حاجز السيارة الأمامي مؤخرة الدراجة، فتمايلت بقوة. خشيت ڤيك أن يسقطا، فتدوسهما الشبح. تكرر التصادم، فاندفعت ڤيك إلى الأمام مرتطمة بالمقود.

رفعت رأسها، فرأت جسر الطريق المُختصر يظهر كفم مفتوح وسط بياض التراب والدخان. زفرت في راحة، الجسر هنا وسيُخرجها من هذا المكان. برودته أشبه ببرودة كف أمها على جبينها المحموم.

لكم تشتاق إليها وإلى أبيها ولُو، وشعرت بالأسف أنهم لم يجتمعوا كثيرًا. شعرت أنهم جميعًا ينتظرونها عند الجهة الأخرى من الجسر كي تتلقفها أذرعهم.

عبرت تِريَمف مدخل الجسر، ورأت ڤيك على يسارها عبارة: لُو ←

عبرت الشبح الحاجز خلفها، وضربت دراجتها الرالي القديمة فدمرتها. تبعتهما موجة ثلوج خنقت فم الجسر وسدَّته.

صرخ مانكس بصوته الهادر: «**أيتها الزانية الموشومة! أيتها العاهرة الموشومة!**».

دفعت الشبح تِريَمف، فاحتكت كتف ڤيك بحائط الجسر وكادت تسقط. انخلع لوح من ألواح النفق وهوى إلى الفراغ الاستاتيكي خلفه.

ارتعد الجسر المغطى وتمايل.

صاح وُين بصوت طفل صغير: «الوطاويط يا ماما! انظري إليها!».

تخلت الوطاويط عن السقف، وملأت الفراغ حولهما. أحنت جسدها، واخترقتها. ضرب واحد صدرها وسقط على فخذها ينتفض.

قالت ڤيك: «لا تخف. لن تؤذيك. أنت بروس وُين[1]، وكل الوطاويط في صفك!».

- أجل. أنا بروس وُين. تذكرت.

كأنه للحظة فقد معرفته بذاته. نظرت ڤيك خلفها لترى وطواطًا يضرب زجاج الشبح الأمامي فيشرخ الجهة المقابلة لوجه مانكس. ضرب آخر الزجاج، وانفجر ملطخًا ما حوله بالدماء والفراء. عَلِق في مسَّاحة الزجاج وظل يرفرف.

تتالت ضربات الوطاويط، بعضها التصق بالزجاج، وبعضها أكمل طريقه إلى الظلام.

ظل مانكس يصرخ في حنق. لم تُرِد ڤيك أن تسمع الصوت الآخر في السيارة، ذاك الذي يصرخ: «كلا يا أبي! قلل السرعة!». لكن الصوت وصلها مُكبَّرًا كصوت الأب، وتردد صداه في جنبات الجسر.

ارتطمت الشبح بالحائط، ومزقت فيه فجوة بعرض ثلاثة أقدام. أدار مانكس عجلة القيادة، فاصطدمت السيارة بالجهة المقابلة، وانخلعت الألواح وتطايرت بصوت يشبه صوت طلقات البندقية الآلية.

---

(1) اسم الرجل الوطواط (باتمان) الحقيقي. (المترجمة)

هرعت الوطاويط تدخل من النافذة، وتخمش وجه مانكس وابنته التي صرخت. ترك مانكس عجلة القيادة وراح يدفع عن نفسه الأجساد الصغيرة المشعرة.

- اغربي عن وجهي أيتها الأشياء القذرة!

ثم صرخ.

زادت ڤيك السرعة لتقطع ما تبقى من الجسر. الظلام يغلي فيفور بالمزيد من الوطاويط.

انغرزت مقدمة الشبح في فرجة في الأرضية، وارتفعت مؤخرتها في الهواء. ارتمى مانكس أمامًا نحو المقود، وفمه مفتوح في ذعر.

- لا!

اتسعت فجوة الأرضية، واخترقتها السيارة إلى الأسفل. الجسر يتمزق ويكشف عن الهدير الأبيض أسفله. الجسر يتهاوى من المنتصف وشعرت ڤيك كأنها تقود دراجتها صاعدةً تلًّا.

الجسر ينخفض من المنتصف ويرتفع من الطرفين، كأنه يحاول غلق نفسه ككتاب. NOS4A2 تهوي إلى الفراغ الاستاتيكي الأبيض الهادر، تخترق الزمان والمكان، لترتطم بنهر ميريماك عام 1986، وتتحطم كما تتحطم عبوة من الصفيح الهش. احترق المحرك الضخم للسيارة، ودعس صدر مانكس، فصار قلبه الحديدي الذي يزن أربعمائة رطل.

انجرف جسد الطفلة المرافقة نحو ميناء بوسطن، وحين وجدوا الجثة بعد أربعة أيام، وجدوا معها عشرات الوطاويط الميتة العالقة في شعرها الطويل.

تسارعت الدراجة، وخرجت ڤيك، ومعها مئات الوطاويط، ومئات الأفكار والذكريات والأحلام والشعور بالذنب. طارت في الهواء ذكريات قبلتها الأولى للُو، وركوب الرالي تحت ظل الأشجار، وجرح أناملها في أثناء تصليح تِريَمف.

رائع أن تراها تطير وتتحرر، فتتحرر هي من كل ما أسعدها وأحزنها... من كل شيء.

طارت الدراجة في الهواء، ثم هوَت بهما، تتفكك مع كل بوصة تقطعها.

عادت ڤيك إلى الغابة التي قادتها إلى أرض الكريسماس.

توقفت الدراجة ومات محركها أخيرًا. نظرت خلفها، ورأت وُين ينظر إليها وذراعاه تضمانها.

الوطاويط تخرج من الجسر إلى سماء الليل. ببطء وهدوء تهاوى الجسر إلى الخلف، واختفى مُطلِقًا موجة تضاغطية خفيفة داعبت الحشائش كأنها تُقبلها.

ظلت ڤيك وابنها على الدراجة، ينظران إلى الوطاويط الحرة في السماء. صارت ڤيك خاوية من كل شيء إلا الحب الخالص.

حاولت تشغيل الدراجة، لكنها فشلت، وبصقت المزيد من الدماء. سأل وُين بصوته الطفولي المُستجد: «ماذا بها يا ماما؟».

حرَّكت الدراجة إلى الجانبين، ولم تعرف العطل بالضبط، ثم فهمت ڤيك فجأة وقالت: «نفد الوقود».

هلُمُّوا أيها المؤمنون

جاء أكتوبر

جنباريل

استيقظ وُين في يوم أحد من شهر أكتوبر، وسمع أجراس الكنيسة القريبة. أبوه يجلس عند طرف الفراش.

سأله أبوه الرشيق -تقريبًا- بصوت هامس: «بماذا كنت تحلم؟».

هز وُين رأسه وقال كاذبًا: «لا أعرف. لا أتذكر».

قال لُو الجديد: «ظننك تحلم بوالدتك. كنت تبتسم».

- ربما كنت أحلم بشيء ممتع.
- شيء ممتع أم شيء جيد؟ لأنهما شيئان مختلفان.
- لا أتذكر حقًّا.

الكذب أفضل من أن يقول إنه كان يحلم ببراد مَكولاي ومارتا جريجورسكي وأطفال أرض الكريسماس الآخرين. لقد زالت أرض الكريسماس، ولم يعد هناك سوى بياض استاتيكي، يمرح فيه الأطفال ويمارسون ألعابهم.

لعبة ليلة أمس كانت «عُض الأصغر». ما زال وُين يشعر بطعم الدماء في فمه. في الحلم، كان يملك أسنانًا أكثر.

قال لُو: «سآخذ سيارة القَطر. لدي عمل. هل تريد مرافقتي؟ يمكن أن تظل تابيثا هنا معك».

- هل هي هنا؟ هل أمضت ليلتها معك؟

قال لُو وقد تفاجأ بالفكرة التي خطرت على بال ابنه: «لا! أقصد أنني قد أتصل بها وأطلب منها المجيء».

ثم أردف بصوت أكثر عقلانية: «لا أظنني سأرتاح لو أمضت ليلتها هنا... يكون هذا غريبًا على الجميع».

فكر وُين في إضافة كلمة «الآن» إلى نهاية كلام أبيه. ربما يشعر أبوه براحة تجاه مبيت تابيثا هَتر معه لاحقًا، لكن ليس الآن.

ذهبوا إلى السينما منذ ثلاثة أيام، وقد لمح وُين أباه يقبِّل ركن فم تابيثا، وفهم أنها ليست قبلتهما الأولى، كانت عادية، مُتمرَّسة. رأته تابيثا ينظر إليهما، فسحبت كفها من كف لُو.

قال وُين: «لن يضايقني هذا. أعرف أنك معجب بها، أنا كذلك. هي تروق لي».

قال لُو: «وُين... والدتك... أعني، والدتك كانت أقرب شخص لي، وهي...».

- وهي الآن قد ماتت. يجب أن تمرح يا أبي! يجب أن تحظى ببعض المتعة!

نظر إليه لُو نظرة حزينة آسِفة.

- حسنًا. المهم، يمكنك أن تظل هنا إن أردت. تابيثا قريبة ويمكن أن أتصل بها فتحضر خلال ثلاث دقائق.

- كلا. سأرافقك. إلى أين سنذهب؟

جاءت تابيثا على أي حال، ووُين لا يزال بملابس نومه، وأحضرت كرواسون لتتناوله معهما. كانت لتحضر قهوة، لكنها ادعت أنها تحب قهوة لُو. وُين يعرف الحجج والأعذار حين يسمعها، لم يكن هناك ما يميز قهوة لُو، إلا لو كنت تحب قهوتك بمذاق مذيب الشحوم.

كانت قد انتقلت للعمل في دينڤر، لمتابعة تحقيقات مَكوين، وهي قضية لم يُتهم فيها أحد. اتخذت مسكنًا في جنباريل، واعتادت تناول وجبة واحدة على الأقل مع لُو ووُين، وتتحدث عن روايات لعبة العروش.

كان لُو قد قرأ أول كتاب قبل إجراء عملية القسطرة، وتحويل المسار. حين أفاق من التخدير، وجد تابيثا جواره، تزعم أنها قد جاءت للتأكد أنه سيحيا ليُكمل باقي سلسلة الروايات.

سألت تابيثا وهي تراهما يتحضران للخروج: «هل تهربان مني؟».

أجاب لُو: «هناك عمل ضروري».

- في صباح الأحد؟

- الناس لا تكف عن إفساد سياراتها في كل يوم.

تثاءبت... امرأة بشعر مشعث، ترتدي قميصًا مطبوعًا برسم المرأة الخارقة. قالت: «اصنع لي قهوة قبل أن نرحل».

- لستِ مجبرة على الذهاب معنا. قد نتأخر.

- لا يوجد ما أفعل. المجرمون ينامون حتى وقت متأخر. عملت مدة ثمانية أعوام في المباحث الفيدرالية ولم أرَ مجرمًا يطلق الرصاص قبل الحادية عشرة ظهرًا. ليس قبل أن أشرب قهوتي على الأقل.

خرج لُو وتابيثا إلى المرأب لتجهيز السيارة، وظل وُين في الصالة يربط رباطَي حذاءيه حين رن جرس الهاتف.

نظر إلى الهاتف الأسود متعجبًا. الوقت مبكر على استقبال المكالمات. ربما كان المتصل هو زبون أبيه اليوم.

رفع وُين السماعة، فلم يسمع سوى هسيس، تبعه صوت فتاة ذات لكنة روسية تقول: «وُين؟ متى ستعود؟ متى ستعود لنلعب؟».

انعقد لسان وُين، وعادت إليه تفاصيل أرض الكريسماس.

- نحتاجك لنعيد بناء أرض الكريسماس ومتاجرها وألعابها. لا يوجد ما نلعب به هنا. يجب أن تساعدنا. لا يوجد سواك بعدما رحل السيد مانكس.

سمع وُين صوت الباب يُفتح، فأغلق الخط. دخلت تابيثا هَتر وسألته: «هل اتصل أحدهم؟».

أجاب وُين: «مكالمة خاطئة».

يدرك وُين أنه ليس بخير. الأطفال الذين يتلقون مكالمات من الموتى ليسوا بخير. الأطفال الذين يحلمون أحلامًا كأحلامه ليسوا بخير. لكن أكثر ما أقلقه هو شعوره عندما رأى صورة حادث تحطم طائرة. شعر كأنه مشحون بالمتعة والذنب معًا، كأنه يطالع صورًا إباحية.

لم تكن هذه هي المرة الأولى. منذ أسبوعين صدم والده سنجابًا عن طريق الخطأ، فوجد نفسه ينفجر ضاحكًا. نظر إليه أبوه متعجبًا مصدومًا. لم يشأ وُين أن يرى انسحاق السنجاب أمرًا ممتعًا، وحاول إخفاء ابتسامته عن أبيه، لكن حادثًا كهذا من الأمور التي قد تروق للسيد مانكس.

ثم هناك شعوره المستمر أن لديه صفين آخرين من الأسنان، لا يكف عن تحسس موضعهما بلسانه بين الحين والآخر. هو يعرف أن فقده لأسنانه الحقيقية كان محض هلوسة بسبب ما رشه به رجل قناع الغاز، مثله كمثل كل تفاصيل أرض الكريسماس *(أكاذيب!)*، لكن ذكرياته عن تلك الأسنان مختلفة، وأكثر واقعية.

يشعر وُين كأنه طبق كُسر وأعيد لصقه بغير اهتمام. نصف الطبق -حياته مع مانكس- لا يتوافق مع النصف الآخر المؤكَّد. طبق كهذا قد تتساءل عن الفائدة من الاحتفاظ به. لا يشعر وُين بالحزن أو الاكتئاب أو اليأس تجاه ذلك. هو حتى قد استمتع بجنازة أمه.

آخر مرة رآها حية، كانت في سيارة الإسعاف، ثم فشلت محاولات إنقاذها التالية.

ظل ممسكًا بيدها. سألته ووجهها مغطى بالتراب والدماء: «هل أنت بخير يا صغيري؟ الذهب لا يصدأ. أنت بخير، وستكون دائمًا بخير».

كان يعرف ما تقصد، هو ليس كالأطفال في أرض الكريسماس. هي توصيه أن يظل نفسه.

لكن تشارلي مانكس قال شيئًا آخر، الدم لا يُزال من الحرير أبدًا.

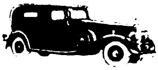

ركب ثلاثتهم في الشاحنة، يجلس وُين بين تابيثا ولُو. مر وقت لم يكن المقعد يتسع لثلاثتهم، لكن لُو الآن قد نحل وتهدل جلده. لكن أكثر ما تغير فيه هي نظرته التي ازدادت وعيًا وهمًّا.

وقف وُين ليُخرج شيئًا من جيبه الخلفي، مطرقة. ليست مطرقة عظام بالطبع، بل مطرقة نجارة عادية. وضعها بينه وبين أبيه.

نظر وُين إلى أوراق الشجر المتساقطة إذ يصعدان الجبل وهمس: «والذهب لا يصدأ...».

سألته تابيثا عما قال، فهزَّ رأسه فقط. مدت تابيثا يدها تشغل المذياع، فصدحت أغنية روك أند رول شعبية. سألت: «أين الحادث؟».

أجاب لُو: «لقد اقتربنا».

- هل أصيب أحد؟

- لقد وقع الحادث منذ فترة.

لم يكن وُين يعرف وجهتهم، حتى مروا بمتجر البلدة على اليسار الذي قد زال منذ عقد تقريبًا. واحدة من مضخات الوقود أمامه متفحمة، والأخرى لم يبقَ منها سوى مواسير. كل شيء قد تغير بعدما توقف تشارلي مانكس في يوم عند المتجر وقرر ملء سيارته بالوقود.

العديد من مناطق جنباريل مهجورة، ولا يبدو منظر المتجر شاذًّا عن العادي.

سألت تابيثا هَتر: «فيمَ تفكر يا سيد كارمودي؟».

- شيء أوصتني به ڤيك.

- ربما كان الأفضل ألا تجلب وُين.

قال لُو: «الحقيقة، كان الأفضل ألا تحضري أنت. أخطط للتلاعب بالأدلة».

- أوه! لا بأس، أنا في إجازة اليوم.

انعطف بعد المتجر إلى الطريق المؤدي إلى بيت الزلاجة. تشوش صوت المذياع قليلًا. لا يستطيع أحد استقبال موجات راديو في محيط المنزل، حتى إن سيارة الإسعاف قد وجدت صعوبة في المتابعة مع المستشفى. هو شيء له علاقة بالجبال التي تحجب الإشارة.

حين وصل لُو قرب المنزل، لم يتبقَّ شيء من صوت المذياع إلا تشويش استاتيكي. عاد لوُين صور الأطفال الذين يسبحون وسط التشويش. يستطيع الآن أن يسمع عبر المذياع ضحكاتهم بعيدة خافتة.

وضع لُو يده على ركبة وُين مطمئنًا وقال: «لا تخشَ شيئًا. أنت في أمان».

أومأ وُين شاعرًا بالحماس. الأطفال الآخرون في مكان قريب للغاية، ينتظرون عودته لتشييد أرض الكريسماس. هو يحتاج شيئًا يمزق به الستار بين العالمين، بين الواقع وخياله.

شعر وُين بطرف المطرقة الحديدي جواره، ونظر إليها متسائلًا: *ربما؟* تخيل صوتها تضرب العظام وتهشمها. ارتعد جسده حماسًا. *اضرِب بها رأس تابيثا هَتر الذكي اللعين. حطِّم وجهها، وهشِّم أسنانها. هذا ممتع.*

بعدما ينتهي منهما، سيسير إلى السور الذي يفضي إلى أرض الكريسماس. سيكسر أحجاره بالمطرقة حتى يوسع لنفسه معبرًا خلاله. سيحطم ستار الواقع ويعود إلى حيث ينتظره الأطفال.

وهو يفكر في هذا الخاطر المثير، مد والده يده وأخذ المطرقة، بينما فكَّت تابيثا حزام مقعدها ونزلت من الجهة الأخرى.

الأشجار تتمايل، فتلمع الزينة المعلقة على أغصانها تحت ضوء الشمس. نظر لُو إليها، ثم انتقى منها واحدة -ملاك أبيض- حطمه بالمطرقة.

فكر وُين في أن يدهمهما بالسيارة. تخيل صوت جمجمتيهما تنفجران تحت السيارة، وابتسم. تحركت تابيثا بين الأشجار مبتعدة. تململ وُين ونزل من السيارة.

الرياح تعصف بشعره الناعم.

ظل لُو يُنزل الزينة، ويطوحها في الهواء، ثم يهشمها قبل أن تلمس الأرض، فتنفجر بالشظايا الفضية.

سمع وُين الراديو يذيع أغنية كريسماس، ينشدها كورال أطفال. أغنية عن المؤمنين.

تعرَّق لُو، فخلع سترته، وأكمل ما يفعل. سألته تابيثا: «لماذا تفعل ذلك؟».

- لأن واحدة من هذه المعلقات تُمثله. حطمت ڤيك زينة شجرة الميلاد، وأريد أن أحطم ما تبقى هنا.

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- لا تعتقليني.

نظرت تابيثا إلى وُين وقال والريح تتزايد: «هل تريد مساعدة أبيك؟ يبدو هذا ممتعًا».

استخدمت تابيثا كعب مسدسها، واستخدم وُين حجرًا. علا صوت أغاني الكريسماس في المذياع، فانتبهت لها تابيثا. تجاهل لُو الصوت وأكمل تحطيم الزينة. بعد هنيهة، اختفى صوت الغناء وعاد التشويش.

حطم وُين تماثيل الملائكة التي تحمل المزامير، والتي تحمل القيثارات، والتي تضم كفيها مُصلية. ثم حطم سانتا ورنَّاته وأقزامه. في البداية كان يضحك، ثم آلمته أسنانه. اشتعل وجهه بالحمى، ثم برد برودة حارقة.

كان يحطم كرة زرقاء، حين لمح حركة خارج مجال إبصاره. ثمة فتاة تقف جوار أطلال بيت الزلاجة، ترتدي فستانًا أبيض ملطخًا بالدماء، وتبكي في صمت.

همست شيئًا أقرب لـ: «بوموش»، لكن الرياح حملت صوتها بعيدًا. لم يسمع وُين من قبل كلمة «النجدة» بالروسية، لكنه فهم ما قالت.

لمحت تابيثا وُين وهو يحدق إلى البيت، ورأت الفتاة. همست: «إلهي! لُو!».

حدق لُو إلى الفتاة الروسية التي اختفت في عام 1991، ولم يُفاجأ. بدا متعبًا شاحبًا لا أكثر.

- يجب أن أتخلص من الباقي يا تابيثا. هل يمكنك أن تساعديها؟

نظرت إليه في قلق، ثم التفتت نحو المنزل. خرج طفل آخر من خلف الطفلة، براد مَكولاي. نظر حوله في ذعر، ثم تهدجت أنفاسه بالبكاء.

ترنح وُين وهو ينظر إلى براد الذي رآه في حلم أمس. كاد يسقط لولا تلقفه أبوه.

- وُين! امسح وجهك في قميصي لو أردت.

- لماذا؟

- أنت تبكي يا صغيري.

رفع لُو يده بزينة على شكل هلال محطم، وأضاف: «لقد كنت تبكي منذ فترة. هذا هلالك، أليس كذلك؟».

شعر وُين بجسده يرتجف من شده الانتحاب، لكن لم يخرج أي صوت من حنجرته. بخرت الرياح القوية دموعه، وتداعت قدرته على التحكم في نفسه، فدفن وجهه في صدر أبيه.

همس بصوت غريب خشن: «أنا آسف».

حرك لسانه في فمه، فلم يعد يشعر بأسنانه الخفية. تمسك بأبيه أكثر كي لا يهوي، وأردف: «أنا آسف يا أبي.. آسف...».

- لأي شيء؟

- لا أعرف. آسف لأنني أبكي. لقد لوثت قميصك بالمخاط.

- لا يعتذر أحد عن البكاء يا صاح.

- أشعر أنني مريض.

- أعرف.. لا بأس. أنت تعاني حالة «الإنسانية».

- وهل يموت المرء من حالة الإنسانية هذه؟

- أجل. هي مميتة دائمًا.

أومأ وُين ثم غمغم: «هذا مطمئن».

وصل إليهما صوت تابيثا الواثق الهادئ يسأل الطفلين عن اسميهما، وتطمئنهما. ألحت على وُين فكرة غريبة، أنه لو التفت خلفه لرأى العشرات منهم، يخرجون من خلف الأشجار، تاركين عالم الاستاتيكية.

سمع بعضهم ينتحب. يبدو أن حالة الإنسانية مُعدية، سريعة الانتشار.

- أبي. هل يمكن ألا نحتفل بالكريسماس هذا العام؟

- لو حاول سانتا التسلل عبر المدخنة، سأرسله إلى أعلى وحذائي مندس في مؤخرته. هذا وعد.

ضحك وُين.

من بعيد تردد صوت محرك دراجة بخارية. راودت وُين أمنية، ربما تكون القادمة والدته. لقد عاد الأطفال من وضع أشبه بالموت، فلمَ لا تعود أمه؟

فطن وُين إلى أن العابر شخص عادي، يشق الطريق تحت ضوء الخريف الدافئ.

أتى الخريف، وسيلحق به الشتاء قريبًا، لكن ما زال هناك وقت للدفء ولركوبة هادئة تحت الشمس.

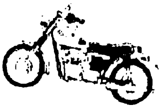

بدأت كتابة الرواية في يوم الرابع من يوليو عام 2009

انتهت في موسم الإجازات عام 2011

چو هيل-إيكزيتر-نيو هامبشير

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook